سقوط العثمانيين

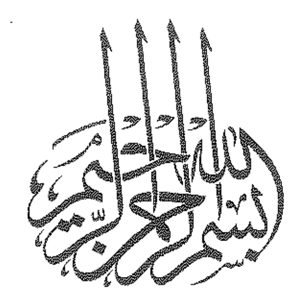
الحرب العظمى في الشرق الأوسط

تأليف
يوجين روغان

ترجمة
معين الإمام



منتدى العلاقات العربية والدولية


بسم الله الرحمن الرحيم

سقوط العثمانيين

الحرب العظمى في الشرق الأوسط

تأليف

يوجين روغان

ترجمة

معين الإمام



الفهرسة أثناء النشر - إعداد منتدى العلاقات العربية والدولية

روغان، يوجين

سقوط العثمانيين : الحرب العظمى في الشرق الأوسط / تأليف يوجين روغان ؛ ترجمة معين الإمام.

608 ص. ؛ 24 سم.

يشتمل على ببليوغرافية (ص. 565 - 585) وفهرس عام (ص. 591 -608)

ISBN 978-9927-126-42-0

1. العثمانيون. 2. الإمبراطورية العثمانية - تاريخ. 3. الإمبراطورية العثمانية - عصر الضعف. 4. الإمبراطورية العثمانية – سقوط، 1923. 5. تركيا – تاريخ – العصر العثماني أ. الإمام، معين.

956.102

Eugene Rogan, *The Fall of the Ottomans: The Great War in the Middle East*, New York: Basic Books, 2015.

الطبعة الأولى

منتدى العلاقات العربية والدولية

الدوحة - قطر 2018 م

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية: 2018/100م

"الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي منتدى العلاقات العربية والدولية"



هاتف: 44080451 974+ فاكس: 44080470 974+ صندوق بريد: 12231
الموقع الإلكتروني: fairforum.org البريد الإلكتروني: info@fairforum.org
العنوان: مبنى رقم 28، المؤسسة العامة للحي الثقافي (كتارا)، الدوحة، قطر

إهداء إلى

إيزابيل توي وودز روغان

المحتويات

مقدمة الناشر
تعقيب على مسألة الأرمن

د. محمد الأحمري

ليس بالإمكان كتابة تعليق واف هنا على رؤية المؤرخين للحوادث التي جرت بين الأرمن والأتراك في بدايات القرن العشرين الميلادي، ولا الوقوف التفصيلي عليها في حيز صغير وتعليق على كتاب مهم في تاريخ عالمنا. غير أن من المهم أن نشير إلى أن التاريخ أشبه بمستودع للأسلحة التي يعاد استخدامها للاقتصاص أو الكيد أو تسخير الماضي لمكائد الحاضر وخلافاته، مهما كان بعيدًا جدًّا، لتحقيق مصلحة أو لكيد أو لحرب أو لهدم مجتمع قائم وتمزيقه. فما زال الإنسان كلما احتاج إلى كيد خصومه فتح خزانة التاريخ، واختبر أسلحتها، واستل منها ما يراه سلاحًا ماضيًا مؤثرًا، ويغفل وينسى أو يتناسى جرائمه هو ولو كانت مشهودة للعيان أو تجري جرائمه يوميًّا، فالمهم لدى الإنسان بعث السلاح الميت والكيد للحاضرين ولو كذبًا وتزويرًا، وتجريد خصومه من كل حججهم التاريخية.

وإن من المهم هنا الوعي بمخاطر هذه الخزائن التاريخية، وبالشرور الكامنة فيها، وعواقب سوء استخدامها، فلا تلبث أن تنفجر بأيدي وفي وجوه مستخدميها من آن إلى آخر. وحين كنت أكتب هذه المقدمة لاحت في ذهني مجموعة من خزائن التاريخ المضرة بالناس، فإذا بها حشد لا يحصى ولا ينتهي، ولهذا كان النسيان أو التناسي من وسائل حفظ

السلام العالمي. وليس بعث الفتن المدمرة إلا شر محض على كل متعامل معه بنية الانتقام والرد، ولذا فإن على المؤرخ أن يتعامل بحذر شديد مع الماضي ويعي آثاره، فإننا مهما حذرنا من سموم التاريخ فسنجد من يبعثها من يوم لآخر. ومن هنا فإن التاريخ ليس رحلة ممتعة لكاتبه ولا لقارئه كما يخيل قوم، بل هو سير بين الألغام، وزرع للمحبة والثقة والسلام رغم التراث، وهو ليس مسيرة متقدمة دائمًا، ففيه من الانتكاسات والتدمير ما يشل يد وفكر من يسيء استخدامه، فأي أمة لم تسئ وأي حاكم لم يجرم أو يخطئ وأي قومية أو أمة لم تتحيز؟ إن البحث تحت هذه العناوين يجرد المزايدين على ذواتهم من الصدق، لكن خلل دون خلل وشر دون شر، فنرفع ممن غلب عليه الخير لا لقيمة في ذاته، ولكن لقيمة وموقف نحتاج صناعته للمستقبل، وليس لتفاخر ولا مقارنة بماض وماض آخر.

إن التاريخ إن كان ذاكرة فإن هذه الذاكرة تحتاج إلى حسن إدارة، وإذا كان عملًا مستقبليًّا فإنه يحتاج إلى الحذر في التعامل مع أسلحته، وإن كان دروسًا فهو يحتاج إلى التصديق والتكذيب أيضًا، وإن كان تقدمًا فيحتاج إلى التوجيه، وإن كان رجوعًا فإنه يحتاج إلى الخلاص من كثير من أثقاله.

ثم التعامل الحصيف مع الذاكرة الجمعية لا يقل فائدة للناس من النسيان، فما جرى على لسان الرئيس الأمريكي ترمب في يناير 2018 من بعث العنصرية مثلًا، كان شاهدًا على سوء استخدام الحمقى للتاريخ العنصري وللعرقية وسوء التدبير أو خلل التعامل مع التاريخ والواقع.

وللحق فإن المؤلف هنا كان أكثر اعتدالًا في تناوله عددًا من القضايا التاريخية، ويبقى ابن أمته وسلالة محاربين لقضاياها، ولكنه أدرك حقًّا بعض مخاطر التاريخ، فلم يتساهل ولم ينقد تمامًا للغة سابقيه. وهنا قضايا كثيرة تستحق النقاش، ولكن نقتصر على مثال واحد وهو ملف القضية الأرمنية، فإن من المؤرخين من صنعوا من أنفسهم محامين لطرف ضد آخر. ومن المؤكد أن من كان ينتصر للموقف الأرمني لن يسره نقاش هذا المؤرخ هنا، ومن كان ينتصر للموقف التركي لن تعجبه معالجة المؤلف لهذا الملف الذي يرونه "بُعث أخيرًا للنيل من الترك".

فقد خفف المؤلف من التشنج الذي يكتب به غربيون وأرمن أحداث ذلك الزمن، وحاول أن يسوق الأحداث بتوازن أحيانًا، مع بقائه داخل معسكر قومه. غير أن هذا الموقف يحسب له لا عليه. فقد حاول الإنصاف في ذكر ما يسميه الغربيون المذبحة الأرمنية، أو الإبادة الجماعية الأرمنية، مع تجاهلهم المذابح التي طالت الأتراك، خاصة تلك القرى المعزولة التي أبيد سكانها من قبل الأرمن.

يجب أن ينظر القارئ إلى ذلك من جهات عديدة، فالتاريخ ليس نصًّا منجزًا نهائيًّا ولا حقيقة واحدة يسوقها مؤرخ واحد، خاصة في زمن توفرت فيه معلومات كثيرة من الطرفين، وكل يرجع إلى وثائق، فالغربيون يرجعون إلى مراجعهم وقليلًا ما يعتمدون المراجع العثمانية وكذا الأتراك. لكن الأتراك انقطعوا ثقافة وتاريخًا عن الحوادث والزمن الذي وقعت فيه، فأصبح التركي المعاصر يتعامل مع لغة وتاريخ منقطع آخر، ولهم منذ الأتاتوركية دولة بديلة كاملة الانفصال عما سبقها. فالسلطنة العثمانية ليست الجمهورية التركية، ونحن بصدد موقف غربي فكري وسياسي من العثمانيين والأتراك، وهو موقف منذ الأمس لم يتغير كثيرًا رغم ما جرى على الأرض العثمانية أو التركية لاحقًا من قطيعة ثقافية وسياسية.

فهناك مركزية غربية مرجعية في تعامل الغرب المسيحي مع التاريخ العثماني الإسلامي، وهو تاريخ ممتلئ ومدفوع بالكراهية والانتقام التاريخي بأي طريقة، فلن ينسى المسيحيون الغربيون خاصة انتزاع إسطنبول جوهرة المسيحية الشرقية أبد الدهر، فهو غرب يتمتع بموقف انتقامي أعمى. ولعل أبرز شواهده ما حصل في التمارين العسكرية للناتو أواخر عام 2017، فمع أن تركيا كانت وما زالت صاحبة أكبر جيش من مكونات الناتو بعد الجيش الأمريكي، فإن الغرب لم يقبل هذه الحقيقة ولا هذا الحلف العسكري، وبقي يحاكم الأتراك اليوم على أنهم المسلمون أعداء أوروبا المسيحية، وأبرزوا صورًا وشعارات في المناورات تشير إلى أن أتاتورك وأردوغان أعداء أوروبا!

وكانت أزمة انسحب على إثرها الأتراك من تمرينات الناتو، وحصل اعتذار شفهي وكتابي وشخصي للأتراك. لكن أمام أعين الجميع نرى كيف تحرف المعاهدات والنظم والقوانين وتكسر الحقائق لمصلحة تاريخ ومواقف دينية وعرقية مسبقة. فأتاتورك يراه كثيرون ممثلًا

للثقافة والرؤية الغربية المعادية للخلافة العثمانية. وقد أزال الخلافة التي مثلت رعبًا دائمًا لهم، فلماذا يعير الغرب حكومة العدالة والتنمية وأردوغان بأنهم أصحاب رؤية لخلافة عثمانية متجددة أو أنهم "العثمانيون الجدد"؟

لم يقبل الغرب قُرب الأول منهم ولا قبلوا بُعد الأخير الآن؛ لأن الأول أسس حياة جديدة مقتربة منهم، ولكنها مختلفة، والأخير يتهمونه بالبعد عنهم، وكأن المطلوب صناعة حكم يشلّ تركيا تمامًا ويجعلها لزمن طويل بين الحياة والموت، بلا فكرة ولا قضية ولا هوية، لا تنفع صديقًا ولا تضر عدوًّا، وتكون مجرد مكان توليد عدد هائل من المستهلكين والأيدي العاملة المهاجرة أو المقيمة في مصانعهم، ويستوردون منها العقل الذكي خامًا بلا دين ولا قضية، كاليد المحايدة الأشبه بالآلة، ومكانًا يستقبل سواحهم ويوفر لهم متعتهم الرخيصة دون أي مكانة إنسانية، كما درجت على ذلك محطات سياحية كثيرة خلدت إرث المستعمرات متعددة الخدمات.

من تلك الظروف التاريخية، بل من منظار واحد للتاريخ، يصرون على صناعة "المحرقة" أو المذبحة، أشبه بعقدة "الذنب الأول" ليعيق ويحقر ويدين تقدم الشخصية التركية، لتكون الشخصية التركية معاقة ومراقبة، كالشخصية الألمانية، ولتكون بهذا التعيير وتقرير الإدانة مجرد نموذج آخر للنازية، ويسيطر هذا على السياسيين والمؤرخين الغربيين، إذ يحرصون على وصم الشخصية العثمانية بعيب تاريخي يلازمها، كما قرروا أن يلازم الشخصية الألمانية المعاصرة بتاريخ النازيين*. لعل هذا ليعيق المستقبل ويمنع القوة والنفوذ، لكن أليس هذا التعيير يمهد لردود متطرفة تخرج من هذا الوصم؟

ثم تأتي مسألة الاعتراف بهذه المذابح، فكيف يمكن تعويض الأتراك والأرمن عن الماضي، خاصة أمام موقف غربي يعترف ببني دينه ويعادي وينكر خسارات ومذابح حصلت للطرف الآخر؟ وهل يمكن أن يعترف المسيحيون الغربيون بالمذابح التي نفذوها في المسلمين، وفي زماننا، ونفذها قوم ربما بعضهم أحياء كمذابح الجزائريين على أيدي الفرنسيين وهي أشنع؟

---

* وردت بعض أفكار هذا التعليق في كتاب المؤرخ التركي ألبر أورتايلي، نحن وتاريخنا، ترجمة عبد القادر عبد اللي (بيروت: الدار العربية للعلوم، 2015)، ص 202-208.

والطريف أن البرلمان الفرنسي أقر مذابح الأرمن قبل مئة عام، ورفض الاعتراف بمذابح الجزائريين الأشنع والأقرب، والتي انتهت عام 1962.

لن يكون المؤرخ أمينًا لقرائه حين يتنكر للظروف الحربية والسياسية المحيطة بأي حدث، ولم نجد الغربيين يهتمون بالإنسان خارج بلادهم ولا يناقشون مهمات تاريخه، ولا يقبلون التهم ولا المعلومات ولا الحقائق حين تمس حكوماتهم وتاريخهم وممارساتهم، ويفتشون في كتب الآخرين وفي كتبهم عن أي خطأ أو جريمة للآخرين، و"لكن للقوي رب غفورٌ".

إن قصة الأرمن من النماذج التي تصلح في عصرنا لنقاش المركزية الغربية في سوء استخدام التاريخ وفي تعاطيه سياسيًّا؛ فما حصل للأرمن جريمة عظمى لأنها تمت بأيدي خصومهم من المسلمين، وما فعله الأرمن ليس فيه خطأ لأنه من فعل أصدقائنا الآن، أو من سنستخدمهم الآن ضد خصومنا. وفي النهاية المذابح تتحول إلى غنائم سياسية فقط، يمكن استخدامها ضد الخصوم والسكوت حين لا يصبح الحدث مهمًّا للسياسة الجارية. وفي موقف أمريكا من الأكراد زمن قيادة البارزاني الأب ومراسلاته مع كيسنجر، ثم تخليه التام عنه بعد صلح الجزائر 1975 مثال يتكرر، إذ يستخدمون شعوبًا وقوميات وأقليات لتدمير قوى صاعدة، أو لإخضاع حاكم أو لتمرير غنيمة، ثم يتركونها في العراء. وقد طمع البارزاني الابن عام 2017 في الاستقلال وعاش على أماني التأييد الصهيوني، وأجرى استطلاعًا فاق 95٪ ولكن الجميع تركه يوم لاحت منافع أخرى، وسقط الاستفتاء على الاستقلال.

أما موقف دول كثيرة في الاتحاد الأوربي، وهو ناد مسيحي مغلق في وجه المسلمين، فهو من نماذج استعادة التاريخ واستخدامه. فما يقوم به بعض السياسيين والمثقفين الغربيين من اشتراط إقرار تركيا بإبادة الأرمن لتحوز على قبولها في الاتحاد الأوروبي مغالطة تاريخية؛ لأنهم يصنفونها بحسب التجربة الأوروبية تشابه مذبحة اليهود، ليبتزوا تركيا زمنًا طويلًا مستقبلًا بهذه الحجة، كما يفعل اليهود مع الألمان والأوروبيين وغيرهم، بينما الوثائق التاريخية والعثمانية والروسية والأمريكية تشهد بوجود مذابح للمسلمين الأتراك، وإفراغ قرى كاملة من سكانها على أيدي الأرمن. فالواقع التاريخي يثبت ممارسات من الطرفين، وأنه كانت هناك مواجهات عسكرية بين طرفين مسلحين، وفي هذه المواجهات الكبيرة يفقد كثير من الأبرياء حياتهم وحرياتهم وثرواتهم. ولعل الاطلاع على تقرير البعثة الأمريكية التي بدأت جولتها وبحثها

الميداني في مناطق المواجهات التركية الأرمنية الكردية يوم 16 أغسطس 1919، ما يلقي أضواء كاشفة حقيقية وميدانية ومعاصرة على تلك المشكلة. ويخلص تقرير البعثة الأمريكية "اللجنة الأمريكية لعمليات الإغاثة في الشرق الأدنى" إلى القول: "واحدة من الحقائق التي تغلبت علينا في كل نقطة من بتليس إلى طرابزون بسبب الفظائع التي ارتكبها الأرمن ضد الأتراك، وفي مناطق أخرى ارتكبها الأتراك ضد الأرمن في بادئ الأمر، كنا متشككين في القصص التي رويت لنا، لكن شهادة الشهود، والحماسة الواضحة التي روت لنا الأفعال السيئة التي حدثت هنا كراهيتهم الواضحة للأرمن، والأكثر من هذا الدلائل على الأرض نفسها، أقنعتنا بأن الحقيقة هي تلك، بأن الأرمن ذبحوا المسلمين على نطاق واسع، وبكثير من القسوة والوحشية"*. وقد أنكر المؤرخ الصهيوني برنارد لويس ما وصف بأنه مذبحة للأرمن، ربما لأسباب أخرى، وحجته أن حركة الأرمن كانت قتالًا للأتراك، ولم يقتلوا بدم بارد كما يمكن أن توحي كلمة مذبحة. وأيضًا فإن لكلمة مذبحة تعريفًا قررته الأمم المتحدة وقررته محكمة نورمبرج التي حوكم فيها النازيون، لكن ما حدث من مواجهات تركية أرمنية لا ينطبق عليه هذا الوصف**.

وهناك حقيقة تاريخية، وهي أن أنور باشا أصدر قرارًا في مايو 1915 بتهجير بعض الأرمن من مناطق "وان"، بعد مذابح متبادلة بين الأرمن والترك، وبعد تهجير روسيا للمسلمين من أراضيها ودفعهم باتجاه تركيا***. بعد هذا القرار بأقل من أربع سنوات وتراجع الأزمة أصدرت الحكومة التركية بتاريخ 1919/1/4 قرارًا بإعادة المهجرين من الأرمن إلى ديارهم، وشمل القرار تفاصيل ما يجب أن يوفر لهم من مساعدات إعاشة ومصاريف تيسر عودتهم وتصرف من وزارة الحرب. وقد نص القرار على إعادة الممتلكات العامة كالكنائس والأوقاف والممتلكات الخاصة، مع تأكيد حق الذين اهتدوا إلى الإسلام من رجال ونساء في

---

* تقرير نايلز وس. لاند، ترجمه ونقله أحمد الشرقاوي في كتاب مذابح الأرمن ضد الأتراك في الوثائق العثمانية والروسية والأمريكية (القاهرة: دار البشير، 2016)، ص 334.

** لوموند، 16 نوفمبر 1993م. وبسبب موقفه هذا رفعت عليه أربع قضايا في المحاكم الفرنسية.

*** يوسف حلاج أوغلو، تهجير الأرمن 1914-1918: الوثائق والحقيقة، ترجمة أورخان محمد علي (بيروت: قدمس، 2010)، ص 59.

العودة إلى دينهم إن شاءوا وكذا المتزوجات من مسلمين، وإجراء الأحكام ذات العلاقة*. ولو نقارن أزمة حرب وعصيان وولاء للعدو زمن الحرب في هذه الحادثة بما يحدث أمام أعيننا من اغتيال للفلسطينيين، وتهجير دائم ونظام وقرارات تهجير فعلية وإبادة مستمرة، مع تأييد مطلق من القوى المسيحية العالمية للمجرمين، لرأينا مقدار النفاق الذي يمارسه المنتقمون من المسلمين الآن، فهم واقعيًّا يحملون المسلمين جريرة مشكلة الرومان مع اليهود قبل أكثر من ألفي عام في فلسطين حين هجروا اليهود، أو جريمة الألمان في ذبح اليهود أثناء الحرب العالمية الثانية، ويجب اليوم على العرب أن يذوقوا العذاب والتهجير والإبادة نيابة عن الرومان قبل آلاف السنين، أو نيابة عن الألمان، ثم ينظرون بعين العطف إلى الأرمن قبل أكثر من مئة عام، ولا يرون مأساة الإنسان الفلسطيني اليومية أمام أعينهم. ثم هم يبحثون في فرنسا مشكلة الأرمن قبل قرن ولا يرون مشكلة الجزائريين، وبعض الجنود والقادة الذي قاموا بالإبادة ما زالوا أحياء يتحدثون بما حدث في نهاية الخمسينيات وبداية الستينيات الميلادية من القرن العشرين قبل الاستقلال 1962!

إن القوة المنتصرة لا تكتب التاريخ فقط، بل تعيد صناعة التاريخ وتوجيهه ليضمن مصالحها ويقمع خصومها، وتصنع معايير للأخلاق وللأمم وفق مصالحها، فتنفي تاريخًا وتثبت غيره، وتطلب بعدالة هنا، وتصنع جريمة هناك، لهذا فنحن في مواجهة إكراه إمبراطوري على امتلاك ذاكرة أعيد تصنيعها وصياغتها وفق المصلحة السياسية الجارية.

إننا لا نجيز تلميع تاريخ المسلمين قديمًا ولا الترك حديثًا؛ فالتاريخ مليء بالمآسي والأحزان والجرائم، كما يمتلئ بالخير والشر، وليس للعقلاء أن يسمحوا لمخازن المآسي التاريخية أن تفيض عليهم فتغرقهم، وتنشر الشر القديم والحديث بينهم من جديد.

ختامًا، فالكتاب مهم للقارئ العربي ومليء بمعالجات قضايا ذات صلة بعالمنا تحتاج إلى تعليقات مطولة، خاصة بعض ما يمس العرب في ذلك الزمن ودورهم ومصيرهم بعد الحرب العالمية الأولى، ولكن هذا يحتاج إلى بحوث أطول أشبه بكتاب مواز، فتجنبنا ذلك ليكون له مكان آخر.

---

* أوغلو، ص 83-84.

لائحة الخرائط

ملاحظة على المصطلحات

من الممارسات المعيارية التي شاعت في أوائل القرن العشرين الإشارة إلى الامبراطورية العثمانية باسم تركيا. ولا ريب في أن هذا الاستخدام تجاهل التنوع الإثني والديني فيها، حيث تمتع العرب والكرد واليونان والأرمن بالحق في الهوية العثمانية كالترك تماماً. لكن من أجل تجنب التكرار الممل لكلمة "عثمانيين" في الصفحات اللاحقة، تبنيت هذا الاستخدام واستعملت مراراً "التركي" و"العثماني" بطريقة تبادلية، ولاسيما عند الإشارة إلى الجيش. وكلما رغبت في تمييز جماعة إثنية أو دينية محددة عن الأغلبية التركية، لجأت إلى تعبير "العرب العثمانيين" أو "الأرمن العثمانيين".

تعمدت الإشارة إلى المدن بأسمائها التركية الحديثة بدلاً من الصيغ الأوربية الكلاسيكية التي شاع استعمالها في بدايات القرن العشرين. وهكذا، استخدمت "إسطنبول" بدلاً من "القسطنطينية"، و"إزمير" بدلًا من "سميرنا"، و"طرابزون" بدلاً من "تربيزوند"، آملاً بأن يجد القراء من الأسهل تحديد مواقع هذه المدن على الخرائط الحديثة.

مقدمة

قتل وكيل العريف جون مكدونالد (19 عاماً) في غاليبولي في 28 يونيو 1915. ما كان ليعرف طبعاً أنه شقيق جدي.

لم يوجد في حياة جون ما يجعله يتجهز للموت في أرض نائية. فقد ولد في قرية اسكتلندية صغيرة بالقرب من بيرث، ودرس في أكاديمية دولار، حيث التقى بأعز أصدقائه تشارلز بيفريدج. ترك الاثنان الدراسة معاً في الرابعة عشرة للبحث عن عمل، ثم انتقلا إلى غلاسكو حيث وجدا عملاً في شركة "نورث بريتش لوكوموتيف". وحين اندلعت الحرب في أوربا صيف عام 1914، انضم مكدونالد وبيفريدج سوياً إلى فوج حملة البنادق الاسكتلنديين (يعرفون أيضاً باسم Cameronians). عيل صبر المجندين في الكتيبة الثامنة من الفوج بعد أن قضوا الخريف في التدريب، ونظروا بعين الحسد إلى الكتائب الأخرى التي سبقتهم إلى ميدان المعركة في فرنسا. ولم يستدعوا إلى الخدمة إلا في أبريل من عام 1915، لكنهم أرسلوا إلى تركيا العثمانية لا فرنسا.

ودع الشابان الأهل والأصحاب في 17 مايو 1915، حين انطلقت الكتيبة إلى الحرب. أبحرت أولاً إلى جزيرة ليمنوس اليونانية، التي كانت نقطة تجمع للقوات البريطانية والحليفة قبل النزول على شاطئ غاليبولي. وعندما اقتربت من ميناء مودروس في الجزيرة (29 مايو) – بعد شهر من الإنزال في غاليبولي– مرت بأسطول من السفن الحربية وسفن النقل الراسية. ملأت الرهبة نفوس المجندين الشباب حين شاهدوا البوارج الضخمة -وبعضها من أكبر

السفن العائمة في العالم. حمل كثير منها آثار القتال العنيف في الدردنيل، فقد امتلأت هياكلها ومداخنها بالثقوب التي خلفتها قذائف المدفعية التركية وبطارياتها الأرضية.

منح الاسكتلنديون أسبوعين للتأقلم مع صيف شرق المتوسط قبل خوض المعركة. في منتصف يونيو، أبحروا إلى ميناء مودروس، وحيتهم هتافات الجنود والبحارة على أسطح السفن الراسية. ولم يمتنع عن التهليل إلا أولئك الذين كانوا في غاليبولي وعرفوا ما ينتظر المجندين الشباب ووجوههم النضرة. تذكر أحد جنود الفوج الاسكتلندي: "هتف بعض رفاقنا حين شاهدوا سفينة محملة بالجرحى والمرضى الأستراليين بالعبارة الشائعة آنذاك: 'هل معنوياتنا ضعيفة؟ لا!'. وعندما رد بعض الأستراليين الهازلين: 'سوف تضعف قريباً'، لم يصدق شبابنا، مع أنهم فوجئوا"[1].

في 14 يونيو، نزلت الكتيبة الثامنة من الفوج بكاملها على الشاطئ بأمان. وبعد أربعة أيام انتقلت عبر الوادي المعروف باسم "غولي رافينز" إلى الخط الأمامي. وفي مواجهة نيران المدافع الرشاشة والمدفعية التي اشتهرت بها غاليبولي، سقط أول الضحايا من حملة البنادق الاسكتلنديين في الخنادق. وبحلول الوقت الذي تلقوا فيه الأوامر بالهجوم على المواقع التركية، فقدوا حماستهم الصبيانية. ومثلما كتب أحد الضباط متأملاً: "بغض النظر هل تمثل السبب في هاجس مسبق أم إجهاد المسؤولية الملقاة على عاتقي حديثاً، لم أكن أشعر بفرحة النجاح" التي عمت الجنود[2].

سبق الهجوم البريطاني في 28 يونيو قصف تمهيدي مدفعي من البحر استمر ساعتين. لكنه غير فعال كما أفاد الشهود -لم يكن قوياً بما يكفي للتأثير في عناد الجنود العثمانيين وإجبارهم على التخلي عن مواقعهم الدفاعية. بدأ الهجوم البريطاني حسبما هو مقرر في الساعة 11:00. وكما هي الحال في الجبهة الغربية، تسلق الرجال الخنادق على زعيق الصافرات. وعندما خرج الجنود الاسكتلنديون منها واجهوا رصاص الجنود العثمانيين الذين تشبثوا بمواقعهم، دون أن يردعهم قصف السفن البريطانية. وفي مدة خمس دقائق، أبيدت الكتيبة الثامنة من فوج حملة البنادق الاسكتلنديين عن بكرة أبيها. توفي جون مكدونالد نتيجة الجراح التي أصيب بها في مستشفى ميداني، ودفن في مقبرة لانكستر لاندنغ

(في منطقة الإنزال). أما تشارلز بيفريدج فلم يتمكن حملة النقالات من الوصول إلى أشلائه، ولم تستعد رفاته إلا بعد الهدنة عام 1918، لكن تعذر تمييز عظامه عن عظام رفاقه الذين سقطوا حوله. ولذلك، دفن في مقبرة جماعية ونقش اسمه على النصب التذكاري المهيب في "كيب هيليس" (غاليبولي).

سبب مصير الجنود الاسكتلنديين صدمة وحزناً لأصدقائهم وعائلاتهم في الوطن. نشرت أكاديمية دولار نعياً لكل من مكدونالد وبيفريدج في عدد الخريف من مجلة المدرسة الفصلية. حيث وصفت الشابين بأنهما أفضل صديقين: "عملا معاً، وعاشا في السكن معاً، والتحقا بالجيش معاً، ولم يفرقهما حتى الموت. شابان من معدن أصيل". واختتمت بالقول: "جديران بالموقع الذي احتلانه". ثم عبرت المجلة عن تعاطفها مع آل الفقيدين في مصابهم الأليم.

في الحقيقة، ثبت أن الحزن أكبر من أن يحتمله الوالدان. فقد اتخذ آل مكدونالد، بعد سنة من وفاة ابنهما الوحيد، قراراً غير عادي بمغادرة اسكتلندا زمن الحرب والهجرة إلى الولايات المتحدة. وفي أثناء توقف مؤقت لهجمات الغواصات الألمانية على سفن الشحن عبر الأطلسي في يوليو 1916، ركب الوالدان مع اثنتين من البنات سفينة متجهة إلى نيويورك تحمل اسماً مؤثراً يذكر بحملة البنادق الاسكتلنديين (*SS Cameronia*). لم ترجع العائلة قط. فقد استقرت في نهاية المطاف في أوريغون، حيث تزوجت جدتي لأمي وأنجبت أمي وخالي. وفي الحقيقة، يدين الجميع مع ذريتهم بالفضل إلى موت جون مكدونالد المبكر.

لا تعد صلتي بالحرب العالمية الأولى فريدة من نوعها. فقد وجد استطلاع أجرته وكالة "يوغوف" (YouGov) أن نسبة 46 في المئة من البريطانيين يعرفون فرداً من العائلة أو عضواً في المجتمع المحلي خدم في الحرب العظمى. ولا ريب في أن هذه الصلات الشخصية تفسر الجاذبية الدائمة للحرب العالمية الأولى وتأثيرها الساحر في كثير منا، حتى بعد مرور قرن على اندلاعها، إذ لم يترك حجم التعبئة العامة والمذبحة المروعة إلا قلة من العائلات لم تتأثر في تلك البلدان التي "علقت" في شرك النزاع[3].

علمت بتاريخ شقيق جدي وسيرته حين كنت أستعد لرحلة إلى غاليبولي عام 2005. ذهبت أنا، وأمي مارغريت، وابني ريتشارد، ممثلين لثلاثة أجيال، لنعبر عن احترامنا، وكنا أول الزوار من العائلة على مدى أكثر من تسعة عقود. حين مشينا عبر المسارات المتعرجة لشبه جزيرة غاليبولي باتجاه مقبرة لانكشير، أخطأنا في أحد المنعطفات فصادفنا نصب نوري يامورت، الذي يخلد القتلى الأتراك في معركة 28 يونيو -التي قتل فيها جون مكدونالد وتشارلز بيفريدج.

كشف النصب التذكاري لقتلى الحرب الأتراك في معركة زيغيندر (شناق قلعة)، أو غولي ريفنز، الحجاب عن باصرتي. فمع أن وحدة شقيق جدي فقدت 1400 رجل -نصف قوتها الإجمالية- وخسر البريطانيون نحو 3800 رجل، فإن خسائر العثمانيين بلغت 14000 بين قتيل وجريح في المعركة. النصب قبر جماعي لأولئك الجنود العثمانيين، دفنوا تحت شاهدة رخامية مشتركة نقشت عليها كلمة (Shehidlik 1915) (الشهادة 1915). تعاملت جميع الكتب التي قرأتها عن الجنود الاسكتلنديين مع الخسارة المروعة في الأرواح التي تكبدتها بريطانيا يوم وفاة شقيق جدي. ولم يذكر أي مصدر إنكليزي الآلاف من قتلى الحرب الأتراك. لقد مارس إدراك حقيقة أن عدد العائلات التركية المفجوعة فاق مثيله من العائلات الاسكتلندية إلى هذا الحد تأثيراً مهدئاً في نفسي.

غادرت غاليبولي مصدوماً بمدى جهل الغرب بتجارب الترك والعرب في الحرب العظمى. لقد عبرت عشرات الكتب التي صدرت بالإنكليزية وتناولت مختلف جبهات شرق المتوسط عن تجارب البريطانيين أو الحلفاء. كانت غاليبولي "هزيمة تشرشل"؛ وكوت العمارة "استسلام تاونسند"؛ والثورة العربية بقيادة "لورنس العرب"؛ و"دخول مود" إلى بغداد، و"فتح اللنبي" للقدس. وفي غمرة حماسة المؤرخين الاجتماعيين للانفصال عن مقاربة التاريخ الرسمي المتجهة من القمة إلى القاعدة، عملوا على سبر تجارب الجندي العادي عبر قراءة المفكرات اليومية والرسائل الموجودة في محفوظات (أرشيف) الصحف الخاصة في متحف الحرب الامبراطوري في لندن، والنصب التذكاري للحرب الأسترالية في كانبيرا، ومكتبة ألكسندر تيرنبول في واشنطن. أصبح لدينا، بعد قرن من الأبحاث والدراسات،

نظرة شاملة عن جانب الحلفاء من الخنادق. لكننا بدأنا للتو التعرف إلى الجانب الآخر- تجارب الجنود العثمانيين الذين حوصروا في شرك كفاح يائس للبقاء في مواجهة غزاة أقوياء.

في الحقيقة، من الصعب مقاربة الجبهة العثمانية من الجانب التركي من الخنادق. وبينما توجد عشرات المفكرات اليومية والمذكرات الشخصية التي نشرت في تركيا والعالم العربي، لم يمتلك سوى قلة قليلة من المؤرخين الغربيين المهارات اللغوية اللازمة لقراءتها، ولا يتوفر إلا جزء ضئيل من المصادر الأساسية المنشورة مترجماً إلى اللغات الأخرى. بل إن من الأصعب الوصول إلى المواد الأرشيفية. يمتلك أرشيف الدراسات التركية العسكرية والاستراتيجية في أنقرة أكبر مجموعة من المواد الأساسية المتعلقة بالحرب العالمية الأولى في الشرق الأوسط. لكن الوصول إلى أرشيف الدراسات التركية يخضع لسيطرة صارمة، حيث يطلب من الباحثين الحصول على موافقة أمنية قد تحتاج إلى أشهر -وكثيراً ما يرفض منحها. كما أن أجزاء واسعة من المجموعة ممنوعة عن الباحثين، الذين يواجهون قيوداً على نسخ المواد. لكن عدداً من الباحثين الأتراك والغربيين تمكنوا من الوصول إلى هذه المجموعة وبدؤوا نشر دراسات مهمة عن التجربة العثمانية في الحرب العظمى. أما في مواقع أخرى من الشرق الأوسط، فقد أسست مراكز المحفوظات الوطنية -إن أسست- بعد مدة طويلة من النزاع ولم تشدد على الحرب العظمى بوجه خاص[4].

يعبر المجتمع العربي عموماً عن إهمال المحفوظات (الأرشيفات) العربية للحرب العالمية الأولى. وخلافاً للحال في تركيا، حيث تحتشد ساحة معركة غاليبولي بالنصب التذكارية وتقام المراسم لإحياء ذكراها كل سنة، لا توجد مثل هذه النصب والمراسم في البلدات والمدن العربية. ومع أن جميع الدول العربية الحديثة تقريباً شاركت في الحرب بطريقة أو بأخرى، فإن النزاع يعد في الذاكرة حرب الآخرين زمن معاناة خبرها العرب جراء فشل السلطنة العثمانية وتهور قيادتها من حركة تركيا الفتاة. خلفت الحرب العظمى في العالم العربي شهداء (ولاسيما الناشطين العرب الذين شنقوا في الساحة المركزية في قلب كل من بيروت ودمشق، وأعيدت تسميتها لاحقاً "ساحة الشهداء") لا أبطالاً.

لقد حان الوقت لإعادة الجبهة العثمانية إلى مكانها الصحيح في تاريخ الحرب العظمى والشرق الأوسط الحديث كليهما؛ لأن دخول العثمانيين الحرب، أكثر من أي حادث آخر، حوّل النزاع الأوربي إلى حرب عالمية. وخلافاً للمناوشات الهامشية في الشرق الأقصى وشرق إفريقيا، اندلعت معارك كبرى على مدى سنوات الحرب الأربع في الشرق الأوسط. فضلًا عن ذلك، كثيراً ما كانت ميادين المعارك في الشرق الأوسط الأكثر عالمية في الحرب. فقد تحالف الأستراليون والنيوزيلنديون، وجميع إثنيات جنوب آسيا، وشعوب شمال إفريقيا، والسنغاليون، والسودانيون مع الجنود الفرنسيين، والإنكليز، والاسكتلنديين، والإيرلنديين، ضد المحاربين الترك، والعرب، والكرد، والأرمن، والشركس في الجيش العثماني وحلفائه الألمان والنمساويين. كانت الجبهة العثمانية برج بابل حقيقياً، نزاعاً غير مسبوق بين جيوش دولية.

قلل معظم مخططي الحرب في دول الوفاق (الثلاثي) أهمية القتال في الامبراطورية العثمانية، واعتبروه مجرد عرض جانبي لمسارح الحرب الرئيسية على الجبهتين الغربية والشرقية. ولم يضغط ساسة بريطانيون نافذون مثل هوراشيو هيربرت كتشنر وونستون تشرشل لنقل الحرب إلى الأتراك، إلا جراء اعتقاد خاطئ بأن ذلك سوف يوفر للحلفاء نصراً سريعاً على القوى المركزية ويعجل بنهاية الحرب. ونتيجة التقليل من شأن الخصوم، وجد الحلفاء أنفسهم متورطين في حملات كبرى -في القوقاز، والدردنيل، والرافدين، وفلسطين- أبعدت مئات آلاف الجنود عن الجبهة الغربية وأدت إلى إطالة أمد الحرب.

استحثت إخفاقات الحلفاء على الجبهة العثمانية أزمات سياسية عميقة في الوطن. وأجبرت حملة الدردنيل المتعثرة رئيس وزراء بريطانيا هـ. هـ. أسكويث (من حزب الأحرار) على تشكيل ائتلاف حكومي مع المحافظين في مايو 1915، وأسهمت في سقوطه في السنة اللاحقة. لقد أدت الهزائم البريطانية زمن الحرب في غاليبولي والرافدين إلى إنشاء لجنتي تحقيق برلمانيتين منفصلتين، أدان التقريران اللذان صدرا عنهما بالتساوي صناع القرار السياسي والعسكري.

إذا حول العثمانيون النزاع الأوربي إلى حرب عالمية، فإن من الصحيح أيضاً القول إن الحرب العظمى غيرت الشرق الأوسط. ولم يستطع أي جزء من المنطقة تجنب خرابها فعلياً. فقد جند الرجال من مختلف أرجاء تركيا والولايات العربية من السلطنة العثمانية ومن كل دولة مستعمرة في شمال إفريقيا. كما عانى المدنيون أيضاً ما سببته الحرب من مشقة اقتصادية وأوبئة. خاض الطرفان المتصارعان المعارك في أراضي دول حديثة مثل مصر واليمن والسعودية والأردن وفلسطين وسورية ولبنان والعراق وتركيا وإيران. وظهرت أغلبية هذه البلدان على شكل دول كعاقبة مباشرة لسقوط الامبراطورية العثمانية في أعقاب الحرب العالمية الأولى.

كان سقوط العثمانيين حادثاً فريداً وعلى درجة هائلة من الأهمية. فعلى مدى أكثر من ستة قرون، مثلوا أعظم امبراطورية إسلامية في العالم. إذ ظهرت السلطنة العثمانية، التي تأسست في نهاية القرن الثالث عشر، بوصفها أسرة سلالية حاكمة لتحدي الامبراطورية البيزنطية في آسيا الصغرى والبلقان. وفي أعقاب فتح السلطان محمد الثاني للعاصمة البيزنطية القسطنطينية عام 1453، برز العثمانيون كأعظم قوة في عالم البحر المتوسط.

وسع العثمانيون فتوحاتهم بسرعة بعد اتخاذ القسطنطينية (التي سميت لاحقاً إسطنبول) عاصمة لهم. في عام 1516، هزم سليم الأول الدولة المملوكية (التي اتخذت من القاهرة عاصمة لها)، وأضاف سورية ومصر والحجاز (على البحر الأحمر) إلى ممتلكات العثمانيين. وفي عام 1529، كان السلطان سليمان القانوني يقف على بوابات فيينا، لينشر الرعب في شتى أرجاء أوربا. واصل العثمانيون التوسع حتى محاولتهم الأخيرة احتلال فيينا عام 1683، وبحلول ذلك الوقت، امتدت امبراطوريتهم على ثلاث قارات، ضمت البلقان، وآسيا الصغرى (التي يسميها الأتراك الأناضول)، والبحر الأسود، ومعظم الأراضي العربية من العراق إلى حدود المغرب.

على مدى القرنين اللاحقين، باغتت العثمانيين دينامية أوربا. بدؤوا يخسرون الحروب أمام جيرانهم -امبراطورية كاترين العظمى الروسية وأباطرة هابسبورغ الذين هددوا عاصمتهم فيينا سابقاً. وبدءاً من عام 1699، تراجعت حدود العثمانيين أمام التهديدات الخارجية.

وبحلول أوائل القرن التاسع عشر، أخذ العثمانيون يخسرون أراضيهم أمام الحركات القومية التي برزت ضمن ولايات البلقان. كانت اليونان أول من حاول الاستقلال، بعد ثماني سنوات من الحرب ضد حكم إسطنبول (1821–1829). وضمنت رومانيا وصربيا والجبل الأسود استقلالها عام 1878، مع نيل البوسنة والهرسك وبلغاريا الاستقلال الذاتي في الوقت نفسه.

تابعت القوى الكبرى الاستيلاء على الأراضي العثمانية، حيث احتلت بريطانيا قبرص ومصر في عامي 1878 و1882، واحتلت فرنسا تونس عام 1881، وضمت روسيا ثلاث ولايات عثمانية في القوقاز عام 1878. ومع كفاح الامبراطورية العثمانية ضد التهديدات الداخلية والخارجية لأراضيها، توقع المحللون السياسيون في أوائل القرن العشرين زوالها الوشيك. لكن مجموعة من الضباط الوطنيين الشباب، الذين أطلقوا على أنفسهم اسم تركيا الفتاة، تشبثوا بأمل إمكانية إحياء الامبراطورية عبر عملية إصلاح دستوري. في عام 1908، انتفضوا ضد الحكم الاستبدادي المطلق للسلطان عبد الحميد الثاني (حكم بين عامي 1876–1909) في محاولة يائسة لإنقاذ دولتهم. ومع وصول تركيا الفتاة إلى السلطة، دخل العثمانيون حقبة من الاضطراب غير المسبوق سوف يجر الامبراطورية في نهاية المطاف إلى آخر حروبها وأكبرها.

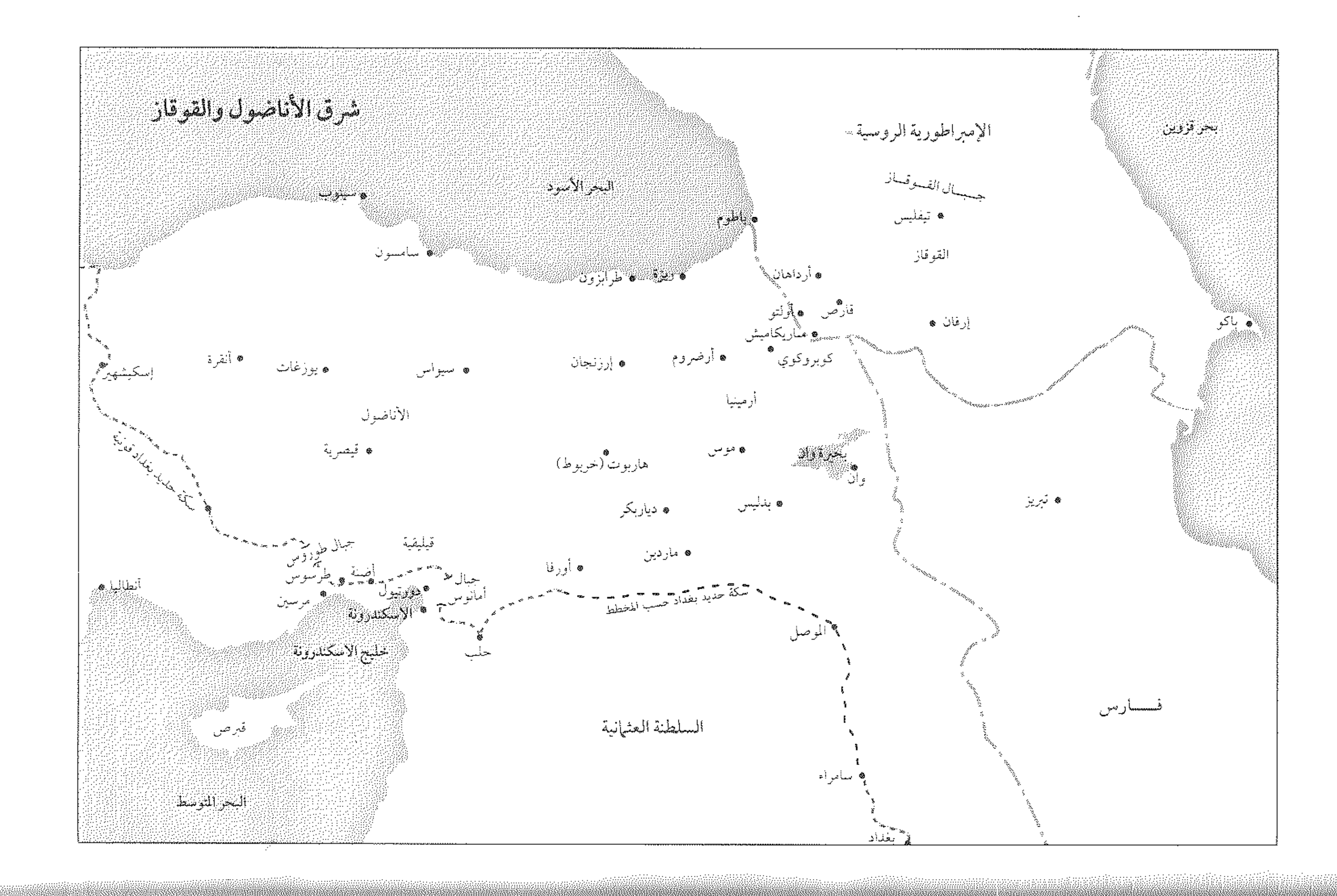
ية
ي
يا
ي

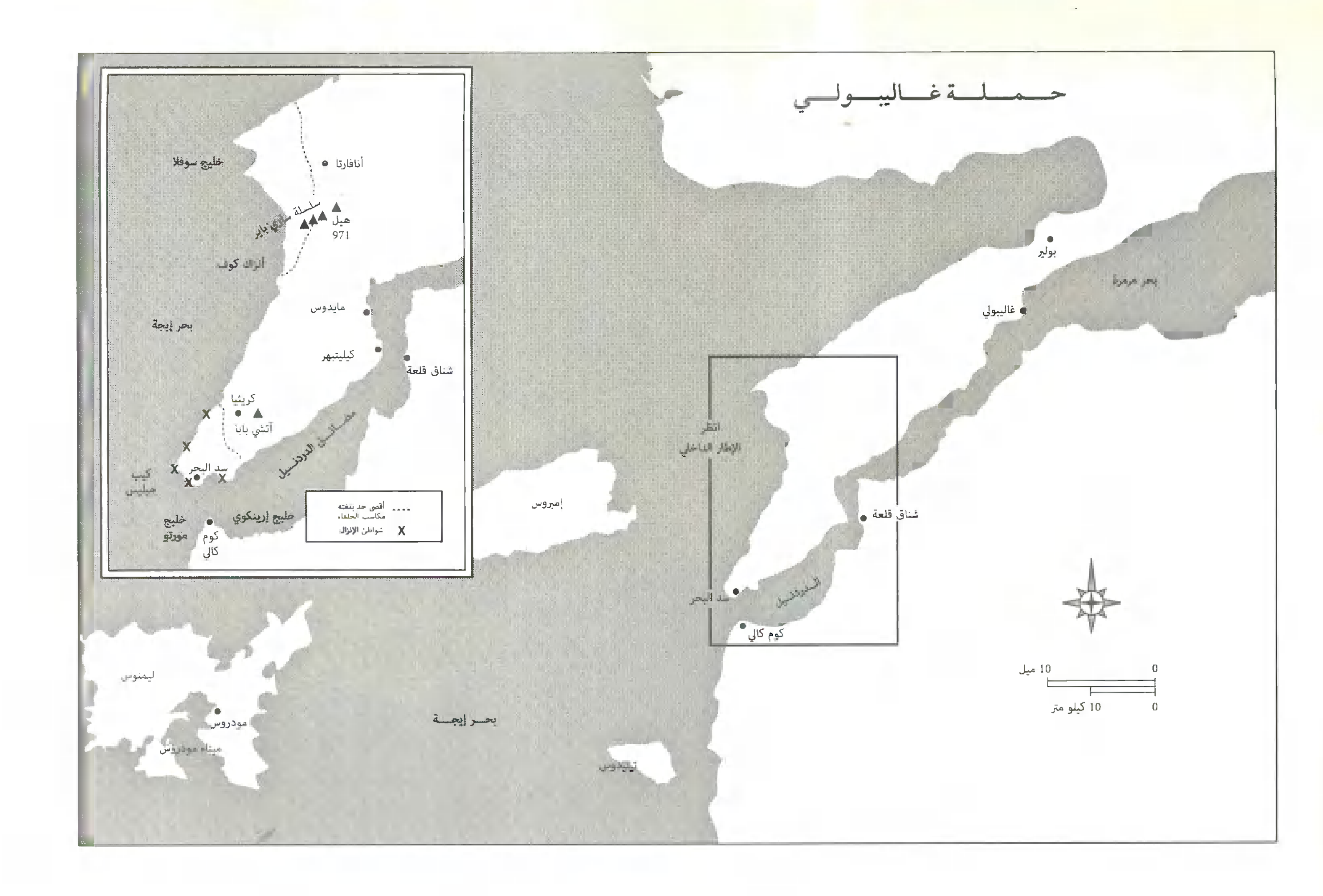
س
ث
ت
ها
م
ام
ين
ة،
ر



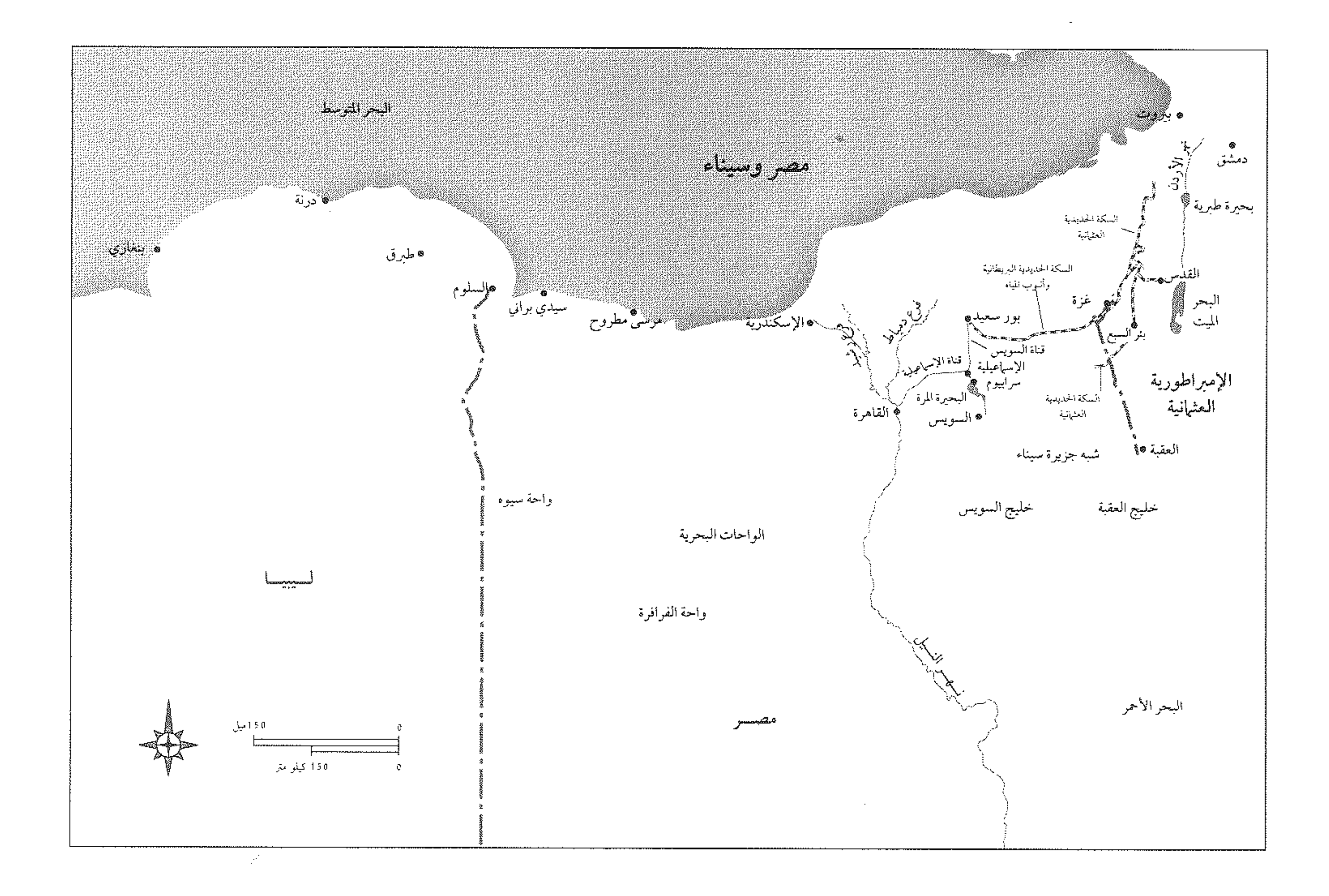
عالم البحر المتوسط عام ١٩١٤
سان بطرسبرغ
موسكو
الإمبراطورية الروسية
الإمبراطورية النمساوية-الهنغارية
بودابست
رومانيا
بلغراد
بوخارست
صربيا
صوفيا
بلغاريا
الجبل الأسود
أدرنة
ألبانيا
اليونان
أثينا
إزمير
سيفاستوبول
البحر الأسود
البسفور
إسطنبول
أنقرة
طرابزون
باكو
بحر قزوين
الإمبراطورية العثمانية
رودس
أضنة
الإسكندرونة
حلب
الموصل
قبرص
بيروت
دمشق
بغداد
البحر المتوسط
كريت
بنغازي
القدس
بورسعيد
الإسكندرية
القاهرة
قناة السويس
البصرة
الكويت
فارس
خليج السويس
خليج العقبة
ليبيا
مصر
البحرين
الخليج العربي
الجزيرة العربية
المدينة
عمان
جدة
مكة
إفريقيا الاستوائية الفرنسية
السودان
إريتريا
صنعاء
اليمن
براغ
فيينا


الدانمرك
بحر الشمال
إدنبره
بريطانيا
دبلن
هولندا
برلين
أمستردام
الإمبراطورية الألمانية
لندن
بلجيكا
بروكسل
لوكسمبرغ
براغ
باريس
فيينا
سويسرا
فرنسا
المحيط الأطلسي
مرسيليا
إيطاليا
كورسيكا
البرتغال
إسبانيا
البحر المتوسط
سردينيا
صقلية
عنابة
الجزائر
تونس
قسنطينة
وهران
المغرب
طرابلس
الجزائر
ساقية الذهب
ليبيا
غرب إفريقيا الفرنسية
إفريقيا
الاستوائية
الفرنسية


شرق الأناضول والقوقاز
الإمبراطورية الروسية
بحر قزوين
البحر الأسود
جبال القوقاز
تيفليس
القوقاز
سينوب
باطوم
سامسون
أردهان
ريزة
طرابزون
قارص
أولتو
ساريكاميش
إرفان
باكو
كوبروكوي
أرضروم
أرزنجان
سيواس
يوزغات
أنقرة
إسكيشهير
أرمينيا
الأناضول
موس
بحيرة وان
وان
قيصرية
هاربوت (خربوط)
تبريز
بدليس
دياربكر
سكة حديد بغداد-قونية
قيليقية
جبال طوروس
ماردين
أورفا
أضنة
طرسوس
جبال أمانوس
أنطاليا
دورتيول
مرسين
الإسكندرونة
سكة حديد بغداد حسب المخطط
الموصل
خليج الإسكندرونة
حلب
فارس
قبرص
السلطنة العثمانية
سامراء
البحر المتوسط
بغداد

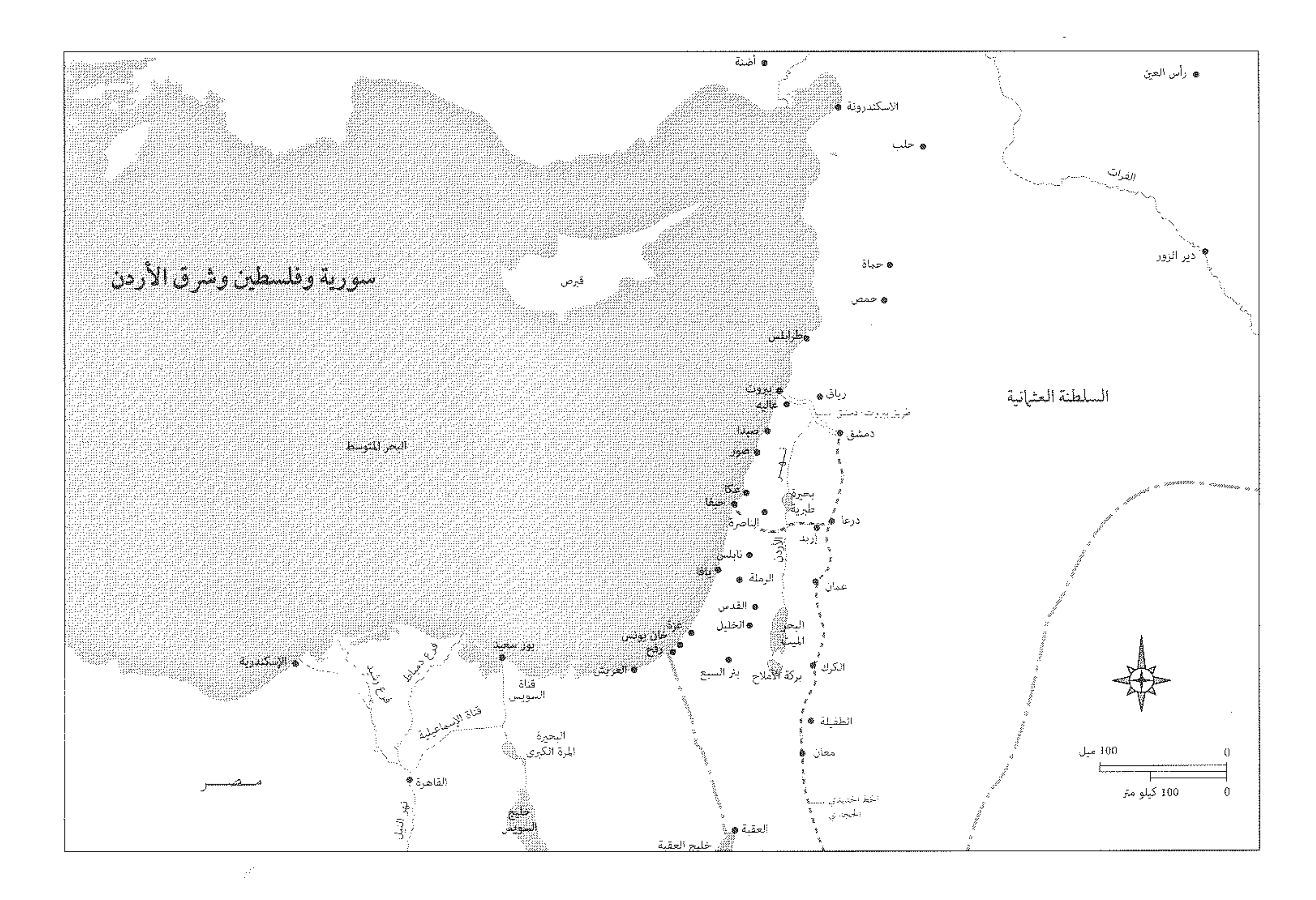


حملة غاليبولي
بولير
بحر مرمرة
غاليبولي
انظر
الإطار الداخلي
شناق قلعة
سد البحر
الدردنيل
كوم كالي
إمبروس
ليمنوس
مودروس
ميناء مودروس
بحر إيجة
تينيدوس
0 10 ميل
0 10 كيلو متر
خليج سوفلا
أنافارتا
سلسلة ساري باير
هيل 971
أنزاك كوف
مايدوس
بحر إيجة
كيليتبهر
شناق قلعة
كريثيا
آتشي بابا
مضائق الدردنيل
سد البحر
كيب هيليس
خليج مورتو
كوم كالي
خليج إرينكوي
أقصى حد بلغته مكاسب الحلفاء
شواطئ الإنزال



مصر وسيناء
البحر المتوسط
بنغازي
درنة
طبرق
السلوم
سيدي براني
مرسى مطروح
الإسكندرية
فرع رشيد
فرع دمياط
القاهرة
قناة الإسماعيلية
بور سعيد
قناة السويس
الإسماعيلية
سرابيوم
البحيرة المرة
السويس
غزة
بئر السبع
القدس
البحر الميت
نهر الأردن
بحيرة طبرية
دمشق
بيروت
السكة الحديدية العثمانية
السكة الحديدية البريطانية وأنبوب المياه
الإمبراطورية العثمانية
العقبة
شبه جزيرة سيناء
خليج السويس
خليج العقبة
البحر الأحمر
نهر النيل
واحة سيوه
الواحات البحرية
واحة الفرافرة
مصر
ليبيا
0
150 ميل
0
150 كيلو متر


حلب
الموصل
قبرص
السلطنة العثمانية
فارس
بيروت
دمشق
بغداد
نهر الفرات
كوت العمارة
العمارة
القدس
القرنة
شط العرب
الناصرية
بئر السبع
العريش
البصرة
معان
وادي السرحان
عدير الحج
الكويت
الخليج العربي
الخط الحديدي الحجازي
الوجه
البحرين
إمارة نجد والحسا
المدينة
ينبع
مصر
رابغ
بلاد الرافدين وعدن والحجاز
جدّة
الطائف
مكة
الحجاز
السودان
إريتريا
صنعاء
اليمن
لحج
عدن
خليج عدن
جزيرة بريم
200 ميل
0
200 كيلو متر
0
إثيوبيا


سورية وفلسطين وشرق الأردن
أضنة
رأس العين
الاسكندرونة
حلب
الفرات
دير الزور
حماة
حمص
قبرص
طرابلس
بيروت
عاليه
رياق
طريق بيروت دمشق
دمشق
السلطنة العثمانية
صيدا
صور
البحر المتوسط
عكا
حيفا
بحيرة طبرية
الناصرة
درعا
إربد
الأردن
نابلس
يافا
الرملة
عمان
القدس
الخليل
البحر الميت
غزة
خان يونس
رفح
بور سعيد
الإسكندرية
العريش
بئر السبع
بركة الأملاح
الكرك
قناة السويس
فرع دمياط
قناة الإسماعيلية
البحيرة المرة الكبرى
الطفيلة
معان
القاهرة
مصر
نهر النيل
خليج السويس
الخط الحديدي الحجازي
العقبة
خليج العقبة
0 100 ميل
0 100 كيلو متر

1

ثورة وثلاث حروب

1913-1908

واجهت الامبراطورية العثمانية بين عامي 1908 و1913 تهديدات داخلية وخارجية داهمة. إذ تعرضت المؤسسات السياسية للامبراطورية التي عاشت على مر القرون -بدءاً من ثورة تركيا الفتاة عام 1908- إلى ضغط غير مسبوق. فقد سعى المصلحون المحليون إلى نقل الامبراطورية إلى القرن العشرين. بينما خاضت القوى الأوربية الاستعمارية ودول البلقان التي ظهرت حديثاً الحرب مع الترك سعياً وراء الأراضي العثمانية. وأراد الناشطون الأرمن والعرب الحصول على قدر أكبر من الاستقلال الذاتي عن الدولة التركية الضعيفة. وضعت هذه القضايا، التي هيمنت على أجندة الحكومة العثمانية في السنوات التي سبقت عام 1914، الركائز المؤسسة للحرب العثمانية العظمى.

* * *

دعا السلطان العجوز عبد الحميد الثاني حكومته إلى جلسة أزمة انعقدت في 23 يوليو 1908. فقد واجه السلطان المستبد أعظم تهديد محلي لحكمه على مدى أكثر من ثلاثة عقود قضاها على سدة العرش. إذ تمرد الجيش العثماني في مقدونيا -المنطقة الملتهبة في البلقان التي تضم حالياً دول اليونان وبلغاريا ومقدونيا الحديثة- وطالب باستعادة دستور عام 1876 والعودة إلى الحكم البرلماني. عرف السلطان محتوى الدستور أكثر من خصومه. فمن أول

الإجراءات التي اتخذها عند اعتلاء العرش العثماني عام 1876 إعلان الدستور باعتباره ذروة أربعة عقود من الإصلاحات الحكومية المعروفة باسم "تنظيمات". في تلك الأيام، اعتبر مصلحاً متنوراً. لكن تجربة حكم الامبراطورية العثمانية حولت عبد الحميد من مصلح مستنير إلى مستبد متصلب.

يمكن تتبع جذور استبداد عبد الحميد في سلسلة من الأزمات التي واجهها حين كان شاباً في بداية حكمه. فقد كانت الامبراطورية التي ورثها عن أسلافه في حالة من التشتت والفوضى. أعلنت الخزانة العثمانية إفلاسها عام 1875، وسارع الدائنون الأوربيون إلى فرض عقوبات اقتصادية على حكومة السلطان. واجه العثمانيون عداء متعاظماً من الرأي العام الأوربي عام 1876 بسبب القمع العنيف للانفصاليين البلغار الذي سمته الصحافة الغربية "الأهوال البلغارية". وقاد زعيم حزب الأحرار وليام غلادستون الحكومة البريطانية إلى إدانة تركيا، بينما كانت غيوم الحرب مع روسيا تتجمع في الأفق. أثر الضغط تأثيراً بالغاً في حكام الامبراطورية. فقد خلعت جماعة قوية من الإصلاحيين السلطان عبد العزيز عن العرش (حكم بين عامي 1861-1876)، وبعد أقل من أسبوع وجد ميتاً في مخدعه، حيث انتحر على ما يبدو بقطع شرايين معصمه. وأصيب خليفته، مراد الخامس، بانهيار عصبي بعد ثلاثة أشهر فقط من جلوسه على العرش. على هذه الخلفية المشؤومة اعتلى عبد الحميد الثاني البالغ من العمر 33 سنة سدة السلطة في 31 أغسطس 1876.

ضغط وزراء الحكومة الأقوياء على السلطان الجديد لإعلان دستور ليبرالي جديد وبرلمان منتخب، يضم في عضويته المسلمين والمسيحيين واليهود كوسيلة لمنع مزيد من التدخل الأوربي في الشؤون العثمانية الداخلية. أذعن عبد الحميد لمطالب الإصلاحيين في حكومته، نتيجة دافع براغماتي لا اقتناع ذاتي. في 23 ديسمبر 1876، أعلن الدستور العثماني، وفي 19 مارس 1877 افتتح أول جلسة للبرلمان العثماني المنتخب. لكن ما إن انعقد البرلمان حتى تورطت الامبراطورية في حرب مدمرة مع روسيا.

اعتبرت الامبراطورية الروسية نفسها وريثة بيزنطة والرأس الروحي للكنيسة الأرثوذكسية الشرقية. كما كانت لها أهداف توسعية. فقد اشتهت على الدوام العاصمة العثمانية إسطنبول، التي ظلت حتى عام 1453 مركز المسيحية الأرثوذكسية وعاصمة

بيزنطة، القسطنطينية. لم تكن هذه مجرد مطامح ثقافية. فإذا استولى الروس على إسطنبول سيطروا على مضائق البوسفور والدردنيل الجيو-ستراتيجية التي تربط موانئ روسيا على البحر الأسود مع البحر المتوسط. لكن على مدى القرن التاسع عشر، كان من الأنسب لجيران روسيا الأوربيين احتجاز أسطول القيصر في البحر الأسود عبر الحفاظ على سلامة أراضي الامبراطورية العثمانية. أحبطت مطامح الروس باحتلال إسطنبول والمضائق، فاستغلوا الحركات القومية الاستقلالية في البلقان للتدخل في الشؤون العثمانية، بينما عززوا أهدافهم الإقليمية عبر الحروب مع العثمانيين بين الحين والآخر. وبحلول نهاية عام 1876، زودت الاضطرابات في صربيا وبلغاريا الروس بالفرصة الملائمة لشن حرب توسعية أخرى. وبعد ضمان وقوف النمسا على الحياد، وسماح رومانيا للقوات الروسية بالزحف عبر أراضيها، أعلنت روسيا الحرب على العثمانيين في أبريل 1877.

حققت قوات القيصر مكاسب سريعة في الأراضي العثمانية في البلقان، كما ذبحت الفلاحين الترك والمسلمين حين اخترقت شرق الأناضول عبر القوقاز، واندفعت إلى الأمام في هجومها على جبهتين معاً. استفز الهجوم الروسي غضباً عارماً لدى عامة الناس في المناطق العثمانية. واستغل السلطان عبد الحميد الثاني أوراق اعتماده الإسلامية لضمان التأييد الشعبي في الحرب ضد روسيا. ورفع راية النبي، التي احتفظ بها العثمانيون منذ أن احتلت الامبراطورية الأراضي العربية في القرن السادس عشر، معلناً الجهاد ضد الروس. احتشدت الجماهير خلف السلطان المحارب، وتطوعت في الخدمة العسكرية وأسهمت بالمال للمجهود الحربي -وتمكنت القوات المسلحة من وقف التقدم الروسي في الأراضي العثمانية.

وبينما كان عبد الحميد يكسب الدعم الشعبي للمجهود الحربي، زاد انتقاد أعضاء في البرلمان لأسلوب الحكومة في التعامل مع النزاع. وعلى الرغم من الجهاد الذي أعلنه السلطان، عاود الروس تقدمهم مع نهاية عام 1877 ووصلوا إلى ضواحي إسطنبول في يناير 1878. وفي فبراير، عقد السلطان اجتماعاً مع البرلمانيين للتشاور حول طريقة قيادة الحرب. لكن أحدهم، الذي رأس نقابة الخبازين، وبخ السلطان قائلاً: "لقد تأخرت جداً في طلب مشورتنا؛ كان يجب أن تشاورنا في الأمر عندما كان بالمستطاع تفادي الكارثة.

البرلمان يرفض تحمل أي مسؤولية عن الوضع الذي لم يكن له علاقة به". يبدو أن تدخل الخباز أقنع السلطان بأن البرلمان يمثل قيداً معيقاً لا سنداً مفيداً للقضية الوطنية. في اليوم اللاحق بالضبط، علق عبد الحميد العمل بالدستور، وحل البرلمان، ووضع أشد أعضائه انتقاداً تحت الإقامة الجبرية. ثم بدأ ممارسة سلطة مباشرة على شؤون الدولة. لكن عند هذه المرحلة أصبح من المتعذر إنقاذ الوضع العسكري، واضطر السلطان الشاب إلى القبول بهدنة في يناير 1878 بعد أن وصلت القوات الروسية إلى بوابات عاصمته[1].

في أعقاب الهزيمة أمام الروس عام 1878، خسر العثمانيون مساحات ضخمة من الأراضي في معاهدة السلام التي أنجزت في مؤتمر برلين (يونيو-يوليو 1878). استضافت ألمانيا المؤتمر وحضرته القوى الأوربية (بريطانيا، فرنسا، النمسا-هنغاريا، إيطاليا)، وسعى إلى حل مشكلة الحرب الروسية-العثمانية، إضافة إلى عدد من الصراعات في البلقان أيضاً. ووفقاً لشروط معاهدة برلين، خسر العثمانيون خمسي أراضي امبراطوريتهم وخمس عدد السكان في البلقان وشرق الأناضول. ومن بين المناطق التي أرغموا على التنازل عنها ثلاث ولايات في منطقة القوقاز شرقي الأناضول -قارص، وأرداهان، وباطوم- وبوصفها واقعة في قلب الأراضي التركية كان من المستحيل الموافقة على خسارتها، وسوف تتحول إلى "الزاس ولورين" عثمانية.

فقد العثمانيون مزيداً من الأراضي لمصلحة القوى الأوربية إضافة إلى تلك التي تنازلوا عنها وفقاً لمعاهدة برلين. حيث احتلت بريطانيا قبرص وحولتها إلى مستعمرة عام 1878، واحتلت فرنسا تونس عام 1881، وبعد التدخل في الأزمة المصرية عام 1882، غزت بريطانيا مصر ووضعت الولاية العثمانية ذات الحكم الذاتي تحت حكم الاستعمار البريطاني. أقنعت هذه الخسائر السلطان عبد الحميد الثاني على ما يبدو بضرورة حكم الامبراطورية العثمانية بيد من حديد لحمايتها من مزيد من تقطيع الأوصال جراء مطامح القوى الأوربية. ويحسب له أنه استطاع حماية الأراضي العثمانية من مزيد من البتر والتقطيع بين عامي 1882 و1908. لكن الحفاظ على سلامة أراضي الدولة تم على حساب حقوق المواطنين السياسية.

أدى حكم عبد الحميد الاستبدادي في نهاية المطاف إلى ظهور حركة معارضة ازدادت تنظيمًا باطراد. كانت تركيا الفتاة ائتلافاً مختلفاً من الأحزاب التي تربطها أهداف مشتركة تمثلت في تقييد استبداد عبد الحميد، واستعادة الحكم الدستوري، والعودة إلى الديمقراطية البرلمانية. ومن بين أبرز الأحزاب المنضوية تحت مظلة تركيا الفتاة "جمعية الاتحاد والترقي"، وهي منظمة سرية من المدنيين والعسكريين أسست في أوائل القرن العشرين. ومع أن فروع الجمعية انتشرت في أجزاء الامبراطورية العثمانية كافة -الولايات العربية، والولايات التركية، والبلقان- فإن الجمعية واجهت أشد حملات القمع في الولايات التركية والعربية. وبحلول عام 1908، تموضع مركز عمليات الجمعية فيما بقي من أملاك عثمانية في البلقان- ألبانيا، مقدونيا، تراقيا[2].

في يونيو 1908، كشف جواسيس السلطان خلية لجمعية الاتحاد والترقي في الجيش العثماني الثالث في مقدونيا. وفي مواجهة المحكمة العسكرية الوشيكة، قرر العسكريون التحرك. في الثالث من يوليو 1908، قاد زعيم الخلية، الرائد أحمد نيازي، مئتين من الجنود المدججين بالسلاح، إضافة إلى المؤيدين المدنيين، في ثورة تطالب السلطان بإعادة العمل بدستور عام 1876. توقع المشاركون كلهم أن يقتلوا في المحاولة. لكن الثوار تمكنوا من الاستحواذ على تأييد الرأي العام واكتسبت حركتهم الزخم مع جذب مزيد من دعم عامة الشعب. انتفضت مدن بأكملها في مقدونيا معلنة التشبث بالدستور. أعلن ضابط تركي من تركيا الفتاة اسمه إسماعيل أنور -اشتهر لاحقاً باسم أنور باشا- العمل بالدستور في بلدتي كوبرولو وتكويش في مقدونيا، فهلل الشعب مباركاً الخطوة. هدد الجيش العثماني الثالث بالزحف إلى إسطنبول لفرض الدستور في عاصمة الامبراطورية.

بعد ثلاثة أسابيع، نمت الحركة الثورية وتضخمت إلى حد أن السلطان لم يعد قادراً على الاعتماد على مؤسسته العسكرية لاحتواء الانتفاضة في مقدونيا. كانت تلك حالة الطوارئ التي دفعته إلى عقد اجتماع لحكومته في 23 يوليو. انعقد الاجتماع في قصر يلدز الرابض على تل يشرف على مضيق البوسفور على الجانب الأوروبي من إسطنبول. أرهب السلطان (65 عاماً) الوزراء وأرعبهم فتجنبوا إثارة السؤال الحاسم المتعلق باستعادة الحكم الدستوري.

وقضوا ساعات في التشاور حول المسؤول الذي يجب توجيه اللوم إليه بدلاً من العثور على الحل الضروري للأزمة.

أوقف عبد الحميد النقاش بعد أن أمضى سحابة النهار في الاستماع إلى مراوغات وزرائه. ثم أعلن أمام المجلس: "سوف أسير مع التيار. أعلن الدستور أولاً في عهدي. أنا الذي وضعته. ولأسباب استدعتها الضرورة، علقنا العمل به. أريد الآن أن يعد الوزراء إعلاناً باستعادة العمل بالدستور". شعر الوزراء بالارتياح ونفذوا على الفور تعليمات السلطان، وأرسلوا البرقيات إلى جميع ولايات الامبراطورية لإعلان فجر الحقبة الدستورية الثانية. نسب فضل النجاح في إجبار السلطان على استعادة العمل بالدستور إلى تركيا الفتاة والثورة التي فجرتها[3].

تطلب الأمر بعض الوقت لاتضاح أهمية الحوادث وفهم مغزاها. أوردت الصحف الخبر دون عناوين رئيسية ودون تعليق: "بأمر من صاحب الجلالة، انعقاد البرلمان وفق شروط الدستور". وربما كان ذلك تعبيراً عن العدد القليل من الناس الذين يهتمون بقراءة الصحف العثمانية الخاضعة لرقابة صارمة، بحيث احتاج الرأي العام إلى أربع وعشرين ساعة للاستجابة للخبر. في 24 يوليو، تجمعت الحشود الشعبية في الساحات العامة في إسطنبول ومدن وبلدان الولايات في شتى أرجاء الامبراطورية للاحتفال بعودة الحياة الدستورية. ركب الرائد أنور القطار إلى سالونيك (في اليونان الحالية)، مركز حركة تركيا الفتاة، حيث استقبلته الجماهير المحتشدة بالهتاف والتهليل باعتباره "بطل الحرية". بينما وقف على رصيف المحطة زميله الرائد أحمد جمال، المفتش العسكري للسكك الحديدية العثمانية، ومحمد طلعت، موظف البريد. ارتقى الاثنان عبر تراتبية جمعية الاتحاد والترقي، وعرفا -مثل أنور باشا- باسم جمال باشا وطلعت باشا. حيا الرجلان أنور: "أنت الآن نابليون!"[4].

على مدى الأيام اللاحقة، ارتفعت الرايات الحمراء والبيضاء المزخرفة بالشعار الثوري "عدالة، مساواة، أخوة" في شوارع المدن، بينما وضعت صور نيازي وأنور و"أبطال الحرية" الآخرين من العسكر في الساحات في شتى بلدات الامبراطورية. خطب الناشطون السياسيون أمام جماهير الشعب عن نعم الدستور المباركة، وشاركوها آمالهم وتطلعاتهم.

دفعت الآمال الكبار التي أثارتها الثورة الدستورية سكان الامبراطورية بمختلف أطيافهم ومشاربهم إلى التجمع معاً في لحظة من الوحدة الوطنية المشتركة. كان المجتمع العثماني يتألف من تشكيلة واسعة من الجماعات الإثنية، تشمل الترك، والألبان، والعرب، والكرد، إضافة إلى مجموعات سكانية من أديان مختلفة -الأغلبية السنية، والشيعة، وأكثر من عشر طوائف مسيحية، إضافة إلى جاليات يهودية كبيرة. تعثرت محاولات الحكومة السابقة لتعزيز الهوية الوطنية العثمانية جراء هذا التنوع، حتى قيام الثورة الدستورية. وكما كتب أحد الناشطين السياسيين: "عانق [العرب] الترك بإخلاص وحماسة، معتقدين أن الكل سيصبحون عثمانيين يتقاسمون الحقوق والواجبات ذاتها، ولن يكون هناك بعد الآن عرب أو ترك أو أرمن أو كرد في الدولة"[5].

عكر صفو الاحتفالات البهيجة بالحرية المكتشفة حديثاً رد الفعل العنيف على أولئك المشتبه بمشاركتهم في جهاز القمع التابع لعبد الحميد. انحطت الامبراطورية العثمانية في عهد السلطان إلى درك دولة بوليسية. فقد سجن الناشطون السياسيون أو طردوا إلى المنافي، بينما خضعت الصحف والمجلات لرقابة صارمة، وامتنع الناس عن التعبير عن رأيهم خوفاً من جواسيس الحكومة المنتشرين في كل مكان. وصف محمد عزة دروزه، من سكان نابلس في فلسطين، "تفجر مشاعر الاستياء والغضب في الأيام الأولى من الثورة ضد المسؤولين الحكوميين الكبار والصغار الذي اتهموا بالتجسس أو الفساد أو القمع"[6].

ومع ذلك، شكلت ثورة تركيا الفتاة لمعظم الناس مصدر إلهام لإحساس جديد بالأمل والحرية أثملهم. عبّر الشعر عن مباهج اللحظة، حيث نظم الشعراء العرب والترك القصائد التي تتغنى بتركيا الفتاة وثورتها:

اليوم نمرح أحرارا بفضلكم — نغدو ونمسي ولا هم ولا نصب
قـد أطلق الحر من سجن أهين به — وعاد للوطن المحبوب مغترب
فلا جواسيس نخشى من وشايتهم — ولا جرائـد تأتينا فنرتعب
ننام في الليل لا الأحلام تقلقنا — وننهض الصبح لا خوف ولا رعب*[7].

---

* لويس شيخو، **مجلة المشرق**، العدد 2، 1909، ص91. (مع الشكر للأستاذ رياض المسيبلي)

لكن الثورة التي أثارت هذه الآمال كلها أدت إلى الإحباط، وخاب أمل الذين حلموا بالتحول السياسي حين لم تحدث الثورة تغيرات كبرى في حكم السلطنة العثمانية. قررت جمعية الاتحاد والترقي إبقاء السلطان عبد الحميد الثاني على العرش، وتمكن من الاحتفاظ ببعض الفضل جراء إعادة العمل بالدستور، وحظي بإجلال الجماهير العثمانية وتقديرها بوصفه السلطان والخليفة (الزعيم الروحي للعالم الإسلامي). كان خلع عبد الحميد عن العرش سيولد مشكلات أكثر من المنافع لأعضاء تركيا الفتاة عام 1908. فضلاً عن ذلك كله، كان زعماء الاتحاد والترقي من الأتراك الشباب فعلاً. ولأن معظمهم من صغار الضباط والبيروقراطيين من ذوي المراتب الدنيا في أواخر العشرينيات والثلاثينيات من العمر، افتقدوا الثقة اللازمة لتسلم زمام السلطة بأيديهم. بدلاً من ذلك، تركوا ممارسة الحكم إلى الصدر الأعظم (رئيس الوزراء)، سعيد باشا، وحكومته واكتفوا بدور لجنة الإشراف لضمان إقرار السلطان وحكومته بالدستور.

إذا اعتقد المواطنون العثمانيون أن الدستور سوف يجد الحل لمشكلاتهم الاقتصادية، فقد خابت آمالهم بسرعة. إذ قوض الاضطراب السياسي الذي هيجته الثورة الثقة بالعملة التركية. زاد التضخم زيادة هائلة ليبلغ 20 في المئة في شهري أغسطس وسبتمبر عام 1908، ويعرض الطبقات العاملة لضغط مكثف. خرج العمال الأتراك في مظاهرات تطالب بتحسين الأجور وظروف العمل، لكن الخزانة لم تكن قادرة على تلبية مطالبهم المشروعة. ونظم الناشطون العماليون أكثر من مئة إضراب في الأشهر الستة الأولى بعد الثورة؛ ما أدى إلى وضع قوانين رادعة وقاسية وحملات قمع حكومية ضد العمال[8].

من العوامل حاسمة الأهمية أن أولئك الذين ظنوا أن عودة الديمقراطية البرلمانية سوف تجعل الامبراطورية العثمانية تكسب دعم أوربا وتأييدها واحترام سيادتها على أراضيها سيتعرضون للإذلال والمهانة. فقد استغل جيران تركيا الأوربيون حالة عدم الاستقرار التي أوجدتها ثورة تركيا الفتاة لضم مزيد من الأراضي والمناطق العثمانية. في 5 أكتوبر 1908، أعلنت ولاية بلغاريا العثمانية السابقة استقلالها. في اليوم اللاحق، أعلنت الامبراطورية النمساوية-الهنغارية ضم الولايتين العثمانيتين المتمتعتين بالحكم الذاتي البوسنة والهرسك.

وفي 6 أكتوبر أيضاً، أعلنت كريت اتحادها مع اليونان. وتبين أن التحول الديمقراطي في تركيا لم يؤد إلى كسب مزيد من دعم القوى الأوربية، بل جعل الامبراطورية أكثر ضعفاً وانكشافاً أمام الخطر.

سعى أعضاء تركيا الفتاة إلى استعادة السيطرة على الثورة عبر البرلمان العثماني (مجلس المبعوثان). كانت جمعية الاتحاد والترقي واحداً من حزبين تنافسا في الانتخابات التي أجريت في أواخر نوفمبر وأوائل ديسمبر 1908. فاز الاتحاديون (كما دعي أعضاء الجمعية) بأغلبية ساحقة في مجلس النواب، حيث انضم كثير من المستقلين إلى صفوف جمعية الاتحاد والترقي. في 17 ديسمبر، افتتح السلطان أول جلسة للبرلمان بخطاب أكد التزامه الدستور. رد الزعيمان المنتخبان لمجلسي النواب والأعيان على خطاب السلطان، وامتدحا حكمته التي أظهرها في استعادة الحكم الدستوري. خلق تبادل الخطب وهم الانسجام والتناغم بين السلطان والجمعية. لكن الحكام المستبدين لا يتغيرون بين عشية وضحاها، وانتظر عبد الحميد الذي لم يتواءم مع القيود الدستورية المفروضة على سلطاته ولا التدقيق البرلماني لتصرفاته، أول فرصة سانحة للتخلص من الاتحاديين أعضاء تركيا الفتاة.

حالما هدأت الحماسة للثورة، واجهت جمعية الاتحاد والترقي معارضة جدية من داخل الأوساط السياسية العثمانية ومن العناصر النافذة في المجتمع المدني. فقد أدانت المؤسسة الدينية ما اعتبرته ثقافة علمانية لتركيا الفتاة (دين الدولة الرسمي هو الإسلام). بينما ظهرت انقسامات واضحة داخل المؤسسة العسكرية بين الضباط من خريجي الأكاديميات الحربية وأصحاب الميول الإصلاحية الليبرالية، والجنود العاديين الذين أكدوا أهمية الولاء الذي تعهدوا به للسلطان. وضمن البرلمان، نظر أعضاء الجناح الليبرالي بعين الشك والريبة إلى الميول الاستبدادية لجمعية الاتحاد والترقي، واستغلوا قدرتهم على الوصول إلى الصحافة والمسؤولين الأوربيين -ولاسيما السفارة البريطانية- لإضعاف موقف الجمعية في مجلس النواب. بينما سعى عبد الحميد الثاني من قصره سراً إلى تشجيع جميع العناصر التي تحدت الجمعية.

في ليلة 12-13 أبريل 1909، شن أعداء جمعية الاتحاد والترقي هجوماً معاكساً. فقد تمرد جنود فيالق الجيش الأول الموالون للسلطان عبد الحميد الثاني على ضباطهم، ورصوا

الصفوف مع علماء الدين من المدارس الشرعية في العاصمة. وزحف الفريقان معاً إلى البرلمان في مظاهرة صاخبة اجتذبت أعداداً متزايدة من العلماء والجنود المتمردين أثناء الليل. طالب المتظاهرون بحكومة جديدة، وإبعاد عدد من السياسيين الاتحاديين، وإعادة العمل بالشريعة الإسلامية -مع أن البلاد كانت في الحقيقة تخضع لمجموعة مختلطة من القوانين طوال عقود. هرب أعضاء البرلمان الاتحاديون من العاصمة خوفاً على حياتهم، وقدمت الحكومة استقالتها. بينما أذعن السلطان بانتهازيته لمطالب الغوغاء، وأعاد توكيد سلطته على سياسة الامبراطورية العثمانية.

لم تعمر إجراءات عبد الحميد لإعادة الحكم الاستبدادي طويلًا. فقد اعتبر الجيش الثالث في مقدونيا الثورة المضادة في إسطنبول هجوماً على الدستور الذي اعتقد أنه جوهري لمستقبل الامبراطورية السياسي. حشد أنصار تركيا الفتاة في مقدونيا حملة عسكرية دعيت "جيش العمل" للزحف على إسطنبول بقيادة الرائد أحمد نيازي، أحد أبطال ثورة تركيا الفتاة. انطلقت قوة النجدة هذه من سالونيك نحو العاصمة الامبراطورية في 17 أبريل. وفي ساعات الصباح الأولى من يوم 24 أبريل، احتل جيش العمل إسطنبول، وقمع الثورة من دون معارضة تذكر، وفرض الأحكام العرفية. اجتمع مجلسا البرلمان العثماني مجدداً باسم الجمعية الوطنية العامة في 27 أبريل، وصوتت على خلع السلطان عبد الحميد الثاني عن العرش وتنصيب شقيقه الأصغر محمد رشاد باسم السلطان محمد الخامس. ومع عودة جمعية الاتحاد والترقي إلى السلطة، تلقت الثورة المضادة هزيمة منكرة -حدث ذلك كله في مدة أسبوعين اثنين فقط.

* * *

فضحت الثورة المضادة الانقسامات العميقة ضمن المجتمع العثماني -وأشدها خطورة العداء التركي-الأرمني. بعد أن أعاد جيش العمل جمعية الاتحاد والترقي إلى سدة الحكم في إسطنبول مباشرة، ذبحت حشود من المسلمين الأرمن في مدينة أضنه (جنوب شرق البلاد). تعود جذور المذبحة إلى سبعينيات القرن التاسع عشر. وسوف تتحول العداوة، في مسار الحرب العالمية الأولى، إلى أول إبادة جماعية في القرن العشرين.

في عام 1909، نظر كثير من الترك العثمانيين إلى الأرمن بعين الشك، واعتقدوا أنهم أقلية لها أجندة قومية تنوي الانفصال عن الامبراطورية. الأرمن طائفة مسيحية، وجماعة إثنية مميزة لها لغتها الخاصة، خضعت على مر القرون للتنظيم الطائفي العثماني بوصفها ملة متميزة، ولذلك امتلك الأرمن جميع الشروط المسبقة المطلوبة للحركة القومية في القرن التاسع عشر إلا واحداً: لم يتجمعوا في منطقة جغرافية واحدة. فقد تشتتوا، كشعب، وانتشروا بين الامبراطوريتين الروسية والعثمانية، وضمن الأراضي العثمانية في شرق الأناضول. أما أكبر تركيز للأرمن فكان في العاصمة إسطنبول. ومن دون كتلة حرجة في موقع جغرافي واحد، لم يأمل الأرمن قط بإقامة دولة لهم -إلا إذا ضمنوا بالطبع تأييد قوة كبرى لقضيتهم.

قدم الأرمن أول طلب إقليمي لهم في مؤتمر برلين عام 1878. فقد أجبر العثمانيون، ضمن التسوية التي أعقبت الحرب الروسية-التركية، على التنازل عن ثلاث ولايات تضم عدداً كبيراً من السكان الأرمن: قارص، وأرداهان، وباطوم. ووفر انتقال مئات آلاف الأرمن إلى الحكم الروسي السياق المناسب للمطالب الأرمنية بمزيد من الحكم الذاتي ضمن الولايات العثمانية. كشف الوفد الأرمني عن طموحاته، زاعماً أن الولايات العثمانية أرضروم، وبيتليس، ووان هي "مقاطعات يسكنها الأرمن". وسعى إلى إقامة منطقة تتمتع بالاستقلال الذاتي بإدارة حاكم مسيحي حسب نموذج جبل لبنان، بخلطته المتفجرة من المسيحيين والمسلمين. استجابت القوى الأوروبية بإضافة مادة إلى معاهدة برلين تدعو الحكومة العثمانية إلى التطبيق الفوري لـ"تحسينات وإصلاحات تحتاج إليها المتطلبات المحلية في الولايات التي يسكنها الأرمن"، وتوفير الأمن لهم من هجمات الأغلبية المسلمة. طالبت المعاهدة إسطنبول بإرسال تقارير دورية إلى القوى الكبرى عن الإجراءات التي تتخذها لمصلحة المواطنين الأرمن[9].

دفع الدعم الأوربي للحركات القومية المسيحية في البلقان العثمانيين إلى اتخاذ موقف حذر يمكن تفهمه والشك في النوايا الأجنبية التي تستهدف المناطق العثمانية الاستراتيجية الأخرى. إذ إن الوضع القانوني الجديد الذي منحته معاهدة برلين للأرمن ومطامحهم في الأناضول، قلب تركيا، شكل تهديداً استثنائياً للامبراطورية العثمانية. وبعد التنازل عن الولايات الثلاث

(قارص، وأرداهان، وباطوم) إلى روسيا كتعويضات حرب، لم يكن باستطاعة العثمانيين التفكير في التنازل عن مزيد من المناطق في شرق الأناضول. ومن ثم، فعلت حكومة عبد الحميد الثاني ما بوسعها لقمع الحركة الأرمنية الوليدة وقطع روابطها مع بريطانيا وروسيا. وحين بدأ الناشطون الأرمن في أواخر ثمانينيات القرن تشكيل تنظيمات سياسية لتحقيق طموحاتهم الوطنية، تعاملت معهم الحكومة العثمانية مثل أي مجموعة معارضة محلية وردت بسلسلة كاملة من الأعمال القمعية -المراقبة، والاعتقال، والسجن، والنفي.

ظهرت جمعيتان أرمنيتان قوميتان متميزتان مع نهاية القرن التاسع عشر. أسست الأولى، "جمعية هنشاك" ("الجرس" بالأرمنية)، في جنيف جماعة من الطلاب الأرمن في سويسرا وفرنسا عام 1887. وأنشأت الثانية، "الاتحاد الثوري الأرمني" المشهورة باسم "داشناك" (اختصار كلمة "اتحاد" بالأرمنية)، مجموعة من الناشطين داخل الامبراطورية الروسية. كانت الحركتان مختلفتين تماماً على صعيد الإيديولوجيات والأساليب والمناهج. فقد تجادل أعضاء "الهنشاك" حول المزايا النسبية للاشتراكية والتحرر الوطني، بينما شجع أعضاء "الداشناك" الدفاع عن النفس بين المجتمعات الأرمنية المحلية في روسيا والامبراطورية العثمانية. تبنت الجمعيتان كلتاهما استخدام العنف لتحقيق الأهداف السياسية الأرمنية. وعدّ أعضاؤهما أنفسهم مقاتلين في سبيل الحرية، لكنهم كانوا إرهابيين في نظر العثمانيين. فاقمت أنشطة الجمعيتين التوترات القائمة بين المسلمين والمسيحيين في شرق الأناضول، وأمل الناشطون الأرمن بأن ذلك سوف يستحث تدخلاً أوربياً، بينما استغل العثمانيون الأحداث لمحاولة إخماد ما اعتبروه حركة قومية وليدة. وكان من المحتم أن يؤدي الوضع المتفجر إلى سفك الدماء[10].

تعرض الأرمن العثمانيون لسلسلة من المذابح المروعة بين عامي 1894 و1896. بدأ العنف في منطقة ساسون جنوب شرق الأناضول في صيف عام 1894، حين هاجم البدو الكرد القرويين الأرمن بسبب رفضهم دفع أموال الحماية التقليدية إضافة إلى الضرائب المفروضة عليهم إلى المسؤولين العثمانيين. تبنى الناشطون الأرمن قضية الفلاحين الأرمن الذين ترهقهم الضرائب الثقيلة وشجعوهم على الثورة. وصف الرحالة ورجل الأعمال

البريطاني هـ. إف. بي لينش، الذي تجول في منطقة ساسون عشية المذابح، المحرضين الأرمن قائلاً: "غرض هؤلاء هو الإبقاء على القضية الأرمنية حية عبر إشعال النيران هنا وهناك، ثم الصراخ: حريق! الصرخة تظهر في الصحف الأوربية؛ وعندما يتجمع الناس لمشاهدة ما يحدث سيجدون حتماً بعض المسؤولين الأتراك وقد سقطوا في الفخ بعد ارتكاب أعمال بغيضة". أرسلت الحكومة العثمانية الجيش الرابع، معززاً بفوج من الفرسان الكرد، في محاولة لاستعادة النظام. قتل آلاف الأرمن بالنتيجة، ما استحث دعوات أوربية للتدخل الذي سعى إليه أعضاء جمعية الهنشاك بنشاط وأراد العثمانيون تجنبه[11].

في سبتمبر 1895، نظمت جمعية الهنشاك مسيرة في إسطنبول تناشد السلطات إجراء إصلاحات في ولايات شرق الأناضول التي أصبح الأوربيون يشيرون إليها على نحو متزايد باسم أرمينيا التركية. وقدمت مهلة للحكومة العثمانية والسفارات الأجنبية مدتها ثمان وأربعون ساعة للاستجابة لمطالبها، ومنها تعيين حاكم عام مسيحي للإشراف على الإصلاحات في شرق الأناضول، وحق القرويين الأرمن في حمل السلاح لحماية أنفسهم ضد جيرانهم الكرد المدججين بالسلاح. طوق العثمانيون الباب العالي، المجمع المسور الذي يضم مكاتب رئيس الوزراء وحكومته (التعبير يشير أيضاً إلى الحكومة العثمانية، كما يشير "الوايتهول" إلى الحكومة البريطانية)، وتأهبت الشرطة لصد حشود المحتجين الأرمن. قتل شرطي في المعمعة، فاندلعت أعمال شغب هاجمت فيها حشود المسلمين الغاضبة الأرمن. قتل ستون متظاهراً أمام الباب العالي وحده. احتجت القوى الأوربية على قتل المتظاهرين العزل؛ فأصدر السلطان عبد الحميد، في مواجهة الضغط الدولي المتصاعد، قراراً في السابع عشر من أكتوبر يعد بإجراء إصلاحات في الولايات الست التي تضم السكان الأرمن شرق الأناضول: أرضروم، ووان، وبيتليس، ودياربكر، وهاربوت (خربوط)، وسيواس.

لكن مرسوم الإصلاح السلطاني عزز مخاوف المسلمين في الولايات الست، حيث اعتبروا الإجراء تمهيداً لاستقلال الأرمن في شرق الأناضول؛ ما يعني إجبار الأغلبية المسلمة إما على العيش تحت سلطة مسيحية، أو التخلي عن بيوتها وقراها لإعادة التوطين في أراضي المسلمين -وذلك مع اضطرار الآلاف من القرم، والقوقاز، والبلقان على ذلك حين تنازل

العثمانيون عن تلك الأراضي إلى الحكم المسيحي. لم يفعل المسؤولون العثمانيون ما يكفي لتبديد هذه المخاوف، وبعد بضعة أيام من صدور قرار السلطان، اجتاحت موجة مذابح جديدة أشد دموية وفتكاً البلدات والقرى في وسط الأناضول وشرقه. وبحلول فبراير 1869، قدرت البعثات التبشيرية الأرمنية عدد القتلى من الأرمن بنحو 37.000 على الأقل، إضافة إلى 300.000 مشرد. بينما راوحت أعداد القتلى والجرحى وفقاً لتقديرات أخرى بين 100.000 و300.000. من المستبعد الحصول على أرقام أكثر دقة لضحايا المجازر التي وقعت عام 1895؛ نظراً إلى الطبيعة المعزولة للمنطقة، لكن من الواضح أن مستوى العنف ضد الأرمن كان غير مسبوق في التاريخ العثماني[12].

علّم هجوم إرهابي وقع في إسطنبول الفصل الختامي من الفظائع التي تعرض لها الأرمن بين عامي 1894 و1896. فقد اقتحمت مقر البنك العثماني في إسطنبول (26 أغسطس 1896) مجموعة مؤلفة من ستة وعشرين من الناشطين الداشناك، الذين تنكروا بهيئة حمالين نقلوا الأسلحة والمتفجرات في أكياس المال. قتل المهاجمون حارسين وأخذوا 150 من موظفي البنك وزبائنه رهائن، مهددين بتفجير المبنى بكل ما فيه في حالة عدم تلبية مطالبهم: تعيين مندوب سام أوربي لفرض إصلاحات في شرق الأناضول، وإصدار عفو عام عن جميع المنفيين السياسيين الأرمن. كان البنك مملوكاً للأجانب على الرغم من اسمه، حيث تتقاسم أسهمه مؤسسات بريطانية وفرنسية. أفرزت محاولة إجبار القوى الأوربية على التدخل في الشؤون العثمانية-الأرمنية عكس النتائج المرجوة تماماً. فقد أجبر الإرهابيون على الانسحاب من البنك الذين احتلوه دون أن تلبى مطالبهم، فلجؤوا إلى سفينة فرنسية للهرب من الأراضي العثمانية. ولم يقتصر الأمر على إدانة القوى الأوربية لأعمال الداشناك، بل أدى الهجوم على البنك إلى وقوع مجازر ضد الأرمن في إسطنبول راح ضحيتها 8000 قتيل. ولم تفرض القوى الأوربية، المنقسمة في سياساتها حول المسألة الأرمنية، أي تغييرات على الامبراطورية العثمانية. وفيما يتعلق بالحركة الأرمنية، ثبت أن الحوادث الدموية التي وقعت بين عامي 1894 و1896 كارثية في عواقبها.

غيرت الحركة الأرمنية على مدى السنوات اللاحقة أساليبها التكتيكية وعملت مع الأحزاب الليبرالية الساعية إلى إجراء إصلاحات في الامبراطورية العثمانية. حضر الداشناك المؤتمر الثاني لأحزاب المعارضة العثمانية الذي انعقد في باريس عام 1907 إلى جانب جمعية الاتحاد والترقي. وكانوا من المؤيدين المتحمسين لثورة تركيا الفتاة عام 1908، وخرجوا بنتيجتها جماعة اعترف بها رسمياً لأول مرة. قدم الأرمن عدداً من المرشحين للبرلمان العثماني في وقت لاحق من تلك السنة، وانتخب أربعة عشر منهم إلى مجلس المبعوثان. وأمل كثيرون بإمكان تحقيق الأهداف السياسية ضمن سياق الدستور العثماني، وحقوق المواطنة التي وعد بها، واحتمال الإدارة اللامركزية. أحبطت هذه الآمال في أعقاب الثورة المضادة عام 1909، وفي الفترة الممتدة بين 25 و28 أبريل 1909 قتل نحو 20.000 أرمني في موجات مسعورة من سفك الدماء[13].



منارة أطلق منها الترك النار على المسيحيين. في أبريل 1909، دمر غوغاء مسلمون بيوت المسيحيين ومتاجرهم في أضنه ومحيطها وقتلوا نحو 20.000 أرمني. التقطت وكالة تصوير أميركية (Bains News Service) هذه الصورة لخرائب الحي الأرمني في أعقاب مذبحة أضنه.

تجولت زابل يسايان، إحدى أبرز الشخصيات الأدبية الأرمنية في بداية القرن العشرين، في أضنه عقب المذابح للمساعدة في جهد الإغاثة. وجدت المدينة يباباً، تسكنها أرامل وأيتام وعجائز صدموا بما شهدوه. روت تصف الرعب: "لا يمكن تقبل الحقيقة الفظيعة دفعة واحدة: فهذا يتجاوز نطاق المخيلة البشرية. حتى الذين عاشوا التجربة عجزوا عن عرض الصورة بكاملها. تلعثموا، وتنهدوا، وبكوا، لكنهم في النهاية ما وصفوا إلا حوادث معزولة". جذبت الشخصيات العامة النافذة، مثل يسايان، انتباه العالم للمذابح ودفعته إلى إدانة الامبراطورية العثمانية[14].

تحركت تركيا الفتاة بسرعة وأرسلت جمال باشا لاستعادة الأمن في أضنه بعد وصول العنف إلى نهايته. احتاج الاتحاديون إلى استعادة ثقة الداشناك، لمنعهم من السعي إلى تدخل أوربي باسم التطلعات الأرمنية. وافق الداشناك على مواصلة التعاون مع جمعية الاتحاد والترقي بشرط أن تعتقل الحكومة جميع المسؤولين عن مذابح أضنه وتعاقبهم، وتعيد إلى الناجين الأرمن أملاكهم، وتخفف عنهم الأعباء الضريبية، وتوفر التمويل للمعوزين والمعدمين. زعم جمال في مذكراته أنه أعاد بناء كل بيت دمر في أضنه في مدة أربعة أشهر، وأعدم ما "لا يقل عن ثلاثين مسلماً" في أضنه وسبعة عشر في إرزين المجاورة، بينهم "عدد من أقدم العائلات وأرقاها". اتخذت هذه الإجراءات بهدف طمأنة الأرمن وإحباط التدخل الأوربي في آن، ونجحت مؤقتاً في منح بعض الوقت لتركيا الفتاة فيما يتعلق بالمسألة الأرمنية[15].

بينما جاهد العثمانيون للحفاظ على سلامة أراضيهم في شرق الأناضول، واجهوا أزمة جديدة في البحر المتوسط. كانت ولايتا بنغازي وطرابلس (في ليبيا الحالية) آخر ما يملكونه في شمال إفريقيا، بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر (1830)، وتونس (1881)، والاحتلال البريطاني لمصر (1882). أصبحت إيطاليا الآن دولة -استكملت توحيدها في مملكة واحدة عام 1871- وطمحت بامبراطورية في إفريقيا. وركزت حكومة الملك فيكتور عمانوئيل الثالث على ليبيا لتحقيق مطامحها الاستعمارية.

لم يستفز العثمانيون إيطاليا عام 1911 لتشن حرباً عليهم. لكن مع ضمان حياد البريطانيين والفرنسيين مسبقاً، عرفت روما بعدم وجود ما يعرقل تحقيق طموحاتها الامبراطورية في

شمال إفريقيا بالوسائل العسكرية. تذرعت بوصول شحنة أسلحة إلى الحاميات العثمانية في ليبيا، وعدتها تهديداً لسلامة المواطنين الإيطاليين الذين يعيشون في طرابلس وبنغازي، فأعلنت الحرب في 29 سبتمبر واجتاحت المدن الساحلية الليبية[16].

كان من المتعذر تماماً الدفاع عن المواقع العثمانية في ليبيا. فقد انتشر نحو 4200 جندي تركي في حصون معزولة من دون أي دعم بحري لحمايتهم من الجيش الإيطالي الغازي الذي زاد عدده على 34000 رجل. اعترف وزير الحربية العثماني دون حرج أمام ضباطه باستحالة الدفاع عن ليبيا. في الأسابيع الأولى من أكتوبر 1911، سقطت بلدات ولاية طرابلس الساحلية في غرب ليبيا، وبنغازي (في شرقها، وهي معروفة أيضاً باسم برقة) أمام جحافل الجيش الإيطالي المنتصر[17].

اتخذت الحكومة العثمانية وتركيا الفتاة موقفين مختلفين اختلافاً جذرياً من الغزو. إذ لم يعتقد الصدر الأعظم وأعضاء حكومته بإمكانية إنقاذ ليبيا، ومن ثم فضلوا التخلي عن المنطقة الهامشية في شمال إفريقيا على توريط قواتهم المسلحة في قتال لن تفوز فيه. لكن لم يقبل أعضاء تركيا الفتاة المتطرفون في مشاعرهم القومية بخسارة أرض عثمانية من دون قتال.

في أوائل أكتوبر 1911 سافر الرائد أنور إلى سالونيك للتحدث أمام اللجنة المركزية لجمعية الاتحاد والترقي. حث زملاءه في اجتماع استمر خمس ساعات على خوض حرب عصابات ضد الطليان في ليبيا. وأجمل خطة في رسالة بعث بها إلى صديق الطفولة والشقيق بالرضاعة، الملحق البحري الألماني هانز هومان: "سوف نجمع قواتنا في الداخل [الليبي]. ستبقى مجموعات من العرب [الركبان]، ومواطني البلد، بقيادة ضباط [عثمانيين] شباب بالقرب من الطليان، وتزعجهم ليل نهار. ويفاجئ كل جندي أو سرية صغيرة [إيطالية] وتباد. حين يكون العدو قوياً جداً، سوف تنسحب المجموعات إلى الأراضي المفتوحة وتواصل مناوشته في كل مناسبة"[18].

انطلق أنور إلى إسطنبول بعد ضمان موافقة جمعية الاتحاد والترقي على خطته، وركب متخفياً من هناك سفينة متجهة إلى الإسكندرية. تبع خطاه عشرات من الضباط الشباب

الوطنيين، متخذين من مصر منصة انطلاق لشن حرب عصابات ضد إيطاليا -منهم رائد شاب اسمه مصطفى كمال (أتاتورك المستقبل). بينما دخل آخرون البلاد عبر تونس. أعلنت الحكومة رسمياً تبرؤها من هؤلاء الضباط الشباب باعتبارهم "مغامرين يعملون ضد رغبات الحكومة العثمانية" (مع أن الخزينة العثمانية دفعت رواتب شهرية للقادة الذين يخدمون في ليبيا). دعا الضباط أنفسهم "فدائيين"، على استعداد للتضحية بحياتهم في سبيل قضيتهم[19].

ألقى أنور بنفسه في خضم الصراع الليبي بكل حماسة والتزام وإخلاص من اللحظة التي دخل فيها البلاد في نهاية أكتوبر. ارتدى الملابس العربية وركب الجمال للوصول إلى المناطق الداخلية. أغرم بحياة الصحراء بكل ما تتصف به من تقشف ومشقة، وأعجب بشجاعة البدو الذين تواصل معهم عبر مترجم نظراً إلى جهله باللغة العربية. كما أظهر رجال القبائل من جانبهم احتراماً شديداً لأنور. فقد كانت خطيبته الأميرة أمينة ناجية قريبة السلطان محمد الخامس. ومع أنها لم تتجاوز الثالثة عشرة آنذاك (تزوجا عام 1914 حين بلغت السابعة عشرة)، فإن الصلة بالأسرة السلطانية عززت موقف أنور إلى حد بعيد بين الليبيين. كتب يقول: "أنا هنا صهر السلطان، مبعوث الخليفة الذي يصدر الأوامر، وهذه الرابطة وحدها التي تساعدني"[20].

حصر أنور نطاق تحركاته ضمن منطقة بنغازي الشرقية. بينما تجمعت القوات المحتلة في ثلاثة من موانئ برقة: بنغازي، ودرنة، وطبرق. منعت المقاومة العنيدة للقبائل الليبية الجنود الطليان من تجاوز السهل الساحلي إلى الداخل الليبي. أقام أنور معسكره، بعد مسح للمواقع الإيطالية، على الهضبة المشرفة على ميناء درنة. وكان سكان المدينة الذين يبلغ عددهم عشرة آلاف معادين لجيش الغزو المؤلف من 15000 رجل من المشاة الطليان، الذين أصبحوا هدفاً رئيسياً للحرب التي شنها أنور. حشد الجنود العثمانيين الذين نجوا من الأسر لكن انهارت روحهم المعنوية، وجند رجال القبائل وأتباع الطريقة السنوسية القوية (طريقة دينية صوفية لها شبكات من الزوايا تمتد عبر أرجاء ليبيا الحضرية والريفية)، وانضم إلى قاعدته في عين المنصور ضباط آخرون من "الفدائيين" المنتمين إلى تركيا الفتاة. في الواقع،

وضع أنور، عبر عمله في ليبيا -تجنيد المحاربين المحليين تحت إمرة ضباط عثمانيين، بث مشاعر العداء الإسلامية للحكم الأجنبي لتدمير الأعداء الأوربيين، إنشاء شبكة استخبارية فعالة- القاعدة المؤسسة لخدمة سرية جديدة سوف تثبت تأثيرها القوي في الحرب العثمانية العظمى: "تشكيلات مخصوصة" (تنظيمات خاصة).

انضم كثير من رجال القبائل العرب إلى المتطوعين العثمانيين، وفقاً لرواية أنور. وقدروا حماسة أعضاء تركيا الفتاة وإخلاصهم وتفانيهم من أجل قضية الشعب الليبي، والمخاطرة بأرواحهم في سبيل تحرير القبائل من نير الحكم الأجنبي. ومع أنهم لم يشتركوا في اللغة نفسها، فقد تبين أن رابطة الإسلام متينة جداً بين ضباط تركيا الفتاة الناطقين بالتركية ورجال القبائل الليبيين الناطقين بالعربية. وصف أنور المقاتلين العرب في ليبيا بأنهم "مسلمون متعصبون يعدون الموت أمام العدو نعمة من الله". يصدق ذلك بوجه خاص على أتباع الطريقة السنوسية الصوفية الذين ارتبط ولاؤهم للسلطان العثماني بدوره كخليفة للمسلمين. ولم يتنكر أنور، العلماني المنتمي إلى تركيا الفتاة، لهذا الولاء للإسلام. بل رأى الدين قوة تعبوية فعالة لحشد المسلمين خلف السلطان-الخليفة العثماني لهزيمة أعدائهم -في الامبراطورية العثمانية والعالم الإسلامي الأوسع. كتب متأملاً في قوة الإسلام: "لا توجد جنسية في الإسلام. ونظرة واحدة إلى ما يجري في العالم الإسلامي تكفي". ومهما كانت الدروس الأخرى المستخلصة من الوقت الذي أمضاه أنور في ليبيا، فقد خرج بإيمان راسخ بقدرة الامبراطورية العثمانية على نشر الإسلام واستخدامه ضد أعدائها في الداخل والخارج[21].

خاض ضباط تركيا الفتاة ورجال القبائل العرب بين أكتوبر 1911 ونوفمبر 1912 حرب عصابات ناجحة إلى حد لافت ضد الطليان. وعلى الرغم من تفوق هؤلاء في العدد والأسلحة الحديثة، فإنهم عجزوا عن الخروج من مواقعهم المحصنة في السهل الساحلي واحتلال الداخل الليبي. أوقعت العصائب العربية المقاتلة خسائر جسيمة في الطليان، حيث قتل 3400 جندي وجرح أكثر من 4000 على مدار السنة. كما أصابت الحرب بأضرارها أيضاً الخزينة الإيطالية، بينما كان العثمانيون ينفقون مبلغاً لا يتجاوز 25000 ليرة تركية (كانت الليرة تساوي آنذاك نحو 0.90 جنيهاً أو 4.40 دولاراً) في الشهر لدعم أنور

في حصاره لدرنة. وبدا لوهلة أن مقامرة تركيا الفتاة في ليبيا قد تنجح وربما يعود الطليان أدراجهم إلى البحر[22].

وحين عجز الطليان عن الفوز في ليبيا وسّعوا النزاع إلى جبهات أخرى. فقد عرفوا أن الحرب لن تنتهي إلا حين تتنازل الحكومة العثمانية عن ليبيا وتمنحها إيطاليا ضمن معاهدة سلام رسمية. ومن أجل الضغط على إسطنبول لاستجداء السلام، هاجمت السفن الإيطالية الأراضي العثمانية شرق البحر المتوسط؛ فقصفت ميناء بيروت في مارس 1912، واحتل الجنود الطليان الدوديكانيز (أرخبيل من الجزر في بحر إيجة تهيمن عليه رودس وهو الآن جزء من اليونان) في مايو من السنة نفسها. وفي يوليو، أرسلت البحرية الإيطالية زوارق طوربيد إلى الدردنيل. أخيراً، لعب الطليان بورقة البلقان. دخلت اليونان وصربيا والجبل الأسود وبلغاريا في تحالفات ضد المحتل العثماني السابق، ولكل منها مطامح إقليمية في المناطق العثمانية في البلقان -في ألبانيا، ومقدونيا، وتراقيا. كان التاج الإيطالي مرتبطاً بالمصاهرة مع ملك الجبل الأسود نيقولا الأول، وشجعه الطليان على إعلان الحرب على السلطنة في 8 أكتوبر 1912. ولم يكن إعلان البلدان الأخرى الحرب سوى مسألة وقت.

استفز التهديد الوشيك للحرب في البلقان أزمة امتدت من إسطنبول إلى ليبيا. تركت الحكومة العثمانية قلب الامبراطورية في البلقان مكشوفاً عبر الدفاع عن ولايات بعيدة مثل طرابلس وبنغازي. وسرعان ما خلّت المثالية مكانها لواقعية جديدة. وبعد عشرة أيام من إعلان الجبل الأسود الحرب، استكملت الامبراطورية العثمانية معاهدة سلام مع إيطاليا تخلت بموجبها عن ليبيا للحكم الإيطالي. ترك الضباط "الفدائيون"، على الرغم من شعورهم بالخجل من خذلان رفاقهم الليبيين، الحركة السنوسية تواصل حرب العصابات وحدها دون معين، وعادوا أدراجهم بسرعة إلى إسطنبول للانضمام إلى الكفاح الوطني في سبيل البقاء ضمن ما عرف بحرب البلقان الأولى.

* * *

كانت دول البلقان كلها جزءاً من الامبراطورية العثمانية ذات يوم. لكن القومية ترسخت بين الجماعات الإثنية والدينية المتنوعة في جنوب شرق أوربا في مسار القرن التاسع عشر. وشجعت القوى الأوربية بكل حماسة ونشاط هذه الحركات القومية في مسعاها للانفصال عن الامبراطورية العثمانية، ما أوجد دولًا متفجرة تدور في فلكها. كانت مملكة اليونان أول من ضمنت استقلالًا كاملًا عام 1830 بعد عقد من الحرب. بينما حصلت صربيا على الاعتراف الدولي بوصفها إمارة تحت السيادة العثمانية عام 1829، ونالت استقلالها الكامل في مؤتمر برلين عام 1878. وفيه أيضاً، نالت إمارة الجبل الأسود استقلالها، بينما منحت بلغاريا استقلالاً ذاتياً تحت الحكم العثماني، لتنال استقلالها الكامل في سبتمبر عام 1908. لم تقنع أي من دول البلقان المستقلة بالأراضي التي تسيطر عليها -بل طمحت بالاستيلاء على أخرى ما زالت تحت الحكم العثماني في ألبانيا، ومقدونيا، وتراقيا. بينما تزايد رفض العثمانيين -من جانبهم- لمطالب شعوب البلقان التي خضعت لهم سابقاً واستخفوا بالخطر الداهم الذي مثلته لآخر ولايات الامبراطورية الباقية في أوربا.

انهارت مشاعر الرضا عن الذات لدى العثمانيين حين انتهزت دول البلقان فرصة الحرب الإيطالية-التركية لتحقيق مطامحها الإقليمية. فقد أعلنت دول الجبل الأسود، وصربيا، واليونان، وبلغاريا الحرب على السلطنة العثمانية في تتابع سريع (أكتوبر 1912). تمتعت دول البلقان الحليفة منذ البداية بتفوق عددي واستراتيجي على حكامها السابقين. فقد بلغ إجمالي قوات الدول البلقانية مجتمعة 715.000 رجل، مقارنة بنحو 320.000 من الجنود العثمانيين في الميدان[23].

استغل اليونانيون تفوقهم البحري على العثمانيين لتحقيق مآربهم، إذ لم يكتفوا بضم كريت واحتلال عدد من الجزر في بحر إيجة، بل استخدموا بحريتهم لمنع العثمانيين من إرسال التعزيزات إلى قواتهم بالبحر. استولت اليونان في 8 نوفمبر على سالونيك، مهد ثورة تركيا الفتاة. كما احتلت معظم مناطق جنوب ألبانيا. بينما هاجمت قوات صربيا والجبل الأسود مقدونيا وألبانيا من الشمال لاستكمال غزو تلك المناطق. سقطت كوسوفو بأيدي الصرب في 23 أكتوبر.

خاض البلغار أعنف المعارك مع الترك. فقد تمكنوا من اختراق الخط العثماني الأول في كيركلاريلي (24 أكتوبر)، والخط الثاني في لوليبورغاز (2 نوفمبر) قبل الزحف إلى شاتالجا، على بعد أربعين ميلًا من إسطنبول. حوصر الجنود العثمانيون المدافعون عن أدرنة (أدريانوبل القديمة، وهي مدينة في تركيا الحالية بالقرب من حدود اليونان وبلغاريا) حين طلب الباب العالي هدنة في أوائل ديسمبر 1912. وخلال شهرين من التنازل عن ليبيا للحكم الإيطالي، تعرض الجيش العثماني لهزيمة ساحقة وبدت خسارة آخر الولايات الأوربية أمراً مؤكداً.

كان كامل باشا الليبرالي يرأس الحكومة العثمانية. وبسبب الخصومة الطويلة بين الليبراليين وأعضاء جمعية الاتحاد والترقي، استبعد هؤلاء من حكومته. اتخذ الليبراليون والاتحاديون، في مواجهة الهزيمة العسكرية الوشيكة، آراء متعارضة جذرياً. إذا طالب الليبراليون بالسلام لتجنب خسارة مزيد من المناطق والأراضي وحماية إسطنبول من الخطر. بينما دعا الاتحاديون، من جهة أخرى، إلى شن الحرب مجدداً لاستعادة الأراضي العثمانية الأساسية -أدرنة أولاً وقبل كل شيء. وعندما انتقد الاتحاديون إدارة الحرب، أمر كامل باشا بتشديد القيود على أنشطة فروع الجمعية، وأغلق صحيفتها، واعتقل عدداً من أبرز الاتحاديين.

حوصر أنور في خضم هذه التوترات العسكرية والسياسية حين عاد إلى إسطنبول من قتال الطليان في ليبيا. كتب في نهاية ديسمبر 1912: "أجد نفسي في بيئة عدائية كلية. [صحيح أن] أعضاء الحكومة كلهم، إضافة إلى وزير الحربية، على قدر كبير من الود والتعاطف، لكن أعرف أنهم يرسلون الجواسيس خلفي". زار الجبهة عدة زيارات في شاتالجا وعاد مقتنعاً بأن العثمانيين في موقف أفضل من البلغار. ولم يكن من المفاجئ أن يصبح مدافعاً صريحاً عن مواصلة الحرب لنجدة أدرنة. "إذا سلمت الحكومة أدرنة دون بذل أي جهد، سوف أستقيل من الجيش، أنا أدعو علناً إلى الحرب ولا أعرف ما قد أفعل -أو بالأحرى لا أرغب في الكشف عما يمكن أن أفعل"[24].

اتخذ أنور إجراءً صارماً حين اقتنع بأن كامل باشا على وشك عقد صفقة صلح يسلم عبرها أدرنة إلى الحكم الأجنبي. ففي 23 يناير 1913، هرول عشرة من المتآمرين المسلحين عبر شوارع إسطنبول المبلطة إلى مكاتب الباب العالي. وحين اقتحموا اجتماع الحكومة،

تبادل أنور ورجاله إطلاق النار مع حرس الصدر الأعظم. قتل في المعركة أربعة رجال، منهم وزير الحربية ناظم باشا، قبل أن يضغط أنور بفوهة مسدسه على رأس كامل باشا ويطالبه بالاستقالة. أسرَّ أنور فيما بعد قائلاً: "انتهى كل شيء في ربع ساعة". ذهب بعد ذلك إلى القصر لإبلاغ السلطان بما فعل والمطالبة بتسمية صدر أعظم جديد. كلف السلطان محمد الخامس رجل دولة متمرساً وجنرالًا سابقاً، محمود شوكت باشا، بتشكيل حكومة وحدة وطنية. وفي خلال أربع ساعات من "الهجوم [الشائن] على الباب العالي"، شكلت وزارة جديدة تمثلت مهمتها في استعادة الاستقرار إلى سياسة السلطنة التي مزقتها الحرب[25].

ومع أن أعضاء جمعية الاتحاد والترقي قادوا الانقلاب على حكومة كامل باشا، فإنهم لم يستغلوا الفرصة للاستيلاء على السلطة السياسية. كان محمود شوكت باشا متعاطفاً مع الجمعية، لكنه لم يكن اتحادياً. لقي الصدر الأعظم الجديد التشجيع على تشكيل ائتلاف غير حزبي لتوفير الاستقرار والوحدة بعد الفئوية والحزبية والكوارث العسكرية التي أصابت السلطنة مؤخراً. لم يعين سوى ثلاثة اتحاديين في حكومته، وكلهم من المعتدلين. أما الثلاثي الذي سيحكم الامبراطورية مستقبلاً -طلعت وأنور وجمال- فقد ظل خارج الحكومة. قبل جمال منصب حاكم إسطنبول العسكري، وبقي طلعت أميناً عاماً للجمعية، وذهب أنور إلى الحرب.

سارت الأمور من سيئ إلى أسوأ بالنسبة إلى الامبراطورية العثمانية حين استؤنفت الحرب. انتهت الهدنة دون اتفاق بين المتحاربين في 3 فبراير 1913. وبعد انقطاع خطوط الإمداد والاتصال لإعادة تموين المدن المحاصرة أو نجدتها، شاهد العثمانيون يائسين آخر ممتلكاتهم الأوربية تسقط تباعاً بأيدي دول البلقان الطامحة. استولى اليونانيون على بلدة يانين المقدونية (أيوانينا في اليونان الحالية) في 6 مارس. بينما تمكنت قوات الجبل الأسود من تطويق المدافعين العثمانيين في إشكودرا (شكودير في ألبانيا الحالية). لكن أتت أعنف ضربة تلقتها الامبراطورية برمتها، في لحظة أزمة وطنية عميقة، حين حاصر البلغار المدافعين الجياع عن أدرنة وأجبروهم على الاستسلام في 28 مارس.

عرض محمود شوكت باشا هدنة فورية بعد سقوط أدرنة، واستؤنفت المفاوضات بين العثمانيين ودول البلقان في لندن نهاية مايو، وتم التوصل إلى معاهدة سلام كاملة بوساطة بريطانية في 30 مايو 1913. تخلت الامبراطورية العثمانية وفقاً لمعاهدة لندن عن 60.000 ميل مربع من الأراضي ونحو 4 ملايين من السكان، وسلمت جميع ممتلكاتها الأوربية باستثناء جزء صغير من تراقيا الشرقية، المنطقة الخلفية من إسطنبول، كما حددها خط ميدي-إينيز. ومثلما كانت الحال في الحرب الإيطالية-التركية، لحقت بالعثمانيين هزيمة منكرة.

لم تكن خسارة ليبيا مهمة بالمقارنة مع التخلي عن ألبانيا، ومقدونيا، وتراقيا. لقد ظلت هذه المناطق الأوربية، منذ الاستيلاء عليها من الامبراطورية البيزنطية قبل خمسة قرون، تمثل القلب الاقتصادي والإداري للعالم العثماني. وعدت الولايات الأكثر ازدهاراً وتطوراً في الامبراطورية. وتضاعفت خسارة العائدات بالتكاليف الضخمة لحرب البلقان الأولى على الخزينة العثمانية. كان آلاف اللاجئين بحاجة إلى إعادة توطين، بينما اجتاحت الأمراض مخيماتهم الملوثة. كما واجهت الحكومة نفقات هائلة لإعادة بناء الجيش العثماني بعد الخسائر التي أصيب بها في الرجال والعتاد نتيجة حربين فاشلتين.

ربما كانت أكبر العقبات التي واجهها العثمانيون الروح المعنوية لعامة الناس. فقد عدت حتى خسارة حرب مع قوة أوربية متقدمة نسبياً مثل إيطاليا ضربة موجعة، لكن المصيبة التي لم يقبلها الجيش العثماني ولا الرأي العام هي الهزيمة أمام دول البلقان الصغيرة التي كانت ذات يوم جزءاً من الامبراطورية. كتب يوسف أكشورا، أحد مفكري تركيا الفتاة: "لقد هزمنا البلغار، والصرب، واليونانيون -الذين أخضعناهم خمسة قرون، ونظرنا إليهم باحتقار. هذه الحقيقة، التي لم نكن نستحضرها حتى بخيالاتنا، سوف تفتح عيوننا.. إذا لم نصبح موتى بالكامل". أطلق الأوربيون المتشائمون في القرن التاسع عشر على الامبراطورية العثمانية اسم "رجل أوربا المريض". لكن حتى أكثر أعضاء تركيا الفتاة تفاؤلاً لم يستبعدوا احتمال موت الرجل المريض مع نهاية حرب البلقان الأولى[26].

استقطبت الهزيمة السياسة في إسطنبول، فقد بررت جمعية الاتحاد والترقي انقلابها العسكري على حكومة كامل باشا الليبرالية (يناير 1913) باعتباره إجراء ضرورياً لمنع

خسارة أدرنة. أما الآن بعد أن سقطت، فقد قرر الليبراليون تصفية الحسابات القديمة وإخراج الاتحاديين من ميدان السياسة. نشر جمال، أحد أبرز السياسيين الاتحاديين والحاكم العسكري لإسطنبول، عملاءه لمراقبة كل من يشتبه بتآمره على الحكومة (غير الحزبية). وعلى الرغم من جهده المبذول، لم يتمكن من حماية الصدر الأعظم. ففي الحادي عشر من يونيو، بعد بضعة أيام من توقيع معاهدة لندن والتنازل عن أدرنة، اغتيل محمود شوكت باشا أمام مبنى الباب العالي.

حول الاتحاديون الاضطراب الذي أعقب اغتيال الصدر الأعظم إلى فائدة سياسية لمصلحتهم. أطلق جمال حملة تطهير حطمت قوة الليبراليين إلى الأبد. اعتقل العشرات، وحوكم اثنا عشر زعيماً بسرعة ونفذ فيهم حكم الإعدام في 24 يونيو، بينما حكم على عدد من قادة المعارضة في الخارج بالإعدام غيابياً. كما نفي العشرات. لقد اختار أعضاء تركيا الفتاة، منذ ثورة عام 1908، أن يبقوا خارج الحكم. لكن قرروا أخيراً أن يحكموا في عام 1913.

كلف السلطان سعيد حليم باشا، وهو اتحادي وينتمي إلى العائلة المالكة المصرية، بتشكيل الحكومة اللاحقة في يونيو 1913. احتلت أكثر شخصيات تركيا الفتاة نفوذاً وتأثيراً مناصب قيادية وطنية لأول مرة في حكومة سعيد حليم. فقد رقي أنور وطلعت وجمال إلى رتبة "الباشوية"، أعلى مرتبة في الخدمة المدنية والعسكرية. دخل طلعت باشا الحكومة وزيراً للداخلية. وبرز أنور باشا باعتباره أقوى الجنرالات في الجيش، ثم عين وزيراً للحربية في يناير 1914. بينما بقي جمال حاكماً لإسطنبول. وحكم الثلاثي السلطنة العثمانية بعد عام 1913، وكانوا أقوى من السلطان وصدره الأعظم (رئيس الوزراء).

حظيت جمعية الاتحاد والترقي بسلطة لا تضاهى حين تمكنت الحكومة التي يقودها الاتحاديون من استعادة أدرنة في يوليو 1913. كانت هذه في حقيقة الأمر هدية من دول البلقان المنافسة لبلغاريا. فقد أخفق توزيع الغنائم بتلك الطريقة التي لم تعتمد على أسس واضحة بين الدول المنتصرة في حرب البلقان الأولى حين اعترفت القوى الأوروبية بإعلان ألبانيا استقلالها. أيدت النمسا وإيطاليا على وجه الخصوص إنشاء دولة ألبانيا لتكون منطقة عازلة لاحتواء صربيا ومنعها من التحول إلى قوة بحرية في الأدرياتيكي. وأجبرت القوى

الأوربية صربيا والجبل الأسود على الانسحاب من الأراضي الألبانية التي غزتها في حرب البلقان الأولى. شعر الصرب بالإحباط لخسارة الأراضي الألبانية، وسعوا إلى التعويض في الأراضي المقدونية التي تحتلها بلغاريا واليونان. رفض البلغار، الذين اعتقدوا بأنهم تحملوا العبء الأكبر في قتال الترك، التنازل عن أي منطقة إلى الصرب كما رفضوا مسعى الروس للتوسط. وفي ليلة 29–30 يونيو 1913، هاجم البلغار المواقع الصربية واليونانية في مقدونيا، لتشتعل شرارة حرب البلقان الثانية.

وجدت بلغاريا نفسها في مواجهة جيرانها في البلقان كلهم، وذلك حين تحالفت رومانيا والجبل الأسود مع اليونان وصربيا ضدها. اضطر البلغار، وهم يحاربون على جبهات ممتدة وطويلة، إلى نشر قواتهم بعيداً عن الحدود العثمانية لمنع مزيد من الخسائر أمام اليونان وصربيا. كانت تلك بالضبط البداية التي حلم بها أنور –لكنه ظل يواجه معارضة من حكومة سعيد حليم باشا، في خوفها الدائم من أن يؤدي مزيد من المغامرات العسكرية إلى سقوط الامبراطورية وفنائها. كتب أنور: "إذا كان أولئك المسؤولون رسمياً عن الحكم يفتقدون شجاعة إصدار الأوامر للجيش بدخول المعركة، فسوف أدفعه إلى الزحف من دون أوامر". أخيراً، تلقى أنور الأوامر، وقاد كتيبة من الفرسان والمشاة عبر الحدود المعينة حديثاً باتجاه أدرنة[27].

مع اقتراب القوات العثمانية من أدرنة في 8 يوليو، تعرضت لوابل من نيران المدافعين البلغار. أوقف أنور تقدم قواته إلى أن تمكن من دخول المدينة في اليوم اللاحق دون مقاومة، بعد اقتناع البلغار وإخلائها. أرسل وحدة من الخيالة لمطاردة البلغار المنسحبين بينما عزز المواقع العثمانية في المدينة التي دمرتها الحرب. لم تكتمل الفرحة بتحرير أدرنة جراء الكارثة الإنسانية التي واجهت الجنود العثمانيين. وصف أنور المآسي الفظيعة لـ"الترك المساكين الذين جلسوا فوق بيوتهم المدمرة، والمسنين الذين يحملون ندوب الفواجع الشنيعة، واليتامى المتكلين على إحسان الحكومة، وآلاف الأهوال التي أقابلها في كل خطوة"[28].

أعاد الجنود العثمانيون، خلال شهر يوليو، احتلال معظم تراقيا الشرقية، بعد أن لحقت الهزيمة بالبلغار على أيدي جيرانهم في البلقان. في العاشر من أغسطس، طلبت بلغاريا الهدنة،

تاركة أدرنة وتراقيا الشرقية آمنة في أيدي العثمانيين. احتفى الشعب بأنور مرة أخرى؛ "بطل الحرية" أصبح الآن "محرر أدرنة". نشوة الانتصار البهيج ميزت الاستجابة الشعبية في أرجاء الامبراطورية. حازت جمعية الاتحاد والترقي تأييداً غير مسبوق من الجماهير العثمانية بسبب دورها في تحقيق الانتصار بعد سلسلة الهزائم المذلة. هلل أنور لآخر انتصاراته، ملاحظاً كيف نالت مآثره إعجاب العالم الإسلامي برمته. أسر إلى صديقه الألماني هانز هومان: "أشعر بالسعادة كطفل. أنا الوحيد الذي استطاع القفز إلى أدرنة في ليلة واحدة"[29].

* * *

فشل نظام تركيا الفتاة، جراء الاضطراب السياسي والضربات الموجعة التي تلقاها من الحرب، في الارتقاء إلى مستوى المثل الليبرالية لثورة عام 1908. رد الاتحاديون على التهديدات الخارجية والتحديات الداخلية بتشديد قبضتهم على تلك الولايات التي بقيت تحت السيطرة العثمانية دون منازع. تبنت الحكومة عدداً من السياسات التي قصد بها محاربة القوى الجاذبة التي تمزق الامبراطورية بواسطة حكومة أكثر مركزية. وسوف يطبق حكم القانون، ومن ضمنه إجراءات لا تحظى بالشعبية مثل الضرائب والتجنيد، بالقدر ذاته من الصرامة والقسوة في مختلف ولايات الامبراطورية دون استثناء. ويمارس الضغط على جميع العثمانيين لاستخدام التركية في تعاملاتهم الرسمية مع الدولة.

استهدفت هذه الإجراءات المركزية الولايات العربية، في محاولة لمنع ظهور حركات قومية انفصالية قد تؤدي إلى نيل العرب استقلالهم على غرار شعوب البلقان. حلت التركية محل العربية في المدارس والمحاكم والمكاتب الحكومية في سوريا والعراق على نحو متزايد بعد عام 1909. كما ذهبت الوظائف الحكومية المرموقة إلى المسؤولين الأتراك، بينما شغل الموظفون العرب الذين تمتعوا بالخبرة والدراية أدنى الوظائف مرتبة وأهمية. وكما هو متوقع، دفعت هذه الإجراءات غير الشعبية كثيراً من الرعايا العرب الموالين للسلطنة، الذين أصيبوا بخيبة الأمل بسبب التحول الاستبدادي لثورة تركيا الفتاة، إلى تشكيل منظمات المجتمع المدني لمواجهة سياسة "التتريك". دعت هذه الجمعيات "العروبية" التي لم تتأثر بالنزعة القومية بعد إلى مزيد من الحقوق العربية الثقافية والسياسية ضمن إطار السلطنة العثمانية.

لكن في مسار الحرب الكبرى، تطلع عدد متزايد من هؤلاء الناشطين العرب إلى الاستقلال الصريح والكامل.

أسست الجمعيات العربية في إسطنبول والولايات العربية. ولعب الأعضاء العرب في البرلمان العثماني دوراً فاعلاً في اجتماعات جمعية الإخاء العربي-العثماني التي اتخذت من إسطنبول مقراً لها، إضافة إلى النادي الأدبي، الذي ناقش الشؤون الثقافية ذات الاهتمام المشترك. كما أنشئت جمعيات للإصلاح في بيروت والبصرة، وافتتح النادي العلمي الوطني في بغداد. عقدت هذه الجمعيات اجتماعاتها علناً، بعلم السلطات العثمانية الكامل، وخضعت للمراقبة والترصد من الشرطة السرية[30].

أنشئت اثنتان من أهم الجمعيات العربية وأشدها تأثيراً بعيداً عن رقابة الأتراك وشرطتهم. فقد أسست جمعية العربية الفتاة، المعروفة أيضاً باسم الفتاة، مجموعة من المسلمين السوريين في باريس عام 1909. سعت الجمعية إلى مساواة العرب والأتراك ضمن إطار امبراطورية عثمانية يعاد تنظيمها لتصبح دولة ثنائية القومية، تركية-عربية، وفق نموذج امبراطورية هابسبورغ النمساوية-المجرية. ومثلما يتذكر توفيق الناطور، أحد المؤسسين: "ما أردناه كله، نحن العرب، التمتع بالحقوق والواجبات ذاتها التي يتمتع بها الترك أنفسهم في الامبراطورية العثمانية، وأن تتألف الامبراطورية من قوميتين كبيرتين: الترك والعرب"[31].

وفي القاهرة، أسست جماعة من السوريين المهاجرين الذي يشتركون في التوجهات نفسها حزب اللامركزية العثماني عام 1912. وأكد الوطنيون العرب المقيمون في القاهرة، في رفض مباشر للسياسات المركزية التي تنتهجها تركيا الفتاة، استحالة أن تحكم السلطنة العثمانية، بتنوعها الإثني والعرقي كله، إلا بنظام فيدرالي يمنح قدراً كبيراً من الاستقلال الذاتي للولايات. وجدوا مثالاً يحتذى في حكومة سويسرا اللامركزية، بكانتوناتها المستقلة ذاتياً. لكن حزب اللامركزية دعم وحدة الامبراطورية تحت راية السلطان العثماني وأيد استخدام التركية إلى جانب اللغات المحلية الأخرى في كل ولاية.

نظر الاتحاديون بقلق متعاظم إلى انتشار الجمعيات العربية. وفي ذروة الحرب في البلقان، لم يكن أعضاء تركيا الفتاة في وضع مزاجي يسمح بالقبول بمطالب اللامركزية أو الملكية المزدوجة. وحين نشرت جمعية بيروت الإصلاحية في فبراير 1913 بياناً يدعو إلى اللامركزية الإدارية، تعرضت لقمع السلطات. في 8 أبريل أغلقت الشرطة مكاتب الجمعية وأمرت بحل التنظيم. فدعا الأعضاء النافذون إلى إضراب عم المدينة وأرسلوا إلى الصدر الأعظم مناشدات تحتج على الإغلاق. اعتقل عدد منهم بتهمة التهييج. وشهدت بيروت فترة من الأزمة السياسية المكثفة استمرت أسبوعاً إلى أن أطلق سراح المعتقلين وأنهي الإضراب. لكن جمعية بيروت الإصلاحية لم تفتح أبوابها مرة أخرى قط، واضطر أعضاؤها إلى الاجتماع سراً مع تحول النزعة العروبية إلى العمل السري.

نقل العروبيون قضيتهم إلى المجتمع الدولي حين واجهوا معارضة عثمانية متزايدة. قرر أعضاء [العربية] الفتاة في باريس عقد اجتماع في العاصمة الفرنسية، للتمتع بحرية مناقشة السياسة دون خوف من القمع العثماني ومن أجل الحصول على الدعم الدولي لمطالبهم. وأرسلت الدعوات إلى الجمعيات العربية في الامبراطورية العثمانية ومصر وأوربا والأميركيتين. وعلى الرغم من الجهد الذي بذله السفير العثماني في فرنسا لمنع الاجتماع من الانعقاد، وصل ثلاثة وعشرون مندوباً من شتى الولايات العربية في السلطنة -أحد عشر مسلماً وأحد عشر مسيحياً، ويهودي واحد- إلى باريس للمشاركة في المؤتمر العربي الأول، الذي افتتح أمام حشد مؤلف من 150 مراقباً في 18 يونيو 1913.

كان توفيق السويدي، من سكان بغداد، واحداً من اثنين شكلا الوفد العراقي إلى المؤتمر (الثاني هو اليهودي سليمان عنبر، من بغداد أيضاً). بينما أتى جميع المشاركين الآخرين من بلاد الشام (سوريا الكبرى). اعتنق السويدي المبادئ العروبية مؤخراً. قال فيما بعد متذكراً: "وكل ما كنت أعرفه هو أنني كنت مسلماً عثمانياً عربياً لا أملك من العروبة إلا شعوراً وهمياً". تضلع السويدي من التركية بعد أن حصل على شهادة الحقوق من إسطنبول عام 1912 ثم انتقل إلى باريس لمتابعة دراساته القانونية. والتقى هناك بمجموعة من الوطنيين

العرب الذين "أثروا تأثيراً عميقاً" في آرائه السياسية. ثم انضم إلى العربية الفتاة وأدّى دوراً مفتاحياً في تنظيم المؤتمر العربي[32].

تابع متذكراً: "لقد كان المؤتمر العربي الأول... ميداناً تتناحر فيه حقاً ثلاث قوى". تألفت المجموعة الأولى من "الشباب العربي المسلم" الذين سعوا إلى التمتع بـ"الحقوق المتساوية مع الأتراك". بينما ضمت الثانية المسيحين العرب الذين هم "حاقدون حقد الأعداء على الأتراك". ورفض السويدي الفصيل الثالث بوصفه [قوة] "مذبذبة"، أشخاص اعتبرهم انتهازيين وعاجزين "إذا [خيّروا] بين العرب والترك"، وسوف ينضمون في نهاية المضاف إلى أي معسكر يدعم مصالحهم المادية.

في أثناء الجلسات التي استمرت ستة أيام، وافق المؤتمر على عشرة قرارات تؤطر أجندة الإصلاح التي وضعتها الوفود، حيث طالب بالحقوق السياسية للعرب ومشاركتهم الفاعلة في إدارة شؤون السلطنة العثمانية عبر اللامركزية. إضافة إلى الاعتراف بالعربية لغة رسمية والسماح للنواب العرب بمخاطبة البرلمان بلغتهم الأم. وسعى المؤتمرون إلى تقييد الخدمة العسكرية ضمن ولايات إقامة المجندين "إلا في الظروف الاستثنائية القصوى". وأجازوا قراراً يعبر عن "تعاطفهم مع مطالب العثمانيين الأرمن اعتماداً على اللامركزية"، وهو إجراء لا بد أن يثير المخاوف في إسطنبول. كما عقدوا العزم على تقاسم قراراتهم مع الباب العالي والحكومات الصديقة للسلطنة. واختتم المؤتمر أعماله ليلة 23 يونيو.

ما كان باستطاعة المؤتمرين اختيار لحظة أشد صعوبة لبدء المفاوضات مع أعضاء تركيا الفتاة. وقع العثمانيون معاهدة لندن (30 مايو) لإنهاء حرب البلقان الأولى، وخسارة ألبانيا ومقدونيا وتراقيا، بينما اغتيل الصدر الأعظم محمود شوكت باشا في 11 يونيو. وكان الاتحاديون في خضم عملية تطهير لخصومهم الليبراليين من الحكومة في الوقت الذي انعقد فيه المؤتمر في باريس وتولي زمام السلطة للمرة الأولى. لكن الاجتماع شكل تهديداً داهماً إلى حد تعذر تجاهله. فإذا فشل العثمانيون في الاستجابة، سوف يلجأ الوطنيون العرب بالتأكيد إلى القوى الأوروبية طلباً للدعم، ولم تتكتم فرنسا على مصالحها في سورية ولبنان.

أرسل أعضاء تركيا الفتاة السكرتير العام مدحت شوكرو، في محاولة لاحتواء الضرر ودفع الوفود إلى التفاوض على أجندة إصلاحية متفق عليها. كان توفيق السويدي يرتاب بنوايا مدحت ومهمته، التي تقاطعت كما زعم مع "الجالسين على السياج" "ليتصل بهم ويستميلهم إلى جانب الحكومة العثمانية". لكن الوسطاء العثمانيين استطاعوا التوصل إلى اتفاق إصلاحي يحاول التعامل مع قرارات المؤتمر العربي والاهتمام بها. عرض اتفاق باريس توسيع مشاركة العرب في حكم السلطنة العثمانية على المستويات كافة وزيادة استخدام اللغة العربية، مع التأكيد أن الجنود سوف يخدمون "في البلدان القريبة"[33].

دعا الباب العالي أعضاء الوفود المشاركة في المؤتمر العربي إلى إسطنبول للاحتفال باتفاق باريس. واستقبل الثلاثة الذين قبلوا الدعوة استقبالاً حاراً في عاصمة السلطنة، حيث اجتمعوا بولي العهد السلطان محمد رشاد، والصدر الأعظم سعيد حليم باشا، والثلاثي الحاكم أنور وطلعت وجمال. كما أقيمت على شرفهم مآدب عشاء تبادلوا فيها الكلمات الودية عن الأخوة التركية-العربية مع مسؤولين في أعلى مستويات الحكومة العثمانية.

تعذر على حفلات العشاء الرسمية والخطب المنمقة تقنيع حقيقة أن الحكومة العثمانية لم تكن تفعل شيئاً لتطبيق أجندة الإصلاح في الولايات العربية. ومثلما استنتج توفيق السويدي: "ولكن المطلعين على بواطن الأمور كانوا يعتقدون بأن هذه الظواهر ليست في الحقيقة إلا مداورات لكسب الوقت، والبطش بمن قام بتأليف المؤتمر وجمعه من العرب عندما يحين الوقت المناسب". عاد أعضاء الوفد إلى بيروت بخفي حنين في سبتمبر 1913. أما الطموحات العربية، التي أثارتها فورة النشاط، فقد أحبطت في نهاية المطاف. ومثلما أشار السويدي (مستفيداً من تحليل الحوادث بعد وقوعها)، أصبح منظمو المؤتمر العربي من المشتبه بهم والملاحقين. وبعد ثلاث سنوات من انعقاد المؤتمر، شنق عدد منهم بسبب آرائهم السياسية القومية[34].

* * *

شهدت الدولة العثمانية على مدى خمس سنوات ثورة، وثلاث حروب كبرى ضد قوى خارجية، وعدداً من الاضطرابات الداخلية راوحت بين المذابح الطائفية والانتفاضات الانفصالية -هددت كلها بمزيد من التدخل الأجنبي. يصعب وصف الحجم الهائل للخسائر العثمانية في هذه الحقبة. فقد تنازلت السلطنة عن آخر ممتلكاتها في شمال إفريقيا وفي البلقان، وسلمتها مع ملايين الرعايا إلى الحكم الأوربي. بينما دفعت حالة الطوارئ الناجمة الإصلاحيين العثمانيين إلى التخلي عن ليبراليتهم في محاولة يائسة للحفاظ على الامبراطورية ومنع انهيارها الكلي. وارتقت الحركة الدستورية، التي تحدت منذ عام 1908 السلطة المطلقة للسلطان عبر أزمات متلاحقة، إلى حكومة أشد استبداداً مع نهاية عام 1913، بقيادة الاتحاديين المثاليين الثلاثة: أنور وطلعت وجمال.

منح تحرير أدرنة الامبراطورية العثمانية أملاً جديداً بمستقبل أفضل. وأثبت الجيش العثماني قدرته على استعادة الأراضي التي خسرتها. كتب أنور مهللاً: "لدينا الآن جيش يمكن أن نعهد إليه بمصلحة البلاد بكل ثقة، ويعد أكثر قدرة بألف مرة على أداء واجبه مقارنة بما كانت عليه الحال عند بدء هذه الحرب التي تصيب النفس بالكآبة، على الرغم من جميع الخسائر التي أصابتنا". ومع أن الخسارة الإقليمية الفادحة في شمال إفريقيا والبلقان أمر مؤسف ومحزن، فإن الامبراطورية العثمانية خرجت كتلة متجاورة من الأراضي التي تضم الولايات التركية والعربية. أما تلاحم مثل هذه الامبراطورية الإسلامية الآسيوية والمنطق الكامن وراءها، فربما زادا صمودها في وجه التحديات الداخلية والخارجية مقارنة بحال الامبراطورية السابقة[35].

راودت الاتحاديين آمال بمستقبل أفضل، لكنهم شهدوا التهديدات تأتي من داخل الحدود العثمانية ومن خارجها. أقلقهم احتمال أن يخضع العرب لحركتهم القومية، ووجدوا في المطامح الأرمنية تهديداً وجودياً للامبراطورية العثمانية. فقد مثلت الولايات في شرق الأناضول، التي كانت بؤرة المطالب الإصلاحية الأرمنية وصادقت عليها القوى الأوربية، المنطقة الحيوية للولايات التركية. أما التفاعل بين الجاليات الأرمنية عبر الحدود التركية-الروسية فقد فاقم خطر النزعة الانفصالية الأرمنية عن الامبراطورية العثمانية.

عد أعضاء تركيا الفتاة روسيا أعظم تهديد مفرد لبقاء السلطنة. فقد سعت علناً، بأطماعها الإقليمية في شرق الأناضول، والمضائق، والعاصمة العثمانية نفسها، إلى إسقاط العثمانيين وإزالة دولتهم. ولم يكن بالمستطاع احتواء مطامح دولة كبرى معادية إلا بشراكة العثمانيين مع قوة أوربية صديقة. دخلت الامبراطورية السنة المصيرية، 1914، بحثاً عن مثل هذا التحالف الدفاعي. وسوف يجذب ذلك البحث العثمانيين إلى الحرب العظمى في نهاية المطاف.

2

السلم قبل الحرب العظمى

جلب الربيع موجة جديدة من التفاؤل إلى الامبراطورية العثمانية عام 1914، إذ أثر الانتصار في حرب البلقان الثانية واستعادة أدرنة وتراقيا الشرقية تأثيراً إعجازياً في مشاعر الثقة الوطنية. وبعد سنوات من التقشف زمن الحرب، كان الاقتصاد العثماني أول المستفيدين من بوادر عهد السلم. عاد الجنود المسرحون من الخدمة إلى القوة العاملة. وتوقع الفلاحون محاصيل وفيرة تحطم الأرقام القياسية. ووردت تقارير عن ازدهار كبير في حركة العمران في شتى بلدات الولايات التركية والعربية ومدنها. استؤنفت التجارة بنشاط متجدد ما إن فتحت الخطوط البحرية وأبعدت السفن الحربية وأزيلت الألغام. ومع توسع التجارة الخارجية أتت اختراعات جديدة من العصر الحديث، لكنها ستتحول خلال سنة من الاستعمال المدني إلى العسكري.

حطم مقدم السيارة هدوء شوارع إسطنبول. فقد ظلت حتى عام 1908 ممنوعة في السلطنة. وحين سمح بها في نهاية المطاف بعد ثورة تركيا الفتاة، واجه رواد قيادة السيارة العثمانيون كثيراً من الصعاب. لم تكن شوارع السلطنة معبدة على الأغلب. ولم توجد سوى قلة قليلة من محطات الخدمة وتعبئة الوقود تفصل بينها مسافات شاسعة. فضلاً عن غياب أي قوانين مرورية، حيث اختلف السائقون على مسائل أساسية مثل جانب الطريق الذي يجب السير عليه. ولم يكن من المفاجئ قلة عدد السيارات التي بيعت في السلطنة

منذ عام 1908. فبحلول نهاية عام 1913، حين كانت مليون سيارة تسير على طرقات الولايات المتحدة، قدر المسؤولون القنصليون الأميركيون عدد السيارات في السلطنة بنحو 500 سيارة -نصفها في إسطنبول. في المدن الإقليمية البعيدة مثل بغداد، لم يتجاوز العدد أصابع اليد الواحدة. لكن منذ منتصف عام 1914، بدأت العاصمة الامبراطورية تشهد أول اختناقاتها المرورية وذلك مع تسابق "سيارات الليموزين، والسيارات السياحية، والشاحنات، وعربات التوصيل التي تسير بالبنزين، وسيارات الإسعاف" على مكان لها[1]. كما ظهرت الطائرة للمرة الأولى في الدولة العثمانية في حقبة تركيا الفتاة. كان الطيران ما يزال في مهده: لم ينجح الشقيقان رايت في أول تحليق بطائرة مؤللة أثقل من الهواء إلا في ديسمبر 1903. وبعد ست سنوات، أتى رائد الطيران لويس بليريو إلى إسطنبول ليظهر أعاجيب الطيران. وكان قد اكتسب شهرة واسعة مؤخراً حين عبر القنال الإنكليزي بطائرة أحادية السطح (25 يوليو 1909)، وانتظر الناس زيارته بفارغ الصبر. وقع حادث في المناسبة حين دفعت ريح قوية طائرة بليريو لتصطدم بسقف أحد منازل إسطنبول، فأمضى الطيار الأسابيع الثلاثة اللاحقة في مستشفى محلي لمعالجة جراحه[2].

أرسل أوائل الطيارين الترك إلى أوربا للتدريب عام 1911. وبحلول عام 1914، بدؤوا السيطرة على أجواء الدولة العثمانية. في فبراير، حاول الملازم فتحي بك، برفقة أحد معاوني أنور باشا، صادق بك، الطيران من إسطنبول إلى مصر عبر الأناضول وسوريا. قطعت طائرتهما، التي حملت اسم (*Muavenet-i Milliye*) ("المساعدة الوطنية")، المسافة من طرسوس إلى أضنة (خمسة وعشرين ميلاً) في عشرين دقيقة، بسرعة تجاوزت ستين ميلاً في الساعة. صفق المشاهدون المحتشدون على الأرض حين عبرت الطائرة فوقهم. وتمكن المغامران من الوصول إلى دمشق بأمان، لكن طائرتهما تعرضت لمشكلات في المحرك في الرحلة إلى القدس وسقطت شرق بحيرة طبريا، ما أدى إلى مقتلهما. دفن فتحي بك وصادق بك بجوار قبر صلاح الدين في المسجد الأموي بدمشق، وكانا أول طيارين في تركيا يقتلان في الخدمة العسكرية. كما انتهى المطاف بمهمة جوية ثانية على نحو مشابه قبل أن يتمكن الطياران، سليم بك وكمال بك، من استكمال الرحلة أخيراً من إسطنبول إلى مصر في مايو 1914 [3].

في يونيو 1914، عرض الطيار الأميركي جون كوبر الزورق الطائر "كورتيس" أمام جمهور بالآلاف في إسطنبول. أقلع كوبر من بحر مرمرة، ثم حلق مسافة خمسة عشر ميلاً على ارتفاع بلغ 1000 قدم في المعدل المتوسط قبل أن يهبط فوق مياه البوسفور بين القسمين الأوربي والآسيوي من المدينة. شهد الاستعراض أعضاء في الحكومة، والبرلمان، والعائلة المالكة. بعد ذلك، طار كوبر سبع رحلات يرافقه كبار المسؤولين والأعيان "وسط موجة من تصفيق المتفرجين وتعجبهم، حيث كان هذا النوع من الطيران جديداً عليهم كلية"، كما روى شاهد عيان. بينما نقلت القصة صحف إسطنبول الرئيسة كلها، مع الصور، في اليوم اللاحق[4].

غذى انتشار النقل المؤلّل إحساساً بالتفاؤل تنامى في الامبراطورية العثمانية ربيع عام 1914. ومع التفاوض على قرض عام بقيمة 100 مليون دولار من فرنسا في مايو، ضمنت الحكومة وسيلة للاستثمار في مشروعات الأشغال العامة الكبرى التي ستجلب الكهرباء، والإنارة العمومية، وخطوط الترام الحضرية، والسكك الحديدية بين المدن، ومرافق الموانئ الحديثة إلى جميع ولايات الدولة. كما نما الإعلان عن القرض الفرنسي توقعات وآمالاً عريضة بالازدهار التجاري والصناعي.

مثّل القرض الفرنسي ذروة مفاوضات سلام رعتها القوى الكبرى لحل الخلافات المعلقة بين الدولة العثمانية وجيرانها في أعقاب الحربين في البلقان. فقد وعدت حقنة رأس المال الاستثماري الفرنسي بنمو اقتصادي حقيقي وشكلت حافزاً قوياً للعثمانيين لقبول خسائرهم في ألبانيا ومقدونيا وتراقيا. لكن حتى بعد توقيع اتفاقيات السلام والقرض الفرنسي بقيت قضايا مهمة معلقة بين إسطنبول وأثينا.

تركت بنود معاهدة لندن (1913) التي اختتمت حرب البلقان الأولى، ثلاث جزر تركية في بحر إيجة بحوزة اليونان. تهيمن اثنتان منها، كيوس وميتيليني، على مدخل سميرنا (إزمير الحالية)، ويمكن مشاهدتها من البر التركي. بينما لا تبعد ليمنوس، بمينائها المتميز بمياهه العميقة، سوى أقل من خمسين ميلًا عن مضائق الدردنيل. لم يقبل الباب العالي قط خسارة هذه الجزر ولم يكن مستعداً للتعايش مع حقيقة هيمنة اليونان على مياهه الإقليمية. صحيح أن الدبلوماسيين العثمانيين سعوا إلى الحصول على الدعم الأوربي لحق حكومتهم

في استعادة جزر بحر إيجة، لكن المخططين الحربيين العثمانيين عملوا على تغيير توازن القوة البحرية في شرق البحر المتوسط.

في أغسطس 1911، طلبت الحكومة العثمانية من شركة بناء السفن البريطانية "فيكرز وآرمسترونغ" صنع بارجتين وفق أحدث التقنيات، وتقرر تسليمهما في يوليو 1914. كانت الطلبية جزءاً من مهمة بعثة بريطانية بحرية للمساعدة في تحديث الأسطول العثماني. شكلت "السلطان عثمان" و"الرشادية" (على اسمي مؤسس الامبراطورية العثمانية والسلطان الحاكم محمد رشاد) نزيفاً هائلاً للخزينة العثمانية. مولت الحكومة جزءاً كبيراً من قيمة السفينتين اعتماداً على مساهمة عامة الناس عبر مناشدة المشاعر الوطنية. وشجع طلاب المدارس على المساهمة من مصروفهم الشخصي، وأقيمت أكشاك التبرع في ساحات المدن، حيث دعي المواطنون الموالون، من أجل الإسهام بخمسة قروش أو أكثر، إلى دق مسامير في كتل خشبية ضخمة. وبينما أصبحت السفينتان رمزاً للاعتزاز العثماني، راقبت اليونان وروسيا بقلق متعاظم إعادة بناء القوات البحرية للسلطنة بعد الهزائم في ليبيا وحرب البلقان الأولى، وذلك مع قرب استكمال صناعة البارجتين الضخمتين في ربيع عام 1914. إذ يمكن لهما منح البحرية التركية أفضلية كاسحة على الأسطول الروسي في البحر الأسود والبحرية اليونانية في بحر إيجة.

زاد النزاع على جزر بحر إيجة، والتسليم الوشيك للدارعتين، احتمال اندلاع حرب بين اليونان وتركيا عام 1914. دعا المسؤولون في اليونان إلى ضربة استباقية لهزيمة العثمانيين قبل الحصول على السفينتين الحربيتين الجديدتين. واستعد العثمانيون مرة أخرى لإعلان التعبئة العامة للمواطنين، حيث أرسلت مذكرات في أبريل 1914 إلى مخاتير القرى في شتى أرجاء الامبراطورية، تمهد لاحتمال التجنيد وتناشد ولاءهم للإسلام بطريقة غذت الشائعات عن حرب قادمة مع اليونان المسيحية[5].

دق احتمال تجدد الحرب بين اليونان وتركيا نواقيس الخطر في سان بطرسبرغ. إذ بدا الروس، مع أنهم ليسوا أقل قلقاً من اليونانيين على التوازن البحري، أشد اهتماماً بالحفاظ على الممرات المائية العثمانية مفتوحة أمام سفن الشحن في البحر الأسود: حيث تمر عبر

المضائق التركية نسبة 50 في المئة من صادرات روسيا، تتضمن 90 في المئة من صادراتها من الحبوب. وسيؤدي تجدد الحرب في بحر إيجة إلى إغلاق العثمانيين المضائق وخنق التجارة الروسية، مع ما يستتبع ذلك من عواقب كارثية على الاقتصاد الروسي. ومن ثم لجأت روسيا إلى دبلوماسيتها لمنع اليونان من خوض حرب مع تركيا، بينما مارست الضغط على بريطانيا لتأخير تسليم السفينتين إلى البحرية العثمانية[6].

* * *

استوجبت الدبلوماسية الروسية دوافع خفية. فقد كان القيصر وأعضاء حكومته على قناعة بأن زوال الامبراطورية العثمانية أصبح وشيكاً، ورغبوا في الاحتفاظ بحق المطالبة بتلك الأراضي التي تحظى بقيمة استراتيجية لروسيا في أي تقسيم مستقبلي للأراضي العثمانية من قبل القوى الأوربية. شملت قمة أولويات روسيا إعادة القسطنطينية إلى المسيحية الأرثوذكسية بعد بقائها نحو خمسة قرون تحت الحكم الإسلامي التركي، والسيطرة على المضائق التي تربط موانئ روسيا على البحر الأسود بالبحر المتوسط. ومن ثم عقدت سان بطرسبرغ العزم على منع أي حرب يمكن أن تؤدي إلى انتقال الأراضي العثمانية التي تشتهيها روسيا إلى أيدي اليونانيين أو البلغار. اجتمع مجلس الوزراء الروسي في فبراير 1914 لمناقشة احتلال القسطنطينية والمضائق واتفق على أن أفضل فرصة سانحة ستظهر في سياق حرب أوربية عامة. وصادق القيصر نيكولا الثاني على توصيات حكومته في أبريل 1914 وألزمها إيجاد القوى الضرورية لاحتلال إسطنبول والمضائق في أقرب فرصة ممكنة[7].

تطلع الروس أيضاً، وهم يخططون لضم العاصمة العثمانية، إلى تعزيز موقعهم في الأراضي العثمانية شرق الأناضول. إذ تجاور الأراضي الحدودية الشرقية من الامبراطورية العثمانية المقاطعات القوقازية الملتهبة في روسيا، وتوصل إلى شمال غرب إيران، وهي منطقة تتنافس عليها روسيا وبريطانيا العظمى. كما تتصل الأناضول الشرقية بالولايات الست التي حددتها القوى الأوربية باعتبارها من الأراضي التي يسكنها الأرمن: أرضروم، وان، بيتليس، هاربوت (خربوط)، دياربكر، سيواس. ربما كان يعيش 1.25 مليون أرمني على الجانب الروسي من الحدود، ونحو مليون في الولايات العثمانية الست في شرق الأناضول

التي اعتبرها المجتمع الدولي أرمينيا التركية. استخدمت حكومة القيصر الدفاع عن حقوق الأهالي الأرمن ذريعة للتدخل في الشؤون العثمانية منذ عام 1878. وبسبب مطامح روسيا في الأراضي العثمانية، فاقمت مساعيها التوتر بين العثمانيين والأرمن[8].

عاودت التوترات الحقيقية الظهور بين الأرمن والكرد في السنوات اللاحقة على ثورة تركيا الفتاة. حاول بعض الأرمن الذين فروا من حوادث العنف في تسعينيات القرن استعادة بيوتهم وقراهم بعد ثورة عام 1908. بينما رفض بعض الكرد القبليين الذين احتلوا الممتلكات التي تخلى عنها الأرمن الاعتراف بحقوق الملاك السابقين. ومنذ عام 1909، أدت النزاعات على الأرض بين الأرمن والكرد إلى العنف، وتمتع الكرد بالقوة المسيطرة. فقد كان الكرد الرحل أفضل تسليحاً من الأرمن المستقرين، ونادراً ما اتخذ المسؤولون العثمانيون جانب الأرمن المسيحيين ضد الكرد المسلمين. وتفاقم الوضع حين أعيد نشر الجنود العثمانيين من شرق الأناضول للقتال في حروب البلقان وليبيا، وحين أرسل المجندون الأرمن إلى جبهة البلقان عام 1912. فترك الفلاحون الأرمن للدفاع عن أنفسهم في صراع يزداد حدة باطراد مع الكرد[9].

تقدمت روسيا لملء فراغ القوة في يونيو 1913 عبر تقديم مقترحات إصلاحية لمنح الأرمن مزيداً من الاستقلال الذاتي في شرق الأناضول. واعتماداً على الفرمان الإصلاحي الذي أصدره السلطان عبد الحميد الثاني عام 1895 فيما يتعلق بالأرمن، دعت الخطة الروسية إلى دمج الولايات الشرقية الست في ولايتين تتمتعان بشبه حكم ذاتي بإدارة حاكم عام أجنبي تعينه القوى الكبرى. كما طالبت بإنشاء مجالس محلية مؤلفة من أعداد متساوية من الممثلين المسلمين والأرمن. نظر الدبلوماسيون الأوربيون والعثمانيون على حد سواء إلى المقترحات بارتياب عميق باعتبارها تمهيداً للتقسيم في الأناضول، فضلاً عن تأكيد حق روسيا المزعوم في ضم الولايات الشرقية. عززت سان بطرسبرغ دبلوماسيتها باقتراح حشد للجنود لا على طول الحدود التركية-الروسية فحسب، بل داخل الأراضي العثمانية في مدينة أرضروم نفسها -بذريعة الدفاع عن الأرمن. ومن أجل إحباط عسكرة الوضع مسبقاً، وافق

الباب العالي على تعديل اقتراح الإصلاح بالاتفاق مع الحكومة الروسية، الذي وقع في 8 فبراير 1914.

أجّل اقتراح الإصلاح الأرمني النزاع مع روسيا وفاقم مشكلات تركيا الفتاة مع الأرمن. اعتبرت الحكومة العثمانية الخطة الإصلاحية تمهيداً لقيام دولة أرمنية وتهديداً وجودياً. وصمم أعضاء تركيا الفتاة على منع تنفيذها مهما كلف الأمر. بدأ طلعت باشا، وزير الداخلية وأحد أعضاء الثلاثي الحاكم، يخطط لإجراءات استثنائية لإبعاد الأرمن عن الولايات الست ومن ثم تجنب الحاجة إلى مثل هذه الإصلاحات[10].

كشفت المفاوضات بين حكومة تركيا الفتاة والروس مدى عزلة الامبراطورية العثمانية في الساحة الدولية. كان الباب العالي مدركاً تماماً الخطر الذي تمثله روسيا على سلامة أراضي الامبراطورية. وبينما أمكن للعثمانيين عادة الاعتماد على بريطانيا أو فرنسا لكبح جماح المطامح الروسية، أصبحت الآن هذه القوى الثلاث حليفة في الوفاق الثلاثي. ولم يعد من الممكن الاعتماد على بريطانيا أو فرنسا للوقوف إلى جانب الامبراطورية العثمانية. في أوقات الخطر، احتاج العثمانيون إلى صديق قوي، وبدا أن ألمانيا أبرز المرشحين.

* * *

كانت الصداقة الألمانية-العثمانية عميقة الجذور نسبياً. ففي عام 1898 قام القيصر فيلهلم الثاني بزيارة دولة إلى الامبراطورية العثمانية. وانطلاقاً من إسطنبول، سافر عبر الولايات التركية والعربية، ليتوقف في المدن الرئيسية والمواقع التاريخية. في دمشق، قدم القيصر تعهده الشهير بصداقة ألمانيا الدائمة للعثمانيين خصوصاً والمسلمين في العالم عموماً: "ليتأكد السلطان والثلاثمئة مليون مسلم من رعاياه المنتشرين في أنحاء الأرض، الذين يجلونه باعتباره خليفتهم، أن القيصر الألماني سيكون صديقاً لهم على الدوام"[11].

لم يكن إعلان الصداقة والوئام من فيلهلم منزهاً كلية عن الأغراض. ففي إطار عداوة القيصر للامبراطورية البريطانية الأقدم عهداً والأرسخ أركاناً، رأى في الشراكة مع الامبراطورية العثمانية فرصاً سانحة لألمانيا لتوسيع نفوذها. واعتقد أن الصداقة مع

السلطان العثماني، الذي يعد أيضاً خليفة الرسول أي قائد الأمة الإسلامية، سوف تجعل المسلمين في شتى أرجاء العالم أكثر تعاطفاً مع ألمانيا مقارنة بأي قوة أوربية أخرى. ومع أكثر من مئة مليون مسلم تحت الحكم البريطاني في الهند، والخليج (العربي)، ومصر، رأت ألمانيا إمكانية استخدام الإسلام سلاحاً ضد البريطانيين، إذا دعت الحاجة.

تمتعت تركيا أيضاً بموقع جغرافي-استراتيجي مهم لألمانيا. عند زيارة القيصر، كانت بريطانيا وروسيا محاصرتين في إسار تنافس شديد للهيمنة على آسيا الوسطى عرفت آنذاك باسم "اللعبة الكبرى". بينما شكلت الولايات العثمانية في شرق الأناضول بوابة لفارس وآسيا الوسطى. وبدا من الممكن لألمانيا أن تصبح لاعباً في "اللعبة الكبرى" وتمارس الضغط على بريطانيا وروسيا عبر تحالف مع العثمانيين.

تصل الحدود الجنوبية للامبراطورية العثمانية إلى الخليج العربي. هنا، أملت ألمانيا بـ"التعدي" على البحيرة البريطانية المحروسة بكل يقظة وانتباه. في مسار القرن التاسع عشر، تمكن البريطانيون من كبح العثمانيين والقوى الأوربية على حد سواء عبر نظام من المعاهدات الحصرية، ربطت الحكام العرب في الساحل المهادن (الإمارات العربية المتحدة حالياً) وعمان وقطر والبحرين والكويت بالتاج البريطاني. في أعقاب زيارة القيصر إلى السلطنة عام 1898، سعت ألمانيا إلى استغلال هذه الشراكة الجديدة مع الترك لتحدي احتكار بريطانيا الهيمنة على الخليج عبر سكة حديد تربط برلين ببغداد.

ضمنت ألمانيا بعد زيارة القيصر امتيازاً حصرياً في ديسمبر 1899 لبناء سكة حديدية عبر تركيا ومنها إلى البصرة على الخليج العربي مروراً ببغداد. بدأ العمل على بناء الخط عام 1903؛ وبحلول عام 1914 ربط إسطنبول بأنقرة والبحر المتوسط بالقرب من أضنة. لكن المشروع واجه صعوبات غير متوقعة في سلسلتين جبليتين في كيليكيا، وتأخر كثيراً عن موعده. وبينما أنجز العمل في معظم الخط في الأناضول، بقيت أجزاء كبيرة منه قيد الإنشاء في سوريا والعراق[12].

لم يحدث القطار الأول الذي انطلق من محطة بغداد في الأول من يونيو 1914 ضجة كبيرة. كان الخط يتجه شمالاً مسافة 38.5 ميلاً نحو بقعة خالية في الصحراء اسمها السميخة. لكن قلة اهتمام الرأي العام بالقطار لم تمنع الشركة المشغلة من طبع جدول مواعيد الرحلات وتوزيعها على المكاتب الحكومية، والقنصليات الأجنبية، والنوادي، والفنادق، واستمر العمل على قدم وساق. في أكتوبر 1914 وصل الخط إلى بلدة سامراء. وكان القطار المتجه شمالًا يغادر بغداد مرة في الأسبوع في الساعة العاشرة صباحاً، ليقطع مسافة 74 ميلاً بأربع ساعات، أي بسرعة تقل قليلاً في المعدل المتوسط عن عشرين ميلاً في الساعة. أما قطار العودة فيغادر سامراء إلى بغداد صباح كل يوم خميس في العاشرة صباحاً. بقي حلم ربط بغداد وبرلين بعيد المنال، لكن المشروع ساعد على توثيق الصلة بين ألمانيا والامبراطورية العثمانية في حقبة مضطربة شهدتها الشؤون الأوربية[13].

استفز تعميق الروابط الجامعة بين برلين وإسطنبول أزمة في الشؤون الأوربية مع إرسال بعثة عسكرية ألمانية إلى الامبراطورية العثمانية عند نهاية عام 1913. طلب الصدر الأعظم سعيد حليم باشا من القيصر فيلهلم الثاني ترشيح جنرال متمرس لقيادة فريق من ضباط ألمان من رتب متوسطة؛ للمساعدة في إصلاح الجيش العثماني وإعادة تنظيمه في أعقاب الحربين في البلقان. عيّن القيصر الضابط البروسي أوتو ليمان فون ساندرز لأداء المهمة. كان ليمان آنذاك قائداً للفرقة الثانية والعشرين في الجيش الألماني، المتمركزة في كاسيل. وخدم عدة سنوات في هيئة الأركان وسافر في شتى أرجاء العالم، لكنه افتقر إلى الخبرة في الامبراطورية العثمانية. قبل الجنرال المهمة دون تردد وانطلق بالقطار إلى إسطنبول في منتصف ديسمبر 1913.

بعد وصول الجنرال الألماني بقليل التقى بالسلطان محمد رشاد، والصدر الأعظم، والثلاثي الحاكم من أعضاء تركيا الفتاة. تأثر بـ"سحر" وزير الداخلية طلعت و"شخصيته الآسرة"، ولاحظ أن جمال باشا، قائد الفيلق الأول "جمع ذكاء عظيماً مع موقف شديد التصميم والعناد". لكنه أعجب بأنور باشا على الفور تقريباً. ولا شك أن أنور، الذي احتفي به قبل أشهر باعتباره "محرر أدرنة"، اعترض على تعيين ضابط ألماني يحاسب الجيش التركي.

وبينما انتقد ليمان بشدة الحالة المؤسفة التي تردى إليها الجيش العثماني، بزيه الرث، وثكناته الموبوءة، وجنوده الذين يعانون نقصاً في الغذاء والأجر، لم يعد هذه المثالب من إخفاقات أنور. بل اعتقد أن أنور رقي إلى مرتبة تجاوزت تجربته وقدرته. ظهرت القضية على الواجهة في يناير 1914، حين عينت جمعية الاتحاد والترقي أنور باشا وزيراً للحربية. بدا السلطان محمد رشاد المذهول كأنما يتحدث باسم ليمان حين قرأ خبر التعيين في الصحف: "ذكر هنا أن أنور أصبح وزيراً للحربية؛ شيء لا يصدق، فما زال صغير السن"[14].

عارضت الحكومة الروسية تعيين البعثة العسكرية الألمانية منذ البداية. تطور اعتراض سان بطرسبرغ إلى أزمة حين سلم جمال باشا ليمان قيادة الفيلق الأول في الجيش العثماني، مع مسؤولية أمن إسطنبول والمضائق. فيما يتعلق بالروس، كان ذلك يعني تولي الألمان زمام السيطرة على منطقة لسان بطرسبرغ مصلحة حيوية راسخة فيها. هددت حكومة القيصر باحتلال مدينة أرضروم شرقي الأناضول للتعويض عن هذا التغير في ميزان القوة.

عزمت بريطانيا وفرنسا على منع الإجراءات الانتقامية الروسية التي ستؤدي حتماً إلى تقسيم الامبراطورية العثمانية قبل الأوان، لكن البريطانيين كانوا في موقف صعب. فعلى الرغم من كل شيء، قاد الأدميرال البريطاني آرثر ليمبوس منذ عام 1912 بعثة بحرية مؤلفة من اثنين وسبعين رجلاً في الامبراطورية العثمانية، وعمل قائداً لأركان البحرية العثمانية. وبدلاً من السعي إلى حل البعثة العسكرية الألمانية، اقترح الدبلوماسيون البريطانيون أن يتولى ليمان قيادة الفيلق الثاني، والتخلي عن السيطرة على الجيش في إسطنبول والمضائق. رفض ليمان، الذي لم يرغب في التخلي عن قيادته بسبب ضغوط سياسية، جميع المساعي لنقل قيادته إلى فيلق عسكري آخر. في نهاية المطاف، توصل القيصر إلى حل مفاده ترقية ليمان إلى رتبة عالية تتجاوز قيادة أي فيلق في الجيش. وهكذا أصبح فيلد مارشال ونقلت قيادة الفيلق الأول إلى ضابط عثماني. استطاعت ألمانيا والدولة العثمانية النجاة من الأزمة معاً، ما عزز الروابط بينهما[15].

* * *

بحلول صيف عام 1914 كانت الامبراطورية العثمانية تتأرجح بجنون بين التفاؤل بازدهارها الاقتصادي والتشاؤم من الأزمات في علاقاتها الخارجية. حل التناقض بطريقة كارثية مع اغتيال ولي العهد النمساوي، الأرشيدوق فرانز فيردناند، في مدينة سراييفو البوسنية (28 يونيو 1914). فعّل الاغتيال شبكة من التحالفات العلنية والسرية قسمت أوربا إلى كتلتين متحاربتين. ولم يشعر الباب العالي بالرضا والراحة تجاه حقيقة بقاء تركيا خارج تلك الشبكة الخطرة من التحالفات. إذ لاح في الأفق احتمال اندلاع حرب أوربية عامة، ما ضاعف التهديد الوشيك باستيلاء الروس على إسطنبول، والمضائق، وشرق الأناضول -وتقطيع أوصال الامبراطورية العثمانية بين القوى الأوربية في نهاية المطاف. عرفت فرنسا بأنها طامعة في سوريا، ولبريطانيا مصالح في بلاد الرافدين، واليونان راغبة في توسيع قبضتها على بحر إيجة. العثمانيون وحدهم محرومون من فرصة الدفاع عن أراضيهم ضد هذا العدد الكبير من الأعداء.

لم تكن القيادة العثمانية، التي أنهكتها الحرب واحتاجت إلى وقت لإعادة بناء جيشها واقتصادها، راغبة في الدخول في نزاع أوربي عام، بل سعت إلى الحصول على حليف لحماية أراضي الامبراطورية المكشوفة أمام الخطر من عواقب مثل هذه الحرب. لم يكن تحول العثمانيين إلى ألمانيا خاتمة محتومة. فمن الملامح الآسرة للدبلوماسية العثمانية في أزمة يوليو انفتاح الباب العالي فعلياً على عقد تحالف دفاعي مع أي قوة أوربية.

تبنى زعماء تركيا الفتاة الثلاثة آراء مختلفة حول الحلفاء المحتملين. عرف أنور وطلعت بميلهما نحو تحالف مع ألمانيا، بينما اعتقد جمال بتعذر كبح جماح المطامح الروسية في الأراضي العثمانية من دون قوة من قوى الوفاق. وكان هو نفسه معجباً بالثقافة الفرنسية، وثمة أسباب وجيهة تدعو إلى السعي لعقد حلف دفاعي مع الفرنسيين. إذ إن فرنسا هي المقرض المالي الرئيسي للعثمانيين منذ الموافقة على قرض المئة مليون دولار في مايو 1914. كما وجد جمال في بريطانيا بديلاً جيداً إن امتنعت فرنسا. ظلت بريطانيا في معظم القرن التاسع عشر أقوى مؤيد للحفاظ على سلامة أراضي الامبراطورية العثمانية. وساعدت في وقت لاحق على إعادة بناء البحرية العثمانية، عبر بعثة ليمبوس البحرية وصناعة سفن جديدة وحديثة للأسطول

العثماني. ومنذ أن أصبح جمال وزيراً للبحرية، عمل بصورة وثيقة مع البعثة البريطانية وأظهر احتراماً لحرفيتها المهنية. ومن ثم، كان من الطبيعي أن يتطلع إلى بريطانيا أو فرنسا لتأمين الضمانات التي تحتاج إليها حكومته لحماية سلامة أراضي الامبراطورية.

في أوائل يوليو 1914، وبعد وقت قصير من عملية الاغتيال في سراييفو، زار جمال فرنسا تلبية لدعوة من حكومتها لحضور مناورات بحرية فرنسية. اغتنم فرصة زيارته لأوربا للاجتماع بالضباط العثمانيين في هيئة الارتباط مع أحواض بناء السفن البريطانية، التي كانت تضع اللمسات الأخيرة على الدارعتين العثمانيتين الجديدتين. أبلغ الضباط جمال باشا أن "الإنكليز في حالة مزاجية غريبة جداً. إذ يبدو أنهم يبحثون دوماً عن ذريعة جديدة لتأخير استكمال السفينتين الحربيتين وتسليمهما". أصدر جمال تعليماته للضباط بالعودة وتسلم السفينتين في أقرب وقت ممكن، وترك عملية التجهيز النهائية بأي معدات أخرى إلى أحواض السفن في إسطنبول لاستكمالها[16].

عاد جمال باشا إلى باريس لزيارة وزارة الخارجية الفرنسية بعد حضور استعراض للأسطول الفرنسي في طولون. وتطرق في مباحثاته مع مدير مكتب الشؤون السياسية إلى المسألة المهمة مباشرة: "يجب أن تضمونا إلى الوفاق وتحمونا في الوقت نفسه من الأخطار الرهيبة التي تهدد وجودنا من روسيا". ووعد بالمقابل أن تكون تركيا حليفاً مخلص الولاء لفرنسا وبريطانيا ومساعدتهما على "تشكيل حلقة حديدية حول القوى المركزية". رد الدبلوماسي الفرنسي بحذر قائلاً إن حكومته لا يمكن أن تدخل في تحالف مع العثمانيين إلا بموافقة حلفائها، وهو أمر "مشكوك فيه جداً" على ما يبدو. أدرك جمال أن الإجابة معناها الرفض. "فهمت تماماً أن فرنسا مقتنعة باستحالة نجاتنا من المخالب الحديدية لروسيا، وأنها لن تمنحنا عونها تحت أي ظرف". في 18 يوليو، غادر جمال باريس ليعود إلى إسطنبول خالي الوفاض.

في الثامن والعشرين من يوليو، بعد شهر من اغتيال ولي عهد النمسا في سراييفو، أعلنت امبراطورية هابسبورغ الحرب على صربيا. وما بدأ نزاعاً في البلقان جر بسرعة أعظم القوى العسكرية في أوربا إلى حرب شاملة. ردت روسيا، المرتبطة بتحالف مع صربيا، بالتهديد بالحرب مع الامبراطورية النمساوية-الهنغارية. وقفت ألمانيا إلى جانب حليفتها النمسا،

ودخلت حليفتا روسيا، بريطانيا وفرنسا، إلى المعمعة. وبحلول الرابع من أغسطس، كانت دول الوفاق الثلاثي في حرب مع ألمانيا والنمسا[17].

دق اندلاع الحرب في أوربا ناقوس الخطر في أرجاء الامبراطورية العثمانية -من مكاتب حكومة الباب العالي إلى بلدات وأرياف الأناضول والأراضي العربية. وأصبحت الحاجة إلى تحالف دفاعي لضمان سلامة الأراضي الإقليمية للامبراطورية حاسمة الأهمية. عرف أعضاء تركيا الفتاة من تقارير جمال باشا بعدم وجود إمكانية لاتفاق كهذا مع فرنسا. وسرعان ما ستخون بريطانيا ثقته هي الأخرى.

في الأول من أغسطس، قبل ثلاثة أيام من إعلان الحرب على ألمانيا، صادرت الحكومة البريطانية السفينتين الحربيتين اللتين طلبهما العثمانيون. أذهل الخبر جمال باشا، الذي اعتبر، بصفته وزيراً للبحرية، المدمرتين الجديدتين حجر الزاوية في عملية إصلاح سلاح البحرية. تذكر مناقشاته مع ضباط البحرية العثمانية في باريس وأدرك أن التأخير البريطاني المتكرر "لم يكن سوى ذرائع.. كشفت مؤامرة أضمرتها إنكلترا مدة طويلة للاستيلاء عليهما". ونظراً إلى أن ثمن السفينتين دفع كاملاً، عبر مساهمات عامة الناس على الأغلب، فقد اعتبر القرار البريطاني بمصادرة السفينتين إذلالاً وطنياً في تركيا وألغى احتمال أي اتفاق بين بريطانيا والامبراطورية العثمانية. في اليوم اللاحق، 2 أغسطس 1914، عقد العثمانيون معاهدة سرية للتحالف مع ألمانيا[18].

اقترح النمساويون أولاً جر الامبراطورية العثمانية إلى التحالف الثلاثي في منتصف يوليو 1914. أملت فيينا بعزل صربيا وتحييد بلغاريا عبر عقد اتفاق مع إسطنبول. رفض الألمان الفكرة في البداية. اعتقد السفير الألماني في إسطنبول، البارون هانز فون فانغينهايم، والجنرال ليمان فون ساندرز، رئيس البعثة العسكرية الألمانية، أن العثمانيين يشكلون كما سيثبت عائقاً وعبئاً أكثر من حليف ونصير على الصعيدين الدبلوماسي والعسكري. كتب السفير إلى برلين في 18 يوليو: "تركيا اليوم ما تزال دون أي شك حليفاً لا قيمة له. سوف تكون مجرد عبء ثقيل على شركائها، من دون القدرة على منحهم أدنى أفضلية"[19].

قدم أنور وطلعت والصدر الأعظم سعيد حليم باشا الحجة أمام فانغينهايم لمصلحة قيام تحالف ألماني-عثماني في أواخر يوليو. وحذروا من أن العثمانيين سوف يجبرون على السعي للحصول على دعم الوفاق الثلاثي عبر تحالف مع اليونان إذا لم تتفق ألمانيا معهم. وحين أرسل السفير تقريره إلى برلين، أيد القيصر فيلهلم الثاني عقد اتفاق مع الامبراطورية العثمانية. فبعد عقدين من رعاية الصداقة الألمانية-العثمانية روعت القيصر فكرة دفع الترك إلى أحضان الروس والفرنسيين. في 24 يوليو، أصدر تعليماته إلى سفيره في إسطنبول بالموافقة على الطلب العثماني فوراً. "سيعني الرفض أو الصد انضمام تركيا إلى روسيا وبلاد الغال، وسيختفي نفوذنا إلى الأبد"، كما شدد القيصر[20].

بحلول السابع والعشرين من يوليو، أنجز الألمان والعثمانيون شروط تحالف دفاعي سري ضد روسيا. ولن تنفذ البنود الثمانية من الوثيقة البسيطة إلى حد لافت إلا في حال قيام الروس بأعمال عدائية ضد أحد الطرفين -وهو أمر أصبح حتمياً تقريباً عند التوقيع، مع إعلان ألمانيا الحرب على روسيا في الأول من أغسطس. وما حظي بأهمية حاسمة تعهد ألمانيا بحماية سلامة الأراضي الإقليمية للامبراطورية العثمانية ضد المطامح الروسية. وضعت المعاهدة البعثة العسكرية الألمانية تحت سلطة الحكومة العثمانية مقابل ضمانات بأن تمارس البعثة "تأثيراً فاعلاً في السلوك العام للجيش". سوف يستمر التحالف حتى نهاية عام 1918، مع إمكانية تجديده باتفاق الطرفين كليهما. أما الشرط الوحيد الذي لم تذكره ألمانيا على الورق فهو ضرورة قيام العثمانيين، عند دخول الحرب، بعمليات فورية ضد روسيا أو البريطانيين في مصر في محاولة لإثارة الرعايا المسلمين في الامبراطوريتين وتحفيزهم على التمرد ضد قوى الوفاق[21].

دعا أنور باشا، بوصفه وزير الحربية، إلى التعبئة العامة عشية توقيع الحلف مع ألمانيا. طُلب من جميع الذكور الذين تراوح أعمارهم بين عشرين وخمس وأربعين سنة تسجيل أسمائهم في مراكز التجنيد، وأبلغ الاحتياطيون ضرورة الالتحاق بوحداتهم. كان لقرار التعبئة العامة وقع القنبلة على الجماهير، مع أنه أظهر للحلفاء الألمان نية أعضاء تركيا الفتاة

التشبث بالتزاماتهم. لكن العثمانيين، الذين تلهفوا إلى عقد الحلف الدفاعي، لم يكونوا في عجلة من أمرهم للدخول في حرب عالمية.

* * *

شهد الوضع الاقتصادي تدهوراً خطيراً في أغسطس عقب الازدهار في النصف الأول من عام 1914. ومع استدعاء الشباب إلى الخدمة العسكرية، لم يبق من يعمل في الحقول أو المصانع. بينما انهارت الاحتمالات التجارية التي كانت واعدة ذات يوم، وذلك مع المعرفة اليقينية المسبقة بأن جميع الموانئ العثمانية سوف تغلق أمام الشحن البحري جراء الأعمال العدائية. بدأ أمناء المخازن في الجيش مصادرة الأغذية والمواشي والمواد التي تستخدم للأغراض العسكرية، من أجل تلبية احتياجات الجيش الذي أصبح الآن في حالة التعبئة الكاملة. وأخذت العائلات التركية تتحضر للأسوأ. فقد عرفت بعد ثلاث حروب متتابعة بسرعة حجم ما ستتعرض له حياتها المعيشية من ضرر فادح.

كان عرفان أورغا، من سكان إسطنبول، في السادسة من عمره عام 1914. حطمت الحرب البحبوحة التي عرفها طوال سنوات عمره القليلة. استرجعت أولى ذكرياته المناقشات العائلية الحامية بعد اندلاع الحرب في أوربا. تذكر أنه تسلل من سريره في إحدى الليالي من ذلك الصيف ليسترق السمع إلى أحاديث الكبار. "جمدت في مكاني وأمكنني سماع كل كلمة في الحديث. بدا أن والدي يحاول إقناع جدتي ببيع منزلنا!". ردت قائلة: "كلام فارغ! لماذا تحدث حرب في أوربا أي فارق في حياتنا؟".

أذهل الوالد عائلته حين أعلن نيته عدم الاكتفاء ببيع البيت فحسب بل شركة تصدير السجاد التي تملكها أيضاً. شرح قائلاً: "من الضروري بيعها، إذا أردنا البقاء على قيد الحياة. ثمة صعوبات كثيرة: العمالة، التصدير، التمثيل السيئ في الخارج؛ الآن، قضت الحرب على آمالي كلها في الأسواق هناك. فإذا انضمت تركيا -وسوف تفعل برأيي- فإن علي الرحيل". عرف والده، الذي لم يتجاوز عمره ستة وعشرين عاماً، أنه سيجند في الجيش عند دخول

تركيا الحرب. "من الأفضل التخلص من كل شيء الآن، وإذا عدت يوماً ما -أستطيع بسهولة بفضل اسمنا التجاري إقامة الشركة من جديد". خيم على المنزل والعائلة صمت مطبق.

"مثلت هذه الأحاديث أول التلميحات إلى التغيرات الآتية"، كما تذكر أورغا. باعت الأسرة فيما بعد المنزل والشركة لتوفر لأفرادها الطعام والمال اللذين اعتقد الوالد أنهم بحاجة إليهما للبقاء في أثناء حرب طويلة ومدمرة لتركيا كما أنذرت الحوادث المهددة. لكن حتى هذه الاحتياطات لم تكن كافية كما ثبت لحماية عائلة أورغا من الفقر المدقع الذي سببه النزاع[22].

تباطأت التجارة مع الامبراطورية العثمانية إلى أن توقفت في 3 أغسطس، عندما أغلقت الحكومة المضائق. وأبلغ المسؤول عن الميناء جميع الحكومات الأجنبية أن البحرية العثمانية وضعت ألغاماً عند مدخل البوسفور من البحر الأسود والدردنيل من البحر المتوسط، إضافة إلى إطفاء الأضواء الملاحية وإزالة أطواف الإشارات التحذيرية كلها. وشغل العثمانيون بين 4 أغسطس و26 سبتمبر خدمة سحب السفن لنقلها إلى بر الأمان عبر حقول الألغام. وفي 27 سبتمبر، أوقفت الخدمة، وأغلقت المضائق تماماً أمام الشحن التجاري البحري. كان الضرر على التجارة العثمانية فورياً وكارثياً، مع أن الروس شعروا بالوجع أيضاً. إذ ترك إغلاق الممر من البحر الأسود إلى الأسواق الدولية المئات من سفنهم المحملة بالحبوب وغيرها من المؤن محاصرة فيه[23].

كانت البحرية الألمانية أول من سعى إلى دخول المضائق المغلقة. فبعد وقت قصير من إعلان الحرب على فرنسا، انطلق أسطول البحر المتوسط الألماني باتجاه ساحل شمال إفريقيا لعرقلة نقل الجنود من الجزائر إلى فرنسا. قصفت المدمرة الثقيلة (*Goeben*)، والطراد الخفيف (*Breslau*) المدينتين الساحليتين بون (عنابة الحالية)، وفيليبفيل (سكيكدة) في الرابع من أغسطس. ألحق الهجوم خسائر وأثار الهلع على طول ساحل شمال إفريقيا. أمر البريطانيون، الذين أعلنوا الحرب على ألمانيا في اليوم نفسه، أسطولهم في البحر المتوسط بإغراق السفينتين، وانضم إلى الأسطول الفرنسي المتضرر في مطاردة حامية للسفينتين الألمانيتين حين اتجهتا إلى شرق المتوسط.

أصدرت قيادة البحرية الألمانية الأوامر إلى قائد الأسطول الأدميرال فيلهلم سوشون (الذي يكشف اسم عائلته الفرنسي أسلافه الهوغونوت*) بالتوجه إلى المياه التركية. وكان أنور باشا قد طلب بشكل محدد، في اجتماع مع سفير ألمانيا ورئيس البعثة العسكرية، ليمان فون ساندرز في إسطنبول (1 أغسطس)، إرسال السفن الحربية الألمانية إلى المياه العثمانية قبل عقد التحالف الدفاعي. وهذا سوف يعوض عن خسارة المدمرتين اللتين صادرتهما بريطانيا في وقت مبكر من ذلك اليوم ويغير ميزان القوة البحرية مع روسيا في البحر الأسود. ضمن السفير فانغينهايم موافقة برلين متوقعاً أن تستخدم السفن الألمانية لجر تركيا إلى الحرب وفتح جبهة جديدة مع روسيا.

كانت للألمان مصلحة واضحة في إرسال السفينتين إلى المياه التركية. فقد عرفوا أن السفن البريطانية والفرنسية تتفوق عليهما بالقوة النارية، كما واجهت المدمرة (*Goeben*) مشكلة في المرجل. وإذا تركت السفينتان الألمانيتان في المياه المفتوحة، فلابد أن تواجها المصير المحتوم. فضلًا عن ذلك، أكد المستشار ثيوبولد فون بيثمان هولفيغ أن وجود السفن الحربية الألمانية في المياه التركية سوف "يجعل من المتعذر الحفاظ على الحياد العثماني". ستجبر الأزمة المحتومة الباب العالي على اللجوء إلى الحلف السري مع ألمانيا، التي ستطالب بإجراء عثماني فوري ضد روسيا في الشرق أو بريطانيا في مصر. وفي الحالتين كلتيهما، سوف تفتح السفن الألمانية المتمركزة في المياه العثمانية جبهات جديدة ضد دول الوفاق، لتغير ميزان القوة لمصلحة ألمانيا[24].

حول العثمانيون الأزمة البحرية الألمانية إلى ميزة. ومع أن أنور طلب أصلاً إرسال السفن الألمانية، فقد فعل ذلك من دون تفويض من حكومته، ورفض الباب العالي في البداية منح السفينتين القادمتين ملاذاً آمناً. لكن في اجتماع عقد مع السفير الألماني قبيل فجر السادس من أغسطس، أذعن الصدر الأعظم سعيد حليم، وعرض شروط حكومته للسماح للسفينتين بدخول المضائق. أصر حليم على امتناع السفينتين عن فعل ما من شأنه تعريض حياد الدولة

* أتباع كنيسة فرنسا الإصلاحية البروتستانتية في القرنين السادس عشر والسابع عشر.

العثمانية للخطر في خضم النزاع الأوربي المتوسع بسرعة. ثم انتقل إلى تقديم ستة مطالب إلى ألمانيا مثلت بياناً مبكراً لأهداف العثمانيين في الحرب العالمية الأولى.

طالب الصدر الأعظم أولًا بأن تساعد ألمانيا العثمانيين على إلغاء الامتيازات الأجنبية -سلسلة من المعاهدات الثنائية القديمة التي منحت الأوربيين المقيمين والعاملين في الأراضي العثمانية مزايا تجارية وحقوقاً قانونية (تحميهم من العقاب والخضوع للقوانين المحلية). كان العثمانيون قد منحوا هذه الامتيازات وهم في ذروة قوتهم إلى الدول الأوربية الضعيفة آنذاك لتسهيل العلاقات التجارية. أسبغت أولى الامتيازات على الدول-المدن الإيطالية في القرن الرابع عشر، وتوسع النظام ليشمل البريطانيين والفرنسيين في القرن السادس عشر. وبحلول القرن العشرين، حين أصبحت الامبراطورية العثمانية أضعف بكثير من جاراتها الأوربيات، تطورت الامتيازات إلى معاهدات غير متكافئة عرضت السيادة العثمانية على أراضيها للخطر بطرائق مهمة. أمل العثمانيون باستغلال حرب أوربية كبرى للتخلص منها وأرادوا من ألمانيا دعمهم في عمل أحادي الجانب، عرفوا أنه سوف يستفز ردود فعل غاضبة من عروش أوربا.

تصدى اثنان من شروط سعيد حليم للخسائر التي أصابت العثمانيين مؤخراً في حربي البلقان. فقد عزم الصدر الأعظم على تأمين اتفاقيات مع رومانيا وبلغاريا قبل البدء بالأعمال العدائية ضدّ دول الوفاق الثلاثي، لضمان عدم تهديد الجيران في البلقان لتراقيا أو إسطنبول. وسعى إلى الحصول على مساعدة ألمانيا في إجراء "تفاهمات لا غنى عنها مع رومانيا وبلغاريا"، والتفاوض على عقد "اتفاقية عادلة مع بلغاريا" حول تقسيم متكافئ لـ"الغنائم المحتملة للحرب". ثانياً، إذا دخلت اليونان الحرب إلى جانب قوى الوفاق وهزمت فيها، سوف تضمن ألمانيا إعادة جزر بحر إيجة الثلاث (كيوس، ميتيليني، ليمنوس) إلى السيادة التركية.

سعت الحكومة العثمانية أيضاً إلى الحصول على مكاسب إقليمية على حساب روسيا. ففي حالة الانتصار على دول الوفاق، أراد الباب العالي من ألمانيا "أن تضمن لتركيا إجراء تصحيح بسيط على حدودها الشرقية.. يضع تركيا في اتصال مباشر مع مسلمي روسيا". أراد العثمانيون إعادة الولايات الثلاث التي تنازلوا عنها إلى روسيا عام 1878. إضافة إلى

الامتناع عن عقد أي اتفاقية سلام مع القوى الأوربية المدحورة، إلى أن يتم إخلاء أي أراض عثمانية محتلة في مسار الحرب من الجنود الأجانب وإعادتها إلى السيادة العثمانية -إعادة صياغة في الجوهر للضمانات الإقليمية المحورية في معاهدة التحالف الألماني-التركي. أخيراً، طلب سعيد حليم من السفير الألماني ضمان أن تتلقى تركيا "تعويضاً حربياً مناسباً" لمجهودها[25].

لم يكن لدى السفير الألماني من خيار سوى الإذعان لمطالب الصدر الأعظم على الفور. كان الوقت منتصف الليل، والسفينتان الألمانيتان تقتربان بسرعة، ومعظم الشروط لا تطبق إلا في حالة المساعدة العثمانية في انتصار ألمانيا. لكن فانغينهايم، عند الامتثال للمطالب العثمانية، وضع سابقة للشريك العثماني الأضعف بفرضه تنازلات مهمة على حليفه الألماني، وهو وضع سوف يستمر حتى نهاية الحرب.

في أصيل العاشر من أغسطس ظهرت السفينتان (*Breslau*) و(*Goeben*) قبالة الشاطئ التركي. بعث أنور باشا برقية إلى قائد الحصون العثمانية في الدردنيل يأمره بالسماح لهما بدخول المضيق. في صباح اليوم اللاحق، أُرسل زورق طوربيد تركي لإرشاد السفينتين للمرور بأمان عبر المياه الملغمة حديثاً وضمان الرسو داخل الدردنيل. وما إن دخلت السفينتان حتى طلب السفيران البريطاني والفرنسي لقاء الصدر الأعظم، للاحتجاج على قرار السماح لهما بالدخول إلى المياه الإقليمية العثمانية باعتباره انتهاكاً لحياد السلطنة.

في ذلك المساء، 11 أغسطس، التقى الثلاثي الحاكم في منزل الصدر الأعظم لتناول العشاء. كان أنور وحده على علم بالحوادث الدرامية التي تكشفت في الدردنيل. هتف قائلاً وعلى وجهه ابتسامة غريبة: "ولد ابن لنا!". ظهر الارتباك جلياً على زملائه. استقبل أنور، أشد المؤيدين صراحة لعقد تحالف مع ألمانيا، وصول السفينتين الألمانيتين بالبهجة ذاتها التي يستقبل بها وليداً من صلبه. وحين أبلغهم وصولهما، عرض المشكلات السياسية التي تواجهها السلطنة الآن. وفقاً لقوانين الحرب، تملك الحكومة العثمانية خيارين للحفاظ على حيادها: يمكنها أن تطلب من السفينتين الألمانيتين مغادرة المياه العثمانية في مدة أربع وعشرين ساعة، أو نزع سلاحهما وحجزهما في ميناء عثماني[26].

بدا من المستحيل أن يطرد العثمانيون سفينتي الحليف الألماني من المياه التركية لمواجهة التدمير المحتوم من سفن الأسطولين البريطاني والفرنسي المنتظرة في البحر المفتوح. وحين تطرق الصدر الأعظم ووزراؤه فيما بعد لموضوع نزع سلاح السفينتين أمام السفير الألماني، رفض فانغينهايم بشكل قاطع وصريح. اقترح العثمانيون لاحقاً تسوية تمثلت في قيام ألمانيا بنقل ملكية السفينتين إلى تركيا عبر صفقة بيع مزيفة. وقبل أن يتمكن السفير من ضمان موافقة برلين، أصدر جمال باشا بياناً رسمياً إلى الصحافة في 11 أغسطس أعلن فيه "شراء" الحكومة العثمانية السفينتين (*Goeben*) و(*Breslau*) مقابل 80 مليون مارك -وهو رقم ارتجله جمال على ما يبدو دون تفكير مسبق. وهكذا، سوف تحل السفينتان الألمانيتان محل "السلطان عثمان" و"الرشادية"، المدمرتين اللتين صادرتهما البحرية البريطانية.

جسد الإعلان عن بيع السفينتين إلى البحرية العثمانية انقلاباً في العلاقات العامة لأعضاء تركيا الفتاة والحكومة الألمانية المرتبكة والمذهولة في آن. تحول الغضب التركي على بريطانيا بسبب "سرقة" السفينتين الحربيتين اللتين طلبت الحكومة العثمانية بناءهما ودفعت ثمنهما، إلى امتنان لألمانيا على تزويد البحرية العثمانية بسفينتين حربيتين حديثتين بحاجة إليهما. لكن أعضاء تركيا الفتاة كسبوا من الصفقة أيضاً، حيث سددوا ضربة قوية إلى البريطانيين والفرنسيين عبر الحصول على سفينتين حربيتين حديثتين منحتا الترك تفوقاً على الأسطول الروسي في البحر الأسود. ترك للسفير فانغينهايم تفسير الأمر الواقع لحكومته في برلين، بينما أطلق على المدمرة والطراد اسمان جديدان: (*Yavuz Sultan Selim*) و(*Medilli*)، وعين الأدميرال سوشون قائداً للأسطول العثماني، ودمج البحارة الألمان في البحرية العثمانية. والأفضل من ذلك كله، من منظور العثمانيين، أن انضمام السفينتين الألمانيتين إلى أسطولهم غير ميزان القوة البحرية لمصلحتهم وعمق علاقاتهم مع ألمانيا دون إجبار إسطنبول على التخلي عن حيادها في النزاع العالمي المتوسع.

* * *

بعد أن نجا العثمانيون من أزمة أغسطس 1914، وجدوا أنفسهم في وضع مريح. فقد ضمنوا تحالفاً مع قوة أوربية كبرى لحماية أراضيهم من العدوان الروسي. كما حشدوا قواتهم

المسلحة لدفع القوى الأوربية إلى الاهتمام بتركيا. امتلكوا الآن سفينتين حربيتين حديثتين غيرت ميزان القوة البحرية في البحرين الأسود وإيجة لمصلحة تركيا. وتمكنت إسطنبول على الرغم من ذلك كله من تجنب التورط في الحرب المنتشرة ذاتها. في الحالة المثالية، كان العثمانيون يفضلون الحفاظ على حيادهم طوال مدة النزاع الأوربي. وهذا سيجعل القوى المركزية تنهك جيوش دول الوفاق ويتيح للترك الانتظار إلى أن يرجح احتمال انتصار ألماني- نمساوي قبل دخول المعمعة، ومن ثم يضمن تحقيق أهدافهم في الحرب مع أقل قدر من المخاطرة أو التكاليف في الرجال والمعدات.

طالبت ألمانيا حلفاءها العثمانيين بمشاركة أكثر فاعلية. ومنذ لحظة نقل السفينتين الألمانيتين إلى الملكية العثمانية، ضغطت برلين على الترك من أجل الانضمام إلى الحرب. أما السؤال الوحيد الذي واجه المخططين الحربيين الألمان فقد تعلق بالطريقة الفضلى التي يمكن بواسطتها استخدام الشريك العثماني في المجهود الحربي المتوسع. قدم بعضهم الحجة على ضرورة أن يفتح الترك جبهة جديدة ضد الروس لإضعاف المجهود الحربي الروسي ضد القوى المركزية، ما يمكّن الجيش الألماني من نشر مزيد من قواته على الجبهة الغربية لمواجهة بريطانيا وفرنسا. لكن المقربين من العثمانيين تفهموا تردد إسطنبول في تحدي الروس. فمنذ عام 1711، خسرت الامبراطورية العثمانية جميع حروبها السبع مع روسيا، وليست واثقة، في أعقاب الحروب مع إيطاليا ودول البلقان، من تحقيق انتصار على جارتها الأشد خطراً. فلو هاجمت تركيا روسيا عام 1914 وخسرت الحرب فسوف تتقطع أوصالها لا محالة.

أكد غيرهم أن بالإمكان استخدام القوات العثمانية على أفضل وجه في هجوم مباغت وسريع على المواقع البريطانية في مصر. فإذا استطاع العثمانيون تأمين قناة السويس، يمكنهم عرقلة الاتصالات البريطانية مع الهند وقطع خطوط الإمداد بالرجال والمواد القابلة للاستخدام الحربي لا من الهند وحدها، بل من دولتي الكومنويلث أستراليا ونيوزيلندا أيضاً. لم يكن لدى الألمان أي أوهام حول قوة الدفاعات البريطانية على طول القناة، لكنهم اعتقدوا أن العثمانيين قادرون على استخدام سلاح سري يقوض المواقع البريطانية.

إضافة إلى دور السلطان بوصفه حاكماً للدولة العثمانية، يتولى أيضاً منصباً دينياً، فهو خليفة المسلمين في العالم. أراد الألمان الاستفادة من الحماسة الدينية لاثني عشر مليون مسلم في مصر، فضلاً عن ملايين المسلمين في المستعمرات البريطانية والفرنسية في آسيا وإفريقيا، من أجل إضعاف قوى الوفاق من داخل امبراطورياتها. يمكن أن يحفز الهجوم على مصر، بالاقتران مع إعلان الجهاد، انتفاضة بين سكان مصر المتمردين ويجعل الموقف البريطاني في ذلك البلد ضعيفاً يصعب الدفاع عنه -أو هكذا أشارت الحجة.

صورت رواية جون بوكان الرائجة الرداء الأخضر (*Greenmantle*) التي نشرت أول مرة عام 1916، الافتتان الأوربي بالقوة الكامنة للتعصب الإسلامي. "الإسلام عقيدة قتالية، وما يزال الملا يقف على المنبر حاملاً القرآن بيد وسيفاً مشهراً بالأخرى"، كما أكد السير والتر بوليفانت، المدير المسؤول عن الجواسيس في الرواية. "افترضوا مثلاً وجود نوع من تابوت العهد يخبل بأحلام الفردوس الفلاحين المسلمين في أقصى الأرض!". ظهرت تنويعات جدية من هذا الحديث الخيالي، الذي دار حسب الرواية في وزارة الخارجية البريطانية نهاية عام 1915، في المكاتب الحكومية في برلين، تحت عنوان "الإسلام السياسي"، واعتقد كثير من الألمان أن أعظم إسهام للامبراطورية العثمانية في المجهود الحربي سيكون عبر هذه السياسة[27].

وقع الاختيار على البارون ماكس فون أوبنهايم ليكون نبي الإسلام السياسي الذي تستخدمه ألمانيا. ولد أوبنهايم لعائلة مصرفية عام 1860، وامتلك مصادر شخصية لتمويل افتتانه بالشرق. قام بأول رحلة إلى الشرق الأوسط عام 1883، وتجول في أرجاء المنطقة بوصفه باحثاً أكاديمياً ومغامراً. في عام 1892 انتقل إلى القاهرة، التي أصبحت قاعدة ينطلق منها في رحلاته الإقليمية حتى عام 1909. تميز بغزارة الإنتاج، وتبقى اليوم دراسته الكلاسيكية المؤلفة من أربعة أجزاء عن القبائل العربية البدو (*Die Beduinen*) مرجعاً معيارياً. كان تي. إي. لورنس، الذي اشتهر لاحقاً باسم "لورنس العرب"، أحد قرائه. ومع أن الدبلوماسيين الألمان رفضوه لأنه "أصبح من الأهالي المحليين"، فقد اكتسب ثقة القيصر فيلهلم الثاني، الذي منح المستشرق المستقل عام 1900 لقباً رسمياً: "كبير المستشارين

القانونيين". في كل صيف، حين يزور أوبنهايم ألمانيا، يقابله القيصر ليوجز له آخر أخبار العالم الإسلامي -ذلك الجزء من العالم الذي يركز عليه فيلهلم اهتماماً شخصياً منذ جولته الناجحة عام 1898.

عرف أوبنهايم بعدائه العميق للامبراطورية البريطانية، وكان واحداً من أوائل المؤيدين لاستخدام ألمانيا صداقتها الناشئة مع العالم الإسلامي سلاحاً ضدها. توقع في وقت مبكر (1906) أن "يؤدي الإسلام في المستقبل دوراً أكبر بكثير.. وسوف تحظى القوة الضاربة والقوة الديمغرافية للعالم الإسلامي بأهمية دلالية عظيمة للدول الأوربية يوماً ما". أراد البارون توجيه تلك القوة لمصلحة ألمانيا. وحين اندلعت الحرب في أغسطس 1914، أسس أوبنهايم مكتباً للجهاد في برلين لإنتاج دعاية إسلامية تحرض على الثورة في شمال إفريقيا الفرنسية، وآسيا الوسطى الروسية، وفي جوهرة التاج البريطاني، الهند البريطانية التي تضم ثمانين مليون مسلم. وحتى إذا فشلت الثورات، كما طمأن أوبنهايم المستشار الألماني، فإن مجرد التهديد بانتفاضة للمسلمين في الهند سوف "يجبر إنكلترا على [الموافقة] على شروط للسلام ملائمة لنا"[28].

ومع أن كثيراً من أعضاء تركيا الفتاة العلمانيين رفضوا صراحة هذا الأسلوب التكتيكي مراراً باعتباره "جهاداً مصنوعاً في ألمانيا"، فإنهم اعتقدوا أيضاً بإمكانية استخدام التعصب الديني ضد دول الوفاق. بدأ أنور يقدر قوة الإسلام حين حارب في ليبيا عام 1911. كان يطالب بشن حرب عصابات ضد إيطاليا قبل الذهاب إلى ليبيا. لكن ما إن وصل إلى هناك، حتى أخذ يعبر عن النزاع بلغة الجهاد باطراد. وصف في رسائله المتطوعين الليبيين بأنهم "مسلمون متعصبون يرون الموت في مواجهة العدو نعمة من الله"، وكثيراً ما لاحظ ولاءهم وإخلاصهم له باعتباره صهراً للخليفة. كما عدّ زميله جمال باشا الإسلام رابطة بين العرب والترك واعتقد أن الحرب الدينية سوف تقويها وتعززها. أكد جمال أن "أغلبية العرب لن يترددوا في تقديم أي تضحية في هذه الحرب العظمى من أجل تحرير الخلافة الإسلامية". ومن ثم اقتنع أعضاء نافذون في القيادة الاتحادية بإمكانية بعث الجهاد، السلاح المؤثر في صدر الإسلام، ليكون مصدر قوة في النزاع الوشيك مع القوى الأوربية الكبرى[29].

وبغض النظر عن الآمال التي علقها أعضاء تركيا الفتاة على الجهاد، فقد حافظوا على التزامهم إبقاء الامبراطورية العثمانية خارج الحرب أطول مدة ممكنة. وطوال شهري أغسطس وسبتمبر 1914، قدم المسؤولون الأتراك أعذاراً وتبريرات للألمان الذين عيل صبرهم. وأكدوا أن التعبئة العامة بقيت ناقصة. وإذا ما هاجم الترك روسيا قبل أن يصبح جيشهم في كامل قوته، فسوف يواجهون خطر هزيمة يمكن أن تجعلهم عبئاً على القوى المركزية لا حليفاً لها. أوضح العثمانيون للألمان أن روسيا ما تزال تشكل باعتقادهم تهديداً وجودياً لدولتهم. لكن لم يفصح أعضاء تركيا الفتاة طبعاً أمام حلفائهم الجدد عن أنهم اقترحوا تحالفاً سرياً مع الروس أنفسهم في خضم محاولتهم التصدي للتهديد الروسي -تحالفاً سوف يؤدي بالضرورة إلى قطع العلاقة مع ألمانيا.

حتى أنور باشا، أشد المؤيدين صراحة لتحالف تركيا مع ألمانيا، اقترح أولاً معاهدة سرية مع روسيا. في الخامس من أغسطس، بعد ثلاثة أيام من عقد الاتفاقية السرية مع الألمان، أذهل أنور الملحق العسكري الروسي في إسطنبول، الجنرال إم. إن. ليونتييف، باقتراح حلف دفاعي مع روسيا. شارك الصدر الأعظم سعيد حليم باشا وزميل أنور في تركيا الفتاة طلعت باشا، في المفاوضات، ودفعوا السفير الروسي لدى الباب العالي، إم. إن. غيرز، إلى الانضمام إليها. سعى أنور وطلعت وسعيد حليم إلى الحصول على ضمانات روسية لسلامة الأراضي العثمانية، وإعادة الجزر الثلاث في بحر إيجة، وتراقيا الغربية التي تسيطر عليها بلغاريا بعد خسارتها في حربي البلقان. بالمقابل، سوف يقدم العثمانيون دعمهم العسكري الكامل للمجهود الحربي لدول الوفاق، إضافة إلى طرد الضباط والتقنيين الألمان العاملين آنذاك في الامبراطورية العثمانية. نجح الثلاثة في إقناع السفير الروسي والملحق العسكري بصدق عرضهم وحسن نيتهم، وقدم المسؤولان الروسيان دعمهما الكامل للتحالف المقترح مع تركيا[30].

تابع السفير العثماني في سان بطرسبرغ، فخر الدين بك، مناقشة مسألة التحالف التركي-الروسي مع الحكومة الروسية. قال لوزير الخارجية سيرغي سازونوف مفسراً إن العثمانيين يسعون إلى ضمانات لسلامة أراضيهم الإقليمية وتعهد روسي بالامتناع عن دعم التطلعات

القومية الأرمنية في شرق الأناضول. لكن سازونوف لم يقتنع بعرض أعضاء تركيا الفتاة ولا بحجة سفيره في إسطنبول. ورفض التخلي عن مشروع الإصلاح الأرمني ولم يصدق كثيراً وعود أنور باشا بقطع العلاقات مع ألمانيا. وسوف يقبل في أفضل الأحوال، بدعم من بريطانيا وفرنسا حليفتي روسيا، ضمان دول الوفاق لسلامة الأراضي الإقليمية العثمانية مقابل حياد العثمانيين في الحرب. ولن يؤدي هذا الضمان إلى استعادة ما خسره العثمانيون في بحر إيجة، ولا تراقيا، ولن يحميهم من المطامح الروسية بعد الحرب.

عززت حقيقة دعم سازونوف مشروع الإصلاح الأرمني مخاوف العثمانيين من الخطط المستقبلية لتقطيع أوصال الامبراطورية. بقي العرض الألماني أفضل الصفقات المطروحة على الطاولة، وبحلول نهاية أغسطس، رجع العثمانيون إلى علاقتهم الخاصة مع القوى المركزية. أما مفاتحة أعضاء تركيا الفتاة الروس أصلاً فأظهرت المدى الذي يمكن أن يصلوا إليه في سبيل البقاء خارج حرب أوربا.

* * *

كانت الأسباب كلها تدعو العثمانيين إلى الحذر والتريث قبل دخول النزاع، حين نأخذ بالاعتبار مسار الأعمال العدائية في أغسطس وسبتمبر 1914. أوقفت معركة المارن الحاسمة (5-12 سبتمبر) آلة الحرب الألمانية القائمة على الحركة، التي أدت إلى احتلال بلجيكا والتقدم السريع نحو باريس. بدأ المتحاربون يحفرون الخنادق التي ستصبح من الملامح المميزة للحرب الجامدة على الجبهة الغربية. من السمات المميزة الأخرى للحرب العظمى التي ظهرت منذ سبتمبر: المعدلات غير المسبوقة للخسائر البشرية. تجاوز عدد القتلى والجرحى الفرنسيين 385.000، والألمان 260.000، على الجبهة الغربية وحدها. بينما دمر الألمان جيشاً روسياً كاملاً في معركة تاننبرغ في أواخر أغسطس، حيث أوقعوا فيه 50.000 إصابة وأسروا 90.000 رجل. كان أداء الروس أفضل بكثير أمام النمساويين، الذين قتل وجرح منهم أكثر من 320.000 جندي، وأسر 100.000 في حملة غاليسيا (كانت خسائر الروس فادحة إلى حد لا يصدق أيضاً، حيث تجاوزت 200.000 قتيل وجريح و40.000 أسير حرب). كما شنت النمسا هجوماً فاشلًا على صربيا في أغسطس

1914، حيث بلغت خسائر جيش هابسبورغ 24.000 جندي متجاوزة خسائر صربيا، التي لا يزيد عدد سكانها على عشر سكان الامبراطورية النمساوية-الهنغارية. بينما خسر البريطانيون بحلول نوفمبر 90.000 قتيل وجريح، ليتجاوز العدد الحجم الإجمالي للفرق السبع الأصلية التي تشكل قوة الحملة البريطانية (BEF). في أقل من ستة أسابيع من القتال، سقط من دول الوفاق والقوى المركزية أكثر من مليون ضحية. وكان ذلك كافياً ليجعل أعضاء تركيا الفتاة يفكرون ملياً قبل دخول المعمعة[31].

نفد صبر الألمان على العثمانيين ومماطلتهم في سبتمبر 1914. فمع تجمد حركة القوات الألمانية في الجبهة الغربية والضعف الخطير الذي أصاب الجيش النمساوي جراء القتال ضد روسيا وصربيا، أصبحت القوى المركزية في حاجة ماسة وعاجلة إلى العثمانيين لكي يفتحوا جبهة جديدة ضد الروس. واصل أعضاء تركيا الفتاة وعودهم بدخول الحرب بينما طالبوا بالتمويلات والإمدادات العسكرية. في منتصف سبتمبر، رفض وزير الحربية الألماني الجنرال إريش فون فالكنهاين قبول مزيد من "الطلبات لإرسال ضباط أو مدفعية أو ذخيرة.. إلى أن تدخل الامبراطورية العثمانية الحرب ضد أعداء ألمانيا". من وجهة نظر برلين، منح نقل ملكية السفينتين الحربيتين البحرية العثمانية أداة مثالية لبدء الأعمال القتالية ضد الروس، وترسيخ التفوق الحربي في البحر الأسود. من المؤكد أن أي هجوم على روسيا سوف يدمر حياد العثمانيين ويجر الترك إلى حرب أوربا. عند تلك النقطة، يمكن للسلطان إعلان الجهاد الذي وضع عليه المخططون الحربيون الألمان آمالًا كباراً لإضعاف قوى الوفاق عبر مستعمراتهم المسلمة. أما التحدي لألمانيا فتمثل في إجبار العثمانيين على مغالبة ترددهم ومهاجمة الروس[32].

من العقبات الرئيسية المعيقة للعثمانيين افتقارهم إلى المال. فقد احتاجوا إلى تمويل ضخم للحفاظ على المستوى المرتفع من التعبئة والقيام بعمل عسكري. في منتصف أكتوبر، أتى وزير الحربية أنور باشا إلى مائدة المفاوضات، عارضاً شن هجوم بحري فوري على روسيا مقابل دعم مالي. كما وعد باحتواء الروس في شرق الأناضول إضافة إلى مهاجمة المواقع البريطانية في مصر، وسوف يعلن السلطان الجهاد ضد قوى الوفاق. سارع الألمان إلى قبول

العرض العثماني وأرسلوا ذهباً يعادل مليونين من الليرات العثمانية إلى إسطنبول، يسلم عند بدء الأعمال الحربية ضد الروس. وعد الألمان بمبلغ إضافي قدره ثلاثة ملايين ليرة يقدم على مدى الأشهر الثمانية اللاحقة، بعد دخول العثمانيين الحرب رسمياً. منح هذا التمويل المخططين الحربيين العثمانيين الاستقرار المالي الضروري لمتابعة خططهم الحربية الطموحة.

في الرابع والعشرين من أكتوبر، كتب وزير البحرية جمال باشا الأوامر المصيرية التي تفوض الأدميرال سوشون، إجراء مناورات في البحر الأسود. وأعطى أنور باشا سوشون مجموعة ثانية من الأوامر بمهاجمة القوات البحرية الروسية. وافق الأدميرال على إبقاء أوامر أنور باشا ضمن ظرف مختوم إلى أن يتلقى التعليمات بواسطة الراديو ليفتحه وينفذ التعليمات. لكن المبادرة تسربت الآن من أيدي العثمانيين مع إبحار السفينتين الألمانيتين في البحر الأسود يوم 27 أكتوبر وهما ترفعان العلم الجديد.

صحيح أن الأدميرال الألماني سوشون قد انتدب للعمل في البحرية العثمانية، لكنه دان بولائه الكامل للقيصر. وحين لم يتصل به أنور باللاسلكي، أخذ زمام المبادرة وهاجم أسطول البحر الأسود في 29 أكتوبر، ليغرق فرقاطة وسفينة لزرع الألغام. كما قصفت المدمرة (*Goeben*) مدينة سيفاستوبول الروسية. في اليوم اللاحق، أصدرت الحكومة العثمانية بياناً يدين الهجوم الروسي على الأسطول التركي. استدعت روسيا، ثم بريطانيا وفرنسا، سفراءها من إسطنبول قبل إعلان الحرب في 2 نوفمبر.

وهكذا دخلت الامبراطورية العثمانية الحرب. كل ما بقي رفع راية الجهاد. لم تكن تلك المرة الأولى التي يستخدم فيها العثمانيون الدين لحشد رعاياهم من أجل الحرب. ففي عام 1877، رفع السلطان عبد الحميد الثاني راية النبي وأعلن الجهاد ضد الروس. لكن الظروف اختلفت عام 1914. في هذه المرة، سيحشد السلطان المسلمين في الامبراطورية العثمانية والعالم فيما وراء حدودها لشن الحرب على بعض البلدان غير المسلمة -روسيا، بريطانيا، فرنسا، صربيا، الجبل الأسود في المقام الأول- لكن ليس على غيرها، أي حليفتي الامبراطورية ألمانيا والنمسا. التقت مجموعة مؤلفة من تسعة وعشرين عالماً فقهياً إسلامياً في إسطنبول للتداول بشأن إصدار خمس فتاوى تجيز الجهاد. نالت الفتاوى الخمس موافقة

السلطان رسمياً وقدمت إلى السلطات الرئيسية السياسية والعسكرية والدينية في جلسة مغلقة في 11 نوفمبر. عندها فقط، في 14 نوفمبر، أعلنت الدعوة إلى الجهاد باسم السلطان أمام حشد كبير تجمع خارج مسجد محمد الفاتح، وهدرت أصوات الجماهير مؤيدة لها[33].

كان باستطاعة السلطات العثمانية أن تثق باستجابة العرب والترك في الامبراطورية لدعوة السلطان. لكن وجب عليها أن تنتظر لتعرف هل ستكون لدعوة الجهاد ارتدادات أوسع مع التعبئة العالمية من أجل الحرب.

3

دعوة عالمية إلى حمل السلاح

في الأسبوع الأول من أغسطس 1914، انتشر خبر اندلاع الحرب في شتى أرجاء العالم بسرعة البرق (التلغراف). أثار المطبلون والمزمرون الروح القتالية في المدن والبلدات والأرياف المنتشرة في القارات الخمس. وبدا من الطبيعي أن يلبي رجال أوربا الدعوة، مع ارتباط بلدانهم بمعاهدات سرية وأحلاف دفاعية متبادلة. فعل بعضهم ذلك بحماسة قومية متعصبة، وأظهر غيرهم تحفظات على محاربة أعداء ليس لديهم سبب يدعو -حتى ذلك الحين- لكراهيتهم.

ومع تطوع البريطانيين والفرنسيين لقتال الألمان، التفتت الحكومة في كل من لندن وباريس إلى الامبراطورية طلباً للعون. صحيح أن الكنديين والأستراليين والنيوزيلنديين لم يجدوا سبباً لمعاداة القوى المركزية، لكنهم احتشدوا وراء التاج البريطاني بإحساس بالواجب لا يقل عن إحساس أي فرد من رعايا الملك جورج الخامس الآخرين. إذ إن سكان "دول الكومنويلث البيضاء" على الرغم من كل شيء هم مستوطنون تعود أصولهم إلى الجزر البريطانية، ويرأس دولهم التاج البريطاني. وحين دعاهم مليكهم، شعروا أن من واجبهم تلبية النداء.

لا ينطبق ذلك على السكان في آسيا وإفريقيا -رعايا مستعمرات بريطانيا وفرنسا الذين رفضوا غالباً حكامهم الأجانب. وحين تحولت بريطانيا إلى الهند وشكلت فرنسا جيش إفريقيا، وجد المخططون الحربيون سبباً وجيهاً يدعوهم إلى وضع ولاء مستعمراتهم موضع الشك. نشطت ألمانيا في تشجيع تمرد المستعمرات ضد قوى الوفاق -ولاسيما سكانها المسلمين. فقد عاشت أغلبية المسلمين الذين بلغ عددهم 240 مليوناً عام 1914 تحت

الحكم الاستعماري، وجميعهم تقريباً رعايا لدى قوى الوفاق: 100 مليون تحت الحكم البريطاني، 20 مليوناً في المستعمرات الفرنسية، 20 مليوناً ضمن الامبراطورية الروسية. وضع دخول الامبراطورية العثمانية الحرب إلى جانب القوى المركزية في نوفمبر 1914، ودعوة السلطان إلى الجهاد ضد بريطانيا وفرنسا وروسيا، ولاء المسلمين لدول الوفاق موضع المساءلة والشك. ولو نجح العثمانيون في مناشدتهم العالم الإسلامي لأمكنهم تغيير توازن القوة لمصلحة القوى المركزية[1].

ومثلما جرت الأمور في الواقع، واجه العثمانيون تحدياً كبيراً على جبهتهم الداخلية: حشد مجتمع سئم من الحرب لمواجهة أخطر تهديد في تاريخ الامبراطورية الممتد ستة قرون. ففي أعقاب الحروب في ليبيا والبلقان، أخذ الرجال في سن التجنيد بالفرار سراً إلى الخارج لتجنب الالتحاق بالخدمة العسكرية. إذ ازدادت الهجرة إلى الأميركيتين عام 1913 بنسبة 70 في المئة مقارنة بالسنوات السابقة. وزعم المسؤولون القنصليون الأميركيون أن معظم المهاجرين هم من الشباب في سن التجنيد. وزادت الإشاعات عن قرب اندلاع الحرب في النصف الأول من عام 1914 من هجرة الشباب المسلمين والمسيحيين واليهود في شتى أنحاء الامبراطورية، إلى أن منعت الحكومة العثمانية الرجال في سن التجنيد من مغادرة البلاد مع الدعوة إلى التعبئة العامة[2].



التجنيد للمشاركة في "الجهاد" بالقرب من طبريا. أعلنت الامبراطورية العثمانية التعبئة استعداداً للحرب في 1 أغسطس 1914. وأبلغ مخاتير القرى ضرورة تشجيع الروح الحربية الحماسية عبر "قرع الطبول وإظهار الفرح والحبور". تظهر هذه الصورة العثمانية الرسمية فرق التجنيد تمارس نشاطها بمساعدة الطبول والرايات في بلدة طبريا الفلسطينية.

في الأول من أغسطس، أرسلت نظارة الحربية دعوة أنور باشا إلى حمل السلاح بواسطة البرق (التلغراف) إلى مختلف أرجاء الامبراطورية. علق مخاتير القرى وزعماء الأحياء في البلدات ملصقات في الساحات العامة وعلى أبواب المساجد تعلن التعبئة العامة، وتدعو جميع الرجال المؤهلين إلى حمل السلاح. منح جميع الرجال، مسلمين وغير مسلمين، ممن راوحت أعمارهم بين واحد وعشرين وخمسة وأربعين عاماً، مدة خمسة أيام للالتحاق بأقرب مركز تجنيد. وأبلغ المسؤولون المحليون ضرورة تشجيع الروح الحربية الحماسية عبر "قرع الطبول، وإظهار الفرح والحبور، لا اليأس والإهمال"[3].

لم يتمكن قرع الطبول ولا مظاهر الفرح الرسمية الاستعراضية من مغالبة الهواجس المنذرة بالخطر التي انتشرت بين القرويين العرب عند إعلان التعبئة. عبر رجل دين شيعي في بلدة النبطية اللبنانية عن الشعور بالفزع والقنوط لدى عامة الناس في يومياته بتاريخ 3 أغسطس 1914:

> ..هاج الناس وماجوا [عند إعلان النفير العام]، وتجمعوا كتلاً كتلاً في الساحات العامة، وهم في دهشة وحيرة، وكأنهم دعوا ليوم القيامة، فبعضهم يريد الهرب، ولكن إلى أين؟ وبعضهم يريد الانفلات، ولكن لا مناص. وإذا بالأخبار تعلن شهر الحرب، بين الألمان والنمسويين من جهة، والحلفاء من جهة ثانية. فزاد الخوف والذعر من وقوع حرب ضروس تأكل الأخضر واليابس[4].

* * *

سجلت ردود أفعال مشابهة في شتى أرجاء الامبراطورية العثمانية. أغلقت المتاجر في حلب في 3 أغسطس رداً على إعلان التعبئة. "سادت حالة من القلق الشديد في هذه المدينة"، كما لاحظ أحد سكانها. بينما "جاء فرمان التعبئة العامة مثل الصاعقة" في ميناء طرابزون على البحر الأسود، حسبما سجل القنصل الأميركي. ومع أن كل من يتهرب من التجنيد يواجه عقوبة الموت، فإن كثيراً من الشبان فضلوا المخاطرة والاختباء بدلاً من التعرض لموت مؤكد باعتقادهم عند القتال مع الجيش العثماني[5].

في إسطنبول عاصمة السلطنة، أعلن النفير العام في كل حي بواسطة الحراس. في النهار، ينقل الحارس المياه إلى الأحياء السكنية. في الليل، يحرس الشوارع والأزقة. وهو الذي يدق ناقوس الخطر عند اندلاع حريق، ويجلب الشباب إلى مركز التجنيد عند إعلان الحرب.

تذكر عرفان أورغا كيف سلم الحارس أباه مذكرة التبليغ. بدأت التعبئة صيف عام 1914، وتسارعت وتيرتها بعد دخول الجيش العثماني الحرب، حيث جند حتى الرجال الأكبر عمراً. خرج من المنزل في برد نوفمبر مع أبيه ليسمع نداء الحارس ويشاهده وهو يقف جانب عمود الإنارة في ركن الشارع و"يعلن أخباره الساحقة": "على الرجال من مواليد عام 1880 وحتى عام 1885 الالتحاق بمراكز التجنيد في خلال أربع وعشرين ساعة. وكل من يمتنع يعرض نفسه للعقوبة". صاح أحد رجال العائلة: "ماذا يعني ذلك؟".

رد مزمجراً: "حرب! حرب! ألا تعلم أن بلدك في حالة حرب"[6].

اكتسحت مراكز التجنيد في العاصمة، المكتظة بالرجال في عمر الجندية، موجة من الفوضى والتشوش. ألقى المسؤولون المنهكون تعليماتهم على المدنيين بأصوات مدوية، وتجمع هؤلاء مثل قطيع جائع ويائس وخامل. ربما تطلبت إجراءات إلحاق المجندين بالخدمة أياماً. وحين تعين وحداتهم، يؤذن لهم بالعودة إلى منازلهم لجمع أغراضهم وتوديع أهلهم. في كل منطقة من المدينة، كانت فرقة صاخبة تجمع الشباب الذاهبين إلى الحرب من بيت إلى بيت. اعتاد جندي أن يسلم الراية العثمانية إلى المجند الغر عندما يخرج من باب المنزل، بينما كان آخرون يقفزون ويصيحون مع موسيقى الفرقة، وتذرف النساء الدموع بحرقة. "عندما غادروا منازلهم عزفت الفرقة أغنية حزينة إلى حد لا يصدق"، ثم بدأ الجميع بالغناء، كما تذكر أورغا:

أيها المحاربون، سأبقى من جديد غريباً وحيداً
تنهداتي ودموعي لا تحتملها الجبال والصخور[7]

* * *

بهذه الطريقة، من بيت إلى بيت، تمكن العثمانيون من زيادة عدد جيشهم العامل من 200.000 إلى 500.000 ضابط وجندي قبل اندلاع الأعمال القتالية في نوفمبر 1914. وسوف يخدم في الجيش العثماني نحو 2.8 مليون رجل في مسار الحرب -نحو 12 في المئة من إجمالي عدد السكان البالغ 23 مليون نسمة- مع أن عدد أفراده لم يتجاوز 800.000 رجل في أي وقت[8].

قزمت الأرقام لدى القوة المركزية ودول الوفاق الأرقام العثمانية. إذ جندت النمسا نحو 3.5 مليون رجل عام 1914 -لكنها ظلت تعاني نقصاً مزمناً. وفي مجرى الحرب، جندت ألمانيا زهاء 13.2 مليون رجل، أو نسبة 85 في المئة من السكان الذكور الذين راوحت أعمارهم بين سبعة عشر وخمسين عاماً؛ وتمكنت روسيا من تجنيد عدد راوح بين 14 و15.5 مليون رجل؛ بينما بلغ العدد في فرنسا 8.4 مليون رجل، من بينهم نحو 500.000 من سكان المستعمرات؛ وجندت بريطانيا العظمى في الجيش والبحرية أكثر من 5.4 مليون رجل -ثلث القوة العاملة من الذكور في حقبة ما قبل الحرب. ولذلك كله، ليس من المفاجئ ألا تهتم القوى الأوربية كثيراً بالقوة العسكرية العثمانية[9].

* * *

عرضت الزيادة السريعة للقوات المسلحة الحكومة العثمانية إلى ضغط مالي هائل. وسبب الإرباك الاقتصادي الناجم عن التعبئة عواقب مدمرة. فقد أجبر العاملون في الزراعة والتجارة والصناعة على ترك وظائفهم والانضمام إلى الجيش، ما قلص الطاقة البشرية الإنتاجية واستنزف الموارد الحكومية مع تحول العاملين من دافعي الضرائب إلى مجندين يتلقون أجورهم من الحكومة، فضلاً عن حاجتهم إلى المأوى والطعام. أما إغلاق الدردنيل وتهديد الحرب للشحن البحري فقد أصاب الموانئ بالشلل. وسبّب نقل مئات الآلاف من الجنود، إضافة إلى المؤن العسكرية من أجل المجهود الحربي، انسداد الطرق وخطوط السكك الحديدية الضرورية للتجارة المحلية والدولية؛ ما أدى إلى نقص في الطعام والسلع الاستهلاكية. ظهر التضخم على الفور ولاح شبح الجوع على المدن العثمانية؛ فأصيب المواطنون بتوتر شديد وبدؤوا تخزين المؤن.

أدت هذه الاختلالات في الاقتصاد العثماني إلى انخفاض كبير في الإنتاجية الاقتصادية ومن ثم في العائدات الحكومية، التي تقلصت وفقاً للتقديرات المعاصرة آنذاك من 63.2 مليون دولار في الأشهر الستة الأخيرة من عام 1913 إلى 50.2 مليون دولار في الأشهر الستة الأخيرة من عام 1914، أي بنسبة عشرين في المئة. ومع تجاوز الإنفاق الدخل إلى هذا الحد، واجه العثمانيون عجزاً في الميزانية توقع المسؤولون القنصليون الأميركيون أن يتجاوز 100 مليون دولار عام 1914 -أي القضاء بضربة واحد على جميع المكتسبات التي تحققت من القرض الفرنسي في مايو 1914 [10].

كانت الثقة الدولية بالاقتصاد العثماني متدنية أصلاً قبل دخول البلاد الحرب. وما إن أعلن العثمانيون التعبئة العامة لجنودهم حتى بدأت المصارف الأوربية استعادة القروض التي قدمتها للمؤسسات المالية المحلية. طالب المصرفيون الفرنسيون في المدن التجارية في الولايات العربية والتركية بالسداد الفوري بالذهب للقروض المستحقة في الأسبوع الأول من أغسطس 1914. بينما سبّب نفاد السبائك الذهبية المفاجئ حالة من الهلع في الأوساط التجارية في شتى أرجاء الامبراطورية. واندفع المودعون إلى المصارف العثمانية لمحاولة استرجاع أموالهم. في إسطنبول وحدها، دفعت المصارف أكثر من 9 ملايين دولار إلى المودعين في شهر أغسطس.

أصدرت الحكومة المركزية في 3 أغسطس قراراً بتأجيل السداد وتجميد التعاملات المصرفية لمدة شهر في البداية من أجل منع هروب رأس المال، لكن ظلت تمدده فصلياً حتى نهاية الحرب. وفقاً لقرار التأجيل، لا يسدد المدينون إلا نسبة 25 في المئة من ديونهم، ولا تسمح المصارف لأصحاب الحسابات إلا بسحب نسبة 5 في المئة من ودائعهم كل شهر. خففت هذه الإجراءات شدة الضغوط على المقترضين لكنها أصابت النظام المصرفي والاقتصاد برمته بشلل كامل. ولن تقدم المصارف القروض إلا إلى الحكومة. في المراكز التجارية مثل حلب وبيروت وهاربوت وإزمير وإسطنبول، أدى القرار عملياً إلى غلق "جميع الأعمال التجارية والصناعية" وفقاً للمسؤولين القنصليين الأميركيين في تلك المدن[11].

لجأ العثمانيون إلى حلفائهم في ألمانيا طلباً للمساعدة المالية لمجهودهم الحربي. تعهدت ألمانيا مقابل دخول العثمانيين الحرب بتقديم مليوني جنيه ذهباً، فضلاً عن ثلاثة ملايين تدفع على أقساط على مدى الأشهر الثمانية اللاحقة على دخول الحرب. ساعدت هذه المنح على استعادة الاحتياطي العثماني وسمحت للحكومة بطبع عملة ورقية محمية بغطاء من الذهب. كما زودت ألمانيا العثمانيين بنحو 29 مليون جنيه على شكل مواد ومساعدات عسكرية، شملت أسلحة وذخائر، في أثناء الحرب[12].

لجأت الخزانة العثمانية إلى إجراءات استثنائية زمن الحرب لزيادة العائدات الحكومية والتعويض عن تكلفتها. في 9 سبتمبر، أعلنت السلطنة استقلالها الاقتصادي عن القوى الأوربية عبر إلغاء الامتيازات الممنوحة للأجانب من جانب واحد -أحد أهداف الباب العالي الأساسية من الحرب. أثار الإجراء إدانة العواصم الأوربية وترحيباً واسع النطاق لدى عامة الناس الذين زينوا بيوتهم ومتاجرهم بالبيارق واللافتات، احتفاء بهذا الانتصار الذي حققته حكومتهم على القوى الغربية. كان إلغاء الامتيازات أول فائدة ملموسة جنتها تركيا من النزاع الأوربي، واعتبر يوم 9 سبتمبر عيداً وطنياً. خرجت حشود المواطنين في مظاهرات إلى الساحات العامة في أدرنة وإسطنبول وكوتاهية للتعبير عن المشاعر الوطنية الجياشة.

ما إن ألغيت الامتيازات الممنوحة للأجانب، حتى أصدر العثمانيون قانوناً ما اكتفى بفرض الضرائب على المقيمين الأجانب والشركات الغربية فحسب، بل على آلاف المواطنين العثمانيين الذين ضمنوا الإعفاء الضريبي باعتبارهم تحت الحماية الأجنبية، على أن يطبق بدءاً من 1 أكتوبر 1914. وأدى هذا الإجراء كما ذكر إلى زيادة عائدات الخزينة العثمانية "عدة ملايين من الدولارات"[13].

مصادرة الممتلكات شكل آخر من أشكال الضرائب الاستثنائية التي طبقت على الرعايا العثمانيين والأجانب على حد سواء. فرض القانون على الحكومة عرض تعويض عادل للأملاك التي صادرتها الدولة، مع أن الحكومة في الممارسة العملية ثبتت الأسعار وعرضت إيصالات بدلاً من النقد السائل. وأمكن للملاك الافتراض بأنهم خسروا ما صادرته

الدولة كله. أجبر الرعايا العثمانيون على تسليم خيولهم ومواشيهم ومحاصيلهم بوصفها مطايا وأطعمة للجيش.

هجم المسؤولون على المتاجر ليصادروا فوراً ما فيها من منتجات غذائية وسلع اعتقدوا أنها مفيدة للمجهود الحربي. أمكنهم استخدام المصادرة شكلاً من أشكال الابتزاز- حيث أمر أصحاب المتاجر بتسليم سلع لا يملكونها ومن ثم اضطروا إلى شرائها من الموردين الحكوميين بأسعار محددة. كما أصيبت الشركات الأجنبية في السلطنة بخسائر كبيرة بسبب المصادرة. في سوريا، استولى الوالي على آلات الخياطة (سنجر) وعدّها "إسهاماً" في مصنع الزي العسكري الموحد لفوج الجنود في المنطقة. في أضنة وبغداد، صادر الواليان مئات من صفائح الكيروسين من "شركة ستاندارد أويل". وقدر المسؤولون القنصليون أن الحكومة العثمانية حصلت على 50 مليون دولار عبر المصادرات في الأشهر الستة الأولى من إعلان التعبئة[14].

بقي المواطنون العثمانيون الهدف الرئيس لجباية الضرائب الجديدة. منح المسيحيون واليهود، الخاضعون للتجنيد لكن لا يثق بهم المسلمون العثمانيون ثقة كاملة كجنود محاربين، خيار دفع بدل نقدي باهظ بلغ 43 ليرة تركية (189.20 دولاراً) للإعفاء من الخدمة العسكرية. ثم زادت الحكومة في أبريل 1915 قيمة البدل إلى خمسين ليرة (220 دولاراً). أدخلت هذه الضريبة إلى الخزينة مبلغاً صافياً قدره 12 مليون دولار في الأشهر التسعة اللاحقة على إعلان التعبئة. كما فرضت الحكومة ضرائب جديدة على السلع الشعبية الاستهلاكية لكن غير الأساسية مثل السكر والبن والدخان والمشروبات الكحولية، التي زادتها من حين لآخر خلال مجرى الحرب. إذ رفعت ضريبة العشر الزراعية من 10 إلى 12.5 في المئة. وزادت الضرائب الموجودة سابقاً بنسبة 70 في المئة لأغراض الحرب، كما فرضت "المساهمات الطوعية" على الأفراد والشركات لمصلحة مؤسسات المعونات الوطنية والعسكرية[15].

جمعت هذه الضرائب الاستثنائية عشرات الملايين من الدولارات لمصلحة المجهود الحربي العثماني على المدى القريب، بينما خربت الاقتصاد العثماني إلى حد يتعذر إصلاحه على المدى البعيد. لكن في عام 1914، لم يهتم العثمانيون إلا بالمدى القريب. وعلى غرار جميع المتحاربين في بداية النزاع، توقعوا نتيجة سريعة وحاسمة. فإذا انتصروا، سوف يمتلكون

الوسيلة لتصحيح الاقتصاد؛ أما إذا هزموا، فسوف يواجهون حتمية التقسيم، وسترث قوى الاحتلال المصائب الاقتصادية للأرض المحتلة. لم تراود العثمانيين أي أوهام عن حقيقة كون الصراع الآتي مسألة حياة أو موت، واستخدموا كل ما لديهم لضمان الانتصار[16].

* * *

بينما عبأ العثمانيون جنودهم في أوائل أغسطس 1914، لجأ البريطانيون والفرنسيون إلى الامبراطورية لمساعدتهم في المجهود الحربي. واستجابة للدعوة الفرنسية، ركب جنود من السنغال ومدغشقر والهند الصينية السفن للمشاركة في المعارك على الجبهة الغربية، مع أن أضخم حشد كان "جيش إفريقيا". وسوف يخدم جنود مستعمرات شمال إفريقيا، الذين أرسلوا أول مرة إلى الجبهة الغربية، على الجبهة العثمانية فيما بعد -في خنادق الطرفين كليهما.

ضم جيش إفريقيا أفواجاً من الجزائريين والتونسيين والمغاربة. كانت التعبئة في السياق الاستعماري عملية شائكة ومعقدة على نحو خاص. إذ وجب على الفرنسيين إقناع الرجال في شمال إفريقيا بالمشاركة في الحرب ضد ألمانيا، البلد الذي ليست لديهم شكوى منه، دفاعاً عن امبراطورية حولتهم إلى مواطنين من الدرجة الثانية في وطنهم. وتضاعفت صعوبة المهمة جراء الدعاية الألمانية وإعلان العثمانيين الجهاد، اعتماداً على الولاءات الإسلامية من أجل دفع المسلمين في شمال إفريقيا إلى معاداة الفرنسيين.

أنشأت أولى الفيالق العسكرية الاستعمارية في الجزائر أوائل القرن التاسع عشر. أثارت فرقة المشاة الخفيفة، "زواف" (الاسم مشتق من قبيلة البربر زواوة)، اهتمام العالم وحفزت خياله بزيها الملون: سراويل عريضة حمراء، وستر زرقاء، وطرابيش. في أوربا وأميركا منتصف القرن التاسع عشر، أسست أفواج "الزواف" من نخبة الجنود الغربيين، بلباسهم الغريب المبهرج وفقاً للنموذج الجزائري. نشر الجيشان الاتحادي والكونفدرالي في الحرب الأهلية الأميركية مثل هذه الوحدات في ميادين القتال. وفي مسار القرن التاسع عشر، حل المجندون الفرنسيون باطراد محل الجزائريين في وحدات "الزواف"، إلى أن أصبحت قوة

أوربية خالصة. وبحلول القرن العشرين، وجدت خمسة أفواج "زواف" في الجزائر وواحد في تونس. وضمت الوحدات الأوربية الأخرى في جيش إفريقيا فوج الفرسان، والفرقة الأجنبية الفرنسية الشهيرة.

ألحق الجنود العرب والبربر الذين استبعدوا من فيالق "الزواف" في الوحدات العسكرية المحلية: حملة البنادق من الجزائريين والتونسيين، المشهورين باسم "الترك"، والفرسان (السباهية). وبينما كان جنود هذه الوحدات كلهم تقريباً من السكان المحليين، فإن ضباطهم كانوا حصراً من الفرنسيين. ولم يسمح للجزائريين بتجاوز رتبة ملازم، كما يجب ألا يزيد عدد الضباط الجزائريين من هذه الرتبة على نصف العدد الإجمالي للضباط في أي وقت (مع أنهم في الممارسة العملية لم يصلوا قط إلى مستوى الفرنسيين). تمتع الفرنسي بالأفضلية على الجزائري ولو تساوى الاثنان في الرتبة[17].

وأخذاً بالاعتبار السياق الكولونيالي والحدود التي وضعتها فرنسا على الجنود، بدا من اللافت أن ينضم العرب والبربر أصلاً. تشير تجربة أحد قدامى المحاربين الجزائريين إلى أن الجيش اعتبر وظيفة ثابتة في اقتصاد لا يوفر سوى فرص محدودة جداً للعمال. انضم مصطفى تابتي، وهو رجل غير متعلم من القبائل التي تسكن منطقة وهران، إلى حملة البنادق الجزائريين عام 1892 ولما يتجاوز السادسة عشرة من العمر، مدفوعاً بالفضول والرغبة بـ"اللعب بالبارود". وحين استكمل المرحلة الأولى من الخدمة، عاد إلى الحياة المدنية ليفتح متجراً صغيراً للبقالة. كافح على مدى سبعة عشر عاماً بين المتجر والعمل الزراعي قبل أن يعاود الانضمام إلى الفوج الثاني من حملة البنادق برتبة عريف وهو في السابعة والثلاثين. ومع تفاقم التوتر في أوربا في أوائل العقد الثاني من القرن العشرين، بدأ الفرنسيون حملة جسورة للتجنيد في شمال إفريقيا، وعرضوا مكافآت مغرية وصفقات مجزية على العرب والبربر. فإضافة إلى الطعام والمأوى والراتب المنتظم، منح الجيش المجند مكانة اجتماعية لا يتمتع بها البقال أو المزارع[18].

ظل جيش إفريقيا، حتى بداية العقد التاني من القرن العشرين، يعتمد اعتماداً كلياً على المتطوعين من الأوربيين والسكان المحليين في الجزائر وتونس والمغرب. ثم قررت الحكومة

الفرنسية عام 1912، في مواجهة الضغط لتوسيع المؤسسة العسكرية، إدخال نظام التجنيد الإلزامي إلى شمال إفريقيا. عارض كثيرون في باريس والجزائر هذا الإجراء، خوفاً من أن يؤدي إلى ثورة الجزائريين، أو أسوأ من ذلك، إلى مطالبتهم بحقوق المواطنة التي تساويهم بالفرنسيين ثمناً للخدمة في جيش من المجندين. تغلب المخططون العسكريون، على غير العادة، على اعتراضات جماعات الضغط الاستعمارية ووضعوا الآليات اللازمة للتجنيد. حدد قرار 3 فبراير 1912 عدد المجندين الإلزاميين بما لا يزيد على 2400 رجل، يتم اختيارهم بالقرعة. ومن أجل تأمين دعم وجهاء المسلمين، ضمن الفرنسيون حق البدل النقدي، حيث يعفى أبناء الطبقة الجزائرية الميسورة من الخدمة العسكرية مقابل مبلغ مالي. ضاعف هذا البدل اعتراض الجزائريين من ذوي الدخل المحدود على التجنيد، فاحتجوا عليه. "نفضل الموت على السماح لهم بأخذ أبنائنا منا"، كما أعلنت الأسر الجزائرية محتجة. لكن القرعة أجريت بانتظام كل سنة بعد عام 1912، على الرغم من الاحتجاجات الشعبية. وعشية الحرب عام 1914، بلغ عدد المجندين الجزائريين 3.900 من بين 29.000 جندي جزائري في الجيش الفرنسي[19].

حين وصل خبر إعلان ألمانيا الحرب على فرنسا إلى الجزائر في 3 أغسطس 1914، اكتظت الشوارع بالفرنسيين المتحمسين لوطنهم في استعراض جماهيري للمشاعر الوطنية. ورددوا معاً "المارسيلييز" (النشيد الوطني) مع "أغنية الرحيل" الحربية، التي ظهرت في حقبة الثورة الفرنسية، وتضم مقطعاً يقول:

الجمهورية تنادينا

فلننتصر أو نردى

من أجلها [الجمهورية]، يجب أن يموت الفرنسي

من أجلها يجب أن يموت الفرنسي

عمل الفرنسيون في الجزائر على تعديل البيت الأخير لضم الجزائريين إلى هذه الرؤية للتضحية: "من أجلها يجب أن يموت الفرنسي، من أجلها يجب أن يموت العربي". لاحظ

مصالي الحاج (من تلمسان)، وهو يشارك في هذه اللحظة الحماسية، كم "أثارت هذه النغمات الوطنية مشاعر [الجزائريين العرب] من الناحية الموسيقية"[20*].

أطلقت ألمانيا أولى قذائفها على فرنسا حين هاجمت المدمرة الثقيلة (*Goeben*) والطراد الخفيف (*Breslau*) مينائي فيليبفيل وبون (سكيكدة وعنابة بعد استقلال الجزائر). إذ أطلق الطراد، الذي رفع الراية البريطانية، 140 قذيفة على مركز مدينة بون قبيل فجر الرابع من أغسطس بقليل، فأصابت مرافق الميناء، ومحطة القطار، وبعض الشوارع الرئيسة، إضافة إلى سفينة بخارية راسية. قتل رجل اسمه أندريه كاليون، كان أول قتيل فرنسي في الحرب العظمى. بعد ساعة، ظهرت المدمرة قبالة ساحل فيليبفيل تحمل العلم الروسي، وأطلقت عشرين قذيفة على البلدة، أصابت محطة القطار، والثكنات، ومصنعاً للغاز، وقتلت ستة عشر شخصاً. ثم انسحبت السفينتان من ساحل شمال إفريقيا باتجاه المياه التركية بعد أن طاردهما الأسطولان البريطاني الفرنسي، حيث أدّتا دوراً مفتاحياً في دخول تركيا الحرب. لم يقدم سبب للهجوم، وإن شاع اعتقاد بأن الألمان كانوا يحاولون عرقلة حركة نقل الجنود من شمال إفريقيا إلى فرنسا وأملوا بإضعاف ثقة الجزائريين بالفرنسيين.

استفز الهجوم الألماني موجة عارمة من الغضب وشجع الأوربيين والجزائريين على التطوع في الجيش. تزامن اندلاع الحرب مع حلول شهر رمضان، ولذلك لم يبدأ تجنيد المسلمين جدياً إلا أواخر أغسطس، مع نهاية الشهر الفضيل. تجولت فرق تجنيد الفرنسيين والعرب في بلدات وقرى الجزائر أيام إقامة الأسواق الريفية. وسارت في مواكب عبر الأماكن العامة على إيقاع الطبول وزعيق الزمامير (الغيطة) ذات القصبات المزدوجة. اجتذبت الموسيقى الإيقاعية والأزياء الملونة الحشود على الدوام، لكن تجنيد الضباط ركز على العمال العاطلين والمزارعين. "أوقف الرقيب الأول الموسيقى حالما حققت التأثير المطلوب. ثم قام رقيب عربي وفصل بأسلوب بليغ جميع المكاسب التي يجنيها المتطوعون.

* انظر **مذكرات مصالي الحاج**، ترجمة محمد المعراجي (الجزائر: الوكالة الوطنية للنشر والإشهار (ANEP)، 2007)، ص 64.

كانت عروضه الأكثر جاذبية، ولاسيما لأصحاب البطون الخاوية"، كما تذكر مصالي الحاج. من ناحية أخرى، عاش الآباء "حياة كرب وغم" جراء احتمال خسارة أبنائهم في حروب أجنبية.

تحققت أسوأ مخاوف الآباء في شمال إفريقيا في بضعة أسابيع. إذ أصيب جيش إفريقيا بخسائر جسيمة بعد بدء الحرب فوراً تقريباً. كان العريف مصطفى تابتي، الذي التحق بالجيش مرة أخرى عام 1913، من بين أوائل الجنود الذين أرسلوا إلى المعركة في فرنسا. عبر عن تجاربه شعراً، سجله مترجم في الجيش الجزائري بينما كان يتعافى من جراحه في المستشفى. نظم تابتي قصيدته بعد أحداث سبتمبر 1914 بقليل، وحازت شهرة واسعة بين جنود شمال إفريقيا على الجبهة الغربية. وربما قدر له أن يكون واحداً من أوائل شعراء الحرب العظمى[21].

عبر تابتي البحر المتوسط من ميناء وهران غرب الجزائر إلى سيت، حيث نزل فوج حملة البنادق الجزائريين، ثم استأنفوا رحلتهم نحو ميدان المعركة بواسطة القطارات. احتفل العريف بالنجاح الذي توقعه الجزائريون بعد المعركة:

قلنا لأنفسنا: يا رجال، لا خوف، لنظهر جرأتنا، هذه هي متعتنا

نحن العرب، خلقنا من الشهامة والبارود!

* * *

أرسل جنود شمال إفريقيا إلى الحدود البلجيكية، حيث خاضوا أول معركة في شارلروا (21 أغسطس). لم يكن الشاعر القادم من شمال إفريقيا مستعداً لعنف المعركة الآتية:

استمعوا لقصتي يا أصدقائي: أي يوم وحشي لنا في شارلروا يا إخوتي!

دمرونا بالمدفع والرصاص المنهمر كالمطر، من العصر إلى المغرب

* * *

زادت خسائر الطرفين في الأرواح مع استمرار المعركة في الأيام اللاحقة. "تكدس القتلى في أكوام لا تعد ولا تحصى. المسلم إلى جانب الكافر في قبر جماعي"، كما تذكر تابتي.

المدفعية، التي تقذف الحمم من بعيد، أشعلت التراب والصخر، يا رب!

قتلوا منا أعداداً غفيرة، بالحراب والرصاص الذي أز من الجهات كلها

لم يمهلونا، طاردوا شاحناتنا على مدى ستة أيام متتالية، يا رب!

هجموا علينا كالسيل الجارف. في بلجيكا لا يمهلون أحداً

* * *

تمكن الفرنسيون وجنود شمال إفريقيا من إلحاق خسائر بالألمان قبل أن ينسحبوا. تباهى تابتي قائلاً: "دمرناهم. أينما سرت واجهت مقبرة مليئة بهم [الألمان]". لكن ذكرى القتلى من شمال إفريقيا -"من وهران وتونس والمغرب والصحراء"- أثقلت كاهل شاعر الحرب الجزائري.

منظر عديد من الشباب الذين سقطوا فطر قلبي. يا رب!

موتى، يبقى هؤلاء الأبطال في عزلة الريف.

هلكوا دون أن يتلوا أحد عليهم الشهادة

ماتوا في العراء لتأكل أجسادهم الوحوش والنسور والجوارح.

في ذكراهم، أغني بأسى، يا رب!

لو خلقت من صخر لذرفت الدمع عليهم

* * *

ثبت أن معركة شارلروا لم تكن سوى مذبحة عبثية أبادت أفواج المقاتلين من شمال إفريقيا إلى جانب جنود الجيش الفرنسي النظامي. ثمة كتائب مشاة مؤلفة من 1200 جندي تقلص عددها إلى 500 في يوم واحد من القتال -ارتفعت المعدلات الأولية لخسائر حملة البنادق إلى 60 في المئة بين قتيل وجريح. وعندما سقط الجنود المتمرسون، استبدلوا بالمجندين الأغرار الذين افتقروا إلى التدريب الكافي، وأصيبوا بالهلع ما إن تعرضوا للرصاص وعانوا أعلى معدلات من الإصابات. وحين تراجع الفرنسيون من شارلروا لإعادة الانتشار دفاعاً عن باريس، نقل جنود شمال إفريقيا إلى المارن، حيث أدّوا دوراً محورياً في وقف تقدم الألمان-مع

أنهم أصيبوا مرة أخرى بخسائر هائلة. إجمالًا، قتل نحو 6500 جندي من شمال إفريقيا بين شهري أغسطس وديسمبر 1914، بينما جرح الآلاف[22].

كان من المحتم أن تتسرب أخبار الخسائر الفادحة على الجبهة الغربية إلى شمال إفريقيا. وغذى هذا العدد المروع من الإصابات إشاعات أكدت أن جنود شمال إفريقيا كانوا "علف المدافع"، وجرت التضحية بهم لكي يتجنب الجنود الفرنسيون أعنف المعارك وأشدها دموية وفتكاً. اندلعت احتجاجات عفوية ضد التطوع والتجنيد الإجباري في شتى أنحاء الجزائر في سبتمبر وأكتوبر 1914. رفضت العائلات تسليم أبنائها للتجنيد، وهاجمت جماعات من الأهالي فرق التجنيد في المناطق الريفية المفتوحة لتحرير المتطوعين قبل الوصول إلى الثكنات.

ذكرت الانتفاضات الفرنسيين بالمصاعب التي قد تنجم عن ثورة دينية مستلهمة من إعلان العثمانيين الجهاد. واضطرت السلطات، في مواجهة مقاومة وطنية عمت البلاد، إلى نقل 1600 جندي من ميادين المعارك الأوربية إلى الجزائر من أجل استعادة النظام. أسر المتمردون عدداً من الجنود وقتلوهم قبل أن يستعيد الجيش السيطرة على الوضع ويستأنف تجنيد رجال جدد للقتال في الجبهة الغربية. وعلى الرغم من المقاومة المحلية، ثبت أن فرق التجنيد مؤثرة وفاعلة. ففي مجرى الحرب، خدم أكثر من 300.000 جندي من شمال إفريقيا 180.000- جزائري، 80.000 تونسي، 40.000 مغربي- في الجيش الفرنسي على الجبهتين الغربية والعثمانية[23].

❋ ❋ ❋

لجأ البريطانيون أيضاً إلى امبراطوريتهم لتسهم في المجهود الحربي بالجنود. وحين أعلنت بريطانيا الحرب على ألمانيا في 4 أغسطس 1914، حذت حذوها ثلاث من دول الكومنويلث -أستراليا وكندا ونيوزيلندا- في اليوم ذاته. بدأت كل واحدة منها بحشد الجنود للحرب على أساس أنها ستدافع عن بريطانيا على المسرح الأوربي. خدمت الأغلبية الساحقة من الكنديين على الجبهة الغربية (بغض النظر عن حفنة خدمت على قوارب نهرية في حملة بلاد الرافدين أو مع الوحدات الطبية في سالونيك). لكن معظم المتطوعين

من أستراليا ونيوزيلندا خدموا أولاً على الجبهة العثمانية. فقد تزامنت تعبئتهم مع تحشيد الترك والعرب ومغاربة شمال إفريقيا، جنود العالم الذين حولوا النزاع الأوربي إلى حرب عالمية.

على الطرف المقابل من الكرة الأرضية لمسرح النزاع، استجابت أستراليا ونيوزيلندا لاندلاع الحرب في أوربا بإحساس بالواجب تجاه الامبراطورية لا يقل عن إحساس البريطانيين. في أستراليا، عبر زعيم حزب العمال المعارض أندرو فيشر عن روح اللحظة حين تعهد بدعم بلاده "حتى آخر رجل وآخر شلن". في أوائل أغسطس 1914، حشدت أستراليا القوة الامبراطورية الأسترالية، وعبأت نيوزيلندا قوة الحملة النيوزيلندية. وعرفت قواتهما المشتركة باسم فيلق الجيش الأسترالي والنيوزيلندي (أنزاك) (Anzacs) الذي حاز شهرة واسعة.

كانت أستراليا ونيوزيلندا قد أرسلت فرقاً عسكرية لدعم بريطانيا في حرب البوير (1899-1902). لكن هذه التجربة الأولى للقتال في حروب أجنبية لم تكن كافية لإعداد رجال الجزء المقابل من الأرض لعنف الحرب العظمى. إذ لم يقتل في المعارك من بين 16.000 أسترالي أرسلوا إلى جنوب إفريقيا سوى 251؛ بينما مات عدد أكبر بسبب الأمراض (العدد الإجمالي 267). وشابههم النيوزيلنديون في معدل الإصابات: من بين 6500 جندي، قتل في المعارك 70، وتوفي جراء حوادث عارضة 23، ومات من المرض 133. تطوع الأستراليون والنيوزيلنديون بأعداد ضخمة، اعتماداً على ذكريات حرب البوير السابقة، وسعياً وراء المغامرة والسفر إلى الخارج، واعتقاداً منهم بأنهم سيعودون كلهم تقريباً مكللين بالغار[24].

تألفت الفرق العسكرية الأسترالية والنيوزيلندية من الفرسان والمشاة معاً. أتى معظم المتطوعين لسلاح الفرسان من المناطق الريفية مع خيولهم -بعض من أكثر من 16 مليون حصان شارك في الحرب العظمى. امتلك المتطوع لسلاح الفرسان خيار الالتحاق مع حصانه وتلقي مبلغ 30 جنيهاً ثمناً له إذا نال القبول. ثم يصبح ملكاً للجيش ويدمغ بشعار الحكومة مع رقم يطبع (بالكي) على حافره. يجب على الحصان العسكري، المعروف بين الفرسان بـ"المطية المؤهلة"، أن يلبي معايير صارمة: حصان مخصي أو فرس، يتراوح عمره بين أربع وسبع سنوات، قوي البنية، لا يزيد ارتفاعه عن 157 سم، لين العريكة، هادئ

عند التعرض لإطلاق النار. لبت الخيول الأسترالية المعايير بشكل مثالي، فهي سلالة مهجنة من الخيول الأصيلة وخيول الجر[25].

أتى جنود قوة الحملة النيوزيلندية من أجزاء البلاد كافة ومن خلفيات ومشارب متنوعة: مزارعون وميكانيكيون، رعاة ومستوطنون في البراري، موظفون ومدرسون، سماسرة في البورصة ومصرفيون. انضموا جميعاً لأن أصدقاءهم سبقوهم. وفرت الحرب بالنسبة إلى بعضهم احتمال المشاركة في مغامرة كبيرة. وتطوع غيرهم بدافع الشعور الوطني والولاء لبريطانيا والامبراطورية. لم يكن لدى أحد منهم أدنى فكرة عن مكان المعركة، لكن بعد ستة أسابيع من التدريب، أصبحوا على أتم الاستعداد للذهاب. تذكر تريفور هولمدن، المحامي الشاب من أوكلاند، كيف سار هو وزملاؤه من معسكر التدريب في ون تري هيل إلى سفن النقل في الميناء:

> خرجت أوكلاند عن بكرة أبيها لمشاهدتنا ونحن نغادر، ومع أن معظم الناس شعروا بالامتنان للتخلص من آخر الزعران الذين ظنوا أنهم بيننا، فقد اعتقدنا كلنا أننا أبطال وتصرفنا على هذا الأساس. شخصياً، استمتعت وافتخرت أثناء المسيرة، بدت العملية كلها مثيرة ودرامية وحربية، حين غادرنا، على أنغام الفرق الموسيقية وتحت الرايات الخفاقة.. العالم الذي عرفناه عبر البوابات الحديدية الضخمة التي تغلق رصيف ميناء كوينز لنركب السفن التي ستحملنا إلى مكان لا يعلمه إلا الله[26].

* * *

ونظراً إلى انخفاض عدد السكان نسبياً، أسهمت أستراليا ونيوزيلندا في الحرب بعدد محدود من الجنود. إذ بلغ عدد سكان أستراليا نحو 5 ملايين ونيوزيلندا نحو مليون نسمة عام 1914. ولم يُعد مؤهلاً للخدمة إلا الرجال الذين راوحت أعمارهم في أستراليا بين 18 و35 عاماً، وفي نيوزيلندا بين 21 و40، ولا يقل طولهم عن 168 سم، وتمتعوا بصحة جيدة. بحلول نهاية أغسطس، تمكن الأستراليون من جمع قوة عددها 19500 رجل (17400 من المشاة، و2100 من الفرسان) بقيادة تسعمئة ضابط تقريباً. بينما تألفت الكتلة الرئيسة

من قوة الحملة النيوزيلندية من نحو 8600 رجل وأكثر من 3800 حصان، إضافة إلى حملة صغيرة بلغ عددها 1400 رجل أرسلت لاحتلال ساموا الألمانية، أمكن تجميعها كلها في مدة تقل عن ثلاثة أسابيع[27].

تأخر إقلاع سفن نقل الجنود بسبب تقارير عن أسطول بحري ألماني اعتقد أنه يعمل في جنوب المحيط الهادي. ومع أن المتطوعين استكملوا التدريب بحلول أواخر سبتمبر، فإن سفن النقل العشر لم تغادر ولنغتون إلا في 16 أكتوبر، بمرافقة مدمرة يابانية وسفينتين حربيتين بريطانيتين. وجد فرانك هولمدن نفسه على متن الـ"وايمانا" مع 1500 رجل و600 حصان "حشروا فيها كالسردين". أبحروا باتجاه أستراليا، حيث انضموا إلى القوة الامبراطورية الأسترالية، وفي الأول من نوفمبر انطلقوا من هوبارت في جنوب غرب أستراليا، وبقيت وجهتهم مجهولة. دخلت السلطنة العثمانية الحرب العظمى في 2 نوفمبر حين كانت قافلة فيلق الجيش الأسترالي والنيوزيلندي في الطريق. وبدلًا من الإبحار إلى بريطانيا، سوف ينزل جنود أستراليا ونيوزيلندا في مصر للقتال على جبهة الشرق الأوسط.

* * *

مع جر البريطانيين والفرنسيين الامبراطوريتين إلى الحرب الأوربية، أجبروا على تفحص ولاء الرعايا المسلمين الخاضعين لحكمهم. كانت للجزائريين شكاوى قديمة من الوضع القائم، الذي حرم العرب والبربر من حقوق المواطنة. بينما تململ المسلمون الهنود بعد عقود من الانحطاط وتراجع التأثير والنفوذ في ظل الإدارة البريطانية، والولاء المعلن المتزايد للسلطان العثماني باعتباره خليفة للأمة الإسلامية في العالم. أما في مصر فقد أدت ثلاثة عقود من الاحتلال البريطاني إلى نهوض حركة وطنية أحبطت مساعيها في كل مرة حاولت نيل الاستقلال. خشي بعضهم، لسبب وجيه، من أن السياسات الاستعمارية قد استعدت المسلمين في الهند وشمال إفريقيا، إلى حد أنهم ربما يقفون إلى جانب أعداء بريطانيا وفرنسا أملاً بضمان الاستقلال عبر نصر ألماني[28].

ولأن مصر على مفترق طرق الامبراطورية البريطانية، فقد حظيت بأهمية حاسمة للمجهود الحربي. إذ مثلت قناة السويس صلة اتصال حيوية بين بريطانيا والهند وأستراليا ونيوزيلندا. واستخدمت القواعد العسكرية في مصر معسكرات تدريب لجنود الامبراطورية ومحطة تجميع للمشاركة في العمليات في الشرق الأوسط. فإذا استغل الوطنيون المصريون الحرب في أوربا، أو لبى المسلمون المتدينون الدعوة إلى الجهاد وانتفضوا ثائرين، فإن العواقب الإجمالية على المجهود الحربي البريطاني ستكون كارثية.

حين اندلعت الحرب في أوربا (أغسطس 1914)، كانت الحكومة المصرية في عطلة بعد أن أرجأت اجتماعاتها طوال أشهر الصيف. كما كان الخديوي عباس حلمي يمضي إجازته في إسطنبول، وجلسات الجمعية التشريعية معلقة. أجبر رئيس الوزراء حسين رشدي باشا على اتخاذ قرارات في أثناء أزمة تفاقمت بسرعة من دون التشاور مع رئيس الدولة. في 5 أغسطس، ضغط البريطانيون على رشدي باشا لتوقيع وثيقة تلزم مصر في الجوهر بإعلان الحرب على أعداء الملك. لكن خبر القرار استعدى الشعب المصري بدلاً من ضمان ولائه للمجهود الحربي البريطاني. "حالة الشك المتجذرة والمنتشرة بين طبقات السكان كلها تجاه قوة الاحتلال [بريطانيا]، توسعت وتحولت إلى شعور بالكراهية المريرة وإن بقي صامتاً. فقد جرّت مصر، عبر ارتباط إجباري ومكروه مع بريطانيا العظمى، إلى صراع سببه غامض وأهدافه مجهولة بالنسبة إليها"، كما تذكر ضابط بريطاني خدم في مصر آنذاك[29].

بين شهري أغسطس وأكتوبر منع الرقيب البريطاني أسوأ التقارير الصحفية القادمة من الجبهة عن الرأي العام المصري. كما خضعت أخبار إسطنبول للرقابة -إلى أن دخل العثمانيون الحرب في 2 نوفمبر 1914. ومع أن مصر تحت الاحتلال البريطاني وإدارة الأمر الواقع منذ عام 1882، فقد بقيت قانونياً جزءاً من السلطنة العثمانية كحالها منذ عام 1517. كان الخديوي حاكماً عثمانياً يعينه السلطان، ويدفع جزية سنوية إلى الخزينة العثمانية. وباعتبار العثمانيين حلفاء للألمان، أصبحوا الآن أعداء للتاج البريطاني. ومن ثم، "علقت" مصر في إسار موقف متناقض: فهي تابعة للدولة العثمانية وموالية لها، وفي حالة حرب مع العثمانيين بأمر من بريطانيا، وفقاً لقرار 5 أغسطس. لم يكن وضع بريطانيا أقل تعقيداً. فقد عنى دخول

العثمانيين الحرب أن بريطانيا تحتل أراضي تابعة للعدو وأن سكان مصر (13 مليوناً آنذاك) أجانب معادين لها.

في يوم دخول العثمانيين الحرب، أعلن البريطانيون الأحكام العرفية في مصر. لم تظهر أي ردة فعل من الرأي العام، لكن بقيت السلطات البريطانية قلقة تجاه ولاءات المصريين. وقررت إعفاء الشعب المصري من الحرب برمتها، حيث لم تكن راغبة في إشراك الجنود المصريين في قتال من المحتم تقريباً أن تتفوق فيه روابط الدين على احترام السلطات الاستعمارية. في 6 نوفمبر، قدم الحاكم العسكري في مصر الجنرال السير جون مكسويل تعهداً أشار فيه إلى أن بريطانيا العظمى تدرك ما يكنه المسلمون في مصر من احترام وتوقير للسلطان، ولذلك أخذت على عاتقها جميع أعباء الحرب الحالية ولا تطلب من الشعب المصري سوى الامتناع عن أي أعمال عدائية ضدها[30].

زعم السياسي المصري المتمرس أحمد شفيق أن إعلان مكسويل صدم الرأي العام في مصر، الذي ارتاب على الدوام من النوايا البريطانية بعد أكثر من ثلاثة عقود من الاحتلال. ومع أن البريطانيين تعهدوا بتجنيب الشعب المصري التورط في الحرب، فقد فرضوا قيوداً صارمة على كل ما من شأنه عرقلة عمل قواتهم في مصر أو تقديم العون للمجهود الحربي العثماني. فضلاً عن أنهم سرعان ما اكتشفوا تعذر الوفاء بوعدهم بتحمل عبء الحرب دون مساعدة المصريين. وسوف يستخدم الجنود المصريون للدفاع عن قناة السويس، ويجند العمال المصريون حين يأزف الوقت في فرق العمل على الجبهتين الغربية والشرق أوسطية أثناء الحرب العظمى[31].

مع أن بريطانيا ضمنت الأمن ورسخت النظام العام، فقد وجب عليها العثور على حل للتناقضات القانونية التي استلزمها وضعها في مصر. في 18 ديسمبر، أصدرت قراراً من جانب واحد يعلن الحماية البريطانية على مصر وفصلها عن السلطنة العثمانية، ما أنهى حقبة امتدت 397 سنة من الحكم التركي. في اليوم اللاحق، عزل البريطانيون الخديوي الحاكم، الذي اعتبر مغالياً في التعاطف مع القضية العثمانية، ونصبوا بدلاً منه أكبر الأمراء الأحياء سناً في العائلة المصرية المالكة، حسين كامل. الآن، لم تعد مصر دولة تابعة، فقد

منح البريطانيون حاكمها لقب "سلطان" -ترقية اعتبارية تملقت حاكم مصر الجديد بوضعه على قدم المساواة مع السلطان العثماني. ومع إذعان الحاكم الجديد الذي دان بالفضل على موقعه للقوة الاستعمارية، ركز البريطانيون جهدهم على تأمين مصر وقناة السويس على وجه الخصوص، ضد أي هجوم عثماني. وبينما أرسل كثير من الجنود البريطانيين في مصر للقتال على الجبهة الغربية، سرعان ما وصلت التعزيزات من أستراليا ونيوزيلندا والهند.

* * *

كانت الهند، الخاضعة لحكم التاج منذ عام 1858، واسطة عقد الامبراطورية البريطانية. رأس الحكم البريطاني (الراج) نائب الملك الذي سيطر على نحو 175 إمارة تدين بالولاء للتاج وهيمنته. كما شكلت، بخدمتها المدنية وجيشها الخاص بها، دولة ضمن الدولة الاستعمارية البريطانية. كان ربع سكان الهند البالغ عددهم 255 مليوناً من المسلمين- أي أكثر من 65 مليوناً. وصفت الاستخبارات الألمانية المسلمين الساخطين في الهند بأنهم "عقب أخيل" الامبراطورية البريطانية، وأملت باستخدام إعلان السلطان العثماني الجهاد للتحريض على انتفاضات تزعزع استقرار "الراج"، وتسرع هزيمة بريطانيا على الجبهة الغربية[32].

عند اندلاع الحرب عام 1914، تحتم على بريطانيا إنجاز مهمتين ضروريتين في جنوب آسيا: تجنيد أكبر عدد ممكن من الهنود لدعم المجهود الحربي، والحفاظ على ولاء المسلمين الهنود في وجه دعاية الجهاد العثمانية والألمانية. ولتعزيز الهدفين كليهما، أصدر جورج الخامس "الملك-الامبراطور" البريطاني بلاغاً إلى "أمراء الهند وشعبها" في 4 أغسطس، شرح فيه الأسباب التي دفعت بريطانيا إلى إعلان الحرب على ألمانيا وطالب بدعم الهند للمجهود الحربي الامبراطوري. شعرت الحكومة البريطانية بارتياح كبير حين استجابت النخبة الهندية الحاكمة لمناشدة الملك بإعلانات عاطفية تفيض بالولاء. "إن إخلاص المسلمين الهنود للملك-الامبراطور منيع على أي محاولة للدبلوماسية الألمانية في الشرق الأدنى أو غيره، لخلق شعور إسلامي زائف يؤيد سياسة التهديد باستخدام العنف المصنوعة في ألمانيا"، كما أكد آغا خان. وكرر الأمراء الهنود في شتى أرجاء البلاد آراءه في بيانات علنية[33].

هدد دخول العثمانيين الحرب وإعلان السلطان الجهاد بجلب الفوضى إلى "الراج". انقسمت الولاءات الشعبية بين السلطان-الخليفة والملك-الامبراطور. قدم جورج الخامس ضمانات، من أجل تأمين دعم المسلمين الهنود، بأن تحمي بريطانيا وحلفاؤها مكة والمدينة وجدة، إضافة إلى مدن الرافدين (الشيعية) المقدسة ضد أي هجوم. ساعد تعهد الملك في الحفاظ على دعم المسلمين الهنود للمجهود الحربي البريطاني. لكن، مثلما جرى مع وعد البريطانيين بإعفاء المصريين من عبء الحرب، وجدوا أن تعهدهم بحماية الحجاز من أخطار النزاع سوف يتعرض للضغط.

في أعقاب إعلان الملك المتعلق بالعتبات المقدسة الإسلامية، ثبت أن تأييد الوجهاء والأعيان المسلمين الهنود للمجهود الحربي البريطاني وافر ودافق. فقد أكد حكام بوبال ورانبور ومرشد أباد ودكا، إلى جانب نظام حيدر أباد، أن السلطان ضلل المسلمين بدعوته "الخاطئة" إلى الجهاد، وأصروا على أن من واجب المسلمين الهنود دعم بريطانيا. ووصل آغا خان إلى حد سحب اعترافه بحق العثمانيين في الخلافة: "الآن وقد أظهرت تركيا نفسها بهذه الطريقة الكارثية أداة بأيدي الألمان، فهي لم تدمر ذاتها فحسب بل خسرت موقعها بوصفها قيمة على الإسلام وسوف يباغتها الشر"[34].

أصدرت الرابطة الإسلامية قراراً في نوفمبر 1914 أكد أن "مشاركة تركيا في الحرب الحالية" لن يؤثر في "ولاء وإخلاص" المسلمين الهنود للامبراطورية البريطانية. وأعربت عن ثقتها بعدم وجود "مسلم في الهند يحيد قيد شعرة عن واجبه الكبير تجاه مليكه" الامبراطور. كما صدرت بيانات مشابهة عن اجتماعات جماهيرية عقدها زعماء المسلمين ووجهاؤهم في شتى أرجاء الهند في نوفمبر 1914 [35].

ركزت بريطانيا، بعد التأكد من ولاء المسلمين، على حشد الجنود الهنود للمشاركة في الحرب. استجابت الهند لدعوة جورج الخامس بمزيد من المتطوعين للمجهود الحربي تفوقت بهم على المستعمرات ودول الكومنويلث الأخرى مجتمعة. إذ التحق نحو 950.000 هندي بالخدمة العسكرية بين عام 1914 ونهاية عام 1919، كما شارك 450.000 غيرهم في مهمات غير قتالية، أي إن 1.4 مليون رجل أرسلوا إلى الخارج للمشاركة في المجهود الحربي كجنود، وعمال، وأطباء وممرضين، وغير ذلك من الوظائف المساعدة. حارب جنود الجيش

الهندي على جبهات القتال كلها -وبلغ عددهم على الجبهة الغربية وحدها 130.000. لكن أعظم إسهام في المجهود الحربي البريطاني جرى في الشرق الأوسط، حيث خدم نحو 80 في المئة من الجنود الهنود -في غاليبولي (9400 رجل)، وعدن والخليج (50.000)، ومصر (116.000)، وعدد هائل في الرافدين (590.000 تقريباً)[36].

وباتباع مثال الهند البريطانية، حيث هاجم الحكام المسلمون بأسلوب بليغ إعلان السلطان الجهاد، تمكنت فرنسا من حشد الوجهاء والزعماء المسلمين الموالين لها لإدانة دخول العثمانيين الحرب على أسس دينية. وبدءاً من القمة، ضمنت موافقة باي تونس وسلطان المغرب، حين حث كل منهما جنوده على القتال بشجاعة من أجل فرنسا ودعا شعبه إلى الامتثال للسلطات الاستعمارية وطاعتها. أما مفتي المالكية ومفتي الأحناف في الجزائر فقد استشهدا بموقف المسلمين في الهند، والقوقاز، ومصر، في معارضة دعوة السلطان إلى الجهاد. بينما أعلن زعماء دينيون آخرون -رؤساء الجمعيات الدينية، والقضاة، وغيرهم من الوجهاء والشخصيات البارزة- ولاءهم لقضية الحلفاء، وأدانوا الألمان وأتباعهم الخاضعين لوصايتهم في تركيا الفتاة، ورفضوا زعم السلطان امتلاك سلطة الخلافة ومرجعيتها وحقه في إعلان الجهاد باسم الأمة الإسلامية. نشرت السلطات الاستعمارية عشرات الإعلانات كهذه بالعربية، مع ترجمات أعدها بطريقة حصيفة ومتروية علماء وأكاديميون فرنسيون. إذ خاض المستشرقون الأوربيون -البريطانيون والفرنسيون والألمان- الحرب الدعائية ضد الجهاد العثماني ومعه[37].

* * *

حقق الألمان بعض النجاح في مسعاهم لكسب تأييد محاربي العدو المسلمين للجهاد ضد بريطانيا وفرنسا. إذ جندوا ناشطين إسلاميين مثل الشيخ صالح الشريف من أجل القضية. ولد صالح في تونس لعائلة جزائرية منفية تنحدر من نسل النبي، وأصبح عالماً وفقيهاً إسلامياً. وكان الناشط التونسي قد غادر وطنه عام 1900 احتجاجاً على الحكم الفرنسي، وأثار انتباه قيادة تركيا الفتاة عام 1911 في أثناء الحرب الليبية، حيث خدم تحت إمرة أنور. قيل إن صالح هو الذي أعلن الجهاد ضد إيطاليا، ما أعطى الحرب نبرة دينية صريحة. تأثر أنور بقدرة الإسلام على حشد المقاومة ضد التعديات والانتهاكات الأوربية، وجند صالح الشريف في منظمته الاستخبارية، "تشكيلات مخصوصة"[38].

في عام 1914، انتقل صالح الشريف إلى برلين، حيث انضم إلى وحدة دعاية جديدة تابعة لوزارة الخارجية الألمانية باسم "مكتب استخبارات الشرق". زار الجبهة الغربية ليناشد مباشرة عبر الخنادق الجنود المسلمين الذين يقاتلون مع بريطانيا وفرنسا. كتب عدداً من الكراسات الدعائية، نشرت بالعربية والبربرية، وألقيت على خطوط العدو في المناطق التي ينتشر فيها جنود شمال إفريقيا، إلى جانب الأخبار المتعلقة بإعلان السلطان الجهاد. هرب عدد من هؤلاء الجنود من الخطوط الفرنسية استجابة لهذا الالتماس الإسلامي الصريح[39].

حين بدأ الألمان يأسرون الجنود المسلمين على الجبهة الغربية -بلغ عددهم ثمانمئة بحلول نهاية عام 1914- أقاموا لهم مرافق خاصة دعيت "معسكر الهلال" في فونسدورف-زوسن قرب برلين. كان قادة المعسكر الألمان يستخدمون العربية في الكلام مع الأسرى. بينما قدم لهم الطعام الحلال وفقاً لمتطلبات الشريعة الإسلامية. بل أقيم في المعسكر مسجد مزخرف، على نفقة فيلهلم الثاني نفسه، لتلبية الاحتياجات الروحية لأسرى الحرب المسلمين -وإثبات حسن نوايا القيصر تجاه العالم الإسلامي.



أسرى في زوسن. أقام الألمان معسكراً خاصاً لأسرى الحرب المسلمين في فونسدورف-زوسن بالقرب من برلين، حيث نشطوا في تجنيد متطوعين للمجهود الحربي العثماني. خدم كثيرون فيها بعد تحت الراية العثمانية على جبهات الشرق الأوسط. هنا، تظهر مجموعة من جنود شمال إفريقيا أسرت من الخطوط الفرنسية تصطف أمام ضابط من أفرادها في معسكر زوسن.

كان أحمد بن حسين، المزارع الكهل من مراكش، واحداً من ثمانية جنود مغاربة استسلموا للقوات الألمانية في ميادين المعارك البلجيكية. ومنذ لحظة إعلان الأسرى أنهم مسلمون، أظهر الآسرون الألمان كما زعم "احتراماً كافياً.. ربت الكل على أكتافنا وقدموا لنا الطعام والمشروبات". أرسل أحمد إلى معسكر خاص لأسرى الحرب المسلمين -هالبموندالغر دون شك. "بل عطفوا علينا، وأقاموا لنا مطبخاً. قدموا اللحم الطيب، والرز، والحمص.. الخ. وحظروا لحم الخنزير. كما زودونا بثلاث بطانيات، وملابس داخلية، وزوج من الأحذية الجديدة لكل واحد منا. كنا نستحم مرة كل ثلاثة أيام، ونحلق شعرنا". مثلت الظروف في المعسكر تحسناً كبيراً مقارنة بما خبره في الجيش الفرنسي والجبهة[40].

زار موكب من الناشطين المسلمين معسكر زوسن لترويج دعاية الجهاد بين جمهور من الأسرى (حرفياً). تردد الناشط التونسي صالح الشريف على المعسكر مراراً وحرر صحيفة باللغة العربية للأسرى أطلق عليها اسمًا مناسباً: **الجهاد**. كما أتى عدد من نشطاء شمال إفريقيا ووجهائها إلى المعسكر للقائهم وكسبهم إلى جانب قضية القوى المركزية. ألقى الضيوف محاضرات على الأسرى عن سبب اعتبار القتال إلى جانب الحلفاء عملاً معادياً للدين، ولماذا يعد الانضمام إلى الجهاد العثماني ضد أعداء الإسلام (بريطانيا وفرنسا) واجباً دينياً[41].

تطوع مئات من أسرى الحرب في الجيش العثماني -من بينهم الفلاح المغربي أحمد بن حسين. وبعد أن أمضى ستة أشهر في معسكر لأسرى الحرب مخصص للجنود المسلمين، وصل ضابط ألماني، برفقة ضابط عثماني اسمه حكمت أفندي. قال الاثنان: "من يرغب في الذهاب إلى إسطنبول، يرفع يده". تطوع اثنا عشر جندياً من المغرب والجزائر على الفور. "بينما خاف الآخرون"، كما أضاف ابن حسين. قدمت لهم ملابس مدنية وجوازات سفر وأرسلوا إلى إسطنبول للانضمام إلى المجهود الحربي العثماني.

من المستحيل معرفة عدد الأسرى المسلمين الذين تطوعوا للخدمة في الجيش العثماني نتيجة الاقتناع والإيمان، وكم عدد الذين خرجوا من معسكر أسرى الحرب. وبغض النظر عن الدوافع، غادر جنود الهند وشمال إفريقيا ألمانيا إلى إسطنبول في تيار متواصل للانضمام إلى حرب

السلطان. وبعد أن عبئوا مرة ثانية، بوصفهم مسلمين لا جنوداً تابعين للدول الاستعمارية، سوف يعاودون دخول الحرب العالمية المتوسعة بسرعة على جبهات الشرق الأوسط[42].

* * *

بحلول الوقت الذي أعلن فيه العثمانيون الحرب، حشد الرجال الذين سيقاتلون في الشرق الأوسط وأرسلوا إلى الجبهات عند كل نقطة من حدود السلطنة المكشوفة. قاتل جنود شمال إفريقيا وقتلوا بالآلاف على الجبهة الغربية، وسوف يحول جزء منهم ممن احتجزوا في معسكرات أسرى الحرب الألمانية ولاءه وينضم إلى العثمانيين. بينما كان الفرسان والمشاة الأستراليون والنيوزيلنديون يبحرون عبر المحيط الهندي نحو مصر، ويشق قسم من الجنود الهنود طريقه في الخليج العربي شمالاً باتجاه بلاد الرافدين، ويتابع القسم الآخر الرحلة قبالة اليمن العثمانية إلى مصر. تركز انتشار الجنود العثمانيين في شرق الأناضول وسوريا تمهيداً للهجوم على المواقع الروسية في القوقاز والخطوط البريطانية في مصر. لقد أتت حرب أوربا إلى الشرق الأوسط.

4

صليات افتتاحية

البصرة، عدن، مصر، شرق المتوسط

ولدت الامبراطورية العثمانية من رحم الحرب، ورسمت حدودها عبر قرون من الفتح والنزاع. لكن العثمانيين لم يواجهوا تهديد الحرب على تخومهم كلها معاً إلا في نوفمبر عام 1914، عند دخولهم أول حرب عالمية. ومع حدود يزيد طولها على 7500 ميل وسواحل تمتد على البحر الأسود والخليج العربي والبحر الأحمر والبحر المتوسط، عرض العثمانيون على أعدائهم كثيراً من المواقع المكشوفة والنقاط الضعيفة أمام الهجمات.

ما إن دخل العثمانيون الحرب حتى تعرضوا لهجوم الحلفاء على المواقع اليائسة في امبراطوريتهم الواسعة الأرجاء. أطلقت السفن الحربية التابعة لقوى الوفاق أولى صلياتها حتى قبل أن تعلن الحرب رسمياً. إذ قصفت المدمرات البريطانية في البحر الأحمر حصناً معزولاً يضم مئة رجل عند مدخل خليج العقبة في الأول من نوفمبر 1914. وبعد يومين، اصطفت السفن البريطانية والفرنسية قبالة الدردنيل معرضة الدفاعات الخارجية للمضائق إلى قصف عنيف. وبعد عشرين دقيقة من القصف، أصابت سفن الحلفاء مستودعاً للذخيرة، ودمرت حصن سد البحر وحطمت مدافعه. عجز العثمانيون عن الرد على هذه الهجمات، ما أظهر على الفور ضعف خطوطهم الساحلية والتفوق البحري لقوى الوفاق[1].

اعتقدت قوى الوفاق أن تركيا هي الحلقة الضعيفة في التحالف المركزي والمحارب الذي يمكن هزيمته بكل سهولة بالضربة القاضية في الحرب. ومع وصول النزاع على الجبهتين الغربية والألمانية-الروسية إلى حالة من الجمود والشلل، وفرت الجبهة العثمانية وحدها احتمال تحقيق نصر سريع للحلفاء. وبدت قوى الوفاق على ثقة بأن الترك سينهارون بسرعة أمام هجوم مشترك من بريطانيا وفرنسا وروسيا. في الأيام الافتتاحية لدخول تركيا الحرب، أرسلت روسيا وبريطانيا جنوداً لتأمين موطئ قدم داخل الأطراف المحيطية غير المحمية جيداً للامبراطورية العثمانية.

* * *

كانت روسيا أول من هاجم العثمانيين بالقوات البرية. إذ أرسل الروس، بعد أن قصفت المدمرة (*Goeben*) والطراد (*Breslau*) موانئهم على البحر الأسود في 29 أكتوبر مباشرة، كتيبة عبر حدود القوقاز إلى شرق الأناضول. أشارت الاستخبارات الروسية إلى أن العثمانيين، بعدد جنودهم الذي لا يزيد على 70.000 إلى 80.000 رجل في منطقة أرضروم، لا يملكون القوات الكافية لتهديد المواقع الروسية في القوقاز. ومن ثم، قصروا مطامحهم على تأمين منطقة عازلة على طول الحدود، ما يسمح لقادتهم العسكريين بنشر مزيد من الجنود في المعركة ضد ألمانيا والنمسا.

قاد الجنرال الروسي جورجي بيرغمان جنوده إلى الأراضي العثمانية فجر الثاني من نوفمبر 1914. على مدى الأيام الثلاثة اللاحقة تقدم الروس دون مواجهة أي مقاومة مهمة. وبحلول الخامس من نوفمبر، تمكنوا من تأمين قطاع مواز لجبهتهم بعمق خمسة عشر ميلاً تقريباً. أنجزت المهمة، وأمر بيرغمان جنوده بتدعيم مواقعهم على طول المرتفعات المشرفة على وادي باسن، على بعد نحو خمسين ميلًا من بلدة أرضروم المحصنة.

ربما أثرت السهولة التي احتل بها الروس الأراضي التركية في تفكير القائد الروسي؛ لأنه قرر دون استشارة قيادته تجاوز أوامره والاستمرار في التوغل في عمق ولاية أرضروم.

وهكذا، أمر جنوده باجتياح قرية كوبروكوي الاستراتيجية على نهر أراس، عند منتصف الطريق بين الحدود الروسية وأرضروم.

لم يعرف بيرغمان أن القيادة التركية العليا تابعت التقدم الروسي بقلق متعاظم. في الرابع من نوفمبر، أرسل أنور باشا وزير الحربية برقية إلى حسن عزت باشا، القائد التركي في ارضروم، يقترح فيها شن هجوم عثماني معاكس ضد الغزاة الروس. ومع أن عزت باشا عرف أن جيشه الثالث لا يملك القوة الكافية، فقد فهم أيضاً حكمة عدم مساءلة أحكام رؤسائه، وأرسل قوة كبيرة لمحاربة الروس. التقى الجيشان على ضفاف نهر أراس مساء 6 نوفمبر في أول معركة يخوضها العثمانيون في الحرب العظمى كما ثبت لاحقاً[2].

كان العريف علي رضا إتي، وهو رجل متعلم من قرية بالقرب من بلدة إرزنجان شرق تركيا، ممرضاً في وحدة أرسلت لقتال الروس في كوبروكوي. حين استدعي إلى الخدمة العسكرية، كان متزوجاً في السابعة والعشرين وأباً لطفل. حفزته دوافع كثيرة للبقاء على قيد الحياة لكنه بدا على أتم الاستعداد للتضحية بحياته في قتال الروس. إذ أصيب أبوه، المحارب القديم الذي شارك في الحرب الروسية-التركية (1877-1878)، بجرح نفسي غائر جراء الهزيمة العثمانية. في عام 1914، ذهب رضا إلى الحرب ليأخذ ثأره[3].

أرسلت وحدة رضا إلى المعركة فجر السابع من نوفمبر. تقدم الجنود ببطء على طرقات تحولت إلى طين لزج بفعل الأمطار الخريفية الباردة. وعندما اقتربوا من الجبهة في كوبروكوي، أصبح قصف المدفعية أشد كثافة، وتعرض الجنود الخائفون لوابل من الرصاص. حاول رضا في يومياته التعبير عن أزيز الرصاص بلفظة "جف". "كنت خائفاً جداً من الموت، فهو أول يوم لي في جحيم المعركة. مع كل 'جف' يقطر جسمي عرقاً: من قمة الرأس إلى أخمص القدم". زحف الجنود العثمانيون إلى الموقع، إلا أنهم لم يتمكنوا من تحمل القصف المكثف. استمر القتال إلى الليل. في الساعة الثالثة فجراً نصب إتي ورفاقه خيمتهم بـ"سقفها المائل المنخفض" وحاولوا النوم في البرد القارس. "بقينا نرتجف حتى الصباح"، كما كتب.

استؤنف القتال في وقت مبكر من اليوم اللاحق. تعرضت الخطوط العثمانية لقصف ناري مكثف من المدفعية الروسية، وتناثرت الشظايا المعدنية الحادة لتخترق أجساد الرجال والخيول. "بينما أكتب هذه السطور انفجرت قذيفة شظايا على التل فوقي. تبعثر القتلى حولي مثل أغصان صفصافة حزينة". ولأن شدة القتال منعت الفرق الطبية من الوصول إلى الجرحى، التقط رضا بندقية ماوزر وذهب للمشاركة في المعركة على الخط الأمامي. صاح النقيب: "رضا أفندي، اجلب الذخيرة معك وانبطح". سدد رضا بندقيته، بعد أن تسلح بصندوقين من الطلقات فضلاً عن معداته الطبية، وأطلق النار على الجنود الروس المتمركزين على التلال المقابلة. زعم أنه رمى ثلاثاً وثمانين طلقة بدقة متميزة، وقتل ملازماً روسياً وثلاثة جنود. أضاف نادماً: "ذهبت الطلقات الأخرى سدى".

تشبث الجنود العثمانيون بمواقعهم ضد محاولة الروس تطويقهم. وزع النقيب ذخيرة جديدة على رجاله لتشجيعهم. صرخ مستعرضاً جرأة سيئة التوقيت: "رصاصاتهم لا تمسنا". في تلك اللحظة، أصيب بطلقة في عنقه، وسقط على ركبتيه، ومات أمام جنوده المحزونين. صاح ضابط آخر قبل أن يفتح النار على الروس: "هيا يا رفاق، نحن لا نحارب من أجل هذا النقيب، بل في سبيل الله". تحرر الجنود الترك من قنوطهم، وقاتلوا دفاعاً عن أرواحهم، بينما صوبت مدفعيتهم قذائفها على الخطوط الروسية. قتلت سلسلة من قذائف المدفعية المسددة جيداً وجرحت عشرات من الجنود الروس، وأجبرت الذين بقوا أحياء على التراجع. "في الساعة العاشرة، كان العدو يتراجع على الجبهات كلها. أترعت الفرحة صدور الجميع"، كما سجل رضا.

مع تراجع حدة القتال، استأنف رضا عمله ممرضاً، حيث سحب الجرحى من ميدان المعركة إلى المؤخرة. تمكن أفراد الفرق الطبية من تمييز كثير من أصدقائهم بين القتلى والجرحى، وروعتهم هذه التجربة الأولى مع ضحايا الحرب.

بعد أن أنجز رضا مهمته في الخطوط التركية، غامر بالدخول إلى المواقع الروسية السابقة ليعاين عن كثب الرجال الذين قتلهم. تمدد الملازم الروسي في المكان الذي أصيب فيه. لم يعبر رضا عن أي تعاطف مع "الرجل" الذي أطلق عليه النار (أشار إليه باستمرار بالكلمة

التركية الازدرائية: "شخص" (herif))، واستولى على مسدسه، وجعبته، ومنظاره، وسيفه. وجد داخل الجعبة حزمة من الرسائل، ومنديلاً معطراً بالخزامى، وقفازاً، وقارورة، وبعض النقود الروسية. قال متأملاً: "عطية من الله". سلم المنظار إلى قائد الفوج، والسيف إلى الطبيب، والجعبة إلى معاون القائد. فكر متأملاً في خسائر سريته في اليوم الأول من القتال- نقيب، وخمسة "شهداء"، وستة وثلاثون جريحاً- واختتم قائلاً: "خسرنا أحلام المعركة التي راودتنا هذا الصباح".

نجح المشاة الترك، بالمقاومة العنيدة، في الاحتفاظ بخطوطهم. شن الروس آخر هجوم في 11 نوفمبر وخسروا 40 في المئة من قواتهم في المحاولة. ثم أجبروا على التراجع تحت النيران، بعد نقص الذخيرة والتعرض للهجمات العثمانية العنيدة على الجناحين كليهما. عاد جنود بيرغمان إلى الخط الذي تمكنوا من تأمينه أصلاً في الخامس من نوفمبر، على بعد نحو 15 ميلاً داخل الأراضي العثمانية. دفع الجانبان ثمناً باهظاً من أجل مغامرة بيرغمان. ووفقاً للأرقام العثمانية، بلغت خسائر العثمانيين 8000 بين قتيل وجريح في هجوم نوفمبر (1983 قتيلاً ونحو 6170 جريحاً)، إضافة إلى 3070 أسيراً، وهروب نحو 2800 جندي. بينما خسر الروس في المعركة 1000 قتيل، و4000 جريح، إضافة إلى 1000 ماتوا جراء التعرض للأحوال الجوية السيئة. بعد الخسائر الثقيلة، عزز الطرفان مواقعهما قبل أن تجعل الثلوج من المستحيل عبور مرتفعات القوقاز، مع افتراض أنهما لن يستأنفا القتال قبل الربيع. سوف يأتي أنور باشا قريباً إلى القوقاز، بعد أن شجعته "هذه البداية المرضية نسبياً"، من أجل تجديد القتال مع الروس. لكن في هذه المرحلة، انشغلت القيادة العثمانية العليا بالغزو البريطاني لبلاد الرافدين[4].

* * *

تحتل البصرة موقعاً استراتيجياً على شط العرب، حيث يلتقي نهرا دجلة والفرات عند رأس الخليج العربي. وهي آخر ميناء صالح لاستقبال السفن البخارية العابرة للمحيطات على الشط، كما شكلت بوابة تجارية بين بلاد الرافدين والخليج. على بعد بضعة أميال إلى الجنوب من البصرة، يعين الشط الحدود بين الامبراطوريتين الفارسية والعثمانية (كحاله بين إيران

والعراق اليوم)، حيث تمر في منتصف المسافة الفاصلة بين الضفتين. حظيت الأراضي الفارسية المتاخمة لشط العرب بأهمية خاصة للامبراطورية البريطانية؛ لأن شركة النفط الإنكليزية-الفارسية عثرت على النفط بكميات تجارية هناك في مايو 1908.

وكان المليونير وليام نوكس دارسي (المولود في ديفون) قد ضمن في مايو 1901 امتيازاً يخوله الحق في استكشاف النفط في فارس لمدة ستين عاماً. تمتعت شركته بالدعم المالي من مجموعة مؤسسات بريطانية إضافة إلى المساندة السياسية من البحرية الملكية، التي صممت على تأمين مورد موثوق للوقود لأسطولها مع الانتقال من الفحم إلى النفط. وبعد اكتشاف النفط بالقرب من مدينة الأهواز جنوب فارس، بحثت الشركة عن موقع لإقامة مصفاة على البحر لتصدير نفطها، واختارت جزيرة عبادان في شط العرب، على بعد نحو 140 ميلاً إلى الجنوب من الحقل النفطي. وفرت الجزيرة موقعاً مثالياً لبناء مصفاة التكرير، مع إمكانية الوصول المباشر إلى الخطوط البحرية. بينما حظي مالك الجزيرة الشيخ خزعل، من بلدة المحمرة القريبة (مدينة خرمشهر في إيران الحالية)، بالحماية البريطانية.

كان الشيخ خزعل الذي يتكلم العربية زعيماً محلياً قوياً تحت إمرته 20.000 فارس. في عام 1902، تعهدت بريطانيا بحماية دولة خزعل المصغرة مقابل تمسكه بنظام المعاهدة البريطانية التي تجمع معظم الحكام العرب في الخليج. والآن، بعد اكتشاف النفط، أصبحت الصداقة مع الشيخ خزعل أشد أهمية لبريطانيا. أرسل المقيم السياسي البريطاني في الخليج، السير بيرسي كوكس، إلى المحمرة للتفاوض مع خزعل على عقد تأجير للأرض الضرورية للمصفاة، والخزانات، ورصيف التحميل في جزيرة عبادان. في يوليو 1909 عقدا اتفاقاً مدته عشر سنين مقابل 6500 جنيه نقداً إضافة إلى قرض بقيمة 10.000 جنيه. مد الأنبوب، وبنيت المصفاة، وبدأ النفط يتدفق من عبادان عام 1912 [5].

بدا من الطبيعي أن تختار بريطانيا بلاد الرافدين جائزة لها في أي تقسيم لاحق على الحرب للامبراطورية العثمانية، بسبب النفط والتجارة وقرابة مئة عام من الموقع المتفوق في الخليج العربي. وحتى قبل افتتاح المفاوضات مع روسيا وفرنسا، أرسل البريطانيون حملة عسكرية لضمان حقهم في الاستيلاء على البصرة.

وضعت الخطط البريطانية لغزو البصرة في سرية صارمة في لندن والهند شهري سبتمبر وأكتوبر 1914. ونظراً لما أظهره المسلمون الهنود من احترام وإجلال للسلطان العثماني باعتباره خليفة للإسلام، خشي البريطانيون من أن يؤدي هجوم قبل الأوان على أراضي السلطان إلى استفزاز أعمال شغب بدوافع دينية. تمثل التحدي في نشر الجنود البريطانيين مسبقاً بالقرب من البصرة، قبل أن يعلن العثمانيون الحرب، بحيث لا يبدو عملاً عدائياً ضد الامبراطورية العثمانية التي ما زالت حيادية حتى ذلك الحين. ما يعني الحفاظ على سرية خطة نشر القوات وإخفائها حتى عن القائد والجنود الذي سيشاركون في الحملة.

حين ركب الجنرال والتر ديلامين السفينة التي أبحرت من بومباي في 16 أكتوبر باعتبارها جزءاً من قوة الحملة الهندية (IEF) إلى الجبهة الغربية، تلقى أوامر في ظرف مختوم مع تعليمات صارمة بالانتظار اثنتين وسبعين ساعة قبل قراءتها وتنفيذها. بعد ثلاثة أيام في عرض البحر، فتح ديلامين الظرف وقرأ أوامره وعلم أنه سيقود لواء من فرقة بونا السادسة من الجيش الهندي (سمي IEF D)، للخدمة في الخليج العربي. حُشر جنوده الخمسة آلاف وخيولهم (1400 حصان وبغل) في أربع سفن نقل يمكنها الإبحار في مياه الخليج الضحلة. وسوف يتابع على الفور إلى البحرين لينتظر مزيداً من التعليمات.

وصل ديلامين إلى البحرين مع لوائه في 23 أكتوبر. قابله السير بيرسي كوكس، المقيم السياسي البريطاني السابق في الخليج، الذي عين كبير المسؤولين السياسيين للحملة. لم يعلم ديلامين إلا في البحرين أنه سيتابع الرحلة إلى شط العرب لتأمين مصفاة النفط الإنكليزية-الفارسية والخزانات في عبادان وحماية خط الأنابيب من هجوم تركي. وسوف يطلب دعم حلفاء بريطانيا العرب عند رأس الخليج -الشيخ خزعل، وحاكم الكويت الشيخ مبارك الصباح، وابن سعود في شرق الجزيرة العربية. وفقاً للأوامر التي تلقاها ديلامين، يجب عليه تجنب "أي عمل عدائي ضد الترك دون تعليمات جديدة من حكومة الهند" طالما بقوا على الحياد. لكن إن أعلن العثمانيون الحرب فإن من حقه "اتخاذ أي عمل عسكري وسياسي" يقوي موقعه، "بما في ذاك احتلال البصرة إن أمكن". بعد أن رست السفن ستة أيام، تلقى ديلامين الأوامر بالإبحار إلى مدخل شط العرب في 29 أكتوبر -يوم استهل الأسطول

العثماني الأعمال القتالية ضد روسيا في البحر الأسود. وصل خبر المغادرة من البحرين إلى البصرة بسرعة؛ ما حفز عمليات استعداد عسكرية وسياسية محمومة[6].

* * *

منذ لحظة وصول سفن نقل الجنود البريطانيين إلى البحرين بدأت الإشاعات تنتشر في البصرة عن هجوم وشيك. لم يكن سكان المدينة يعرفون الآن ماذا يريدون فعلاً، بعد أن أصبحت حرب أوربا البعيدة على عتباتهم. تحدث القنصل البريطاني المغادر ريدر بولارد عن "مشاعر قوية معادية للروس والبريطانيين" في البصرة عند نهاية شهر أكتوبر. لكن المدينة تعيش على التجارة، وسوف يصاب اقتصادها بضرر فادح إذا عزلت عن باقي الخليج جراء الأعمال العدائية بين السلطنة العثمانية وبريطانيا[7].

بدا الولاء للعثمانيين فاتراً في أفضل الأحوال. إذ عارض كثير من وجهاء المدينة صراحة سياسات تركيا الفتاة، التي اعتبروها ضارة بالمصالح العربية. وشكلت جماعة من الزعماء أصحاب التوجهات السياسية المتشابهة في البصرة "الجمعية الإصلاحية" عام 1913، وهي واحدة من أكثر الجمعيات العربية تأثيراً ونفوذاً في العراق. وعلى غرار "الفتاة" و"حزب اللامركزية"، طالبت "الجمعية الإصلاحية" في البصرة بالحقوق الثقافية العربية وبمزيد من الحكم الذاتي في سلطنة عثمانية لا مركزية. رأس الحركة سيد طالب النقيب.

يعد طالب النقيب أبرز شخصية في البصرة قبل الحرب. انتخب أولاً عضواً في مجلس المبعوثان العثماني عام 1908. وبعد أن تعاون في البداية مع جمعية الاتحاد والترقي، أخذ يدافع بصراحة متزايدة عن حقوق العرب الثقافية والسياسية. وفي أثناء عمله في المجلس، استفز عداء خصوم خطرين بين القوميين الترك من أعضاء جمعية الاتحاد والترقي. ثم هدده الاتحاديون علناً بعد أن اعتقدوا بأنه يضمر مطامح انفصالية للبصرة. ومع أن مرشحي الجمعية الإصلاحية اكتسحوا انتخابات مجلس المبعوثان العثماني في ولاية البصرة عام 1914، فإن طالب النقيب لم يجرؤ على السفر إلى إسطنبول لاحتلال مقعده خوفاً من أن يغتاله الاتحاديون[8].

تذكر سليمان فيضي، وهو زعيم آخر من زعماء البصرة الذين انتخبوا في مجلس المبعوثان عام 1914 على لائحة الجمعية الإصلاحية، كيف حاول البريطانيون تجنيد طالب النقيب للتعاون مع احتلالهم للمدينة. إذ دعا المسؤولون البريطانيون طالب النقيب، بناء على مساع حميدة بذلها حليفهم الشيخ خزعل، إلى اجتماع سري في المحمرة في الأيام الحاسمة التي سبقت وصول لواء الحملة البريطانية إلى شط العرب. وعرضوا عليه مقابل تعاونه تعيينه حاكمًا عاماً على ولاية البصرة تحت الحماية البريطانية، مع مزايا ومكاسب معفاة من الضرائب فضلاً عن مساعدة تطويرية بريطانية. رفض طالب النقيب، مؤكداً أنه غير مستعد لمقايضة سيد بآخر، واستبدال البريطانيين بالعثمانيين[9].

قرر طالب النقيب ربط مصيره بالعثمانيين، بدلاً من اتباع جيرانه في النظام "المهادن" الذي أقامته بريطانيا. عقدت قراره حقيقة إصدار الاتحاديين أمراً باعتقاله بتهمة الخيانة العظمى. وفي محاولة يائسة لإثبات ولائه وتحسين موقفه وحظوظه، أرسل برقية إلى أنور باشا تعهد فيها بضمان دعم ابن سعود للدفاع عن البصرة ضد الغزو البريطاني. لم يكن لدى الاتحاديين ما يخسرونه من هذه المبادرة، واقترحوا مكافأة طالب النقيب بولاية البصرة على جهوده إذا ما نجح في مسعاه.

عمل البريطانيون، الذين أقلقهم ولاء العرب منذ البداية، على إجهاض أي مبادرة عثمانية لتجنيد شيوخ الخليج مع قضيتهم أو حشد القبائل العربية في جهاد عالمي ضد قوى الوفاق. في 31 أكتوبر، أصدر المقيم السياسي البريطاني في الخليج، إس. جي. نوكس، بياناً إلى "حكام وشيوخ الخليج ورعاياهم" أعلن فيه دخول العثمانيين الحرب. وذكر حلفاء بريطانيا العرب بأن علاقاتهم مع بريطانيا العظمى قديمة العهد، وهو ينتهز هذه الفرصة لطمأنتهم في هذا الصراع بأن البريطانيين سيبذلون قصارى جهدهم للحفاظ على حريتهم ودينهم. ومن أجل تعزيز هذه النقطة، عقد البريطانيون في 3 نوفمبر معاهدة رسمية اعترفوا فيها باستقلال الكويت عن السلطنة العثمانية تحت الحماية البريطانية. بالمقابل، تعهد حاكم الكويت، الشيخ مبارك، بالعمل مع الشيخ خزعل وابن سعود وغيرهما من الشيوخ الموثوقين للمساعدة على "تحرير" البصرة من الملكية التركية[10].

ظل السير بيرسي كوكس، كبير المسؤولين السياسيين في الحملة البريطانية، على اتصال مستمر بحلفاء بريطانيا العرب؛ من أجل تنسيق الخطوات لضمان الدعم المحلي لغزو جنوب الرافدين. وفي 5 نوفمبر، أبلغ الحكام العرب في رأس الخليج اقتراب القوات البريطانية، التي زعم أنها أرسلت إلى شط العرب لـ"حماية تجارة [بريطانيا] وأصدقائها وطرد القوات التركية المعادية". تمكن البريطانيون من ترتيب الأمور في الخليج لمصلحتهم قبل أن يطلق طالب النقيب مبادرته لكسب ابن سعود إلى صف القضية العثمانية[11].

وجد النقيب في رحلته من البصرة إلى المحمرة، إلى الكويت، إلى نجد، أن حكام الخليج كلهم يعارضون مبادرته العثمانية. حاول الشيخ خزعل إقناع صديقه النقيب بإعادة التفكير بشروط بريطانيا. بل هدد حاكم الكويت بوضع النقيب وزملائه تحت الإقامة الجبرية بناء على تعليمات بريطانيا. لكن النقيب الغاضب رد مهدداً الشيخ مبارك: "إذا حاولت منعي من مغادرة الكويت فسوف أطلق رصاصتين من مسدسي: الأولى عليك والثاني علي!". ومع أنه تمكن من التسلل مع جماعة صغيرة من أصدقائه خارج الكويت، فقد احتاجوا إلى السفر على الجمال تسعة أيام للوصول إلى ابن سعود في البريدة (منطقة القصيم) شمال وسط الجزيرة[12].

استقبل الحاكم السعودي ضيوفه بالترحاب وأظهر لهم كرم ضيافته وتعاطفه، لكنه لم يخف حقيقة وجود مراسلات بينه وبين البريطانيين، الذين كانوا يستحثونه كما قال على الحفاظ على موقفه الحيادي (لم تضف بريطانيا الصفة الرسمية على العلاقات معه إلا عام 1915). من الوضح أن ابن سعود لم يحسم أمره بعد. ونظراً إلى أهمية الدين لحركته، لم يرغب بأن يظهر مؤيداً للبريطانيين غير المسلمين على حساب إخوانه العرب المسلمين في البصرة. لكنه تحفظ على معاداة البريطانيين جراء وجودهم القوي في الخليج. ولهذا لجأ إلى المماطلة أملاً بأن تحل الأمور قبل أن يجبر على الانضمام إلى أحد الجانبين.

انتظر ابن سعود تسعة أيام قبل أن يحشد قوة من خمسمئة فارس ويتوجه إلى رأس الخليج. اكتفى الزعيم السعودي بالتحرك أربع ساعات في اليوم مع وفد طالب النقيب، مع أنه قادر على امتطاء راحلته ليلاً نهاراً إن كانت القضية مستعجلة. وعند وصول القوة السعودية إلى أول محطة على الطريق في أواخر نوفمبر، علمت أن البصرة سقطت بأيدي البريطانيين. وقع

الخبر على رجال البصرة "وقع الصاعقة" كما سجل سليمان فيضي. وكانت الصدمة عنيفة على طالب النقيب خصوصاً، الذي عرف عمق كراهية الإنكليز له. لكن ابن سعود شعر بالارتياح لحل الأزمة، وعبر عن تعاطفه مع رجال البصرة وعاد لمتابعة المسعى وراء أولوياته في وسط الجزيرة العربية[13].

ترك سقوط البصرة طالب النقيب منفياً. خيب أمل العثمانيين واستعدى البريطانيين. ركب عائداً إلى الكويت واستسلم للبريطانيين. ثم أرسل إلى الهند وبقي هناك طوال الحرب التي تصورت الأطراف كلها أنها ستكون وجيزة. لكن احتلال البريطانيين البصرة استهل حملة في بلاد الرافدين استغرقت وقتاً أطول بكثير مما توقعه النقيب.

* * *

في الخامس من نوفمبر أعلنت بريطانيا العظمى الحرب على الدولة العثمانية. في فجر اليوم اللاحق، دخلت وحدات من قوة الحملة الهندية المياه الإقليمية التركية في شط العرب. اتخذت السفينة (HMS *ODIN*)، التي تعتمد على المحركات البخارية والأشرعة، موقعها في مدخل الشط وفتحت النار على مرابض المدفعية التركية في شبه جزيرة الفاو. وفي مدة ساعة، قتل قائد الحصن، وتخلى الجنود العثمانيون -نحو أربعمئة رجل- عن مواقعهم. أنزل ديلامين خمسمئة جندي لتدمير المدافع وإقامة خط تلغراف مؤمن من الفاو إلى الهند عبر حزمة أسلاك (كبل) تحت الماء. لكن المهمة لم تنجز بسهولة. إذ أعاقت تيارات المد القوية سفينة الإنزال، بينما ضاعفت الضفاف الطينية للمصب صعوبة إنزال الرجال والخيول والمدافع على الشط في غياب أي رصيف أو مرسى. لكن العمل السريع والحاسم، الذي تحقق دون أي خسائر، بشر بالخير للحملة البريطانية[14].

ترك ديلامين سرية من الجنود لحماية محطة التلغراف في الفاو وتحرك إلى شط العرب مع بقية اللواء لتأمين المرافق النفطية في عبادان. نزلت قواته عند السنية على الضفة التركية من النهر بعكس اتجاه التيار القادم من مصفاة التكرير. ومن دون صنادل كافية، تطلبت عملية إنزال الرجال والخيول والمعدات الحربية من سفن النقل إلى الشاطئ يومين اثنين. سوف

تصيب مشكلات النقل حملة بلاد الرافدين بآفتها. إذ وجب الاعتماد في النقل على النهر وحده بسبب عدم توافر الطرق الصالحة؛ إلا أن النهر ضحل وحاشد بالعقبات والعوائق التي وضعها العثمانيون، كما عقدت ضفافه الطينية الحركة من السفن وإليها. لكن جنود الحملة كانوا قادرين على حماية عبادان من موقعهم المحصن في السنية ضد أي هجوم عثماني.

قرر ديلامين انتظار وصول التعزيزات قبل محاولة التحرك عبر النهر باتجاه البصرة. شن العثمانيون هجوماً على المواقع الإنكليزية-الهندية في 11 نوفمبر؛ ما أدى إلى سقوط أول الضحايا من جنود الحملة، قبل التراجع تحت وابل من النيران. وجب على الجنود الهنود والبريطانيين الدفاع عن أنفسهم في بيئة غريبة ومعادية تحبط التحركات الجسورة. حولت عواصف مطرية عاتية ومفاجئة ضفاف الشط إلى مستنقعات من الطين، بينما أثارت ريح قوية عواصف رملية منعت الرؤية وقطعت جميع الاتصالات البصرية والإشارية. وثبت أن السراب من أشد الظواهر الطبيعية إرباكاً وإذهالاً للجنود؛ ما جعل تحديد الأشياء في الجبهة بالعين المجردة عملية شبه مستحيلة تقريباً. لقد جعل السراب "من الصعب معرفة هل العدو راكب أم راجل، أو تقدير عدد أفراده. في بعض الأحيان، لم تتمكن أفواج الفرسان في الحملة من التفريق بين الشاة وجندي المشاة"، مثلما تذكر إدموند كاندلر، وهو صحفي مرافق للحملة بصفة "شاهد رسمي". وبدا أن الحذر يقتضي انتظار تعزيز الحملة قبل التقدم مسافة أخرى في الشط[15].

وصلت التعزيزات في 14 نوفمبر. إذ رأس الجنرال السير آرثر باريت بقية الفرقة الهندية السادسة إلى الشط ليتولى قيادة الحملة. وكان على ثقة بقدرته على استئناف الأعمال القتالية دون مخاطرة لا ضرورة لها؛ نظراً إلى توافر عدد كاف من الجنود لحماية عبادان والزحف إلى البصرة. كما تمتع بدعم مهم من البحرية الملكية، التي دفعت إلى الشط عدداً من السفن الحربية المخصصة للمياه الضحلة. تمكنت السفن البحرية من نقل القوات وقصف مواقع العثمانيين بمدافعها الثقيلة في آن. ونظراً إلى الصدمة التي أربكت العثمانيين جراء ظهور قوة الغزو فجأة، أراد باريت توجيه ضربة سريعة قبل أن تتاح للمدافعين الفرصة لإعادة تجميع صفوفهم ومجابهة المهاجمين.

شن البريطانيون هجوماً على الخطوط العثمانية في اليوم اللاحق على وصول باريت، ودحروا المدافعين خارج مواقعهم، مخلفين 160 قتيلاً وجريحاً على أرض المعركة. وبعد يومين، في 17 نوفمبر، واجهوا العثمانيين في الساحل تحت وابل من المطر المدرار تبعته عواصف رملية. لحقت بالطرفين خسائر -500 قتيل وجريح من البريطانيين والهنود، بينما راوحت خسائر العثمانيين بين 1500 و2000- قبل أن يستولي الجيش الإنكليزي-الهندي على الخطوط العثمانية ويجبر المدافعين على التراجع مرة ثانية. زعم باريت في رسائله أن العمليات "أثبتت تفوق جنودنا على الترك" و"انهيار روحهم المعنوية" بعد "خسائرهم الجسيمة"[16].

قرر العثمانيون، بعد سلسلة من الهزائم السريعة، أن موقعهم في البصرة يتعذر الدفاع عنه وتخلوا عن المدينة في 21 نوفمبر. وحالما غادرت السلطات الحاكمة، اجتاحت المدينة موجة من أعمال الشغب دمرت المكاتب الحكومية ونهبت الشركات التجارية. بعث جون فان إيس، القنصل الأميركي بالوكالة في البصرة، بخطاب بواسطة مراسل عبر النهر يناشد فيه القائد البريطاني "إرسال قوة كافية للحماية من أعمال السلب والنهب". سيطرت على المدينة حالة جامحة من الفوضى وغياب القانون: "ظل العرب طوال يوم أمس يسرقون الأماكن التي أخلتها الحكومة وثمة إطلاق نار مستمر"[17].

أرسلت السفينتان (*Espiegle*) و(*Odin*) إلى البصرة على الفور لتأمين الواجهة البحرية إلى أن تصل القوات بالبر في اليوم اللاحق. في 23 نوفمبر، دخل باريت في موكب رسمي إلى البصرة، حيث رفع العلم البريطاني على مركز المدينة دلالة على انتقالها من السيطرة العثمانية إلى البريطانية. كتب السير بيرسي كوكس بياناً محفزاً قرأه أمام جمهور من الأهالي بلغته العربية ذات اللكنة الإنكليزية، أكد فيه أن الحكومة البريطانية احتلت الآن البصرة، ومع أن حالة الحرب مع الحكومة العثمانية ما زالت قائمة، فإن البريطانيين لا يعادون سواد الناس أو يحقدون عليهم، ويأملون بأن يثبتوا لهم أنهم أفضل أصدقائهم وحماتهم. ولن يبقى أثر للإدارة التركية في هذه المنطقة. ولذلك سترتفع الراية البريطانية -التي سيتمتعون في ظلها بفوائد الحرية والعدالة على صعيد الشؤون الدينية والدنيوية. أربك بيان كوكس البريطانيين

والبصريين على حد سواء. إذ لم يكن البريطانيون يعرفون حجم الحرية التي يجب أن يتنازلوا عنها لأهل البصرة، ولم يكن لدى هؤلاء أدنى فكرة عن المدة التي سيبقى فيها البريطانيون. وكان من الصعب على كثير منهم، بعد قرون من الحكم العثماني، تصور أن الترك لن يعودوا في نهاية المطاف. وطالما بقيت فرصة لعودة العثمانيين، سوف ينأى أهالي البصرة بأنفسهم عن البريطانيين خوفاً من الانتقام اللاحق[18].

حالما دخل البريطانيون البصرة حققوا فعلياً أهدافهم في بلاد الرافدين. فقد دفعوا العثمانيين بعيداً عن رأس الخليج ووفروا الحماية للمرافق النفطية الاستراتيجية في عبادان. قدم السير بيرسي كوكس حجة قوية لصالح مطاردة القوات العثمانية المنسحبة للاستيلاء على بغداد، لكن دحضها المخططون العسكريون وحكومة الهند. بدلاً من ذلك، أجاز البريطانيون القيام بتقدم محدود إلى بلدة القرنة، عند التقاء الفرات بدجلة، ما يضع شط العرب برمته تحت السيطرة البريطانية.

انطلقت الحملة على القرنة في 3 ديسمبر. نقلت سفن البحرية الملكية الجنود إلى بقعة نزول آمنة على بعد أربعة أميال جنوب البلدة. وحين زحف المهاجمون على الضفة اليسرى للشط، واجهوا مقاومة متزايدة من المدافعين العثمانيين، الذين تمكنوا من وقف تقدم القوة الإنكليزية-الهندية قبل الانسحاب عبر دجلة. بدا واضحاً أن العثمانيين أملوا بكسب مزيد الوقت لإعادة تجميع قواتهم بوضع النهر بينهم وبين قوات الحملة. لكن حين استطاع المهاجمون تأمين جسر مؤقت (عائم) عبر دجلة، عرف العثمانيون أن من المستحيل الدفاع عن موقعهم. وقبيل منتصف ليل 6 ديسمبر، اتجهت سفينة بخارية تركية نهرية صغيرة تحمل ثلاثة قادة أتراك نحو السفن البريطانية وقد أشعلت أضواءها كلها ودوت صفاراتها للتفاوض على الاستسلام. جرت عملية التسليم في 9 ديسمبر، حين سلم حاكم ولاية البصرة، صبحي بك، بلدة القرنة إلى قائد قوة الحملة الهندية واستسلم، إلى جانب خمسة وأربعين ضابطاً و989 جندياً، أصبحوا أسرى حرب[19].

كانت العمليات البريطانية في شط العرب سهلة ومضللة، إذ تحققت انتصارات سريعة بخسائر بريطانية قليلة إلى حد لافت، حيث لم يتجاوز عدد القتلى من الجنود البريطانيين

والهنود 100 والجرحى 675 في القتال بين الفاو والقرنة. من ناحية أخرى، خسر العثمانيون نحن 3000 قتيل وجريح -أربعة أضعاف الخسائر البريطانية. منحت هذه المكاسب السهلة نسبياً البريطانيين شعوراً مشوهاً بقدراتهم ودفعتهم إلى التقليل من قوة عدوهم العثماني[20].

بعد أن أمن البريطانيون موقعهم في البصرة، استقروا في المنطقة لإدارتها. وبوصفهم قوة احتلال، التزموا قوانين الحرب للحفاظ على مؤسسات الدولة العثمانية. لكن عدم رغبة السكان المحليين في التعاون مع السلطات الجديدة أضعف عملها. استمر البريطانيون في عزو هذا العصيان إلى الخشية من عودة ممكنة للعثمانيين. لكن ربما عبر أيضاً عن كراهية الأهالي للمحتلين الأجانب -عداوة تعززت بالإجراءات الأمنية البريطانية في بلاد الرافدين.

وصف وليام بيرد، الجندي في إحدى كتائب دورسيت التابعة لقوة الحملة الهندية، عملية تفتيش نمطية لقرية قريبة من البصرة في يناير 1915. اقتحم الجنود الإنكليز والهنود القرية عند الفجر، وكسروا أبواب البيوت التي لم تفتح بعد الطرق عليها، و"أسروا جميع السكان الذكور، ثم بدأ البحث عن السلاح في كل شيء وفي كل مكان". عاقب البريطانيون القرويين الذين اشتبهوا بأنهم يقاومون الاحتلال. "قبض على أولئك الذين حاولوا الهرب بواسطة عصبة من الجنود تمركزت خارج القرية لتطويقها. وجرى التعامل معهم باعتبارهم مقاتلين وانتهى بهم المطاف على حبل المشنقة. أما الذين أطلقوا النار علينا فقد قتلوا طبعاً أو أسروا وشنقوا في ساحة السوق"، كما لاحظ بيرد. كان من المستبعد أن تكسب هذه الإجراءات العقابية تعاطف أهالي ولاية البصرة[21].

ولم يمتلك البريطانيون رؤية لحريات سياسية أوسع من أجل كسب شعب البصرة إلى صفهم. وحين زار حاكم الهند، اللورد هاردينغ، البصرة والقرنة في فبراير 1915، خفض سقف الوعد الشامل الذي قدمه كوكس بـ"الحرية والعدالة"، وعرض بدلاً منه "إدارة حميدة" واستعادة الازدهار. وبدا أن الاحتلال البريطاني يعد بإدارة بريطانية، وليس بقدر أكبر من الاستقلالية أو الحكم الذاتي. لم يكن طالب النقيب مخطئاً، فقد استبدل سكان البصرة أسيادهم: حل البريطانيون محل العثمانيين[22].

* * *

استأنفت بقية قوة الحملة الهندية مسارها إلى مصر، بعد أن ودعت لواء ديلامين للخدمة في الخليج العربي. زار الأسطول ميناء عدن على بحر العرب قبل دخول البحر الأحمر. شكل الميناء مركز مستعمرة صغيرة (مساحتها 80 ميلاً مربعاً) غزاها البريطانيون وضموها إلى امبراطوريتهم الهندية عام 1839. استخدمت البحرية الملكية عدن أصلاً قاعدة للعمليات ضد القرصنة. ومع افتتاح قناة السويس عام 1869، ثبت أن عدن موقع مثالي لتكون محطة تزود السفن البخارية المتنقلة بين بريطانيا والهند بالفحم. وعلى غرار هونغ كونغ، تطورت عدن إلى واحدة من المعابر الأساسية في امبراطورية بريطانيا البحرية، ومخزن تجاري مهم عن جدارة واستحقاق.

عقد البريطانيون في النصف الثاني من القرن التاسع عشر سلسلة من المعاهدات مع القبائل في المناطق المحيطة بعدن، فأوجدوا منطقة نفوذ خاصة عرفت باسم محمية عدن. تألفت المحمية من تسع دول صغيرة متميزة بزعامة حكام يتمتعون بالاستقلال الذاتي تحت الوصاية البريطانية. بلغت مساحة أراضيهم مجتمعة نحو 9000 ميل مربع من المناطق الساحلية في أقصى الحافة الجنوبية من الجزيرة العربية. تاخمت محمية عدن ولاية اليمن العثمانية. وبين عامي 1902 و1905، رسمت لجنة إنكليزية-تركية الحدود بين المنطقتين، لتتحول فجأة مع دخول العثمانيين الحرب عام 1914 إلى خط بين عدوين، وتجسد نقطة الاشتباك الثانية بين بريطانيا والسلطنة.

التقت الحدود الفاصلة بين اليمن العثمانية ومحمية عدن عند مضيق باب المندب، بوابة البحر الأحمر. شكلت جزيرة الشيخ سعيد الحافة الجنوبية القصوى للأراضي العثمانية، حيث احتفظ الترك بسلسلة من التحصينات على قمم التلال مجهزة بمدافع تهيمن على الخطوط البحرية. بينما تمركز البريطانيون في جزيرة بريم الصخرية التي تبلغ مساحتها خمسة أميال مربعة، قبالة الشيخ سعيد في مضيق باب المندب، على بعد نحو مئة ميل غربي عدن.

في أوائل نوفمبر، ذكرت المخابرات البريطانية أن الترك يحشدون جنودهم في جزيرة الشيخ سعيد. واعتقد المحللون أن القوات العثمانية تنوي بدء الأعمال العدائية ضد المواقع البريطانية في محمية عدن أو حتى احتلال جزيرة بريم. وباعتبار الأهمية الاستراتيجية

للخطوط الملاحية في البحر الأحمر للامبراطورية البريطانية زمن الحرب -يجب أن تمر جميع سفن نقل الجنود من نيوزيلندا وأستراليا والهند عبر باب المندب للوصول إلى قناة السويس- قرر المخططون الحربيون في الهند تشتيت الجنود العثمانيين وتحييد مدافعهم في الشيخ سعيد. أرسلت قوات جديدة من الهند إلى عدن في 2 نوفمبر لتأمين الجزيرة البريطانية في المضيق.

في صبيحة 10 نوفمبر، فتحت السفن البريطانية قبالة جزيرة بريم نيران مدافعها على المواقع العثمانية فوق تلال الشيخ سعيد. كان الملازم هـ. في. جيل، ضابط الإشارة في فوج مشاة البنجاب 69، يستعجل انتهاء القصف لكي ينزل على الشاطئ هو وسريته لبدء "أول عمل حربي". ركب الرجال سفن الإنزال التي سحبها إلى الشط زورق بطيء، بينما أطلقت المدافع التركية قذائفها بدقة متنامية من المرتفعات المشرفة على المكان. وحين جدفوا بقواربهم المسافة الأخيرة إلى الشاطئ، سقطت قذيفة على بعد أمتار من جيل وقتلت شاباً هندياً من جنود الاحتياط. تمكن الآخرون من الوصول بأمان، حيث أعادوا تجميع صفوفهم انتظروا الأوامر لبدء هجومهم على المواقع العثمانية. اتخذت مجموعة الإنزال الإنكليزية-الهندية ملجأ يحميها من القصف المكثف، وطال انتظارها أكثر من أربع ساعات قبل أن تشرع في الارتقاء نحو المواقع التركية. "توقف القصف آنذاك، واقتصر الأمر على بضع رصاصات طائشة بين الحين والآخر"، كما تذكر جيل[23].

بحلول الوقت الذي وصلت فيه القوات الإنكليزية-الهندية إلى قمة أول تل، وجدت أن العثمانيين قد أخلوا مواقعهم. لا شك أن القصف من السفن البريطانية، بالاقتران مع تقدم مجموعات الإنزال، أقنعا المدافعين باستحالة الاحتفاظ بمواقعهم. وبدا أن العثمانيين تراجعوا في حالة من الهلع؛ نظراً إلى الكميات الملابس والأسلحة والذخيرة التي تركوها خلفهم. "شعرنا بالأسف لأنهم تمكنوا من النجاة"، مثلما لاحظ جيل في يومياته. "قدر عددهم بنحو 500". وبينما لم يعرف حجم الخسائر العثمانية (لم يشاهد أي قتيل تركي)، ذكر أن خمسة من الجنود الهنود والبريطانيين قتلوا وجرح أحد عشر في العملية. أمضت القوة الإنكليزية-الهندية الليل في الشيخ سعيد، ودمرت جميع استحكامات المدافع العثمانية الباقية قبل أن تنسحب إلى السفن وتستأنف الرحلة غرباً إلى مصر في 11 نوفمبر.

صحيح أن العملية في الشيخ سعيد كانت ناجحة عسكرياً، لكنها أثارت صعوبات سياسية سوف تربك البريطانيين في عدن طوال السنوات المتبقية من الحرب. لقد وضع المسؤولون العسكريون في الهند خططاً دون استشارة السلطات في عدن، التي انخرطت في مفاوضات حرجة وحساسة لعزل العثمانيين في اليمن. استهدف معظم الجهد الدبلوماسي الإمام يحيى، زعيم طائفة الشيعة الزيديين في الهضاب الشمالية حول صنعاء (العاصمة الحالية). وكان الإمام قد عقد هدنة مع العثمانيين عام 1911 ووافق على حكم ولاية اليمن بالتحالف مع الأستانة عام 1913. ومع أنه لم يكن راغباً في قطع صلاته مع العثمانيين، فإنه حرص على إقامة علاقات ودية مع البريطانيين[24].

غيّر قصف الشيخ سعيد كل شيء. كتب هارولد جيكوب، المسؤول البريطاني في عدن: "استشاط الإمام [يحيى] غضباً، وأذاع الحاكم العام [العثماني] لصنعاء بياناً صور فيه الدوافع البعيدة والخفية لبريطانيا العظمى، المصممة على التوسع. لقد ساعد ما فعلناه مروجي الدعاية التركية". زعم الإمام من جانبه أن "قضية الشيخ سعيد أثارت ريبة العرب في كل مكان". وبدلًا من تأمين موقع بريطانيا في جنوب اليمن، ترك الهجوم على الشيخ سعيد عدن أكثر ضعفاً وانكشافاً في الواقع الفعلي. كان من السهل طرد خمسمئة جندي من حصن ساحلي معزول. لكن ثبت أن من الصعب الدفاع عن محمية عدن التي تبلغ مساحتها 9000 ميل مربع ضد 14000 جندي عثماني متمركزين في اليمن، يدعمهم أتباع الإمام يحيى[25].

في الحقيقة، لم تهدد المدافع العثمانية في الشيخ سعيد الشحن البحري البريطاني. إذ يبلغ عرض باب المندب عشرين ميلاً في أضيق نقاطه، ومن ثم لم تكن السفن البريطانية بحاجة إلى المرور ضمن المدى المجدي للمدافع التركية. بينما شكلت الألغام التركية والغواصات الألمانية خطراً أعظم بكثير على الشحن، ومكافحة هذه التهديدات يتطلب قوة بحرية لا قوات برية. أرسلت البحرية الملكية سفناً حربية لفرض الحصار على الموانئ التركية على طول ساحل البحر الأحمر، والحفاظ على الخطوط البحرية مفتوحة أمام سفن الشحن الصديقة. وأمكن قياس نجاحها بعشرات سفن الشحن ونقل الجنود التي حملت البضائع والقوات من الامبراطورية عبر البحر الأحمر إلى قناة السويس ثم إلى مناطق الحرب فيما وراءها.

* * *

بدءاً من سبتمبر 1914، تدفقت على مصر آلاف مؤلفة من الجنود من بريطانيا وبلدان الكومنويلث. كانت فرقة شرق لانكشاير الإقليمية، التي أرسلت لنجدة الجيش المحترف في مصر وحمل العبء عنه في الجبهة الغربية، أول من وصل في أواخر سبتمبر. بينما وصلت قوة الحملة الهندية إلى مصر من بومباي قرب نهاية أكتوبر، وتمركز جنودها في مدن منطقة قناة السويس. واستكملت أول موجة من الفيلق الأسترالي والنيوزيلندي (30.000 جندي) الرحلة من نيوزيلندا وأستراليا إلى الاسكندرية في أوائل ديسمبر. تبعت هذه القوات تعزيزات من آلاف الجنود في الأسابيع والأشهر اللاحقة. واكتظت الخطوط الحديدية بين الإسكندرية والقاهرة بقطارات تحمل جيوشاً من الرجال والخيول إلى المعسكرات المحيطة بالقاهرة. استقرت فرقة المشاة الأسترالية غربي القاهرة بالقرب من الأهرامات، وفرقة الفرسان الأسترالية الخفيفة في ضاحية المعادي الوارفة جنوب المدينة، والنيوزيلنديون في معسكر الزيتون شمال القاهرة قرب عين شمس.

ساعد تدفق جنود الامبراطورية على استقرار الحالة المتوترة في مصر، إذ اهتزت الأركان السياسية المصرية منذ اندلاع الحرب بفعل سلسلة من الأحداث المشهودة: إعلان العثمانيين الحرب، ودعوة الخليفة للجهاد، وقطع العلاقات مع الدولة العثمانية التي دامت قروناً، وخلع الخديوي عباس الثاني، وتنصيب السلطان حسين كامل تحت الحماية البريطانية. سئم الشعب المصري من الاحتلال بعد نحو اثنتين وثلاثين سنة وتطلع إلى ألمانيا باعتبارها المنقذ المحتمل. شجعت مثل هذه الآمال الانتصارات الألمانية على القوات البريطانية في الجبهة الغربية، كمعركة مونس في بلجيكا (23-24 أغسطس 1914). وخشيت السلطات البريطانية من الأنشطة التخريبية للجواسيس الألمان والترك، وانتفاضة الوطنيين المصريين، وأعمال شغب تقوم بها الجماهير "المستثارة" بدوافع دينية[26].

أقنع الوصول المفاجئ لآلاف الجنود الأجانب السكان المحليين بأن الموقف البريطاني قوي إلى حد يستحيل تحديه. طوقت معسكرات التدريب الأسترالية والنيوزيلندية مدينة القاهرة بعشرات الآلاف من الفرسان والمشاة وأثارت تدريباتهم ومناوراتهم غبار الصحراء. ومن أجل التأثير في أهالي القاهرة، الذين ربما لم يشاهدوا الجنود في المناورات والتدريبات

داخل معسكراتهم في الضواحي، أمرت السلطات البريطانية الجنود الواصلين حديثاً بالقيام باستعراضات في قلب المدينة. "قمنا بمسيرة عظيمة عبر شوارع القاهرة المتعرجة قبل بضعة أيام، اخترقنا بها أحياء المدينة القديمة على امتداد أميال من الأزقة والحارات ومساكن الفقراء بروائحها النتنة"، حسبما كتب الجندي في سلاح الفرسان غوردون هاربر (من كانتربري، نيوزيلندا) في رسالة إلى الوطن. ويبدو أنه فهم الدلالة السياسية للمواكب الاستعراضية. "الهدف هو استخدام قوتنا للتأثير في الأهالي الذين احتشدوا هنا؛ نظراً إلى وجود صلة تقليدية وروحية ما زالت تربطهم بالترك إلى الآن.. كان التأثير لافتاً جداً. اكتظ الطريق برجال يعتمرون الطرابيش ونساء محجبات راقبونا جميعاً بدقة دون أن يظهر على وجوههم أثر لابتسامة أو بهجة، بل أشارت ملامحهم إلى شعورهم بالذهول والصدمة من الحكم البريطاني"[27].

تحول جنود بريطانيا والامبراطورية إلى سياح في فترات الإجازة من المعسكرات. وقفوا أمام أبي الهول على الخيول والجمال لالتقاط الصور، وطاردهم باعة التحف والآثار الفرعونية المزيفة، وأغروهم بالدخول إلى متاجر في أسواق حملت لافتات تستغل روح الدعابة لدى الأستراليين والنيوزيلنديين: "أيها الأستراليون، هنا ستتعرضون للغش، لا تذهبوا إلى مكان آخر!"، أو: "نتكلم الإنكليزية والفرنسية، ونفهم الأسترالية". سرعان ما تكيفت مهنة السياحة المصرية مع الزبائن الجدد، وأعادت تسمية الفنادق والمطاعم بأسماء البلدات الأسترالية والنيوزيلندية. ومن بين الأماكن الجديدة حانة بالكلوثا وقاعة وايبوكوراو للمطالعة[28].

وفرت الأحياء المحيطة بحديقة الأزبكية المتعة للجنود الأجانب في القاهرة. تجمع الضباط في مطاعم الفنادق الفخمة وشرفاتها حول الحديقة، مثل شيبرد الشهير، والفندق الجديد، والبريستول. بينما اعتاد الجنود العاديون التردد على المقاهي والحانات المنتشرة في الدروب الجانبية الضيقة إلى الشمال من الحديقة، التي عرفت باسم "الحي الأحمر المسدود"، أو منطقة المواخير في القاهرة (حارة الوزير).

ثبت أن الحانات وبيوت الدعارة في الحي الأحمر، الحاشد بالجنود الباحثين عن الاستجمام بعيداً عن سأم الحياة في المعسكرات والتدريبات في الصحراء، بيئة قابلة للانفجار. فقد أصبح جنود الامبراطورية، الذين أضجرهم انتظار إرسالهم إلى الحرب، وأغثتهم المشروبات الكحولية الرديئة التي تباع لهم في الحانات الرخيصة، وملأ صدورهم الحقد على العاهرات اللاتي نقلن إليهم الأمراض الجنسية (التي لم يكن يتوفر علاج لها في تلك الأيام)، يشكلون تهديداً للقانون والنظام كلما طالت مدة إقامتهم في القاهرة[29].

ارتكب الجنود الأستراليون والنيوزيلنديون في وسط القاهرة أعمالاً مخلة بالأمن في مناسبتين على الأقل عام 1915. ففي عشية المغادرة إلى غاليبولي في أبريل ومرة أخرى في يوليو من السنة نفسها، هاجم الجنود السكارى مواخير الحي الأحمر. قدمت أسباب مختلفة لاندلاع العنف: اتهام الجنود للعاهرات بالسرقة، أو السعي للانتقام منهن جراء عدوى الأمراض الجنسية، أو حتى الزعم بتعرض جندي ماوري (من سكان نيوزيلندا الأصليين) لاعتداء عنصري. في المناسبتين كلتيهما، دمر الجنود الممتلكات الشخصية للبغايا، ورموا الملاءات والأثاث من النوافذ. أما الخزن الكبيرة التي يصعب رميها فقد نقلت إلى سطوح المباني المؤلفة من خمس طبقات وقذفت من هناك إلى الشارع. بينما كومت الحشود المتجمعة لمشاهدة ما يحدث الأثاث وأشعلت به النار. سرعان ما انتشرت الحرائق في المباني المشرفة على الأزقة الضيقة[30].

في أبريل 1915، حين أرسلت السلطات البريطانية خيالة الشرطة العسكرية لاستعادة النظام، واجهت حشداً غوغائياً من الجنود السكارى والغاضبين الذين رفضوا طاعة الأوامر. "قذفوا كل شيء في متناولهم على الشرطة: أباريق، قطع الأثاث.." كما ذكر شاهد عيان. أطلقت الشرطة رشقات تحذيرية فوق رؤوس المحتجين قبل أن تسدد عليهم. "سقط أربعة أو خمسة منهم، لكن استمر الآخرون في مواجهة الشرطة (وهي على بعد خمسة أمتار) كأنما لم يحدث شيء". أرسلت عربات المطافئ لإخماد النيران. وحين وجهت الخراطيم إلى الجنود العصاة، هاجموها، وعطلوها. عند هذه النقطة، استدعي الجنود البريطانيون إلى المشهد واتخذوا مواقع لإطلاق النار في نسق ثلاثي. "وقفوا في الصف الخلفي، وجثوا في الثاني، وانبطحوا

في الأمامي. حذر الضابط قائد العملية حشد المتمردين في الشارع بأنه سيأمر بإطلاق النار إذا لم يتفرقوا في الحال"، كما روى شاهد آخر. "لا يرغب أحد في مواجهة ثلاثة صفوف من الجنود وهو أعزل". تفرق الحشد في الساعة الثامنة مساء تقريباً، بعد أن جرح خمسة من الجنود الأستراليين والنيوزيلنديين، واعتقل خمسون آخرون. لم تذكر التقارير البريطانية أي خسائر للمصريين في اضطرابات أبريل، مع أن عدة بيوت أحرقت وسويت بالأرض. لكن عدداً أكبر من البيوت أحرقت في أحداث الشغب التي وقعت في يوليو 1915 [31].

فيما يتعلق بسكان القاهرة، أسهمت هذه الاضطرابات الخطرة في تفاقم حالة العداء تجاه جنود الكومنويلث -والاحتلال البريطاني الذي جلبهم إلى مصر. عبر السياسي المصري المحنك أحمد شفيق، في روايته عن أحداث الشغب في الحي الأحمر، عن رعبه من الجنود الذين وقفوا متفرجين دون أن يتدخلوا بينما يشعل رفاقهم النار في بيوت الدعارة، وعن استيائه من الأستراليين والنيوزيلنديين الذين لم يظهروا اهتماماً يذكر بحياة النساء داخلها. واختتم بالقول: "ولقد بدت من الأستراليين أمور لو وقعت في غير أيام الحرب لأشعلت نيران فتنة كبرى. كما أن أموراً شنيعة ارتكبها هذا النفر من الجند في بعض أحياء القاهرة الآهلة وفي رابعة النهار ترتعد لها الفرائص هلعاً". كما أشار إلى أنهم "عاملوا الأهالي بقسوة واحتقار"[32].

أدى تدفق جنود الامبراطورية إلى زيادة توتر الوضع في مصر بدلاً من جعل الأمور أكثر استقراراً. لكن الشعب سوف يستمر في أداء دور المضيف للقوات البريطانية والامبراطورية لسنوات قادمة. فقد شكل وطنه محطة مهمة لتجميع الجنود، وتدريبهم، وإرسالهم إلى ميادين القتال في مصر وغاليبولي وفلسطين في حملات ستتواصل حتى نهاية الحرب. كما تحول الميناءان الشماليان في الإسكندرية وبورسعيد إلى قاعدتين بحريتين مهمتين للسفن البريطانية والفرنسية وهي تؤكد سيطرتها المطلقة على شرق المتوسط.

* * *

بعد دخول العثمانيين الحرب في نوفمبر 1914، فرضت بريطانيا وفرنسا حصاراً بحرياً على ساحل بحر إيجة، من ميناء ده ده أغاتش في تراقيا (بلدة الكساندروبولي في شمال شرق

اليونان حالياً) إلى جزيرة ساموس، جنوب ميناء سميرنا التركي (إزمير حالياً). تألف أسطول الحلفاء المشترك، الذي عرف باسم أسطول شرق المتوسط، حين بلغ كامل قوته من ثماني عشرة بارجة، وأربعين مدمرة، وخمسة عشر زورق طوربيد، واثنتي عشرة غواصة، وعشرين سفينة للمياه الضحلة مزودة بمدافع ثقيلة (اشتهرت بعدم صلاحيتها للإبحار). اتخذ الأسطول قاعدة له في ميناء مودروس (على جزيرة ليمنوس المتنازع عليها) على بعد نحو خمسين ميلاً من الدردنيل[33].

عند اندلاع النزاع الأوربي، كانت الدفاعات البحرية العثمانية عتيقة الطراز وغير كافية. وبعد وقت قصير من عقد التحالف السري بين الألمان وتركيا الفتاة في 2 أغسطس، بدأت السفن الألمانية نقل الرجال والمعدات والمواد الحربية إلى الدردنيل لتعزيز المضائق. لكن عرقل عملها قصف الحلفاء للدردنيل في 3 نوفمبر 1914، الذي دمر معظم حصن سد البحر عند مدخل المضائق. ضاعف العثمانيون والألمان جهدهم. حيث صمم مئات المهندسين والجنود الألمان وأقاموا بطاريات جديدة على السواحل الأوربية والآسيوية، ونصبوا مدافع قوية لردع السفن ومنعها من دخول الممر المائي الاستراتيجي. رست السفينة الحربية العتيقة "المسعودية" (بنيت عام 1876 لكن زودت بمدافع ثقيلة) داخل الدردنيل ووجهت مدافعها إلى البحر المفتوح. زرعت السفن التركية مئات الألغام في صفوف منتظمة امتدت جنوباً من المضائق عند شناق قلعة وشملت مدخل البحر الأسود إلى البوسفور في الشمال. كما وُضعت أنوار كاشفة قوية على الأراضي الداخلة في البحر لكشف السفن في الليل، ونصب نظام للإشارات البرقية اللاسلكية من طراز ماركوني لتوفير الاتصالات الحديثة بين المواقع العسكرية.

ركز العثمانيون أسطول البحر المتوسط في الدردنيل لحماية عاصمتهم من هجوم للحلفاء. بينما نشرت السفينتان الحربيتان الألمانيتان (*Breslau*) و(*Goeben*)، اللتان انضمتا إلى الأسطول العثماني في أغسطس 1914، في البوسفور لحماية إسطنبول من الشمال ومهاجمة الموانئ وسفن النقل الروسية في البحر الأسود. وبحلول الوقت الذي دخلت فيه تركيا الحرب في نوفمبر، أصبح البوسفور والدردنيل أفضل تحصيناً وأكثر قدرة على الصمود في

وجه الهجمات البحرية. لكن أدرك العثمانيون والألمان أن المضائق ليست منيعة على الاختراق. وذكر الأدميرال الألماني المشرف على العمل في ديسمبر 1914 أن أسطولاً قوياً للحلفاء ما زال قادراً باعتقاده على اختراق دفاعات الدردنيل بعد خسارة أربع أو خمس سفن[34].

مثّل المشاة العثمانيون الرادع النهائي ضد أي هجوم للحلفاء على إسطنبول. واعتقد العثمانيون والألمان معاً أن الحلفاء بحاجة إلى جيش بري من أجل احتلال إسطنبول -إذ لا يستطيعون ذلك بالقوة البحرية وحدها. وفي سبيل تأمين العاصمة والمناطق الداخلية خلفها، ركز العثمانيون الجزء الأكبر من جيشهم في المضائق وتراقيا. وأمكن لهم التباهي بقوة تقارب 250.000 جندي، تشمل الجيش الأول (160.000 رجل) الذي يضم في صفوفه أكثر الجنود خبرة وتمرساً، والجيش الثاني (80.000 رجل) -أي نصف القوات المسلحة التي حشدت في نوفمبر 1914- للدفاع عن العاصمة ضد أي عملية إنزال لدول الوفاق[35].

ومع محاصرة البحرية العثمانية في المضائق، أصبحت البلدات العثمانية على ساحل بحر إيجة والبحر الأسود معرضة لخطر شديد ومكشوفة أمام هجوم الحلفاء. أعاقت سفن الوفاق في البحرين كليهما النشاط الاقتصادي وخطوط المواصلات. كما قصفت السفن الروسية ميناء طرابزون على البحر الأسود في 17 نوفمبر 1914، فنشرت الهلع وألحقت "أضراراً جسيمة في الأرواح والممتلكات"، وفقاً للقنصل الأميركي الذي شهد الهجوم. وبين نوفمبر 1914 ومارس 1915، هاجم الروس طرابزون ست مرات، فأغرقوا السفن، ودمروا المدينة، ودفعوا السكان إلى البحث عن ملجأ في المناطق الريفية المحيطة. شمل القصف أيضاً مناجم الفحم التركية في زنغولداك بهدف قطع مصدر طاقة حيوي للسفن التركية والألمانية. في بحر إيجة، فتحت السفن البريطانية والفرنسية النار على ميناء إزمير، حيث "علق" عدد من السفن التجارية جراء الحصار. ورداً على ذلك كله، استولى العثمانيون على ثلاث سفن بريطانية كجوائز حربية، وأغرقوها عند مدخل الميناء لمنع وصول أي سفينة حربية للحلفاء. ما ترك ست سفن بخارية أخرى للولايات المتحدة، واليونان، وبلغاريا، وهولندا، وألمانيا محاصرة داخله طوال أمد الحرب[36].

خشي العثمانيون على أمن خطوطهم الحديدية في منطقة كيليكيا الساحلية، حيث تحاذي حدود الأناضول التركية الأراضي السورية. إذ لعبت السكك الحديدية مع إغلاق جميع خطوط المواصلات البحرية دوراً مهماً على نحو خاص لنقل الجنود، والمواد الحربية، والمؤن من الولايات والمقاطعات إلى الجبهة -في القوقاز، والرافدين، وسوريا. في بداية الحرب، لم توجد دفاعات بحرية تحمي مرفأ مرسين، الذي ارتبط بسكة حديد بغداد عبر أضنة المجاورة. استخدمت سكة حديد مرسين-أضنة لنقل نحو 16.000 جندي، إضافة إلى شحنة كبيرة من الذخيرة، عند نهاية نوفمبر 1914، كما ذكرت التقارير. وأجبر العثمانيون، حين عجزوا عن نشر أي قوة رادعة لسفن الحلفاء، على القبول بمهانة اقتحام السفن الحربية الفرنسية مرسين متى أرادت وقصف السفن في الميناء وتدميرها أيضاً[37].

جسد خليج الاسكندرونة، إلى الشرق من مرسين، نقطة تقاطع أخرى للخطوط الحديدية والمواصلات البحرية. بلغت سكة حديد بغداد ساحل البحر المتوسط عند هذه النقطة، مع أن الخط بقي عام 1914 معزولًا عن أضنة جراء الأنفاق غير المكتملة في جبال طوروس، وعن حلب بسبب الأعمال المستمرة في جبال أمانوس. عنى ذلك كله أن على المسافرين والشحنات مغادرة القطارات واستخدام الطرقات العادية التي تلتف حول العقبات الجبلية لاستئناف الرحلة من الجانب الآخر للأنفاق غير المكتملة. وعلى الرغم من هذه الصعوبات كلها، بقيت الاسكندرونة نقطة عبور مهمة لعشرات الآلاف من الجنود الأتراك بين سوريا والرافدين والأناضول.

في ديسمبر 1914، دخل الطراد الإنكليزي الخفيف (HMS *Doris*) خليج الاسكندرونة لقصف الخط الحديدي من البحر. وفي صبيحة الأحد 20 ديسمبر، فتح النار بالقرب من قرية دورتيول. "أطلقت القذائف واحدة إثر الأخرى على السكة الحديدية. وتقدمت السفينة ببطء على الساحل نحو الاسكندرونة"، كما ذكر معاون القنصل الأميركي في المدينة هـ. إي. بيشوب. وبعد الظهر بقليل، دخلت ميناء الاسكندرونة رافعة راية بيضاء وأرسلت زورقاً إلى الشاطئ يحمل إنذاراً إلى المسؤولين. طالب القبطان البريطاني، بعد الإشارة إلى أن الخطوط الحديدية استخدمت لنقل الجنود العثمانيين إلى الجبهة حيث هددت القوات

البريطانية (ولاسيما في بلاد الرافدين)، بأن تسلم السلطات العثمانية جميع معدات السكك الحديدية والمواد الحربية إلى كتيبة عسكرية بريطانية ستنزل إلى البر لتدميرها. وإذا رفضت السلطات الامتثال، فإن الطراد سيقصف جميع المرافق الإدارية والحديدية والبحرية بمدافعه الثقيلة. وأي خسائر في صفوف المدنيين سوف تقع على عاتق السلطات العثمانية، بعد أن أخلى البريطانيون مسؤوليتهم وفقاً لالتزاماتهم بمعاهدة لاهاي لعام 1907، عبر تقديم إنذار صريح قبل إطلاق النار على الميناء غير المحصن[38].

كان جمال باشا، أحد ثلاثي تركيا الفتاة الحاكم، قد تولى للتو مهمته الحربية الجديدة بوصفه حاكماً لسوريا. وحين تلقى خبر الإنذار البريطاني من قائد منطقة الاسكندرونة، رد تلقائياً بتهديد معاكس. رفض تسليم ما طلبه قبطان الطراد. ولأن الأمة في حالة حرب، رأى أن من حق البريطانيين إطلاق النار على المباني الحكومية. لكن، مقابل كل مبنى حكومي يتضرر جراء قصف البحرية البريطانية، هدد بالانتقام على الفور بتدمير عدد مماثل من الممتلكات والمؤسسات الإنكليزية في سوريا، بل صعد الموقف بإبلاغ القبطان البريطاني بأن عشرات الرعايا البريطانيين اعتقلوا في سوريا منذ اندلاع الحرب. وهدد الآن بإطلاق النار على مواطن إنكليزي مقابل كل مواطن عثماني يقتل في أي عمل عدائي من الطراد ضد مدينة الاسكندرونة.

فاقم رد جمال باشا المستفز حادثة الاسكندرونة إلى أزمة كاملة تمكنت الدبلوماسية الأميركية من نزع فتيلها. كانت الولايات المتحدة ما تزال قوة حيادية في الحرب العظمى (بقيت كذلك حتى أبريل 1917)، وحظيت بعلاقات ودية مع الدولة العثمانية. وافق الأميركيون على تمثيل مصالح قوى الوفاق لدى السلطنة. وبدا أن البريطانيين والعثمانيين قد قبلوا بالوساطة الأميركية لإخراجهم من مأزق الإنذار والتهديدات بالرد الانتقامي.

ضمن نائب القنصل الأميركي بيشوب بعد الاتصال مع المسؤولين الأتراك والألمان في الاسكندرونة، مهلة لمدة أربع وعشرين ساعة للتفاوض على حل. ولأن جمال باشا لم يكن راغباً في إخلاء المدنيين من الاسكندرونة، أمل الحاكم المحلي بتجنب القصف مهما كان الثمن. بينما أبدى القبطان البريطاني من جانبه اهتماماً شديداً بتفادي الرد الانتقامي

وقتل الرعايا البريطانيين. أبلغ بيشوب قبطان الطراد "عدم وجود جنود في الاسكندرونة، ووفقاً.. لمسؤولين محليين فإن ذخائر الحرب كلها قد نقلت إلى المناطق الداخلية" (لاحظ سراً أنه اكتشف لاحقاً "وجود ذخائر حربية أخرى في ذلك الوقت هناك"). واقترح إمكانية إقناع العثمانيين بتدمير قاطرتين، "المعدات الحربية الوحيدة الموجودة في الاسكندرونة" ظاهرياً، ما يمكن أن يلبي مطلب مهمة الطراد بقطع المواصلات العسكرية.

"بعد التشاور بين ضابط من السفينة، وحاكم المدينة، وكاتب السطور، تقرر نقل القاطرتين إلى مكان مفتوح وتفجيرهما في حضور ممثل عن السفينة وعني"، كما ذكر بيشوب فيما بعد. وفر الطراد المتفجرات الضرورية للمهمة، وانطلقت مجموعة من أربعة مسؤولين -نقيب عثماني، ورئيس الميناء، وضابط صف من الطراد، ونائب القنصل الأميركي- في الساعة 9:30 مساء لمراقبة عملية تدمير القاطرتين المهجورتين. فجرت العبوات، "دون إصابة أحد لحسن الحظ"، وبعد تفتيشهما أعلن عن "إلحاق أضرار كافية بهما لمنع استخدامهما في مزيد من العمليات". اختتم بيشوب تقريره بشيء من الدعابة: "في الساعة 10:45 وصلنا مرة أخرى إلى رصيف السكة الحديدية حيث أبلغ قائد المجموعة البريطانية التي نزلت على الشاطئ كاتب السطور أن قبطان السفينة عبر عن شكره للعملية المنصفة، وركب البريطانيون السفينة البخارية وغادروا، وأقفلت القضية".

أظهر البريطانيون مزيداً من الاستعراضات الفتاكة لسيادتهم على البحار وتضلعهم من الحرب البحرية حين أرسلوا غواصة لإغراق "المسعودية" وهي راسية في الدردنيل. ففي صباح يوم أحد استثنائي في صفائه وهدوئه من شهر ديسمبر، تمكنت غواصة بريطانية من الإبحار مسافة أربعة أميال وسط الألغام البحرية دون أن تكتشف، لتطلق طوربيداً على مقدمة السفينة الحربية العثمانية العتيقة "المسعودية". وفي الساعة 11:55 صباحاً، دوى انفجار رهيب أصاب السفينة وغلفها بغلالة من الدخان. ومع انقشاع الدخان، أطلقت صليتين من مدافعها الثقيلة في رد عشوائي أعمى على الغواصة المهاجمة الخفية، قبل أن يمنعها ميلانها من الاستمرار. وفي رجة مفاجئة، انقلبت السفينة الحربية العثمانية، ثم غرقت في أقل من سبع دقائق وفقاً لأحد شهود العيان. ونظراً إلى رسوها في مياه ضحلة قرب الشاطئ،

رقدت على القعر وبقي معظم هيكلها مكشوفاً. تشبث عشرات البحارة بمرابض المدافع والمعدات على الهيكل، وأرسلت القوارب من الشاطئ لإنقاذ الناجين. استمرت العملية حتى وقت متأخر من الليل بينما حفر المهندسون نوافذ للنجاة عبر الهيكل. وذكر أن عدد ضحايا الهجوم راوح بين خمسين ومئة[39].

أصيبت السلطات العثمانية بصدمة مروعة جراء نجاح الغواصة المعادية في تفادي حقول الألغام البحرية الواسعة والخسارة المفاجئة لسفينة حربية رئيسة. "كان إنجازاً قوياً وذكياً"، كما اعترف بمرارة نائب الأدميرال يوهانس ميرتن، الضابط الألماني المسؤول عن قيادة الدفاعات في الدردنيل. لكن الأهم أن الهجوم على "المسعودية"، بالاقتران مع عمليات القصف السابقة على المواقع العثمانية في الدردنيل، شكل تحذيراً للعثمانيين بأن الحلفاء يستعدون للقيام بحملة أكبر على المضائق[40].

* * *

بعد شهرين من الحرب، توضحت لدول الوفاق والقوى المركزية على حد سواء حقيقة ضعف السلطنة العثمانية وانكشافها أمام الخطر. أثبت الترك عجزهم عن الدفاع عن حدودهم كلها ضد الهجمات، ونظراً إلى الامتداد الإقليمي الواسع لها، لم يعد من المنطقي توقع قدرتهم على ذلك. فقد أجبروا على التراجع في كل جهة: في القوقاز، والبصرة، واليمن، وبحر إيجة، وكيليكيا. استولى الروس على أراض في الأناضول، بينما جرد البريطانيون العثمانيين من ولايتهم المصرية ذات الاستقلال الذاتي، وطردوهم من الخليج العربي، وضمنوا تفوقاً بحرياً كاملاً في البحر الأحمر وفي المتوسط (بالشراكة مع الفرنسيين). ومع وصول عشرات الآلاف من جنود الامبراطورية إلى مصر كل شهر، من أستراليا، ونيوزيلندا، والهند، والحضور المتزايد في بحر إيجة، كانت قوى الوفاق تبني موقعاً منيعاً يتعذر تهديده ضد العثمانيين.

قرر العثمانيون، تحت الضغط الألماني المتزايد التحول من الدفاع إلى الهجوم. كانوا بحاجة إلى انتصارات لرفع الروح المعنوية لجنودهم ومواطنيهم على حد سواء. ولم يختبروا بعد على أرض الواقع دعوة السلطان إلى الجهاد.

5

بدء الجهاد: الحملات العثمانية في القوقاز وسيناء

في الأسابيع الافتتاحية من الحرب، أصيب العثمانيون بسلسلة من الهزائم الثانوية على التخوم الطرفية لامبراطوريتهم المترامية. لكن جيشهم بقي سليمًا معافى، ولم يلعبوا بعد بورقة الجهاد الجامحة ضد الحلفاء. في الحقيقة، اعتقد كثيرون في القيادة الألمانية العليا بأن أعظم إسهام للعثمانيين في مجهودهم الحربي لن يأتي من الجيش التركي، بل من الانتفاضات الداخلية التي سوف تستفزها الأعمال الحربية العثمانية بين المسلمين الخاضعين للحكم الاستعماري الفرنسي في شمال إفريقيا، والبريطاني في مصر والهند، وللروس في القوقاز وآسيا الوسطى. وعلى أقل تقدير، قد يجبر تهديد مثل هذه الثورات الداخلية قوى الوفاق على نشر جنود في آسيا وإفريقيا للحفاظ على الأمن في أراضيها الإسلامية، ما يخفف الضغط على الألمان في الجبهة الغربية والألمان والنمساويين على الجبهة الشرقية.

زاد هذا الضغط واشتد منذ أواسط سبتمبر 1914. فقد أوقف الهجوم المعاكس المنسق الفرنسي-البريطاني على المارن (5-12 سبتمبر) الحركة الحربية الألمانية، وأدى إلى حرب خنادق. ترك الشلل في أوربا الغربية الألمان يخوضون حرباً على جبهتين، بينما استهدفت الخطط الحربية الألمانية تحقيق نصر سريع في فرنسا، لتحرير الجيش الألماني من العبء وتخفيف الضغط على النمسا، قبل أن يرمي بكامل ثقله ضد روسيا. احتاج النمساويون إلى المساعدة الممكنة كلها على الجبهة الشرقية. في أغسطس وسبتمبر 1914، أصيبت

الامبراطورية النمساوية-الهنغارية بهزائم حاسمة أمام الصرب في البلقان، والروس في مقاطعة غاليسيا النمساوية-الهنغارية الشرقية. بلغت الخسائر النمساوية في غاليسيا وحدها 350.000 رجل. ومع ترنح النمسا، بدأ المخططون الحربيون الألمان الضغط على حلفائهم العثمانيين لاستهلال الأعمال العدائية ضد بريطانيا وروسيا[1].

ألح الألمان على حلفائهم العثمانيين بمواجهة الروس والبريطانيين في الأماكن التي توفر أكبر عون للمجهود الحربي الألماني-النمساوي. اقترح الجنرال ليمان فون ساندرز، قائد البعثة العسكرية الألمانية في تركيا، إرسال خمسة فيالق من الجيش العثماني (نحو 150.000 جندي) عبر البحر الأسود إلى أوديسا لتخفيف الضغط على المواقع النمساوية في غاليسيا، وحصر القوات الروسية بين النمساويين والترك. بينما فضلت برلين حملة ضد المواقع البريطانية على طول قناة السويس، لقطع خطوط المواصلات الامبراطورية البحرية واستغلال حالة العداء المصري للاحتلال البريطاني. أمل القيصر وكبار قادته العسكريين أن يتمكن العثمانيون عبر تسديد مثل هذه الضربات الجريئة ضد قوى الوفاق من تحفيز المسلمين في شتى أرجاء آسيا وإفريقيا، وحثهم على تلبية دعوة السلطان-الخليفة إلى الجهاد[2].

كانت للاتحاديين الشباب من أعضاء تركيا الفتاة أجندتهم الخاص، ورغبوا باستخدام الحرب لاستعادة الأراضي التي خسروها في مصر وشرق الأناضول. إذإن مصر التي استولت عليها بريطانيا، و"الولايات الثلاث" التي احتلها الروس عام 1878 هي أراض إسلامية عثمانية. واعتقدوا واثقين بأن جنودهم سوف يقاتلون لاستعادة الأراضي العثمانية وأملوا بأن تشجع نجاحاتهم السكان المسلمين المحليين على الانتفاض ضد الروس والبريطانيين[3].

في منتصف نوفمبر 1914، دعا أنور باشا وزير الحربية العثمانية، زميله جمال باشا، وزير البحرية، إلى اجتماع سري خاص في بيته. "أريد شن هجوم على قناة السويس لإبقاء الإنكليز مكبلين في مصر، ومن ثم إجبارهم لا على ترك عدد كبير من الفرق الهندية التي يرسلونها الآن إلى الجبهة الغربية، بل منعهم من تجميع قوة لإنزالها في الدردنيل"، كما شرح. ومن أجل هذه الغاية، عرض وزير الحربية على جمال مهمة تشكيل جيش في سوريا لشن الهجوم على المواقع البريطانية في سيناء. قبل جمال المهمة بابتهاج ووعد بالانطلاق في أثناء الأسبوع[4].

في 21 نوفمبر، ركب جمال قطاراً من محطة حيدر باشا في إسطنبول ليبدأ رحلته إلى سوريا. اكتظت المحطة بأعضاء الحكومة، وكبار رجال الدولة، والسلك الدبلوماسي "لتوديع هذا الوالي المستبد المغادر وداعاً حماسياً"، حسبما ذكر السفير الأميركي هنري مورغنثو بأسلوبه اللاذع. انجرفت الحشود المتحمسة وراء مشاعرها الوطنية، وهتفت لجمال قبل الأوان باعتباره "منقذ مصر". وقبل أن ينطلق القطار بقليل، تعهد جمال لأنصاره ومؤيديه بأنه لن يرجع "إلا بعد فتح مصر". وجد مورغنثو، الذي لم يكن معجباً بأعضاء تركيا الفتاة، "الأداء برمته.. رناناً طناناً"[5].

تولى أنور باشا بنفسه قيادة الهجوم على روسيا. لم يكن مهتماً بالخطط الألمانية لعملية على الساحل الشمالي للبحر الأسود، البعيد جداً عن الحدود العثمانية. بل ركز جهده بدلاً من ذلك على "الولايات الثلاث" في شرق الأناضول التي استولت عليها روسيا. واعتقد أن عدداً كبيراً من السكان المسلمين في القوقاز سوف يرحبون بحماس بأي هجوم عثماني. فضلًا عن ذلك كله، رأى أن القوات التركية تمكنت من تقييم جيش القوقاز الروسي واختباره. إذ إن الروس هم الذين بدؤوا الأعمال العدائية ضد الترك على حدود القوقاز. بينما هيج النجاح الأخير في رد الروس على أعقابهم في كوبروكوي طموحات أنور باشا. في 6 ديسمبر، زار أنور ليمان فون ساندرز ليبلغه بأنه سيبحر تلك الليلة إلى ميناء طرابزون على البحر الأسود لقيادة هجوم على حدود القوقاز. ومثلما تذكر ليمان: "حمل أنور خريطة بيده ورسم موجزاً للعمليات التي سيقوم بها الجيش الثالث. أراد مواجهة الروس وإيقافهم على الطريق الرئيس بفيلق واحد، الحادي عشر، بينما يزحف فيلقان، التاسع والعاشر، على يسارهم ويعبران الجبال من عدة جهات ثم يهاجمان الجناح الروسي والمؤخرة بالقرب من ساريكاميش. بعد ذلك يستولي الجيش الثالث على قارص". كانت الخطة التي أوجزها أنور حاشدة بالمخاطر. إذ تضعف التضاريس الجبلية والطرق غير الكافية تحركات القوات، وخطوط الإمداد والمواصلات. وحين عبر ليمان عن قلقه، أصر أنور على أن هذه القضايا "قد جرى التفكير فيها ملياً، وأن الطرقات استطلعت كلها"[6].

وفي ختام اللقاء مع ليمان، استغل أنور أعمق آمال برلين من الجهاد العثماني. ومثلما سجل الجنرال الألماني "عبر أنور عن أفكار خيالية، لكنها جديرة بالملاحظة. أبلغني أنه يفكر في الزحف عبر أفغانستان إلى الهند، ثم غادر". لم يضع ليمان فرص نجاح أنور في مرتبة متقدمة جداً، لكنه لم يرغب في اعتراضه.

انطلق اثنان من ثلاثي تركيا الفتاة الحاكم لقيادة أولى الحملات العثمانية البرية ضد قوى الوفاق. ربما كانت فرصة النجاح متاحة لو ركزا الجهد على حملة واحدة. لكن الاندفاع المتهور لهزيمة اثنتين من القوى العظمى دون استعداد كاف حوّل كلاً من الحملتين إلى إخفاق كارثي.

* * *

أبحر أنور باشا من إسطنبول إلى طرابزون، فوصلها في 8 ديسمبر، ثم شق طريقه براً إلى مركز قيادة الجيش العثماني الثالث في بلدة أرضروم، القاعدة العسكرية، برفقة اثنين من أقرب مستشاريه الألمان، الكولونيل بول برونسارت فون شيليندورف، والميجور أوتو فون فيلدمان. اشتكى كثيرون في القيادة العثمانية العليا من نفوذ الألمان وتأثيرهم المفرط في ناظر الحربية. وفي الحقيقة، يمكن اقتفاء الخطوط العريضة لخطة أنور الجسورة لهزيمة جيش القوقاز الروسي لدى مستشاريه الألمان.

في أواخر أغسطس 1914، أنجزت القوات الألمانية عملية التفاف مثالية لتطويق الروس في تانينبرغ (بروسيا الشرقية). فبينما اشتبك الألمان مع القوات الروسية على طول خط الجبهة، أرسلوا مشاتهم ومدفعيتهم عبر الطرق البرية والسكك الحديدية للالتفاف حول الجناح الأيسر للروس؛ ما أدى إلى قطع خطوط الإمداد والمواصلات ومحاصرة جنود القيصر. وحين أدرك الروس الخطر المحدق بهم، كان الوقت قد فات. دمر الألمان الجيش الروسي الثاني، وأوقعوا فيه 30.000 إصابة، وأخذوا 92.000 أسير، فيما سيثبت أنه أكثر الانتصارات الألمانية اكتمالًا في الحرب العالمية الأولى. أمل أنور بتبني الأسلوب التكتيكي الألماني لقيادة الجيش العثماني لتحقيق انتصار مماثل ضد القوات الروسية في القوقاز[7].

صنع أنور، المعروف باندفاعه وحبه المجازفة، مجده المهني عبر اتخاذ مبادرات جسورة وخطرة. كان قائداً تاريخياً لثورة عام 1908، ومهندس الجهاد بقيادة العثمانيين في ليبيا (1911)، وقائد هجوم عام 1913 على الباب العالي الذي أجبر رئيس الوزراء على الاستقالة تحت تهديد السلاح، و"محرر أدرنة" في حرب البلقان الثانية. آمن بالأفعال لا بالأقوال ولم يكن لديه شك في آرائه وأحكامه وقدراته. اعتقد دون لبس بأنه يستطيع قيادة جيش لتحقيق انتصار على الروس، وأن مثل هذا النصر سيمنح المجهود الحربي العثماني أعظم المكاسب والمنافع. ولن يكتفي الترك باستعادة الأراضي التي خسروها للروس عام 1878، بل سيحبطون مزيداً من المطامح الروسية في الأراضي العثمانية -ولا سيما في مضائق إسطنبول. ومثلما اقترح أنور أمام ليمان فون ساندرز، سوف يطلق انتصار مجيد في الساحة المشاعر الحماسية الإسلامية في آسيا الوسطى من عقالها، ويفتح الطريق إلى أفغانستان والهند.

شكك القادة العثمانيون الميدانيون في إمكانية نسخ خطة المعركة التي جرت في تانينبرغ في ذروة فصل الصيف وتطبيقها على موقع مختلف تماماً في جبال القوقاز في عز الشتاء. كانت العمليات الألمانية قريبة جداً من قواعد متخمة بالمعدات والمؤن والإمدادات، واعتمدت على الطرق والسكك الحديدية لنقل أعداد ضخمة من الجنود إلى مواقع مناسبة لاستكمال تطويق القوات الروسية في تانينبرغ. أما الطرق والدروب غير المعبدة في المرتفعات الجبلية شرق الأناضول فيستحيل عملياً على العربات استخدامها في فصل الشتاء. ومع ذرى جبلية ترتفع أكثر من 3000 متر، وثلوج قد يصل سمكها إلى 1.5 متر، ودرجات حرارة تنخفض إلى ما دون 20 تحت الصفر، لا يستطيع البقاء في هذه الظروف المعادية، فضلاً عن شن حرب ناجحة، سوى الجنود الذين تلقوا تدريباً خاصة وجهزوا بمعدات مناسبة. لكن حتى أشد المشككين من الضباط العثمانيين اعتقدوا أن أنور قائد محظوظ، وقد يتمكن من تحقيق انتصار على الروس خلافاً للتوقعات والمحاذير كلها[8].

دمج أنور صيف عام 1914 القوات العثمانية في منطقة القوقاز شرق الأناضول في الجيش الثالث، الذي يقع مركز قيادته في أرضروم. في سبتمبر، أعيد نشر الفيلق الحادي عشر من قاعدته في وان لينضم إلى الفيلق التاسع المتمركز في أرضروم، وفي أكتوبر نقل

الفيلق العاشر سراً من إرزنجان ليصبح الجيش الثالث على أتم الاستعداد للقتال. بحلول الوقت الذي وصل فيه أنور إلى أرضروم في ديسمبر 1914، بلغت القوة الإجمالية للجيش الثالث نحو 150.000 رجل (بمن فيهم الخيالة الأكراد غير النظاميين وغيرهم من المقاتلين الإضافيين). منح ذلك كله الترك قوة هجومية من 100.000 جندي لشن الحملة ضد الروس، بينما احتُفظ بالبقية قوة احتياطية لتأمين أرضروم وحدود القوقاز من بحيرة وان إلى البحر الأسود -أي قرابة ثلاثمئة ميل[9].

راجع حسن عزت باشا، قائد الجيش العثماني الثالث، خطة المعركة التي وضعها أنور ومُنح دعمه الكامل وغير المشروط للهجوم على المواقع الروسية. أكد أن رجاله بحاجة إلى معدات مناسبة للحملة الشتوية، مثل الملابس السمكية التي تقي من الجو البارد، والطعام الكافي، ومخازن الذخيرة. كانت هذه الاعتبارات اللوجستية الصائبة برأي أنور مجرد تكتيكات تؤخر الحملة من جانب قائد مبالغ في الحيطة والحذر. وضع ثقته بدلاً منه بضابط طموح اسمه حافظ حقي بك، الذي كتب لأنور في السر زاعماً أنه استطلع الطرقات والمعابر واقتنع بإمكانية استخدامها في الشتاء من قبل المشاة مع المدفعية الجبلية (مدفعية خفيفة يمكن نقلها بواسطة البغال). "القادة هنا لا يؤيدون فكرة [الحملة الشتوية] لأنهم يفتقدون الإصرار والعزيمة والشجاعة"، كما كتب إلى أنور. "لكن سأتولى هذه المهمة إذا عدلت رتبتي بما يناسبها"[10].

حين وصل أنور لشن الحملة، قدم حسن عزت باشا استقالته من قيادة الجيش الثالث. لم يعتقد ببساطة بإمكانية نجاح الحملة دون معدات ومؤن كافية للجنود. ونظراً إلى معرفته بالمنطقة المحيطة، كانت استقالته خسارة للمجهود الحربي العثماني في القوقاز. لكن أنور فقد ثقته بالجنرال وقبل استقالته، وتسلم بنفسه قيادة الجيش الثالث في 19 ديسمبر. كما رقى الضابط الطموح حافظ حقي بك وعيّنه قائداً للفيلق العاشر. احتل مواقع المسؤولية الآن ضباط قادة ليست لديهم إلا خبرة قليلة (أو يفتقدون الخبرة كلية) بالحملات العسكرية الرسمية، ومعرفة محدودة جداً بالتضاريس الخطرة، حين أصدر أنور أوامره لشن الهجوم

المصيري على ساريكاميش (المحطة الأخيرة في السكة الحديدية الروسية) الذي تقرر أن يبدأ في 22 ديسمبر.

* * *

مع انطلاق حملة أنور في شرق الأناضول، وجد الأرمن أنفسهم على خط الجبهة، وولاؤهم مقسم بين الامبراطوريتين الروسية والعثمانية. في عام 1878، كان جزء كبير من السكان الأرمن في الولايات الثلاث، قارص وأرداهان وباطوم، قد انتقل من الحكم العثماني إلى الروسي. وبينما ثبت أن الحكومة القيصرية ليست أكثر قبولاً بمطامح الانفصاليين الأرمن من الترك، استغلت سان بطرسبرغ الهوية المسيحية المشتركة (على الرغم من الانقسامات العقدية العميقة بين الأرثوذكس الأرمن والروس) في محاولة لتأليب الأرمن على الترك المسلمين.

ثمة نوع من التناظر بين السياسة الدينية الروسية والتركية في القوقاز، حيث أملت الحكومة القيصرية بتحريض انتفاضة مسيحية ضد الترك، مثلما سعى العثمانيون إلى استغلال التضامن الإسلامي لتحفيز الجهاد بين مسلمي القوقاز ضد روسيا. وكان المجلس الوطني الأرمني قد عمل في القوقاز الروسية بشكل وثيق مع الحكومة القيصرية، حتى قبل اندلاع الحرب، لتجنيد أربعة أفواج من المتطوعين لمساعدة الروس على غزو الأراضي العثمانية. أقر المسؤولون القنصليون الروس والاستخبارات العسكرية الروسية بأن مثل هذه الوحدات من المتطوعين الأرمن سوف تشجع المسيحيين العثمانيين على مساعدة أي غزو روسي، وفي سبتمبر 1914 وقع وزير الخارجية سيرغيي سازونوف أوامر بتهريب أسلحة روسية إلى الأرمن العثمانيين قبل دخول تركيا الحرب كما هو متوقع. عبر عدد من وجهاء الأرمن العثمانيين البارزين الحدود للانضمام إلى المجهود الحربي الروسي، مع أن معظمهم أحجم خوفاً من أن تؤدي مشاركتهم في مثل هذه الأفواج إلى تعريض سلامة المدنيين الأرمن تحت الحكم العثماني للخطر[11].

أبقى المسؤولون العثمانيون أرمن شرق الأناضول تحت مراقبة عيونهم الساهرة طوال أشهر صيف عام 1914. في يوليو وأغسطس، بينما كانت التعبئة العثمانية الحربية في أوجها، أظهر الرجال الأرمن في وان وطرابزون وأرضروم استعدادهم للقيام بواجبهم بينما بقي السكان المدنيون موالين للدولة العثمانية، وذلك وفقاً للروايات كلها. لكن ذكر الروس أن أكثر من 50.000 جندي، معظمهم من الأرمن، انشقوا عن الجيش العثماني وعبروا إلى الخطوط الروسية بين شهري أغسطس وأكتوبر 1914 [12].

في خضم حالة متفاقمة من القلق على ولاء الأرمن، عقد مسؤولون من تركيا الفتاة في أكتوبر اجتماعاً في أرضروم اقترحوا فيه تحالفاً مع الحزبين الأرمنيين القوميين، الداشناك والهنشاك. تعهد العثمانيون بإقامة إدارة أرمنية تتمتع بالاستقلال الذاتي وتضم عدة ولايات في شرق الأناضول، إضافة إلى أي أراض يتم الاستيلاء عليها من أرمينيا الروسية، مقابل مساعدة الطوائف الأرمنية في روسيا وتركيا كلتيهما ضد الروس. رفض القوميون الأرمن، مؤكدين أن على الأرمن البقاء موالين للحكومة التي يعيشون في كنفها على جانبي الحدود الروسية-العثمانية. لكن هذا الرد المنطقي غذى شكوك العثمانيين بولاء الأرمن[13].

تدهورت العلاقات بين الأرمن والترك بسرعة بعد اندلاع الحرب. ازداد عداء العريف علي رضا إتي، الذي خدم في وحدة طبية أثناء معركة كوبروكوي، للأرمن الذين قابلهم على الجبهة. وقرب نهاية نوفمبر، نشر الروس وحدات المتطوعين الأرمن في شرق الأناضول. واشتبكوا مع القوات العثمانية القادمة من وان، أحد المراكز الرئيسة للطائفة الأرمنية العثمانية، على طول نهر أراس -بغرض مقصود دون شك هو تشجيع الأرمن على الانشقاق والهرب من الصفوف العثمانية. فعل ذلك كثيرون: زعم العريف رضا أن الأرمن فروا من قطعاتهم في جماعات من أربعين أو خمسين فرداً للانضمام إلى القوات الروسية. "من الواضح أنهم سيقدمون معلومات عن مواقعنا للعدو"، كما فكر[14].

زحفت وحدة رضا في نوفمبر عبر عدد من القرى المهجورة التي نزح سكانها الأرمن إلى الجانب الروسي، وهرب سكانها المسلمون أو قتلهم الغزاة. سجل في يومياته بتاريخ 15 نوفمبر: "حين وقف الأرمن في هذه المنطقة مع الجيش الروسي أظهروا وحشية فظيعة

لهؤلاء الفلاحين المساكين". وصف المساجد المدنسة التي ألقيت فيها جيف الحيوانات وصفحات ممزقة من القرآن تذروها الرياح في الشوارع الخالية. برز الغضب من بين سطوره واضحاً جلياً[15].

مع انتشار أخبار انشقاق الأرمن وهروبهم، زاد باطراد عنف الجنود العثمانيين ضد رفاقهم الأرمن. ذكر رضا باستخفاف كيف "انطلق الرصاص" من سلاح جندي تركي وأردى رفيقاً أرمنياً. ولا يبدو أن الحادث عرضي من رواية رضا. كتب بأسلوب فاتر: "دفنا الرجل". ولم يظهر أي اقتراح بعقاب تأديبي لقتل الجندي الأرمني. لم يعد العثمانيون يعتبرون الأرمن من رفاق السلاح[16].

* * *

في الأيام السابقة على الهجوم التركي، قام أنور باشا بجولة تفقدية على جنوده. حاولت رسالة قائد الجيش الثالث إلى الجنود العثمانيين أن تكون مهدئة وواقعية. أعلن فيها: "أيها الجنود، لقد زرتكم كلكم. وجدت أنكم بحاجة إلى أحذية في أقدامكم ومعاطف على أكتافكم. ومع ذلك فإن العدو أمامكم خائف منكم. سرعان ما سنهاجم وندخل القوقاز. وهناك ستجدون كل شيء في وفرة. العالم الإسلامي كله يرقبكم"[17].

انبثق تفاؤل أنور بفرص نجاح جيشه من سلسلة من التطورات الإيجابية على جبهة القوقاز. إذ لم يعتقد الروس، مع اقتراب الشتاء بسرعة، بأن العثمانيين سيحاولون القيام بأي أعمال عدائية قبل الربيع. وانتهزوا الفرصة لإعادة نشر الفائض من جنودهم ونقلهم من القوقاز إلى الجبهات الأشد إلحاحاً، ما قلص حجم الجيش في شرق الأناضول. من ناحية أخرى، تمكن الترك من نقل الفيلق العاشر دون علم الروس. منحت عمليات تحريك الجنود هذه العثمانيين ميزة عددية تفوقوا بها على الروس، حيث واجه 100.000 جندي تركي أقل من 80.000 روسي[18].

ومع استبعاد الروس لأي حملة في الشتاء، أمل أنور بهجوم مباغت يأخذ العدو على حين غرة. وفي سبيل الحفاظ على عنصر المفاجأة، كانت القوات العثمانية بحاجة إلى التحرك بسرعة

إلى الأراضي الروسية. أمر أنور جنوده بالتخلي عن الأحمال الثقيلة والاكتفاء بالأسلحة والذخيرة مع أقل قدر ممكن من المؤن. ومع تخفيف حمل جنوده، كانت أوامره تعني أيضاً عدم نقل الوقود، أو الخيام، أو حشايا النوم، والاقتصار على نصف جراية. إذ أمل بأن يجدوا المأوى والطعام في القرى الروسية التي يستولون عليها في الطريق إلى ساريكاميش. كان شعاره: "قاعدة المؤن والإمداد أمامنا"[19].

انتشرت أغلبية القوات الروسية داخل الأراضي العثمانية، على طول القطاع الذي استولت عليه في معارك نوفمبر. كانت قاعدة الإمداد في ساريكاميش غير محمية عملياً، ولا تضم سوى حفنة من حرس الحدود، والميليشيات، وعمال السكك الحديدية، لحماية خط الإمداد والمواصلات الوحيد، إضافة إلى الممر الوحيد للتراجع عبر الأودية الجبلية إلى قارص.

كان هذا حلم أنور: إرسال قوة كبيرة للالتفاف حول ميمنة الروس لقطع الخط الحديدي والاستيلاء على بلدة ساريكاميش، وتطويق جيش القوقاز الروسي، الذي لن يجد من خيار، حين يمنع من بلوغ معبر التراجع الوحيد، سوى الاستسلام للترك. وما إن تؤمن ساريكاميش، ويدمر جيش القوقاز الروسي، يمكن للعثمانيين استعادة قارص وأرداهان وباطوم -الولايات الثلاث التي خسروها عام 1878- دون مقاومة. سوف تثير مثل هذه الانتصارات العثمانية المؤزرة السكان المسلمين في آسيا الوسطى، وأفغانستان، والهند فيما وراءها. بدا أن غزو بلدة استراتيجية واحدة تضم المحطة الأخيرة على سكة حديدية مهمة سيفتح احتمالات مشهودة أمام الامبراطورية العثمانية والقائد العام الطموح.

عين أنور باشا، في خطة المعركة التي صدرت في 19 ديسمبر، أهدافاً محددة لكل واحد من الفيالق الثلاثة (تألف من عدد راوح بين 30.000 و35.000 جندي) في الجيش الثالث. أمر الفيلق الحادي عشر بالاشتباك مع القوات الروسية على طول الجبهة الجنوبية لتشتيت انتباهها، وتوفير غطاء للفيلقين التاسع والعاشر في مناورتهما للالتفاف إلى الغرب والشمال باتجاه ساريكاميش. ووجب على الفيلق التاسع اتباع الحلقة الداخلية والهجوم على ساريكاميش من الغرب، بينما يتولى الفيلق العاشر الحلقة الخارجية، ويرسل فرقة (نحو

10.000 رجل) نحو أرداهان شمالاً وفرقتين لقطع الخط الحديدي واقتحام ساريكاميش من الشمال. تقرر أن تبدأ العمليات في 22 ديسمبر[20].

بعد فترة من الطقس الجيد أتت في غير موعدها، بدأت ثلوج الشتاء تتساقط ليلة 19-20 ديسمبر. ثم اجتاحت المنطقة عاصفة ثلجية كبرى صباح يوم 22، بينما كان الجيش الثالث يستهل عملياته. انطلق الجنود العثمانيون تحت أسوأ الظروف لإنجاز المهمات الخارقة التي وضعها لهم أنور باشا، بملابسهم الخفيفة دون معاطف مناسبة تقيهم الزمهرير، ودون أحذية تمكنهم من السير على التضاريس الوعرة، حاملين جراية هزيلة من الخبز.

افتتحت القوات العثمانية في الفيلق الحادي عشر الأعمال القتالية على طول الضفة الجنوبية لنهر أراس لتشتيت انتباه القوات الروسية عن غرب ساريكاميش، حيث خطط الفيلقان التاسع والعاشر الالتفاف على المواقع الروسية. راقب العريف علي رضا إتي من الخيم الطبية الروس وهم يردون على إطلاق النار، ويوقعون خسائر جسيمة بالعثمانيين ويجبرونهم على التراجع. ومع تراجعهم، أقلق رضا احتمال أن يأسر الروس المتقدمون وحدته الطبية.

سمع كثيراً من القصص رواها الجرحى الذين نقلوا من الجبهة عن نجاتهم بصعوبة من الروس. حين سقطت قرية يسيطر عليها الترك في قبضتهم، اختبأت جماعة من ستين جندياً عثمانياً في مخزن للتبن. اكتشفهم ثلاثة من الجنود الروس المسلمين في فيلق القوزاق، وبعد أن أثبت الترك أنهم مسلمون تركوهم في مخبئهم. قالوا لهم: "يا إخوان، حافظوا على الهدوء وانتظروا هنا. نحن نغادر الآن". لقيت مثل هذه المشاعر الأخوية بين الجنود المسلمين على طرفي خط الجبهة استحسان رضا وقبوله الكامل[21].

لكن مشاعر الأخوة المسيحية بين الأرمن والروس استمرت في إثارة غضب العريف رضا. في اليوم الأول من المعركة، شاهد جنديين عثمانيين يعبران الخطوط الروسية بينما قُتل ثالث في المحاولة. وجّه الجنود الترك اللوم إلى الأرمن لا بسبب الانشقاق فحسب بل تزويد الروس بمعلومات استخبارية عن مواقع العثمانيين وأعدادهم. "أليس من الطبيعي

أن يحصل الروس على معلومات من الأرمن الذين يهربون من الجيش كل يوم؟"، كما فكر بمرارة. "أتساءل ماذا سنفعل بالأرمن بعد الحرب؟"[22].

واجه الجنود الأرمن في صفوف الجيش العثماني وضعاً لا يحتمل. فقد جندهم الأرمن المقاتلون إلى جانب الروس وعرفوا أن حياتهم في خطر طالما بقوا بين الجنود العثمانيين الذين كانت ريبتهم تتحول إلى رغبة في القتل. ذكر رضا أن بين ثلاثة وخمسة أرمن يقتلون يومياً في كل كتيبة "جراء حادث عرضي". وأضاف متأملاً: "إذا استمر الوضع على حاله لن يبقى أي أرمني في الكتائب بعد أسبوع"[23].

واجه الفيلق الحادي عشر مقاومة شرسة من الجنود الروس. كان خط الجبهة طويلاً جداً على الترك بحيث لم يتح لهم سوى شن هجوم متواضع على أي نقطة فيه، ولم يقتصر الأمر في الأيام الأولى من الهجوم على فشل مسعاهم لدفع الروس إلى شمال نهر أراس فحسب، بل اضطروا إلى التقهقر نحو قاعدتهم في كوبروكوي. ومع أن خسائرهم تزايدت، فإن الفيلق الحادي عشر نجح في اجتذاب نيران الجنود الروس، ما شتت انتباههم ووفر الغطاء الضروري للفيلقين التاسع والعاشر لتنفيذ عملية الالتفاف. لقد حقق هذان الفيلقان نجاحات مشهودة في الأيام الافتتاحية من الحملة.

انطلق الفيلق العاشر، بقيادة حافظ حقي بك، بأقصى سرعة شمالاً للاستيلاء على الأراضي المتاخمة لميمنة الروس. اخترق العثمانيون القطاع المحتل سابقاً على محاذاة الحدود، وتقدموا عبرها لمحاصرة بلدة أولتو، وهي قاعدة عسكرية غير محمية جيداً. فوجئ كولونيل روسي على الطريق واستسلم مع 750 جندي تحت إمرته. لكن مفاجآت مريعة كمنت في انتظار العثمانيين. إذ حوصر فوج تركي في ضباب كثيف خارج أولتو، واشتبك مدة أربع ساعات مع فوج آخر معتقداً أنه من المدافعين الروس، ما ألحق بالعثمانيين 1000 إصابة بواسطة النيران الصديقة. لكنهم نجحوا في المساء في دحر المدافعين إلى خارج أولتو. وجد الجنود العثمانيون، هنا على أقل تقدير، الطعام والمأوى كما وعدتهم القيادة، وشرعوا في نهب البلدة المحتلة[24].

اتبع حقي بك العنيد الجموح أسلوبه النمطي المتوقع، فألحق نصره في أولتو بمطاردة الروس المنسحبين بكامل قواته بدلًا من أن يشق طريقه شرقاً للانضمام إلى أنور باشا والفيلق التاسع في الهجوم على ساريكاميش. ونظراً إلى صعوبة الاتصالات في الأراضي الجبلية الوعرة، عرض هذا التغيير المرتجل للخطة الحملة برمتها لخطر محدق.

رافق أنور باشا الفيلق التاسع في مساره الخطر باتجاه ساريكاميش. استطاع الجنود العثمانيون بعزيمة مشهودة شق طريقهم عبر الممرات الجبلية الضيقة التي أغلقتها الثلوج المكدسة، فقطعوا مسافة ستة وأربعين ميلاً في ثلاثة أيام فقط. عانى الجنود تباريح البرد القارس، حيث أجبروا على النوم في العراء، من دون خيام، ولم يتمكنوا إلا بشق الأنفس من جمع بعض الحطب في درجات حرارة انخفضت إلى ما دون الصفر. وحين أشرقت شمس الصباح، تبدى مشهد مروع: مجموعات من الجنود تحلقوا حول بقايا النار التي لم تكن كافية لتدفئتهم، وقد اسودت جثثهم الممددة وتجمدت. أكثر من ثلث رجال الفيلق التاسع قضوا على الطريق ولم يتمكنوا قط من الوصول إلى منطقة الهدف.

لكن أنور حث رجاله على المضي قدماً إلى ضواحي ساريكاميش، حيث توقف الجنود يوم 24 ديسمبر لإعادة تجميع صفوفهم قبل الهجوم النهائي على البلدة. علم الترك، من استجواب أسراهم الروس، بعدم وجود جنود يدافعون عن ساريكاميش باستثناء حفنة من وحدات المؤخرة دون مدفعية. أعاد إدراك مدى ضعف تحصين البلدة الاستراتيجية توكيد قناعة أنور باشا بأن جنوده المتجمدين والمنهكين على مرمى حجر من تحقيق نصر كاسح شامل[25].

لم يعلم الروس بالمدى الكامل للهجوم التركي إلا في 26 ديسمبر، حين أسروا ضابطاً عثمانياً واطلعوا على نسخ من خطط أنور الحربية. عرفوا الآن بإعادة نشر الفيلق العاشر وضمه إلى الجيش الثالث، وأن العثمانيين تمتعوا بتفوق عددي كبير. كما علموا بسقوط أولتو، وأن الجنود العثمانيين لا يكتفون بالتقدم في أرداهان، بل على وشك الوصول إلى ساريكاميش قريباً. انتفض السكان المسلمون بين باطوم (على البحر الأسود) وأرداهان في ثورة ضد الروس -الحماسة الدينية التي أمل العثمانيون بتحفيزها بالضبط وخشي منها

الروس. بدا الجنرالات الروس وفقاً لمؤرخي الحملة "في حالة من الهلع تقريباً.. أيقنوا من خسارة ساريكاميش، وقطع طريق التراجع إلى قارص عن الكتلة الأساسية من جيش القوقاز". أصدر القادة الروس أوامر بالانسحاب العام في محاولة يائسة لإنقاذ جيشهم، أو جزء منه على الأقل، من هزيمة ساحقة ماحقة[26].

حابى الحظ الروس، وذلك مع بدء تكشف خيوط الخطة التركية. ففي أعقاب بداية مشهودة، أخذت الأحوال الجوية السيئة والأخطاء البشرية الفادحة تلحق أضرارها الجسيمة بالحملة العثمانية. اكتسحت عواصف ثلجية عاتية ذرى القوقاز العالية، ما جعل من المستحيل على الجنود عبور الممرات الجبلية. بينما أدى انعدام الرؤية والثلوج التي تذروها الريح إلى اختفاء الدروب الجبلية، فانفصل كثير منهم عن وحداتهم، وضعفت صفوف القوات وانحسر زخمها. بينما دمرت الاتصالات العثمانية جراء انعدام الطرق المناسبة، والبرد القارس، والجبال العالية. وما زاد الطين بلة أن أحد جنرالات أنور باشا، حافظ حقي بك، تجاهل أوامره وطارد قوة روسية صغيرة أبعدته أميالاً عن ساريكاميش.

أرسل أنور أوامر عاجلة إلى حافظ حقي بك للتوقف عن مطاردة القوات الروسية والعودة إلى التزام خطة المعركة الأصلية. أوكل قائد الفيلق العاشر مهمة الهجوم على أرداهان إلى أحد أفواجه (كما نصت الخطة الأصلية)، وقاد بنفسه الفوجين الآخرين للانضمام إلى هجوم أنور على ساريكاميش. انطلق حافظ حقي في 25 ديسمبر ووعد بلقاء أنور صباح اليوم اللاحق. كان عند نقطة تبعد ثلاثين ميلاً عن جبهة ساريكاميش ووجب عليه عبور قمم جبال الله أكبر، التي ترتفع 3000 متر عن سطح البحر، في زمهرير الشتاء. أصدق وصف ينطبق على مسيرة الساعات التسع عشرة اللاحقة هو موكب الموت. "تسلقنا الجبل بصعوبة شديدة، لكن بنظام وانضباط. غلبنا التعب والإنهاك. وحين بلغنا النجد ضربتنا عاصفة ثلجية قوية. فقدنا الرؤية. استحال علينا تبادل المساعدة، بل حتى الكلام. اجتاحت الفوضى الجنود. وركضوا في الاتجاهات كلها بحثاً عن ملاذ، واقتحموا أي بيت

يخرج الدخان من مدخنته. بذل الضباط قصارى جهدهم، لكنهم فشلوا في إجبار الجنود على طاعة الأوامر". تجاوز البرد قدرة البشر على الاحتمال، ودفع بعض الجنود إلى حافة الجنون: "أتذكر جيداً أنني رأيت بوضوح جندياً يجلس على الثلج جانب الطريق. كان يعانق الثلج، يجرفه بقبضتيه ويحشو به فمه وهو يرتجف ويصرخ. أردت مساعدته وإعادته إلى الطريق، لكنه ظل يصرخ ويكدس الثلج كأنما لا يراني. جن المسكين. هكذا تركنا 10.000 رجل خلفنا تحت الثلج في يوم واحد"، كما كتب أحد الناجين عن المشقات التي عانى الجنود عذابها[27].

في يوم 25 ديسمبر عقد أنور باشا اجتماعاً للضباط الأتراك والمستشارين الألمانيين لإجراء جردة حساب للوضع. بدأ الروس التقهقر عن خط الجبهة على طول نهر أراس للعودة إلى ساريكاميش. أرسلت التعزيزات عبر السكة الحديدية لعرض المساعدة على الجنود الروس المنسحبين، الذين ظلوا معتقدين أن معركتهم خاسرة. وبينما سيطرت على القادة حالة من التشوش والارتباك، فإن أعداداً كبيرة من الجنود الروس كانوا يتدفقون من الشمال والجنوب على ساريكاميش. فإذا لم يتحرك العثمانيون بسرعة فربما تفوتهم فرصة الاستيلاء على البلدة في غياب المدافعين نسبياً.

تعرض قائد الفيلق التاسع إحسان باشا، ورئيس أركانه شريف الدين، إلى استجواب قاس في الاجتماع من أنور ومستشاريه الألمانيين. أرادوا أن يعرفوا متى تصبح الحملة العثمانية في وضع يتيح لها الاستيلاء على ساريكاميش؟ عرض إحسان باشا على قادته الحقائق المرة عن حالة الجيش الثالث. إذ فقد الاتصال مع حافظ حقي والفيلق العاشر، الذي كان يعبر آنذاك جبال الله أكبر، ولا يمكن التيقن من وصوله للانضمام إلى الهجوم على ساريكاميش. كانت فرقة واحدة من الفيلق التاسع حالياً على مسافة مجدية من الهدف. واختتم بالقول: "لا أعرف ما هي متطلبات الحملة. إذا أمكن تنفيذ أوامركم بفرقة واحدة، فإن الفرقة التاسعة والعشرين على استعداد لأداء المهمة"[28].

بعد سماع العرض من الضباط الأتراك، طلب أنور آراء مستشاريه الألمانيين. شاركاه المسؤولية كاملة في وضع خطة المعركة الأصلية وشجعا طموحه بتكرار النصر الألماني في تانينبرغ على جبهة القوقاز. نصحاه الآن بانتظار وصول حقي بك مع جنوده قبل الهجوم، لكنه لم يؤيد فكرة الانتظار. عرف أن مزيداً من التأخير يعني مزيداً من القوات الروسية التي يجب على جنوده مواجهتها. فضلاً عن ذلك كله، فإنهم بعد الاستيلاء على البلدة سيجدون سقفاً يستظلون به وطعاماً يسد رمقهم. وكل ليلة يقضيها جيشه في العراء تؤدي إلى تجمد مئات إضافية من الجنود حتى الموت. اعتقد ضباط أنور أنه تصرف بفعل باعث منافسة لا توصف مع حافظ حقي، حيث خشي من أن يصل قائد الفيلق العاشر إلى ساريكاميش ويحتلها قبله. كان في المقدمة دوماً، وتعلق بتلك الجائزة الثمينة على وجه الخصوص لإضافتها إلى سجل أمجاده.

في النهاية، تجاهل أنور آراء مستشاريه وأمر جنوده ببدء الهجوم في صباح اليوم اللاحق، 26 ديسمبر. ثبت أن هذه القرار المصيري مثّل نقطة تحول في الحملة العثمانية. ومنذ تلك اللحظة، افتقرت الهجمات العثمانية كلها إلى القوة العددية الكافية لتحتل أو تحتفظ بأي أراض كسبتها في مواجهة الهجمات الروسية المعاكسة.

يعود فضل تحقيق كل هدف من أهداف خطة أنور غير الواقعية، ولو لمدة وجيزة، إلى ثبات الجنود العثمانيين وعنادهم وعزيمتهم. وصل رجال حافظ حقي، بعد عبور جبال الله أكبر العصية الوعرة، إلى السكة الحديدية بين قارص وساريكاميش وقطعوا خط الاتصال الحيوي هذا -لكن دون عدد كاف من الجنود للاحتفاظ به في وجه التعزيزات الروسية الآتية من قارص. استولى الجنود العثمانيون على بلدة أرداهان لكن خسروها بعد أسبوع بسبب الافتقار إلى قوات كافية للاحتفاظ بها. بينما وجد جنود الفيلق العاشر المنتصرون في البداية، وجدوا أنفسهم مطوقين، وأجبر الناجون البالغ عددهم 1200 من القوة الأصلية

المؤلفة من 5000 رجل على الاستسلام للروس. بل تمكن الجنود العثمانيون من اختراق ساريكاميش نفسها، لكن الثمن الفادح الذي دفعوه بالأرواح حجب هذا الإنجاز الوجيز.

تمكن المدافعون عن ساريكاميش من صد الهجمات الأولى للفيلق التاسع على المواقع الروسية في 26 ديسمبر، وأوقعوا به خسائر جسيمة. في تلك الليلة، وصل أخيراً حافظ حقي باشا مع الناجين المنهكين من عبور جبال الله أكبر إلى مواقعهم بالقرب من ساريكاميش. ونظراً إلى لخسائر التي أصيب بها الفيلق التاسع، والحالة المؤسفة التي وصل إليها الفيلق العاشر بعد مسيرته الإجبارية، قرر أنور باشا إيقاف العمليات مدة ست وثلاثين ساعة لتجميع قواته ودمجها[29].

خاض الطرفان معركة ساريكاميش الحاسمة في 29 ديسمبر. بحلول ذلك الوقت، هلك القسم الأعظم من الجيش العثماني. إذ لم يزد عدد جنود الفيلقين التاسع والعاشر معاً على 18.000 من قوة أصلية تجاوز عددها 50.000 رجل، وكان الناجون في حالة لا تسمح لهم بالقتال. بينما ارتفعت أعداد المدافعين الروس عن ساريكاميش إلى أكثر من 13.000، وتجاوز ما لديهم من مدافع وأسلحة رشاشة ما يملكه المهاجمون، وتمركزوا في مواقع جيدة التحصين. ومع هذه الأسلحة الثقيلة، نجح الروس في صد الهجمات العثمانية العنيدة طوال اليوم.

قام أنور بآخر محاولة للاستيلاء على ساريكاميش عبر هجوم ليلي في 29 ديسمبر. في هذه المرة، اقتحمت قواته البلدة، واشتبكت مع المدافعين الروس في قتال مباشر بحراب البنادق في الظلام الحالك. قتل معظم الجنود الترك أو أسروا، مع أن فرقة جسورة مؤلفة من عدة مئات من الجنود نجحت في احتلال الثكنات الروسية في مركز البلدة. وكان باستطاعة جزء صغير من جيش أنور التأكيد أنهم احتلوا جزءاً صغيراً من ساريكاميش ليلة واحدة. بحلول الصباح، طوقت القوات الروسية الثكنات وأجبرت الجنود الأتراك على الاستسلام. خسر العثمانيون فرقة كاملة في الهجوم.



أسرى عثمانيون في أرداهان. نجحت فرقة من الجيش العثماني في الاستيلاء على بلدة أرداهان من الجنود الروس في أثناء حملة ساريكاميش، لكن بسبب عدم وجود قوات كافية للاحتفاظ بالبلدة، أجبر العثمانيون على الاستسلام في أوائل يناير 1915 فيما اعتبر أول انتصار روسي على جبهة القوقاز.

* * *

سرعان ما أدرك الروس مدى ضعف المهاجمين العثمانيين، وانطلقوا إلى الهجوم بعد استعادة رباطة جأشهم التي فقدوها في البداية. الآن أصبح خطر التطويق والتدمير محدقاً بالجيش العثماني الثالث لا بجيش القوقاز الروسي.

في الأسبوعين الأولين من يناير 1915، دفعت القوات الروسية العثمانيين إلى الوراء، لتستعيد جميع الأراضي التي خسرتها في الأيام الافتتاحية من الحملة. في العملية، دمرت الجيش الثالث فيلقاً إثر فيلق. حاصر الروس الفيلق التاسع وأجبروه على الاستسلام في 4 يناير. أكد رئيس هيئة الأركان شريف الدين أن 106 ضباط وثمانين جندياً هم كل من بقي معه في مركز قيادة الفيلق التاسع عندما استسلم إلى الروس. أما حافظ حقي فقد قاد الفيلق

العاشر في عملية انسحاب تحت وابل من النيران، لكنه تمكن من تجنب التدمير الكامل، وبعد ستة عشر يوماً استطاع مع نحو 3000 من الناجين الوصول إلى أمان الخطوط التركية[30].

مع انهيار الفيلقين التاسع والعاشر، تحمل الفيلق الحادي عشر وطأة الهجوم الروسي المعاكس. في إحدى المراحل أثناء الانسحاب من الأراضي الروسية، فوجئ الجنود العثمانيون حين شنت قوة أجنبية من الخيالة هجوماً على ميسرة الروس فتشتت شمل العدو. كان هؤلاء جماعة من القرويين الشراكسة الذين علموا بدعوة السلطان إلى الجهاد، فانطلقوا على الفور لدعم الجنود العثمانيين. بدت الحادثة، للعريف الممرض علي رضا إتي الذي شهد الهجوم الشركسي، دليلًا إضافياً يثبت التضامن الإسلامي في الحرب العظمى. استكمل الفيلق الحادي عشر انسحابه إلى الخطوط التركية في منتصف يناير، حيث عاد 15.000 من أصل 35.000 جندي. لكن الجيش الثالث العثماني دمر. فمن بين نحو 100.000 جندي أرسلوا إلى المعركة، لم يعد منها سوى 18.000 من الرجال المهزومين المنكسرين[31].

نجا أنور باشا ذاته بصعوبة من الأسر وعاد إلى إسطنبول يجر أذيال العار والهوان، مع أنه لم يواجه قط، لا هو ولا حافظ حقي، أي إدانة أو عقوبة تأديبية على الإهمال الجنائي، حسب اتهام بعض الضباط الذين خدموا معهما. في الحقيقة، رقى أنور حافظ حقي المتهور من عقيد إلى لواء مع لقب باشا، وعينه قائداً على ما بقي من الجيش الثالث (توفي بعد شهرين بالتيفوس)، قبل أن يغادر أرضروم إلى عاصمة السلطنة. كانت الهزيمة رهيبة ومروعة على الاتحاديين من أعضاء تركيا الفتاة إلى حد منعهم من الاعتراف بها، وحرصوا على إبقاء تدمير الجيش الثالث سراً مخفياً في السلطنة وألمانيا كلتيهما، وفقاً لليمان فون ساندرز. "حظر الحديث عنه. وكل من ينتهك الأوامر يتعرض للملاحقة والعقوبة"، كما كتب فيما بعد[32].

سوف تتردد أصداء التبعات والعواقب الزلزالية للهزيمة في ساريكاميش طوال السنوات الباقية من الحرب. أصبح العثمانيون عاجزين عن الدفاع عن أراضيهم ضد أي هجوم روسي من دون جيش فعال في شرق الأناضول. وفاقم ضعفهم وانكشافهم حدة التوترات بين الترك والكرد والأرمن في منطقة الحدود مع روسيا. ومهما بلغت الحماسة التي أظهرها

المسلمون في الامبراطورية الروسية للجهاد في المراحل المبكرة من حملة ساريكاميش، فإن الهزيمة العثمانية الماحقة قضت على أي احتمال بانتفاضة إسلامية على الجبهة الروسية.

شجع حجم الهزيمة العثمانية حلفاء روسيا من دول الوفاق على المضي قدماً في خططهم، للهجوم على الدردنيل والاستيلاء على إسطنبول وإخراج الترك من الحرب نهائياً[33].

* * *

بعد شهر من الهزيمة العثمانية في ساريكاميش، قاد جمال باشا هجوماً على البريطانيين في قناة السويس. تعذر للتغاير أن يتبدى بمثل هذا التطرف الصارخ بين العواصف الرملية في صحارى مصر والعواصف الثلجية في ذرى القوقاز، ولم تكن الأرض اليباب القاحلة في سيناء أكرم وفادة للجنود العثمانيين من الجبال العالية المحيطة بساريكاميش.

بعد بيانات جمال باشا العلنية في محطة قطارات إسطنبول المركزية (21 نوفمبر 1914)، لم يعد باستطاعة أحد اتهامه بإخفاء مقصده وعزمه على قيادة حملة على مصر. ونظراً إلى العقبات التي ستواجه أي حملة كهذه، تجاهل البريطانيون تعهد جمال بـ"فتح" مصر باعتباره مجرد كلام فارغ طنان. لم يعتقدوا بقدرته على تشكيل جيش كبير في سوريا إلى حد يكفي لتهديد قواتهم في مصر. وحتى لو نجح في جمع قوة كبيرة لشن حملة عليهم، لا توجد طرق مناسبة لعبور سيناء، حيث تندر مصادر المياه ويغيب الغطاء النباتي كلية تقريباً. ولا ريب أن الإمدادات اللوجستية لتزويد حملة كبيرة تعبر هذه الأراضي القاحلة القاسية بالطعام والماء والذخيرة تجعل المهمة مستحيلة. وحتى لو تغلبت القوات العثمانية على جميع هذه العقبات الكأداء ووصلت إلى القناة، ستواجه مجرى مائياً عرضه مئات الأمتار وعمقه 12 متراً تحميه السفن الحربية، والقطارات المسلحة، وخمسون ألف جندي. بدا الموقف البريطاني في مصر منيعاً حصيناً يتعذر تهديده.

لم تكن الحسابات البريطانية خاطئة. واجه جمال باشا قيوداً جدية عرقلت حشد الحملة في سوريا. في ديسمبر 1914، احتاج العثمانيون إلى جميع جنودهم في الأناضول لتعزيز حدود القوقاز المشؤومة وحماية إسطنبول والمضائق. ومن ثم اعتمد جمال على الجنود النظاميين

في الولايات العربية، وتدعيمهم بالمتطوعين غير النظاميين من البدو المحليين، والدروز، والشركس، وغيرهم من الطوائف المهاجرة. ومن بين 50.000 مقاتل تحت تصرفه، لم يتمكن من ضم أكثر من 30.000 إلى حملة السويس، نظراً إلى الحاجة إلى البقية في الحاميات عبر الولايات العربية. فضلاً عن ذلك كله، وجب على القائد العثماني الاحتفاظ بنحو 5000 إلى 10.000 جندي احتياطي، لحماية قوة الحملة الأولية أو تعزيزها. عنى ذلك عدم توافر أكثر من 20.000 إلى 25.000 جندي عثماني لحملة جمال باشا، التي ستهاجم قوة بريطانية متحصنة بضعف حجمها على أقل تقدير -اقتراح انتحاري فعلاً[34].

اعتمد جمال لتحقيق النجاح على سلسلة من الحوادث بعيدة الاحتمال. سجل فيما بعد: "راهنت بكل شيء على مفاجأة الإنكليز". فإذا أخذ الإنكليز على حين غرة، كما أمل، فسوف ينسحبون من قطاع من منطقة القناة يمكن للعثمانيين تعزيزه "باثنتي عشرة ألف بندقية تتمركز في مواقع حصينة على الضفة البعيدة". ومن أجل إقامة رأس الجسر هذا، خطط لاحتلال مدينة الإسماعيلية المهمة، ما سيرفع أعداد العثمانيين على الضفة الغربية من القناة إلى 20.000. واعتقد أن الاستيلاء على الإسماعيلية سوف يحفز انتفاضة شعبية في مصر ضد الحكم البريطاني -الجهاد الذي دعا إليه السلطان. بهذه الطريقة "تتحرر مصر في وقت قصير غير متوقع باستخدام قوة صغيرة ومصادر تقنية قليلة"، كما أكد في حجته[35].

حظيت خطة جمال بالدعم الكامل من الألمان، الذين ظلوا يعلقون آمالاً كباراً على الجهاد تحت قيادة العثمانيين. إضافة إلى ذلك، وضعت ألمانيا ضمن قمة أولوياتها قطع شريان قناة السويس. إذ عبرت القناة بين بداية أغسطس ونهاية ديسمبر 1914 أكثر من 376 سفينة نقل، حملت 163.700 جندي للمشاركة في المجهود الحربي للحلفاء. وبينما لم يكن البريطانيون يعتمدون اعتماداً كلياً على القناة لنقل الجنود -أمكن لنظام السكك الحديدية الذي يربط السويس بالقاهرة وموانئ البحر المتوسط خدمة هذا الغرض- فقد كانت بالفعل شرياناً حيوياً للحرب والسفن التجارية المسافرة من المحيط الهندي إلى البحر المتوسط. وطالما ظلت القناة مفتوحة وصالحة للملاحة، تستطيع بريطانيا الحصول على الفائدة الكاملة من امبراطوريتها للمجهود الحربي. وأي هجوم عثماني على السويس

يبطئ حركة المرور للامبراطورية هذه أو يجبر بريطانيا على تركيز جنود للدفاع عن مصر (كانوا سينشرون لولا ذلك على الجبهة الغربية)، لا بد أن يغل فائدة مباشرة للمجهود الحربي الألماني[36].

منذ لحظة وصول جمال باشا إلى دمشق في 6 ديسمبر، شرع في العمل لحشد الرجال والموارد للقيام بعملية العبور الخطر لسيناء. بلغ عدد قواته النظامية 35.000 جندي، وهؤلاء بالأساس شباب من الولايات العربية، حلب وبيروت ودمشق، والمقاطعات ذات الحكم الذاتي: متصرفية جبل لبنان ومتصرفية القدس. ومن أجل زيادة الأرقام، التمس جمال المشاعر الوطنية لدى زعماء العشائر في شتى أرجاء الأراضي العربية، للانضمام إلى الهجوم على البريطانيين وتحرير مصر من الحكم الأجنبي.

كان الأمير الدرزي شكيب أرسلان عضواً في مجلس المبعوثان العثماني عام 1914. وحين علم بخطط جمال باشا، استأذن رئاسة المجلس لإعفائه من واجباته البرلمانية من أجل قيادة كتيبة من المتطوعين الدروز لحملة سيناء. قابل جمال باشا ووعده بأن "يستنفر" خمسمئة رجل للمجهود الحربي، مع أن القائد التركي لم يطلب أكثر من مئة. خرج أرسلان من اللقاء مقتنعاً بأن جمال باشا "يظن أن المتطوعين بغير نظام لا يكون لهم نفع عظيم في الحرب". لكن زعم أن متطوعيه الدروز تجاوزوا التوقعات كلها، وتفوقوا في الأداء على العسكر النظاميين في الرمي والفروسية في "ميدان المزة" بدمشق. وبدلاً من قضاء شهر في التدريب كما هو مخطط في البداية، أرسل المتطوعون الدروز دون تأخير بالقطار للانضمام إلى الحملة[37].

في ديسمبر 1914 ويناير 1915، جمع جيش متنافر المكونات في معان، البلدة الصحراوية المحصنة التي تبعد نحو 290 ميلًا إلى الجنوب من دمشق (جنوب الأردن حالياً). تقع البلدة أيضاً على طريق الحج من دمشق إلى مكة، وتعد محطة رئيسة على الخط الحديدي الحجازي. وجد أرسلان هنا "زمرة من المتطوعين من أهل المدينة، وزمرة أخرى مختلطة من أتراك

جاؤوا من رومانيا، وعرب [بدو]، وسوريين، وأرناؤوط، وغيرهم"، إضافة إلى خيالة كرد من "صالحية الشام".



جنود عثمانيون في فلسطين قبل الهجوم الأول على قناة السويس. جمع جمال باشا الكتلة الرئيسة من قوة حملته للهجوم على الترعة في سوريا وفلسطين (يناير 1915). حشدت مجموعات كبيرة من القوات، ضمت الجنود العثمانيين النظاميين والمتطوعين من العشائر العربية، في استعراضات أظهرت المشاعر الوطنية بغرض زيادة التأييد العام للمجهود الحربي في الولايات العربية.

رأس وهيب باشا، والي الحجاز (على البحر الأحمر، وتضم الولاية مكة والمدينة) وقائده العسكري، أكبر قوة في معان. إذ أحضر معه من الحامية العثمانية في مكة تسعة آلاف جندي، كما ذكر أرسلان، على الرغم من الغياب اللافت لزعيم مشهور عن قواته. كان جمال باشا قد كتب إلى الشريف حسين بن علي، أهم مرجعية دينية في مكة، يطلب منه الإسهام بكتيبة من القوات تحت إمرة أحد أبنائه. أمل جمال بأن يضفي الشريف سلطته الدينية على حملة السويس ويثبت ولاءه للدولة. رد الشريف بأسلوب مهذب على طلب جمال وبعث بابنه علي مع وهيب باشا حين انطلق الوالي من مكة. لكنه لم يتجاوز المدينة، ووعد باللحاق بوهيب حالما ينتهي من حشد قوة من المتطوعين. لاحظ جمال بقلق أن ابن الشريف حسين لم يغادر المدينة قط[38].

في يناير 1915 تجمعت الكتلة الرئيسة من قوة الحملة العثمانية في بئر السبع (جنوب إسرائيل حالياً)، بالقرب من الحدود العثمانية-المصرية. هنا عمل المخططون العثمانيون والألمان على تجهيز الإمدادات اللوجستية للحملة. أقام رئيس أركان الفيلق العثماني الثامن، الكولونيل فريدريش فرايهر فون كريسنشتاين، محطات للمؤن بين بئر السبع والإسماعيلية (حيث تتمركز قيادة قناة السويس) تفصل إحداها عن الأخرى مسافة تقارب خمسة عشر ميلاً. في كل محطة، حفر المهندسون آباراً وبنوا حواجز لجمع أمطار الشتاء وتوفير مرافق المياه الكافية للجيش. كما شيدت مسبقاً مرافق طبية ومخازن للطعام في كل محطة. وصودر أكثر من 10.000 جمل من سوريا والجزيرة العربية لتوفير وسائل نقل بين المحطات، كما مدت خطوط البرق (التلغراف) لتزويدها بالاتصالات الفورية.

تمثل التحدي الأعظم الذي واجه الحملة العثمانية في نقل خمسة وعشرين قارباً لصنع جسر عائم مصمم لعبور قناة السويس. راوح طول القارب المصنوع من الحديد المغلفن، بين 5.5 و7 أمتار، بعرض 1.5 متر. سحب الجنود العثمانيون، بمساعدة الجمال والبغال، هذه القوارب مسطحة القعر على ناقلات مصممة خصيصاً لهذا الغرض، عبر وضع ألواح خشبية على الرمل الناعم لمنع عجلات الناقلات من الغوص فيه. تدربوا على جر المراكب الثقيلة على البر وصنع جسور بها.

بدا أن البريطانيين لم يقدروا جيداً قوة الحملة التي تتشكل في سوريا. كان أول من قدم معلومات استخبارية مفصلة عن استعدادات جمال باشا كاهن فرنسي طرده العثمانيون من القدس. استجوب البريطانيون الكاهن في منطقة القناة يوم 30 ديسمبر. وتبين أنه يعرف الصحراء السورية معرفة وثيقة من السنين العديدة التي قضاها يعمل في التنقيب عن الآثار، كما كان يتكلم العربية بطلاقة. زعم أنه شاهد نحو 25.000 رجل يتجمعون في دمشق والقدس مع معداتهم الحربية، التي شملت قوارب وأسلاكاً وأجهزة برق، تتجه كلها نحو بئر السبع. كما أجريت التحضيرات لتوفير المياه، بينما خزنت الفطائر (البقسماط) التي صنعت في دمشق في محطات أقيمت في سيناء. في البداية رفض البريطانيون تصديق تعليقاته

وملاحظاته باعتبارها سخيفة، لكن كلما زادت التفاصيل التي قدمها، زادت روايته قبولاً لديهم وأخذوها على محمل الجد[39].

بدأ البريطانيون والفرنسيون نشر الطائرات للمرة الأولى أثناء الحرب في الشرق الأوسط في محاولة للحصول على توكيد لتقرير الكاهن الفرنسي. كان من حظ العثمانيين أن المناطق المركزية في سيناء، حيث الأرض أكثر صلابة وملائمة لزحف الجيوش، بعيدة عن متناول الرصد الجوي؛ ما منح حملة السويس درجة مفاجئة من السرية عشية انطلاقها. فالطائرات البريطانية المتمركزة في الإسماعيلية قصيرة المدى إلى حد منعها من اختراق وسط سيناء، بينما لم يكن باستطاعة الطائرات البحرية الفرنسية العاملة من بورسعيد وخليج العقبة سوى مراقبة التخوم القصوى الشمالية والجنوبية لشبه الجزيرة، حيث تمركزت الوحدات العسكرية التركية الأصغر حجماً. أما العثمانيون والألمان فلم يبدؤوا بعد نشر الطائرات لدعم جنودهم، تاركين للحلفاء السيطرة على الأجواء.

عندما انطلقت طلائع القوات العثمانية من بئر السبع باتجاه الترعة (قناة السويس) في 14 يناير 1915، لم تكن لدى البريطانيين فكرة واضحة عن موقعها أو مقصدها. زحفت الكتلة الرئيسة من القوات العثمانية عبر وسط سيناء، بينما سلكت فرقتان أصغر حجماً طريقاً من شعبتين: اتجهت الأولى على طول ساحل المتوسط من العريش، ومرت الثانية عبر الحصن الصحراوي قلعة النخل. حمل كل رجل جعالة خفيفة من التمر والفطائر (البقسماط) والزيتون لا يزيد وزنها على كيلوغرام، بينما جرى تقنين الماء بعناية. منعت شدة البرد الجنود من النوم في ليالي الشتاء، ولذلك ساروا ليلاً وارتاحوا نهاراً. تطلب عبور الصحراء 12 يوماً، دون خسارة أي رجل أو حيوان على الطريق -والفضل يعود طبعاً إلى التخطيط المفصل لحملة الترعة.

في الأيام العشرة الأخيرة من يناير، بدأت الطائرات البحرية الفرنسية ترصد حشوداً تثير القلق من الجنود العثمانيين ضمن المناطق التي يمكنها المدى المجدي من الوصول إليها. عادت الطائرات التي حلقت على ارتفاع منخفض إلى القاعدة، وقد تمزقت أجنحتها بفعل

النيران الأرضية التي أطلقها الجنود. دفعت التقارير عن قوات للعدو تركزت عند عدة نقاط حول شبه جزيرة سيناء البريطانيين إلى إعادة تقييم دفاعاتهم على طول الترعة[40].

تمتد القناة مسافة مئة ميل من بورسعيد على البحر المتوسط إلى السويس على البحر الأحمر. كما تتصل ببحيرتين كبيرتين (من المياه المالحة) لا تلائم ضفافهما السبخية (29 ميلاً) التحركات العسكرية، بينما غمر المهندسون البريطانيون بالمياه عشرة أميال من الشواطئ المنخفضة على الضفة الشرقية للقناة؛ ما قلص المسافة الإجمالية للدفاع إلى 71 ميلاً. قرر البريطانيون استغلال المنخفضات على الضفة الشمالية-الشرقية من القناة لغمر مساحة عشرين ميلاً، وهي عملية إضافية قلصت المنطقة التي يجب الدفاع عنها إلى 51 ميلاً من القناة. نشرت السفن الحربية البريطانية والفرنسية في النقاط المفتاحية على طول القناة، بين القنطرة والإسماعيلية، إلى الشمال من بحيرة التمساح، وبين طوسوم وسرابيوم، إلى الشمال من البحيرة المرة الكبرى، حيث اعتقد البريطانيون أن الهجوم مرجح. وعززت القوات الهندية بالأستراليين والنيوزيلنديين، إضافة إلى بطارية من المدفعية المصرية[41].

انتظرت القوات البريطانية، مع شيء من التشكيك، لمعرفة ما الذي سيحاول العثمانيون فعله. نقل ضابط الإشارة الشاب، هـ. في. جيل، الذي شارك في العمليات قبالة عدن، إلى شمال قناة السويس بالقرب من القنطرة. لم تكن لديه أدنى فكرة، لا هو ولا قادته، عن خطط العثمانيين، مع أنه متشوق للمشاركة "في عمل عسكري"، كما أوضح في يومياته. سجل سلسلة من المناوشات الهامشية والإنذارات الكاذبة في الأيام الأخيرة من يناير 1915. فبينما كان في دورية على الضفة الغربية من القناة في قطار مسلح بتاريخ 25 يناير، تلقى رسالة عاجلة من قيادة اللواء: "عودوا إلى المعسكر فوراً. القنطرة مهددة جدياً من عدو حقيقي". إنذار كاذب. في 26 يناير، بينما كانت المواقع البريطانية تتعرض لوابل من قذائف المدافع التركية، أرسل جيل إلى محطة تبعد عدة أميال جنوب القنطرة. "وردت تقارير عن وجود 3000 جندي من العدو بالقرب من البلاح"، كما ذكر. تعاظم قلق البريطانيين جراء التقارير عن تحركات جنود العدو في سيناء، ولم يعرفوا مكانهم، أو أعدادهم، أو الهدف الذي خططوا لمهاجمته. إلى هذا الحد على الأقل، تمكن جمال باشا من تحقيق المفاجأة[42].

سحب البريطانيون جميع جنودهم إلى الضفة الغربية من القناة كإجراء احترازي. وتركوا مجموعة من الكلاب المربوطة بسلاسل في مواقع متفرقة على ضفة القناة الشرقية تنبح عند اقتراب أي رجل منها. ففي حالة التعرض لهجوم ليلي، لن تكون للطائرات فائدة تذكر في اكتشاف تحركات الجنود، بينما تستطيع ذلك كلاب الحراسة، حسب الطريقة القديمة[43].

في الأول من فبراير، أصدر القادة العثمانيون أوامر الهجوم. ومن أجل الحفاظ على عنصر المفاجأة، كان من الواجب "على الضباط والجنود التزام الصمت الكامل، بل الامتناع حتى عن السعال، وحظر إصدار الأوامر بصوت مرتفع". كما كان عليهم الانتظار إلى أن يعبروا من الضفة الشرقية إلى الغربية من القناة قبل تذخير الأسلحة، لتجنب انطلاق أي رصاصة بشكل عارض ما قد ينبه المدافعين البريطانيين. كما حظر التدخين نهائياً -فزادت المشقة على أعصاب الجنود المتوترة. يجب على الجنود العثمانيين كلهم وضع عصابة بيضاء على أعلى الذراع لتمييزهم وتفادي الإصابة بالنيران الصديقة. وفي سبيل استغلال رمزية الجهاد، اختير "البيرق الشريف" كلمة السر للهجوم.

أشارت الأوامر إلى أن العثمانيين سوف يهجمون على العدو "بمشيئة الله" ليلة 2-3 فبراير، ويستولون على الترعة. وبينما ستحاول الكتلة الرئيسة العبور قرب الإسماعيلية، سوف تُشن هجمات أخرى تضليلية لتشتيت الانتباه في الشمال بالقرب من القنطرة، وفي الجنوب قرب السويس. كما ستحتل بطارية من المدافع موقعاً بالقرب من بحيرة التمساح لقصف سفن العدو الحربية. و"إذا سنحت الفرصة، ستغرق [بطارية المدفعية الثقيلة] سفينة عند مدخل الترعة". مثّل الاستيلاء على القناة مجرد جزء واحد من العملية. كان إغراق السفن لوقف الملاحة في القناة هدفاً أكثر معقولية من الاستيلاء على المواقع البريطانية المحصنة جيداً على ضفتها[44].

هبت ريح مفاجئة في اليوم السابق على الهجوم أثارت عاصفة رملية أعاقت الرؤية. زعم ضابط فرنسي فيما بعد أن "مجرد الحفاظ على العينين مفتوحتين محنة موجعة رهيبة". استغل القادة العثمانيون والألمان الغطاء الذي وفرته العاصفة الرملية لتحريك قواتهم إلى

الأمام عند نقطة جنوبي الإسماعيلية، قبل أن تهدأ الريح وتصفو سماء الليل. كانت الظروف مثالية للهجوم[45].

تذكر فهمي الترجمان، المحارب الدمشقي القديم الذي شارك في حروب البلقان، الحوادث التي جرت: "وصلنا الترعة في الليل. صمت شامل. حظر التدخين والكلام"*.

> يجب ألا يصدر أحد صوتاً وهو يمشي على الرمل. أتى ألماني. أنزلنا اثنين من المراكب الحديدية في الماء. أخذ الألماني واحداً إلى الضفة الأخرى وعاد به بعد ساعة. التقط الثاني محملاً بالجنود وأخذه أيضاً إلى الجانب الآخر. كلما امتلأ واحد نزل الجنود على الجانب الآخر من القناة. بهذه الطريقة، وعبر أخذ المراكب ملآنة وإعادتها فارغة، تمكن من نقل مئتين وخمسين جندياً لحراسة مكان العمل [رأس الجسر] لمنع أحد من التدخل[46].

* * *

تطلب العبور وقتاً أطول مما توقعه القادة العثمانيون، حيث ظلوا حتى الفجر يجمعون أجزاء الجسر العائم على القناة. أكد الصمت المطبق على الضفة الغربية اعتقاد المهاجمين الأتراك بأنهم عبروا منطقة غير محمية من الترعة. حطمت جدار الصمت مجموعة من المتطوعين ("المجاهدين") الطرابلسيين من ليبيا، سموا أنفسهم "أبطال الإسلام"، وهتفوا بشعارات لتشجيع أنفسهم. بدأت الكلاب تنبح في البعد. فجأة، مع انضمام القارب السادس للجسر العائم، فتحت أبواب الجحيم وانهمر وابل من رصاص المدافع الرشاشة من الضفة الغربية[47].

"كأنما ألف مدفع رشاش يطلق النار علينا. تحولت مياه الترعة إلى مياه مرجل يغلي.. لم يتمكن معظم جنودنا من الرد على مصادر النيران، ومن تمكن فعل. ثقبت المراكب وغرقت.

---

* «وصلنا الترعة بالليل. سكوت عالنصت. لا حدا بيشرب سيكارة ولا حدا بيحكي... ما بينسمع حدا عم يمشي على الرمل. ما نشوف إلا إجا الألماني. نزلوا الطنبازتين وحطوهن بالبحر. تلوا الواحدة عسكر وأخدها الألماني ومشي بالترعة. نحنا عم نعبي التانية عسكر. راح غاب لتاني جهة قيمة ساعة زمان ورجع بهالليل سكوت. أخد طنبازة تانية حط الفاضية وأخد المليانة. رد رجع حط الفاضية وأخد المليانة وعلى هالمعدل وزع بتاني طرف الترعة ميتين وخمسين جندي. إذا كان بدهن ينصبوا الجسر لازم يكون فيه قوة إذا حدا طلع لازم يدافعوا عنه».

ومن عرف السباحة عاد ومن لم يعرف غرق معها"، كما روى الترجمان*. ركض مع جماعة من الجنود من الشاطئ المكشوف كما لم يركضوا من قبل**. شاهد مجموعة من السفن المدرعة في القناة وقد وجهت مدافعها نحو المواقع العثمانية. "خرجت الطائرات فوقنا وبدأت السفن الحربية قصفنا بقذائفها"***. نصب فهمي الترجمان، مشغل التلغراف، معداته في ملجأ آمن نسبياً في الكثبان خلف القناة. "اتصلت مع الجنود خلفنا لإبلاغهم بالوضع بينما واصلت المدافع قصفنا بالقذائف من القناة"****[48].

أتى أشد القصف ضد المواقع العثمانية من بطارية المدفعية المصرية التي نصبت على مرابض مرتفعة على الضفة الغربية من القناة، حيث أشرفت من على الجسر العائم العثماني. روى أحمد شفيق، رجل الدولة المصري المتمرس، كيف أمر الملازم أول أحمد أفندي حلمي بطاريته بالانتظار إلى أن يعبر الترك القناة، قبل أن تفتح النار، لكنه قتل في المعركة. كان واحداً من ثلاثة قتلى مصريين وجريحين سقطوا في الدفاع عن القناة. منح السلطان فؤاد فيما بعد أفراد بطارية المدفعية الخامسة أوسمة على بطولتهم. إلا أن أحمد شفيق سارع إلى تذكير قرائه بأن مشاركة الجيش المصري في الدفاع عن مصر يتعارض مع تعهد الإنكليز (6 نوفمبر 1914) بتحمل مسؤولية الحرب بأنفسهم دون أي مساعدة من الشعب المصري. لكن بقدر ما احتفى المصريون ببسالة جنودهم، سخطوا على بريطانيا التي جرتهم إلى أتون حرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل[49].

تمكنت السفن الحربية البريطانية ضمن مسار المعركة في 3 فبراير من تدمير جميع مراكب العبور العثمانية. كما قتل أو أسر كل من نجح من الجنود الأتراك في عبور القناة. وبعد أن

---

* "طلع علينا يعني من فوق الألف رشـــاش.. صارت مية الترعـــة تبقبق كأنها مي وعم تغلي. يللي هنيك صاروا يقوصوا ماعدنا عرفنا شـــو صار فيهن وياللي بالبحر انبخشت الطنبازة وغرقت وياللي سبح رجع وياللي ما بيعرف يسبح اختنق".

** "اشتغل الركيد"

*** "طلعت الطيارات علينا وصاروا يضربوا كلل من البواخر".

**** "صرت خابر لورا المحدث وهالمدافع عم تشتغل فينا".

عجز العثمانيون عن تحقيق هدفهم الرئيس بتأمين رأس جسر على القناة، ركزوا جهدهم الآن على محاولة إغراق سفن الحلفاء لإغلاق المجرى المائي. سددت بطاريات المدافع الثقيلة على السفينة الحربية البريطانية (HMS *Hardinge*) وأصابتها إصابة مباشرة في المدختنين كلتيهما، ما دمر نظام التوجيه والمدافع الأمامية وحطم برج المواصلات اللاسلكية. رفعت السفينة المعرضة لخطر الغرق الوشيك مرساتها للتراجع إلى أمان بحيرة التمساح، خارج المدى المجدي للمدفعية العثمانية.

بعد ذلك تحولت البطارية العثمانية إلى الطراد الفرنسي (*Requin*) وقصفته بدقة خطرة. ولم يتمكن الفرنسيون من الرد بالمثل وإسكات المدافع إلا بعد أن اكتشفوا من الدخان المنبعث من فوهاتها مواقع مرابضها. في هذه الأثناء قصفت المدفعية الخفيفة بدقة السفينة البريطانية (*Clio*) فأصابتها بعدة قذائف قبل أن تتمكن هي الأخرى من تحديد مواقع المدافع العثمانية وتدميرها[50].

بحلول الأصيل، صد البريطانيون جميع الهجمات الأرضية التي شنها العثمانيون، بينما دمروا معظم بطاريات المدفعية التركية. عقد جمال باشا في مقر قيادته اجتماعاً للضباط الأتراك والألمان. أكد قائد الفيلق الثامن، مرسينلي جمال بك، أن موقف الجيش لم يعد يسمح له بمواصلة القتال. وافقه الرأي قائد أركان جمال باشا الألماني واقترح وضع نهاية فورية للقتال. وحده قائد أركان الفيلق الثامن، الكولونيل الألماني فون كريسنشتاين، أصر على مواصلة الهجوم حتى آخر رجل. سرعان ما عارضه جمال باشا، الذي أكد أن من الأجدى الحفاظ على الجيش الرابع للدفاع عن سوريا، وأصدر أمراً ببدء الانسحاب حالما يحل الظلام[51].

فوجئ البريطانيون عندما اكتشفوا أن الكتلة الرئيسة من القوة التركية قد اختفت أثناء الليل، بعد أن توقعوا تجدد الهجوم في الرابع من فبراير. وحين أرسلت القوات البريطانية دوريات إلى الضفة الشرقية من القناة، عثرت على وحدات معزولة من الجنود الأتراك الذين لم يعلموا بالانسحاب. لكن قرر البريطانيون عدم مطاردة العثمانيين المتقهقرين، إذ لم يعرفوا بعد كم عدد الجيش المشارك في الحملة، كما خافوا من أن تكون الحملة برمتها مجرد نوع من

الفخ بهدف إيقاع القوات البريطانية في كمين في مجاهل سيناء. ارتاح العثمانيون من جانبهم حين عرفوا أن القوات البريطانية لا تطاردهم، وشقوا طريقهم ببطء عائدين إلى بئر السبع.

كانت الخسائر التي أصابت الجانبين منخفضة نسبياً. فقد البريطانيون 162 قتيلاً إضافة إلى 130 جريحاً في القتال على القناة. بينما كانت أرقام العثمانيين أعلى. زعم البريطانيون أنهم دفنوا 238 قتيلًا عثمانياً وأسروا 716، مع أن كثيرين غيرهم قتلوا في القناة ذاتها. أما جمال باشا فقدر الخسائر العثمانية بـ192 قتيلاً، و381 جريحاً، و727 مفقوداً[52].

* * *

في أعقاب الهزيمتين في القوقاز وقناة السويس، قرر القادة العثمانيون في وزارة الحربية استعادة البصرة من البريطانيين. لقد فاجأت سرعة احتلال الجيش الإنكليزي-الهندي لجنوب العراق الاتحاديين من أعضاء تركيا الفتاة، وكشفت ضعف قواتهم وانكشافها في منطقة الخليج العربي. تمثل التحدي في استعادة البصرة وصد البريطانيين وطردهم من بلاد الرافدين بأقل قدر ممكن من الجنود العثمانيين النظاميين. عهد أنور باشا، ناظر الحربية، المهمة إلى واحد من أبرز الضباط في جهاز استخباراته السرية ("تشكيلات مخصوصة")، اسمه سليمان عسكري.

كان سليمان، المولود في بريزرين (كوسوفو الحالية) عام 1884، رجلاً عسكرياً مثالياً، بمؤهلات ثورية كاملة. فأبوه جنرال عثماني درس في الأكاديمية العسكرية التركية النخبوية. وحتى اسمه العائلي يحمل كثيراً من الدلالات بالتركية والعربية. خدم في شبابه في موناستير (بلدة بيتولا المقدونية حالياً) وشارك في ثورة تركيا الفتاة عام 1908. ثم تطوع ضابطاً في حرب العصابات ضد الطليان في ليبيا عام 1911. كما عمل هناك ضابط اتصال بين قوات أنور في درنة وقائد هيئة الأركان التركية في بنغازي. انضم إلى "تشكيلات مخصوصة" في أثناء حروب البلقان وترقى في صفوفها السرية ليصل إلى المرتبة الثانية في القيادة تحت إمرة أنور باشا عام 1914. يعد وفقاً لبعض الروايات متهوراً ومندفعاً وعنيفاً، وقائداً ملائماً لقالب أنور النمطي. ابتكر خططاً حربية معقدة وحلم بانتصارات مجيدة على أعداء السلطنة[53].

قاد سليمان بين عامي 1909 و1911 الجندرمة العثمانية في بغداد. وجعلته هذه التجربة خبيراً مقيّماً من أعضاء تركيا الفتاة ببلاد الرافدين عندما دخل العثمانيون الحرب. بعد احتلال القوات الإنكليزية-الهندية للبصرة والقرنة، طالب سليمان بشن هجوم معاكس لإجبار الغزاة على التراجع إلى الخليج. وتوقع أن حملة ناجحة في البصرة سوف تلهب حماسة المسلمين، من العالم العربي إلى آسيا الوسطى، وتبعث الحياة في خطط الجهاد العثماني، وتمارس الضغط على الهند البريطانية والقوقاز الروسية. اقتنع أنور وزميله طلعت باشا، وزير الداخلية، بأنه الرجل المناسب للمهمة، فعين حاكماً وقائداً عسكرياً لولاية البصرة في 3 يناير 1915. انطلق الضابط الطموح لتولي واجباته على الفور.

أدرك سليمان أن التحدي الذي يواجهه هو تشكيل قوة لطرد البريطانيين، بالاعتماد على أقل عدد ممكن من الجنود العثمانيين النظاميين. تمثل الحل في تجنيد قوة كبيرة من عشائر البصرة والمناطق المحيطة. ولا شك أنه أمل بنسخ الدينامية التي شهدها في بنغازي أثناء الحرب الليبية، عبر حشد رجال القبائل تحت راية السلطان لمحاربة القوات الاستعمارية الأوربية. عزز الجاذبية الدينية للجهاد ضد أعداء السلطنة بدفعات نقدية إلى زعماء العشائر. لم يتوافر لديه وقت كاف لتدريب المجندين الجدد، فقاد على الفور قواته المختلطة للاشتباك مع البريطانيين.

بعد بضعة أيام من وصول سليمان عسكري إلى الرافدين، أصيب في 20 يناير 1915 بجراح خطرة في مناوشة مع الجنود البريطانيين على نهر دجلة على بعد عشرة أميال من القرنة. أخلي إلى بغداد لتلقي العلاج. لكن القائد التركي المتحمس أبى أن تردع جراحه مساعيه. واصل ضباطه تجنيد رجال العشائر للخدمة في الجيش العثماني. والتقى بانتظام مع قادته للتخطيط لتحرير البصرة. عرف أن الكتلة الرئيسة من القوات البريطانية متمركزة في القرنة -نقطة الالتقاء الاستراتيجية بين دجلة والفرات وشط العرب- وأن المنطقة المحيطة بالقرنة مغمورة بالمياه ولا تصلح عملياً لعبور المشاة، فخطط مع ضباطه لتجنب القرنة ومهاجمة الحامية البريطانية الأقل عدداً في مقر قيادتها في البصرة.

عاد سليمان إلى الجبهة في أبريل 1915 قبل أن تلتئم جراحه لقيادة الهجوم على البصرة. رأس قوة مختلطة من 4000 جندي تركي نظامي ونحو 15.000 من المقاتلين غير النظاميين من العشائر العربية. وحين كانت الحملة العثمانية تعبر إلى الغرب من مواقع البريطانيين في القرنة، رصدها الكشافة وبلغوا مركز القيادة البريطانية في البصرة في 11 أبريل. تحصنت قوة مشتركة إنكليزية-هندية مؤلفة من 4600 جندي مشاة ونحو 750 من الفرسان في مواقع منيعة في الشعيبة إلى الغرب من البصرة لصد قوات سليمان عسكري.

أقام العثمانيون قاعدتهم في أرض غابية إلى الجنوب الغربي من الشعيبة. وفي فجر 12 أبريل، شنوا هجومهم، بينما كان سليمان وهو ما يزال في فترة النقاهة يرقب المعركة من مقره في الغابة. أطلقت المدفعية المتنقلة حممها على المواقع البريطانية ووجهت المدافع الرشاشة نيرانها على الخنادق، بينما كانت موجة إثر موجة من المشاة العثمانيين تحاول اختراق الخطوط البريطانية. ومع انتصاف النهار، وجد جنود الجيشين أنهم يطلقون النار على سراب، فقد تشوشت الرؤية بفعل الرطوبة وأشعة الشمس الساطعة. قاتل الجنود العثمانيون المدربون جيداً بانضباط مشهود، لكن مع المغيب بدأ رجال العشائر العرب الفرار من الميدان[54].

خاب أمل سليمان عسكري بـ"المحاربين الصادقين" من البدو. تبين أن عشائر العراق لا تشعر بولاء كبير للسلطان أو إجلال له كخليفة للمسلمين. ولا ينظر رجالها إلى البريطانيين باعتبارهم تهديداً. بل إن كثيراً من الحكام العرب في الخليج -مثل شيوخ الكويت وقطر والبحرين- سعوا بحماس للحصول على الحماية البريطانية من الحكم العثماني. وصحيح أن البدو ذهبوا إلى الحرب مع قوات سليمان عسكري، لكن دوافعهم انتهازية، واحتفظوا بالحق في تبديل الولاء إذا حابت الظروف البريطانيين. وكلما طالت المعركة دون تحقيق اختراق، تقلصت قناعة رجال العشائر بقضية العثمانيين ومزايا القتال في صفوفهم.

تحول البريطانيون إلى الهجوم في اليوم اللاحق. لكن من دون طائرات تساندهم، لم يعرفوا شيئاً عن التطورات الجارية في ميدان المعركة (كانت الشعيبة واحدة من أواخر المعارك التي خاضها الجيش البريطاني دون استطلاع جوي مسبق). إذ ترك الغبار والحرارة والسراب القادة البريطانيين في حالة من التشوش. ولم يتمكنوا من معرفة تقهقر المقاتلين العرب غير

النظاميين، وصمود الجنود الأتراك الذين تشبثوا بمواقعهم وقاتلوا بضراوة. كان الجنرال السير تشارلز جون ميليس، القائد البريطاني، على وشك التراجع عندما تلقى خبر تمكن جنوده من اختراق الخطوط التركية. "لا أريد أبداً معاناة القلق الذي أصابني في جزء من ذلك الوقت. وصلت تقارير عن خسائر جسيمة في جميع الجهات، وشككت في احتمال تحقيق مزيد من التقدم. ألقيت بآخر رجل عندي في القتال -وظل الشك سيد الموقف"، كما كتب لاحقاً إلى زوجته[55].

أنهكت القوات الإنكليزية-الهندية بعد اثنتين وسبعين ساعة من القتال، ولم تطارد الجيش العثماني المتقهقر. أصيب الطرفان كلاهما بخسائر جسيمة في المعركة التي دامت ثلاثة أيام: 1000 قتيل وجريح عثماني، و1200 قتيل وجريح بريطاني في الشعيبة. تركت للطواقم الطبية البريطانية مواجهة التكلفة البشرية للحرب عند انتهاء المعركة. تذكر أحد ضباطها كيف "أحضرت عربات محملة بأكوام مختلطة من القتلى والجرحى الترك. كان الهول ينأى عن الوصف"[56].

لم يحظ الترك الذين أنهكتهم المعركة بالراحة وهم ينسحبون، مع أن البريطانيين تركوهم بسلام. فعلى طول الطريق الممتد تسعين ميلًا باتجاه الحامية في الخميسية، ناوش رجال القبائل البدوية المشاة العثمانيين المهزومين. اقتنع الضباط الأتراك بأن كثيراً من البدو المهاجمين الآن ليسوا سوى "المتطوعين" الذين انشقوا عنهم وتركوهم في جحيم المعركة في الشعيبة. ضاعف غدر العشائر العربية وخيانتها مهانة الهزيمة التي ناء بها سليمان عسكري. جمع ضباطه الترك في الخميسية لينفس عن غضبه على البدو ودورهم في الهزيمة العثمانية. لن تتكرر الحرب الليبية، حين قاتل الشباب الاتحاديون من أعضاء تركيا الفتاة جنباً إلى جنب رجال القبائل العربية ضد العدو الأجنبي. ولن تتفجر انتفاضة إسلامية كبرى تنتشر من البصرة المحررة عبر الخليج لتشعل الهند بلهيبها. تحطمت آماله بالانتصار المجيد، فأخرج مسدسه وانتحر في الخميسية.

مثلت الشعيبة مواجهة بالغة الأهمية؛ إذ لن يحاول العثمانيون مرة أخرى استعادة البصرة، وستبقى المصالح النفطية البريطانية على الجانب الفارسي من شط العرب مؤمنة طوال

السنوات الباقية من الحرب. بينما حيد الآن تهديد اندلاع انتفاضة للقبائل والبلدات العربية ضد الاحتلال الإنكليزي-الهندي لولاية البصرة. كما تحطمت الآمال الألمانية والتركية بتحقيق نصر عثماني حاسم يشجع الجهاد ضد قوى الوفاق، وهدأت المخاوف البريطانية على هذا الصعيد. أعلن القادة البريطانيون بعد أن فكروا ملياً أن الشعيبة "مثلت واحدة من المعارك الحاسمة في الحرب"[57].

انهارت معنويات الجيش العثماني في الرافدين جراء الخسائر الثقيلة وانتحار قائده. وبدلاً من طرد البريطانيين من البصرة، ترك هجوم سليمان عسكري الفاشل بلاد الرافدين كلها عرضة لمزيد من الاجتياح. استغلت قوة الحملة الهندية، التي حافظت على قدراتها الكاملة وتشجعت بالانتصارات التي حققتها، التشتت التركي لتوسيع غزوها في عمق العراق. في مايو، تقدمت القوة الإنكليزية-الهندية باتجاه العمارة على دجلة والناصرية على الفرات. وجب على العثمانيين الرد بسرعة لحماية بغداد من الهجوم -وهي مهمة غدت أشد صعوبة بسبب الهزيمة في الشعيبة واستمرار النقص في القوة البشرية في غمرة المحاولات اليائسة لإعادة بناء الجيش الثالث المحطم في القوقاز.

* * *

بين ديسمبر 1914 وأبريل 1915، أخذ العثمانيون زمام المبادرة على ثلاث جبهات دون تحقيق أي نجاح. في معركة ساريكاميش، دمر الجيش العثماني الثالث كله تقريباً، بينما تمكن جمال باشا من الانسحاب من الهجوم الأول على قناة السويس والحفاظ على جيشه الرابع سليمًا تقريباً. كما انتهت محاولة سليمان عسكري لاستعادة البصرة بالإخفاق أيضاً. بينت الحملات الثلاث أن القادة العثمانيين يفتقدون الواقعية في توقعاتهم، لكن أكدت أن الجندي العثماني العادي على قدر لا يصدق من العزم والثبات والانضباط حتى تحت أقصى الظروف. كشفت هذه المعارك أيضاً القيود المحددة لدعوة السلطان إلى الجهاد. ففي المكان الذي تلقى فيه العثمانيون الهزيمة، منع الإحباط السكان المسلمين من الانتفاض ضد قوى الوفاق. واعتقد الحلفاء أن الهزائم العثمانية الحاسمة ألغت تهديد الجهاد إلى الأبد.

اعتماداً على اطمئنان زائف إلى تدني الفاعلية العسكرية العثمانية، فكر الحلفاء بشن حملة كبرى على الترك لإخراجهم من الحرب نهائياً. حولوا تركيزهم إلى العاصمة العثمانية إسطنبول، والمضائق التي تحمي الخطوط البحرية إلى تلك المدينة القديمة -الدردنيل. في الحقيقة، كان الهجوم العثماني على ساريكاميش هو الذي دفع المخططين البريطانيين أولاً إلى التفكير في غزو المضائق.

6

الهجوم على الدردنيل

اجتمع مجلس الحرب البريطاني في لندن في 2 يناير 1915 لمناقشة طلب عاجل بالمساعدة من رئيس هيئة أركان الجيش الروسي. عقد اجتماع المجلس بناء على دعوة من رئيس الوزراء، هربرت هنري أسكويث، وضم كبار الوزراء للاهتداء برأيهم حول تقدم المجهود الحربي البريطاني. ومع أن المجلس -تقنياً- مجرد لجنة في الحكومة البريطانية، فقد تطور إلى هيئة لصنع القرار اعتماداً على مؤهلاته الذاتية، حيث يرفع القرارات المتعلقة بالسياسة إلى الحكومة باعتبارها واجبة التنفيذ. أما الشخصيات المدنية في المجلس فكانت على درجة كبيرة من القوة والفعالية والتأثير: ونستون تشرشل، اللورد الأول للأدميرالية (قيادة القوات البحرية)، وديفيد لويد جورج، وزير الخزانة، والسير إدوارد غراي، وزير الخارجية، وغيرهم. لكن الصوت المهيمن على مداولات المجلس صوت رجل عسكري: الفيلد مارشال هوراشيو هربرت كتشنر، وزير الحربية.

كان كتشنر، الذي تحول مع شاربه المفتول وإصبعه الممدودة إلى أيقونة ذائعة على ملصقات تجنيد الجيش البريطاني عام 1914، أشهر جندي في الامبراطورية. قاد البريطانيين إلى النصر في معركة أم درمان، وأعاد فتح السودان عام 1898. كما رأس القوات البريطانية في حرب البوير الثانية (1899-1902)، وخدم قائداً عاماً للجيش في الهند حتى عام 1909. كان المحارب الحقيقي بين المدنيين في مجلس الحرب.

ركز المجلس في اجتماع 2 يناير على الوضع المتفجر في القوقاز الروسية. كان الدوق نيقولا، القائد الأعلى للقوات الروسية، قد التقى بالملحق العسكري البريطاني في سان بطرسبرغ لإبلاغه بالحالة المضطربة والخطرة التي انزلقت إليها روسيا. في ذلك الوقت، بدأت أخبار ساريكاميش بالوصول، وأشارت تقارير حديثة بتاريخ 27 ديسمبر إلى أن الترك على وشك تطويق الجيش الروسي في القوقاز. سعى نقولا إلى الحصول على تعهد كتشنر بشن هجوم على العثمانيين لتخفيف الضغط.

لم يكن باستطاعة السياسيين في "وايتهول" (مقر الحكومة البريطانية) معرفة أن الجيش الروسي على وشك تحقيق نصر شامل على قوات أنور باشا، حتى حين ناقشوا التهديد التركي في القوقاز. إذ لم يرغب مجلس الحرب برفض طلب قوة حليفة ووافق على التزام القوات البريطانية بشن هجوم ضد العثمانيين. وحالما انتهى الاجتماع، أرسل كتشنر برقية إلى سان بطرسبرغ لطمأنة الدوق بأن القوات البريطانية سوف "تجري استعراضاً ضد الترك". مع هذا القرار المصيري، استهلت بريطانيا التخطيط لحملة الدردنيل[1].

طالب كتشنر منذ البداية بعملية بحرية ضد الترك. لم يكن يعتقد أن بريطانيا تستطيع الاستغناء عن أي جندي على الجبهة الغربية؛ لكن يمكن دعوة عدد من السفن الحربية البريطانية والفرنسية في شرق المتوسط للخدمة ضد العثمانيين. أما التحدي فتمثل في العثور على هدف ساحلي يشكل تهديداً كافياً للمصالح العثمانية، بحيث تُجبر إسطنبول على إعادة نشر الجنود بعيداً عن القوقاز رداً على الهجوم. قصفت البحرية الملكية سابقاً المواقع التركية في الرافدين، وعدن، وخليج العقبة، وخليج الاسكندرونة في الزاوية الشمالية الشرقية من المتوسط، إضافة الحصون خارج الدردنيل، لكن دون تأثير ملحوظ في تحركات الجنود العثمانيين. رأى كتشنر أن هجوماً جديداً على الدردنيل قد يخدم الغرض إذا بدا تهديداً داهماً للعاصمة العثمانية نفسها. "المكان الوحيد الذي سيمارس فيه الاستعراض بعض التأثير في وقف التعزيزات المتوجهة شرقاً سيكون الدردنيل –بوابة إسطنبول"، كما كتب كتشنر إلى تشرشل[2].

أصدر كتشنر تعليماته إلى تشرشل، بصفته اللورد الأول للأدميرالية، بالتشاور مع أدميرالات البحرية الملكية حول جدوى مثل هذا "الاستعراض" البحري ضد الدردنيل

وإمكانية تنفيذه. زاد تشرشل الرهان، في اتصالاته مع القادة البحريين في شرق المتوسط، حيث سعى إلى معرفة آرائهم لا في مجرد قصف بحري، بل في إمكانية تهديد إسطنبول ذاتها عبر "اختراق المضائق بالسفن وحدها" -بكلمات أخرى، عملية لدفع السفن الحربية عبر مضائق الدردنيل الحصينة والملغمة، ومنها إلى بحر مرمرة لتهديد إسطنبول.

تمتد مضائق الدردنيل مسافة 41 ميلًا من البحر المتوسط إلى بحر مرمرة. وفي مسعى من العثمانيين والألمان لحماية إسطنبول من غزو عن طريق البحر، ركزوا جهدهم على امتداد بطول 14 ميلاً من المتوسط إلى الممر الضيق، حيث لا تبعد الشواطئ الأوربية عن الآسيوية أكثر من 1600 ياردة (1465 متراً). وجرى تحديث بطاريات المدفعية وتعزيزها على طول هذا الجزء الاستراتيجي من المضائق. كما وضع العثمانيون وحلفاؤهم الألمان أنواراً كاشفة لعرقلة أي عمليات ليلية. ومدوا شبكات تحت سطح الماء لإعاقة تحركات الغواصات المعادية. إضافة إلى ذلك كله، وضعوا مئات الألغام في محاولة لجعل عبور المضائق مستحيلاً.

استجاب الأدميرال ساكفيل كاردن، القائد البحري البريطاني في شرق المتوسط، لطلب تشرشل في 5 يناير، مؤكداً أن بالإمكان اقتحام المضائق بواسطة "عمليات موسعة بعدد كبير من السفن"، مع أن من غير السهل التغلب على الدفاعات العثمانية. وأضاف بأنه وضع خطة من أربع مراحل لاقتحام المضائق، أطلق على الأولى اسم "تقليص الحصون عند المدخل"، ما يسمح للسفن البريطانية والفرنسية بخرق فم المضائق وتوفير غطاء لكاسحات الألغام لفتح ممر آمن. وحملت المرحلة الثانية من العمليات اسم "تدمير الدفاعات الداخلية حتى كيبيز"، وهي نقطة على مسافة أربعة أميال داخل المضائق. وبعد أن يؤمن البريطانيون السيطرة على أوسع جزء ممكن من المضائق، يتقدمون إلى الممر الضيق حيث تتركز حقول الألغام وتقترب البطاريات الساحلية من الخطوط الملاحية. في المرحلة الرابعة والأخيرة من العملية، ينظف الأسطول ما بقي من حقول الألغام، ويدمر الدفاعات فيما وراء الممر الضيق، ويتقدم عبر المسافة المتبقية من الدردنيل (27 ميلًا) لدخول بحر مرمرة. اقترح كاردن إمكانية تحقيق هذه الأهداف الطموحة في خلال أسابيع بالقوة البحرية وحدها. عرض تشرشل خطة الأدميرال كاردن التمهيدية غير المفصلة على مجلس الحرب ليصادق عليها في 13 يناير[3].

بحلول الوقت الذي اجتمع فيه المجلس لمناقشة خطة كاردن، استكمل الروس دحر جيش أنور باشا على جبهة القوقاز ولم يعودوا بحاجة إلى العون البريطاني. لكن احتمال تحقيق نصر بحري ساحق في الدردنيل واحتلال العاصمة العثمانية استحوذ على مخيال كتشنر. إذ تلوح إمكانية هائلة لإنجاز اختراق في الشرق بعد أن تجمد الوضع على الجبهة الغربية وتحول إلى ورطة مأزقية كاملة للأطراف المتحاربة. كما أقنعت سلسلة الهزائم التي حلت بالسلطنة بين نوفمبر 1914 ويناير 1915 -في الرافدين وعدن وخليج الاسكندرونة وساريكاميش- كثيراً من المسؤولين في الحكومة البريطانية بأن العثمانيين على شفا الانهيار. فإذا تمكن الحلفاء من اختراق المضائق والاستيلاء على إسطنبول فسوف يخرجون تركيا بالضربة القاضية من الحرب نهائياً.

مثّلت إسطنبول جائزة ثمينة، لكن المضائق التي تربط البحر المتوسط بالبحر الأسود ستكون مصدر قوة استراتيجية عظيمة لدعم المجهود الحربي. وحين تصبح تحت سيطرة الحلفاء، سوف ترسل بريطانيا وفرنسا الجنود والمعدات الحربية عبر البحر الأسود وتنسقان الهجمات مع الحلفاء الروس ضد ألمانيا والنمسا من الشرق. ويمكن للقمح الروسي، بعد فتح المضائق، أن يطعم الجنود البريطانيين والفرنسيين على الجبهة الغربية. كان كتشنر مدركاً المخاطر المتضمنة في العملية، لكنه طمأن الزملاء المتشككين في مجلس الحرب بأن السفن سوف تنسحب بكل بساطة في حالة الفشل. بلغت جاذبية الحملة حد عدم حاجتها إلى قوات برية.

صادق مجلس الحرب على خطة الأدميرال كاردن في 13 يناير، على أمل تحقيق اختراق يعجل بنهاية الحرب. ووجهت الأوامر إلى البحرية الملكية بـ"الاستعداد لحملة بحرية في فبراير، لقصف شبه جزيرة غاليبولي والاستيلاء عليها، مع اعتبار القسطنطينية هدفاً للحملة"[4].

أبلغ البريطانيون دول الوفاق الحليفة فوراً قرارهم المتعلق بفتح جبهة جديدة في الشرق الأوسط. اتصل تشرشل بنظيره الفرنسي لإعلامه بالخطط البريطانية في الدردنيل. عبرت الحكومة الفرنسية عن دعمها الكامل وتعهدت بالإسهام بأسطول بحري، تحت القيادة

البريطانية، لمساعدة الحملة. وفي 19 يناير، أعلم تشرشل الدوق نيقولا أن بريطانيا سوف تسعى، بدلًا من القيام بـ"استعراض" ثانوي، لاختراق الدردنيل والاستيلاء على إسطنبول. طلب تشرشل من الروس تعزيز الحملة الإنكليزية-الفرنسية بهجوم متزامن من البحر الأسود على المضائق الشمالية للبوسفور. تعهد الروس بإرسال قواتهم البحرية إلى البوسفور حالما يصل الأسطول البريطاني إلى بحر مرمرة.

* * *

كانت للروس مصلحة كبرى في مساعدة حملة الحلفاء على المضائق. فقد انتظروا تفجر نزاع أوربي عام ليوفر لهم فرصة الاستيلاء على إسطنبول والمضائق. والآن، وقد سنحت، أقلقهم احتمال أن ترسل دولة أخرى -ولاسيما اليونان- جنودها إلى إسطنبول قبل أن يتمكنوا من تأمين حقهم المزعوم. وبينما تعهدوا بتقديم الدعم لهجوم مشترك على المضائق، استثمروا طاقة أكبر بكثير في محاولة ضمان تحقيق مطلبهم بضم القسطنطينية بالوسائل الدبلوماسية لا العسكرية[5].

وهكذا، أدى التخطيط لحملة الدردنيل إلى عاقبة غير مقصودة تمثلت في استهلال التفاوض (زمن الحرب) بين الحلفاء على اقتسام الامبراطورية العثمانية. فعلى خلفية الهجوم البحري الإنكليزي-الفرنسي على الدردنيل، سوف تسعى حكومة القيصر للحصول على اعتراف حلفائها رسمياً بمطالبها في الأراضي التركية. في 4 مارس 1915، كتب وزير الخارجية الروسي سيرغيي سازونوف إلى سفيري بريطانيا وفرنسا يطلب اتفاق الحلفاء على "مسألة القسطنطينية والمضائق" بالانسجام مع "تطلعات روسيا القديمة". فصل سازونوف حدود الأراضي التي تسعى روسيا للاستيلاء عليها: مدينة إسطنبول؛ الشواطئ الأوربية من البوسفور؛ بحر مرمرة والدردنيل؛ تراقيا العثمانية حتى خط ميدي-إينيز (الحدود التي فرضت على العثمانيين المهزومين مع نهاية حرب البلقان الأولى عام 1912). وكان ذلك سيترك الطرف الآسيوي من المضائق، والنصف الآسيوي من إسطنبول، والشواطئ الآسيوية لبحر مرمرة تحت الحكم العثماني، لكن يضمن الهيمنة الروسية على الممرات المائية الحيوية التي تربط البحر الأسود بالبحر المتوسط.

ونظراً إلى عدم وجود مصالح بريطانية أو فرنسية تتعرض للتهديد على نحو خاص جراء المطالب الروسية الوقحة، أبدت لندن وباريس استعداداً للتعاون. في 12 مارس، تنازلت بريطانيا إلى روسيا عما دعته "أغلى جائزة للحرب برمتها"، مع الاحتفاظ بحقها في الإعلان عن مطالبها في الأراضي العثمانية في الوقت المناسب. كانت فرنسا تعرف ما تريد من المناطق العثمانية: فقد طالبت بسوريا (بما فيها فلسطين)، وخليج الاسكندرونة، وكيليكيا (المنطقة الساحلية جنوب شرق مدينة أضنة التركية) مقابل الاعتراف بالمطالب الروسية في القسطنطينية والمضائق. أخذت هذه المطالب، إضافة إلى مطالب بريطانيا المؤجلة، الصفة الرسمية في سلسلة من الوثائق المتبادلة في الفترة الممتدة بين 4 مارس و10 أبريل، وعرفت لاحقاً باسم اتفاقية القسطنطينية -الأولى ضمن عدة مخططات تقسيمية وضعت زمن الحرب لامبراطورية عثمانية أثبتت أنها أشد مقاومة للهزيمة مما توقعه أعداؤها[6].

في أواخر يناير وأوائل فبراير، حشد الحلفاء أساطيلهم خارج المضائق. ضمن البريطانيون والفرنسيون، بالاتفاق مع الحكومة اليونانية، "إعارة" ميناء مودروس على جزيرة ليمنوس المتنازع عليها، على بعد نحو خمسين ميلًا عن الدردنيل، ليكون قاعدة عملياتهم. كما احتل البريطانيون الجزيرتين الأصغر مساحة، إمبروس وتينيدوس (تحملان اليوم اسمين تركيين: غوكشيدا وبوزجادا) على مرأى من الساحل التركي على جانبي مدخل الدردنيل. ونظراً إلى أن تركيا لم تعترف قط بالمطالب اليونانية في الجزر المحتلة في حرب البلقان الأولى، لم يُعد وجود الحلفاء عند مدخل الدردنيل انتهاكاً لحياد اليونان (دخلت الحرب إلى جانب دول الوفاق عام 1917).

سرعان ما أدرك المخططون الحربيون أن الحلفاء بحاجة إلى نشر بعض القوات البرية كجزء من أي مناورة بحرية في الدردنيل. زعمت التقارير الاستخبارية البريطانية أن هناك 40.000 جندي تركي على شبه جزيرة غاليبولي. وحتى لو تراجع هؤلاء الجنود العثمانيون أمام هجوم بحري كبير، فسوف يحتاج البريطانيون والفرنسيون إلى تأمين الحصون التي تخلى عنها المدافعون على طول الدردنيل إذا أرادوا إبقاء المضائق آمنة ومفتوحة أمام سفن الحلفاء.

سوف يحتاجون أيضاً إلى جيش احتلال للسيطرة على إسطنبول حالما تسقط. أما الصعوبة فتكمن في إقناع اللورد كتشنر بنقل المشاة من الجبهة الغربية للانضمام إلى حملة شرقية.

مع تحمس كتشنر للمنافع والمكاسب المحتملة التي تمنحها حملة الدردنيل لإجمالي المجهود الحربي، قبل أخيراً بالحاجة إلى إشراك الجيش، لكنه ظل يحث تشرشل على الاعتماد أولاً وأخيراً على القوة البحرية لاختراق المضائق. اعتبر وزير الحرب وحدات المشاة في حالة إعارة مؤقتة لحملة قصيرة في تركيا قبل العودة إلى الجبهة الغربية، حيث تشتد الحاجة إليهم إلى أقصى حد. ولذلك يجب اعتبار القوات البرية قوات احتياطية إلى أن تتمكن البحرية من اقتحام المضائق. على هذا الأساس، أمر كتشنر في أواخر فبراير القائد البريطاني في مصر بإرسال 36.000 من الجنود الأستراليين والنيوزيلنديين، للانضمام إلى 10.000 رجل من الفرقة البحرية الملكية في مودروس. بدأ الفرنسيون أيضاً بجمع قوات برية لحملة الدردنيل. إذ حشدوا "فيلق الحملة الشرقية" الذي يضم وحدات أوربية، وجنوداً من المستعمرات، والفرقة الأجنبية -العدد الإجمالي 18.000 رجل- وأرسلوه إلى المضائق في الأسبوع الأول من مارس.

مع تجمع عشرات الآلاف من جنود الحلفاء وبحارتهم في الدردنيل، أخذ "الاستعراض" يتحول باطراد إلى حملة -لا تستطيع دول الوفاق تحمل تبعات خسارتها. بينما لم تعد حجة كتشنر بأن باستطاعة البريطانيين الانسحاب بكل بساطة إذا لم ينجح الهجوم دون أن يخسروا هيبتهم، تحمل أي معنى أو منطق. ومع الصلية الافتتاحية ضد الحصون الخارجية للدردنيل في فبراير 1915، نفذ البريطانيون استعراضاً ضخماً إلى حد تعذر التراجع دون تعريض هيبتهم وسمعتهم لإهانة جدية ومخزية.

* * *

احتشد في المياه العميقة لميناء مودروس أسطول ضخم مذهل جلب السفن الحربية المبتكرة في العصر الصناعي إلى الجبهة الشرق أوسطية. أرسل البريطانيون أول حاملة طائرات لديهم إلى الدردنيل. كانت (*Ark Royal*) سفينة تجارية جهزت برافعتين لإنزال الطائرات البحرية من ورشة في هيكلها إلى سطح الماء قبل الإقلاع ثم استعادتها بعد الهبوط. وسوف

توفر الطائرات البحرية الست على الحاملة استطلاعاً جوياً للعمليات في الدردنيل، ريثما يتم بناء مهابط على جزيرتي ليمنوس وتينيدوس للطائرات الأثقل وزناً والأبعد مدى. ومن بين المدمرات البريطانية الأربع عشرة، والفرنسية الأربع، برزت (*Queen Elizabeth*) باعتبارها الأضخم والأحدث من نوعها، "بارجة جبارة" انضمت إلى الخدمة في السنة نفسها. كانت مدافعها الثمانية عيار 15 بوصة الأشد قوة وتدميراً في شرق المتوسط، حيث تستطيع إطلاق قذائف زنة طن واحد مسافة ثمانية عشر ميلاً. بينما فاخرت البوارج الأصغر حجماً والسفن الحربية الأقدم عهداً بمدافع من عيار 12 بوصة -صحيح أنها أقصر مدى لكنها تبقى قوية. ازدحم الميناء أيضاً بقوة إضافية مؤلفة من سبعين سفينة، ضمت طرادات، ومدمرات، وغواصات، وكاسحات ألغام، وزوارق طوربيد. بلغ إجمالي القوة النارية للأسطول الإنكليزي-الفرنسي 274 مدفعاً متوسطاً وثقيلاً.

افتتحت العمليات البحرية في 19 فبراير 1915. تمثل الهدف الأول لأسطول الحلفاء في تدمير الحصون الخارجية للدردنيل -حول سد البحر على الجانب الأوربي وكوم كالي على الشاطئ الآسيوي- ومدافعها التسعة عشر العتيقة التي تجاوزها الزمن. تمتعت مدافع الدارعات البريطانية الحديثة بمدى أطول بكثير من المدفعية التركية. فتحت النار على الحصون من مسافة آمنة تماماً تبعد خمسة إلى ثمانية أميال من الشاطئ. وبعد تسجيل ما بدا أنه عدد من الإصابات المباشرة في المواقع العثمانية، تقدمت السفن البريطانية مسافة أقرب إلى الشط لتفحص الأضرار. عندها فقط ردت المدافع التركية على النار بالمثل، ما أجبر السفن البريطانية على الانسحاب إلى مسافة آمنة لإعادة التفكير بالتكتيكات الهجومية.

أثارت أخبار قصف الحلفاء للمضائق، وإن لم ينجح، حالة من الهلع في إسطنبول. استعدت الحكومة العثمانية والقصر لمغادرة العاصمة والانتقال إلى بلدة إسكيشهير في الأناضول، في منتصف المسافة بين إسطنبول وأنقرة. بينما بدأت الخزانة نقل احتياطيها من الذهب إلى الأناضول للاحتفاظ به في مكان آمن. شجعت ردة فعل الأتراك الأمل في لندن بأن الاقتحام الناجح للمضائق قد يستفز أزمة سياسية في إسطنبول تسقط حكومة تركيا

الفتاة وتؤدي إلى استسلام سريع للعثمانيين. كان كتشنر على وجه الخصوص يرى دوماً أن هجوماً ناجحاً على إسطنبول سوف يشعل شرارة مثل هذه الثورة[7].

أخرت الأمواج العالية والأحوال الجوية السيئة استئناف الأعمال الحربية خمسة أيام. في 25 فبراير، جدد الأدميرال كاردن قصف المواقع التركية من مكان أقرب. ما عرض سفنه لنيران العدو. أصيبت المدمرة (*Agamemnon*) بأضرار جسيمة بفعل القذائف التركية. لكن عبر القصف الذي استمر طوال اليوم، تمكنت السفن الأخرى من إسكات المدافع التركية في الحصون الخارجية على الجانبين الآسيوي والأوربي من الدردنيل. تخلى المدافعون الأتراك عن مواقعهم تحت نيران الحلفاء الضارية. وحين نزلت وحدات من مشاة البحرية الملكية على الحافة الجنوبية من شبه جزيرة غاليبولي لتدمير أي مدافع باقية، شقت طريقها إلى الحصون دون مقاومة وعادت إلى السفن سالمة آمنة بعد تهديم مرابض المدفعية واستحكاماتها[8].

أمكن لسفن الحلفاء الآن عبور مدخل الدردنيل دون خوف من قصف المدافع المتمركزة في الحصون والقلاع الخارجية. ما منح الأدميرال كاردن حرية الانتقال إلى المرحلة الثانية من الحملة: عمليات إزالة الألغام وتدمير الدفاعات الداخلية من فم المضائق حتى نقطة كيبيز. فإذا تحرك البريطانيون بسرعة، سيجدون الدردنيل محمياً بقوات برية تركية قليلة نسبياً. لكن أبطأت الحملة البريطانية المعلومات الاستخبارية الخاطئة والطقس السيئ، فتوافر للترك وقت ثمين لتعزيز موقفهم.

على مدى أيام عديدة بين أواخر فبراير ومنتصف مارس، منعت ريح عاتية وأمواج عالية السفن البريطانية والفرنسية من الانخراط في المهمة الدقيقة والخطرة: إزالة الألغام. وحين سمح الجو لكاسحات الألغام بالعمل، دخلت السفن الحربية البريطانية والفرنسية المضائق لحمايتها من المدفعية المتمركزة على الشاطئ. خابت مساعي الحلفاء لتدمير البطاريات الساحلية الثابتة المصطفة على طول الشواطئ الداخلية للدردنيل. فقد وزعت المدافع في مواقع حصينة ومخفية عملياً، ويتعذر الوصول إليها من مستوى البحر. حرثت القذائف الثقيلة للمدمرات الحليفة التربة حول الاستحكامات، فدفنت المدافع دون تدميرها. وحالما انسحبت، حفر العثمانيون والألمان الاستحكامات وأعادوا البطاريات الساحلية إلى العمل مرة أخرى[9].

وبغض النظر عن مدى الإحباط الذي أصاب البريطانيين والفرنسيين جراء المبارزات النارية مع البطاريات الساحلية، فقد ثبت أن المدفعية المتنقلة الجديدة التي أدخلها الألمان إلى الدردنيل شكلت أعظم خطر مهدد للسفن الحليفة. "لا يخرج الدخان من فوهات تلك المدافع اللعينة، وهي صغيرة جداً وقادرة على التنقل والحركة بحرية تامة، وليست لدي نصيحة أقدمها لتحديد مواقعها"، كما اشتكى ضابط بحري فرنسي. أطلقت المدافع المتنقلة قذائفها من خلف سفوح التلال المحيطة بالمضائق فسقطت قنابل الشظايا على الأسطح غير المحمية للسفن الحليفة، موقعة بها خسائر جسيمة في الأرواح والمعدات. قتلت إحدى القذائف التي أصابت الهدف إصابة مباشرة في أثناء عمليات إزالة الألغام عشرين بحاراً فرنسياً على متن الطراد (*Amethyst*). طائرات الاستطلاع وحدها تمكنت من تحديد مواقع المدافع المتنقلة. لكن قبل أن يبلغ الطيارون البريطانيون السفن بمواقع المدافع، تكون الطواقم قد نقلت القطع إلى مواقع جديدة لتوجه مرة أخرى، من مكامنها الآمنة تماماً، حممها الفتاكة على السفن المغيرة[70].



بطارية تركية في غاليبولي. نشر الرماة الأتراك مدفعية متنقلة خلف التلال المشرفة على مضائق الدردنيل فأحدثت تأثيراً مدمراً وفتاكاً بسفن الحلفاء. ومثلما لاحظ ضابط بحري فرنسي: «لا يخرج الدخان من فوهات تلك المدافع اللعينة، وهي صغيرة جداً وقادرة على التنقل والحركة بحرية تامة، وليست لدي نصيحة أقدمها لتحديد مواقعها».

لم تكن كاسحات الألغام أكثر نجاحاً في تحديد مواقع الألغام من السفن الحربية في العثور على البطاريات المتنقلة. ذكرت الاستخبارات البريطانية أن الترك وضعوا ألغاماً على طول المسافة الممتدة من فم المضائق إلى الممر الضيق. في الواقع، اختار العثمانيون بأسلوب عقلاني رشيد تركيز مواردهم المحدودة على مسافة أبعد باتجاه الشمال في أضيق مناطق الدردنيل؛ ما جعل المياه الممتدة بين نقطة كيبيز والممر الضيق غير صالحة لمرور السفن المعادية. كان ذلك كله يعني في دلالته أن الحلفاء ضيعوا أسابيع في البحث عن الألغام في الجزء الأعرض من الدردنيل، حيث لم تكن موجودة أصلاً. اشتبه ضابط بحري فرنسي بأن الألمان تعمدوا تضليل الحلفاء: "على الرغم من معلوماتنا الدقيقة جداً (من مصدر ألماني على الأرجح) حول موقع خطوط الألغام، وأعدادها، وكثافتها، فإننا لم نجد إلى الآن واحداً منها"، كما قال غاضباً في مفكرته. "فما الذي نفعله هنا منذ 25 فبراير بحق الشياطين؟"[11].

لم يحقق أسطول الحلفاء، على مدى شهر من العمليات، إنجازاً يذكر ضد البطاريات العثمانية، وعادت كاسحات الألغام "خالية الوفاض" إذا جاز التعبير. في لندن، بدأ صبر ونستون تشرشل ينفد. "إذا لم يكن النجاح ممكناً دون خسارة السفن والرجال، فإن الثمار التي سنجنيها مهمة بما يكفي لتبرير مثل هذه الخسارة"، كما أكد في برقية إلى الأدميرال كاردن في 11 مارس. وأضاف: "سوف يتلقى دعمنا كل عمل جيد الإعداد لقرار بالاقتحام، حتى وإن استلزم خسائر مؤسفة". استجاب الأدميرال لضغوط تشرشل بإصدار أوامره في 15 مارس بالهجوم على الحصون الداخلية للممر الضيق من الدردنيل واقتحامه. لكن الضغط أثر في كاردن، الذي انهار في 16 مارس ونقل إلى مالطة لتلقي العلاج الطبي. خلفه الرجل الثاني في القيادة، نائب الأدميرال جيه. إم. دي روبيك، الذي أمر بالبدء بالعمليات صباح 18 مارس[12].

* * *

صفا الجو وهدأت الريح صباح يوم 18 مارس، ودخل الأسطول الإنكليزي-الفرنسي المضائق لبدء "أعظم معركة جرت في التاريخ بين مدرعات طافية على البحر وبطاريات متمركزة على البر"، حسب وصف ضابط ألماني. في الساعة 11:00 صباحاً، قادت البارجة الجبارة (*Queen Elizabeth*) أسطولاً من أضخم ست سفن بريطانية إلى داخل فم المضائق، وفتحت النار على الحصون العثمانية، "بمعدل مروع فعلاً"، حسب كلمات شاهد عيان. حافظت السفن البريطانية على المستوى المكثف من النيران ضد المواقع التركية. "كانت الحصون ترد بأسلوب ممتاز، على الرغم من حقيقة.. أن من المستحيل على ما يبدو أن يتمكن البشر من العيش تحت ظروف كتلك الموجودة داخل الحصون وحولها". اشتعلت النيران بالبيوت الخشبية المهجورة في بلدتي شناق قلعة وكيليتبهر، واضطرمت طوال اليوم. تبادل الطرفان الضربات على مدى تسعين دقيقة دون تحقيق تفوق حاسم[13].

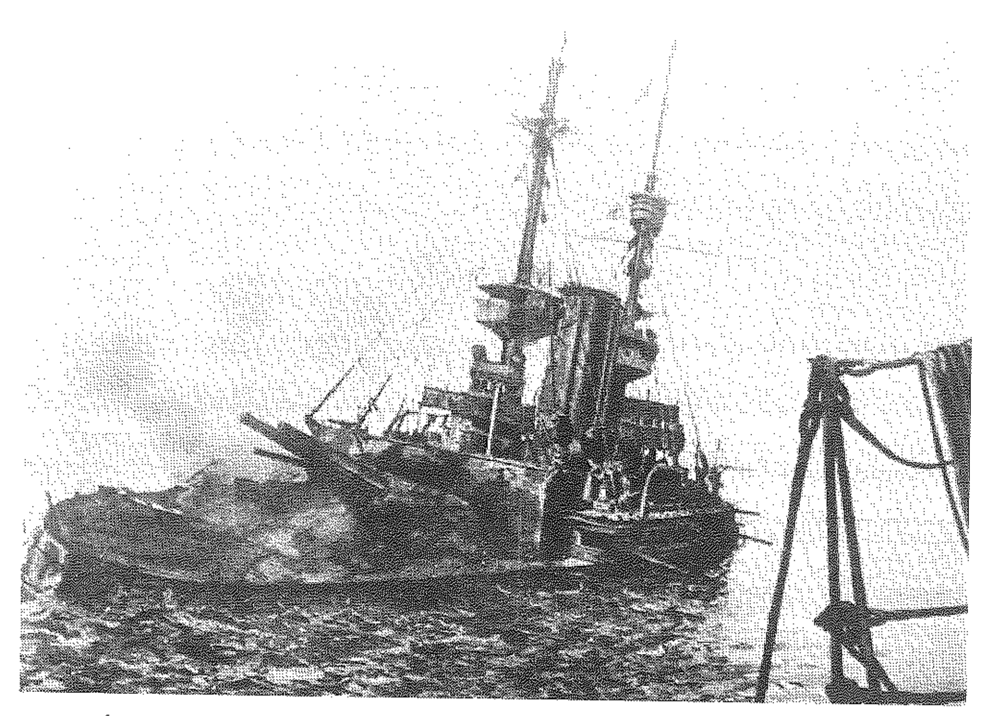
في الساعة 12:30، انضمت أربع سفن حربية فرنسية بكل حماسة إلى المعركة وقادت الموكب نحو نقطة كيبيز. لكن عندما كانت تبحر شمالاً عبر المضائق، تقاطعت عندها النيران الكثيفة التي أطلقتها الحصون في الممر الضيق، والبطاريات الساحلية، والمدافع المتنقلة. على مدى الساعة اللاحقة، أصيبت السفينتان (*Suffren*) و(*Bouvet*) بعدة إصابات مباشرة لكن واصلتا القصف بعناد. وعندما بدأ القصف التركي يضعف بعد ساعة من التراشق العنيف بالمدافع، أمر الأسطول الفرنسي بالانسحاب لتحل محله سفن بريطانية جديدة.

عندئذ، بدأت الأمور تسوء بالنسبة إلى الحلفاء. حين عادت السفينة الحربية (*Bouvet*) لتشق طريقها خارج المضائق، حملها تيار قوي ودفعها للاصطدام بلغم في خليج إرينكوي، قبالة السواحل الآسيوية من الدردنيل. أحدث الانفجار ثقباً هائلاً في الهيكل فمالت فوراً على ميمنتها. وحين أصبحت الصواري أفقية، وبدأت مياه البحر تغلي وهي تملأ مداخنها الساخنة، انقلبت خلال دقيقتين، وبقيت عنفاتها الدافعة الثلاث تدور في الهواء. حوصر

أفراد الطاقم البالغ عددهم 724 كلهم تقريباً داخل البدن المقلوب رأساً على عقب حين غطست فجأة إلى قعر البحر. سجل أحد الضباط الفرنسيين في مفكرته: "بدا وكأن أحداً لا يستطيع وقف الحركة المهلكة التي قضت على السفينة. وإذا عشت مئة سنة لن أنسى رعب مشاهدة (*Bouvet*) تغرق". انتهى الأمر كله في دقائق معدودات. لم ينج من الكارثة سوى اثنين وستين رجلاً[14].

فاجأت الألغام في خليج إرينكوي الحلفاء وأذهلتهم. فبعد أن لاحظ العثمانيون أن السفن البريطانية والفرنسية تناور في الخليج أثناء عمليات إزالة الألغام التي استمرت أسابيع، وضعوا صفاً جديداً من عشرين لغماً في فم الخليج ليلة 7–8 مارس. لم تلاحظ كاسحات ألغام الحلفاء ذلك ولا الاستطلاع الجوي. ونظراً إلى عدم التأكد من سبب إغراق السفينة (*Bouvet*) -المدفعية، أم لغم طاف، أم طوربيد أطلق من الشط- أصيبت عدة سفن حربية بريطانية أيضاً في خليج إرينكوي. في الساعة 4:00 بعد الظهر تقريباً، صدمت المدمرة البريطانية (*Inflexible*) لغماً، وبعدها مباشرة صدمت السفينة (*Irresistible*) لغماً آخر، دمر الدفة وتركها تنجرف خارج السيطرة. وحين أرسلت السفينة (*Ocean*) لنجدتها انفجر بها لغم ثالث. تمكن صف واحد من عشرين لغماً من إصابة أربع سفن.

شعر "المدفعجية" الأتراك باقتراب النصر وهم يشاهدون سفينة تغرق وثلاثاً تعطب، فضاعفوا جهدهم، وسددوا رميهم على السفن العالقة. أصابت قذيفة جيدة التصويب مخزن السفينة الفرنسية (*Suffren*)؛ فدوى انفجار ضخم قتل اثني عشر بحاراً وكاد يغرقها لولا غمر المخزن بالمياه لمنع مزيد من الانفجارات. كما أصيبت السفينة (*Gaulois*) أيضاً بأضرار جسيمة جراء نيران المدفعية وبدأت المياه تتسرب إلى هيكلها. وتلقت (*Queen Elizabeth*) خمس إصابات مباشرة. وحالما تراجعت السفينة المتضررة (*Inflexible*) من المضائق، وتم إنقاذ الناجين من طواقم السفينتين المعطوبتين (*Ocean*) و(*Irresistible*)، رفع الأدميرال روبيك راية الدعوة العامة لانسحاب جميع السفن.



إغراق المدمرة (*Irresistible*). دمر صف من عشرين لغمًا وضعه العثمانيون في خليج إرينكوي أربع سفن للحلفاء -من بينها (*Irresistible*)- في اشتباك بحري كارثي بتاريخ 18 مارس 1915. نجحت البحرية الملكية في إنقاذ معظم طاقم السفينة المتضررة قبل أن يغرقها الرماة الترك في نهاية المطاف.

غمرت مشاعر الرضا والتشفي طاقم إحدى البطاريات التركية على نحو خاص لمحنة الأسطول الإنكليزي-الفرنسي. فقد أنقذت مدافع السفينة العثمانية المنكوبة "المسعودية"، التي أغرقها طوربيد أطلقته غواصة بريطانية في ديسمبر 1914، من القاع ونصبت في أحد التحصينات المرتجلة حمل اسم السفينة الغارقة. أطلق الناجون من مدفعجية السفينة، بعد أن التأم شملهم في "بطارية المسعودية"، نيران حممهم إلى أن فرغت مخازنهم تقريباً. تذكر شفيق كابتان، ضابط المدفعية في "المسعودية" ما أحس به من فرح وسرور وهو يشاهد أسطول الحلفاء المهزوم ينسحب من المعركة. قال مهللاً: "ربحنا المعركة. ساعدنا على الثأر من خسارة سفينتنا". تابعت المدافع التركية إطلاق النار على السفينتين المتضررتين (*Ocean*) و(*Irresistible*) اللتين جرفهما التيار حتى انضمامهما إلى (*Bouvet*) و"المسعودية" في قعر البحر[15].

حين انسحبت آخر سفن الحلفاء متعثرة من الدردنيل، صعب على الترك تبين حجم إنجازهم وأهميته. كان ذلك في الواقع أول انتصار عثماني في الحرب العظمى. قفز أفراد طواقم المدافع المتمركزة في المضائق مبتهجين مهللين فوق متاريس البطاريات، ورددوا الهتاف العثماني التقليدي "عاش السلطان!". لكن ردة الفعل في إسطنبول وغيرها من مدن السلطنة كانت صامتة. لاحظ السفير الأميركي في إسطنبول كيف اضطرت الشرطة للتنقل من باب إلى باب لتشجيع الأهالي على رفع الأعلام احتفاء بالنصر. لم تخرج مظاهرات عفوية أو مواكب احتفالية.

علم حقي سوناتا، الملازم الشاب في الجيش العثماني، بالنصر البحري وهو يجلس في مقهى ويكتب الرسائل إلى أصدقائه. لاحظ فيما بعد كيف "لم نعرف عن المعركة [في ذلك اليوم] إلا القليل.. ولم نتمكن من استيعاب مدى خسائر العدو. أفترض أن الحكومة نفسها لم تستطع في البداية استيعاب الأهمية، ولذلك امتنعت عن عرض النتيجة باعتبارها نصراً كبيراً". أصدرت القيادة العامة سلسلة من التقارير إلى صحف إسطنبول أثناء القتال، ملاحظة ضراوة هجوم الحلفاء وبطولة القوات التركية في الدفاع عن الوطن ضد أعظم بحرية في العالم. لكن العثمانيين لم يصدقوا تماماً أن المعركة انتهت وتوقعوا أن تعود سفن الحلفاء في اليوم اللاحق لاستئناف حملتها[16].

ذهل البريطانيون والفرنسيون من جانبهم بحجم الهزيمة. أغرقت ثلاث سفن حربية، وأصيبت ثلاث غيرها بأضرار جسيمة جعلتها خارج الخدمة فعلياً؛ بينما بلغت الخسائر في الأرواح 1000 رجل، وجرح المئات. تقلصت القوة الإجمالية لأسطول الحلفاء في المعركة بنحو الثلث في يوم واحد من القتال من دون إلحاق ضرر مهم بالمواقع العثمانية. ومع أن البريطانيين والفرنسيين لم يعلموا آنذاك، فإن العثمانيين خرجوا من المعركة سالمين عملياً. إذ لم تصب بطاريات المدافع (في التحصينات الداخلية) بأضرار تذكر، وبقيت حقول الألغام بين كيبيز والممر الضيق على حالها، ولم تتجاوز الخسائر في الأرواح 150 إصابة. مهّدت هزيمة 18 مارس لنهاية الحملة البحرية في الدردنيل وفعّلت الخطط المرسومة للحملة البرية[17].

* * *

اجتمع مجلس الحرب في لندن يوم 19 مارس لإجراء جردة للوضع السلبي والمتردي. في أعقاب الهزيمة في الدردنيل، أقنع السير إيان هاملتون، القائد الأعلى لوحدات المشاة في "قوة حملة المتوسط"، اللورد كتشنر بتعذر اقتحام المضائق بالبحرية وحدها. فهنالك حاجة إلى قوة برية كبيرة للاستيلاء على شبه جزيرة غاليبولي وإسكات المدافع للسماح للسفن بدخول المضائق والتقدم إلى إسطنبول. ومن غير المعقول أن يوقف البريطانيون الأعمال القتالية في المضائق في أعقاب مثل هذه الهزيمة المروعة. ولا تستطيع البحرية الملكية تحمل نكسة أخرى. ومع أن كتشنر عارض دائمًا إشراك الجيش في حملة كبرى خارج الجبهة الغربية، فإنه لم يجد بديلًا آخر. أجاب هاملتون: "تعرف رأيي بضرورة اقتحام معبر الدردنيل، وإذا استدعى الأمر عمليات حربية كبيرة على جزيرة غاليبولي لفتح الطريق، فيجب القيام بها، وإنجازها". خصص كتشنر 75.000 جندي مشاة للحملة[18].

عند هذه النقطة خرجت روسيا من هجوم الحلفاء على العاصمة العثمانية. إذ وجدت قوات القيصر، مع فشل السفن البريطانية والفرنسية في الوصول إلى بحر مرمرة، أنها غير ملزمة بمهاجمة المضائق الشمالية من البوسفور. وبغض النظر عن استعراضات ثانوية على ساحل البحر الأسود، لم يفعل الروس شيئاً يذكر لتخفيف الضغط على الحلفاء في الدردنيل. لاحظ التاريخ الرسمي البريطاني لحملة غاليبولي بنوع من الإيجابية أن "الخوف من إنزال روسي احتجز ثلاث فرق تركية في البوسفور حتى نهاية يونيو تقريباً"، وهي قوات أمكن لولا ذلك إرسالها للدفاع عن الدردنيل[19].

منح الحلفاء أنفسهم شهراً واحداً للاستعداد لغزو شبه جزيرة غاليبولي. لم تكن المدة كافية للتخطيط والتنسيق لما سيثبت أنه أضخم محاولة إنزال عن طريق البحر حتى تاريخه. لكن عرف المخططون الحربيون للحلفاء أنهم كلما تأخروا تحسن استعداد العثمانيين وحلفائهم الألمان لصد مثل هذا الغزو. وبسبب التأخير في العمليات البحرية، تمتع الترك منذ الآن بقصب السبق واستغلوا مهلة الشهر لتعزيز مواقعهم على شبه الجزيرة. تمثل التحدي الذي واجه المخططين الحربيين البريطانيين في ابتكار هجوم خلال الأسابيع الأربعة اللاحقة،

يكتسح أقوى الدفاعات الحصينة التي يمكن للعثمانيين والألمان تجميعها وتثبيتها في الإطار الزمني نفسه.

جابه الغزاة التحدي الأكبر. كانت الإمدادات اللوجستية وعمليات الإعداد والتخطيط المتضمنة في حملة بحرية وبرية مشتركة على درجة لا نهائية من التعقيد. إذ وجب تجميع سفن النقل لحمل الجنود، والمدفعية المتنقلة، والذخيرة، وحيوانات الجر، والطعام، والماء، والمؤن إلى الجبهة. بينما تطلب شاطئ الإنزال أعداداً كبيرة من المراكب والسفن الخفيفة المصممة للإنزال. جال الضباط البريطانيون في موانئ البحر المتوسط لشراء كل مركب خفيف متوافر، ودفعوا الثمن نقداً (نبه مسعى الضباط لشراء القوارب الاستخبارات الألمانية والعثمانية إلى عملية إنزال وشيكة بالطبع). وجب بناء الأرصفة وأجزاء الجسور العائمة ونقلها إلى شواطئ الإنزال، واضطر المهندسون العسكريون إلى ممارسة تجميع هذه المرافق الضرورية في ظروف غير ملائمة. كما احتاجت الطواقم والمرافق الطبية إلى تجهيز لاستقبال الجرحى، وإلى وضع سفن المستشفيات في مواقع مناسبة لنقل الحالات الخطرة إلى المراكز الطبية في مالطة والاسكندرية. بدت قائمة التفاصيل، وكلها جوهرية في مجالها، من دون نهاية.

ضاعف تنوع قوة الغزو تعقيد التخطيط. لن يكون أي ميدان معركة في الحرب العظمى أكثر عالمية من غاليبولي. بلغ عدد "قوة حملة المتوسط" نحو 75.000 رجل من شتى أرجاء العالم. فإضافة إلى الجنود البريطانيين -الويلزيين، والإيرلنديين، والاسكتلنديين، والإنكليز- هنالك أستراليون ونيوزيلنديون (مع وحدات من الباكيها والماوريين)، وغوركا وسيخ، وفرنسيون، وأفراد الفرقة الأجنبية من شتى أصقاع الأرض، وجنود من المستعمرات الإفريقية -السنغال، وغينيا، والسودان، والمغرب. تبادل هؤلاء الاعتماد على رجال يكاد يستحيل التواصل معهم. ومن دون خطة واضحة للمعركة لتوجيه تحركات الوحدات كلها، تخاطر قوة الحملة بالتحلل والتحول إلى ما يشبه برج بابل حقيقياً[20].

مع أن مهمة العثمانيين المدافعين بدت أكثر بساطة من مهمة الغزاة المهاجمين، فإن من المتعذر أن تكون الرهانات أعلى بالنسبة إليهم. أصابوا حين اعتبروا غاليبولي معركة بقاء امبراطوريتهم أو فنائها. عرف أنور باشا في إسطنبول، بعد أن قاد الجيش الثالث إلى

هزيمة ساحقة في القوقاز، أن الوضع لا يحتمل خسارة أخرى. وأن النصر يتطلب تنظيماً كاملاً وخطوط اتصالات واضحة بين الوحدات المنتشرة على منطقة واسعة من الشواطئ الآسيوية والأوربية من المضائق. في الأسبوع الأخير من مارس 1915، قرر أنور إعادة تنظيم مختلف فرق الدردنيل ودمجها في قوة موحدة -الجيش الخامس. تنازل عن كبريائه وتجاهل الاختلافات السابقة مع رئيس البعثة العسكرية الألمانية في تركيا، أوتو ليمان فون ساندرز، وعينه رئيساً لأركان الجيش الخامس الجديد، المكلف بمهمة الدفاع عن الدردنيل. انطلق ليمان على الفور إلى بلدة غاليبولي لإقامة مركز قيادته. "منحني البريطانيون أربعة أسابيع كاملة قبل بدء عملية الإنزال الضخمة. كانت المدة تكفي فحسب لاستكمال الترتيبات الضرورية التي لا يمكن الاستغناء عنها"، كما سجّل في مذكراته لاحقاً[21].

بلغ عدد الجيش الخامس العثماني 50.000 رجل، أي ثلثي حجم قوة الغزو. لكن الدفاع عن رأس ساحلي يتطلب جنوداً أقل من مهاجمته -إذا تمركزوا في المواقع الصحيحة. تمثل التحدي أمام ليمان في توقع الخطط البريطانية من أجل تركيز القوات العثمانية حيث يرجح أن يقوم الغزاة بعمليات الإنزال. نشر فرقتين (تضم الواحدة نحو 10.000 رجل) على الجانب الآسيوي من الدردنيل وركز ثلاث فرق على شبه جزيرة غاليبولي. لكنها ممتدة بطول 60 ميلاً، وتضم برأي المخططين الحربيين العثمانيين كثيراً من النقاط الضعيفة والمكشوفة التي يجب الدفاع عنها.

حدد ليمان وقادته الأتراك، بعد تفكير متروّ، ثلاث مناطق على شبه جزيرة غاليبولي هي الأكثر ضعفاً وانكشافاً أمام هجوم الحلفاء: كيب هيليس (سد البحر شيكارماسي)، وآريبورنو، وبولير. شكّل أقصى الحافة الجنوبية من شبه الجزيرة، حول كيب هيليس، موقعاً مناسباً لعملية إنزال من البحر؛ لأن سفن الحلفاء تستطيع قصف الشاطئ من ثلاثة جوانب في آن. بينما وفرت الشواطئ الشمالية عند آريبورنو (سرعان ما ستعرف باسم "أنزاك كوف") بقعة إنزال سهلة عند نقطة تبعد خمسة أميال فقط عن الدردنيل. فإذا تمكن الحلفاء من تأمين الخط من آريبورنو إلى بلدة ميدوس (إيجي أبات الحديثة) على المضائق، يستطيعون فعلياً فصل المناطق الجنوبية من شبه الجزيرة، وتطويق المدافعين العثمانيين. لكن ليمان كان

مقتنعاً بأن المكان الأشد ضعفاً وعرضة للخطر هو بولير، على مسافة أبعد باتجاه الشمال حيث تضيق شبه الجزيرة إلى عرض ميلين فقط. وأي عملية إنزال ناجحة في بولير سوف تفصل شبه الجزيرة برمتها وتمنح الحلفاء موقعاً للسيطرة على بحر مرمرة، ومن ثم قطع خطوط الملاحة الحيوية لنقل المؤن والاتصالات مع الجيش العثماني الخامس في المضائق. قرر ليمان، في أعقاب تحليله التهديد، وضع فرقة في كل من هذه النقاط الثلاث -كيب هيليس، آريبورنو، بولير.

أمر الضباط العثمانيون جنودهم بحفر خنادق دفاعية ومد سلك على طول الشواطئ المهمة لعرقلة أي عمليات إنزال. بينما حلقت الطائرات البريطانية بانتظام فوق غاليبولي ووجهت قصف سفن البحرية على أي مواقع عمل أو تركز للجنود الأتراك؛ ما أجبر العثمانيين على إنجاز معظم عملهم الدفاعي ليلاً. بحلول منتصف أبريل، تمكن المدافعون من حفر أميال من الخنادق المزودة باستحكامات مخفية للمدافع الرشاشة وبطاريات المدفعية لصد أي عملية إنزال من البحر. استمر العمل إلى عشية غزو عرف العثمانيون أنه وشيك ومحتوم من حشد السفن والجنود في ميناء مودروس.

* * *

شعر معظم الجنود الأستراليين والنيوزيلنديين بالفرح والسرور وهم يركبون السفن إلى غاليبولي، بعد السأم من حياة المعسكرات في مصر. أما الجنود الذين ندموا فهم الفرسان، حيث أجبروا على ترك خيولهم خلفهم؛ إذ يتعذر احتمال شن هجوم بالخيالة نظراً إلى التضاريس الجبلية في غاليبولي، فبقيت الخيل في مصر.

سطر الرجال رسائل إلى الوطن مفعمة بتوقعات الانتصار المجيد في المعركة. كتب العريف موستين برايس جونز من كتيبة كانتربري النيوزيلندية إلى والدته، معبراً عن اندهاشه لمنظر ميناء مودروس حين دخلته سفينته في 16 أبريل -عشرات سفن النقل تحمل "جنوداً بريطانيين وفرنسيين وأستراليين ونيوزيلنديين، تحمسوا كلهم للمعركة"، و"مئات الطرادات، والمدمرات، والبوارج الجبارة، والغواصات، ومدمرات الطوربيد،

وزوارق الطوربيد، التي ترسم كلها صورة مدهشة". شعر بالاعتزاز -وبالارتياح- لهذا الاستعراض المرئي للقوة. "يجعلك تدرك القوة العظيمة لامبراطوريتنا، بل يمكنك أن تشعر بإثارة الفخار والزهو تجري في كيانك حين تدرك أنك جزء (وإن كان صغيراً جداً) من هذه الأخوية الواسعة والرائعة من البشر". اعتقد جونز ورفاقه أنهم سيشاركون في مغامرة لا تحدث إلا مرة واحدة في العمر[22].

عمل قادة "قوة حملة المتوسط" بكل نشاط على ترويج فكرة المعركة الوشيكة باعتبارها مغامرة مثيرة. أصدر القائد العام السير إيان هاملتون في الليلة السابقة على الإنزال بياناً خاطب فيه "جنود فرنسا والملك"، واصفاً المعركة الآتية بأنها "مغامرة غير مسبوقة في الحرب الحديثة". قصد بهذا الاستعراض للجرأة والحماسة، إلى حد ما، زيادة شجاعة الجنود. لكنه عبر أيضاً عن أوهام القادة العسكريين الذين افتقدوا في حالات كثيرة الخبرة في "الحرب الحديثة" كحال الرجال الذين قادوهم.

فيما يتعلق بالترك، لم تكن غاليبولي مغامرة، بل مسألة حياة أو موت. قال العقيد مصطفى كمال، قائد الجنود العثمانيين في آريبورنو، في خطاب شهير قبل بدء المعركة لتقوية عزيمة جنوده: "لا آمركم بالهجوم. آمركم بالموت. في الوقت الذي يمضي إلى أن نموت يمكن للجنود والقادة الآخرين أن يحلوا محلنا". كانت كلمات أتاتورك المستقبلية نبوئية إلى حد مأساوي لعشرات الآلاف من الجنود الترك[23].

* * *

بحلول الوقت الذي غرب فيه القمر في ساعات الصباح الباكر من يوم الأحد 25 أبريل، اقتربت سفن الحلفاء من مواقعها لتنفيذ عملية إنزال الجنود. التزمت السفن الصمت الكامل ضمن شروط التعتيم لتجنب تنبيه الترك لاقترابها. بقيت مواقع الإنزال الفعلية سراً مكنوناً بين قادة الحلفاء. وأملوا بالمكيدة والمفاجأة اكتساح المدافعين وتأمين رأس جسر لإنزال بقية قوة الغزو بأمان نسبي.

وفي سبيل خداع العثمانيين، أعد البريطانيون والفرنسيون هجمات تضليلية على الأطراف القصوى الشمالية والجنوبية من منطقة المعركة. أرسل الفرنسيون عدداً من سفنهم إلى خليج بيسيكا على الساحل الآسيوي جنوب الدردنيل، للقيام بعملية إنزال كبيرة كاذبة في محاولة لاحتجاز الجنود العثمانيين بعيداً عن شواطئ الإنزال الفعلي. استغل البريطانيون دون قصد مخاوف ليمان فون ساندرز عبر تنظيم هجوم تضليلي على الطرف الشمالي الأقصى من شبه جزيرة غاليبولي قبالة بولير. كان ليمان قد نشر فرقة لحماية خطوط بولير وذهب شخصياً لمراقبة المناورات البريطانية. تمكنت هذه العمليات الخداعية من تكبيل فرقتين عثمانيتين كان بالمستطاع إرسالهما إلى مناطق الإنزال الفعلية.

قسمت "قوة حملة المتوسط" من أجل عمليات الإنزال إلى ثلاث مجموعات. كلف البريطانيون بموقع الإنزال الرئيس حول كيب هيليس على الحافة الجنوبية من شبه جزيرة غاليبولي. ووجب على الجنود البريطانيين تنسيق عمليات الإنزال على خمسة شواطئ مختلفة حول هيليس. بينما كان على الفرنسيين تأمين الشواطئ الآسيوية من الدردنيل حول كوم كالي لمنع العثمانيين من قصف الجنود البريطانيين الذين ينزلون على شواطئ المضائق. وما إن يؤمن البريطانيون شواطئهم، يأتي الفرنسيون من كوم كالي لتعزيز القوات البريطانية في كيب هيليس. وأرسل الأستراليون والنيوزيلنديون إلى المنطقة المحيطة بآريبورنو لعرقلة وصول أي تعزيزات تركية وتهديد مؤخرة الجيش العثماني في منطقة هيليس. وعبر الهجوم على هذه المواقع العديدة في وقت واحد، أمل الحلفاء بتشويش الترك وإرباكهم، بحيث لا يعرفون أين يركزون قواتهم لصد الغزاة، إضافة إلى إنزال أكبر عدد ممكن من الجنود على البر في أقصر وقت لاجتياح الدفاعات العثمانية.

في الساعات التي سبقت انبلاج الفجر، نزلت الموجة الأولى من الغزاة على سلالم الحبال من أسطح السفن الحربية العالية إلى زوارق التجديف المنتظرة لنقلهم إلى الشط. خصصت مراكب بخارية صغيرة ليسحب كل منها أربعة زوارق تجديف من السفينة إلى البر، وتركت للبحارة مهمة التجديف مسافة المئة ياردة الأخيرة. وبذلك، كان الجنود الذين حشدوا في زوارق الإنزال معرضين تماماً للإصابة بالرصاص وقنابل الشظايا. ومن أجل حمايتهم من

قصف المدافعين، أطلقت السفن الحربية البريطانية والفرنسية "كتلة من النيران والدخان" على الشطآن في الساعة 4:30 فجراً. "كان دوي المدافع مروعاً والهواء مشبعاً بالبارود"، كما كتب ضابط بحري بريطاني فيما بعد. تابعت السفن الحربية القصف إلى أن وصلت مراكب الإنزال إلى مسافة نصف ميل من الشاطئ[24].

مثّل قصف مدافع السفن دعوة إلى السلاح بالنسبة إلى المدافعين العثمانيين الذين توقعوا الغزو من مدة طويلة. أطلق الضباط الأتراك صافراتهم وأمروا رجالهم بالتمركز في المواقع الدفاعية. تركزت نيران السفن على حفنة من الشواطئ الصغيرة، من جهتين أو ثلاث في وقت واحد، ما أصاب المواقع العثمانية بأضرار بالغة. "تغطى الشط بسحابة من الدخان الأسود السميك، مع لمسات لونية زرقاء وخضراء"، كما تذكر الرائد محمود صبري. "كانت الرؤية معدومة". وصف صبري كيف دمرت نيران المدافع البحرية مرابض المدفعية، وطمرت خنادق الاتصالات، وحولت "الفتحات المصممة لحماية الأرواح" إلى "قبور". أوقعت شظايا "بحجم البيضة" إصابات فادحة بالجنود الترك المنتظرين في خنادقهم. لكن بدا أن القصف المدفعي العنيف صلد عزيمة المدافعين الأتراك وإصرارهم على صد الغزاة ودحرهم، بدلاً من إثارة الهلع بينهم. "انتظر رجالنا، وسط رفاقهم القتلى والجرحى الذين بترت أطرافهم، دون أن يقلقهم تفوق العدو عددياً أو طبيعة نيرانه، اللحظة التي يمكنهم فيها استخدام أسلحتهم". عندما أوقفت السفن الحربية القصف لتسمح لمراكب الإنزال بالاقتراب من الشواطئ، انتظر الجنود العثمانيون الناجون صابرين وسددوا[25].

تحددت نقطة الإنزال الرئيسة للبريطانيين في مكان أطلق عليه اسم "الشاطئ V"، بين قلعة سد البحر القديمة والمنارة المهدمة في كيب هيليس. وكان مشاة البحرية الملكية قد نزلوا هناك بأمان في 25 فبراير لتدمير ما بقي من المدافع بعد القصف البحري للحصون الخارجية. ومنذ فبراير، بذل العثمانيون كل جهد ممكن لتعزيز الموقع، الذي أخذ شكل مسرح مدرّج طبيعي يشرف على الخليج. تمثل التحدي بالنسبة إلى المخططين الحربيين البريطانيين في إنزال ما يكفي من الجنود للتغلب على المقاومة العنيدة التي توقعوا مواجهتها. إن جر أربعة قوارب تجديف لا يوصل أكثر من 120 إلى 130 رجلاً، ولن يتمكن البريطانيون من إرسال أكثر

من ستة مراكب جر في المرة الواحدة - أي نحو 800 رجل في الحد الأقصى. ولذلك كان المهاجمون بحاجة إلى العثور على طريقة لإنزال عدد أكبر من الجنود على الشاطئ المستهدف.

وجد الضباط البريطانيون الذين تدربوا في المدرسة الكلاسيكية ضالتهم لدى هوميروس. إذ وضعت الأسطورة وعلم الآثار موقع حروب طروادة بالقرب من الشواطئ الآسيوية للدردنيل. "يمكن استخدام ناقلة فحم، بريئة المنظر، بطريقة حصان طروادة الخشبي، أي أن تُحشد بأكبر عدد من الجنود تستطيع نقلهم" ثم ترسو على الشط، كما اقترح الكابتن إدوارد أنوين من البحرية الملكية. لن تكتفي ناقلة الفحم البخارية وهي تقترب من الشاطئ بأقصى سرعة بتشتيت انتباه المدافعين وإذهالهم فحسب، بل تستطيع بعد إعادة تجهيزها نقل 2100 رجل على أقل تقدير. وعندما تصل إلى البر، توفر منصة إنزال محمية للجنود وتتحول إلى رصيف للعمليات المستقبلية. نال الاقتراح القبول على الفور، وأعيد تجهيز ناقلة الفحم (*River Clyde*) لتخدم الغرض. دعم هيكلها، ونصبت مدافع ثقيلة على مقدمتها لتوفير غطاء ناري يحمي جنود الإنزال، وفتحت بوابات على جانبي البدن لتسهيل الخروج السريع للجنود الذين تحملهم[26].

في صباح يوم 25 أبريل، شقت الناقلة (*River Clyde*) طريقها نحو "الشاطئ V" بقيادة الكابتن أنوين. راقب مراكب الجر البخارية الخفيفة أمامه تكافح ضد تيار قوي في المضائق لكي توصل زوارق التجديف إلى موقع الإنزال. ما زال الشاطئ مغلفاً بغلالة من الدخان جراء القصف البحري ويخيم عليه صمت القبور. وقف إلى جانبه على منصة الربان الكولونيل وليامز من هيئة الأركان يسجل الحوادث دقيقة بدقيقة. في الساعة 6:22 صباحاً، رست الناقلة في الموقع المحدد بالضبط. "لا مقاومة"، كما دوّن الكولونيل متفائلاً. "سوف ننزل على البر دون مقاومة". لكنه تسرع. بعد ثلاث دقائق، ومع وصول الزوارق إلى الشط، فتح المدافعون الترك النار حسب الأوامر بالضبط. سجل وليامز ما حدث في الساعة 6:25: "فتحت الجحيم أبوابها عليهم". راقب مذعوراً أحد زوارق الإنزال ينجرف قرب الناقلة وقد قتل كل جندي وبحار على متنه. لم تتمكن إلا حفنة من أول ثمانمئة رجل من الوصول إلى الشاطئ سالمة واتخذ أفرادها ملجأ خلف أول صف من الكثبان[27].

وصف الرائد محمود صبري المشهد من منظور الخنادق التركية:

> اقترب العدو من الشط على قوارب نجاة. وحين أصبح ضمن المدى المجدي فتح رجالنا النار. لقد ظل لون البحر هنا على حاله طوال سنوات، لكنه اصطبغ الآن بالأحمر، بدم أعدائنا. كلما ومضت بندقية (من بنادقنا) واكتشفت، دك العدو المنطقة بالمدفعية والأسلحة الرشاشة. لكن ذلك كله فشل في تقليص كثافة نيراننا.
>
> قفز عدد من أفراد العدو من قوارب النجاة إلى الماء على أمل النجاة بحياتهم. واستخدم قادتهم من على متن السفن الرايات لتوجيه الأوامر إلى القوارب بالاحتماء خلف الصخور الشاطئية، لكن أين المفر! على الرغم من قذائف العدو ونيران مدافعه الرشاشة، واصل رجالنا إصابة أهدافهم، وتدحرج القتلى إلى البحر. امتلأ الشاطئ [V] بجثث الأعداء التي اصطفت مثل مساكب الفول[28].

* * *

تحولت الناقلة (*River Clyde*) من حصان طروادة كما تصور المخططون إلى بطة عرجاء الآن. فقد رست في مياه عميقة لا تصلح لإنزال 2100 رجل ينتظرون بقلق داخل هيكلها. كان أفراد الطاقم قد سحبوا عدداً من المراكب الخفيفة وزورقاً بخارياً صغيراً لإقامة جسر عائم يمكن للجنود استخدامه للنزول من السفينة إلى الشط. مر على الطاقم وقت عصيب عند توجيه القوارب وسط تيار الدردنيل القوي. تمكن الضابط البحري جي. إل. دروري، من القفز إلى الماء تحت وابل من الرصاص وتجهيز جسر عائم قابل للاستخدام. كانت الرماية من البر كثيفة إلى حد أنه حين حاول رفع جندي جريح من الماء، تمزق المصاب إلى أشلاء بين ذراعي دروري. لكن تمكن بأعجوبة من العمل على الجسر العائم دون أن يصاب بأذى. بينما كان المدافعون الترك يجربون أسلحتهم على الناقلة الجانحة. اخترقت قذيفتان العنبر رقم 4 فقتلت عدة جنود. وأطلق القناصة الأتراك النار على الكوات في جانب السفينة، فقتلوا أولئك الذين حاولوا مشاهدة مسرح المعركة.

وبغض النظر عن المذبحة على متن الناقلة، فقد بلغ القتل ذروته على الجسر العائم. أطلق الترك نيران أسلحتهم على المعبر الضيق فأردوا المشاة الإيرلنديين قبل أن يتمكنوا من الوصول إلى البر. "حاولت دفع الرجال إلى النزول من المراكب الخفيفة، لكن ذلك عرضهم للخطر، وسرعان ما امتلأ أول مركب إنزال بالقتلى والجرحى"، كما روى درووري. وكرر تعليقات محمود صبري، حين شعر بالهلع وهو يرى البحر يصطبغ بدم الجنود الأحمر. "تحسن الحال قليلاً حين نزلوا على الشط؛ لأنهم استطاعوا بعد مقتل عدد كبير منهم أن يحفروا ويتمترسوا هناك".

حاول ألف رجل استخدام الجسر العائم قبل أن يأمر القادة بوقف الإنزال الانتحاري. أما الحفنة التي تمكنت من الوصول إلى الشط حية فقد احتمت خلف الكثبان الرملية، وانتظرت حلول الظلام. بعد ذلك اقتلع التيار أجزاء من الجسر الخطر، ما قطع المعبر إلى البر. بينما انتظر باقي الجنود، الذين احتموا داخل الهيكل المصفح لناقلة الفحم، حتى المساء كي تنحسر كثافة القصف قبل إصلاح الجسر واستئناف العمليات. وخاطروا بالتعرض لإطلاق النار في الخارج لحمل الجرحى من القوارب وإعادتهم إلى السفن[29].

أصيبت القوات البريطانية أيضاً بخسائر فادحة عند النزول على "الشاطئ W". إذ جلس نحو ألف جندي بريطاني بقلق بالغ على المقاعد في مركب الإنزال وهو يقترب من البر عند منارة هيليس المهدمة، بينما كان الدخان يتصاعد جراء القصف البحري المكثف. ثم واجهوا سرية من المدافعين الترك المتحصنين جيداً -نحو 150 رجلاً. وحين وصل المركب إلى مسافة خمسين ياردة من الشط، "انهمر عليهم وابل مروع من رصاص البنادق والمدافع الرشاشة من الجرف العالية" المشرفة على الخليج، كما تذكر الميجور هورث من مشاة لانكشير. ولاحظ كيف واصل "البحارة البواسل" تجديف زورق الإنزال إلى الشط "بينما تعرضوا، هم ورجالنا، إلى إطلاق النار". ومع اقتراب الزوارق من البر، أمر الميجور هورث جنوده بالنزول منها لاتقاء النيران. فوجدوا أنفسهم مغمورين بالماء حتى الصدور. وغاص كثير من أولئك الذين أصيبوا بالنيران التركية لاحقاً جراء الأحمال الثقيلة على ظهورهم (حمل كل واحد مئتي طلقة وجراية تكفي ثلاثة أيام) وغرقوا[30].

ما إن وصلت سرية الميجور هورث إلى "الشاطئ W" (أعيدت تسميته بـ"شاطئ لانكشير")، حتى حوصرت تحت وابل من النيران المتقاطعة الفتاكة. أصيب أحد الضباط المرافقين (برتبة كابتن) بجرح مميت. اقتفى الميجور مصدر إطلاق النار في خندق عند ذروة التل، فأمر وحدته باجتياح الموقع. وحين شق الجنود طريقهم صعداً على المنحدر الشاهق، لاحظ الضابط البريطاني كيف يسقط الرجال على جانبيه قتلى وجرحى. وكاد هو نفسه أن يقتل حين أطلق مدافع تركي الرصاص عليه من مسافة قصيرة، فاقتطع جزءاً من أذنه اليمنى. لكنه قتل الجندي بمسدسه وتابع طريقه باتجاه الموقع على قمة التل. "حين وصلت إلى الخندق دوى انفجار رهيب -كان الخندق ملغماً فسقطنا أنا ومن كان حولي وتدحرجنا إلى أسفل الجرف مرة أخرى". شعر بالدوار، لكنه جمع الأربعين ناجياً من سريته للاحتماء عند سفح التلال، حيث تعرضوا طوال بقية اليوم لرصاص القناصة. قتل ستة منهم أو جرحوا قبل أن يصاب هو نفسه برصاصة في ظهره شلت حركته. وظل في حالة مروعة برفقة القتلى والجرحى إلى أن خيم الظلام وأمكن للفرق الطبية الوصول إلى الشاطئ[31].

كان نزول البريطانيين سهلاً نسبياً على شواطئ هيليس الأخرى. في خليج مورتو، لم تواجه المجموعة التي نزلت على البر سوى حفنة من المدافعين الترك وثبتت موقعها دون صعوبة تذكر. لم يتوقع الترك عملية إنزال على "الشاطئ X" أيضاً، فتركوا فصيلة واحدة لحماية المكان. تمكن الغزاة من تأمين الشط بخسائر قليلة نسبياً.

أما الوحدات التي نزلت على "الشاطئ Y" فقد وجدت موقعها مكشوفاً ودون أي حماية. وفي مدة خمس عشرة دقيقة، ترك 2000 رجل الشاطئ وتسلقوا المرتفعات العالية الوعرة إلى النجد. لكن حين استعدوا للانتقال جنوباً لتعزيز المواقع البريطانية حول هيليس، اكتشفوا المنحدرات العميقة لوادي زيندر (غوللي ريفين). لم تشر الخرائط غير الدقيقة التي استخدمها المخططون الحربيون البريطانيون إلى هذه العقبة الكأداء التي يتعذر تجاوزها. ولم يقتصر الأمر على منع الوحدات التي نزلت من تخفيف الضغط على القوات البريطانية المحاصرة في الجنوب فحسب، بل وجد الجنود أنفسهم وظهورهم إلى الوادي حين شنت الوحدات العثمانية هجوماً معاكساً عنيفاً في وقت لاحق من أصيل ذلك اليوم. لحق بالبريطانيين، بعد أن طوقوا في النجد المرتفع دون سبيل للتراجع وفي مواجهة هجمات

تركية عنيدة طوال الليل، أكثر من سبعمئة إصابة قبل أن يتمكنوا من إخلاء "الشاطئ Y" صباح اليوم اللاحق.

نزلت موجات من التعزيزات البريطانية إلى البر بحلول المساء. بدأ المهاجمون دفع العثمانيين بعيداً عن ساحل هيليس، ما خفف الضغط على الشاطئين "V" و"W"، حيث أصيب البريطانيون بأفدح الخسائر. وحين خيم الظلام، أخذت قوات بريطانية جديدة تنزل إلى الشاطئين المميتين أيضاً. أعاد طاقم ناقلة الفحم تجميع الرصيف العائم، ونزل باقي الجنود وسط رفاقهم القتلى والجرحى بين الساعة 8 والساعة 11.30 ليلاً. واصل المدافعون قصف شاطئ الإنزال "بالقذائف وقنابل الشظايا وكل ما في حوزتهم من أسلحة فتاكة"، لكن النيران غدت أقل كثافة "ولم تحدث أضراراً كبيرة"، وفقاً للضابط البحري دروري، وهو يراقب المشهد من فوق ناقلة الفحم.

بعد يوم مرعب من القتال العنيف، شاهد المدافعون الترك بقلق متعاظم موجات جديدة من الجنود البريطانيين الجدد ينزلون على الشط. كتب أحد المدافعين على "الشاطئ V" إلى رئيسه يطلب بإلحاح تعزيزات عاجلة أو السماح بالانسحاب. "أرسل الأطباء لنقل الجرحى. استحلفك بالله -سيدي النقيب- أن ترسل التعزيزات لأن مئات الجنود ينزلون على البر". شنت القوات التركية هجوماً على المواقع البريطانية على "الشاطئ W" بحراب البنادق مرتين تلك الليلة قبل أن تتراجع إلى خطوطها الخلفية[32].

بحلول فجر الاثنين 26 أبريل، تمكن البريطانيون من السيطرة على أربعة من شواطئ الإنزال الخمسة؛ أخلوا "الشاطئ Y" في وقت لاحق من الصباح لإعادة نشر الجنود الناجين في المواقع الأخرى. في نهاية اليوم الأول من القتال في غاليبولي، نجح البريطانيون في تأمين رأس جسر، لكن بثمن باهظ. فاجأتهم شدة المقاومة العثمانية ومنعتهم من الوصول إلى الأراضي المرتفعة في أتشي بابا (إلتشي تيبي) كما طمحوا، على مسافة خمسة أميال داخل البر. وعلى الرغم مما نشر في غاليبولي من رجال ومعدات طوال بقية عام 1915، لم يصل البريطانيون قط إلى أتشي بابا.

* * *

لم تواجه القوات الفرنسية بداية سوى مقاومة هزيلة حين نزلت على شواطئ كوم كالي. في الساعة 5:15 صباحاً، فتح الأسطول الفرنسي النار على المواقع العثمانية على طول الساحل. لكن الرمي تجاوز الأهداف المقصودة، كما تأخر إنزال الوحدات لأن التيارات كانت أقوى من المتوقع (مثلما حصل مع البريطانيين في هيليس). وتمكن الفرنسيون من الاستفادة من تأخير الساعتين، حين حولوا كوم كالي إلى ركام، ودفعوا العثمانيين إلى شرق ضفة نهر مندريس. وبحلول الوقت الذي اجتاح الجنود السنغاليون الشواطئ في الساعة 10:00 صباحاً، لم يبق سوى مدفع رشاش واحد لمناوشتهم، وسرعان ما أسكته قصف البحرية. احتلت القوات الفرنسية بلدة كوم كالي في الساعة 11:15، وضمنت عدم تعرض الإنزال البريطاني في هيليس للهجوم من ذلك الموقع[33].

استمرت عمليات الإنزال في كوم كالي طوال اليوم. بحلول الساعة 5:30 مساء، استكمل إنزال جميع الرجال وقطع المدفعية على البر. عززت القوات الفرنسية موقعها في كوم كالي لمواجهة الجنود الترك المحتشدين في بلدة يني شهير المجاورة. وعندما خيم الظلام، شن الترك الهجوم الأول (من أربعة) على المواقع الفرنسية. وتحولت الهجمات بالحراب إلى قتال عنيف وفوضوي بالسلاح الأبيض، فارتفعت خسائر الطرفين. وبينما تمكن الفرنسيون من الاحتفاظ بسيطرتهم على كوم كالي، بدؤوا التشكيك بحكمة محاولة الاستيلاء على يني شهير. إذ أرادوا احتلال الساحل الآسيوي مؤقتاً، وإصابة أي جندي في كوم كالي يعني عدم مشاركته في دعم البريطانيين في شبه جزيرة غاليبولي، حيث تشتد الحاجة إليه.

في صبيحة 26 أبريل، تقدمت مجموعة من ثمانين جندياً عثمانياً غير مسلح -من اليونانيين والأرمن- نحو الخطوط الفرنسية تحت راية الاستسلام البيضاء. أخذوا باعتبارهم أسرى حرب. وبعد قليل، سار مئات من الجنود الأتراك علناً نحو الخطوط الفرنسية، مع أن هؤلاء حملوا بنادقهم وثبتوا الحراب عليها. اعتقد الفرنسيون أن الجنود يريدون الاستسلام، فسمحوا لهم بالاقتراب منهم لحثهم على إلقاء سلاحهم. تقدم ضابط فرنسي اسمه روكيل للتفاوض معهم واختفى بينهم، ولم يشاهده أحد بعد ذلك. استغل الجنود الترك الارتباك لاختراق الخطوط الفرنسية واتخذوا مواقع داخل قرية كوم كالي المحتلة. بينما اصطدم غيرهم بالجنود الفرنسيين وتمكنوا من الاستيلاء على اثنين من مدافعهم الرشاشة. وحين علم القائد

الفرنسي، الجنرال ألبير داماد، بالوضع، أمر جنوده بفتح النار. وجد الفرنسيون أنفسهم عرضة للنيران التي انطلقت من البيوت خلف خطوطهم فأطلقوا الرصاص على مجموعات مختلطة من الجنود الفرنسيين والأتراك -سادت حالة من الفوضى الشاملة. قاتل الفرنسيون حتى بعد الظهر لاستعادة كوم كالي، وقصفوا البيوت التي تحصن فيها الترك. ثم أعدموا ضابطاً تركياً على عجل إضافة إلى ثمانية جنود رداً على قتل الكابتن روكيل (كما زعموا) وهو يفاوض تحت الراية البيضاء. حاصر الترك الفرنسيين عبر زرع الفوضى في كوم كالي وألحقوا بالغزاة خسائر جسيمة[34].

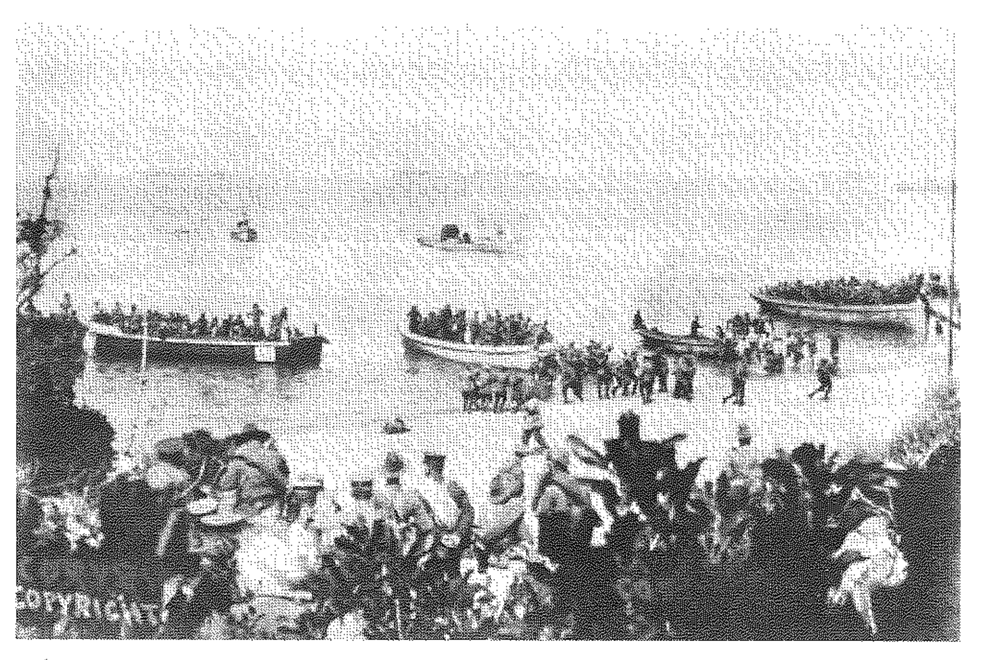
ازدادت خسائر الفرنسيين واشتدت حاجة البريطانيين إلى تعزيزات في هيليس، فقرر قادة الحلفاء الانسحاب من كوم كالي في 26 أبريل. عاد الجنود الفرنسيون كلهم إلى المراكب تحت جنح الظلام، إضافة إلى معداتهم ونحو 450 من أسرى الحرب الترك. وفي صباح 27 أبريل، عبروا المضائق لينزلوا على "الشاطئ V" بواسطة الرصيف المؤمن الآن والمتصل بناقلة الفحم. تمركزت القوات الفرنسية في غاليبولي على الجانب الأيمن (أو الشرقي) من خطوط الحلفاء، مشرفة على مضائق الدردنيل، بينما تركزت القوات البريطانية على الجزء الغربي من الخط، لتشرف على بحر إيجة. وعزز البريطانيون والفرنسيون معاً جبهة تواجه مواقع عثمانية دفاعية قوية امتدت بين الغزاة ومرتفعات أتشي بابا الاستراتيجية، التي تهيمن على المساحات الجنوبية من شبه جزيرة غاليبولي[35].

* * *

انطلقت الموجة الأولى من الجنود الأستراليين إلى شاطئ آريبورنو في فجر 25 أبريل. كان الهدف موقع إنزال عبارة عن امتداد من الشاطئ إلى الشمال من نتوء صخري عرف باسم "غابا تيبي" (كاباتيبي). لكن المخططين أساؤوا مرة أخرى تقدير قوة التيارات قبالة ساحل غاليبولي، فانجرفت المراكب البخارية مع الزوارق التي تجرها بعيداً عن المسار، لتنزل حمولتها من الجنود على بعد ميل أو أكثر إلى الشمال من موقع الإنزال في خليج صغير أطلق عليه الغزاة اسمهم: "أنزاك كوف" ("خليج الأستراليين والنيوزيلنديين"). وجد البحارة الذين تولوا مهمة توجيه مراكب الجر صعوبة في العمل خارج مواقعهم تحت ضوء الصباح الباكر في شاطئ غير مألوف. عنى ذلك أن يواجه الجنود، عند الإنزال، مشهداً مختلفاً تماماً

عن ذلك المحدد في الخطة، وتلاً إضافياً يجب ارتقاؤه للوصول إلى النجد العالي. سوف يصيب التشوش الناجم عن هذا الخطأ بآفته عملية إنزال الفيلق الأسترالي والنيوزيلندي (أنزاك) طوال بقية اليوم.

اكتشف الحراس العثمانيون المراكب الخفيفة وهي تقترب من الشط. لاحظ الصحفي سي. إي. بين، الذي رافق القوات الأسترالية كمؤرخ رسمي، في يومياته أنه سمع أول صوت لبندقية تطلق النار من الشاطئ في الساعة 4:38 فجراً -"أولاً طلقات قليلة، ثم وابل مستمر من الرصاص". شعرت الوحدات التي تقترب من البر بأنها مكشوفة ومعرضة للخطر. "حشر الجنود معاً في القوارب كأنهم سردين، بينما كان الترك يقصفوننا من قمة تل ضخم مطل على الشط مباشرة"، كما تذكر جندي أسترالي شارك في الموجة الأولى. استعجل الجنود مغادرة مراكب الإنزال وهم يشاهدون رفاقهم يسقطون قتلى وجرحى بشكل عشوائي حولهم[36].



الجنود الأستراليون ينزلون على شاطئ "أنزاك كوف" صباح يوم 25 أبريل 1915. "حشر الجنود معاً في القوارب كأنهم سردين"، وكانوا عرضة لنيران بنادق العثمانيين ومدافعهم. نجا المصور، العريف إيه. آر. جوينر من حملة غاليبولي ليلقى حتفه على الجبهة الغربية في ديسمبر 1916.

ما إن وصل الرجال إلى الشط حتى بدأت خيوط خطة المعركة المرسومة بدقة تتقطع وتنحل. لم يقتصر الأمر على أن مراكب الإنزال، التي حرفها التيار عن مسارها، وصلت إلى المكان الخطأ فحسب، بل كان الترتيب خاطئاً أيضاً. إذ فصل الجنود عن ضباطهم القادة، واختلطت الوحدات معاً. ملأت الحماسة الجنود الأستراليين وهم في مرمى النيران، فشكلوا صفاً مع أقرب ضابط، وثبتوا الحراب على البنادق، وشنوا هجوماً على أول سلسلة من التلال لدفع العثمانيين إلى الوراء. ومثلما كتب أحد المشاة الأستراليين إلى الوطن: "هتف الشباب وهللوا في كل بوصة من الطريق، ما ثبط باعتقادي عزيمة الترك الذين قفزوا من خنادقهم حين وصلنا قرب القمة، وهربوا مثل الشياطين إلى الخط الثاني من الخنادق، على مسافة نصف ميل أو أكثر". منح الهجوم الناجح والسريع بالحراب الجنود الأستراليين شعوراً زائفاً بالثقة؛ لأن العثمانيين بدؤوا للتو الاستعداد لرد الغزاة على أعقابهم[37].

كان مركز قيادة مصطفى كمال بك يبعد بضعة أميال عن "أنزاك كوف". وحين علم القائد التركي بالإنزال أول مرة، أرسل سرية من الخيالة للمراقبة وإبلاغه بالوضع. في الساعة 6:30 صباحاً، أصدر قادته أوامر تطلب منه إرسال كتيبة (نحو 1000 رجل) لمواجهة الغزاة. عرف مصطفى كمال، اعتماداً على تقارير استخباراته، أنه بحاجة إلى نشر فرقة كاملة (10.000 جندي تقريباً) لصد غزاة بهذا الحجم. أصدر أوامره لفرقة المشاة الأولى وبطارية مدفعية تجرها الخيول للاستعداد لخوض المعركة قبل أن يتوجه شخصياً لتقييم الحالة على الجبهة[38].

نزل ثمانية آلاف جندي أسترالي على شاطئ "أنزاك كوف" بحلول الساعة 8:00 صباحاً. وفي الساعة 10:45 وصلت طلائع القوات النيوزيلندية. واجه الغزاة مقاومة شرسة في الأطراف الشمالية والجنوبية من مواقع الإنزال، حيث استخدم الرماة العثمانيون المتحصنون جيداً المدافع والأسلحة الرشاشة بفاعلية فتاكة. دمر أحد مراكب الإنزال في الشمال بالأسلحة الرشاشة، ولم يصل إلى البر بأمان إلا 18 من أصل 140 رجلاً. تعرضت مواقع الإنزال الأقرب إلى "غابا تيبي" إلى القصف الأشد عنفاً وكثافة من البطاريات العثمانية المتمركزة على

التلال المرتفعة. لكن قبل الظهر تمكنت الكتلة الرئيسة من القوات الأسترالية والنيوزيلندية من تأمين الامتداد المركزي من الشواطئ ودفع العثمانيين بعيداً عن القمتين الأولى والثانية من التلال المشرفة على "أنزاك كوف". واجه مصطفى كمال، في طريقه إلى الجبهة، مجموعة من الجنود العثمانيين المتراجعين الذين نفذت منهم الذخيرة. أمرهم بتثبيت الحراب على بنادقهم الفارغة من الرصاص والتشبث بموقعهم.

تمكن القائد العثماني من إجراء تقييم صحيح لهشاشة موقف الأستراليين والنيوزيلنديين. فمع أنهم تمكنوا من النزول على البر بأعداد كبيرة، وجدوا أنفسهم في "جبهة عريضة جداً وغير ملائمة.. يقطعها عدد من الأودية التي شكلت عقبات معيقة. لهذا السبب كان العدو ضعيفاً في كل جزء من الجبهة تقريباً". فضلاً عن ذلك كله، وضع مصطفى كمال ثقة كبيرة بالقدرة القتالية لجنوده. قال متأملاً وهو ينظم قواته لشن هجوم معاكس: "هذا الهجوم ليس عادياً، إذ يتشوق الكل للنجاح أو التقدم إلى الأمام لملاقاة الموت بعزيمة وإصرار".



مصطفى كمال في غاليبولي. برز أتاتورك المستقبل كواحد من أعظم القادة العثمانيين في الحرب العالمية الأولى، حيث خدم في غاليبولي، وأدرنة، والقوقاز، وفلسطين، وسوريا، ليصبح لاحقاً الرئيس المؤسس للجمهورية التركية.

أخذت قوة الرد التركي السريع الجنود الأستراليين والنيوزيلنديين على حين غرة. فقبل الظهر بقليل "شن [العثمانيون] الذين وصلتهم تعزيزات قوية هجوماً معاكساً يائساً، مدعوماً بالمدفعية، والأسلحة الرشاشة، وبعد أن قدروا بدقة المسافة بيننا جعلونا نمر بأصعب أوقات حياتنا"، كما كتب جندي أسترالي فيما بعد. ومع وصول تعزيزات نيوزيلندية جديدة إلى مواقع الجنود الأستراليين والنيوزيلنديين، تمكن الغزاة من التحصن و"الاستقرار" استعداداً لقتال "استعر دون توقف طوال الليل". حظيت القوات العثمانية بميزة المدفعية المتنقلة وأمطرت الغزاة بالقذائف وقنابل الشظايا والرصاص، فبدأت خسائرهم ترتفع بشدة[39].

تخلى العريف النيوزيلندي موستين برايس جونز عن جميع أوهامه المتعلقة بمغامرة الحرب في اليوم الأول من القتال. فبعد أن نزلت وحدته على البر في الصباح، تقدمت عبر واد عميق تحت وابل من القذائف وقنابل الشظايا. "تساقط رجالنا واحداً إثر الآخر، لكنهم أصروا بشجاعة على أداء واجبهم، ونجحوا أخيراً في اجتياح خط النار". انهارت روحه المعنوية جراء العدد المتزايد من الخسائر في الأرواح. "لا يمكن تخيل مدى الرعب الذي يصيبك حين تشاهد زملاءك ورفاقك، الذين كانوا يضحكون ويهزلون قبل قليل، يردون حولك مصابين بأنواع الجروح المروعة كلها". بحلول المساء، لم يبق للتفقد اليومي في سرية جونز سوى 86 من أصل 256 رجلاً -أما البقية فكانوا في عداد القتلى أو الجرحى أو المفقودين أو انفصلوا عن وحداتهم جراء الفوضى العارمة على "شاطئ أنزاك"[40].

مع حلول المساء ترك عدد متزايد من الجنود المعزولين خط النار وعادوا إلى الشاطئ. فبعد أن خلفوا أحمالهم الثقيلة على الشط من أجل ارتقاء المرتفعات الشاهقة المشرفة على موقع الإنزال، رجعوا منهكين من الجوع والعطش بعد يوم من القتال العنيف، كما بدأت ذخيرتهم تنفد. شق الرجال المتعبون بروحهم المعنوية المنهارة طريقهم عبر الأودية الرئيسة إلى الشاطئ حيث عزلوا عن باقي رفاقهم.

استغل المدافعون الأتراك حالة الارتباك والتشوش والفوضى بين الجنود الأستراليين والنيوزيلنديين. وفي أجرأ مبادرة ربما جرت ذلك اليوم، اخترقت جماعة من الجنود العثمانيين الخطوط الأسترالية، زاعمين أنهم من الجنود الهنود الذين يخدمون في إحدى الوحدات

الاستعمارية البريطانية. ونظراً إلى أن الأستراليين كانوا في انتظار كتيبة من التعزيزات الهندية، تجاوزت خدعة الترك في النجاح أكثر آمالهم جسارة. أتى خبر مؤكد أن وحدة من الهنود وصلت وطلبت مقابلة أحد الضباط الأستراليين. ذهب ضابط (برتبة ملازم) اسمه إلستون، برفقة مترجم، للاجتماع مع "الهنود". طلبوا ضابطاً أعلى رتبة لـ"مناقشة الأوضاع"، فأرسل ضابط مساعد اسمه الكابتن مكدونالد للانضمام إليهما. "أتت الآن رسالة يطلبون فيها مقابلة الكولونيل". وحين وصل الضابط القائد، الكولونيل بوب، وجد إلستون ومكدونالد "يتفاوضان مع ستة جنود يحملون بنادق ثبتت عليها الحراب"، وبدأ يشتبه بوجود فخ. حين اقترب من الجماعة، أطبق الجنود الترك على الأستراليين. تمكن بوب من النجاة تحت وابل من الرصاص، لكن إلستون ومكدونالد والعريف أخذوا كلهم أسرى، وأوردت صحف إسطنبول خبر العملية الناجحة في اليوم اللاحق. "كم يسهل على أي شرقي التنكر بزي هندي والقدوم إلى الشط -لن يستطيع أحد من رجالنا تمييزه"، كما لاحظ الصحفي الأسترالي سي. إي. بين، الذي سحرته القصة[41].

بحلول نهاية اليوم الأول، نزل نحو 15.000 جندي أسترالي ونيوزيلندي على البر حول آريبورنو. بلغت خسائرهم في الأرواح 20 في المئة (500 قتيل و2500 جريح). أرسل كل جندي متوافر إلى المعركة ولم يبق أي وحدات احتياطية. صحيح أنهم استطاعوا في مسار القتال أثناء اليوم تأمين رأس جسر لكنهم فشلوا في تحقيق نصف أهدافهم في وجه دفاع العثمانيين العنيد. ونظراً إلى أن الأودية والشواطئ احتشدت بالجنود المعزولين والمنفصلين عن وحداتهم، اعتقد القادة الأستراليون والنيوزيلنديون أنهم في وضع يائس، حيث لم يبق لديهم ما يكفي من الجنود للاحتفاظ بالخط الأمامي. وإذا شن العثمانيون هجوماً معاكساً كبيراً في اليوم اللاحق، ستصبح فرص منع حدوث كارثة أمراً مستبعداً كما رأى هؤلاء القادة؛ فقرروا بعد دراسة الخيارات المتاحة طلب الزوارق لإخلاء آريبورنو من جميع الجنود[42].

اجتمع السير إيان هاملتون، القائد العام للحملة، بضباطه طوال ليلة 25-26 أبريل للتفكير بخياراتهم. أصيب الحلفاء بخسائر جسيمة، مع أنهم تمكنوا من استكمال الإنزال. اعتقد هاملتون أن جنود الحلفاء تجاوزا الأسوأ بعد نزولهم كلهم على البر، على الرغم من

فشل الوحدات التي نزلت في تحقيق الآمال الكبار التي وضعت لليوم الأول. ووفقاً لجميع التقارير، فقد أصيب العثمانيون أيضاً بخسائر فادحة واضطروا إلى تقسيم قواتهم لقتال الحلفاء في عدة نقاط في الوقت نفسه. أمل الحلفاء، بعد تأمين مواقعهم، بإنهاك المقاومة وإضعاف الروح المعنوية للمدافعين العثمانيين. وأي محاولة لإعادة الفيلق الأسترالي-النيوزيلندي إلى السفن -وهي عملية تتطلب يومين اثنين- سوف تعطي نتائج عكسية، وتشجع الترك وتترك الجنود المنسحبين عرضة للهجوم.

قرر هاملتون رفض طلب قادة الفيلق الأسترالي-النيوزيلندي إخلاء الشاطئ. قال موضحاً: "لا يوجد بديل سوى التحصن في مواقعكم والتشبث بها. ناشدوا رجالكم شخصياً.. لبذل أقصى جهد من أجل الصمود". وللتشديد على هذه النقطة، أضاف حاشية: "لقد تجاوزتم الجزء الأصعب من المهمة. يجب عليكم الآن أن تتحصنوا في خنادقكم إلى أن تصبحوا في مأمن". وأمر الأسطول، للتعويض عن مدفعية الميدان، بفتح النار على المواقع التركية فيما وراء الخنادق الأسترالية-النيوزيلندية لمنح الجنود وقتاً لتعزيز مواقعهم وتثبيتها. لم يشن الترك هجومهم المضاد المخيف والمرتقب صباح 26 أبريل. وبدا أن الجانبين بحاجة إلى مهلة لإعادة تنظيم الصفوف قبل العودة إلى المعركة[43].

* * *

ثبت من اليوم الأول للحرب البرية في غاليبولي التكافؤ اللافت في القوة بين العثمانيين والغزاة. إذ أظهر الطرفان صلابة وعزيمة وشجاعة في أول تجربة حربية لجميع المشاركين تقريباً. لكن الحوادث التي انطلقت مجرياتها في 25 أبريل سوف تتطلب أكثر من مجرد الصلابة والعزيمة والشجاعة في أشهر العنف الرهيب الآتية. وسيواجه القادة من الجانبين تحدي إصدار قرارات صعبة، وموازنة نشر الجنود في المضائق إزاء غيرها من المطالب الملحة لنشر القوات في الجبهات الأخرى. فيما يتعلق بالحلفاء، اعتلت الجبهة الغربية على الدوام قائمة الأولويات. أما بالنسبة إلى العثمانيين فقد احتلت الدردنيل قمة الأولويات باعتبارها ركيزة صراع السلطنة وكفاحها من أجل البقاء.

لكن المخططين الحربيين العثمانيين لم يتمتعوا بترف التركيز العنيد على الدفاع عن المضائق. إذ واجه الاتحاديون من أعضاء تركيا الفتاة مطالب عاجلة وملحة للموارد العسكرية على عدة جبهات فوراً -ولاسيما في القوقاز، حيث هدد التعاون الروسي-الأرمني العثمانيين في منطقة تعاني ضعفاً وانكشافاً على نحو خاص. وفي سبيل التصدي للتهديد سوف يلجأ الاتحاديون الترك إلى وسائل اتهموا بسببها بارتكاب جرائم ضد الإنسانية، وما زالت التهمة سارية المفعول إلى يومنا الحالي.

7

إبادة الأرمن

بحلول ربيع عام 1915، واجه العثمانيون غزواً على ثلاث جبهات. شكّلت القوات الإنكليزية-الهندية منذ اجتياح منطقة البصرة جنوب العراق في الأشهر الأخيرة من عام 1914 تهديداً خطراً عند البوابات الجنوبية للسلطنة العثمانية. في الشرق، كان الجيش العثماني الثالث في حالة شاملة من الارتباك والفوضى في أعقاب حملة ساريكاميش المتهورة وسيئة التخطيط التي قادها أنور باشا ضد الروس في ديسمبر 1914 ويناير 1915. في الغرب، شن البريطانيون والفرنسيون هجمات متضافرة ومتواصلة على الدردنيل، وتمكن مشاة الحلفاء من تأمين عدة رؤوس جسور على جانبي المضائق. ثمة أسباب وجيهة تدعو إلى الهلع اكتسحت عاصمة السلطنة في مارس 1915. بدا انهيار الامبراطورية وشيكاً ومحتوماً.

مع قدوم الربيع، وصلت المهلة التي وفرتها دفاعات الشتاء الطبيعية إلى نهايتها. وبدأت ثلوج القوقاز السميكة بالذوبان. بينما حلت الظروف الجوية المستقرة والرياح الهادئة في غاليبولي مكان الزوابع الشتوية الهوجاء في بحر إيجة. تحرك أعداء السلطنة مرة أخرى، وبحلول أبريل 1915 واجهت السلطنة أخطر توليفة من التحديات في تاريخها كله.

لم يملك الاتحاديون من أعضاء تركيا الفتاة سوى وسائل محدودة لمجابهة هذه التهديدات المتناسقة. كافحوا لإعادة بناء الجيش الثالث للدفاع عن القوقاز ضد أي هجوم روسي، مع تخصيص كل وحدة متاحة للدفاع عن الدردنيل؛ ما حرم السلطنة من القوات النظامية لصد

البريطانيين عن الرافدين. عبأ العثمانيون السكان من أجل حرب شاملة، وضاعفوا التجنيد ونشر وحدات الشرطة والجندرمة (قوة من خيالة الشرطة مخصصة للأرياف) لتعزيز المشاة النظاميين. بينما حشدت القوة الأمنية التابعة لأنور باشا (تشكيلات مخصوصة) الكرد والقبائل البدوية، وأطلقت سراح السجناء للخدمة كمقاتلين غير نظاميين. وحين أعلن الاتحاديون في ربيع عام 1915 أن السكان الأرمن في السلطة كلهم طابور خامس خطر، جندوا حتى المواطنين العاديين للمساعدة على إبادتهم.

❊ ❊ ❊

في أعقاب الهزيمة أمام الجيش الروسي في ساريكاميش، دمرت الفلول الباقية من الجيش الثالث بعدو خفي -المرض. فبين أكتوبر 1914 ومايو 1915، هلك نحو 150.000 جندي ومدني في شمال شرق تركيا بسبب انتشار الأمراض المعدية، مقارنة بنحو 60.000 جندي فقدهم الترك في معركة ساريكاميش[7].

نقل الجنود مجموعة من الأمراض المعدية. بعد أسابيع من التعرض للظروف الجوية السيئة، ضعفت أجهزتهم المناعية إلى حد خطر، فأصيبوا بالتيفوس والزحار من الطعام والماء الملوثين. لم يتمكنوا من الاغتسال فاجتاحهم القمل والبراغيث التي حملت وباء التيفوس. وحين جرى إيواؤهم في البلدات والقرى شرق الأناضول، نقلوا إلى السكان المدنيين أمراضهم. انتشرت هذه الأمراض الفتاكة حين تبادل المدنيون والعسكريون العدوى، وبلغت حداً وبائياً في الأشهر الافتتاحية من عام 1915.

أنهكت السلطات الطبية العثمانية في أرضروم، المرهقة أصلاً بمعالجة الجرحى، حين تدفق سيل جارف من المرضى. ولأن المستشفى العسكري لا يضم سوى تسعمئة سرير، اضطرت السلطات لمصادرة مباني المدارس والمساجد والمؤسسات الرسمية في المدينة لإيواء المرضى والجرحى. كانت هذه المرافق تستقبل ألف مريض جديد كل يوم، حيث وصل إجمالي عدد المرضى في أرضروم إلى 15.000 في ذروة الأزمة. استنزف الطعام والإمدادات الطبية بسرعة، ما فاقم الحالة البائسة للمرضى والجرحى. في بعض الأحيان، بقي المرضى

ثلاثة أيام من دون طعام. في أرضروم، مات الجنود فعلياً من الجوع في المستشفيات. ولم يكن في المخازن ما يكفي من الحطب لتدفئة هذه المرافق الطبية المرتجلة في زمهرير الشتاء. أسهمت هذه الظروف في محنة المرضى والجرحى -وفي ارتفاع معدل الوفيات إلى مستويات صادمة[2].

حولت المدرسة التبشيرية الأميركية في أرضروم إلى مرفق طبي يضم أربعمئة سرير، وجده طبيب البعثة الدكتور إدوارد كيس أكثر قابلية لنقل الأمراض ونشرها من معالجتها. حشد المرضى في غرف مزدحمة فوق حشايا القش على الأرض؛ ما جعل من المستحيل عزل المصابين بالعدوى أو الحجر الصحي عليهم. ومن دون مواد مطهرة أو غيرها من إجراءات تعزيز الصحة لمكافحة الأمراض، تحولت المستشفيات نفسها بسرعة إلى مراكز لانتقال العدوى. بين ديسمبر 1914 ويناير 1915، أبلغ الدكتور كيس عن نحو 60.000 حالة وفاة (من المدنيين والعسكريين) في أرضروم -التي لم يكن عدد سكانها يزيد على 60.000 نسمة قبل الحرب. لم تكن البلدة متفردة. إذ قدر القنصل الأميركي في طرابزون أن عدداً راوح بين 5000 و6000 من المدنيين والعسكريين قضوا بسبب التيفوس في الشتاء الممتد بين عامي 1914 و1915 في البلدة المطلة على البحر الأسود، حيث زعم الأطباء المحليون أن معدل الوفيات من المرض وصل إلى 80 في المئة عند ذروة انتشار الوباء[3].

أدت هذه الظروف إلى مواجهة العاملين الصحيين الخطر ذاته الذي أحدق بالمرضى. في إحدى المراحل، احتجز عدد راوح بين ثلاثين وأربعين طبيباً في "مستشفى الأمراض المعدية" في أرضروم "أصيبوا جميعاً بالتيفوس، ومات نصفهم تقريباً أو أكثر بالمرض" وفقاً للدكتور كيس. وبعد أن قضى كيس شهرين في هذه الأجنحة الموبوءة، أصيب بالتيفوس، لكنه تعافى. كان أوفر حظاً من كثيرين: زعم القنصل الأميركي في طرابزون أن أكثر من ثلاثمئة من الأطباء والعاملين الصحيين توفوا في شمال شرق تركيا بين أكتوبر 1914 ومايو 1915. ومع موت مزيد من أفراد الطواقم الطبية أو إصابتهم بالمرض، لم يعد يتوافر ما يكفي منهم لمعالجة المرضى والجرحى، الذين زادت معاناتهم وارتفعت نسبة الوفيات بينهم.

شكّل الأموات عبئاً ثقيلًا على الأحياء في شتاء عام 1915. وصف الدكتور كيس الرعب الذي شهده في أرضروم: "زاد عدد الموتى إلى حد أجبر السلطات على حظر دفنهم

في النهار، وفي الليل حملت العربات أكداساً منهم عرايا إلى الخنادق، بعد أن نزعت عنهم ملابسهم. شاهدت خندقاً أو بالأحرى حفرة كبيرة نصف ملآنة بجثث الموتى وهي ممددة في وضعيات مختلفة، بقيت على حالها كما رميت فيها كأنها قمامة، وتكشفت منها الرؤوس أو الأذرع أو الأرجل أو غيرها من الأعضاء. ثم يلقى بعد ذلك بأكوام أخرى فوقها، ثم تردم. كان المشهد مرعباً". بل رأى رجالاً يحتضرون وضعوا في قبور جماعية في انتظار موتهم لدفنهم. بدا أن الأحياء يفقدون شعورهم بالشفقة والتعاطف بعد مواجهة هذا الكم الهائل من الموتى والمحتضرين[4].

نقل العريف الطبي علي رضا إيتي، الذي خدم سابقاً في ساريكاميش، إلى مستشفى أرضروم العسكري في ذروة انتشار الوباء. وعين في منصب كبير ممرضي قسم الحجر الصحي حين أصيب المسؤول السابق بالتيفوس. وجد رضا العمل شاقاً ومنهكاً وخطراً؛ نظراً إلى اختلاطه مع مئات المصابين بالأمراض المعدية. تقدم بطلبات متكررة لنقله إلى وظيفة أخرى، لكن رفضت كلها، وذلك مع تدفق مزيد من المرضى والجرحى على المستشفى، ليشغلوا الأسرّة التي أخلاها الموتى مؤخراً. بعد الوقت الذي قضاه رضا على الجبهة، عرف هؤلاء الرجال وتعاطف معهم. لكن زاد غضبه باطراد بسبب معاناة الجنود العاديين، وبدأ يركزه على الأرمن باعتبارهم كبش فداء لمعاناة الترك زمن الحرب.

شعر رضا منذ أيام القتال على جبهة ساريكاميش بعداء عميق للأرمن. وأتهمهم بانتظام بالغدر بالعثمانيين، وعبور خطوط القتال للانضمام إلى الروس، وتزويد العدو بمعلومات عن المواقع العثمانية. كما أورد حوادث "عارضة" قتل فيها جنود أرمن على أيدي رفاقهم العثمانيين مع نوع من التشفي والرضى. لكن لم تتح له فرصة التصرف وفقاً لدوافع بغضه العميق إلا حين خدم في المستشفى.

شكّل موت جندي من بلدة رضا محفزاً ليصب جام غضبه على الأرمن. أبلغ الجريح رضا أنه نقل من الجبهة ليتركه ممرض أرمني من فيلق النقل معزولاً في خندق. وبعد يومين أمضاهما في البرد القارس، تجمدت يداه وقدماه بسبب "عضة الصقيع". حاول الطاقم الطبي في أرضروم إنقاذ حياته ببتر أطرافه، لكنه مات في اليوم اللاحق. "تصوروا مدى خسة الجندي الأرمني" الذي تخلى عن الجريح التركي في الخندق، كما قال حانقاً. "هل يمكن

أن نعود إخوة ومواطنين بعد هذه الحرب؟ من جهتي، لا! من السهل عليّ الانتقام. أستطيع أن أجعل ثلاثة أو أربعة من الأرمن في المستشفى يجرعون السم"[5].

لجأ العريف رضا إلى القسوة بدلاً من القتل في حملته الشخصية ضد الأرمن. في يناير 1915، انتهك واجبات وظيفته في الخدمة الطبية حين طرد عمالاً من الأرمن ونفاهم. "أرسلت ثلاثة أرمن، أحدهم من وان، وآخر من ديار بكر، ليسرقهم [لصوص الأرياف الذين يقتلون ضحاياهم عادة]. هذا ما يمكن أن نسميه الثأر التركي"، كما قال مبتهجاً. وطرد أربع أرمنيات واستبدل بهن تركيات. أشار ملاحظاً برضى وارتياح: "كلفت الجنود الأرمن بأداء أخطر المهمات"[6].

ومع أن رضا لم يزعم قط أنه قتل أرمنياً بنفسه، فإن رغبته بموت الأرمن كلهم تبدو واضحة دون لبس. لم يكن متفرداً في ذلك. إذ تركت الهزيمة في ساريكاميش والتأثيرات المدمرة للأمراض المعدية، العثمانيين أشد ضعفاً وانكشافاً أمام الخطر على جبهتهم الشرقية مقارنة بأي وقت مضى. ولطخ الولاء المقسم لدى بعض الأرمن سمعتهم كلهم بعيون كثير من الترك. وبدأ القادة الاتحاديون من أعضاء تركيا الفتاة التفكير بحل دائم لـ"المشكلة الأرمنية".

* * *

أشرف الاتحاديون في أثناء المدة القصيرة التي أمضوها في الحكم على عمليات نقل واسعة للسكان. إذ دفعت خسارة الأقاليم والولايات في حربي البلقان موجات من اللاجئين المسلمين المعوزين للبحث عن ملاذ في الأراضي العثمانية. ومن دون موارد كافية للتصدي لهذه الأزمة الإنسانية، أوجدت القيادة التركية حيزاً مكانياً لاستقبال لاجئي البلقان عبر ترحيل آلاف من المسيحيين العثمانيين إلى اليونان. ثم أشرفت لجنة حكومية على إعادة تخصيص بيوت المسيحيين العثمانيين المطرودين، وحقولهم، وورشاتهم لإعادة توطين اللاجئين المسلمين القادمين من البلقان. نظم هذا "التبادل السكاني" باتفاقيات رسمية وقعت بين الباب العالي ودول البلقان -تطهير عرقي مع ختم دولي بالموافقة[7].

خدم ترحيل اليونانيين من السلطنة العثمانية عدة أهداف؛ إذ لم يكتف الترحيل بتوفير بيوت وأماكن عمل لإعادة توطين اللاجئين المسلمين من البلقان فحسب، بل أتاح للعثمانيين طرد

آلاف من المواطنين المشكوك بولائهم. وترك التوتر الناجم عن النزاع على جزر بحر إيجة، الذي هدد باندلاع حرب جديدة بين اليونان والسلطنة في الأشهر الستة الأولى من عام 1914، اليونانيين العثمانيين (الروم) في حالة خطرة من الضعف والانكشاف. بينما وفر التبادل السكاني الذي ابتدأ بعد الحرب في البلقان حلاً بغطاء دولي لـ"مشكلة اليونانيين" في السلطنة.

ما بدأ تبادلاً تحت السيطرة لشريحة من السكان على الحدود بين البلدين المتحاربين، ارتقى إلى عملية طرد ممنهج لليونانيين من الأراضي العثمانية عموماً. وعلى الرغم من عدم توافر أرقام دقيقة للمرحلين، فإن مئات الآلاف من المسيحيين الأرثوذكس اليونانيين قد طردوا بالقوة قبل وأثناء الحرب العالمية الأولى. وكلما جرت عمليات الترحيل في عمق الأراضي العثمانية، زاد اعتماد الحكومة على العنف والتهديد لتحقيق أهدافها. حيث قاوم القرويون الأرثوذكس في غرب الأناضول، بعيداً عن منطقة البلقان المضطربة، مساعي الدولة لاقتلاعهم من جذورهم. طوق الجندرمة القرويين، واعتدوا على الرجال بالضرب، وهددوا النساء بالخطف، بل قتلوا الذين عارضوا الترحيل. ذكر القناصل الأجانب، الذين روعهم العنف ضد المدنيين المسيحيين، أن العشرات قتلوا في بعض القرى. لكن طرد اليونانيين نفذ بمستويات منخفضة من القتل نسبياً لأن هناك دولة يونانية يمكن ترحيلهم إليها.

الأمر ذاته ينطبق على الأرمن العثمانيين. في الواقع، شكل الأرمن أقلية في كل ولاية عثمانية، لكن تركزوا في ثلاث مناطق حساسة حظيت بأهمية خاصة في أثناء الحرب العالمية الأولى. كانت إسطنبول، المهددة بغزو وشيك للحلفاء، موطناً لأكبر جالية أرمنية. في كيليكيا، المشرفة على خليج الاسكندرونة، اشتبه العثمانيون بأن الجالية الأرمنية تتآمر مع أسطول الحلفاء. في القوقاز، عرضت أقلية من الناشطين الأرمن موقف الجالية برمتها للشبهة حين تحالفت مع روسيا ضد السلطنة. اعتقد الاتحاديون من أعضاء تركيا الفتاة أن الأرمن يشكلون تهديداً أخطر بكثير للدولة من اليونانيين؛ لأن بعض الأرمن أملوا بإنشاء وطن مستقل في الأراضي العثمانية بدعم من الحلفاء.

كان إلغاء اتفاقية الإصلاح الأرمنية الموقعة مع روسيا في فبراير 1914 واحداً من أوائل القرارات التي اتخذتها الحكومة العثمانية بعد دخول الحرب العالمية الأولى. فقد دعت الاتفاقية إلى إعادة تنظيم الولايات العثمانية الست على الحدود مع روسيا في أقصى شرق

البلاد، ودمجها في وحدتين إداريتين خاضعتين لحكام أجانب من أجل إقامة وطن قومي مستقل ذاتياً للأرمن. عارض العثمانيون هذه الأجندة الإصلاحية، وعدوها تمهيداً لتقسيم الأناضول، قلب تركيا -خطة لإنشاء دولة أرمنية على أراض تضم أغلبية كبيرة من المسلمين برعاية روسية. وما وقعوه قسراً تحت الضغط في فبراير 1914، شعروا بالارتياح لإلغائه في 16 ديسمبر من السنة نفسها[8].

في أعقاب الهزيمة في ساريكاميش، بدأ الاتحاديون التفكير في وسائل متطرفة للتصدي للتهديد الذي اعتقدوا أن المطامح الأرمنية القومية تشكله لسلامة أراضيهم. في فبراير 1915، عاد الدكتور بهاء الدين شاكر، رئيس العمليات في جهاز "تشكيلات مخصوصة"، وعضو اللجنة المركزية في جمعية الاتحاد والترقي، إلى إسطنبول من جبهة القوقاز. التقى شاكر، المسلح بتقارير ووثائق جمعها في الميدان، وزير الداخلية القوي طلعت باشا، وعضواً آخر في اللجنة المركزية، الدكتور محمد ناظم. وتحدث إليهما عن ضرورة التصدي لـ"العدو الداخلي" بسبب "الموقف المعارض الذي اتخذه الأرمن تجاه تركيا والمساعدة التي قدموها إلى الجيش الروسي". وعلى الرغم من عدم وجود محاضر مكتوبة للاجتماع -الذين يخططون للأعمال الوحشية نادراً ما يتركون سجلات مكتوبة- فإن الوثائق العثمانية والمذكرات المعاصرة تشير إلى أن هؤلاء المسؤولين الثلاثة في حزب تركيا الفتاة اتخذوا قرارات حاسمة لبدء حملات إبادة الطائفة الأرمنية في تركيا بين فبراير ومارس 1915 [9].

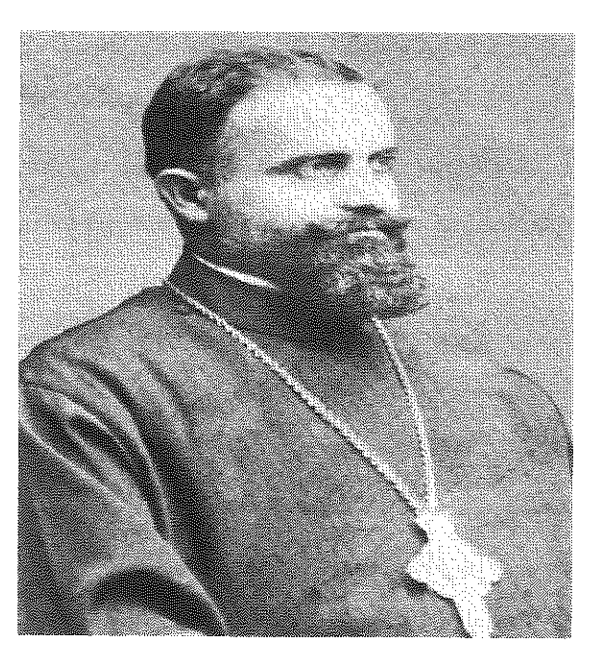
* * *

ساعدت الطائفة الأرمنية المنكودة في إسطنبول أعداءها على تنفيذ مخططاتهم حين أظهرت علناً تأييدها حملة الحلفاء ضد العثمانيين والألمان.

كان الكاهن الأرمني غريغوريس بالاكيان يدرس اللاهوت في برلين عام 1914. وعندما اندلعت الحرب في أوربا، أراد العودة على الفور إلى إسطنبول. حاول الأرمن في برلين ثنيه عن الذهاب. "نصحني كثيرون بالتوجه إلى القوقاز والانضمام إلى جماعات المتطوعين الأرمن، ثم العبور إلى أرمينيا التركية" مع جيش الغزو الروسي، كما تذكر. لم يكن يريد أي اتصال مع الألوية الأرمنية في روسيا، التي عدها تهديداً للجاليات الأرمنية

في الشرق لا دعمًا لها، لكن أصدقاءه في برلين أنكروا مخاوفه. أضاف: "حاصرتهم العاطفة القومية بإسارها، وكرهوا أن يفوتوا هذه الفرصة الفريدة للانتقام من الأخطاء التي ارتكبها الترك بحق الشعب الأرمني"[10].

عندما وصل الكاهن إلى إسطنبول، حرص على التأكيد لمسؤولي الهجرة العثمانيين أنه عائد من برلين وعبر عن تأييده للمجهود الحربي الألماني والعلاقات التركية-الألمانية. تحمس أحد مسؤولي الجمارك لتعبير الكاهن الأرمني عن ولائه، ونصحه قائلاً: "أفندي! قدم لإخوانك في الأستانة، الذين يعارضونك الرأي تماماً، النصح والمشورة بحيث يتخلون عن غرامهم بروسيا. إذ وصل ارتباطهم بالروس والفرنسيين والإنكليز وحبهم لهم حد الابتسام إذا انتصر الروس.. والحزن إذا هزموا. هذا الوفاء الكبير سوف يسبب لهم متاعب كثيرة فيما بعد". بعد بضعة أيام من وصوله، شعر بالقلق حين وجد أن ملاحظة موظف الجمارك مبررة بما أظهره أرمن إسطنبول من تأييد سافر لنجاحات الحلفاء الحربية.



غريغوريس بالاكيان، 1913. كاهن أرمني كان واحداً من بين 240 من وجهاء الطائفة الأرمنية وزعمائها الذين اعتقلوا في إسطنبول ليلة 24 أبريل 1915. نجا من مسيرات الموت ليشهد إبادة دعاها «الجلجثة الأرمنية».

مع بدء هجوم الحلفاء على الدردنيل، لم يحاول الأرمن إخفاء احتفالهم بالخلاص الوشيك من الحكم التركي. تساءل بالاكيان بأسلوب بلاغي: "أليست الأساطيل الإنكليزية والفرنسية الجبارة في الدردنيل على الرغم من كل شيء؟ أليست الأستانة على وشك السقوط في بضعة أيام؟". راقب فزعاً كيف يتجمع الأرمن كل يوم في انتظار مشاهدة "الأسطول البريطاني المهيب يعبر البوسفور، في مهمة لإنقاذ الأرمن بالطبع". وزعم أن مواطنيه الأرمن "اعتقدوا أن الساعة التاريخية قد حانت لتحقيق أحلامهم وآمالهم القومية التي راودتهم منذ عصور"، ما ترك العثمانيين الأرمن "في حالة من البهجة غير المسبوقة" في لحظة واجه فيها العثمانيون الترك تهديداً وجودياً. إنها صيغة مثالية للعنف دون ريب[11].

استهل طلعت باشا وزملاؤه في كيليكيا أولى الإجراءات ضد الجالية الأرمنية. كانت المنطقة المحيطة بالاسكندرونة على نحو خاص ضعيفة ومكشوفة أمام أي هجوم بحري، مثلما أظهر الطراد (HMS *Doris*) حين قصف خطوط السكك الحديدية ومعداتها في دورتيول والاسكندرونة في ديسمبر 1914. واصلت سفن الحلفاء الحربية حصار ساحل كيليكيا وقصفه ونشرت جواسيس على الشاطئ. اشتبه بأن الناشطين الأرمن ساعدوا هؤلاء العملاء الأجانب وزودوهم بمعلومات عن أعداد الجنود العثمانيين القليلة في المنطقة. تابع وزير الحربية أنور باشا هذه التطورات بقلق متعاظم. "أملي الوحيد أن العدو لم يكتشف ضعفنا" في كيليكيا، كما أسّر إلى الفيلد مارشال الألماني بول فون هندنبرغ. ونظراً إلى عجز أنور وطلعت عن زيادة أعداد الجنود العثمانيين في المنطقة، اختارا بدلاً من ذلك تهجير الطائفة الأرمنية المشكوك في ولائها بالقوة[12].

بدأ العثمانيون في فبراير 1915 ترحيل الأرمن من دورتيول والاسكندرونة إلى منطقة أضنة. ووفقاً لنموذج التبادل السكاني مع اليونان، أعيد توطين اللاجئين المسلمين في ممتلكات الأرمن التي أخلوها بالقوة. هدأت عمليات الترحيل المخاوف الأمنية التركية في خليج الاسكندرونة. لكن لم توفّر للأرمن المطرودين شروط البقاء، ما اضطرهم للاعتماد على إخوانهم في الدين في أضنة. أحيت لا مبالاة الدولة ذكريات المجازر القديمة، واكتسح الخوف الجاليات الأرمنية شرق الأناضول[13].

رد الناشطون في قرية زيتون، التي تبعد نحو خمسة وستين ميلاً إلى الشمال الشرقي من دورتيول، على عمليات الترحيل القسري الأولى بالتخطيط لانتفاضة ضد العثمانيين. في منتصف فبراير، سافرت جماعة من الثائرين الأرمن من زيتون إلى تيفليس (تبليسي في جورجيا الحالية) لطلب السلاح والدعم من الروس. وزعموا أن عدداً يصل إلى 15.000 رجل على استعداد للثورة على العثمانيين. ظل كثيرون متشبثين باعتقاد خاطئ يشير إلى أن تمرداً شاملًا سوف يحفز تدخلًا من دول الحلفاء دفاعاً عن الأرمن. لم يكن وضع الروس يسمح بتقديم السلاح، فضلًا عن إرسال القوات، لمساعدة الأرمن في كيليكيا، على هذه المسافة الشاسعة من حدودهم[14].

في نهاية فبراير، شعرت مجموعة من الوجهاء الأرمن في زيتون بالقلق فنبّهت السلطات العثمانية إلى أن جماعة من الناشطين يخططون للثورة. أمل الزعماء المسيحيون بحماية طائفتهم من الهجوم عبر إظهار هذا الولاء، لكن كشف السر ساعد على إطلاق الرد الانتقامي ذاته الذي خشي منه الأرمن. أرسل الجنود العثمانيون إلى زيتون وشنوا عمليات اعتقال جماعية. هرب كثير من الشباب من بيوتهم إلى الريف، حيث انضموا إلى عصابات متنامية من المتمردين والمنشقين الأرمن عن الجيش، استعداداً للمواجهة مع الحكومة.

أوقعت عصبة أرمنية مسلحة الجندرمة العثمانية في كمين بالقرب من زيتون في 9 مارس، وقتلت عدداً من الجنود (تفاوت عدد القتلى وفقاً للتقارير بين ستة وخمسة عشر) واستولت على أسلحتهم ونقودهم. تحول الهجوم إلى ذريعة لترحيل الطائفة الأرمنية كلها من زيتون. أطبق الجنود على البلدة واعتقلوا الوجهاء الأرمن. وبين شهري أبريل ويوليو، رُحّل سكان زيتون الأرمن كلهم دون استثناء إلى بلدة قونية وسط الأناضول، وأعيد توطين اللاجئين المسلمين محلهم. جرد أكثر من 7000 أرمني من ممتلكاتهم وطردوا دون توفير ما يكفي من الطعام والحماية على طول الطريق، ثم تركوا دون مأوى في قونية. فتك الجوع والمرض بنحو 1500 من أرمن زيتون في ذلك الصيف قبل معاناة ترحيل قسري آخر إلى سوريا[15].

عشية إنزال الحلفاء في الدردنيل في أبريل 1915، نقل طلعت باشا وزملاؤه بؤرة تركيزهم من كيليكيا إلى إسطنبول. كان الهدف قطع رأس الزعامة السياسية والثقافية للطائفة الأرمنية

استباقاً لغزو محتمل للعاصمة، وذلك لمنع الأرمن من التواطؤ مع الغزاة. اعتقلت الشرطة التركية 240 من أبرز الشخصيات -من ضمنهم سياسيون وصحفيون وأعضاء الأحزاب القومية الأرمنية ومهنيون ومرجعيات دينية- عبر حملة شنتها ليلة 24 أبريل، اعتماداً على قائمة سوداء جمعتها بمساعدة متواطئين من الأرمن. طُرقت الأبواب في ساعة متأخرة من الليل، وظل كثير من المعتقلين في ثياب النوم حين وصلوا إلى السجن.

كان الكاهن الأرمني غريغوريس بالاكيان واحداً من أولئك الذين اعتقلوا ليلة 24 أبريل. أذهلته المفاجأة تماماً مثل غيره. رافقته الشرطة إلى "حافلة حمراء بلون الدم" تنتظر في الشارع. ألقي القبض عليه مع ثمانية من أصدقائه ونقلوا بالعبارة من القسم الآسيوي إلى الأوربي من إسطنبول. "فاحت في الليل رائحة الموت؛ هاج البحر، وملأ الرعب قلوبنا"، كما تذكر. أودع بالاكيان وزملاؤه السجن المركزي، حيث التقوا بغيرهم من المعتقلين الأرمن. "الوجوه كلها مألوفة -زعماء ثوريون وسياسيون، شخصيات عامة، مثقفون غير حزبيين بل عرفوا بعدائهم للأحزاب". انضمت إلى المجموعة حمولة حافلات من المعتقلين الجدد طوال الليل "في حالة من التبريح الروحي، والرعب من المجهول، والتوق للراحة". في اليوم اللاحق، تمكن المعتقلون الأرمن من سماع دوي مدافع الحلفاء التي تمهد للإنزال في غاليبولي، وتساءلوا هل الهدير نذير بهلاكهم أم بشير بنجاتهم؟[16].

فيما يتعلق بالأرمن، كان اعتقال الزعامة السياسية والفكرية في إسطنبول ليلة 24 أبريل استهلالًا لتدمير منهجي للطوائف الأرمنية في الأناضول. وحظي التاريخ منذ ذلك الحين باعتراف دولي باعتباره بداية الإبادة الأرمنية. لكن بالنسبة إلى العثمانيين، بدأت الحرب ضد الأرمن قبل أربعة أيام مع الانتفاضة الأرمنية في بلدة وان شرق الأناضول[17].

* * *

تربض وان بالقرب من شواطئ بحيرة تحمل اسمها، وكانت مركزاً تجارياً رئيساً مقسماً بين أحياء الأرمن والمسلمين. الجزء القديم محاط بسور يضم أربع بوابات، ومبني على كتلة ضخمة ناتئة من الصخر ترتفع مئتي متر فوق السهل. تتذرى قلعة شيدها سليمان القانوني

الكتلة الصخرية وتهيمن على البلدة. بينما اصطفت بيوت من طبقتين على جانبي الشوارع المتعرجة المؤدية إلى الأسواق والمساجد والكنائس. يتجمع عدد من المباني الحكومية في الجزء الجنوبي الشرقي من البلدة، إلى جانب مخفر للشرطة والجندرمة.

في مسار القرن التاسع عشر، توسعت وان وامتدت فيما وراء سور البلدة القديمة إلى الأراضي الخصبة في الشرق. أحاطت البساتين والجدران العالية المشيدة بالقوالب الطينية المنازل في "حي الحديقة". افتتح عدد من القنصليات الأجنبية -البريطانية والفرنسية والإيرانية والإيطالية والروسية- إضافة إلى البعثتين التبشيريتين الكاثوليكية والبروتستانتية، مقرات لها في الحي. جسدت المنطقة خلطة عالمية (كوزموبوليتانية) لافتة، في بلدة ريفية لم يتجاوز عدد سكانها 30.000 نسمة في تسعينيات القرن حسب تقديرات خبير فرنسي في الدراسات السكانية: 16.000 من المسلمين، 13.500 من الأرمن، 500 من اليهود. تقاسم الأهالي إحساساً قوياً بالاعتزاز ببلدتهم. وصفها أحدهم، جورجن مهري، بأنها "ساحرة معجزة خضراء الشعر من حكاية خرافية" في روايته الكلاسيكية (*Burning Orchards*) الجنائن المحترقة[18].

كانت الطائفة الأرمنية في وان والقرى المجاورة كبيرة وناشطة سياسياً. ونظراً إلى موقعها الاستراتيجي القريب من الحدود الروسية والإيرانية، بدا من المحتم أن تتحول إلى بؤرة اصطدام بين الدولة العثمانية والمواطنين الأرمن.

كان والي وان، جودت باشا، اتحادياً متشدداً (صهره أنور باشا). في مارس 1915، أمر الجندرمة بتفتيش القرى الأرمنية للبحث عن أسلحة مخبأة واعتقال كل من يشتبه به بحمل السلاح ضد الدولة. أدت هذه العمليات إلى مذابح بحق الأرمن في القرى المحيطة بالبلدة. وفي محاولة من جودت لقطع رأس زعامة الطائفة الأرمنية، أمر -كما زُعم- بقتل ثلاثة من قادة حزب الداشناك القومي في وان. اغتيل زعيمان -نيكوغايوس ميكايليان، المعروف باسم "إشخان" ("أمير" بالأرمنية)، وأرشاك فارميان، عضو البرلمان العثماني. أما الثالث، آرام مانوكيان، فلم يثق بالحاكم جودت واختار عدم الاستجابة لدعوته إلى مقره.

وحين علم باختفاء رفيقيه وقتلهما كما افترض، عمل سراً على إعداد أرمن وان لمقاومة المذبحة الوشيكة[19].

كان رافاييل دي نوغاليس الفنزويلي جندياً مرتزقاً تطوع في الجيش العثماني بدافع الإحساس بالمغامرة لا الاقتناع والعقيدة. التقى أنور باشا بدي نوغاليس في إسطنبول وعرض عليه مهمة في الجيش الثالث المنهك بعيد الهزيمة في ساريكاميش. في مارس وصل الفنزويلي إلى مقر الجيش الثالث في أرضروم، فوجد الضباط أكثر اهتماماً بمكافحة التيفوس من محاربة الروس. ولأنه تواق للقتال، تطوع في جندرمة فان، القوات الوحيدة المنخرطة في الحرب الفعلية على الجبهة الروسية. تطلبت الرحلة من أرضروم إلى وان عبور منطقة الصراع المحتدم بين العثمانيين والأرمن. وصل في اليوم الذي انتفض فيه أرمن وان ضد الحكم العثماني.

في 20 أبريل، شاهد دي نوغاليس ومرافقوه "جثثاً أرمنية مقطعة الأوصال" عند امتداد من الطريق على الزاوية الشمالية-الغربية من بحيرة وان. وأمكنهم رؤية أعمدة الدخان تتصاعد من القرى على الشواطئ الجنوبية من البحيرة. "فهمت عندئذ أن الأمر قد قضي. لقد بدأت الثورة الأرمنية"، كما كتب لاحقاً، كأنما جرى توقع الحادث من زمن بعيد[20].

في صباح اليوم اللاحق، شهد دي نوغاليس مذبحة وحشية في الحي الأرمني من قرية أديلجيفاز على الشاطئ الشمالي من بحيرة وان. اقتحم المسؤولون العثمانيون، بمساعدة الكرد و"الرعاع من المناطق المجاورة"، بيوت الأرمن ومتاجرهم، وقاموا بعمليات نهب وقتل منهجية لجميع الرجال. وحين تقدم دي نوغاليس، الذي يرتدي زي ضابط عثماني، نحو مسؤول وطالبه بوقف القتل، ذهل حين أجاب الرجل بأنه "لا يفعل سوى تنفيذ أمر صريح صادر من الحاكم العام للولاية [جودت باشا].. بإبادة جميع الأرمن الذكور ممن تزيد أعمارهم على اثني عشر عاماً". ولأن دي نوغاليس لا يملك صلاحية تجاوز أوامر مسؤول حكومي، انسحب من المجزرة، التي استمرت تسعين دقيقة إضافية[21].

غادر دي نوغاليس أديلجيفاز وعبر بحيرة وان بقارب آلي، ليصل إلى قرية إدريميت في ضواحي وان بعد حلول الظلام. أضاءت الشط "قرى تحترق صبغت السماء بلون قرمزي".

كانت إدريميت منطقة حربية، اكتسحت النيران بيوتها وكنائسها، وملأت الجو رائحة اللحم المحترق، بينما طغى أزيز الرصاص المتقطع على هدير الدمار. أمضى الليلة في إدريميت وشهد المعارك غير المتكافئة التي اندلعت بالبنادق بين المحاربين غير النظاميين الكرد والترك من جهة، والمقاتلين الأرمن الذين عانوا نقصاً خطيراً في الرجال مقارنة بأعدائهم من جهة أخرى.

اتجه موكب دي نوغاليس عند الظهر من إدريميت إلى وان. "حومت فوق يمين الطريق وشماله أسراب من العقبان السوداء الزاعقة، وتقاتلت مع الكلاب على جثث الأرمن المتعفنة التي انتشرت على كل جانب"، كما تذكر. بحلول الوقت الذين دخل فيه وان، كانت الانتفاضة في يومها الثاني، والبلدة القديمة في أيدي المتمردين الأرمن. لكن بقيت القلعة المشرفة عليها تحت سيطرة العثمانيين، ومن هذه المنطقة المرتفعة تمكنت القوات التركية من قصف مواقع الأرمن بالمدفعية ليلَ نهار. وبوصف دي نوغاليس ضابط مدفعية، أصبحت هذه المهمة الآن من اختصاصه. أنشأ مركزاً للقيادة في مسجد القلعة وصعد المئذنة الطويلة لمراقبة دقة النيران.

شارك دي نوغاليس على مدى واحد وعشرين يوماً في الحملة العثمانية ضد أرمن بلدة وان. "نادراً ما شهدت حتى الآن قتالاً بضراوة ذلك الذي اندلع أثناء حصار وان"، كما قال متأملاً. "لم يقبل الطرفان كلاهما أسرى". ومع استمرار المعركة، شهد أعمالاً وحشية ارتكبها الأرمن والعثمانيون على حد سواء. تأرجحت ذكرياته عن حصار وان بين التعاطف والتقزز من الطرفين معاً.

شقت القوات الروسية طريقها ببطء من الحدود الفارسية، لتدفع العثمانيين إلى الوراء في مسعى لتخفيف الضغط عن المدافعين الأرمن في وان. بالنسبة إلى الروس، سهلت الانتفاضة احتلالهم المناطق العثمانية الاستراتيجية. وأجبر تقدم جنودهم جودت باشا على إصدار أمر بإخلاء بلدة وان من السكان المسلمين في 12 مايو. انسحب آخر جندي عثماني من القلعة في 17 مايو. وهكذا تمكن الأرمن في حي الحديقة أخيراً من الاتصال برفاقهم في البلدة القديمة. وتعاونوا معاً على إحراق أحياء المسلمين وجميع المباني الحكومية تمهيداً لوصول طلائع الجنود الروس في 19 مايو[22].

عين الروس زعيم حزب الداشناك آرام مانوكيان حاكماً لوان. فأنشأ إدارة أرمنية في البلدة، استكملت بميليشيا وقوة شرطة -إجراءات "حفزت الوعي السياسي الأرمني، وعززت اقتناع هؤلاء الذين توقعوا قيام دولة أرمنية حرة تتمتع بالاستقلال الذاتي تحت الحماية الروسية"، حسب تعبير مؤرخ أرمني. جسد ما جرى كله أسوأ مخاوف العثمانيين[23].

لم يستطع الترك من جانبهم ترويض أنفسهم على خسارة وان، وهاجموا المواقع الروسية والأرمنية دون كلل. أجبر الروس جراء المبالغة في التوسع والانتشار على التراجع. وفي 31 يوليو نصح الأرمن بحزم أمتعتهم والتخلي عن بيوتهم. غادر نحو 100.000 أرمني مع الروس حسب التقديرات فيما أصبح يعرف بالانسحاب الكبير. بقي الروس والعثمانيون يتقاتلون للاستيلاء على وان، وتبادل الطرفان السيطرة على البلدة ثلاث مرات في صيف عام 1915 قبل أن تنجح القوات الروسية في احتلالها والاحتفاظ بها في نهاية المطاف (خريف عام 1915) -بحلول هذا الوقت لم يتبق منها سليماً سوى جزء صغير، ولم يبق إلا عدد قليل من الأرمن أحياء شرق الأناضول.

أكد الأرمن، عبر تسهيل الاحتلال الروسي لوان مقابل الحق في حكم المنطقة، شكوك الاتحاديين من أعضاء تركيا الفتاة في أنهم يشكلون طابوراً خامساً وتهديداً داهماً لسلامة أراضي الدولة العثمانية. فضلاً عن ذلك كله، أقنع توقيت الانتفاضة، القريب من إنزال الحلفاء في غاليبولي، الاتحاديين بوجود تنسيق مشترك في الهجمات بين الأرمن وقوى الوفاق. ومثلما كتب جمال باشا في مذكراته: "ثمة حقيقة يتعذر دحضها برأيي، وهي أن قادة القوات البريطانية والفرنسية في شرق المتوسط أصدروا أوامرهم للأرمن بالتمرد، في اللحظة التي كانت فيها حملة الدردنيل في ذروة أزمتها". وعلى الرغم من عدم وجود دليل يدعم مزاعم جمال باشا، فإن الاتحاديين اقتنعوا بأن الأرمن في تحالف وثيق مع الحلفاء. ومع سقوط وان، بدأ العثمانيون تطبيق سلسلة من الإجراءات لاستئصال الوجود الأرمني لا من الولايات الست في شرق الأناضول فحسب، بل من تركيا الآسيوية برمتها[24].

* * *

رحّل الأرمن علناً بأوامر من الحكومة. وضمنت قيادة الاتحاديين من أعضاء تركيا الفتاة عطلة مبكرة للبرلمان العثماني في 1 مارس 1915؛ ما أطلق أيدي وزير الداخلية طلعت باشا وزملائه لتطبيق القانون من دون جدل برلماني. في 26 مايو 1915، بعد أسبوع من دخول الروس إلى وان، قدم طلعت إلى مجلس الوزراء العثماني مسودة "قانون الترحيل". صادقت الحكومة بسرعة على القانون الذي سمح بالتهجير الجماعي للسكان الأرمن من ست ولايات شرق الأناضول إلى مواقع لم يفصح عنها بعيداً عن الجبهة الروسية.

في نهاية مايو، أصدرت وزارة الداخلية أوامر تحمل توقيع طلعت باشا إلى الولاة وحكام الأقاليم والمناطق الريفية، تدعوهم إلى القيام بعمليات ترحيل فورية لجميع الأرمن. علقت بيانات وإعلانات في الشوارع الرئيسة في البلدات والقرى في شتى أرجاء شرق الأناضول، أمهلت السكان الأرمن ثلاثة إلى خمسة أيام قبل نقلهم إلى مناطق أخرى، وادعت أن الإجراء مؤقت ومقتصر على فترة الحرب فحسب. وشجع الأرمن على إيداع أي ممتلكات لا يستطيعون حملها لدى الحكومة لحراستها والحفاظ عليها[25].

أصدر الاتحاديون، إلى جانب هذه الإجراءات العلنية للتهجير الإجباري، أوامر سرية بالقتل الجماعي للأرمن المبعدين. لم تكتب أوامر الإبادة على الورق، بل نقلت شفهياً إلى الولاة وحكام الأقاليم إما بواسطة منظمها، عضو اللجنة المركزية للاتحاد والترقي الدكتور بهاء الدين شاكر، أو غيره من المسؤولين الاتحاديين. وأي حاكم إقليمي يطلب توكيداً مكتوباً للأوامر أو يعارض عمليات القتل الجماعي للمدنيين العزل يعاقب بالطرد أو حتى بالاغتيال. وعندما طالب حاكم منطقة ريفية في ولاية ديار بكر بإخطار مكتوب قبل تنفيذ مذبحة الأرمن في منطقته، طرد من منصبه، واستدعي إلى ديار بكر، لكن اغتيل في الطريق[26].

واجه الولاة الأكثر إذعاناً مهمة تجنيد عصابات مسلحة لقتل المهجرين. ساعدهم جهاز المخابرات السري التابع لأنور باشا "تشكيلات مخصوصة"، الذي حشد المجرمين المعروفين بعنفهم بعد إطلاق سراحهم من السجون، والعصابات الكردية التي تملك تاريخاً طويلاً من العداء للأرمن، والمهاجرين المسلمين الذين قدموا حديثاً من البلقان والقوقاز الروسية للمساعدة في المجزرة. وحتى القرويين الأتراك العاديين أسهموا، كما ذكر، في قتل الأرمن

المبعدين، بل جردهم بعضهم من ثيابهم، ونقودهم، وحليهم التي جلبوهما معهم لإعانتهم على البقاء في المنفى، كما شارك آخرون بعد أن أقنعهم المسؤولون الحكوميون بأن قتل الأرمن يدعم الجهاد العثماني ضد قوى الوفاق. روى الكاهن الأرمني غريغوريس بالاكيان حديثاً دار مع نقيب تركي زعم فيه أن "المسؤولين الحكوميين" أرسلوا الجندرمة "إلى جميع القرى التركية المجاورة، ودعوا السكان المسلمين باسم الجهاد إلى المشاركة في هذا الواجب الديني المقدس" المتمثل في ذبح الأرمن[27].



محمد طلعت باشا، 1915. واحد من الثلاثي الحاكم من أعضاء تركيا الفتاة. هيمن على الحكومة العثمانية بعد عام 1913، حين عمل أولاً وزيراً للداخلية، ثم صدراً أعظم. أجاز طلعت الإجراءات التي أدت إلى الإبادة الجماعية الأرمنية.

تكشف الدليل على هذه "المقاربة ثنائية المسار" القائمة على الفرمان العلني بالترحيل والأوامر السرية بالإبادة في شهادة مسؤولين حكوميين أدلوا بها بعد الحرب. "علمت بضعة أسرار وعثرت على شيء مثير للاهتمام. صدر أمر الترحيل عن وزير الداخلية [طلعت] عبر قنوات رسمية وأرسل إلى الولايات. وفي أعقاب هذا الأمر، وزعت اللجنة المركزية

[للاتحاد والترقي] أوامرها المشؤومة إلى جميع الجهات المعنية بالسماح للعصابات بتنفيذ مهمتها القذرة. وهكذا، انتشرت العصابات في الميدان، واستعدت لارتكاب مذبحتها الوحشية"، كما شهد عضو في مجلس الوزراء العثماني عام 1918 [28].

اتبعت المذابح نمطاً معيارياً في شتى أرجاء الأناضول. يعين عدد محدد من الأيام بعد إعلان بيانات الترحيل، وتخرج الجندرمة الأرمن من بيوتهم بحراب البنادق. يفصل الذكور الذين تزيد أعمارهم عن اثني عشر عاماً عن قريباتهم الإناث ثم يقتلون. في القرى الأصغر حجماً، كثيراً ما قتل الرجال على مرأى نسائهم المذعورات أو على مسمع منهن، لكن في البلدات الأكبر ينقلون إلى حيث لا يشهد أحد على الجريمة، ولاسيما الأجانب. وبعد أن يفصل الرجال الأرمن عن النساء، ترافق حراسة مسلحة النساء والأطفال إلى خارج البلدة. ووفقاً لروايات الناجين، تعرض بعض هذه القوافل للسرقة والذبح الجماعي؛ بينما نقل آخرون من بلدة إلى بلدة سيراً على الأقدام، بعد قتل المرضى والعاجزين والشيوخ الذين تخلفوا عن الركب. أما الوجهة النهائية للناجين فهي مستوطنات صحراوية في سوريا والعراق: دير الزور والموصل، اللتان يتعذر الوصول إليهما إلا عبر دروب خطرة في الصحراء المفتوحة.

استهدف مهندسو الإبادة الجماعية -طلعت ومستشاراه، الدكتور محمد ناظم والدكتور بهاء الدين شاكر- ضمان طرد الأرمن كلياً من الولايات الشرقية الست وعدم تجاوز نسبتهم 10 في المئة من السكان في أي جزء من السلطنة. بهذه الطريقة، لن يتمكن الأرمن أبداً من تحقيق الكتلة الحرجة المطلوبة لتأمين إنشاء دولة مستقلة ضمن الأراضي العثمانية. لكن الوصول إلى هذا المرتسم السكاني المخفض سوف يتطلب إبادة الأكثرية الساحقة من الأرمن العثمانيين. وأمكن تحقيق هذا المطلب عبر توليفة جمعت مذابح دموية على أيدي عصابات مسلحة ومعدلاً مرتفعاً من الاستنزاف والإفناء بمسيرات الموت التي تقطع الصحراء[29].

كان أرمن أرضروم وإرزنجان من بين أوائل الذين رُحّلوا في مايو 1915. وبعد شهرين من المسير، وصل الناجون إلى بلدة هاربوت (خربوط)، على بعد نحو 125 ميلاً. التقى القنصل الأمريكي هناك مع المرحلين في معسكر أنشأته الحكومة لإقامتهم القصيرة. "لم يوجد بينهم إلا قلة قليلة من الرجال لأن معظمهم قتلوا على الطريق"، كما لاحظ القنصل

ليزلي ديفيز. وأضاف: "يبدو أن النظام المتبع هو نشر عصابات من الكرد تكمن في انتظارهم على الطريق لقتل الرجال على وجه الخصوص". كانت النساء "من دون استثناء تقريباً في حالة مزرية من الرثاثة والقذارة والجوع والمرض. ولا عجب في ذلك في ضوء حقيقة بقائهن على الطريق قرابة شهرين دون أن تتاح لهن فرصة تغيير ملابسهن، أو الاغتسال، أو الراحة في مأوى، أو ما يسد الرمق من الطعام". هجمت النساء المتضورات جوعاً على الحراس الذين جلبوا لهن الطعام، فردهن هؤلاء بالهراوات "بأسلوب وحشي وصل حد القتل". عرضت الأمهات اليائسات أطفالهن على القنصل الأميركي أملاً بأن يجنبهم مزيداً من الأهوال. "من الممكن التخلص من جميع هؤلاء الناس في وقت قصير نسبياً عبر الاستمرار في سوقهم بهذه الطريقة. تجسد الحركة برمتها المذبحة الأكثر شمولية في التنظيم والفعالية في هذه البلاد على مدى تاريخها"، كما قال بعد تفكير عميق[30].

في يونيو، وسع طلعت سياسة الترحيل لتشمل "الأرمن كلهم دون استثناء" في جميع الولايات الشرقية من الأناضول. وتحولت بلدات مثل إرزنجان، وسيواس، وقيصرية، وأضنة، وديار بكر، وحلب، إلى مراكز استقبال لموجات المبعدين الأرمن قبل نفيهم إلى دير الزور والموصل وأورفا. شمل كل جزء من المسيرة ارتكاب أعمال وحشية تنأى عن الوصف بحق الأرمن المطرودين. "عشنا أيام رعب لم يسمع بمثل فظاعتها إنسان، وبدا من المستحيل على الذهن استيعاب ما يجري كله"، كما تذكر الأب غريغوريس بالاكيان. "والذين ظلوا أحياء حسدوا الذين دفعوا الثمن المحتوم تعذيباً دموياً وموتاً. وهكذا، أصبحنا نحن الناجين شهداء أحياء، نموت كل يوم مرات ونعود إلى الحياة مجدداً"[31].

* * *

اتخذ غريغوريس بالاكيان قراراً صارماً بالبقاء حياً والنجاة من إبادة الأرمن ليشهد على معاناة شعبه أمام أجيال المستقبل. انتزع من أمان بيته المريح في إسطنبول عشية الإنزال في غاليبولي، وأرسل مع 150 من الوجهاء الأرمن إلى بلدة تشانكيري وسط الأناضول، شمال شرق أنقرة. وحين أصدر طلعت أوامره بترحيل الأرمن في 21 يونيو، دفع رشوة ضخمة قدرها 1500 قطعة ذهبية إلى المسؤولين المحليين لاستثناء مجموعة صغيرة من الأرمن في

تشانكيري من الترحيل. وفرت الدفعة للكاهن الأرمني ورفاقه مهلة مدتها سبعة أشهر أنقذتهم من أسوأ أشهر المذابح. لكن حين أبعد هو ورفاقه أخيراً إلى دير الزور في فبراير 1916، واجهوا عصابات وقرويين أتوا لمشاهدة ذبح الأرمن بدم بارد.

انخرط بالاكيان، وهو يسير على الطرقات التي لقي عليها آلاف الأرمن حتفهم، في حديث مع الضباط المرافقين لقافلته. بدا أفراد الجندرمة العثمانية على استعداد للإجابة عن أي سؤال؛ نظراً إلى اعتقادهم بأن الأرمن الذين "يحرسونهم" لن يعيشوا طويلاً. كان النقيب شكري أكثرهم استعداداً، إذ اعترف بأنه أشرف على قتل 42.000 أرمني.

سأل بالاكيان النقيب بمكر: "من أين أتت جميع هذه العظام البشرية على طول هذا الطريق، يا بك؟".

أجاب شكري: "هذه عظام الأرمن الذين قتلوا في أغسطس وسبتمبر. لقد جاءت الأوامر من الأستانة. ومع أن وزير الداخلية [طلعت] أمر بحفر خنادق ضخمة لدفن الجثث، فإن فيضانات الشتاء أزالت التربة، فانتشرت العظام الآن في كل مكان، كما ترى".

رد بالاكيان مستقصياً: "من أصدر الأوامر بتنفيذ مذابح الأرمن؟".

قال شكري موضحاً: "أتت الأوامر من اللجنة المركزية [للاتحاد والترقي] ووزارة الداخلية في الأستانة. نفذ كمال الأمر بالطريقة الأشد صرامة وقسوة.. وكمال هو نائب حاكم يوزغات ومن أهالي وان. وحين سمع بأن الأرمن ذبحوا أفراد عائلته كلهم أثناء ثورة وان، سعى للانتقام، وذبح النساء والأطفال، إلى جانب الرجال"[32].

لم تزعج أسئلة بالاكيان النقيب. وبدا مستمتعاً بملء فراغ الساعات الطويلة على الطريق بحديث مع الكاهن الأرمني، ومتعوداً على قصص الشر التي يرويها: من بين آلاف الرجال الذين ذبحوا، تعرضت 6400 امرأة أرمنية لسرقة منظمة لما بحوزتهن، وللقتل مع أطفالهن، وهي أعمال أشار إليها باستمرار باعتبارها "تطهيراً" (*paklamak*) بالتركية. بل إن الضابط التركي المشارك في عمليات القتل الجماعي بدأ يظهر نوعاً من التعاطف مع الكاهن الأرمني، وعرض حمايته من الأذى إذا اعتنق الإسلام.

علم بالاكيان، عبر الأحاديث التي دارت مع الضباط الأتراك، بجوانب المأساة الأرمنية كلها من منظور الحكومة. كما عمق من خلال تعاملاته مع الناجين على طول الطريق معرفته بتجربة الإبادة الجماعية الأرمنية. حبك المنظورين معاً في مذكراته اللافتة التي نشرت أول مرة بالأرمنية عام 1922، ومن ثم قام بواجبه كشاهد على ما سماه "الجلجثة الأرمنية".

كانت النجاة من الإبادة الجماعية أسهل في القول من الفعل. وعبر الحفاظ على علاقات ودية مع الآسرين، والثقة بالله، كما قال، عاش بالاكيان يوماً بيوم، معرضاً لخطر الموت المفاجئ على الدوام. وفي أثناء المسيرة الإجبارية الطويلة، واجه الكاهن وزملاؤه حجم الأهوال والنوائب التي حلت بالطائفة الأرمنية العثمانية: جثث القتلى، استرحام الناجين الجياع، عار أولئك الذين تخلوا عن دينهم للنجاة بجلدهم. سجّل التفاصيل في يومياته حين كانت القافلة تشق طريقها عبر الأناضول إلى كيليكيا باتجاه الصحراء السورية. كما أكدت روايات الناجين الآخرين من الإبادة الأرمنية معظم ما كتبه.

فاقم الخوف من الموت العنيف الذي قد يأتي في أي لحظة دون إنذار المعاناة اليومية من الوحشية والإنهاك والحرمان. اختار كثير من الأرمن قتل أنفسهم بدلاً من مواجهة قسوة الغرباء وضراوتهم. حتى غريغوريس بالاكيان، الذي أخذ على نفسه عهداً بالبقاء، دفع إلى التفكير في الانتحار. فقد اتفق هو ورفاقه، حين اقتربت منهم عصابة مسلحة بجوار نهر هاليس، على القفز إلى المياه الهائجة إذا وقعت أي "كارثة محتومة"، كما فعل كثيرون قبلهم. "من المؤكد أن هذه المقبرة العميقة التي تضم عشرات الآلاف من الأرمن لن ترفض أخذنا نحن أيضاً إلى تياراتها العكرة المتدفقة.. وإنقاذنا من أهوال الموت وعذاباته ووحشيته على أيدي هؤلاء المجرمين الترك" كما تذكر. ولم يجنبهم هذا المصير في تلك المناسبة إلا حضوره الذهني ومهارته في توجيه القافلة بعيداً عن العصابة[33].

كان مانويل كيركياشاريان، الذي دعا نفسه م. ك.، صبياً في التاسعة حين شاهد أمه تغطس من فوق جسر إلى مياه الفرات الهائجة. رحّلت عائلته من موطنها في أضنة إلى بلدة رأس العين (في سورية الحالية). وتعرضت أمام ناظريه إلى السرقة من العصابات المسلحة والضرب من

الجندرمة التي أرسلت لمرافقتها. تورمت قدما الأم إلى حد الألم الممض جراء المسير الطويل، لكنها كافحت للبقاء في القافلة؛ لأنها تعرف مصير أولئك الذين يتخلفون عن الركب[34].

في إحدى الليالي، حين عرفت أنها غير قادرة على متابعة السير، طلبت من زوجها أمراً مرعباً: "خذني إلى ضفة النهر. سوف أرمي نفسي في الماء؛ لأني إذا بقيت سوف أموت من التعذيب على أيدي العرب". رفض زوجها الطلب، لكن أحد الجيران فهم مخاوفها وحملها على ظهره إلى ضفاف الفرات الهادر. تبعهما إلى النهر ابنها الصغير وكاهن، لكن م. ك. أشاح بوجهه حين ألقت بنفسها في العباب. ثم التفت ليشاهد أمه وهلة قبل أن يجرفها التيار بعيداً.

بعد يومين من وفاة والدة م. ك.، توفي والده وهو نائم. أصبح الصبي الآن يتيماً لا يجد من يرعاه. تورمت قدماه الحافيتان حتى عجز عن المشي. راقب الجنود وهم يقتلون عدداً من النساء والأطفال الذين تخلفوا عن القافلة مثله. سرقوا ما تبقى من ثيابه ثم تركوه بملابسه الداخلية وحيداً على جانب الطريق -جائعاً، عطشاً، مذعوراً.

التقى الكاهن الأرمني بالاكيان بكثير من أمثال هؤلاء الأيتام على الطريق. في الإصلاحية، قرب المكان الذي فقد فيه م. ك. أمه وأباه، وجد طفلاً في الثامنة يتسول مع أخته التي تكبره بثلاثة أعوام، كان الاثنان شبه عاريين ويتضوران جوعاً. وصفت الأخت "بأسلوب البنت التي تعلمت في مدرسة أرمنية لائقة" كيف توفي جميع أفراد أسرتها الأربعة عشر، ليتركوا طفلين وحيدين دون معين. قالت باكية: "كم أتمنى لو أخذنا الموت!"[35].

قارع الصبي م. ك. قوى قاهرة لا يقدر عليها، لكنه تمكن من النجاة. وجد نفسه بين العرب والكرد، الذين لم يعرف لغتهم ولم يفهم أفعالهم. قدم بعضهم الطعام والثياب؛ ورماه غيرهم بالحجارة وسرقوه. شهد أعمالاً وحشية فظيعة وعبر سهولاً مغطاة بجثث الأرمن. أنقذته أربع نساء كرديات وجدنه هائماً على وجهه على طريق مفتوح فأخذنه إلى قريتهن ليعمل خادماً في المنازل. أمضى بقية سنوات الحرب يتنقل بين القرى الكردية على الحدود التركية-السورية، يعيش على إحسان الغرباء وشفقتهم -ويفر من قسوتهم وعنفهم.

شاهد في إحدى الأمسيات قرية على قمة تلة بعيدة تشتعل فيها النيران. أبلغه الكردي الذي كان يؤويه آنذاك أنها قرية آزاك الآشورية، وهي واحدة من عدة قرى مسيحية تعرضت للنهب والسلب. قال الكردي مبتهجاً: "يا ابن الكفرة. هل رأيت؟ لقد تخلصنا من جميع أرمن تركيا وكفارها. القرية المشتعلة قرية كافرة واحترق سكانها كلهم أحياء". لم يعد يوجد نصارى في تركيا، كما أضاف، لمجرد تخويف الصبي. "وصدقته"، كما تذكر م. ك[36].

اتهم المسيحيون الآشوريون في السلطنة، على شاكلة الأرمن، بالتواطؤ مع الروس عند اندلاع الحرب العظمى. الآشوريون جماعة إثنية مسيحية تتحدث لهجات مستمدة من الآرامية القديمة. عاش الآشوريون على مدى القرون بين المجتمعات المحلية الكردية في المناطق الحدودية بين تركيا وسورية وإيران والعراق (حالياً). أما أهم الطوائف الآشورية فيمثلها النسطوريون، والكلدانيون، والسوريون الأرثوذكس.

تعرضت الطوائف الآشورية في السلطنة العثمانية، كحال الأرمن، إلى المذابح بين الحين والآخر، كما جرى في حوادث عامي 1895 و1896، وعمليات القتل في أضنة عام 1909. وضع الآشوريون، في مسعى للحصول على حماية القوى العظمى، ثقتهم بالروس أيضاً. وبعد دخول العثمانيين الحرب العظمى، اتهموا بالتواطؤ مع قوى الوفاق واستهدفهم نظام تركيا الفتاة بغرض إبادتهم. قتل في مسار الحرب العالمية نحو 250.000 من المسيحيين الآشوريين من أصل عدد بلغ 620.000 قبل الحرب. وبدا من المعقول لطفل مثل م. ك. استئصال الآشوريين والأرمن واقتلاعهم كلياً من الأراضي العثمانية كجزء من خطة واحدة كبرى[37].

التقى م. ك. وهو يتنقل بين القرى في جنوب شرق الأناضول، بعدد من الشابات والأطفال الأرمن الذين وجدوا -مثله- ملجأ بين الكرد. جمع كثيرون من مسيرات الموت وأخذوا للعمل في منازل القرويين الكرد ومزارعهم. كما قابل عدة فتيات أرمنيات تزوجن من أفراد عائلات الأكراد التي وفرت الحماية لهن. هكذا نجت هيرانوش غاداريان من الإبادة الجماعية.

ولدت هيرانوش في عائلة محترمة في قرية هاباب شرق الأناضول، التي ضمت جالية أرمنية كبيرة مؤلفة من أكثر من مئتي أسرة، إضافة إلى كنيستين ودير. هاجر أبوها واثنان من أعمامها إلى الولايات المتحدة عام 1913، السنة التي بدأت فيها الذهاب إلى المدرسة. حالما تعلمت الكتابة، بعثت برسالة إلى أبيها ظل يحملها في محفظته حتى لحظة وفاته. قالت في الرسالة نيابة عن أقربائها جميعاً: "نأمل كلنا ونصلي كي تكون بخير. نحن نذهب إلى المدرسة كل يوم، ونبذل جهدنا لنكون أطفالاً مؤدبين". كتبت الرسالة كلها بأسلوب تلميذة المدرسة الأرمنية اللائقة حسب تعبير الأب بالاكيان[38].



أرامل أرمنيات، تركيا، سبتمبر 1915. تسربت أخبار المذابح الممنهجة بحق الأرمن من تركيا، وتناولتها الصحافة الأوربية والأميركية منذ خريف عام 1915.

عندما كانت هيرانوش في الصف الثالث هاجمت الجندرمة قريتها. قتل رئيس القرية الأرمني أمام القرويين المذعورين قبل أن يعتقل الرجال الآخرون كلهم. أخذوا جدها وثلاثة من أعمامها ولم يسمع عنهم أحد بعد ذلك. ثم قاد الجندرمة نساء القرية إلى بلدة بالو المجاورة المشهورة بسوقها التجاري، حيث سُجن داخل كنيسة. سمعت النسوة صرخات

زاعقة مروعة من وراء جدران الكنيسة. تمكنت إحدى البنات من الوصول إلى نافذة عالية لتشاهد ما يجري. لم تنس هيرانوش قط الهول الذي وصفته الفتاة: "يقطعون رؤوس الرجال ويلقونها في النهر".

انطلقت نساء هاباب وأطفالهن من بالو، لتنضم إليهم حشود من الأرمن في مسيرات الموت التي عبرت الأناضول باتجاه الصحراء السورية. تذكرت هيرانوش فيما بعد: "في أثناء المسير، كانت أمي قلقة إلى حد أنها مشت بسرعة كبيرة لتجنب مؤخرة الرتل، ولأننا لم نتمكن من اللحاق بها، جذبتنا بيديها. أمكننا أن نسمع من مؤخرة القافلة بكاء وزعيقاً واسترحاماً". في نهاية اليوم الأول من المسيرة، مرضت خالتها الحامل وتراجعت إلى المؤخرة. قتلها الجندرمة على الفور بحرابهم وتركوها ملقاة على قارعة الطريق. "يقتلون بالحراب الشيوخ والعجزة وكل من لا يستطيع المشي ويتركونهم هناك، في المكان الذي سقطوا فيه".

حين وصلت القافلة إلى ديار بكر، عبرت النهر في بلدة مادن. شاهدت هيرانوش جدتها لأبيها تقذف اثنين من أحفادها اليتامى في النهر بعد عجزهما عن المشي، ثم تغطس رأسيهما تحت سطح الماء قبل أن ترمي نفسها في العباب الهائج المندفع بجنون: في "هذه المقبرة العميقة التي تضم عشرات الآلاف من الأرمن" كما لاحظ غريغوريس بالاكيان.

وفي بلدة تشيرميك، حاصر الأهالي الناجين البؤساء، وبحثوا عن الأطفال الأصحاء ليخدموا في بيوتهم. طلب هيرانوش شرطي من الجندرمة، بينما أراد رجل من قرية مجاورة أن يأخذ شقيقها هورين، لكن أمهما رفضت مباشرة. وصاحت زاعقة: "لا يمكن لأحد أن يأخذهما مني. لن أتخلى عنهما".

حاولت جدتها لأمها أن تقنعها بالتخلي عنهما من أجل سلامتهما. توسلت إليها قائلة: "يا ابنتي، الموت يخطف الأطفال واحداً بعد واحد. لن يخرج أحد من هذه المسيرة حياً. إذا أعطيت طفليك إلى هؤلاء الرجال، سوف تنقذين روحيهما". بينما كانت نساء العائلة يتابعن هذا الجدل المروع، استولى الرجلان ببساطة على الطفلين -أخذ الشرطي هيرانوش على ظهر

حصانه، وأخذ الرجل الآخر هورين. تشبثت الأم أطول مدة ممكنة بالحصان والراكب، لكن حين ارتخت قبضتها فقدت ابنتها إلى الأبد.

أخذ شرطي الجندرمة هيرانوش إلى مزرعة خارج البلدة، حيث وجدت ثماني فتيات أرمنيات من قريتها هاباب، اختطفن من مسيرات الموت. أقامت الفتيات في بستان فاكهة حيث قدم لهن الطعام وتلقين معاملة حسنة. في المساء، عاد الشرطي على حصانه لأخذ هيرانوش إلى بيته بالقرب من تشيرميك. لم يرزق بأطفال فعاملها كأنها ابنته، لكن زوجته شعرت بالغيرة بسبب عطف زوجها على الطفلة الأرمنية، وأذلتها على الدوام عبر تذكيرها بأنها مجرد خادمة. أعطيت اسماً تركياً، سحر، وتعلمت التركية.

ومع أن هيرانوش خسرت حريتها وهويتها، فقد تمكنت من البقاء باسمها التركي الجديد. وبينما توفي كثير من أفراد أسرتها عند الترحيل، فإن عدداً مفاجئاً نجا منهم. عمل شقيقها هورين، الذي أخذوه في اليوم نفسه، في قرية مجاورة حيث عرف باسم أحمد الراعي. ولم تكتف إحدى خالاتها، أصغر شقيقات أمها، التي خطفت وتزوجت فارساً كردياً، بالنجاة فحسب، بل تمكنت من اقتفاء أثر هيرانوش في بيتها الجديد. والمدهش فعلاً أن أمها نجت من مسيرة الموت إلى حلب، حيث بقيت طوال الحرب ثم انضمت إلى زوجها مجدداً، بعد أن أتى من الولايات المتحدة بحثاً عن أسرته المشتتة. لكن آل غاداريان لم يشاهدوا ابنتهم مرة أخرى[39].

استكملت عملية تتريك هيرانوش بزواجها وهي في السادسة عشرة من أحد أبناء أخت الشرطي. أشارت وثيقة الزواج إلى أن اسمها سحر، ابنة شرطي الجندرمة حسين وزوجته أسماء. أمضت سحر بقية عمرها زوجة تركية وربت أطفالها تربية إسلامية صالحة.

اجتمع غريغوريس بالاكيان بعدد من الأرمن الذين اعتنقوا الإسلام لتجنب الذبح. كان قبول التغير أصعب على البالغين، لكن الأطفال تمتعوا بقدرة أكبر على التكيف. اندمج مئات، وربما آلاف الشباب الأرمن في المجتمع التركي، حيث غابت أصولهم عن الذاكرة

تقريباً -لكن ليس كلياً. بعد سنوات من الحرب، ظل الترك يشيرون إلى هؤلاء المهتدين باعتبارهم "فضلة السيف"[40].

* * *

قرر غريغوريس بالاكيان ترك مسيرة الموت قبل بدء عبور الصحراء المهلكة إلى دير الزور. التقى بحوذيين أرمنيين يخدمان في فيلق النقل العثماني قدما للتو من دير الزور. أصابت الدهشة الرجلين لمقابلة كاهن أرمني على قيد الحياة، وفعلا ما بوسعهما لثنيه عن متابعة المسير. سألاه يائسين: "كيف يمكن أن نجعلك تفهم. يستحيل على لغة البشر وصف ما عاناه أولئك الذين ذهبوا إلى دير الزور". لكنهما حاولا التعبير عن الرعب والهول بالكلمات:

> حشدت آلاف العائلات على الطريق الخارج من حلب لإرسالها إلى دير الزور، لكن لم تتجاوز نسبة من وصل منها خمسة في المئة؛ لأن قطاع الطرق في الصحراء.. شكلوا جماعات من الخيالة المسلحة بالرماح، وهاجموا هؤلاء العزل؛ فقتلوا، وخطفوا، واغتصبوا، ونهبوا، واختاروا من رغبوا وحملوه معهم، بينما أخضعوا كل من قاوم لتعذيب مرعب، قبل أن يسرقوا ويرحلوا. ولأن العودة محظورة ومستحيلة، لم يكن أمام الناجين من خيار سوى متابعة المسير قدماً ليتعرضوا إلى هجمات وعمليات نهب وسلب جديدة. لم يصل حتى خمسة في المئة إلى دير الزور[41].

* * *

نجح الحوذيان أخيراً، عبر رواية تفاصيل الأهوال المرعبة، في إقناع الكاهن الأرمني بأن فرصته الوحيدة في النجاة تكمن في التخطيط المدروس للفرار من آسريه العثمانيين. وبعد أن كشف مخططاته لأقرب رفاقه، هرب من القافلة في أوائل أبريل 1916 بصحبة مهرب تبغ أرمني للبحث عن ملجأ في جبال أمانوس.

بذلت شركة السكك الحديدية الألمانية جهداً دؤوباً لاستكمال الأنفاق التي تخترق جبال أمانوس. وثبت أن سلاسل طوروس وأمانوس الجبلية تمثل العقبة الأخيرة أمام استكمال سكة حديد برلين-بغداد. حظي الخط بأهمية حاسمة للمجهود الحربي العثماني في الرافدين

وفلسطين، ومنح أنور باشا وزير الحربية الحرية الكاملة للشركة الألمانية لتجنيد ما تحتاج إليه من عمال لاستكمال الأنفاق الطويلة عبر الجبال الوعرة. وجد آلاف الأرمن الذين هربوا من مسيرات الموت ملاذاً في أعمال حفر أنفاق أمانوس. زعم بالاكيان أن نحو 11.500 أرمني عملوا في المشروع أوائل عام 1916. حيث أنجزوا أصعب الأعمال مقابل أجر الكفاف. لكن العمل في سكة الحديد مفضل على مسيرة الموت. هنا، بدأ بالاكيان، الذي خلع رداءه الكهنوتي وحلق لحيته البطركية، هروبه من الإبادة الجماعية.

سرعان ما كسب الكاهن، بسبب طلاقته باللغة الألمانية، حماية المهندسين النمساويين والألمان من العاملين في المشروع وضمن وظيفة مساح. لكن لا يوجد أمان على خط السكة الحديدية. ففي يونيو 1916، اعتقل المسؤولون الأتراك جميع العمال الأرمن تقريباً لترحيلهم فوراً على الرغم من اعتراضات المهندسين الألمان، الذين أكدوا أنهم قوة عاملة جوهرية لاستكمال السكة. كان بالاكيان واحداً من 135 "اختصاصياً" استثنوا من مسيرة الموت الأخيرة هذه. تعرض الأرمن القلائل الذين أعفوا من الترحيل لضغط متزايد لاعتناق الإسلام. بالنسبة إلى بالاكيان، لم يكن التخلي عن الدين خياراً. هرب الكاهن، بمساعدة زملائه الألمان، إلى محطة عمل أخرى على خط السكة الحديدية بهوية ألمانية مزورة (كتب بالاكيان مرحباً بالجهد الإنساني للمدنيين الألمان والنمساويين، لكن وجد أن العسكريين الألمان ليسوا أقل عداء للأرمن من الاتحاديين الأتراك). تمكن الكاهن المنفي، طوال المدة المتبقية من الحرب، من التنقل سراً أو بهويات مزيفة لمراوغة الترحيل. واستطاع بهذه الطريقة النجاة من إجراءات أدت وفقاً لتقديراته إلى فناء ثلاثة أرباع الأرمن العثمانيين بحلول نهاية عام 1915.

* * *

لا توجد أرقام متفق عليها لعدد المسيحيين العثمانيين الذين قتلوا في مسار الحرب العظمى. وبينما أنجز التبادل السكاني مع اليونان بمستوى منخفض من القتل نسبياً، فإن مئات الآلاف من الأرمن والآشوريين هلكوا في عمليات الترحيل التي بدأت عام 1915. وما يزال الجدل محتدماً في القرن الحادي والعشرين حول عمليات القتل الجماعي للأرمن بين

عامي 1915 و1918، وهل هي عاقبة غير مقصودة للحرب أم سياسة إبادة واستئصال متعمدة ومقصودة. لكن حتى أولئك الذين ينكرون إبادة الأرمن يعترفون بأن عدداً يراوح بين 600.000 و850.000 من المدنيين الأرمن قضوا نتيجة الإجراءات التي اتخذت زمن الحرب. ويؤكد المؤرخون الأرمن بدلاً من ذلك أن سياسة الدولة المتعمدة أدت إلى موت ما بين 1 و1.5 مليون أرمني –ما يجعلها أول إبادة جماعية حديثة[42].

لا ريب أن عدداً من أفراد الجاليتين الأرمنية والآشورية تواطؤوا مع أعداء العثمانيين زمن الحرب. في ربيع عام 1915، واجهت السلطنة غزواً على ثلاث جبهات في آن معاً: الدردنيل، وحدود القوقاز، والرافدين. وبينما يساعد ذلك على تفسير السبب الذي دفع الاتحاديين إلى إطلاق العنان لمثل هذا العنف غير المسبوق ضد الرعايا المسيحيين، فإنه لا يبرر الجرائم ضد الإنسانية التي نتجت.

المفارقة المرة التي تدعو إلى السخرية أن إبادة الأرمن وغيرهم من الطوائف المسيحية لم تحسن قط أمن الامبراطورية العثمانية وتحمي أراضيها. لم يشن الحلفاء هجوماً (أو عملية إنزال) على ساحل كيليكيا لتبرير طرد الأرمن من هناك. في الواقع، أضعفت عمليات الترحيل المجهود الحربي العثماني في بلاد الرافدين حين أجبر العاملون الأرمن في مشروع سكة حديد برلين-بغداد على مسيرة الموت. ولم تؤد إبادة الجاليات الأرمنية في شرق الأناضول إلى حماية القوقاز من الغزو الروسي. إذ لم تواجه القوات القيصرية سوى مقاومة هزيلة عند اجتياح بلدة أرضروم المحصنة في فبراير 1916. كما اكتسح الجيش الروسي ميناء طرابزون على البحر الأسود وبلدة إرزنجان التجارية في وقت لاحق من ذلك العام –هزائم لا يمكن لوم المتواطئين الأرمن عليها بعد ترحيلهم.

في الدردنيل، نجح العثمانيون خلافاً للتوقعات كلها في الدفاع عن أرضهم ضد جيوش فرنسا وبريطانيا والكومنويلث التي اجتمعت معاً ضدهم. انتصروا بشجاعة جنودهم وعزيمتهم وصلابتهم –لا بإبادة طوائف الأقليات.

8

الانتصار العثماني في غاليبولي

تحولت الحملة على غاليبولي بسرعة من حرب متحركة إلى حرب خنادق جامدة. نجح الحلفاء في إنزال نحو 50.000 من الجنود الأصحاء الأقوياء البنية، بعد حذف القتلى والجرحى من الحساب. لكنهم فشلوا في إنجاز المهمات الطموحة التي وضعها لهم المخططون الحربيون. كان من المفترض أن يجبر البريطانيون المدافعين العثمانيين على الارتداد إلى الوراء وتأمين الأراضي المرتفعة عند أتشي بابا على بعد نحو خمسة أميال داخل البر، ومن هذه النقطة يمكنهم السيطرة على المواقع التركية في الدردنيل. ولم تقتصر مهمة جنود الفيلق الأسترالي-النيوزيلندي على الاستيلاء على الذرى المشرفة على الشواطئ حول آريبورنو فحسب، بل تأمين النجد المرتفع عبر شبه الجزيرة حتى مايدوس على الدردنيل، لقطع خطوط الاتصالات والإمدادات العثمانية كلها. ولو تمكن الحلفاء من أداء هذه المهمات لكانوا في موقع يسمح لهم بإسكات بطاريات المدفعية الساحلية في المضائق وفتح ممر أمام السفن الحربية البريطانية والفرنسية لاختراقها والاستيلاء على إسطنبول. لكنهم واجهوا، بدلاً من ذلك كله، مقاومة صلبة من المدافعين الأتراك، الذين رسموا خطاً طوّق شواطئ "أنزاك كوف" و"كيب هيليس" ورفضوا بكل عناد أن يتركوا الغزاة يمرون.

حاول البريطانيون والفرنسيون ثلاث مرات اختراق الخطوط التركية على حافة شبه جزيرة غاليبولي الجنوبية للاستيلاء على قرية كريثيا الاستراتيجية ومرتفعات أتشي بابا،

وأخفقوا في المرات الثلاث. في معركة كريثيا الأولى (28 أبريل)، بلغت خسائر البريطانيين والفرنسيين 3.000 بين قتيل وجريح (معدل الإصابات 20 في المئة) مقابل مكاسب قليلة على الأرض أو من دون أي مكسب على الإطلاق. قام الحلفاء بمحاولتهم الثانية بعد تسعة أيام (6 مايو)، وخسروا في ثلاثة أيام من القتال 6.500 رجل (نحو 30 في المئة من القوات المشاركة) مقابل أرض بطول 600 ياردة. بينما أوقعت معركة كريثيا الثالثة والأخيرة (4 يونيو) خسائر بلغت 4.500 بريطاني و2.000 فرنسي لاحتلال 250 إلى 500 ياردة من الأرض على جبهة بطول ميل واحد. وهكذا، كلف الطريق إلى كريثيا الحلفاء 20.000 إصابة مقابل كل ميل. ولم يتمكنوا من مواصلة مجهودهم المنهك[1].

فرض الدفاع عن غاليبولي ثمناً رهيباً على القوات التركية أيضاً. أصيب العثمانيون بخسائر تعادل خسائر الحلفاء في معارك كريثيا الثلاث، وكان إخفاقهم أشد في الهجمات على الخطوط البريطانية والفرنسية. شن العثمانيون، بناء على أوامر من أنور باشا تقضي بدحر الغزاة إلى البحر، هجمات عنيدة على خطوط الحلفاء. أدى الهجوم الأول على المواقع البريطانية في "هيليس" ليلة 1-2 مايو إلى وقوع 6.000 إصابة في صفوف العثمانيين، وخسروا في هجوم ثان في المنطقة نفسها ليلة 3-4 مايو 4.000 جندي آخر -خسائر بنسبة 40 في المئة في عشر ساعات فقط.

شن العثمانيون هجوماً شاملاً آخر ليلة 18 مايو، حيث حشدوا 50.000 من جنود المشاة في محاولة لطرد الأستراليين والنيوزيلنديين من رأس الجسر الذي احتلوه في آريبورنو. اكتشفت طائرات الاستطلاع البريطانية حشوداً مركزة للقوات، وكان جنود الفيلق الأسترالي-النيوزيلندي على أتم الاستعداد وفي الانتظار. في سبع ساعات من القتال، فشلت المبادرة العثمانية فشلاً ذريعاً، وخلفت 10.000 من القتلى والجرحى تبعثروا على أرض المعركة الممتدة بين خطوط العدو. كان الجنود في غاليبولي يتعلمون ما عرفه رفاقهم على الجبهة الغربية من التجربة المريرة: لا يملك المهاجمون أدنى فرصة في النجاح ضد مدافعين متخندقين ومزودين بالمدافع الرشاشة[2].

بعد شهر من العنف المريع على شبه جزيرة غاليبولي، تجمد الوضع ووصل الطرفان إلى طريق مسدود. تحصن كل منهما في موقعه للاحتفاظ بالخطوط التي قاتل من أجلها عشرات آلاف الرجال، وأصيبوا بجراح مرعبة، وقضوا نحبهم. تشبث الأستراليون والنيوزيلنديون برأس الجسر الصغير في "أنزاك كوف"، بينما رسخ البريطانيون والفرنسيون خطاً عبر الحافة الجنوبية لشبه الجزيرة لا يزيد طوله على ثلاثة أميال من "كيب هيليس". ومع أن الترك فشلوا في دفع الغزاة إلى البحر، فقد نجحوا في منع الحلفاء من الوصول إلى التلال العالية. تعرضت جيوش الوفاق، التي حشرت في قطاعاتها الضيقة المطوقة، لقصف المدفعية النظامية وقذائف الشظايا، إضافة إلى رصاص قناصة تمركزوا في مخابئ خفية، بينما قصفت السفن البريطانية والفرنسية المواقع التركية بمدافعها الثقيلة. كانت حرب خنادق بكل ما يتصل بها من أهوال مرعبة يعرفها الجنود على الجبهة الغربية.

* * *

أجرت الحكومة البريطانية مراجعة شاملة للوضع في غاليبولي بقلق متعاظم. لم تكن الحملة تسير وفق الخطة المرسومة. تم التخلي عن المغامرة البحرية التي أيدها ونستون تشرشل بعد المحاولة الكارثية لاقتحام المضائق في 18 مارس، وتعثرت الحملة البرية المحدودة التي صادق عليها اللورد كتشنر أمام الدفاع العثماني العنيد. ارتفعت الخسائر في الأرواح، ولم يعد عدد الجنود القادرين بدنياً على الأرض كافياً لتحقيق النصر، بينما أحدق الخطر بالخطوط البحرية بين الإسكندرية وليمنوس (الجزيرة التي اتخذت مقراً لقيادة حملة الحلفاء على الدردنيل).

كشف العثمانيون ضعف السفن الحربية البريطانية أول مرة في 13 مايو عند هجومهم المفاجئ على المدمرة (*Goliath*). كانت السفينة العتيقة راسية في خليج مورتو (داخل الدردنيل بالقرب من الحافة الجنوبية لشبه جزيرة غاليبولي)، لتوفير غطاء ناري للقوات الفرنسية، حين اخترق زورق الطوربيد التركي (*Muavenet-I Milliye*)، الذي أبحر بشكل مقلوب (المقدمة في الخلف) في الدردنيل من الشمال باتجاه مرسى الحلفاء. ونظراً إلى أن الزورق تقدم ببطء، ومؤخرته في الأمام، ظن ضباط المراقبة على متن السفينة أنه مركب

بريطاني، لكن الوهم تحطم حين أطلق ثلاثة طوربيدات على بدن المدمرة. غرقت السفينة في دقيقتين، وأخذت معها إلى القاع 570 من أفراد طاقمها الـ 700، بينما تسلل الزورق التركي مبتعداً دون أن يصاب بضرر.



إنزال قطعة مدفعية إلى البر في غاليبولي. كانت تحديات الإمداد (اللوجستي) في حملة غاليبولي غير مسبوقة، حيث نقل الرجال والعتاد بالبحر تحت نيران لا تتوقف من المدافعين العثمانيين.

غيّر وصول الغواصات الألمانية في أواخر شهر مايو ميزان القوة البحرية في الدردنيل. لم يكن يحق للحلفاء أن يشتكوا منها؛ إذ تمركزت الغواصات البريطانية والفرنسية وحتى الأسترالية في المضائق منذ أن أغرق البريطانيون السفينة الحربية العثمانية "المسعودية" في ديسمبر 1914. تمكنت غواصة أسترالية، (AE2)، من إزالة الحواجز التي وضعت تحت الماء للوصول إلى بحر مرمرة في 25 أبريل 1915. كما أبحرت غواصتان بريطانيتان، (E11) و(E14)، عبر المضائق الخطرة، لتمضيا أسابيع في بحر مرمرة، أغرقتا خلالها عدداً من سفن النقل والإمداد التي تحمل التعزيزات والمؤن إلى القوات العثمانية في غاليبولي. لكن الحلفاء

أصيبوا بخسائر فادحة في أساطيل الغواصات بسبب الأخطار الكامنة تحت الماء في المضائق وتخوم بحر مرمرة. أغرق زورق طوربيد تركي الغواصة الأسترالية (*AE*2) بعد أيام من وصولها إلى مرمرة، وبحلول شهر مايو خسر الفرنسيون غواصتين -(*Saphir*) و(*Joule*)- جراء الشبكات المضادة للغواصات والألغام[3].

كان من الأسهل على الغواصات الألمانية إغراق السفن البريطانية في مياه بحر إيجة المفتوحة. في 25 مايو، أطلقت الغواصة الألمانية (*U*-21) طوربيداً أغرق السفينة الحربية البريطانية (*Triumph*) بينما كانت تقصف المواقع العثمانية بالقرب من "أنزاك كوف". أصيبت السفينة بعد الظهر بوقت قصير، على مرأى من الجيشين كليهما -مثّل الحدث انتصاراً للأتراك وضربة موجعة لمعنويات الأستراليين والنيوزيلنديين على الشط. في أثناء الدقائق العشرين التي غاصت خلالها السفينة أنقذ معظم طاقمها، مع أن خمسة وسبعين بحاراً وثلاثة ضباط قتلوا بين الحطام. بعد يومين، أغرقت الغواصة الألمانية ذاتها المدمرة (HMS *Majestic*) قبالة "كيب هيليس"، مع خسارة تسعة وأربعين رجلاً. نتأ الهيكل الجانح والصواري من تحت مياه الشط، ليذكر المشهد بفشل القوات البحرية الحليفة في حملة الدردنيل. ومع إغراق السفن الحربية الضخمة الثلاث* في تتابع سريع، أجبرت البحرية الملكية على سحب جميع المدمرات الثقيلة من الدردنيل. منذ ذلك الحين، سوف يقدم الدعم البحري للعمليات البرية بواسطة سفن مخصصة للمياه الضحلة وقصف الشواطئ، وأخرى أصغر حجماً وأقل عرضة لخطر هجوم الغواصات. لكن الخطر الآتي من تحت الماء بقي يهدد بآفته سفن نقل الجنود وسفن الإمداد والتموين البريطانية والفرنسية التي تبحر بين الإسكندرية وميناء مودروس، ما فاقم تعقيدات الحملة ومصاعبها[4].

❋ ❋ ❋

* (ships of the line): فئة من السفن الحربية الضخمة والمسلحة إلى حد يؤهلها للمشاركة في القتال. وكانت في عهد السفن الشراعية تحمل 140 من المدافع المصطفة على سطحين على الأقل.

أثارت الإخفاقات المتتابعة في غاليبولي أزمة سياسية في بريطانيا. وأجبرت رئيس الوزراء أسكويث (من حزب الأحرار) على تشكيل ائتلاف مع حزب المحافظين في مايو 1915. عبرت الحكومة الجديدة عن التغيرات في الخطوط السياسية. إذ حل آرثر جيمس بلفور، عضو حزب المحافظين، محل ونستون تشرشل في منصب لورد الأدميرالية الأول. وأدين تشرشل بسبب دوره في الحملة البحرية الفاشلة في الدردنيل، وأنزلت مرتبته إلى مستشار لدوقية لانكستر، ليصبح في الجوهر وزيراً بلا حقيبة. أنشئت هيئة جديدة، "لجنة الدردنيل"، للإشراف على حملة غاليبولي، عوضاً عن مجلس الحرب القديم. وعقدت أول اجتماع لها في 7 يونيو 1915 لتقرير مستقبل الحملة.

بقي اللورد كتشنر وزيراً للحربية والصوت النافذ في اجتماع اللجنة الجديدة أيضاً (من المفارقة أن اللوم ظل حتى هذا اليوم يوجه إلى تشرشل على الإخفاق في غاليبولي، بينما كان كتشنر المسؤول الأكثر تأثيراً في عملية صنع القرار كما هو واضح دون لبس). عرض على اللجنة ثلاثة خيارات: إما أن تتخلى بريطانيا وحلفاؤها عن حملة غاليبولي برمتها؛ أو ترسل جيشاً جراراً لاحتلال شبه الجزيرة؛ أو تستمر في تعزيز قوة الحملة الصغيرة بقيادة السير إيان هاملتون أملًا بتحقيق تقدم بطيء لكن ثابت نحو احتلال غاليبولي في نهاية المطاف.

استبعد الأعضاء الانسحاب من غاليبولي. إذ خشوا من أن يدفع الاعتراف بالهزيمة دول البلقان المترددة إلى الاصطفاف ضد قوى الوفاق، و"يؤدي إلى انتفاضات مؤكدة تقريباً في شتى أرجاء العالم الإسلامي" كما قال المؤرخ الرسمي البريطاني للحملة، معبراً عن استمرار انشغال المخططين الحربيين في دول الوفاق بهاجس الدعوة العثمانية إلى الجهاد. لكن واجه الأعضاء صعوبة في الاختيار بين إرسال جيوش كبيرة لتعزيز الحملة أو الحفاظ على الوضع القائم؛ لأنهم لم يعرفوا غالباً حجم القوة المطلوبة لاجتياح مواقع الترك في غاليبولي أو المدة اللازمة لإرسال مثل هذه القوة. كان كل تأخير يمنح العثمانيين وحلفاءهم الألمان وقتاً ثميناً لتقوية دفاعاتهم وتحويل غاليبولي إلى حصن منيع[5].

في النهاية، انحاز كتشنر إلى جانب إرسال كتلة كبيرة من التعزيزات لتنظيم حملة حيوية ونشطة في الدردنيل. وكان إيان هاملتون، القائد العام لقوة الحملة المتوسطية، قد طلب ثلاث فرق جديدة (ضمت الفرقة البريطانية في الحرب العالمية الأولى عدداً راوح بين 10.000 و15.000 جندي)، لتمكين الحلفاء من كسر الطوق حول "أنزاك كوف" واستكمال احتلال شبه جزيرة غاليبولي. وافقت لجنة الدردنيل على إرسال الفرق الثلاث في اجتماع عقدته في 7 يونيو، وفي نهاية يونيو قرر كتشنر إرسال فرقتين إضافيتين -المجموع الإجمالي خمس فرق- لمنح هاملتون الزخم الذي أراده للانتصار في غاليبولي. وصلت طلائع الوحدات إلى الجبهة بداية شهر أغسطس.

* * *

على مدى صيف عام 1915، حول الجنود البريطانيون والفرنسيون المشهد الطبيعي الريفي في غاليبولي إلى شبكة معقدة من الخنادق. في القطاع الفرنسي، زحف الجنود باتجاه الجبهة عبر خندق اتصالات عريض أطلق عليه تيمناً اسم "جادة القسطنطينية"، بينما استخدم العائدون من خط النار خندقاً موازياً عرف باسم "جادة باريس". أطلق الإنكليز أيضاً أسماء غريبة على خنادقهم. فقد امتد "شارع ريجنت" جنوباً من خط الجبهة عبر "ساحة البيكاديللي" مروراً بـ"شارع أكسفورد"، بينما عُمّدت نقطة التقاطع بالغة التعقيد في الخنادق باسم "تقاطع كلابهام" (أضخم تقاطع للخطوط الحديدية في لندن). وحملت عشرات من الخنادق الأصغر حجماً أسماء الوحدات التي قاتل رجالها وقتلوا فيها: "شارع لانكشاير"، "مونستر تيراس"، "إسكس نول"، "رشستر فلات". أما أشد الأسماء تهكماً وإثارة للسخرية فقد احتفظ بها لخط الجبهة نفسه: "هايد بارك كورنر"، "مين ستريت"، والأكثر إثارة للكآبة في النفس: "هوب ستريت" (حرفياً: "شارع الأمل")[6].

لم تتمكن الأسماء التهكمية والساخرة من تقنيع عنف الخنادق. وأولئك الذين خدموا على الجبهة الغربية وغاليبولي معاً وجدوا الجبهة التركية أشد قسوة ووحشية من الأخرى. كتب العريف الفرنسي جان ليمونيري إلى الوطن في يونيو 1915: "الوضع أسوأ هنا بكثير من فرنسا، برأي كل من شارك في القتال على الجبهتين". تبنى

البريطانيون الرأي ذاته: "في فرنسا، بغض النظر عن الهجمات الشاملة، ربما يعيش جندي المشاة عدة أشهر [في الخندق] دون أن يطلق رصاصة من بندقيته، أو يتعرض لخطر الموت برصاصة بندقية. لكن في هذه الخنادق على تلال غاليبولي، يتحارب الترك والمسيحيون طوال النهار بالبنادق والقنابل، ويزحفون خارجها في المساء ليتبادلوا الطعان في الظلمة. لا يتحرر الجندي أبداً من ضغط المشاهد والأصوات والتفكير"، كما زعم إيه. بي. هيربرت[7].

تبطش الحياة في الخنادق بحواس الجندي كلها -السمع والبصر والذوق والشم واللمس. وتدمر حرب الخنادق الصحة البدنية والنفسية لأولئك الذين لم يقتلوا أن يجرحوا. ينطبق وصف هيربرت لتجربة البريطانيين في خنادق غاليبولي على الترك أيضاً، إذ يتقاسم المهاجمون والمدافعون بالتساوي بؤس حرب الخنادق وأهوالها.

منذ لحظة وصول الجندي إلى غاليبولي يعيش مع دوي المدفعية ليل نهار. لكن الحلفاء هم الأكثر تعرضاً للنيران. فمنذ أن طردت الغواصات الألمانية المدمرات الحربية البريطانية بعيداً عن مدخل الدردنيل، أطلق المدفعجية العثمانيون نيرانهم على الشط الآسيوي من المضائق دون رد من الأعداء، فأصاب قصفهم الشديد المركز الخطوط الفرنسية على وجه الخصوص بأضرار فادحة. كما سيطر الترك في شبه جزيرة غاليبولي على الأراضي المرتفعة المشرفة على شواطئ "هيليس" و"أنزاك كوف"، وقصفوها بشكل ثابت ومتواصل بالمدفعية وقذائف الشظايا. "منذ أن تمركزنا على قمة ألجي تيبي [أتشي بابا]، تمكنا من إطلاق نيران مدافعنا متى شئنا"، كما زعم ضابط مدفعية عثماني. وأضاف: "استطعنا أن نحارب بالأسلوب الذي يناسبنا". أحبط البريطانيون والفرنسيون وخاب مسعاهم لتحديد مواقع استحكامات المدفعية العثمانية. استخدم الترك التمويه، والمدافع المزيفة، والشحنات الدخانية، لاجتذاب نيران العدو، إضافة إلى المدافع المتنقلة لتحدي جهد الحلفاء لإسكات مدفعيتهم. كان العثمانيون وحلفاؤهم الألمان يطلقون النار متى أرادوا على الحشود الكثيفة للغزاة على شواطئ "هيليس" و"أنزاك كوف". برّحت الجنود ليل نهار قذائف المدفعية الثقيلة أو الخفيفة، والقريبة أو البعيدة، وشكلت تهديداً داهماً ومفاجئاً وأوقعت سيلاً دافقاً من الضحايا على جانبي النزاع كليهما[8].



جنود أتراك في غاليبولي. عاش المشاركون في حرب الخنادق من طرفي النزاع كليهما في ظروف مزرية متشابهة وتعرضوا للخطر نفسه، وكان احتمال موتهم بالمرض مماثلاً لاحتمال مقتلهم بشظية أو رصاصة.

علم الأتراك الغزاة، في مسار حملة غاليبولي، فن القنص. في البداية، روع جنود الحلفاء بهؤلاء القتلة المختفين عن البصر. تسلل القناصة العثمانيون، بوجوههم المصبوغة بالطلاء الأخضر للتمويه، إلى خلف خطوط العدو في "كيب هيليس" و"أنزاك كوف" بعد الإنزال، وكمنوا في مواقع يتفوقون على الغزاة تفوقاً كاسحاً في معرفة تضاريسها، و"قنعوا بالتربص هناك لقتل الكفار إلى أن يقتلوا هم أيضاً. كانوا بالفعل رجالاً بواسل"، كما كتب هيربرت. مارس القناصة تأثيراً مرعباً في روح الغزاة المعنوية. أضاف هيربرت: "لم يشمل تدريبهم أي إعداد لمواجهة القنص. وكرهوا الشعور بالعمى الذي ينتجه. بدا من المحبط لعزيمة الجندي أن يتساءل وهو يسير دوماً محدودباً هل رأسه منخفض إلى حد كاف؟ كان من المرهق أن يظل في وضعية الانتباه ليل نهار، ومن الخطورة بمكان أن يستريح من تلك الوضعية للحظة".
وكما عبر جندي عن الحالة شعراً:

القناصة يقنصون طوال اليوم

وأزيز الرصاص مستمر طوال اليوم

والرجال يردون واحداً إثر الآخر[9].

تعافى الغزاة بمرور الزمن من الصدمة الأولية وتحولوا هم أيضاً إلى قناصة أكفاء. وجد الرقيب جي. تي. كلوني، من فوج المشاة النيوزيلنديين، نفسه يتبادل إطلاق النار مع قناص تركي بعد أيام من الإنزال في غاليبولي (منتصف مايو 1915). لاحظ في يومياته بتاريخ 16 مايو: "خضت معه مبارزة مثيرة جداً هذا الصباح. رفعت رأسي وكاد يصيبه، فانتقلت إلى موقع آخر وراقبت فرأيته الآن يكمن وراء شجرة خلف الخندق التركي بنحو 200 ياردة. بدأنا النزال. ولا بد أننا تبادلنا عشرين طلقة تقريباً، وفي النهاية أصبته ومات هناك، ونجوت أنا بصعوبة". لم يحاول كلوني إخفاء سعادته بقتل قناص من العدو. بدأ الترك بمرور الوقت يحترمون قدرات قناصة الحلفاء. "صدمتنا حقيقة أن في العدو قناصة مهرة. كنا نقنص العدو ونتعرض لقنصه في آن"، كما كتب إبراهيم أريكان في يومياته. لكن الغزاة ظلوا يعيشون في خوف من القاتل الخفي الذي قد يضرب ضربته في أي لحظة[10].

من أكثر مزاعم الجنود البريطانيين والأستراليين والنيوزيلنديين إثارة للدهشة تأكيدهم وجود نساء بين القناصة الأتراك في ميدان المعركة. لا يوجد أي سجل يثبت تجنيد الجيش العثماني للنساء في الحرب العالمية الأولى، ونظراً إلى الفصل الصارم بين الجنسين في المجتمع العثماني يبدو التوكيد مغايراً للواقع على أقل تقدير. لكن من الصعب إنكار الظاهرة باعتبارها مجرد خرافات خيالية اخترعها الجنود، بسبب العدد الكبير من مثل هذه الادعاءات عن قناصة من النساء قتلن أو جرحن أو أسرن. لاحظ ممرض بريطاني في يومياته أن امرأة تركية من القناصة جرحت وأدخلت المستشفى في "كيب هيليس". "أصيبت بذراعها" -مع أنه لم يزعم رؤيتها بنفسه. وشهد جندي من نيوزيلندا على صحة الرواية: "أسرنا امرأة من القناصة، أصيبت قبل أن نعرف أنها امرأة. ثمة كثير من القناصة النساء حولنا برعن في إصابة الهدف". أما الجندي جون فرانك غراي، من فوج ولتشاير، الذي شارك في عمليات ضد القناصة بالقرب من "أنزاك كوف"، فزعم أن اكتشاف نساء بين القناصة مثل "أغرب ما اكتشفته وحدته على الإطلاق". كتب أن هؤلاء مسلحات يختبئن بين الأشجار إلى جانب زملائهن الرجال. "ارتدى بعضهن

السراويل، كالرجال، وغيرهن تنانير طويلة رمادية اللون. كن مهزولات الجسم وكأنهن لم يأكلن طعاماً منذ أشهر". لا يمكن أن نعرف من هذه الروايات هل شاركت النساء فعلاً في القتال، أم إن جنود الحلفاء يبررون العنف ضد النساء التركيات عبر الادعاء بأنهن مقاتلات[11].

إضافة إلى الأخطار الداهمة المستمرة التي شكلتها المدفعية والقناصة فوق الأرض، تبادل الحلفاء والأتراك زرع الألغام تحت خنادق العدو لقتل أفراده من تحت الأرض. استيقظ العريف ليمونيري في منتصف الليل تقريباً، حين كانت أذنه ملاصقة للأرض الصلبة في خندقه، على صوت مميز لحفر في التراب تحته. وعندما أصغى سمع صوت الضربات المنتظمة لمعول. "لا بد أنهم الترك، يحفرون لزرع لغم يفجر حصننا"، كما استنتج. سرعان ما عثر على بقعة آمنة لينام. "ما أخشاه أن تنتهي حياتي وأشلائي محومة عالياً في السماء فوق الخنادق". لم يرقد بارتياح قط في ذلك القسم من الخنادق، خوفاً من أن يفجر الترك شحنة ناسفة تحته في أي لحظة[12].

بدا الملازم محمد فصيح أشد خوفاً من أن يدفن حياً جراء انفجار تحت الأرض من أن تتناثر أشلاؤه في الجو. لاحظ الضابط الشاب الحريص على الشكليات في سجل يومياته أن العدو فجر لغماً قوياً إلى حد أنه شعر بجيشان الأرض تحت قدميه. "حدث الانفجار في المكان الذي سمعت فيه أصوات [حفر] قبل بضعة أيام. فقد سبعة رجال"، كما كتب. في وقت لاحق من أصيل ذلك اليوم، استطاع أحد الرجال المفقودين الخروج من تحت الأنقاض، فشعر الملازم العثماني بالارتياح. قال متفكراً: "لا توجد ميتة أسوأ من هذه. مواجهة الموت البطيء وأنت بكامل وعيك!.. اللهم نجنا من هذا المصير"[13].

الأسابيع التي يمضيها الجنود في الخنادق هي أوقات انتظار وترقب تقطعها هجمات كبرى. تناوب العثمانيون والحلفاء على أخذ زمام المبادرة؛ ما ترك الجنود في خنادق الطرفين في حالة من التوتر الأبدي. "كنا نخشى التعرض للهجوم. لكن أعترف بأننا أشد خوفاً من أن نبادر نحن بالهجوم"، كما كتب جان ليمونيري بعد أن أمضى فترة من الخدمة في الخطوط الأمامية الفرنسية. أتت أعظم الأخطار في حرب الخنادق عند الركض اليائس في المنطقة المحرمة الفاصلة بين خطوط الطرفين المتحاربين، مع أن من المرعب أيضاً للجنود سماع العدو يندفع نحو خطوطهم[14].

نجا الرقيب موريارتي من فيلق المشاة الإيرلندي الملكي من الهجوم التركي الليلي في الأول من مايو. "زحفوا إلى خنادقنا (بالآلاف)، وجعلوا الليل فظيعاً بالصراخ والهتاف: الله أكبر.. الله أكبر". حارب الإيرلنديون دفاعاً عن أرواحهم ومواقعهم أمام موجات من الجنود العثمانيين المهاجمين. "عندما يصل العثمانيون الأبالسة إلى مواقع قريبة، يستخدمون القنابل اليدوية، ويتعذر علينا تمييز قتلانا إلا من خلال الأقراص المعدنية التي تحدد هوياتهم" (الصفائح المعدنية المدورة التي يلبسها الجنود البريطانيون حول أعناقهم وتبين هويتهم). حارب موريارتي طوال الليل ليشاهد عند الفجر المنظر الرهيب لمئات جثث القتلى الترك تغطي الأرض الممتدة أمام الخنادق البريطانية. قال متأملاً: "أنا على يقين بأنني لن أنسى في حياتي تلك الليلة"[15].

استحوذ على الشاعر الحربي الأسترالي هارلي ماثيوز هاجس صيحة الحرب العثمانية "الله أكبر". بدت له صوتاً غريباً يخز أعصاب جنود الحلفاء كلهم.

سمعناهم يتجمعون مجدداً في التلال
أطلقوا صيحاتهم وصفيرهم، ونفخوا في الصور.
هتفوا: "الله أكبر!" وجلجلت أصوات الأقدام.
"الله أكبر!"، واشتد القصف على الميسرة،
اكتسحنا كعاصفة. "تأهبوا!
هام هم قادمون. نار!". مرة أخرى
رمينا على الصياح والأشباح -ثم.. تلاشوا
غابوا الآن، ذابوا في الهواء كحالهم سابقاً[16].

* * *

بالنسبة إلى الجنود جميعاً، بدت تجربة "الخروج من الخندق" ومهاجمة العدو التعميد النهائي بالنار-وصدمة لن ينساها الناجون أبداً. "قد تكون الحياة في الخنادق مقبولة، لولا الهجمات المرعبة بالحراب. المدافع الرشاشة العديدة وبنادق القناصة الأتراك تحصد أرواح الرجال، حتى قبل أن يظهروا من فوق متاريس الخنادق"، على حد تعبير العريف الفرنسي ليمونيري[17].

كان روبرت إردلي جندياً من فيلق المتطوعين الاحتياط (من مانشستر) نزل على بر غاليبولي في يونيو. شارك في أول هجوم على الخطوط التركية في 12 يوليو، وتذكر بدقة متناهية كل ثانية مرت قبل صدور الأمر الكارثي: "بدت اللحظات كأنها ساعات -من فرط الإثارة- تسمرت عينا الضابط على ساعته تتابعان ذلك العقرب (مؤشر الموت) يسير الهوينا، متباطئاً.. لكن بثبات نحو الدمار -ربما بقيت ثانية من العمر- فهذه تضحية -هذه هي اللحظة التي تكون فيها القلوب كلها حزينة ومغمومة -حين تسمع همهمات مصلّ يرتل- سوف تلاحظ إلى جانبك رفيقاً مسكيناً يخشى الوقت المقترب لمعرفته أن الموت يزحف متمهلاً لكن بعزم ثابت من هناك". حاول الجنود الذين يبرحهم القلق والغم تبادل التشجيع ورفع الروح المعنوية فيما بينهم بكلمات جوفاء منفصلة كلياً عن خطورة اللحظة.

"ابتهج يا رفيق"!

"حظاً سعيداً يا صديق، حاول أن تأمل بالأفضل"، ومع ارتجاف هيكل الجسد برمته، صدر الأمر.

"هيا يا شباب، بالتوفيق".



جنود الفيلق الأسترالي-النيوزيلندي يشنون هجوماً بالحراب في غاليبولي. من المعروف في حرب الخنادق أن الجيش المهاجم يتكبد أفدح الخسائر.

تسلق إردلي جدار الخندق ليخرج من نطاق أمانه النسبي وينكشف أمام نيران العدو. ركض عبر المنطقة المحرمة وقد ثبّت الحربة على بندقيته، وتعجب من بقائه حياً (أصيب بجرح طفيف في الساق وخدش في الأنف من حربة مكسورة)، بينما سقط رفاقه صرعى وجرحى من حوله. "لن أنسى ما حييت تجربتي الأولى: سماع جريح يطلب المساعدة، ومصافحة أخيرة لرفيق يحتضر -لحظات الجحيم القليلة تلك"[18].

خلف كل هجوم مئات وآلافاً من جثث الجنود القتلى منثورة في ميدان المعركة، لتملأ الجو في شبه الجزيرة برائحة الموت المركزة النتنة، بعد أن تفسخت بين خطوط المتحاربين جراء حر الصيف اللاهب وتعذر دفنها. في الأسابيع الأولى من الصراع، وافق العثمانيون والحلفاء عدة مرات على وقف محلي لإطلاق النار، استمر ثلاث أو أربع ساعات لاستعادة الجثث ودفنها. في 24 مايو، التزم البريطانيون والعثمانيون هدنةً استمرت تسع ساعات على جبهة الفيلق الأسترالي-النيوزيلندي في أعقاب هجوم تركي واسع خلف آلاف القتلى. اتفق الطرفان على ضرورة وقف إطلاق النار، لكن اشتبه كل واحد بالآخر واتهمه باستغلال المهلة لمصلحته، ومسح خنادق العدو، ونقل الرجال والمعدات إلى مواقع مرغوبة قبل استئناف الأعمال العدائية. وبعد وقف إطلاق النار في 24 مايو، لم يتفق الطرفان على أي هدنة أخرى، وبدأ الأموات يشكلون تهديداً داهماً ومتفاقماً للروح المعنوية -والصحة الجسدية- للأحياء.

كتب بارتل برادشو، الضابط الشاب من فيلق الحدود البريطاني في رسالة إلى الوطن: "الخنادق قذرة. دفن القتلى في بعض أقسام المتاريس لكن نتأت أرجلهم من فوقها، بينما انتشرت الجثث على جانبي الجبهة وبقيت في الحر اللافح أياماً دون أن تتاح الفرصة لدفنها. بذلنا جهدنا لتغطيتها بماء الكلس، لكن ظلت الرائحة مريعة، وحين تدرك أنك تنام بين الموتى، وأنك تأكل وجباتك في المكان نفسه، وإذا توقفت عن التلويح بلقمتك لحظة..". ترك برادشو جملته ناقصة لأنه لم يرغب في قول الحقيقة: إذا توقف الجندي عن التلويح بلقمته فإن الذباب سيغزوها -الذباب ذاته الذي يغطي الجثث[19].

صور إيه. بي. هيربرت هذه الحالة المرعبة في الخنادق في قصيدته "ذباب" التي كتبها في غاليبولي عام 1915:

الذباب! يا إلهي، الذباب
يدنس الجثث المقدسة.
حين تراه يتكدس على عيون الرجال الموتى
ويقاسم الجنود خبزهم.
لن أنسى الآن
رجس الحرب ونتن رائحتها،
الجثث على المتراس
واليرقات على الأرض[20].

* * *

نقلت أسراب كثيفة من الذباب الأمراض من الأموات إلى الأحياء. وعانى الجنود على طرفي خطوط القتال سلسلة كاملة من الأمراض التي تنتقل بواسطة الماء والهواء. بينما ترك غياب المراحيض الصحية الجنود الذين خافوا من التعرض لنيران القناصة يقضون حاجتهم في الخنادق ذاتها التي يحاربون فيها، ويأكلون، وينامون. بلغ الزحار حداً وبائياً. ريمون ويل، ضابط المدفعية الفرنسي، لاحظ بقلق متزايد في يومياته انتشار المرض بين جنوده. ولم يوفر اللقاح الذي تناوله الجنود الفرنسيون ضد الكوليرا والتيفوئيد وقاية من الحميات والاضطرابات المعدية. "انتشر المرض في الأيام الأخيرة إلى حد اجتياح صفوف الضباط والتأثير في أدائهم". وعلى الرغم من القيود الصارمة على الإجازات المرضية، فقد كان من الضروري إخلاء الجبهة من آلاف مؤلفة من الجنود، الذين أوهنهم التجفاف ومنعهم من المشي، فضلاً عن القتال. في ذروة فصل الصيف، كان مئات المرضى ينقلون من غاليبولي كل يوم إلى المرافق الصحية في مودروس إلى أن يتعافوا ويعودوا إلى ميدان المعركة[21].

ألحق القتال في الخنادق والعيش في إسارها ضرراً فادحاً بالصحة النفسية للجنود. وخلافاً للحال في الجبهة الغربية، التي منح فيها الجنود فرص أخذ الإجازات في البلدات والقرى بعيداً عن ميدان القتال، لم يوجد مهرب أو منجى من العنف في غاليبولي. وحتى عند السباحة في البحر، تعرض جنود الغزاة الذين كانوا في أمس الحاجة إلى استراحة من الحرب لقصف عشوائي أوقع بينهم قتلى وجرحى. ولا كان باستطاعتهم النوم بهدوء. فدويّ المدفعية المتواصل، وهدير القصف الرتيب، ومطالب الجبهة التي لا تنتهي، لم تترك جميعها للمحاربين فرصة ليغفوا أو يناموا مطمئنين. أشار الجنود في يومياتهم مراراً وتكراراً إلى معاناتهم جراء قلة النوم. كتب جان ليمونيري: "رجالي متعبون، وأنا كذلك، مع أنني صامد". تمكن من النوم ساعتين تلك الليلة، بين الثانية والنصف والرابعة والنصف فجراً. الوضع ذاته ساد في الجانب العثماني. "لا ينام الجنود سوى ساعتين أو ثلاث طوال الليل وتؤرقهم كوابيس مروعة"، كما لاحظ محمد فصيح[22].

مع مرور الأسابيع، ظهرت أضرار القلق اليومي والأرق، وذلك مع تعرض عدد متزايد من الجنود للانهيار العصبي أو صدمة القصف. شهد رقيب من فيلق الإسعاف الميداني البريطاني أول حالة "عصبية" في 14 يونيو، بعد سبعة أسابيع من بدء الحملة. روعت هنري كوربريدج "الحالات النفسية/ العقلية، ومشاهد المصابين المحزنة بنظرات عيونهم الزجاجية الخالية من المعنى، فضلاً عن معاناة الشلل الجزئي والهذيان". أشار إلى إحدى الحالات المرضية، حيث فقد رجل ضخم الجسم "منطقه وعقله، دون أن يصاب بخدش"، واحتاج إلى ثمانية رجال لتهدئته أثناء نقله إلى سفينة المستشفى. لاحظ كوربريدج خلال أشهر الصيف ظهور مزيد من حالات صدمة القصف. وبحلول منتصف أغسطس، بلغ عدد الحالات النفسية/ العقلية التي سجلها خمسة أضعاف عدد الجرحى[23].

عانى الجنود العثمانيون أيضاً صدمة القصف. ذهل إبراهيم أريكان، المتطوع من الجندرمة العثمانية، حين اكتشف أن قائده المتمرس الذي صلّبته المعارك يجلس في حفرة ويرتجف. سأله النقيب: "إبراهيم، إلى أين أنت ذاهب يا بني؟". عرف إبراهيم أن شيئاً ما أصاب النقيب، الذي اعتاد شتم جنوده، عندما خاطبه بـ"يا بني". كان تائهاً مشوش الذهن وطلب من

إبراهيم مرافقته. "فقد عقله وقوة إرادته. كانت يده ترتجف بعنف بحيث عجز عن حمل بندقيته"، كما تذكر. انهار حتى أصلب الرجال عوداً وأشدهم بأساً تحت وطأة القصف المتواصل في غاليبولي[24].

* * *

بدأت أشهر القتال تشكل النظرة المتبادلة بين المهاجمين والمدافعين. فبينما هيجت الصحافة والدعاية الشعبية مشاعر الكراهية تجاه الألمان في الأشهر الأولى من الحرب، لم يكن لدى الجنود البريطانيين والفرنسيين والأستراليين والنيوزيلنديين عداء مسبق للترك. أطلق جنود الحلفاء عليهم ألقاباً ساخرة. أشار إليهم البريطانيون باسم "عبدول" أو "جوني ترك"؛ بينما تحدث عنهم الفرنسيون باعتبارهم "مسيو تورك". حتى العثمانيون أطلقوا على جنودهم ألقاباً -"محمد تشيك" ("محمد الصغير")- مع أنهم لم يظهروا هذه الرقة واللين تجاه الغزاة، الذين سموهم "الإنكليز" أو "الفرنسيين"، أو مجرد "دوشمان" ("العدو").

تقاربت الخنادق في بعض الأحيان إلى حد سماع الجنود المتحاربين أحاديث بعضهم بعضاً. مارس العيش في هذه الأماكن المتقاربة تأثيراً إنسانياً في الرجال، وفي فترات الهدوء اعتادوا رمي الهدايا إلى خنادق العدو. تذكر جندي عثماني إلقاء السجائر والزبيب والبندق واللوز إلى خطوط الجنود الأستراليين والنيوزيلنديين. رد الغزاة التحية بعلب الفواكه والمربى. وجد أمين تشول من اللافت ألا يخلط أحد الهدايا بالطين أو يرد عليها بالقنابل اليدوية. كانت التبادلات تتم بمودة صادقة ونية صافية[25].

لا يعني هذا كله انخراط الحلفاء والعثمانيين في نشاط أقل من الحرب الشاملة. ارتكب الجانبان فظائع وحشية، لكن ظهرت أيضاً بعض الأفعال المدفوعة بمشاعر الرحمة والمودة عبر خطوط الأعداء. تذكر الرقيب هنري كوربريدج من الفيلق الطبي معالجة أسير عثماني أنقذ حياة جندي بريطاني. رافق البريطاني، وهو رقيب من فيلق إسكس، الجريح التركي إلى مركز الإسعاف ليتأكد من حسن معاملة حاميه. أصيب الجندي التركي في ذراعه ورجله

وهو يساعد الرقيب البريطاني، الذي حوصر في تقاطع للنيران بين خطوط الطرفين. وفر كوربريدج وأفراد طاقمه الطبي "أفضل رعاية ممكنة للتركي" في المستشفى[26].



جندي من المشاة الإيرلنديين يرفع خوذته على بندقيته فوق الخندق لإغاظة القناصة الترك في غاليبولي.

مر الجندي روبرت إردلي من مشاة لانكشاير بتجربة استثنائية حين أنقذ الجندي العثماني نفسه الذي أنقذه في جحيم المعركة. ففي أوائل أغسطس، هاجم مشاة لانكشاير الخطوط التركية على جانبي طريق كريثيا على الحافة الجنوبية من غاليبولي. شارك إردلي في الهجوم بالحراب الذي اكتسح خط الجبهة العثمانية. ذهل مرة أخرى من نجاته، وهو يرى رفاقه يسقطون صرعى وجرحى على الجانبين أثناء اندفاعه في المنطقة المحرمة. وحين وصل إلى الخندق العثماني، وجد نفسه بين جندي بريطاني وجريح تركي ممدد على الأرض لا حول له ولا قوة.

دمدم البريطاني غاضباً: "ابتعد عن طريقي -قتل صديقي وسوف أطعنه".

ناقش إردلي رفيقه بالمنطق مؤكداً أن من الجبن والنذالة قتل رجل عاجز عن الدفاع عن نفسه.

قال متملقاً: "ضع نفسك مكانه يا أخي -من يعلم- هيا.. ابتهج.. لا تقتله.. إنه رجل طيب".

تمكن إردلي من منع البريطاني الغاضب من قتل التركي. وجد نفسه وحيداً في الخندق مع الجريح العثماني. لم يتبادل الرجلان كلمة، لكن التركي أوضح لإردلي أنه يعاني ألماً فظيعاً. تمتم لنفسه وهو يضمد الجرح العميق في رأسه: "يا للمسكين". نقل الجندي المصاب إلى مكان آمن بعيداً عن خط النار، ووضع معطفاً بدلاً من وسادة تحت رأسه، وجلس معه برهة. "تبادلنا الإشارات والنظرات". وحين دعي للقيام بواجب الحراسة قدم إلى الجريح جرعة ماء وسيجارة. "استطعت أن أرى في عينيه امتنانه وتقديره للطف والعطف، وكما يقول المثل القديم -صنع المعروف لا يضيع أبداً-".

لم يصمد مشاة لانكشاير طويلاً في الخنادق التركية. فقد شن العثمانيون هجوماً معاكساً كاسحاً أجبر البريطانيين على التراجع إلى خطوطهم الأصلية. بقي إردلي في أحد الخنادق التركية المحتلة لتغطية انسحاب رفاقه. شاهد مئات الجنود العثمانيين يشنون هجوماً بحرابهم المثبتة على بنادقهم ويكتسحون منطقته. "بلغت الإثارة أوجها -قطرات عرق على جبهتي- جنود العدو يهرولون نحونا في مسعى ضخم لكنسنا من على وجه الأرض". فاجأه جندي عثماني قفز فوق المتراس، شاهراً حربته. "شعرت بنصل حاد يخترق لحمي -إحساس بنار تحرق مؤخرة كتفي الأيسر. عرفت بأنني طعنت بحربة.. أحسست بوضوح بأنها اندفعت ثم سحبت". سقط إردلي على قعر الخندق وحشر وجهه بين القتلى والجرحى، حيث فقد الوعي جراء الصدمة والنزف.

أيقظه بعد ساعات إحساس بالتراب ينهال على ظهره. وحين جاهد ليقف على رجليه، مشوش الذهن دائخاً، وجد نفسها مطوقاً بحراب معادية مسددة إلى صدره. لم يشك في أنهم ينوون قتله. لكن قبل أن تتاح للآسرين فرصة لطعنه، قفز جريح عثماني ربط رأسه بضماد إلى الخندق وحمى إردلي بجسده. عرف على الفور منقذه. كان الجريح العثماني ضعيفاً واهناً- أنقذه للتو رفاقه في هجومهم المعاكس الأخير- لكنه تشبث بإردلي بأقصى ما يملك من قوة، ونادى الرقيب.

حين وصل الرقيب التركي أخيراً روى له الجريح القصة. "بربروا معاً"، كما تذكر إردلي دون أن يفهم كلمة من حديث منقذه، لكن تبين له من التعبير على وجه الرقيب بأن فرصته

في النجاة تتحسن بسرعة. أخيراً، التفت إليه الرقيب وكلمه بلغة إنكليزية ركيكة: "انهض أيها الإنكليزي، لن يؤذيك أحد -كنت ستموت من أجل هذا الجندي- أعطيته ماء وسيجارة ليدخن وأوقفت نزيفه، أنت إنكليزي صالح فاضل"، وربت على كتفه. قبل أن يأخذوه، ودع إردلي صديقه التركي. "صافحته (وأنا مستعد لأدفع كل ما أملك كي أراه ثانية). وحين تشابكت الكفان عرفت أنه فهم؛ لأنه رفع بصره وقال: -الله- ثم قبلني (أستطيع أن أشعر بهذه القبلة على خدي إلى الآن كالوشم أو كأنها أصبحت جزءاً من لحمي ودمي)". لم يلتقيا مرة أخرى قط. نقل إردلي وسط حشد من الجنود العثمانيين الغاضبين إلى خندق اتصالات لاستجوابه. بعد ذلك، لكمه جندي عدائي في ذقنه وطرحه أرضاً، ثم انضم لاحقاً إلى حفنة من الأسرى البريطانيين الجرحى. كان زي إردلي العسكري الإنكليزي علامة فظة تذكر معظم الجنود الترك بأنه من العدو الغاشم ("دوشمان"). لكن أيام إردلي في الحرب قد انتهت، وسوف يمضي السنوات الثلاث اللاحقة في مناوبة بين الحبس والأشغال الشاقة باعتباره أسير حرب[27].

بدأت أضرار حرب الخنادق تصيب الغزاة. قتل كثير من الجنود البريطانيين والفرنسيين بنيران العدو أو وقعوا في الأسر، ونقل عدد أكبر من غاليبولي للمعالجة من الجراح أو الأمراض أو صدمة القصف. غصت المرافق الصحية في مودروس ومالطة والإسكندرية بالمصابين، وازداد عدد سفن الركاب التي حولت إلى مستشفيات عائمة لمعالجة المرضى والجرحى. بينما منع الضعف والوهن جراء مرض الزحار كثيراً من أولئك الذين بقوا في الخنادق من القتال، لكن تعذر الاستغناء عن خدماتهم بسبب النقص الحاد أصلاً في جنود الحلفاء على الجبهة. في هذه الأثناء، واصل أنور باشا نشر ألوية جديدة من المجندين العثمانيين من الأناضول والولايات العربية لتعزيز الخطوط العثمانية على شبه جزيرة غاليبولي. ولولا الفرق الخمس الجديدة التي أرسلها كتشنر إلى غاليبولي لكان الغزاة في وضع يائس يتعذر الدفاع عنه. في 3 أغسطس، بدأت الوحدات الأولى من جيش كتشنر الجديد تصل إلى "أنزاك كوف" للمساعدة على شن هجوم جديد لتأمين شبه الجزيرة إلى الأبد.

أمضى القائد العام لحملة المتوسط السير إيان هاملتون أسابيع في صقل الخطط المرسومة لهجوم أغسطس. أدرك أن وضع الحلفاء بالغ الصعوبة في "كيب هيليس" و"أنزاك كوف". وأن الترك يسيطرون على الأراضي المرتفعة التي تهيمن على مواقع الحلفاء، ولم يتمكن المهاجمون من اختراق الخنادق العثمانية للوصول إلى تلك المرتفعات المهمة وراءها. كان البريطانيون بحاجة إلى الانطلاق من إسار المواقع المحتلة منذ الإنزال في 25 أبريل، واختار هاملتون تركيز جهد قواته على شمال شبه جزيرة غاليبولي، عند "أنزاك كوف" و"خليج سوفلا".

كانت خطط هجوم أغسطس بالغة التعقيد. ستبدأ الحملة بهجمات تضليلية تشتت انتباه القوات العثمانية بعيداً عن ميدان المعركة الرئيس. سوف يشن جنود الحلفاء في "هيليس" هجوماً مزيفاً على المواقع العثمانية جنوب كريثيا لمنع أوتو فون ساندرز، القائد العام الألماني للقوات العثمانية في الدردنيل، من إعادة نشر الجنود من الحافة الجنوبية لشبه الجزيرة إلى شاطئ "أنزاك". بينما ستشن الهجمات في "هيليس" دون أي تعزيزات، اعتماداً على الجنود المتمركزين هناك ممن أنهكتهم الحرب. ركز هاملتون ثلاثاً من الفرق الخمس الجديدة التي أرسلها كتشنر على الجبهة الشمالية في غاليبولي. ووجه اثنتين إلى الشواطئ الضعيفة في دفاعاتها عند "خليج سوفلا" إلى الشمال من "أنزاك كوف". أمل بوصول أكبر عدد ممكن من الجنود بأمان إلى الشط عبر إنزالهم في المناطق التي لا يتوقعها العدو. وبهذه الطريقة، طمح إلى إعادة الحركة والدينامية إلى حملة غاليبولي، وذلك بالزحف السريع عبر الأرض المفتوحة لجنود جدد أصحاء وأقوياء لم تحاصرهم الخنادق، بهدف تطويق المواقع العثمانية في المرتفعات المشرفة على "أنزاك كوف"، في المنطقة التي يشير إليها الترك باسم "أنافارتا".

أرسلت فرقة جديدة إلى جبهة شاطئ "أنزاك" للمشاركة في الهجوم متعدد المحاور على سلسلة تلال ساري باير. تهيمن هذه السلسلة، التي تعلمها ثلاث قمم متميزة – "باتلشيب هيل" ("دوز تيبي" بالتركية)، و"تشونوك باير" ("جونكبايري")، و"هيل 917" ("كوجاتشيمين تيبي")- على المشهد المحيط حولها، واعتبرها قادة الحلفاء المدخل إلى الدردنيل. أوجز الميجور النيوزيلندي فريد وايت تفكير المخططين الحربيين في مبدأ: "الاستيلاء على سلسلة التلال يفضي إلى احتلال الممر الضيق"، أو القسم المنيع المحصن

من الدردنيل. "حين يفتح الممر الضيق أمام البحرية، نستولي على القسطنطينية!". فإذا طرد العثمانيون من قمم التلال هذه، يصبح موقفهم بالغ الصعوبة ويتعذر الدفاع عنه، وحين تجتمع فرق "سوفلا" و"أنزاك كوف" معاً وترص الصفوف، يطوق الجيش العثماني الخامس ويجبر على الاستسلام. "وضع الخطة برمتها السير إيان هاملتون ونالت الإعجاب"، كما كتب اللفتنانت (الملازم) الأسترالي أوليفر هوغ في رسالة إلى زوجته جين. وأضاف: "أنجزت هيئة الأركان عملاً ممتازاً واهتمت بأدق التفاصيل. ولم يبق الآن إلا معرفة هل تعادل أساليبنا التكتيكية استراتيجيتنا"[28].

شن البريطانيون يوم 6 أغسطس أول هجوم تضليلي لتشتيت انتباه العدو في "هيليس". هذه هي المعركة التي وقع فيها روبرت إردلي أسيراً. تكررت المذبحة التي شهدها في هجوم مشاة لانكشاير في مختلف قطاعات الجبهة، حين فتك الرماة العثمانيون بالمهاجمين البريطانيين ودمروا صفوفهم. بلغت خسائر البريطانيين في اليوم الأول من العمليات 2.000 إصابة من أصل 3.000 جندي شاركوا في الهجوم، وفي 7 أغسطس فقدوا 1.500 آخرين دون تحقيق أي مكاسب على الأرض. كما كانت خسائر العثمانيين أفدح، حيث بلغت 7.500 بين قتيل وجريح ومفقود في القتال في "هيليس" بين 6 و13 أغسطس. لكن الهجوم التضليلي فشل في تحقيق هدف الحلفاء في تثبيت القوات العثمانية بعيداً عن الجبهة الرئيسة. أصاب ليمان فون ساندرز في تفسير الهجوم في "هيليس" باعتباره مضللاً لتشتيت الانتباه ونشر تعزيزات من الجبهة الجنوبية لمواجهة الهجوم على مسافة أبعد باتجاه الشمال[29].

لم يكن الهجوم التضليلي الثاني حسب الخطة على "لون باين"، إلى الجنوب الشرقي من شاطئ "أنزاك كوف"، أقل كلفة على الطرفين. فقد شن الأستراليون هجوماً ناجحاً بالحراب طردوا به العثمانيين من خنادقهم على خط الجبهة الأمامي في موقع يسميه الترك "كانليسيرت" ("سلسلة التلال الدموية"). اشتبك الجنود الترك والأستراليون بين 6 و10 أغسطس في قتال بالسلاح الأبيض، تذكره العثمانيون باعتباره من أشد المعارك ضراوة وعنفاً في حملة غاليبولي. كما برزت "لون باين" في الذاكرة الأسترالية أيضاً. "من بين تلك المعارك التي خاضها جنودنا في أنزاك، لم يشهدوا سوى قلة قليلة من المعارك التي بزت لون باين في الدموية، بينما كانت

أشدها ضراوة على الإطلاق"، كما كتب الجندي وليام بيلبريدج من سلاح الفرسان. تظهر السجلات التركية نحو 7.500 قتيل وجريح ومفقود. بينما تحدث الأستراليون عن 1.700 إصابة. أما الأراضي التي كسبوها بالهجوم فلا تبرر الخسائر، مع أن الأستراليين تمكنوا هنا على الأقل من تثبيت قوة عثمانية كبيرة لتسهيل الهجمات الرئيسة على مسافة أبعد باتجاه الشمال ضد سلسلة "تلال ساري باير" و"خليج سوفلا"[30].

كانت خسائر الأستراليين في الهجمات التضليلية الثلاثة الأخرى أسوأ بكثير، حيث فشلوا في طرد العثمانيين وتدمير مدافعهم الرشاشة بسبب عدم كفاية القصف المدفعي. أبيد صفان من المهاجمين عن بكرة أبيهم تقريباً في هجوم شنوه في منتصف الليل على الموقع العثماني المعروف باسم "خندق الضباط الألمان". تمكن لواء الفرسان الأسترالي الخفيف (الراجل) من الاستيلاء على ثلاثة خنادق تركية في "سلسلة تلال ديد مان" قبل أن يطرد منها ويتكبد خسائر ثقيلة جراء هجوم عثماني معاكس. لكن الهجوم الأسترالي على "نيك" هو الذي أصبح يرمز إلى القسوة والعنف وإهدار الحياة الغالية عبثاً في غاليبولي. فبعد مشاهدة الموجة الأولى المؤلفة من 150 جندياً تحصدهم نيران المدافع التركية على بعد أمتار من خنادقهم، أطاع الضباط الأستراليون الأوامر طاعة عمياء وأرسلوا موجتين إضافيتين من الجنود إلى حتفهم الأكيد تقريباً. قتل أو جرح 435 من بين الجنود الـ450 الذين حاولوا اجتياح "نيك"، دون أن تلحق بالترك إصابة واحدة. كان ثمنا فادحاً يدفع مقابل تشتيت انتباه العثمانيين عن منطقة الهجوم الرئيسة في "ساري باير"[31].

شنت قوة الفيلق الأسترالي-النيوزيلندي الرئيسة هجومها على القمم الثلاث في "سلسلة ساري باير" تحت جنح الظلام في 6 أغسطس. شقت أربعة طوابير طريقها صعداً عبر الوديان المنحدرة المحيطة بقمتي "هيل 971" و"تشونوك باير" خلال الليل. وبعد يومين من القتال العنيف، فشلت قوة مشتركة من النيوزيلنديين والأستراليين والغوركا والبريطانيين في طرد الترك من قمة "هيل 971"، لكن تمكنت من الاستيلاء على القمة المركزية من السلسلة، "تشونوك باير". مثل ذلك أعظم إنجاز للهجوم، لكن ثبت أن من الصعب صمود الحلفاء هناك. إذ قصف العثمانيون، من قمة "هيل 971" المهيمنة على "تشونوك باير"، الغزاة بالمدفعية

بعنف إلى أن نجحوا في استعادة القمة في هجوم معاكس عنيد صباح 10 أغسطس. وبعد أربعة أيام من القتال، انتظر الجنود الأستراليون والنيوزيلنديون عبثاً الفرج من فرقتين أنزلتا على البر عند "سوفلا"، وتوقعوا أن يرص جنودهما الصفوف معهم.

كان الإنزال في "خليج سوفلا" فرصة مهدورة وفقاً للمعايير كلها. تمكن البريطانيون من إنزال فرقتين -أكثر من عشرين ألف جندي- بخسائر قليلة نسبياً على شاطئ لا يدافع عنه أكثر من 1.500 جندي عثماني. لكن عوامل الفوضى والارتباك والتأخير اجتمعت كلها لتحول الإنزال الناجح إلى هجوم فاشل.

في ليلة 6 أغسطس، نقلت السفن الحربية البريطانية فرقتين من مجندي جيش كتشنر الجديد إلى مواقع حول "خليج سوفلا"، على بعد نحو خمسة أميال إلى الشمال من "أنزاك كوف". جرت عملية إنزال الكتائب على القرن الجنوبي من الخليج بسلاسة، حيث استخدمت مراكب حديثة وقت منصاتها أقدام الجنود من البلل عندما داست على الشط. لكن هؤلاء الجنود الذين أوكلوا بخط الساحل المركزي داخل "خليج سوفلا" واجهوا أخطاراً مجهولة في ليلة ظلماء غاب قمرها. إذ فقدت مراكب إنزال عديدة وجهتها في الحلكة وأبحرت جنوب الموقع المعين نحو جرف صخرية غادرة. وحين رست في المياه الضحلة وعلى الصخور، وجد بعض الجنود أنفسهم في مياه تغمرهم حتى العنق تقريباً، بينما تأخر آخرون ساعات لإعادة تعويم زوارقهم. كان الموقع خاطئاً. ولزيادة الصعوبات، أوقد المدافعون ناراً فضحت ثلاث مدمرات بريطانية راسية وهي تنزل آلافاً من الجنود. انتبهت القيادة العثمانية، وخسر الحلفاء عنصر المفاجأة حتى قبل أن يبدأ الإنزال.

مع شروق الشمس، أمضى الغزاة أولى الساعات الثمينة يحاولون إعادة تجميع صفوفهم بدلاً من الضغط على التلال غير المحصنة المشرفة على سهل "سوفلا". شاركت عدة كتائب في القتال ليلاً وأصيبت بخسائر، مع أن معظم الوحدات احتفظت بكامل قوتها. لكن التأخير في إنزال الجنود على الشط كان يعني تأخر البحرية في إنزال المدفعية والمؤن. ولذلك قرر الضباط البريطانيون الذين لم تتوفر لديهم إلا كميات قليلة من المياه، ولم تدعمهم أي مدافع، تحديد أهدافهم في نطاق تأمين تلك التلال الأقرب إلى موقع الإنزال -وتجاهل الأهداف

الموضوعة حسب خطط هاملتون المبتكرة بكل عناية. لكن الأسوأ أن هؤلاء الضباط منحوا نظراءهم الترك، جراء التأخير غير المقرر، الوقت الكافي لإرسال التعزيزات. أعاد ليمان فون ساندرز نشر وحدات من "هيليس" و"بولير" لمواجهة التهديد في "سوفلا". وعين العقيد المفعم بالحيوية مصطفى كمال قائداً لجبهة أنافارتا، التي هيمنت على "سوفلا" و"أنزاك" معاً.

بعد أربع وعشرين ساعة من النزول على الشط قرر القادة البريطانيون منح رجالهم يوماً للراحة. فقد أنهك المجندون الأغرار في الجيش الجديد بعد ليلة الإنزال التي لم يذوقوا فيها طعم النوم ونهار كامل من القتال. بلغت الخسائر مئة ضابط و1.600 جندي بين قتيل وجريح. ونقص الزاد والماء في الصيف اللاهب. بينما لم تكتمل عملية إنزال قطع المدفعية كلها. رفض الضباط، بعد مقتل هذا العدد الكبير من الجنود في الهجمات المتهورة دون غطاء كاف من المدفعية، التحرك من مواقعهم الآمنة على الشاطئ إلى أن يستعيد جنودهم قوتهم ويمتلكوا الوسائل اللازمة للتعامل مع ما اعتقدوا خطأ أنها مواقع تركية حصينة ومنيعة. وهكذا، لم يقاتل البريطانيون يوم 8 أغسطس، بل أمضوا سحابة النهار في السباحة والاستراحة. والمفارقة أن القادة البريطانيين لو أمروا بالهجوم على الفور لما جابه جنودهم المنهكون فعلاً مقاومة قوية. ومثلما لاحظ ليمان فون ساندرز في مذكراته، فقد منحه التأخير الوقت الذي احتاج إليه لإعادة نشر جنوده من أجل احتواء هذا الغزو الأخير. وسوف يدفع البريطانيون غالياً ثمن يوم الراحة هذا[32].

عندما استؤنفت المعركة في 9 أغسطس، كادت أعداد الجنود الترك تعادل أعداد الغزاة. هيمن العثمانيون على الأراضي المرتفعة؛ ما منحهم أفضلية تكتيكية على المهاجمين. بينما كان جنودهم مقاتلين متمرسين يحاربون على أرضهم، ويواجهون مجندين أغراراً تنقصهم الخبرة والخرائط الموثوقة. "من المؤكد أن خطة سوفلا التي وضعها القائد العام [السير إيان هاملتون] محكوم عليها بالفشل"، كما استنتج التاريخ الرسمي البريطاني للحملة[33].

خاض البريطانيون والعثمانيون معارك ضارية طوال يومي 9 و10 أغسطس، وأصيب كل طرف بخسائر فادحة. في إحدى مراحل المعركة يوم 9 أغسطس، كان القصف المدفعي كثيفاً إلى حد اشتعال الأشجار وتأجج النيران بفعل الرياح ما أدى إلى احتراق الجرحى

البريطانيين والعثمانيين أحياء، بينما عجز رفاقهم عن الوصول إليهم. ومع أن البريطانيين أصيبوا بخسائر أقل في 10 أغسطس، فإنهم لم يحققوا أي تقدم على الأرض. ولم يقتربوا من نجدة الجنود الأستراليين والنيوزيلنديين المحاصرين الذين يقاتلون من أجل "سلسلة ساري باير". بعد أربعة أيام من القتال حول قمة "تشونوك باير"، انسحب البريطانيون إلى خطوطهم الأصلية في "أنزاك كوف"، بعد أن فقدوا 12.000 رجل ولم يعد لديهم قوات احتياطية لمتابعة القتال. وعندما نأخذ بالاعتبار الجبهات الثلاث التي شملها هجوم هاملتون "الاختراقي" للتحرر من حالة الجمود -"هيليس"، "أنزاك"، "سوفلا"- نجد أن خسائر الحلفاء بلغت 25.000 إصابة في أربعة أيام فقط. كما وصل العثمانيون بدورهم إلى نقطة الانهيار لكن تمكنوا من التشبث بمواقعهم على الرغم من الخسائر التي عانوها مثلهم مثل الحلفاء.

مع أن الهجوم المشترك على "سوفلا-أنزاك" فشل منذ 10 أغسطس، فقد أصر الحلفاء على مواصلة القتال. في 12 أغسطس، اختفت وحدة مؤلفة من خمسة عشر ضابطاً و250 جندياً من فوج نورفولك (جندوا جميعاً من الضيعة الملكية في ساندرينغهام) دون أن تترك أثراً، واعتقد أنها حوصرت خلف خطوط العدو وأبيدت عن بكرة أبيها. أخيراً، توقف الهجوم في 15 أغسطس، تاركاً الأراضي المرتفعة في كل واحدة من جبهات غاليبولي الثلاث تحت السيطرة الكاملة للعثمانيين، وجبهة أطول ليدافع عنها الحلفاء العاجزون عن اختراق الدفاعات العثمانية الصامدة[34].

فشل الهجومان في "سوفلا" و"أنزاك" فشلًا ذريعاً، وأصبح موقف الحلفاء في غاليبولي أضعف من ذي قبل. زعم هاملتون أنه خسر 40.000 جندي -بين قتيل وجريح ومريض- منذ 6 أغسطس، لتبقى لديه قوة قتالية قوامها 68.000 رجل للدفاع عن جبهة أكثر طولًا. ومع إضافة "خليج سوفلا" امتدت جبهة الحلفاء الآن مسافة 23.000 ياردة. في 17 أغسطس، طلب هاملتون تعزيزات مقدارها 45.000 رجل لإعادة وحداته المنهكة والمستنزفة إلى كامل قوتها، إضافة إلى 50.000 من الجنود الجدد. لم يكن كتشنر، الذي اعتقد أن الفرق الخمس التي أرسلها إلى غاليبولي يجب أن تكون أكثر من كافية لتأمين النصر، راغباً

في تلبية هذا الطلب الجديد. كتب يرد على هاملتون في 20 أغسطس ليشرح أن "هجوماً كبيراً" يخطط له على الجبهة الغربية، وحذر من تعذر "توجيه تعزيزات مهمة من المسرح الرئيس للعمليات في فرنسا". أجاب هاملتون بأن عليه التخلي عن "أنزاك" أو "سوفلا" إذا لم تصل التعزيزات[35].

* * *

بدأ تأثير خسائر الحلفاء في غاليبولي والفشل في اختراق الدردنيل يظهر في السياسة المتقلبة لدول البلقان -لمصلحة القوى المركزية. تخلت بلغاريا عن حيادها بعد سنة من التردد ووقعت حلفاً حربياً مع ألمانيا والنمسا في سبتمبر 1915. إذ أقنعت الانتصارات الألمانية على روسيا والنجاحات التركية-العثمانية في الدفاع عن المضائق، الحكومة البلغارية بأن القوى المركزية سوف تسود في الحرب العظمى. دخلت بلغاريا الصراع في 15 أكتوبر حين انضمت إلى الحملة النمساوية-الألمانية ضد صربيا.

شكل دخول بلغاريا الحرب كارثة على جهد الحلفاء في الدردنيل كما ثبت. إذ طلبت صربيا واليونان 150.000 جندي لحمايتهما من القوى المركزية. ووجب حشد حملة فرنسية-بريطانية على جناح السرعة لإرسالها إلى سالونيك شمال شرق اليونان، يؤخذ كثير من وحداتها من غاليبولي. وبدلًا من أن يتلقى هاملتون التعزيزات الكبيرة التي طلبها للثبات في موقعه، اضطر إلى القبول بتقليص قواته وذلك مع إرسال فرق بأكملها للخدمة في البلقان.

غيرت النجاحات الساحقة التي حققتها القوى المركزية في صربيا الموقف التركي في غاليبولي. ومع الاستيلاء على مدينة نيس الصربية في 5 نوفمبر، تمكنت ألمانيا والنمسا من تأسيس حلقة اتصال مباشر بالسكك الحديدية بين بلغراد وإسطنبول (مع أن الدمار الذي أصاب الخط أخر الخدمة النظامية حتى يناير 1916). وتمكن حلفاء الامبراطورية العثمانية الأوربيون أخيراً من إرسال ما يريدون من مدافع وذخائر إلى تركيا مباشرة؛ ما أدى إلى تغيير جذري لافت في ميزان القوة في غاليبولي. راقب البريطانيون والفرنسيون التطورات الجديدة بتوجس متفاقم. فسوف تتعرض الآن وحداتهم المستنزفة التي أنهكتها الحرب إلى قصف أكثر انتظاماً وأشد قوة وتأثيراً.

وهكذا، واجهت الحكومة البريطانية بحلول أكتوبر 1915 لحظة حاسمة لاتخاذ القرار في الدردنيل. فقد أضعف فشل هجوم أغسطس موقف الحلفاء في غاليبولي إلى حد خطير. وبسبب الخسائر على الجبهة الغربية وإرسال حملة أخرى إلى سالونيك، لم يعد يتوفر جنود لحملة غاليبولي. استمر القصف والقنص في إلحاق الخسائر في صفوف الحلفاء بانتظام، بينما أنهك انتشار الأمراض أولئك الذين بقوا للدفاع عن الخنادق. في هذه الأثناء، واصل الترك تعزيز مواقعهم بمدفعية جديدة قوية وجنود جدد من الأناضول. وبعد أشهر من الخسائر الرهيبة، واجه البريطانيون والفرنسيون احتمالاً جدياً بهزيمة ساحقة شاملة. بدا وقف نزيف الخسائر عبر عملية إجلاء ناجحة أفضل من خسارة كل شيء عبر محاولة التشبث بموقف يائس يتعذر الدفاع عنه.

نقل اللورد كتشنر فكرة الإخلاء إلى السير إيان هاملتون أول مرة في برقية أرسلها في 11 أكتوبر. "ما هو تقديرك للخسائر المحتملة التي تفرض على قواتك إذا تقرر إخلاء شبه جزيرة غاليبولي ونفذ بأكثر الأساليب حرصاً وعناية؟". أصاب الذعر هاملتون. "إذا فعلوا ذلك، يحولون الدردنيل إلى أشد مآسي العالم دموية"، كما أسر إلى ضباطه. فبينما يمكن خروج الوحدات الأولى من الجنود دون أن يلاحظها العدو، سيكون من المستحيل إخفاء عملية الجلاء الكلي عن المراقبين الأتراك، فيجتاح العثمانيون الصفوف المستنزفة على الشط ويطوقونها، كما خشي هاملتون. عرض تقديره الشخصي في رسالة جوابية إلى كتشنر: سوف تراوح نسبة الخسائر بين 35 و45 في المئة، وأضاف تقديرات هيئة الأركان التي وصلت إلى خمسين في المئة[36].

وعلى الرغم من تقديرات هاملتون المتشائمة، أخذت لجنة الدردنيل (اللجنة الحكومية البريطانية الفرعية التي تشرف على أداء حملة غاليبولي) تعتبر الجلاء أمراً محتوماً باطراد. لكن بعد الإخفاقات المتكررة لحملة غاليبولي، لم يضع الأعضاء ثقتهم بالسير إيان هاملتون للإشراف على عملية الإخلاء. أعفي القائد العام لحملة المتوسط من منصبه في 16 أكتوبر، وعين الجنرال السير تشارلز مونرو محله. ظل بعضهم يؤيد متابعة الحملة -ولا سيما كتشنر- حيث قدموا الحجة على أن غاليبولي ما زالت تعرض، نظراً إلى تصلب الخطوط على الجبهة الغربية، أفضل فرصة للانتصار على القوى المركزية، وأن الفشل في تأمين المضائق سيخاطر بترك روسيا معزولة وفي مواجهة هزيمة مؤكدة. لكن حتى المدافعون عن استراتيجية غاليبولي

اعترفوا بضرورة تأجيل أي هجوم جديد إلى ما بعد مرور عواصف الشتاء. ولم يعرف أحد هل يستطيع الحلفاء التشبث بمواقعهم أمام الهجمات العثمانية القوية والعنيدة طوال الفصل البارد. سوف يتطلب الاحتفاظ بهذه المواقع استثماراً كبيراً في الرجال والمعدات -موارد تحتاج إليها جبهات أخرى حاجة ماسة. كان من الضروري أن يتخذ القادة قراراً، وفي أقرب وقت.

حين وصل السير تشارلز مونرو إلى غاليبولي مع نهاية أكتوبر، صدم بما شاهده في قطاعات الحلفاء الثلاثة. "مثل أليس في بلاد العجائب، بل أشد إثارة للعجب"، كما علق أمام أحد ضباط الأركان. سأل القادة المحليين في "هيليس"، و"أنزاك"، و"سوفلا" هل يعتقدون أن رجالهم يستطيعون الاحتفاظ بمواقعهم أمام التعزيزات التركية مع المدافع الألمانية الثقيلة. أقصى ما وعد به قادة الفرق أن الرجال سيبذلون قصارى جهدهم. كان ذلك كافياً لإقناع مونرو بأن الجلاء عن غاليبولي هو الحل الوحيد، لكنه احتاج إلى إقناع كتشنر. وحين ذكر ما اكتشفه في تقريره إلى "وايتهول"، قررت لجنة الدردنيل إرسال كتشنر لتقييم الوضع بنفسه[37].

أبحر كتشنر من فرنسا إلى غاليبولي مصمماً على تجنب الانسحاب مهما كان الثمن. ندم لعدم إرسال مزيد من الجنود في وقت مبكر من الحملة، وبقي مقتنعاً بأن تحقيق اختراق مهم احتمال أكبر في الشرق مقارنة بالجبهة الغربية. لكن حين وصل إلى مقر قيادة حملة المتوسط في مودروس، وجد نفسه محاطاً بمؤيدي الإخلاء. تطلب الأمر زيارة إلى المواقع الأمامية على الجبهة في شبه جزيرة غاليبولي لإقناع وزير الحربية بحتمية الإخلاء.

في 13 نوفمبر، زار المحرك الرئيس لحملة غاليبولي أخيراً الجبهة التي أرسل إليها هذه الأعداد الكبيرة من البريطانيين والفرنسيين وجنود المستعمرات. وإذا شعر الجنود نحو كتشنر بالضغينة، فإنهم لم يظهروها، بل استقبلوه بالهتاف والترحاب في كل محطة توقف فيها. قام بزيارة سريعة إلى مقرات القيادة في "هيليس" واختلط مع الجنود الفرنسيين في سد البحر. تريض على شاطئ "أنزاك"، وتسلق التلال الشاهقة حتى "رسل توب"، كما زار خنادق الجبهة الأمامية في "نيك"، حيث أرسل كثير من جنود كتيبة الفرسان الأسترالية الخفيفة إلى حتفهم عبثاً. ومن قمة تل في "خليج سوفلا"، نظر كتشنر عبر "سالت ليك" نحو "سلسلة ساري باير" -إلى القمتين المراوغتين "كوجاتشيمين تيبي" و"تشونوك باير"، حيث حقق النيوزيلنديون ما زعم كثيرون أنه أعظم انتصار في حملة غاليبولي برمتها، وإن لم يعمر

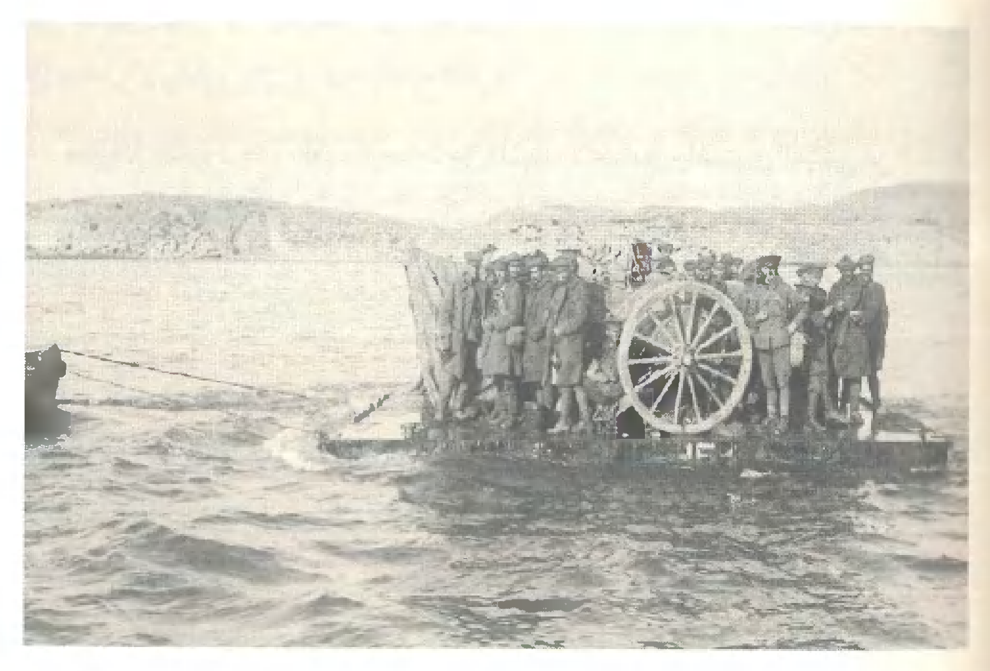
طويلاً. شاهد غاليبولي، وفهم: "التضاريس أكثر صعوبة بكثير مما تصورت"، كما كتب لاحقاً إلى لجنة الدردنيل. وأضاف: "المواقع التركية.. حصون طبيعية يمكن أن تصمد، إذا لم تؤخذ بغتةً في البداية، أمام هجمات خطيرة تشنها قوات أكبر حجماً من التي شاركت". كان اجتياح المواقع العثمانية في غاليبولي يتطلب عدداً من الجنود يتجاوز قدرة البريطانيين على حشدهم، ولذلك وجب عليهم الرحيل[38].

* * *

بدا الإخلاء أسهل في القول منه بالفعل. عصفت رياح أواخر الخريف بمواقع الحلفاء وأحدثت فيها فوضى وخراباً. اكتسحت الريح كثيراً من أرصفة الإنزال المؤقتة التي نصبت في "هيليس" و"أنزاك" و"سوفلا". بينما جنحت المدمرة البريطانية (HMS *Louis*) على الشاطئ وتحطمت في "خليج سوفلا". ثم غمرت أمطار نوفمبر الخنادق، فزادت بؤس جنود الطرفين المتحاربين وشقاءهم. وسيكون من المستحيل تحميل الرجال والحيوانات والمدافع على السفن إذا لم يتحسن الجو.

أقلق قادة الحلفاء على وجه الخصوص الحفاظ على سرية خططهم للإخلاء الوشيك. فإذا علم العثمانيون أو حلفاؤهم الألمان بالانسحاب، كما خشي هؤلاء القادة، فسوف يشنون هجوماً مدمراً على القوات المنسحبة. بينما عرض الجدل المرير المحتدم في البرلمان الإنكليزي في لندن مهمتهم للخطر، حيث طالب الأعضاء ببيان واضح من الحكومة: هل يتم إجلاء القوات عن غاليبولي أم لا؟ ظهرت هذه النقاشات التي نقلتها الصحافة البريطانية في الصحف التركية أيضاً. هتف ملازم شاب أمام محمد فصيح يوم 19 نوفمبر: "الأعداء يهربون! يستسلمون، ويتخلون عن حملة غاليبولي". شكك محمد فصيح في البداية لكنه أخذ يصدق تدريجياً تقارير الصحف العثمانية التي ذكرت أن المناقشات في البرلمان البريطاني تنبئ بـ"انسحاب الإنكليز في نهاية المطاف من شناق قلعة". لكن رؤساءه العثمانيين والألمان استبعدوا التقارير البريطانية باعتبارها جزءاً من حملة إعلامية مضللة للتغطية على هجوم جديد على الدردنيل. ومع ذلك، فإن النقاش المفتوح حول المناورات العسكرية بالغة السرية جعل القادة البريطانيين أشد قلقاً من أخطار الإخلاء[39].

مع أن نهاية الحملة لاحت في الأفق، واصل الجيشان تبادل القصف على الخنادق؛ ما أوقع في الطرفين سيلاً دافقاً ومستمراً من الضحايا. كانت الأوضاع مزرية، والروح المعنوية متدهورة لدى الجنود على جانبي الجبهة. وصلت الأمور إلى الدرك الأسفل في نهاية نوفمبر، حين هبت ريح باردة قوية استمرت ثلاثة أيام على الخنادق المغمورة بالمياه، قبل أن تتحول إلى عاصفة جليدية أصابت الجنود المعرضين للعوامل الجوية بعضة الصقيع. في الواقع، غرق الأتراك والبريطانيون في طوفان غامر اكتسح الخنادق في "سوفلا". لكن الترك شعروا بالسلوان نتيجة التيار الثابت والدافق من الأسلحة الثقيلة وقذائف المدفعية من النمسا وألمانيا. في 9 نوفمبر، أشار الملازم محمد فصيح في يومياته إلى "أخبار سارة" تؤكد أن "ثلاثمئة عربة قطار" محملة بالمدافع والذخيرة من ألمانيا وصلت إلى الأراضي العثمانية. "بدلاً من 22 ساعة، سوف نتمكن من قصف [العدو] على مدى 70 ساعة"، كما كتب. أعطى تفاوت القوة النارية المتعاظم الحلفاء دافعاً قوياً لتسريع انسحابهم من ميدان المعركة الخاسرة[40].



إجلاء المدافع والجنود عن سوفلا، ديسمبر 1915. تعرض الجنود البريطانيون عند الانسحاب من غاليبولي للخطر الداهم ذاته الذي أحدق بهم عند نزولهم على شبه الجزيرة.

صحا الجو وسكنت الريح على مدى ثلاثة أسابيع في غاليبولي، بعد العواصف العنيفة التي هبت في أواخر نوفمبر. في 7 ديسمبر، اتخذت الحكومة البريطانية قراراً نهائياً بإخلاء شاطئي "سوفلا" و"أنزاك" بأسرع وقت ممكن، لكن مع الاحتفاظ بمواقع الحلفاء في "كيب هيليس" مؤقتاً. بدأت عمليات الإخلاء على الفور تقريباً. في 9 ديسمبر، احتشد في "سوفلا" و"أنزاك" 77.000 جندي من بريطانيا والمستعمرات. وفي مدة 11 يوماً، سوف تنسحب جميع القوات البريطانية المتمركزة على الشاطئين الشماليين.

اتخذ قادة الحلفاء عدداً من الإجراءات لإخفاء عملية الإخلاء عن الترك. إذ يجب نقل جميع الجنود وقطع المدفعية من الشط إلى السفن بعد حلول الظلام. وفرت ليالي ديسمبر الطويلة غطاء استمر نحو اثنتي عشرة ساعة. في النهار، واصلت طائرات الخدمات الجوية التابعة للبحرية الملكية دورياتها الجوية فوق "أنزاك" و"سوفلا" لإبعاد طائرات العدو. في منتصف ديسمبر، شاهد محمد فصيح أربع طائرات تابعة للحلفاء تعترض طائرة ألمانية لمنعها من التحليق فوق "أنزاك كوف". بهذه الطريقة، تمكن الحلفاء من نقل أطنان من المواد الحربية الثمينة من شواطئ غاليبولي قبل إجلاء الجنود[41].

فعل البريطانيون ما بوسعهم للحفاظ على المشهد الاعتيادي والمستوى القياسي من النشاط على الشواطئ، إضافة إلى التحكم بعدد السفن الآتية والمغادرة. وعملوا على تنويع مستوى القصف من الخنادق، حيث تبع دوي القصف المكثف فترات طويلة من الصمت الشامل تقريباً؛ وذلك لإرباك العثمانيين وتشويشهم وإثارة تساؤلاتهم. نجحت الاستراتيجية. لاحظ محمد فصيح في يومياته أن "الصمت الشامل خيم على خطوط الجبهة" فجر الرابع والعشرين من نوفمبر. وعندما حل الظلام أذهلته الحيرة والدهشة. "الجبهة هادئة. يطلق المشاة الرصاص بين الحين والآخر. لكن ليس القنابل اليدوية". في اليوم اللاحق، توترت أعصاب الضباط والجنود، الذين أربكهم التحفظ المتواصل من جانب الحلفاء. سجل محمد فصيح في يومياته بتاريخ 25 نوفمبر: "شعر رجالنا، ولا سيما قدامى المحاربين، بالقلق. حاولوا استفزاز العدو عبر المخاطرة المتعمدة عند إطلاق النار على مواقعه. لكنه لم يرد". أرسل العثمانيون الذي أتعبهم القلق والتوتر دوريات للتجسس على البريطانيين واستمروا في

إطلاق النار على خنادق العدو في محاولة لاستفزازه وإجباره على الرد. فجأة، في 28 نوفمبر، بعد أربعة أيام من الهدوء، فتح البريطانيون نيران مدافعهم على المواقع العثمانية. كتب محمد فصيح يقول: "أثر هذا النشاط المفاجئ تأثيراً سيئاً في نفسي. إذ إن حضور ما اعتقدنا أنه غاب وانتهى لا يعد شيئاً تطمح إليه النفس!". ووفقاً ليوميات محمد فصيح الدقيقة، يبدو أن الترك، الذين حيرتهم تصرفات الحلفاء غير المتوقعة، لم يشتبهوا بعملية إخلاء تجري على قدم وساق، بل اعتقدوا أن البريطانيين على وشك البدء بهجوم جديد[42].

جرت المرحلة النهائية من إخلاء "أنزاك" و"سوفلا" على مدى ليلتين واستكملت في الساعات المبكرة من يوم 20 ديسمبر. ومع أن الحلفاء توقعوا سقوط 25.000 ضحية، فقد أجلي آخر جندي دون مقتل أحد. نفذت خطة الانسحاب بشكل منظم ومدروس، حيث تمركز متطوعون في الخنادق الأمامية، وأطلقوا الرصاص بين الحين والآخر على الخطوط العثمانية للتظاهر بأن الحالة عادية. علمت سبل النجاة بالطحين الأبيض على تراب غاليبولي الداكن لضمان عثور آخر جندي على طريقه إلى الشط في العتمة. وحين ركب آخر جندي السفن بأمان، فتحت مدمرات الحلفاء النار على المدافع والذخائر التي تركها الجنود خلفهم، لتحدث انفجارات ضخمة. رد الترك بإطلاق نيران مدافعهم على الخنادق والشواطئ الخالية، فأثاروا سخرية الغزاة المنسحبين وزادوا شعورهم بالرضا والارتياح.

صدر القرار النهائي بالجلاء عن "هيليس" بعد وقت قصير من نجاح إخلاء "أنزاك" و"سوفلا". في 24 ديسمبر، أعطيت الأوامر بالانسحاب من الحافة الجنوبية لشبه جزيرة غاليبولي. صعب المهمة النجاح الذي تحقق في العملية السابقة. كان العثمانيون في حالة تأهب لاستقبال أي علامة على التراجع، وأمر ليمان فون ساندرز بشن هجوم كامل في حالة الجلاء عن "هيليس". لكن استطاع البريطانيون والفرنسيون تنسيق عملية انسحاب كامل لجنودهم خلال ليلتين، ونجحوا في إخراج آخر جندي من "هيليس بوينت" في الساعة 3:45 فجر التاسع من يناير 1916.

حين بزغ الفجر بعد عمليتي الانسحاب، ذهل جنود الدوريات التركية حين اكتشفوا أن العدو أخلى مواقعه كلها. ترك الأستراليون والنيوزيلنديون المنسحبون بعض المفاجآت

البشعة والغادرة وراءهم. كتب أحد رماة المدافع الرشاشة النيوزيلنديين إلى الوطن: "جرى توصيل أجهزة، يعمل بعضها بالشموع، وغيرها بعلب المياه، بالبنادق القديمة والمكسورة بحيث تطلق النار بعد ساعات من مغادرة آخر رجل للخنادق. كما زرعت في جميع الأماكن قنابل تنفجر عند تحرير نابض متصل بها. ولا بد أن تلحق إصابات بأول جماعة من الترك سوف تأتي". وهذا ما حدث. انفجر عدد من القنابل المخبأة برجال إبراهيم أريكان حين أرادوا استعادة الخنادق الخالية. "أصبنا بخسائر عديدة"، كما قال آسفاً[43].

ترك الغزاة المنسحبون كميات ضخمة من المؤن وفرت غنيمة ثمينة للجنود العثمانيين الذين أضناهم الجوع والبرد. ذهل الرجال الذين نزعوا ثياب الموتى لتدفئة أجسادهم بها، حين عثروا على آلاف السترة والسراويل والمعاطف مكدسة في أكوام على الشواطئ. سار إبراهيم أريكان بين الخيام البريطانية المهجورة متعجباً من كميات المؤن التي خلفها الغزاة وراءهم. بدت إحداها "مثل السوق، متخمة بقوالب الآجر، وعلب التنك، والأطباق، والدراجات الهوائية والنارية، والشوك، والملاعق..". وشاهد على الشط "أكواماً بارتفاع المباني السكنية من المؤن والأطعمة والملابس. كانت تكفي لتلبية احتياجات فيلق عسكري مدة عام كامل". دخل حقي سوناتا ورجاله إحدى الخيام المهجورة، واستمتعوا بوجبة لذيذة من المربى والجبن والزيت والحليب البريطاني[44].

ارتفعت الروح المعنوية للرجال في وحدة أمين تشول في الصباح اللاحق على الانسحاب البريطاني. وضع أحدهم، الذي اشتهر بدعاباته الهزلية، قبعة بريطانية على رأس رفيقه وتظاهر باستجوابه.

"جوني، لماذا تخلفت عن زملائك؟".

طلب "البريطاني" الذي تقمص الشخصية من أحد الرفاق أن يكون "مترجمه".

أجاب: "غلبني النعاس". هتفت الجموع في مرح صاخب.

سأل "التركي": "ماذا فعلتم عندما بدأنا نقصفكم بمدفعيتنا الثقيلة الجديدة؟".

رد "البريطاني" بدفن رأسه بين ركبتيه. ثم رفعه وأجاب بأسلوب غامض: "لو استمرت هذه المدافع في القصف يوماً أو يومين لما كنا نحن الذين هربنا من هنا".

ضغط عليه المحقق التركي: "من كان سيهرب إذاً؟".

"أرواحنا". انهار جميع الجنود المتجمهرين بفعل حالة من الضحك الهستيري، ولم يصدقوا أنهم نجوا من مذبحة الحرب وانتصروا[45].

في الساعة 8:45 من صباح 9 يناير، كتب ليمان فون ساندرز رسالة انتصارية إلى وزير الحربية العثماني أنور باشا يبلغه فيها بأن "شبه جزيرة غاليبولي برمتها طهرت من الأعداء والحمد لله".

❊ ❊ ❊

استمرت الحملة البرية في غاليبولي 259 يوماً: بين الإنزال يوم 25 أبريل 1915، والجلاء الأخير عن "هيليس" في 9 يناير 1916. تضخمت قوة الغزو التي أمل اللورد كتشنر بإبقائها ضمن حدود 75.000 جندي لتبلغ نحو نصف مليون عند اقتراب نهاية الحملة -410 آلاف بريطاني، و79.000 فرنسي. بينما وصل العدد الأقصى للجيش التركي في غاليبولي إلى 310.000 (جرح كثير منهم مرة أو أكثر وعادوا إلى الخدمة).

من بين نحو 800.000 رجل حاربوا في غاليبولي، سقط في النزاع أكثر من 500.000 بين قتيل وجريح وأسير. تقاسم المدافعون والمهاجمون أعداد الضحايا بالتساوي أثناء الصراع الذي استمر ثمانية أشهر ونصف الشهر للسيطرة على الدردنيل: 205.000 من البريطانيين ودول الكومنويلث، و47.000 من الفرنسيين وجنود المستعمرات، وبين 250.000 و290.000 عثماني. قتل نحو 140.000 رجل في غاليبولي: 86.500 من الجنود الأتراك، 42.000 من البريطانيين ودول الكومنويلث، و14.000 من الفرنسيين وجنود المستعمرات[46].

أرهقت هذه الخسائر كاهل البريطانيين الذين هزموا في غاليبولي شر هزيمة. كانت الحملة استنزافاً ضخماً للرجال والموارد بينما الحرب الشاملة تجري على الجبهة الرئيسة في فرنسا. لن يستولي الحلفاء على إسطنبول، ولن ينهار حليف ألمانيا العثماني، ولن يفتح ممر البحر الأسود

الذي يربط روسيا بحلفائها من دول الوفاق. وبدلًا من التعجيل بنهاية الحرب العظمى، أدت غاليبولي إلى إطالة أمدها فعلياً. أصبح التحالف التركي-الألماني أقوى من ذي قبل. وسهلت الاتصالات المباشرة عبر السكك الحديدية تدفق الرجال والأموال والأسلحة بينهما. وتفاقمت خشية المخططين الحربيين في دول الوفاق من تأثير الجهاد في مسلمي المستعمرات في أعقاب الانتصار العثماني المتألق. كان العثمانيون عدواً وجب على البريطانيين حشد مزيد من الجيوش لهزيمته -فوراً وعلى جناح السرعة في بلاد الرافدين.

فيما يتعلق بالترك، عوض نصر تاريخي عن الخسائر في غاليبولي. وتمكن الجيش العثماني بعد الدفاع عن المضائق أمام الحلفاء من إنقاذ سمعته التي تلطخت في حربي البلقان (1912 و1913)، وسلسلة الهزائم التي لحقت به مع بداية الحرب في البصرة وساريكاميش وقناة السويس. أثبت النصر في غاليبولي أن الترك قادرون على القتال والفوز في الحرب الحديثة ضد أعظم قوى العصر. فضلًا عن ذلك كله، خرج من غاليبولي جيل جديد من القادة المقاتلين الذين سيتابعون قيادة العثمانيين إلى انتصارات جديدة على البريطانيين.

ترك الجنود البريطانيون والأستراليون والنيوزيلنديون أثناء الانسحاب من خنادقهم ملاحظات للعثمانيين يعدونهم فيها باللقاء من جديد. صور شاعر حربي أسترالي ما أحس به رفاقه من احترام وحسد للترك:

أحسب أن الترك يحترموننا، مثلما نحترمهم؛

نعلم أن عبدول الذي حاربناه مقاتل شجاع نزيه

تركنا له خلفنا رسالة نعلمه بأننا وجدناه كذلك

لن نقول بالضبط وداعاً، بل إلى اللقاء!

سوف نلتقي في مكان ما مجدداً، قبل نهاية الحرب!

لكن آمل أن يكون المكان أرحب، مع مساحة أكبر على الخريطة،

وأن يشاهد رجال الجو فوق ساحة المعركة ذلك اليوم شجاراً بيننا![47]

وعد الرجال وأوفوا بوعدهم. سوف يتواجه كثير من الجنود البريطانيين والعثمانيين الذين تقاتلوا في غاليبولي، مرة أخرى في فلسطين قبل نهاية الحرب.

9

غزو بلاد الرافدين

حرر النصر في غاليبولي آلافاً من الجنود العثمانيين للخدمة في جبهات أخرى حاسمة الأهمية. ومع تأمين عاصمة السلطنة، أمكن لأنور باشا أخيراً تلبية مطالب ضباطه الميدانيين الملحة وإرسال التعزيزات إليهم. تلقى الجيش العثماني المدمر في القوقاز سبع فرق مشاة لمواجهة التهديد الروسي. وأرسلت أربع فرق إلى المشرق لإعادة الجيش الرابع إلى قوته الكاملة بعدما استنزفت الخدمة في غاليبولي قوات جمال باشا في سوريا وفلسطين. في بلاد الرافدين، حشد العثمانيون في الميدان جنوداً افتقروا إلى التدريب والمؤن والمعدات لمواجهة القوة الإنكليزية-الهندية الساحقة. وكان من المأمول أن يؤدي نقل فرقتين من الجنود المتمرسين والمتميزين بالانضباط والخبرة من غاليبولي إلى بغداد إلى تغيير ميزان القوة في بلاد الرافدين لمصلحة العثمانيين[1].

تدهور الموقف العثماني في الرافدين إلى حد مقلق في أعقاب هزيمة سليمان العسكري في الشعيبة (أبريل 1915). فاقمت المعدلات المرتفعة لفرار المجندين العراقيين الإصابات والخسائر الفادحة في ميدان المعركة، ما ترك القوات العثمانية في حالة من الضعف الشديد والمزمن. لم يكن أمام القادة العثمانيين في الرافدين من خيار سوى الانتقال من بلدة إلى بلدة لاعتقال الفارين وتهديدهم بالعقوبة التأديبية. وما راودت الضباط الأتراك، الذين اعتبروا المجندين العرب غير جديرين بالثقة في أفضل الأحوال، أي أوهام عن القيمة العسكرية

للفارين الذين يعاد تجنيدهم بالقوة. لكنهم فوجئوا بضراوة المقاومة التي أبداها هؤلاء أمام فرق التجنيد التي أرسلت لاستعادتهم إلى خدمة المجهود الحربي العثماني[2].

انتفضت بلدات وقرى الفرات الأوسط بدءاً من مايو 1915، وامتدت الثورات في آخر سنتين من الحكم العثماني إلى جنوب العراق. اندلعت الثورة الأولى في مدينة النجف، محج المسلمين الشيعة وملاذ مئات الفارين العراقيين الذين وجدوا ملجأ بين عتبات المدينة المقدسة. تفاقم سخط الطائفة الشيعية في العراق على الحكام العثمانيين السُّنّة، واستاءت من جرها إلى حرب عالمية أوقعت الفوضى والاضطراب في أسلوب حياتها باطراد. بينما دفع تضييق الخناق على الفارين الوضع إلى نقطة الأزمة، وتحول الاستياء إلى ثورة حين أرسل والي بغداد العثماني قوة كبيرة إلى النجف بقيادة ضابط عراقي اسمه عزت بك لاعتقال الفارين المختبئين في أحياء المدينة القديمة.

أعلن القائد العثماني عفواً عن جميع الفارين من الخدمة الذين يسلمون أنفسهم في مدة ثلاثة أيام. ونظراً إلى أن عقوبة الفرار من الخدمة هي الإعدام، كان لدى عزت بك سبب وجيه يدعوه إلى الأمل بأن يستغل العراقيون المهلة ويعودوا إلى الخدمة العسكرية طوعاً. لكن معظم الفارين غادروا النجف قبل وصوله، ولم يبق منهم لتسليم أنفسهم سوى قلة قليلة.

بعد ثلاثة أيام، قرر القائد العثماني إرسال جنوده لإجراء عملية تفتيش من بيت إلى بيت. تعدى الجنود العثمانيون على حرمة نساء النجف المحافظات حين أجبروهن على كشف النقاب للتأكد من أنهن لسن رجالاً يختبؤون خلف زي النساء. احتج الأهالي على هذا الاعتداء على شرف نسائهم وانتظروا اللحظة المناسبة لأخذ الثأر[3].

في ليلة 22 مايو 1915، نزلت عصبة متحمسة من الفارين إلى النجف وحاصرت المباني الحكومية وثكنات الجيش. ناصر الأهالي المتمردين، والتقى الفارون القادمون من الأرياف في البلدة لمواجهة العثمانيين ومنعهم من فرض الحرب العالمية على شعب العراق الرافض لها. استعرت المعركة طوال ثلاثة أيام، دمر خلالها المتمردون بشكل منهجي المكاتب والسجلات الحكومية. قطعت جميع الاتصالات بين النجف والمراكز الإدارية الأخرى، بينما خرب رجال

العشائر في الأرياف المحيطة الخطوط الهاتفية واقتلعوا أعمدة البرق. ومع محاصرة الجنود والمسؤولين العثمانيين الناجين في حفنة من المباني الحكومية، أرسل زعماء الأحياء إلى شوارع النجف منادين يدعون التجار إلى فتح متاجرهم واستئناف أعمالهم كالمعتاد.

انتبه الوالي في بغداد إلى الخطر المحدق، فأرسل وفداً للتشاور مع أهالي النجف. وعند الاجتماع مع زعماء البلدة، ذكر المبعوثون العثمانيون النجفيين بأن السلطنة العثمانية تواجه "حرب بقاء أو فناء" ضد الغزاة الكفار، وأن الواجب الديني يفرض على المسلم المساعدة في هذا الكفاح. حمّل النجفيون من جانبهم العثمانيين المسؤولية الكاملة عن الوضع، ورفضوا بعناد طلبات الوفد كلها. في النهاية، تراجع العثمانيون واكتفوا بالتفاوض على انسحاب آمن لجنودهم ومسؤوليهم المحاصرين من النجف، وتعيين إدارة شكلية للحفاظ على الحكم العثماني الاسمي للمدينة المقدسة. لكن شعب النجف تولى الإدارة بنفسه، وكسبت البلدة درجة عالية من الاستقلالية عن الحكم العثماني.

شجّع نموذج النجف عدة بلدات مهمة أخرى في منطقة الفرات الأوسط على التمرد ضد العثمانيين صيف عام 1915. وتحولت الانتفاضة بالنسبة إلى سكان كربلاء، البلدة المقدسة الأخرى عند الشيعة، إلى قضية تتعلق بالاعتزاز بمدينتهم. تساءلوا بأسلوب بلاغي منمق: "هل شعب النجف أفضل منا وأكثر شجاعة ورجولة؟". مرة أخرى، انتفضت جماعة من الفارين من الخدمة في 27 يونيو، وأحرقوا مباني البلدية، والمدارس، وحتى المستشفى في كربلاء. أتت النيران على مئتي منزل في أحد أحياء البلدة الجديدة؛ ما دفع السكان ومعظمهم من الإيرانيين إلى اللجوء إلى الأحياء القديمة. تقاتل المتمردون ورجال العشائر القريبة فيما بينهم على توزيع الغنائم المنهوبة واجتاحت الفوضى كربلاء. وأجبر العثمانيون مجدداً على التفاوض لتسليم الحكم بأسلوب منظم إلى الإدارة المحلية[4].

خاض العثمانيون قتالاً يائساً في بلدة الحلة، لكنهم لم يصمدوا أمام موجات كاسحة من رجال العشائر والمتمردين. في السماوة، نقض وجهاء البلدة عهد الولاء الذي أقسموه على القرآن أمام حاكم المنطقة حين علموا باقتراب القوات البريطانية في أغسطس 1915. انشقت وحدة مؤلفة من تسعين جندياً محلياً بصورة جماعية عن الجيش العثماني، بينما هاجم

الأهالي والبدو الجنود العثمانيين المنتشرين بينهم. جردت سرية كاملة من الفرسان تضم 180 رجلاً من أسلحتها وخيولها وملابسها وطرد الجنود عرايا من البلدة. جرت حوادث مشابهة في الكوفة، والشامية، وطويريج. في النهاية، خسر العثمانيون حوض الفرات ثمناً لمسعاهم العبثي لإجبار الفارين على العودة إلى الخدمة العسكرية الفعلية.

* * *

بينما واجه العثمانيون التمرد الداخلي، واصل البريطانيون تقدمهم دون كلل في بلاد الرافدين. وفي أعقاب النصر في الشعيبة (أبريل 1915)، تلقت قوة الحملة الهندية تعزيزات جديدة من الجنود إضافة إلى قائد جديد: الجنرال السير جون نيكسون. وتبعاً لأوامر بتأمين ولاية البصرة العثمانية برمتها، استعد نيكسون للتقدم على طول نهر دجلة نحو العمارة، الميناء النهري الاستراتيجي[5].

تربض العمارة، التي تضم 10.000 نسمة تقريباً، على بعد نحو تسعين ميلاً شمال البصرة. وبعد عدة أسابيع من الاستعداد والتحضير والتخطيط، أمر نيكسون الفرقة السادسة بقيادة الجنرال تشارلز تاونزند بالتحرك وبدء العمليات القتالية. وفي سبيل خرق الخطوط التركية شمال القرنة، حول تاونزند مئات الزوارق النهرية المحلية الصغيرة إلى ناقلات جند مرتجلة تدعمها قوارب بخارية بريطانية مسلحة بالمدافع والأسلحة الرشاشة. انطلق هذا الأسطول الغريب العجيب الذي أطلق عليه اسم "سباق تاونزند للزوارق"، نحو العمارة فجر 31 مايو. تمكن البريطانيون، بمساعدة القصف المدفعي من السفن الثقيلة، والهجمات الجماعية من الرجال على متن الزوارق المحلية الخفيفة، من اختراق المواقع العثمانية شمال القرنة والتقدم على طول النهر شمالاً (عكس التيار) دون مقاومة تذكر من المدافعين العثمانيين المتقهقرين. وجد الجيش البريطاني المتقدم نفسه يقاتل في مناطق صديقة. إذ رفعت القرى العربية على ضفاف دجلة الأعلام البيضاء لإظهار حسن النوايا تجاه الغزاة الجدد وذلك مع تحول تراجع العثمانيين إلى هزيمة مذلة تحبط المعنويات.

في 3 يونيو، وصلت طلائع أسطول تاونزند إلى ضواحي العمارة، حيث وجدت نحو 3.000 من الجنود الأتراك يحاولون الانسحاب قبل زحف الجيش الإنكليزي-الهندي. أبحر زورق نهري بريطاني على متنه طاقم من ثمانية بحارة ومسلح بمدفع واحد (عيار 12 رطلاً) إلى العمارة دون مقاومة من المدافعين الترك. أدى ظهور المركب المفاجئ والشعار البريطاني الذي يحمله إلى انهيار الروح المعنوية للترك إلى حد أن أحد عشر ضابطاً و250 جندياً استسلموا على الفور، بينما تقهقر أكثر من 2.000 جندي تركي باتجاه الشمال. وصل الجنرال تاونزند بزورق بخاري في وقت لاحق من أصيل ذلك اليوم ورفع العلم البريطاني على مبنى الجمارك، وأعلن النصر في العمارة حتى قبل أن تصل الكتلة الرئيسة المؤلفة من 15.000 جندي إلى البلدة. ومن المؤكد أن استسلام مئات الجنود الترك والعرب لطليعة متقدمة يمكنهم بسهولة مغالبتها عبّر عن انهيار الروح المعنوية للعثمانيين[6].

خطط نيكسون، في أعقاب سقوط العمارة، للتقدم على طول الفرات واحتلال الناصرية ومن ثم استكمال الغزو البريطاني لولاية البصرة. الناصرية بلدة حديثة أنشئت في سبعينيات القرن التاسع عشر لتكون مركزاً تجارياً لاتحاد قبائل المنتفق القوية؛ وعلى غرار العمارة يبلغ عدد سكانها 10.000 نسمة. أمل نيكسون بكسب العشائر البدوية القوية في منطقة الفرات إلى صفه عبر إلحاق هزيمة بالترك، واعتقد أن العثمانيين يشكلون خطراً داهماً وواضحاً وحاضراً للجنود البريطانيين في القرنة والبصرة طالما بقيت حاميتهم في الناصرية. بدأت قوات نيكسون، بقيادة الجنرال جورج غورينج، زحفها على الناصرية في 27 يونيو.

تبين أن الفرات الأدنى أصعب على الملاحة بكثير من دجلة. في الحالة النمطية، ينحسر عمق النهر في أشهر الصيف من خمس أقدام (في يونيو) إلى ثلاث (في منتصف يوليو)، ويصبح عبوره مستحيلاً بحلول أغسطس. ومن أجل تأمين سفن بغاطس ملائم للمياه الضحلة، اضطر البريطانيون لإعادة تأهيل عدة سفن بخارية عتيقة لنقل جنودهم عكس التيار باتجاه الناصرية (استخدمت إحداها، (The *Shushan*)، لنجدة الجنرال غوردون في الخرطوم عام 1885). واجهت هذه السفن البخارية العتيقة صعوبات جمّة في عبور سلسلة

من المستنقعات تخترقها قنوات دون علامات إرشادية وتنخفض مياهها باطراد يبعث على القلق أسبوعاً بعد أسبوع.

وعلى الرغم من اندلاع الثورة في النجف وكربلاء، دافع العثمانيون عن مواقعهم بحماسة وعناد أمام البريطانيين في الفرات الأدنى. ومع تمركز نحو 4.200 من الجنود الأتراك يساعدهم رجال العشائر في مواقع محصنة خارج الناصرية، تفوقوا في البداية (عددياً) على الغزاة. لم يكن غورينج راغباً في مواجهة عدو يفوقه عدداً، ولذلك طلب تعزيزات وتشبث بموقعه حتى الأسبوع الثالث من يوليو، حين وصلت قواته إلى ذروتها (4.600 من جنود المشاة). أخر انحسار مياه النهر، وإغلاق أجزاء منه أمام الملاحة بحلول أواخر يوليو، إرسال وحدات إضافية من الجنود. ومع استحالة وصول مزيد من التعزيزات عبر النهر، اضطر غورينج إلى الاكتفاء بما لديه من قوات.

شن البريطانيون هجمات تمهيدية على المواقع العثمانية خارج الناصرية منذ أوائل يوليو. كان علي جودت، من أهالي مدينة الموصل شمال العراق، جندياً عثمانياً محترفاً شارك في مقاومة الجيش البريطاني الزاحف. درس جودت في الكلية الحربية في بغداد والأكاديمية العسكرية الحربية المرموقة في إسطنبول قبل أن يتولى مهماته في الجيش العثماني. لكن على الرغم من تدريبه العسكري فقد اختلطت ولاءاته، إذ زادت خيبة أمله من حكومة الاتحاديين الترك. وعلى غرار عدد من أفراد النخبة المثقفة في الولايات العربية، طمح إلى مزيد من الحكم الذاتي للعرب ضمن إطار السلطنة العثمانية. كان عضواً مؤسساً لجمعية "العهد" السرية التي أنشئت بعد انعقاد المؤتمر العربي في باريس عام 1913. شكلت الجمعية المعادل العسكري للعربية الفتاة، وتمتعت بحضور قوي في العراق على وجه الخصوص، حيث اجتذبت كثيراً من ألمع الضباط الشباب العرب. وعلى غرار العربية الفتاة وحزب اللامركزية، طالبت جمعية "العهد" بالحكم الذاتي للعرب ضمن دولة عثمانية إصلاحية بدلاً من الاستقلال الناجز خوفاً من الهيمنة الاستعمارية الأوروبية. ومع اندلاع الحرب العظمى، شارك جودت في الدفاع عن السلطنة ضد قوى الوفاق بكل حماسة رفاقه الترك وولائهم وإخلاصهم وتصميمهم.

خدم جودت مع سليمان العسكري في معركة الشعيبة عام 1915. وتراجع معه إلى الناصرية، وبعد انتحار سليمان عين قائداً لكتيبة عثمانية بالقرب من البلدة. ساعد العثمانيين شيخ العشائر القوي عجمي السعدون، حيث ملأ رجاله الصفوف العثمانية الهزيلة في مواجهة الغزاة البريطانيين. طلبت العشائر من العثمانيين تزويدها بالذخيرة، وكلف جودت بمهمة تزويد البدو بما يحتاجون إليه للدفاع عن الناصرية.

عندما هاجمت قوات غورينج الخطوط التركية على الفرات، شاهد جودت كيف قيّم المقاتلون البدو الوضع وانقلبوا على العثمانيين. وكيف هاجموا الجنود لسرقة بنادقهم وذخيرتهم. كما رأى جنوده يسقطون قتلى وجرحى تحت القصف البريطاني المكثف. كتب فيما بعد: "حوصر العثمانيون بين نارين، من البدو والبريطانيين". عزل جودت عن الخطوط العثمانية الرئيسة وتعرض هو نفسه لكمين من البدو، الذين نزعوا سلاحه وسرقوا نقوده قبل أن يأسره البريطانيون في قرية سوق الشيوخ بالقرب من الناصرية[7].



جسر قوارب بريطاني على الفرات قرب الناصرية، بحراسة الجنود الهنود. انسحب العثمانيون من الناصرية أمام البريطانيين بعد يوم من القتال العنيف (24 يوليو 1915)، وأعادوا نشر جنودهم على ضفاف دجلة للدفاع عن بغداد.

يمكن القول، استناداً إلى تجارب علي جودت، إن العثمانيين لم يكونوا في وضع يؤهلهم للاحتفاظ بالفرات الأوسط في وجه هجوم مستدام. إذ لم يوجد لديهم ما يكفي من الجنود النظاميين للصمود أمام البريطانيين، وسوف ينضم البدو إلى الطرف الذي يعتقدون أنه الأقوى. وبينما كان من الشائع أن ينتقد الضباط الأتراك جنودهم العرب والبدو باعتبارهم غير مؤهلين للثقة ولا يعتمد عليهم، فإن تجارب جودت أكثر تعبيراً عن الواقع الحقيقي؛ نظراً إلى أنه من أهالي العراق ويتبنى توجهات قومية قوية. أرسل إلى البصرة، حيث احتجز أسيراً حتى وقت متأخر من الحرب، حين أصبح البريطانيون في حاجة إلى خدمات الناشطين العرب.

افتتح الهجوم البريطاني على الناصرية يوم 24 يوليو بصليات من المدفعية أطلقتها السفن البخارية. ثم اجتاح الجنود البريطانيون والهنود خنادق المدافعين في موجات من الهجمات بالحراب. صمد العثمانيون وتشبثوا بمواقعهم؛ ما أجبر الغزاة على القتال لاحتلال كل ياردة من الأرض. استعرت المعركة حتى الليل. انسحب المدافعون العثمانيون تحت جنح الظلام بعد أن سقط منهم 2.000 بين قتيل وجريح، إضافة إلى 950 أسيراً. في فجر اليوم اللاحق، ذهب وفد من أهالي البلدة إلى القوارب البريطانية يعرضون استسلام الناصرية. شعر البريطانيون بالارتياح لعدم اضطرارهم إلى القتال يوماً آخر بعد الخسائر الثقيلة التي أصيبوا بها[8].

تمكن البريطانيون، باحتلال الناصرية، من تأمين ولاية البصرة العثمانية برمتها. لكن الجنرال نيكسون أراد الزحف بسرعة لاحتلال بلدة كوت العمارة الاستراتيجية. تتوضع البلدة على منحنى في مجرى دجلة وتعد محطة أخيرة لقناة شط الحي التي تربط دجلة بالفرات جنوب الناصرية. ذكرت الاستخبارات البريطانية أن 2.000 من الجنود العثمانيين الذين تقهقروا من الناصرية لجؤوا إلى الكوت، حيث انضموا إلى حامية مؤلفة من 5.000 رجل، مع احتمال تهديد المواقع البريطانية في العمارة والناصرية كلتيهما. أكد نيكسون أن السيطرة البريطانية على ولاية البصرة لن تكون آمنة طالما احتفظ العثمانيون بالكوت.

تفاقم الانقسام في الرأي بين المسؤولين في لندن والهند حول سياسة الحرب في الشرق الأوسط. ومع أن الهند جزء لا يتجزأ من الامبراطورية البريطانية، فإن لها

حكومة، يرأسها نائب الملك (الحاكم العام للهند اللورد هاردينغ)، وجيشاً خاصاً. خدم الجيش الامبراطورية بإخلاص، وأرسل جنوده إلى الجبهة الغربية وغاليبولي، إضافة إلى ريادة الحملة في الرافدين. لكن حكومة الهند احتاجت إلى الحفاظ على حامية لضمان أمنها الداخلي. فمع نشاط العملاء الألمان في فارس وأفغانستان، وتهديد الجهاد للولايات المسلمة شمال غرب الهند، انشغل الحاكم العام بمسألة الحفاظ على رادع موثوق في الوطن. ونظراً إلى أهمية الهند للامبراطورية، شاركت لندن الحاكم العام مخاوفه واهتماماته.

لكن اختلفت حكومة الهند مع الحكومة البريطانية في لندن على نشر الجنود. بقيت الجبهة الغربية تحتل قمة الأولويات من منظور لندن، تأتي بعدها غاليبولي، ثم الرافدين. بينما كانت بلاد الرافدين بالغة الأهمية لحكومة الهند خلافاً للندن. إذ إن المكاسب التي تتحقق على الأرض في العراق توسع نفوذ الحكم البريطاني (الراج) في الخليج العربي، وتصور كثير من المسؤولين السياسيين المرتبطين بالجيش الهندي في الرافدين أن يخضع العراق يوماً ما لسيطرة حكومة الهند. وهكذا، أراد نائب الملك (الحاكم العام) عودة الأفواج الهندية من الجبهة الغربية لتعزيز مكاسب "الراج" في الرافدين وتوسيعها، ولم يكن راغباً في إرسال قوات جديدة مهمة خوفاً من تعريض أمن الهند للخطر. قدم المسؤولون في لندن، الذين أرضاهم الوضع الراهن في العراق، الحجة لصالح "لعبة آمنة في الرافدين"، حسب تعبير وزير الدولة لشؤون الهند اللورد كرو[9].

عقب احتلال الناصرية، استحثت حكومة الهند لندن على إجازة غزو الكوت باعتباره "ضرورة استراتيجية". ومضى نائب الملك ليطلب نشر وحدة من الجيش الهندي، اللواء 28 الذي كان يخدم في عدن آنذاك، لتعزيز أعداد جنود نيكسون تمهيداً للهجوم على الكوت. كان الطلب منطقياً، لكن نظراً إلى موقف بريطانيا الهش في جنوب اليمن، لم تكن لندن على استعداد لقبوله في تلك اللحظة[10].

* * *

في حقيقة الأمر كان الوضع في اليمن بحاجة ماسة إلى اللواء 28 للحيلولة دون سقوط ميناء عدن الاستراتيجي بأيدي الترك. لم يؤد الهجوم البريطاني على الشيخ سعيد في نوفمبر 1914 إلا إلى إضعاف الموقف البريطاني في اليمن. اتخذ المسؤولون في الهند ولندن قراراً بتدمير المدافع التركية المشرفة على مدخل البحر الأحمر دون استشارة المندوب البريطاني المقيم في عدن. واعتقد المسؤولون الاستعماريون في اليمن أن الهجوم لم يتسم بالفطنة والحنكة لأنه استعدى الإمام يحيى، حاكم اليمن في صنعاء، الذي اعتبره اعتداء على أراضيه. ومع أن الإمام يحيى كان اسمياً حليفاً للسلطنة العثمانية، فقد أمل البريطانيون بالحفاظ على علاقات ودية معه. تحطمت هذه الآمال في فبراير 1915، حين كتب الإمام إلى الكولونيل هارولد جيكوب، النائب الأول للمندوب البريطاني المقيم في عدن، ليؤكد له ولاءه للسلطنة العثمانية، وضمناً، عداءه لبريطانيا[11].

عبرت القوات التركية إلى أراضي محمية عدن، مدعومة بمقاتلي الإمام يحيى، في فبراير 1915. في البداية، تجاهل المسؤولون البريطانيون تحركات الجنود الأتراك باعتبارها لا تشكل سوى تهديد بسيط، أو لا تشكل أي تهديد على الإطلاق لموقعهم في عدن. لكن، مع تنامي القوات العثمانية في اليمن، ونجاح العملاء الأتراك في تجنيد أعداد متزايدة من شيوخ القبائل لمناصرة قضيتهم، تعاظم قلق البريطانيين. بحلول يونيو، قدرت الاستخبارات البريطانية قوة العثمانيين بست كتائب (راوح عدد الكتيبة العثمانية بين 350 و500 جندي) -أي إن القوات التركية تتفوق على البريطانيين عددياً. في 1 يوليو، هاجم العثمانيون حليفاً رئيساً للبريطانيين في بلدة لحج، على بعد أقل من ثلاثين ميلاً عن عدن[12].

كان سلطان لحج، السير علي العبدلي، حاكماً شبه مستقل لإحدى الدول المصغرة ضمن محمية عدن البريطانية. ومع أنه اعتلى العرش منذ أقل من سنة، فإن البريطانيين اعتبروه واحداً من أبرز حلفائهم في اليمن الجنوبي. وحين تعرضت لحج لتهديد الغزو العثماني، حشد المندوب البريطاني المقيم في عدن حاميته الصغيرة التي تفتقر إلى الخبرة لصد القوات التركية. انطلقت طليعة مؤلفة من 250 جندياً هندياً مزودين بالأسلحة الرشاشة والمدفعية (عيار 10 أرطال) نحو لحج ليلة 3 يوليو، لتصل البلدة في وقت مبكر من صباح اليوم

اللاحق. تبعتها الكتلة الرئيسة من الجنود الويلزيين والهنود بعد بضع ساعات، فوجد هؤلاء أنفسهم يزحفون في الحر اللاهب المميز لصيف اليمن. مات اثنان من الويلزيين بـ"السكتة الحرارية" أثناء المسير، وحتى الجنود الهنود بدؤوا بالانهيار جراء الجو القائظ. تمكن الرجال المنهكون من الوصول إلى لحج بشق الأنفس قبل غروب شمس 4 يوليو، ليجدوا المدينة من حالة من الفوضى الشاملة.

خيم الليل على لحج ورجال القبائل العربية الموالون للسلطان يطلقون الرصاص في الهواء. في تلك اللحظة، دخل طابور تركي ساحة السوق المركزية، دون أن يعلم أفراده بوجود العدو بينهم. أسر البريطانيون القائد العثماني، الرائد رؤوف بك، واستولوا على عدد من المدافع الرشاشة قبل أن يجد العثمانيون وقتاً للرد. وما إن قيموا الوضع، حتى شنوا هجوماً بالحراب على الجنود البريطانيين. في خضم الفوضى، ظن جندي هندي سلطان لحج تركياً فقتل الحليف ذاته الذي أراد البريطانيون حمايته.

تقهقر الجنود البريطانيون الأربعمئة بسرعة، بعد أن تفوق عليهم العثمانيون وأنصارهم من رجال القبائل -عددياً- تفوقاً كاسحاً. وتمكنوا بصعوبة بالغة، بعد أن أنهك قوتهم المسير إلى لحج والمعركة العنيفة التي خاضوها في الليل، من الوصول إلى عدن مع أسراهم الأتراك الأربعين. قتل العدو منهم خمسين والحر ثلاثين. إضافة إلى ذلك كله، تركوا خلفهم أسلحتهم الرشاشة كلها، وقطعتين من المدفعية المتنقلة، وثلاثة أرباع ذخائرهم، ومعداتهم كلها، والتركَ مسيطرين سيطرة كاملة على لحج، على مرمى حجر من عدن.

انفتح الطريق إلى عدن أمام الجيش العثماني. تقدم الجنود الأتراك من لحج إلى بلدة شيخ عثمان، على الطرف الآخر من ميناء عدن. ومثلما لاحظ الجنرال السير جورج يونغهازبند، قائد اللواء 28: "كانت مباني الميناء، والبواخر، والأحياء السكينة، والنادي، ودار الحكومة، والسفن الراسية ضمن المدى المجدي لمدفعية العثمانيين". والأسوأ أن الشيخ عثمان تضم محطة التحلية والآبار التي تزود عدن بجميع احتياجاتها من مياه الشرب. وإذا لم يتمكن البريطانيون من دفع العثمانيين بعيداً عن البلدة المجاورة، سيصبح موقفهم في عدن يائساً

يتعذر الدفاع عنه. وخسارة عدن، بأهميتها الحاسمة لسلامة سفن الشحن البريطانية والهيبة البريطانية في العالم العربي، أمر لا يمكن تصوره[13].

قدمت حكومة الهند طلباً عاجلاً لنجدة من مصر تعزز الموقف البريطاني في عدن. استجابت الحكومة البريطانية بسرعة، وتلقى الجنرال يونغهازبند أوامر في 13 يوليو 1915 بالتوجه مباشرة على رأس اللواء 28 لنجدة عدن. وصلت القوات إلى عدن بعد خمسة أيام ونزلت من السفن ليلاً لإخفاء وصولها عن الترك. وفي 21 يوليو عبرت القوات البريطانية الممر بين عدن والشيخ عثمان ودفعت الجنود العثمانيين إلى لحج في هجوم مباغت. وبينما كانت إصابات البريطانيين قليلة، خسر العثمانيون نحو خمسين قتيلاً، إضافة إلى عدة مئات وقعوا في الأسر.

عزز يونغهازبند المواقع البريطانية في الشيخ عثمان وقرر التمترس فيها. وبعد استعادة السيطرة على مورد عدن المائي، رفض توسيع خطوطه أو تعريض رجاله للخطر عبر التحول إلى الهجوم. "الحر لافح من ناحية، ومن ناحية أخرى لا يبدو من الحكمة في هذه المرحلة مغادرة القلعة الحصينة والقيام بمغامرات خطرة في الصحراء"، كما كتب إلى القائد العام البريطاني في مصر. هكذا كان الوضع مع نهاية يوليو حين طلب اللورد هاردينغ إرسال اللواء 28 إلى جبهة الرافدين للمساعدة على احتلال كوت العمارة. ومن نافل القول إن ترفض وزارة الحرب في لندن طلب نائب الملك. فمع وجود نحو 4.000 جندي تركي في لحج حسب التقديرات، كانت حامية عدن المؤلفة من 1.400 رجل غير كافية للاحتفاظ بالميناء الاستراتيجي دون تعزيزات -وهي حالة غير مريحة استمرت حتى نهاية الحرب[14].

ولزيادة الطين بلة في اليمن، تمتع الترك -كما في غاليبولي- بسيطرة مؤكدة على الجبهة. ثبت أن البريطانيين يعانون ضعفاً شديداً منعهم من حماية الحكام والمناطق ضمن محمية عدن. كانت خسارة ماء الوجه في العالمين العربي والإسلامي تقلق المسؤولين في لندن

والقاهرة وشيملا* أكثر من خسارة الأراضي. ومثلما استنتج نائب المندوب البريطاني المقيم في عدن هارولد جيكوب، كان فشل بريطانيا في "هزيمة الترك أمام عدن سبباً رئيساً وراء خسارة هيبتنا في البلاد". شعر البريطانيون الذين أقلقتهم على الدوام دعاية الجهاد العثمانية والألمانية، بأن إخفاقاتهم في عدن مكسب آخر لأعدائهم وإضعاف لموقف قوى الوفاق في العالم الإسلامي بصورة أعم[15].

* * *

حتى من دون فائدة التعزيزات في بلاد الرافدين، كان باستطاعة الجنرال نيكسون إقناع نائب الملك بقدرة الجيش الهندي على احتلال كوت العمارة بالقوات المتوفرة لديه. فالجيش التركي في العراق في حالة من الفوضى والارتباك بعد سلسلة من الهزائم التي تعرض لها في الميدان، مثلما أكد بالحجة. كما كسب الجنود الإنكليز والهنود خبرة وثقة بالنفس جراء الانتصارات المتكررة. وكان نيكسون على يقين بأن منح الوقت الكافي لجنوده للتعافي من الحميات التي أصيبوا بها (حتى الجنرال تاونزند سقط ضحية للمرض بعد اجتياح العمارة وأعيد إلى الهند للنقاهة)، سيمكنهم من استئناف تقدمهم الذي يتعذر وقفه على ما يبدو على طول نهر دجلة. اقترح الانتظار حتى سبتمبر 1915 لشن الهجوم على الكوت، وأعطى اللورد هاردينغ موافقته على المرحلة اللاحقة من الحملة على بلاد الرافدين.

سلمت قيادة فتح الكوت إلى الجنرال تاونزند، الذي استولى أسطوله على العمارة بسهولة كأنما يخوض سباقاً للزوارق. لكن لديه الآن تحفظات قوية على توسيع الخطوط البريطانية. تساءل بغضب وحدة: "أين سنتوقف في الرافدين؟". كانت مخاوفه مبررة وفي محلها. فقد كان الجيش الهندي، بعد نحو سنة في الرافدين، بحاجة إلى تعزيزات، وأقلقت تاونزند خطوط الإمداد الطويلة مع تقدم القوات البريطانية في عمق المنطقة. مد احتلال كل بلدة خطوط المواصلات التي اعتمدت كلية على النقل النهري. ومع ذلك، فإن المراكب النهرية المتوفرة مع الجيش الهندي غير ملائمة للغرض. ولا ريب أن مضاعفة طول خط الإمداد من

---

* العاصمة الصيفية للهند البريطانية.

البصرة دون وسائل نقل كافية سوف يضع الحملة برمتها في خطر داهم. بينما كان تاونزند يتعافى في الهند، التقى بالسير بوشامب داف، القائد العام للجيش الهندي، الذي تعهد بأنه لن يتركه "يتقدم بوصة واحدة وراء الكوت إلا إذا وفرت لك قوة كافية". بناء على هذا التفاهم، وافق تاونزند على إطاعة أوامر نيكسون بقيادة الزحف على الكوت، وبدأ الحملة على طول مجرى النهر شمالاً في 1 سبتمبر[16].

كانت الأسباب الدافعة لقلق تاونزند أكثر مما أدركه وقتها. فقد عين العثمانيون قائداً جديداً متحمساً ومفعمًا بالحيوية ليرأس قواتهم في الرافدين. خدم نور الدين بك، الجنرال المقاتل، في الحرب العثمانية-اليونانية عام 1897، وقمع التمرد في كل من مقدونيا واليمن قبل اندلاع الحرب العظمى. ومثلما استنتج أحد المؤرخين، كان نور الدين متعدد اللغات (يتكلم العربية والفرنسية والألمانية والروسية) قائداً "موهوباً إلى حد استثنائي". كلف بمهمة حماية بغداد من الجيش الهندي، فعمل دون كلل على إعادة بناء فرقه المستنزفة المنهكة، وتمكن من جلب وحدات جديدة إلى الرافدين. بدا أن ديناميكية خطرة جديدة تغير جبهة الرافدين لغير مصلحة بريطانيا: أعداد العثمانيين تتكاثر، بينما تتناقص القوات البريطانية وتستنزف باطراد[17].

* * *

حلق الطيارون البريطانيون والأستراليون في الأجواء فوق دجلة لاستكشاف المواقع التركية حول كوت العمارة وتقييمها. حظي الاستطلاع الجوي بقيمة هائلة لتاونزند وضباطه عند التخطيط للهجوم. شاهدوا أين تتخندق القوات التركية وأمكنهم تحديد مواقع بطاريات المدفعية بدرجة عالية من الدقة لم يشهدها أي هجوم سابق في الرافدين. لكن العملية محفوفة بالخطر. فقد كانت الطائرة عرضة للتفكك والانهيار بفعل حرارة الصيف اللاهبة وزوابع الغبار، بينما ألحق القناصة الأتراك أضراراً بالغة بالطائرات التي حاولت رصد مواقعهم عن قرب. في يوم 16 سبتمبر، أجبرت طائرة بريطانية على الهبوط خلف الخطوط العثمانية، حيث أسر الطيار الأسترالي ومساعده الراصد الإنكليزي[18].

أظهرت عمليات الاستطلاع الجوي أن الترك أقاموا مواقع حصينة على بعد سبعة أميال (في اتجاه مجرى النهر) جنوب الكوت، في مكان يعرف بالسن. وتبين أن خنادقهم تمتد أميالاً على ضفتي دجلة بين مستنقعات يستحيل عبورها، ما يجبر المهاجمين البريطانيين إما على المخاطرة بهجوم جبهي مباشر عبر الأرض المفتوحة، أو الزحف أميالاً حول المستنقعات لتطويق الخطوط العثمانية. ووضع عائق في النهر لمنع السفن البريطانية المسلحة بالمدفعية على سطحها من العبور. وأكد نور الدين لجنوده أن مواقعهم منيعة وعصية على الاختراق، وأن البريطانيين لن يمروا.

قدر البريطانيون عدد القوة العثمانية الإجمالية بنحو 6.000 جندي مشاة، ربعهم فقط من الترك والبقية من العرب. كان تاونزند على ثقة بأن قوته البالغة 11.000 رجل، والمعززة بالمدفعية والأسلحة الرشاشة، أكثر من كافية للتغلب على الدفاعات العثمانية. لكن بدا بعض من صغار ضباطه أقل تفاؤلًا وثقة. كتب الكابتن رينولدز ليكي في يومياته: "بعد أن شاهدنا العدو المتخندق بقوة، واستحكاماته المحمية بالأسلاك الشائكة، عرفنا أن مهمة صعبة بانتظارنا"[19].

اتخذ الجنود البريطانيون ليلاً الوضعية المناسبة لشن هجوم متعدد الجبهات على الخطوط العثمانية في ساعات الصباح الباكر من يوم 28 سبتمبر. اقتضت الخطة مناورات محكمة، حيث تجابه بعض الوحدات العثمانيين وجهاً لوجه لاجتذاب نيرانهم، بينما تلتف أخرى لتطويق مواقعهم. لكن في الحلكة التي سبقت الفجر، فقدت عدة طوابير بريطانية وجهتها وتأخرت في المستنقعات. وحين أجبر البريطانيون على الهجوم في وضح النهار، لم يخسروا عنصر المفاجأة حاسم الأهمية فحسب، بل وجدوا أنفسهم أيضاً عرضة لنيران المدفعية الثقيلة والأسلحة الرشاشة. سجل الكابتن ليكي في مفكرته: "كان يوماً بغيضاً فقدنا فيه كثيراً من الرجال. حاصرنا الترك في مكان تحت وابل من قذائف الشظايا التي ظلت تنهال علينا. من الواضح أن تصويبهم كان دقيقاً. أصيب أحد مدافعنا الرشاشة على بعد خمس ياردات مني إصابة مباشرة فتحطم الحامل وتناثرت قطعه. أمضينا الليل كله نحفر وعندما طلع النهار أنهكنا التعب". ومثلما تؤكد رواية ليكي، دافع العثمانيون دفاعاً عنيداً

عن خطوطهم وأوقعوا خسائر ثقيلة في صفوف المهاجمين البريطانيين المكشوفين. تبادل الجيشان القصف العنيف من الفجر إلى المغرب. وبينما تمركزت القوات البريطانية المنهكة للاحتفاظ بمكاسبها التي حققتها في الليل، انسحب العثمانيون بهدوء إلى بلدة الكوت. لاحظ ليكي باحترام أن "الترك رحلوا في الليل، في تراجع بارع منظم، دون أن يتركوا شيئاً وراءهم".

احتاج البريطانيون إلى عدة أيام للتقدم من الخطوط التي تخلى عنها الترك في السن إلى بلدة الكوت. عرقل الحاجز الذي أقامه العثمانيون في النهر وصول سفن الشحن بعد وقت طويل من اختراقه، كما أعاق مستوى المياه منخفض الملاحة. بينما تجاوز عدد الجرحى توقعات المخططين، واحتاجوا إلى نقلهم إلى المرافق الطبية جنوباً في العمارة والبصرة قبل أن يواصل البريطانيون الأعمال القتالية مع الترك للسيطرة على الكوت[20].

في النهاية، لم يجبر الترك البريطانيين على خوض مزيد من القتال لدخول الكوت. إذ ذكر الاستطلاع الجوي البريطاني في 29 سبتمبر أن العثمانيين تخلوا عن البلدة واستكملوا انسحاباً منظمًا باتجاه الشمال إلى بغداد. كان الخبر ساراً من ناحية؛ لأن البريطانيين يستطيعون احتلال الكوت دون مقاومة، ومن ناحية أخرى، فشل النصر الذي حققه تاونزند: إذ تسلل العثمانيون خارجين من شبكته وتراجعوا مع مدفعيتهم ومعظم قواتهم في حالة سليمة. ولا ريب أن كل إخفاق بريطاني في تطويق الجيش العثماني وتدميره في الرافدين، يمنح الترك الفرصة لإعادة التجمع، وسحب الجيش الهندي إلى عمق العراق، ومضاعفة طول خطوط إمداده ومواصلاته. فمع كل معركة تكسبها قوة الحملة الهندية في العراق تصبح أكثر انكشافاً وعرضة للخطر.

* * *

تزامن النصر البريطاني في الكوت (أكتوبر 1915) مع الإقرار المتزايد في لندن بإخفاق حملة الدردنيل. خشي كثير من السياسيين من العواقب الوخيمة لهزيمة البريطانيين في غاليبولي على مركزهم وهيبتهم في العالم الإسلامي. اعتقدت الحكومة البريطانية أن الفشل في

الدردنيل يمنح الأعداء نصراً دعائياً لسياستهم الجهادية. ومن المحتم أن بعض السياسيين بدؤوا يعتبرون احتلال بغداد علاجاً للسمعة الملطخة جراء إخلاء غاليبولي.

انقسم القادة الميدانيون بين رأيين. لم يكن الجنرال نيكسون موقناً بقدرة قواته على احتلال بغداد فحسب، بل اعتبر أن موقعها في الرافدين لن يصبح آمناً دون احتلالها. بينما أكد الجنرال تاونزند، الذي قاد الفرقة السادسة (بونا) إلى النصر في العمارة والكوت، أن على البريطانيين تعزيز سيطرتهم على المناطق الشاسعة التي فتحوها. ومع أن بإمكان جنوده الاستيلاء على بغداد من الترك، فإنهم بحاجة إلى تعزيزات مهمة للاحتفاظ بالمدينة وضمان خطوط المواصلات الممتدة مئات الأميال على طول مجرى دجلة المتقلب من بغداد إلى البصرة. كانت العملية تتطلب فرقتين كاملتين من الجنود الجدد على الأقل، مثلما أكد تاونزند.

في 21 أكتوبر، ناقشت لجنة الدردنيل (لجنة الحرب التي شكلتها الحكومة البريطانية للإشراف على العمليات في الشرق الأوسط) الخيارات المتاحة في الرافدين. أيد اللورد كورزون رأي تاونزند بأن من الأفضل لبريطانيا تعزيز المكاسب التي تحققت من البصرة إلى الكوت. لكن ثلاثة وزراء نافذين: وزير الخارجية اللورد غراي، واللورد الأول للأدميرالية آرثر بلفور، وونستون تشرشل (الذي أنزلت مرتبته بعد غاليبولي إلى منصب ثانوي حيث عين مستشاراً لدوقية لانكاستر، لكن ظل صوته قوياً في الحكومة)، وافقوا نيكسون الرأي وطالبوا باحتلال بغداد. اتخذ اللورد كتشنر، الرجل العسكري، موقفاً وسطاً بين الطرفين، حيث دعا إلى شن هجوم لتدمير القوات العثمانية في بغداد يعقبه انسحاب استراتيجي إلى مواقع حصينة يمكن للبريطانيين الدفاع عنها. "إذا احتلت بغداد وأخليت غاليبولي، يمكن أن يرسل الترك قوة تراوح بين 60.000 و70.000 جندي" لاستعادتها، وسوف يحتاج تاونزند إلى عدة فرق للاحتفاظ بالمدينة في مواجهة مثل هذا الجيش، كما أكد كتشنر. ربما بدأ تأثير كتشنر في الحكومة ينحسر ويضعف بعد الإخفاقات المتكررة في الدردنيل، لأنه لم يجمع سوى قليل من الدعم لموقفه. ومثلما استنتج المؤرخ الرسمي للحملة، وجد السياسيون في بغداد فرصة "لتحقيق نجاح عظيم لم نشهده في أي

مجال قط، والمزايا السياسية (وحتى العسكرية) التي تعقبه في شتى أرجاء الشرق لا يمكن تجاهلها بسهولة"[21].

في النهاية، لم تتمكن لجنة الدردنيل من التوصل إلى قرار. لكن حين لم تحظر صراحة التقدم إلى بغداد، صادقت ضمناً على أي إجراء يتخذه الفريق الأشد تصميماً وعناداً. وقد أيد هذا الفريق -الجنرال نيكسون ونائب الملك اللورد هاردينغ، وأنصارهما في الحكومة، غراي وبلفور وتشرشل- الاستيلاء على بغداد. أذعن وزير الدولة لشؤون الهند، أوستن تشامبرلين، وأرسل بمباركة الحكومة، برقية إلى اللورد هاردينغ بتاريخ 23 أكتوبر تفوض الجنرال نيكسون في احتلال بغداد، وتعد بإرسال فرقتين من الجيش الهندي من فرنسا إلى الرافدين في أسرع وقت ممكن[22].

* * *

للمرة الأولى منذ اندلاع الحرب امتلك الجيش العثماني في الرافدين القادة والجنود المؤهلين لمواجهة الغزاة الإنكليز-الهنود. أعيد تنظيم القوات العثمانية في الرافدين وفارس ضمن الجيش السادس (سبتمبر 1915)، وعين الفيلد مارشال البروسي المهيب، كولمار فرايهر فون غولتز، قائداً عاماً. استقبل غولتز باشا (72 سنة) وهيئة أركانه من الضباط الألمان استقبال الأبطال عند وصولهم إلى بغداد في ديسمبر 1915.

تمتع القائد البروسي بمزايا مهمة على سابقيه في العراق. فقد اكتسب كبار الضباط الأتراك تحت قيادته خبرة ثمينة في القتال ضد البريطانيين، ومع وصول فرقتين جديدتين إلى الرافدين، بلغ الجيش السادس مستوى يوازي القوات البريطانية هناك. تألفت الفرقة العثمانية الحادية والخمسون التي صلبتها المعارك من أتراك الأناضول فحسب، وكانت أشد انضباطاً من الجيش الهندي الذي لم تواجهه بعد في العراق.

ترك وصول هذه القوات الجديدة في خريف عام 1915 تأثيراً قوياً في أهالي بغداد، مثلما تذكر أحد سكانها: "أخذ منادي الحكومة ينادي في أسواق الكاظمية [ناحية في بغداد] يطلب من الأهالي الخروج إلى النهر لاستقبال القوات التركية القادمة. ولما خرج الناس

وجدوا الأكلاك [المراكب] تملأ النهر بشكل يثير الدهشة لكثرتها وهي مليئة بالجنود، ثم نزل الجنود منها وأخذوا يسيرون صفوفاً تتقدمهم الموسيقى. فارتفعت أصوات الناس بالهتاف كما ارتفعت زغردة النساء تحميسا لهم". كان ميزان القوة يتغير في الرافدين، حيث تمتع العثمانيون بتفوق عددي ونوعي على الجيش الهندي الذي أنهكته المعارك[23].

تمثلت مهمة تاونزند في الاستيلاء على بغداد بالقوات المتوفرة تحت إمرته -وصل عددها الإجمالي إلى 14.000 رجل. هنالك عدد إضافي يبلغ 7.500 جندي بريطاني توزعوا على الحاميات المنتشرة من البصرة إلى كوت العمارة على دجلة، والناصرية على الفرات. لم يكن من المتوقع وصول الفرقتين الهنديتين اللتين وعد بهما إلى البصرة قبل يناير 1916. ومع أن سلسلة من الانتصارات منحت الجنود الإنكليز والهنود الثقة بالنفس، فقد خلفت أشهر الزحف والقتال آثارها وأضرارها أيضاً، بعد أن فاقمت إرهاقها مشقات الصيف العراقي القائظ وانتشار الأمراض. كانت وحدات بريطانية عديدة تحت إمرة تاونزند تعاني نقصاً في العدد، وبدأ يقلقه ولاء جنوده من المسلمين الهنود.

عزف مروجو الدعاية العثمانية بأسلوب فعال على وتر الولاءات الإسلامية في محاولة لشق صفوف البريطانيين. أصدرت المطبعة الحكومية في بغداد منشورات بالهندية والأوردية حرضت المسلمين الهنود على الفرار من صفوف جيش "الكفار"، والانضمام إلى إخوانهم في الدين في الجيش العثماني. وذكرت الجنود المسلمين أن سلمان باك، حيث تحصن الترك للدفاع عن بغداد، هو مكان مقدس دفن فيه الصحابي الجليل (وحلاق النبي) سلمان الفارسي (باك تعني "طاهر" بالتركية والفارسية)[24].

مارست هذه المنشورات بعض التأثير حيث اكتشف الجنرالات البريطانيون شعوراً متنامياً بالتحفظ بين جنود السيبوي المسلمين تجاه التقدم إلى المرقد المقدس لسلمان باك (الفارسي). ووردت تقارير عن حالات تمرد معزولة. في أكتوبر 1915، سجل الكابتن ليكي أن أربعة جنود مسلمين كانوا في نوبة حراسة بالقرب من الخطوط التركية ذبحوا قائدهم وأطلقوا النار على المواقع البريطانية قبل أن يعبروا إلى الخطوط العثمانية. بعد هذه الحادثة، أرسل فوج البنجابيين العشرون إلى الخدمة في عدن "بسبب حالات الفرار". خشي

البريطانيون من مزيد من التمرد استجابة للدعاية العثمانية التي ركزت على مرقد الصحابي الجليل. ومن أجل تقليص الأهمية الدينية للمكان، أشار البريطانيون إليه بانتظام باسمه الساساني القديم: طيسفون[25].

انتصب في قلب الدفاعات العراقية طاق كسرى، وهو معلم تاريخي ضخم من القرن السادس يبقى إلى اليوم أكبر قوس مشيد بالآجر. ظل الترك طوال أشهر يجهزون مواقعهم حول القنطرة الهائلة. امتد الخط الأمامي مسافة ستة أميال، تقطعه خمس عشرة قلعة ترابية، أو متاريس محصنة ومسلحة بالمدافع والرشاشات. بينما أتاحت شبكة معقدة من خنادق المواصلات حركة الرجال والإمدادات من الجبهة وإليها، كما ثبتت جرار ضخمة مملوءة بالمياه على مسافات منتظمة لضمان ألا يشعر المدافعون بالعطش. ثمة مجموعة أخرى من الخنادق الحصينة على بعد ميلين خلف الجبهة شكلت خط الدفاع التركي الثاني. بينما نشرت الفرقة 51 القوية الصلبة في هذا الخط الثاني من الخنادق لتكون قوات احتياطية. تمتعت هذه الدفاعات بأقصى حد من التدعيم والتحصين قدر عليه القائد العثماني نور الدين بك وضباطه في الفترة الممتدة بين الانسحاب من الكوت في أكتوبر 1915 والزحف البريطاني في الشهر اللاحق.

لم يملك القادة البريطانيون معلومات موثقة عن القوات العثمانية المدافعة عن بغداد. راوحت التقديرات عن الأعداد التركية بين 11.000 و13.000 رجل قبل الهجوم على سلمان باك. في أوائل نوفمبر، بدأ نيكسون وتاونزند يتلقيان تقارير متضاربة عن تعزيزات عثمانية أرسلت من سوريا أو القوقاز إلى بغداد، لكن تجاهلاها باعتبارها غير موثوقة. ولمضاعفة حالة الغموض وعدم اليقين، أمر نيكسون بوقف الطلعات الجوية فوق خطوط العدو في 13 نوفمبر بعد خسارة واحدة أخرى من طائراته الثمينة بنيران الترك. افترض القائدان أن أعداد قواتهما إما تعادل القوات العثمانية أو أن العثمانيين يتفوقون قليلاً. لكن التجربة مع المدافعين الأتراك الذين ينهارون تحت الضغط منحت القائدين ثقة بالنصر حتى مع تفوق العدو قليلاً في العدد[26].

أمر تاونزند طائرتين بالتحليق عالياً فوق مواقع العدو لأخذ نظرة شاملة أخيرة وبعيدة المدى لها عشية المعركة في نوفمبر 1915. عاد قائد الطائرة الأولى سالماً وأشار إلى عدم حدوث تغييرات في الخطوط العثمانية. أما الثاني، الذي حلق فوق منطقة شرق طيسفون (سلمان باك)، فقد أقلقته تغييرات مهمة على الأرض وأدلة على تعزيزات كبيرة. وحين عاد للحصول على نظرة عن قرب، أطلق الجنود العثمانيون النار على الطائرة فأحدثوا ثقباً في محركها أجبره على الهبوط خلف خطوط العدو حيث وقع أسيراً. ومع أن الطيار رفض الإجابة عن أسئلة آسريه، فقد أخذوا منه خريطة علّم عليها موقع الفرقة 51 -أول معلومات استخبارية موثوقة عن التعزيزات العثمانية. ومثلما سجل أحد الضباط الترك: "وقعت الخريطة التي تحوي هذه المعلومات التي لا تقدر بثمن، لا في يد قائد العدو.. بل القائد التركي"[27].

لم يؤد إسقاط الطائرة البريطانية إلى منع تاونزند من معرفة أن جنوده يعانون نقصاً عددياً خطراً مقابل قوة عثمانية يزيد عددها على 20.000 رجل فحسب، بل رفع كثيراً الروح المعنوية للجنود الأتراك. "اعتبر هذا الحادث الصغير فألاً حسناً وبشارة تدل على أن حظ العدو على وشك أن يتغير"، كما لاحظ الضابط التركي. وهكذا كان.

* * *

في ساعات الصباح الباكر من يوم 22 نوفمبر، تحرك البريطانيون نحو خط الجبهة العثمانية. تقدمت أربعة طوابير وفق اعتقاد خاطئ بأنها ما زالت تتمتع بعنصر المفاجأة. سرعان ما تحطم الوهم حين فتح المدافعون نيران المدافع الرشاشة والمدفعية لحظة وصول البريطانيين إلى المدى المجدي. "تعرضنا لنيران المدافع بشكل مباشر تقريباً. بينما بقيت البنادق تطلق الرصاص دون انقطاع حتى الرابعة عصراً. كان القتال بالغ العنف والضراوة"، كما سجل الكابتن ليكي في مفكرته، إلى جانب أسماء رفاقه القتلى في الهجوم الأول.

تبادل البريطانيون والعثمانيون الهجمات بالحراب، وانخرطوا في قتال مباشر بالسلاح الأبيض طوال ساعات قبل أن يستولي البريطانيون أخيراً على خنادق الخط الأمامي العثماني. لكن ما إن أمنوا الجبهة حتى شن العثمانيون هجوماً معاكساً ضارياً ببعض من جنود الفرقة

51 الأكثر خبرة وتمرساً. استعر القتال حتى حلول الظلام وارتفعت خسائر الطرفين. اختتم ليكي بالقول: "كان يوماً مرعباً. القتلى والجرحى في كل مكان ولا توجد وسيلة للوصول إليهم وإحضارهم". وبنهاية اليوم الأول من القتال، بلغت خسائر البريطانيين 40 في المئة من قواتهم، بينما فقد العثمانيون 50 في المئة من جنودهم تقريباً، ما ترك القادة من الجانبين في حالة من الإحباط الشديد[28].

استمر القتال لليوم الثاني (23 نوفمبر)، حيث واجه كل من الجيشين أزمة متفاقمة جراء الجنود الجرحى. "كان الجرحى يسقطون طوال اليوم. وما يزال المئات منهم دون علاج، إذا لا توجد نقالات، ولا مخدر.. لا شيء لإنقاذهم"، كما سجل ليكي. ومع ذلك كله، بقي القتال المباشر محتدماً عن قرب بين الطرفين حتى وقت متأخر من الليل. "في الساعة العاشرة ليلاً تقريباً، حين كنا نزحف في خندق جنود دورستشاير تعرضنا لهجوم عنيف. مر على الجرحى وقت مرعب، كانوا ممدين في العراء خلف الخنادق. بينما قصفت مدافعنا الأهداف القريبة مباشرة، وأمكننا سماع الضباط [الأتراك] يستحثون جنودهم.. كانت ليلة ليلاء".



المشاة الأتراك في الرافدين يشنون هجوماً مضاداً. نشر العثمانيون على الخط الأمامي جنوداً تمتعوا بالخبرة والجلد للدفاع عن بغداد، وفاجؤوا الغزاة البريطانيين بعنف هجماتهم المعاكسة وضراوتها. أصيب الطرفان بخسائر فادحة تراوحت بين 40 و50 في المئة في معركة سلمان باك الحاسمة (نوفمبر 1915).

تمكن العثمانيون من صد الجيش الإنكليزي-الهندي طوال ثلاثة أيام. صحيح أن البريطانيين نجحوا في الاحتفاظ بخط الجبهة العثمانية الأول، لكنهم افتقروا إلى الجنود لاجتياح المدافعين في الخط الثاني من الخنادق. شكل عدد الجرحى المحتاجين إلى علاج مشكلة متفاقمة للبريطانيين على وجه الخصوص (تمكن العثمانيون من نقل جرحاهم إلى بغداد القريبة). لم يتوقع المهاجمون مثل هذه الخسائر الثقيلة وكانوا غير مستعدين إلى حد مفجع لعلاج آلاف الجنود المصابين بجراح خطرة. كتب الكابتن ليكي عن "جنود جلبوا على أدثرة بعد أن تهشمت أرجلهم أو بترت. كانت معاناتهم تنأى عن الوصف". القتال العنيد المتواصل، وأنين الجرحى المحزن، والشائعات عن وصول تعزيزات تركية، اجتمعت كلها معاً لتوهن عزيمة جيش تاونزند وروحه المعنوية.

بحلول يوم 25 نوفمبر، أدرك تاونزند وضباطه أن موقفهم يائس ويتعذر الدفاع عنه. فقد عانى الجيش الهندي نقصاً خطيراً في العدد مقارنة بالعثمانيين وبالغ في التوسع والانتشار. وكان قد ذهب إلى المعركة بعدد ثابت من الجنود دون قوات احتياطية تدعمهم. ولم يكن من المنتظر وصول طلائع التعزيزات إلى الرافدين قبل يناير. وجب عليهم الحفاظ على أكبر عدد ممكن من الرجال الأصحاء القادرين بدنياً للدفاع عن المواقع البريطانية بين البصرة وكوت العمارة، إضافة إلى ضرورة إجلاء الجرحى بشكل عاجل. احتاج تاونزند إلى كل زورق نهري في متناوله لنقل آلاف الجرحى جنوباً، تاركاً الجنود الأصحاء، المنهكين بعد ثلاثة أيام من القتال العنيف، في مواجهة كابوس كل جندي: التقهقر تحت وابل من نيران العدو.

* * *

جسد الانسحاب البريطاني من سلمان باك نقطة تحول حاسمة في حملة الرافدين. سارع العثمانيون إلى اتخاذ موقف الهجوم -في ميدان المعركة وفي الحرب الدعائية.

وصلت العلاقات بين العثمانيين ومواطنيهم العراقيين إلى أدنى مستوياتها مع تقدم البريطانيين على طول مجرى دجلة في سبتمبر وأكتوبر 1915. وبدأ سكان بغداد السخرية علناً من الخليفة، السلطان محمد رشاد، وقواته المسلحة. أنشدوا هازئين:

رشاد يا ابن البومة، عساكرك مهزومة

رشاد يا ابن الخايبة، عساكرك هاللي سايبة[29].

* * *

ومع تعاظم جرأة بلدات الفرات الأوسط في الثورة على العثمانيين وزيادة التحدي من أهالي بغداد، قرر العثمانيون إطلاق مساعي الجهاد من جديد، مستهدفين هذه المرة الشيعة الساخطين من سكان العراق. عزفت الحكومة العثمانية على وتر الحماسة الدينية الشعبية عبر رفع "العلم الحيدري الشريف"، لكسب تأييد شيعة العراق للمجهود الحربي الذي لا يحظى بالشعبية[30].

من المعروف أن المسلمين الشيعة يجلون منذ القرن الهجري الأول الخليفة الراشدي الرابع علي بن أبي طالب وذريته من الأئمة، بوصفهم الحكام الشرعيين الوحيدين للأمة الإسلامية*. وهذا ما جعل الشيعة لا يستجيبون لفرمانات السلطان العثماني السني، ويرفضون اعتباره خليفة، أي الزعيم الروحي للأمة الإسلامية.

أمل العثمانيون بحشد الطائفة الشيعية العراقية عبر استغلال إجلالها للخليفة علي وضمها إلى القتال ضد الغزاة البريطانيين. وفي سبيل هذه الغاية، انخرطوا في مغالطة سفسطائية سافرة ومخادعة أشارت إلى العلم الحيدري باعتباره أثراً تاريخياً وهب قوى خاصة مرتبطة بالإمام علي. أخذ عملاء الحكومة ودعاتها يتجولون في المدن الشيعية المقدسة، واصفين العلم بأنه سلاح سري جلب النصر للقادة المسلمين المؤمنين على الكفار في كل معركة خاضوها تحت راية أمير المؤمنين.

كلفت الحكومة مسؤولاً عثمانياً رفيع المستوى، رافقته سرية من الخيالة، بحمل العلم الحيدري من إسطنبول إلى العراق في خريف عام 1915. وشاع أن الوفد وزع الليرات الذهبية على الطريق لتأمين دعم شيوخ العشائر الأكثر طمعاً بالأصفر الرنان. زار الوفد أولاً مدينة النجف، التي تمثل المركز السياسي لشيعة العراق وتضم مرقد الإمام. كانت الثورة

---

* يـورد المؤلف هنا معلومات يعرفها القراء العرب كلهم عن ظهـر قلب: علي بن أبي طالب هو ابن عم النبي وصهره والخليفة الراشدي الرابع. وكلمة "شيعة" مستمدة من "شيعة علي" أي أنصاره وحزبه.

ضد الحكومة قد اندلعت هنا في مايو 1915. خطط العثمانيون لإخراج العلم الحيدري ورفعه على المسجد الذين دفن فيه الإمام، في شهر محرم أقدس الأشهر عند الشيعة.

أخرج العلم أمام جماهير غفيرة من المؤمنين المتحمسين غص بهم الصحن الشريف في اليوم الحادي عشر من محرم الموافق للتاسع عشر من نوفمبر. دبج وجهاء الشيعة قصائد رنانة حول الدعوة المتجددة للجهاد ضد الكفار البريطانيين، "عبدة الصليب" -في إشارة لا إلى ديانة الجنود البريطانيين المسيحيين فحسب، بل إلى الحروب الصليبية القروسطية التي تقاتل فيها المسلمون والمسيحيون في شرق البحر المتوسط.

مالت حظوظ الحرب إلى جانب أسطورة الراية. ففي الأيام العشرة التي تطلبها نقل العلم من النجف إلى بغداد، حقق الجيش العثماني أول انتصار له ضد البريطانيين. سارع معاون الوالي في بغداد إلى إظهار الصلة الأسطورية في خطبته أمام الأهالي الذين خرجوا للترحيب بالراية السحرية الغامضة. "إن هذا العلم الشريف لم يخرج من النجف ولم يكد يتقدم حتى تأخر العدو وفشل في هجومه الكبير على سلمان باك"، كما ترنم شفيق بك، فزمجرت الحشود معلنة موافقتها. شعر مواطنو بغداد الذين أضناهم القلق بالارتياح حين دفع الجيش العثماني البريطانيين بعيداً عن مدينتهم، وتجرؤوا على الأمل بالنصر -حتى وإن تطلب تدخل العناية الإلهية.

* * *

بينما رفعت السلطات العلم الحيدري الشريف في العراق، استأنفت جماعة من الضباط العثمانيين جهادها في الصحراء الليبية. في مايو 1915، دخلت إيطاليا الحرب العظمى إلى جانب قوى الوفاق. استغل الاتحاديون من أعضاء تركيا الفتاة الفرصة لتقويض أركان الموقف الإيطالي المزعزع في ليبيا، التي أجبر العثمانيون على التنازل عنها عام 1912. وعبر تشجيع التطرف الديني في المنطقة الحدودية بين ليبيا ومصر، أمل العثمانيون وحلفاؤهم الألمان بإضعاف بريطانيا وإيطاليا معاً بتهديد مستعمرتيهما في شمال إفريقيا. وكان شريكهم في الجهاد زعيم الطريقة السنوسية، سيد أحمد الشريف السنوسي[31].

الطريقة السنوسية حركة صوفية قوية تمركزت في ليبيا، مع شبكة من الزوايا الدينية امتدت في شتى أرجاء شمال إفريقيا، وأعضاء في مختلف البلدان العربية. تسلم سيد أحمد زعامة الطريقة منذ عام 1902، وقاد القوات السنوسية في الحرب الإيطالية-التركية عام 1911. كما استمر في قتال الطليان حتى بعد أن تنازل العثمانيون عن ليبيا إلى روما عام 1912. وهكذا، جعله موقعه على رأس طريقة صوفية إسلامية عابرة الحدود، وسمعته بوصفه محاربًا الغزاة الأجانب، شريكاً قوياً لمسعى الجهاد العثماني.

في يناير 1915، انطلق اثنان من الضباط العثمانيين النافذين في رحلة خطرة من إسطنبول إلى ليبيا. رأس المهمة نوري بك، شقيق ناظر الحربية أنور باشا. رافقه جعفر العسكري، من أهالي الموصل شمال العراق. درس العسكري في الأكاديمية الحربية العثمانية واستكمل تدريبه في برلين، وكان عضواً مؤسساً لفرع الموصل من الجمعية العربية السرية "العهد". وعلى غرار كثير من زملائه الضباط العروبيين، عارض بحماسة شديدة البريطانيين والفرنسيين في مسعاهم لغزو الأراضي العثمانية والعربية واقتسامها. كان يدافع عن الأراضي العثمانية ضد التعدي الأوربي، لكنه ناصر أيضاً حقوق العرب ضد الهيمنة التركية. شعر جعفر العسكري بالرضا والارتياح لقيامه بمهمة تقديم العون للسنوسي.

ذهب نوري وجعفر أولاً إلى أثينا، حيث ابتاعا سفينة بخارية صغيرة وكمية من الأسلحة لنقلها معهما إلى ليبيا. ومن أجل مراوغة سفن العدو الحربية في شرق المتوسط، اتجها إلى كريت في انتظار الظروف المناسبة للانطلاق إلى الساحل الليبي. وأمرا الربان بإنزالهما على بقعة معزولة من الشاطئ بين بلدة طبرق الليبية وبلدة السلوم الحدودية المصرية. نزل الاثنان على الساحل الليبي في فبراير 1915 في مكان يبعد نحو عشرين ميلاً عن الحدود المصرية، واتصلا على الفور بسيد أحمد السنوسي[32].

وجد الضابطان العثمانيان الزعيم السنوسي منهمكاً في تحقيق توازن صعب. فمن ناحية، احتاج إلى الحفاظ على علاقات طيبة مع البريطانيين في مصر للإبقاء على خط الإمداد الوحيد لحركته مفتوحاً، بعد أن طوقها الأعداء الطليان من الغرب والفرنسيون في تشاد من الجنوب. خطب البريطانيون علناً ود سيد أحمد للحفاظ على حدود مصر الغربية آمنة.

لكنّ العثمانيين، من ناحية أخرى، كانوا هناك لتذكيره بواجبه، باعتباره زعيماً إسلامياً مؤثراً، بتشجيع الجهاد ضد الغزاة الأجانب. "ليس ثمة شك في أنه يفضل في أعماقه العثمانيين، لكن ثبت دوماً استحالة تبديد ما تتصف به الحالة المزاجية العامة لهذا الزعيم العربي من كآبة وريبة وتوجس"، حسبما زعم جعفر العسكري.

نتج عن رجال القبائل السنوسية جيش غير نظامي على درجة كبيرة من الفوضى. حشد بعضهم وفقاً للخطوط القبلية. وجند غيرهم من المدارس الدينية، ومنهم فوج من نخبة مقاتلة مؤلفة من أربعمئة رجل دين، كان في الواقع فوج الحرس الشخصي لسيد أحمد. "ترتيلهم الرتيب لآي الذكر الحكيم بنبرة خفيضة مبحوحة ومسموعة طوال نوبة الحراسة شكل مشهداً إيمانياً يثير الروع، ويؤثر تأثيراً عميقاً في كل من يراه"، كما تذكر جعفر العسكري. تولى هو، مع نحو عشرين من الضباط العرب والترك، تنظيم هذا الحشد الفوضوي في قوة عسكرية قياسية قبل إطلاقها ضد البريطانيين غرب مصر. ووفقاً لأدائها في ميدان المعركة، نال جعفر العسكري اعتراف البريطانيين فيما بعد باعتباره "مدرباً ممتازاً للرجال"[33].

عيل صبر القادة العثمانيين، بعد أن أمضوا عدة أشهر في شرق ليبيا، في انتظار هجوم يشنه السنوسيون. وحين أصيب نوري بك بالإحباط نتيجة تردد سيد أحمد، شجع بعض الزعماء السنوسيين الثانويين على قيادة هجوم على المواقع البريطانية في أواخر نوفمبر 1915. غضب سيد أحمد على ضباطه الذين تصرفوا دون إذنه، لكن ابتهج العثمانيون أخيراً حين أجبرت الهجمات السنوسية يوم 22 نوفمبر البريطانيين على التقهقر. فقد تخلوا عن مواقعهم الحدودية في السلوم وتراجعوا إلى مرسى مطروح، على بعد نحو 120 ميلاً إلى الشرق.

اكتسبت الحركة السنوسية زخماً قوياً حين انضمت قبيلة أولاد علي إلى الهجوم على المواقع البريطانية. عبرت كتيبة من فيلق الهجانة المصري الخطوط للانضمام إلى الحركة العربية المتنامية ضد البريطانيين. فر أربعة عشر ضابطاً و120 جندياً من حرس السواحل المصري مع أسلحتهم ومعداتهم وجمالهم لمناصرة القضية السنوسية. وفي أعقاب حالات الانشقاق هذه، سحب البريطانيون وحدات المدفعية المصرية "المشكوك" في ولائها من مرسى مطروح

كإجراء احترازي. شجعت هذه التطورات طموحات العثمانيين بتحفيز انتفاضة مصرية أوسع ضد البريطانيين، كما رفعت الروح المعنوية للمقاتلين السنوسيين.

تحرك البريطانيون بسرعة لاحتواء التهديد الذي شكله الجهاد السنوسي. أرسل نحو 1.400 من الجنود البريطانيين والأستراليين والنيوزيلنديين والهنود إلى مرسى مطروح للخدمة في "قوة الحدود الغربية" المشكلة حديثاً، والمعززة بالمدفعية والعربات المصفحة والطائرات. تمثلت مهمتهم في إعادة تثبيت السيطرة البريطانية على الحدود الليبية، ومنع سيد أحمد من تأجيج ثورة أوسع في مصر والعالم العربي في شهر ديسمبر الخطر، حين شعر البريطانيون بانكشافهم وضعفهم بوجه خاص في غاليبولي وبلاد الرافدين.

في 11 ديسمبر 1915، انطلقت وحدات من "قوة الحدود الغربية" من مرسى مطروح للهجوم على القوات العربية المعسكرة على بعد نحو ستة عشر ميلاً إلى الغرب. وحين وصل المشاة البريطانيون إلى المدى المجدي، فتح السنوسيون نيران بنادقهم، فأوقفوا تقدمهم إلى أن تمكنت المدفعية والخيالة من نجدتهم. استمر القتال يومين اثنين، شن خلالهما العرب هجماتهم بانضباط شديد. وبعد أن تبعثر رجال القبائل جراء نيران المدافع، أجبروا على التراجع في نهاية المطاف تحت ضغط فوج الفرسان الأسترالي الخفيف في 13 ديسمبر. أصيب الطرفان بخسائر قليلة نسبياً في أول مناوشة بينهما، على الرغم من مقتل رئيس الاستخبارات البريطانية في "قوة الحدود الغربية"[34].

شن البريطانيون هجوماً ثانياً مباغتاً على المواقع السنوسية فجر عيد الميلاد. أدى الظهور المفاجئ لقوات العدو إلى انتشار هالة من الهلع بين رجال القبائل العرب. وبحلول الوقت الذي وصل فيه جعفر العسكري إلى الجبهة، وجد جنوده "يتراجعون بطريقة توحي بتعرضهم لهزيمة نكراء لا انسحاب منظم"، حسب تعبيره. جهد لإعادة الانضباط إلى صفوف رجاله، وتبين له أن الوضع بالغ السوء بعد تقييمه مع شروق الشمس: "أستطيع أن أرى أن العدو يطوق موقعنا من جميع الجهات". هنالك كتيبتان من المشاة تقتربان من الغرب، وقوة كبيرة من الفرسان تهدد جناحه الأيمن، وطابور ضخم يزحف على الطريق من مرسى مطروح باتجاهه، بينما تقصف سفينة حربية بريطانية راسية في الخليج المواقع

العربية بدقة متنامية. اعترف قائلاً: "كان المشهد مرعباً تماماً، وواجهت صعوبة بالغة في إبقاء الرجال في مواقعهم".

بعد يوم من القتال العنيف، أجبر البريطانيون القوات العربية على التقهقر من مواقعها على قمة التل. ونجا جعفر العسكري نفسه من الأسر بصعوبة، وإن استولى النيوزيلنديون على خيمته وأوراقه كلها. "تراجعنا عند المغيب. وتركنا قتلانا وجرحانا تحت رحمة العدو، بعد أن استهلكنا أو فقدنا آخر ما لدينا من زاد وذخيرة"، كما سجل. أضرت الهزيمة بالروح المعنوية للمقاتلين العرب، وسجل الضباط العثمانيون "نزفاً ثابتاً من حالات الفرار".

حقق البريطانيون النصر، لكنهم لم يدمروا بعد الجيش السنوسي الذي زاد عدد حتى وصل إلى 5.000. تمتع سيد أحمد ببعض المزايا المهمة نتيجة سيطرة مقاتليه من القبائل العربية على الخط الساحلي الممتد من السلوم إلى بلدة مرسى مطروح المحصنة حيث يتمركز البريطانيون. بينما واصلت الغواصات الألمانية رحلاتها إلى السواحل الليبية والمصرية جيئة وذهاباً، حاملة المدافع والذخيرة والمال إلى الضباط العثمانيين الذين يقدمون المشورة إلى الحملة الليبية. فضلًا عن ذلك كله، دفعت أخبار الجلاء البريطاني عن غاليبولي، وانقلاب الحظوظ في الرافدين، كثيرين في مصر إلى التطلع إلى الانتفاضة السنوسية أملاً بالتحرر من النظام الاستعماري البريطاني المكروه.

* * *

كان المخططون الحربيون البريطانيون أشد قلقاً وأكثر انشغالاً بالانقلاب الذي عكس المسار في الرافدين، من التحديات التي شكلتها حفنة من المتشددين السنوسيين في صحراء مصر الغربية. ردت الفرقة السادسة (بونا) التي لم تهزم قط على أعقابها أمام سلمان باك وأجبرت على التقهقر تحت وابل من نيران العدو. وافتقر القادة البريطانيون في الرافدين إلى القوات الكافية لحماية جيش تاونزند المهزوم. وإلى أن تصل التعزيزات الموعودة إلى البصرة، لن يملك البريطانيون ما يحتاجون إليه من الجنود للاحتفاظ بالبلدات التي احتلوها في السنة الأولى من الحملة.

بعد مسيرة متواصلة استمرت أسبوعاً تحت القصف، دخل الجنود الهنود والبريطانيون المنهكون الشوارع المألوفة في كوت العمارة يوم 2 ديسمبر. تتوضع البلدة المزدهرة على منحنى في مجرى دجلة على شكل حدوة حصان، وتعد مركزاً محلياً لتجارة الحبوب، وتشتهر دولياً بتصدير جذور عرق السوس. أما بيوتها المشيدة من الآجر الطيني، التي تضم باحة في الوسط وتزينها زخارف خشبية منمقة، فترتفع عدة طوابق. تشمل مبانيها العامة الكبيرة، دار الحكومة، ومسجدين أحدهما بمئذنة بديعة، وسوقاً مسقوفاً كبيراً استولى عليه البريطانيون وحولوه إلى مستشفى عسكري. بينما أصبحت القلعة المبنية بقوالب الآجر التي تهيمن على النهر من الجهة الشمالية-الشرقية حجر الزاوية في خط الدفاع البريطاني الممتد عبر عنق شبه الجزيرة على الضفة اليسرى من دجلة.

تساءل بعض ضباط تاونزند عن الحكمة في الانكفاء إلى الكوت. فمن المؤكد أن البلدة سوف تتعرض بسبب موقعها للتطويق والحصار من العثمانيين. ما يجعل سكانها المدنيين، لا الجيش الهندي وحده، في خطر مميت داهم. وبينما استسلم الأهالي للبريطانيين دون قتال، فإن من المتعذر الاعتماد على تعاونهم في حالة الحصار الطويل. درس تاونزند وضباطه البدائل ووازنوا بين تهجير المدنيين، بما ينتج عنه من أزمة إنسانية جراء تشريد 7.000 من أهالي الكوت، وبين إجبارهم على تقاسم مشقات الحصار. قرروا في النهاية ترك سكان الكوت في بيوتهم باعتباره أهون الشرين. وأثبتت الحوادث خطأ قرارهم.

قبل تاونزند بحتمية الحصار، اعتقاداً منه بأنه لن يطول. منحه الناجون من سلمان باك، بالاقتران مع حامية الكوت قوة عددها 11.600 مقاتل ونحو 3.350 من غير المقاتلين، مع جرايات من المؤن تكفي ستين يوماً. كان على ثقة بأن جنوده يستطيعون الصمود أمام حصار بضعة أسابيع إلى أن تصل التعزيزات الموعودة إلى الرافدين في يناير لنجدته واستئناف فتح العراق.

وصلت الطلائع التركية المتقدمة إلى الكوت يوم 5 ديسمبر. وبدأت قوات نور الدين باشا اتخاذ مواقع لها حول البلدة. وبحلول 8 ديسمبر، طوقت الكوت تماماً. غير العثمانيون مسار المعركة تغييراً جذرياً بعد سنة من التراجع في الرافدين أمام الجيش الإنكليزي-الهندي. استشعر الجيش العثماني اقتراب النصر، تحت العلم الحيدري الشريف المرفرف فوق دجلة.

10

حصار الكوت

منذ لحظة دخول الاتحاديين من أعضاء تركيا الفتاة الحرب العظمى، عدّ البريطانيون العثمانيين الحلقة الأضعف في سلسلة قيادة القوى المركزية. واعتمد المخططون الحربيون في "وايتهول" على إلحاق هزيمة سريعة بالامبراطورية العثمانية لتحقيق اختراق أفلت من قوات دول الوفاق على الجبهة الغربية. لم يظهر دليل مهم في أداء الجيش العثماني في الأشهر الستة الأولى من الحرب يتحدى هذه الآراء. هاجمت سفن الحلفاء السواحل العثمانية دون رد رادع، وأمن البريطانيون السيطرة على ولاية البصرة بسهولة نسبية، بينما انتهت الحملات التي اختار العثمانيون شنها في القوقاز وسيناء بإخفاق ذريع مذل.

ثبت أن حملة الدردنيل شكلت نقطة تحول كبرى. فقد صمد الترك في مواقعهم أمام ضغط شديد متواصل من جانب الحلفاء، وأجبروا الغزاة على إجلاء جنودهم بطريقة مذلة. فجأة، اتخذ البريطانيون موقف الدفاع وأجبروا على التراجع والتخلي عن مناطق احتلوها أمام المبادرات العثمانية. اجتاحت القوات التركية المحمية البريطانية في جنوب اليمن وشكلت تهديداً لميناء عدن الحيوي. بينما اكتسح رجال القبائل الليبية، بقيادة ضباط عثمانيين، الحدود الغربية لمصر؛ ما أجبر البريطانيين على التخلي عن أكثر من 120 ميلاً من الساحل. وفي الرافدين، حاصر نور الدين بك فرقة بريطانية كاملة في كوت العمارة.

لم يشكل أي من هذه الهجمات العثمانية بحد ذاتها تهديداً مهماً للمجهود الحربي للحلفاء. فقد كان البريطانيون على ثقة بأنهم في نهاية المطاف سينتصرون على البدو العرب في اليمن وصحراء مصر الغربية. واعتبروا حصار الكوت تأخيراً مؤسفاً لفتح بغداد المحتوم. وما أقلق البريطانيين أكثر تأثير الهزيمة في غاليبولي والنكسات في اليمن وليبيا والرافدين في الرأي العام في شتى أرجاء العالم الإسلامي. اعتقدوا أن مروجي الدعاية الألمان العاملين في الشرق الأوسط وجنوب آسيا استغلوا كل نصر عثماني. وخافوا من مواجهة العصبية الدينية على الجبهة، ومن انتفاضات إسلامية في المستعمرات. بهذا المعنى، أثبت البريطانيون والألمان أنهم أكثر استجابة لدعوة الخليفة إلى الجهاد من الرعايا العثمانيين أو المسلمين في أرجاء الشرق الأوسط، وشمال إفريقيا، وجنوب آسيا[1].

وفي سبيل تخفيف مخاطر الجهاد، اعتقد البريطانيون أنهم بحاجة إلى إعادة توكيد هيمنتهم على العثمانيين -عبر استعادة المناطق التي خسروها، ونجدة الجنود المحاصرين في الكوت، واستئناف غزو الأراضي العثمانية. وكان من الضروري منع الترك من تحقيق مزيد من الانتصارات مهما بلغت التكاليف.

ومع ذلك كله، هنالك قيود محددة فعلية لما يمكن للبريطانيين تخصيصه للجبهة العثمانية، في مواجهة استنزاف لا يتوقف على الجبهة الغربية. في فبراير 1916، شنت ألمانيا هجوماً رئيساً جديداً على المواقع الفرنسية في فردان. باشر رئيس هيئة الأركان الألماني، الجنرال إريش فون فالكنهاين ما أسماها "حرب استنزاف"، لا للاستيلاء على فردان بل استنزاف الجيش الفرنسي إلى أن يفنى دفاعاً عن مواقعه. صمد الفرنسيون أمام الهجوم الألماني عشرة أشهر، وتحملوا قصف المدفعية الثقيلة بمعدل وصل إلى أربعين قذيفة/ الدقيقة في بعض القطاعات. وبحلول الوقت الذي أوقف فيه الألمان هجومهم في ديسمبر 1916، ساوت خسائرهم (337.000 قتيل وجريح) خسائر الفرنسيين تقريباً (377.000 قتيل وجريح). احتاج البريطانيون إلى الحفاظ على أعداد كافية من الرجال على الجبهة الغربية لمؤازرة حلفائهم الفرنسيين، ومنع الألمان من تحقيق اختراق حاسم يمكن أن يكسبهم الحرب.

تمثلت المعضلة التي واجهت المخططين الحربيين في باريس ولندن في كيفية تحقيق توازن في نشر القوات، بحيث يحرم العثمانيون من تحقيق نصر كبير قد يبعث الروح في الدعوة إلى الجهاد، من دون سحب جنود من معركة الحياة أو الموت على الجبهة الغربية. وارتكبوا خطأ في الموازنة عند نجدة الكوت.

* * *

تبدت أخطار الحياة تحت الحصار على الفور للمدافعين عن كوت العمارة، الذين شعروا حتماً كأنهم سمك في برميل كما يقول المثل. "شرع الترك في تجفيف المكان بالقذائف، وعندما اقتربوا كنسوا الأرض المسطحة كلها بنيران المدافع الرشاشة. من هذا اليوم، أصبح القنص من ضفة النهر خطراً أيضاً"، كما تذكر جي. إل. هيوود، الضابط الصغير الملحق بكتيبة المشاة الخفيفة أوكسفوردشاير وبكنغهامشاير. وحين كافح البريطانيون لتعميق خنادقهم تحت قصف لا يلين، دفع العثمانيون خنادقهم مسافة أقرب إلى خطوط العدو. "في أثناء هذه الأيام المبكرة، لم يشن الترك هجوماً فعلياً، بل اقتربوا جداً، ومرت علينا ليال مقلقة"، كما اعترف هيوود، مع وصول الخطوط التركية إلى مسافة لا تزيد على 100 ياردة من المواقع البريطانية[2].

زار الفيلد مارشال كولمار فون دير غولتز، القائد الألماني للجيش العثماني السادس جبهة الكوت، والتقى بنور الدين بك وناقشا الاستراتيجية. اختلف القائدان اختلافاً جوهرياً؛ إذ أراد نور الدين، الضابط المقاتل دائماً وأبداً، اجتياح الكوت وهزيمة البريطانيين بأسلوب مباشر وصريح. بينما قدم غولتز، المصمم على تجنيب قواته خسائر لا ضرورة لها، الحجة لمصلحة تشديد الحصار لتجويع البريطانيين وإجبارهم على الاستسلام. وبسبب عجز القائدين عن التوصل إلى حل للاختلافات بينهما، انتظر نور الدين مغادرة غولتز لتفقد الجبهة الفارسية، قبل إرسال جنوده إلى المعركة[3].

شن القائد العثماني هجومه على الكوت عشية عيد الميلاد. أحدثت المدفعية ثقوباً ضخمة في جدران القلعة المشيدة بقوالب الآجر، حيث جهد الجنود البريطانيون والهنود لصد موجات

عنيدة من المشاة الترك التي تكتسح خنادقهم. تلقت وحدة هيوود وطأة الهجوم التركي: "واصلوا الهجوم بعد الغسق وبقيت مدافعهم تقصف طوال الليل.. تمكنوا من الحصول على موطئ قدم في أحد حصون القلعة، وثكنة مؤقتة بنيت من بالات القش، تخزن علب التنك، وأكياس الطحين، وجميع المواد التي يجب أن تكون في متناول اليد. كان العدو على جانب ورجالنا على الآخر، واستمر القصف على هذه الثكنة معظم ساعات الليل، وسقطت أغلبية ضحايا عيد الميلاد هنا". كانت خسائر الجانبين ثقيلة، لكن كما جرت العادة في الحرب العظمى، أصيب المهاجمون بأفدحها. ومع انبلاج الفجر في الكوت صباح عيد الميلاد، تكدس القتلى والجرحى الترك في أكوام امتدت من الخنادق البريطانية إلى الخطوط العثمانية. كتب كثير من الناجين البريطانيين عن محاولاتهم مساعدة الجرحى الترك الذين حاصرتهم نيران القصف بين خطوط المتحاربين. في النهاية، ألقوا بالخبز وزجاجات المياه إلى الجرحى القريبين، وبرّحهم أنين المصابين إلى أن جلب الموت بمرور الوقت صمت القبور على ميدان المعركة المريعة. بعد أسابيع، بقي كثير من القتلى الترك حيث سقطوا عشية عيد الميلاد.

بعد معركة 24 ديسمبر، لم يبذل نور الدين مزيداً من المساعي لاجتياح المواقع البريطانية. وأمر رجاله، وفقاً لاستراتيجية غولتز، بتضييق الحصار بدلاً من ذلك، حيث قطعوا عن الكوت جميع خطوط الإمداد وأخضعوا المناطق المحصنة إلى قصف مستدام بالمدافع والأسلحة الرشاشة ونيران القناصة. لكن حين عاد غولتز من الجبهة الفارسية، روعته الخسائر التي أصيب بها العثمانيون في هجوم عيد الميلاد وشرع في إجراءات نقل نور الدين إلى جبهة القوقاز. استبدل به في أوائل يناير خليل بك وهو ضابط واسع الصلات والنفوذ، وقريب أنور باشا ناظر الحربية.

أصيب البريطانيون أيضاً بخسائر في هجوم عيد الميلاد، وتساءل القائد البريطاني في الكوت، الجنرال تشارلز تاونزند، إلى متى يستطيع أن يصمد أمام حصار كهذا. توصل بالحساب، اعتماداً على تجربته في الأسابيع الأولى في الكوت، إلى أن معدل خسائر يومية يتجاوز 75 قتيلاً وجريحاً ومريضاً، يقلص جيشه من قوته الحالية البالغة 7.800 إلى 6.600 بحلول 1 يناير، ونحو 5.400 فقط في منتصفه. ومع ذلك، تمكن عبر الاتصال

برقياً بمقر القيادة من إقناع رؤسائه بالحاجة إلى عمل سريع لنجدة جيشه وهو ما يزال قوياً بما يكفي للمشاركة في عملية تحريره من الحصار[4].

بدأت التعزيزات البريطانية تتجمع في الرافدين. كان اللواء 28 بقيادة الجنرال جورج يونغهازبند أول الواصلين، بعد أن ترك عدن مؤمنة ضد مزيد من الهجمات العثمانية، وغادر إلى حيث تشتد الحاجة الملحة إليه للتصدي للأزمة في الرافدين. نزل جنوده في البصرة يوم 2 ديسمبر. كما وصل القائد الجديد لقوة النجدة، الجنرال السير فينتون أيلمر في الأسبوع نفسه. أعطى الجنرال جون نيكسون، القائد العام لـ"قوة حملة الرافدين" (MEF)، أوامره إلى أيلمر في 8 ديسمبر: هزيمة العثمانيين على دجلة ونجدة تاونزند في الكوت. لم يعد أحد يفكر في فتح بغداد.

بدا أيلمر على ثقة، بعد تحرك فرقتين من الجيش الهندي من فرنسا إلى الرافدين، بأنه سيمتلك بحلول فبراير 1916 القوة البشرية الكافية لتحقيق أهدافه. لكن تاونزند المحاصر لم يعتقد أنه قادر على انتظار النجدة حتى فبراير. فمع كل أسبوع يمر، يرى قوته تضعف بينما يحظى الجيش العثماني بتعزيزات ثابتة ومستمرة. الوقت هو الأساس؛ كان من الضروري توجيه الضربة قبل أن تكتسح القوات العثمانية المتفوقة الجيش الهندي في الكوت.

شاركت القيادة البريطانية العليا تاونزند مخاوفه، مدركة التبعات والعواقب السياسية لهزيمة في الرافدين تعقب الفشل في غاليبولي بمدة قصيرة. وبوجود ثلاثة ألوية فقط في متناوله -نحو 12.000 رجل إجمالًا- أمر أيلمر الجنرال يونغهازبند بالتقدم نحو المواقع العثمانية على دجلة في 3 يناير 1916. أعلن يونغهازبند، الذي أفزعه الاضطرار إلى الاشتباك مع العثمانيين قبل بلوغ قوة النجدة قدراتها الكاملة، أعلن في مذكراته فيما بعد أن هذه الأوامر كانت "خطأ مميتاً. إذ يتحمل هذا التحرك المبتسر مسؤولية جميع المآسي التي تعاقبت واحدة إثر الأخرى أثناء الأشهر الأربعة اللاحقة"[5].

* * *

أقام الجيش العثماني عدة خطوط دفاعية بين طابور النجدة بقيادة أيلمر وقوات تاونزند في الكوت. أرسلت فرقتان عثمانيتان لتعزيز الحامية في بغداد. وبحلول يناير 1916، تمتع الجيش السادس بتفوق عددي على القوات البريطانية على دجلة –حسب التقديرات البريطانية، كان لدى الترك نحو 27.000 جندي في الميدان، بينما لم يتجاوز مجموع قوات طابور أيلمر ووحدات تاونزند المحاصرة 23.000 رجل. وإذا وثق البريطانيون بالنصر، فلأنهم استمروا في التقليل من قوة عدوهم.

اشتبكت قوة النجدة بقيادة أيلمر مع العثمانيين أول مرة يوم 7 يناير بالقرب من قرية الشيخ سعد، على بعد نحو خمسة وعشرين ميلاً جنوب الكوت. امتدت الخنادق التركية أميالاً على جانبي النهر؛ ما أجبر البريطانيين على شن هجوم جبهي مباشر في أرض مسطحة تحت قصف عنيف ودقيق من نيران المدافع والرشاشات والبنادق. بلغت خسائر البريطانيين 4.000 قتيل وجريح قبل أن يستولوا على الخنادق التركية في أربعة أيام من القتال العنيف. وعلى الرغم من هذه الخسائر، فقد أعلنوا النصر وأقاموا قاعدة معسكرهم في الشيخ سعد. أرسل أيلمر برقية إلى الجنرال تاونزند في الكوت، التي حافظت على الاتصال البرقي بالعالم الخارجي طوال مدة الحصار، يبلغه فيها أن طابور النجدة يتقدم على جانبي دجلة. وبعد خمسة وثلاثين يوماً تحت الحصار، أثار هذا الخبر "بهجة عظيمة" بين الجنود المحاصرين في شرك الكوت، كما لاحظ قسيس الجيش هارولد سبونر في يومياته[6].

بعد أربعة أيام، اشتبكت قوات أيلمر مع العثمانيين عند رافد لدجلة اسمه الوادي. نجحت القوات البريطانية، بعد أن قاتلت تحت أمطار غزيرة ورياح شديدة، في دفع العثمانيين إلى الوراء مرة ثانية. خسر البريطانيون 1.600 قتيل وجريح، ما قلص عدد طابور أيلمر إلى 9.000 رجل فقط. ومع ذلك، تابعوا الزحف لمواجهة المواقع العثمانية الأشد صلابة ومناعة وتحصيناً في أم الحنة، وهي امتداد ضيق من الأرض بين المستنقعات التي يستحيل عبورها ونهر دجلة.

في 21 يناير، أمر أيلمر جنوده بشن هجوم جبهي مباشر عبر الأرض المفتوحة على المواقع التركية المحصنة. انزلق المهاجمون وتعثروا على الطين اللزج الذي خلفته أيام من المطر المدرار،

تحت قصف تركي عنيف دون أن يجدوا شجرة يحتمون بها. ولأول مرة في حملة الرافدين يزيد ما لحق بالبريطانيين من خسائر على ما ألحقوه بعدوهم. وبعد يومين من المعركة، لم يجدوا من خيار سوى التوقف عن الهجوم والتراجع من "موقع الحنة بذكراه الشنيعة"، حسب تعبير يونغهازبند. وبعد أن فشل الجنرال أيلمر في محاولته الأولى لفك الحصار عن الكوت، أجبر على انتظار مزيد من التعزيزات لإعادة بناء صفوفه المستنزفة قبل القيام بمحاولة ثانية[7].

لاحظ القس سبونر في يومياته في الكوت بتاريخ 23 يناير: "أخشى أن تكون قوات النجدة غير كافية للاختراق على ما يبدو، ولذلك فهي تتخندق في مواقعها.. وتنتظر التعزيزات". وبعد الآمال بنجدة وشيكة، وجب على الجنود التكيف مع مجابهة الحصار عدة أسابيع أخرى. "ثمة وضع صعب في انتظارنا لأن الترك سوف يتلقون تعزيزات قوية دون شك"، كما توقع سبونر. واختتم وفق التقليد البريطاني المعهود: "لكن هل ضعفت معنوياتنا؟ لا، لا أبداً".

كانت للسحب الماطرة التي عرقلت عمليات النجدة بقيادة أيلمر بطانة فضية إذا جاز القول*. إذ أتخمت الأمطار الغزيرة مجرى دجلة، ففاضت مياهه وغمرت الخنادق التركية والبريطانية على جبهة الكوت، ما أجبر الطرفين كليهما على الانسحاب إلى مواقع تفصلها مسافة لا تقل عن 2.000 ياردة من الماء. سبب البلل بؤساً وشقاء في كل مكان، لكن حال دون شن أي هجمات تركية مباغتة إلى أن يتراجع مستوى المياه مجدداً. تمثل تحدي تاونزند في الحفاظ على قواته في حالة من الجاهزية القتالية حتى ينحسر النهر ويتيح لطابور النجدة الوصول.

احتل تخفيض استهلاك قواته قمة أولوياته. في 22 يناير، أمر بتقليص الجرايات كلها إلى النصف. طبقت هذه القيود على أهالي الكوت (6.000 نسمة) إضافة إلى قواته؛ لأن جميع الأفواه يجب أن تطعم من الموارد المحدودة ذاتها. ثم أمر الجنود البريطانيين بإجراء تفتيش من بيت إلى بيت لمصادرة مخازن الطعام. اكتشف الجنود تسعمئة طن من الشعير، ومئة طن

* "لكل غيمة تحجب الشمس بطانة فضية"، مثل إنكليزي ربما يشابه في الدلالة "إن مع العسر يسراً" في العربية.

من القمح، وتسعة عشر طناً من السمن. ومع أن عمليات التفتيش أغضبت سكان الكوت المدنيين، فإن المواد التموينية المصادرة، حين أضيفت إلى محتويات المخازن البريطانية وقدمت على شكل نصف جراية لكل فرد من الجنود والأهالي على حد سواء، جعلت المؤن الغذائية تكفي أربعة وثمانين يوماً بدلاً من اثنين وعشرين[8].

كان تخفيض جراية الطعام أحدث المشقات التي عاناها أهالي الكوت. فقد اغتصب البريطانيون متاجرهم في السوق المسقوف وحولوها إلى مستشفى لجنودهم المرضى والجرحى. وانتهكت حرمة منازلهم باستمرار، حين فتح الجنود ثقوباً في الجدران لتوفر لهم ممرات آمنة تحميهم من الرصاص، كما انتزعوا الزخارف الخشبية منها لاستخدامها حطباً. تعرض المدنيون، مثلهم مثل الجنود، للنيران الفتاكة ذاتها، ما جعل ممارسة الأعباء اليومية خطراً يهدد الحياة. شهد القس سبونر فجيعة الأهالي اليائسين وحزنهم على امرأة قتلت وهي تحضر الماء من النهر. كانت المسكينة واحدة من نحو تسعمئة ضحية قضوا جراء الحصار.

وقع سكان الكوت "بين نارين" إذا جاز التعبير: بين البريطانيين الذين اشتبهوا بأنهم ينقلون معلومات استخبارية إلى العثمانيين، وبين الترك الذين اعتبروهم متآمرين لأنهم يوفرون ملجأ للبريطانيين في بلدتهم. كان الترك المحاصرون يطلقون النار على أي مدني يحاول الفرار من الكوت. فقد اعتبروا أن الأهالي ليسوا سوى أفواه تسرع استنزاف المواد التموينية المحدودة لدى الجيش البريطاني.

فرضت جرايات الطعام المقننة تمايزاً في المشقة بين الجنود البريطانيين والهنود في الكوت. فقد كان الجنود الهندوس نباتيين رفضوا، لأسباب دينية وذوقية، جراية اللحم المكملة لمؤن الخبز والخضار المتناقصة باطراد. كما امتنع الجنود المسلمون عن تناول اللحم بعد أن استنفد البريطانيون مورد لحوم العجل والضأن وبدؤوا ذبح خيول الجر والبغال لإطعام الجنود. في البداية، حافظ تاونزند على جراية كبيرة من الطحين والخضار لجنوده الهنود، بينما التمس فتوى من المراجع الدينية الهندوسية والإسلامية في الهند تبيح لجنوده أكل اللحم. لكن الجراية المقننة تركت أضرارها. فمع تناقص الحريرات في النظام الغذائي اليومي، عانى الجنود الهنود تأثيرات التعرض للبرد والبلل، فمرضوا، وماتوا بأعداد أكبر من الجنود البريطانيين من أكلة اللحوم.

واصل العثمانيون العزف على وتر الانقسامات العرقية في جيش تاونزند. وجد البريطانيون آلافاً من المنشورات الدعائية التي أصدرتها المطبعة الحكومية في بغداد، بالهندية والأوردية، عند تفتيش الخنادق الأمامية التركية المهجورة بسبب الفيضان. ربطت هذه المنشورات، وفقاً للقس سبونر، بأحجار كانت سترمى على الخطوط البريطانية، لحث "الجنود على قتل ضباطهم (الإنكليز) والتمرد والانضمام إلى الأتراك ليكونوا بحماية رب العالمين، وسيلقون معاملة أفضل ورواتب أعلى".

قبلت أقلية ضئيلة من الجنود الهنود الدعوة التركية. كان الجنرال تاونزند منذ نهاية ديسمبر قد بلغ عن "بعض الحوادث غير المرضية" بين جنوده الهنود. بينما بدا آخرون أكثر صراحة ووضوحاً منه. "سمعت عدة مرات في أثناء الحصار عن هنود (مسلمين) تركوا خنادقنا وهربوا إلى الترك. لكن قبض على عدد منهم عند محاولة الفرار من خطوطنا وقتلوا أمام وحداتهم"، كما روى "المدفعجي" البريطاني دبليو. دي. لي. تشير الأدلة إلى أن جزءاً صغيراً فقط من الجنود الهنود عبروا إلى الخطوط العثمانية -لا يزيد عددهم على اثنين وسبعين وضعوا على قائمة "المفقودين" عند نهاية الحصار. في الحقيقة، لم يكن جميع الهنود على استعداد للموت في سبيل الامبراطورية البريطانية، كما بدا واضحاً[9].

* * *

بينما جهدت القوات البريطانية لنجدة الجنود المحاصرين في الكوت، بقيت السلطات في مصر تواجه أزمة على الحدود الغربية مع ليبيا. في يناير 1916، استحث القائد العام البريطاني في مصر الجنرال السير جون مكسويل وزارة الحرب في لندن على إجازة حملة لاستعادة الأراضي التي استولت عليها القوات السنوسية قبل شهرين. وقدم الحجة على أن إعادة توكيد السيطرة البريطانية على الصحراء الغربية أمر مستحسن ومستصوب على أسس سياسية، مع أنها لا تمثل بعد ضرورة عسكرية. لقد شجع إخلاء غاليبولي من جنود الامبراطورية، بالاقتران مع المكاسب السنوسية في الصحراء الغربية، الناشطين المصريين على وضع قوة بريطانيا وعزيمتها موضع المساءلة والتشكيك.

وبعد موافقة لندن، شكل مكسويل "قوة الحدود الغربية" من أجل إعادة ترسيخ السيطرة البريطانية على الأراضي المصرية حتى الحدود الليبية. واستغل العدد المتزايد من جنود الامبراطورية الذين أصبحوا في متناوله منذ الجلاء عن غاليبولي، لحشد قوة كبيرة ومنوعة من البريطانيين والهنود والأستراليين والنيوزيلنديين، وحتى مشاة جنوب إفريقيا. استخدمت "قوة الحدود الغربية" الحرفية الحربية التقليدية والحديثة معاً، حين جمعت تقانات متقدمة مثل الاستطلاع الجوي والسيارات المصفحة إلى جانب الخيالة والهجانة الأكثر ملاءمة لرمال الصحراء.

تدرب رجال القبائل العرب الذين يقاتلون مع سيد أحمد السنوسي على أيدي ضباط عثمانيين بقيادة شقيق ناظر الحربية نوري بك، والضابط العراقي جعفر العسكري، واتبعوا أوامرهم. أرسلت القيادة العثمانية العليا نوري بك وجعفر العسكري بأوامر واضحة: "اختراق الأراضي المصرية وزرع الفوضى ونشر الذعر هناك، وإشغال أكبر عدد ممكن من الجنود البريطانيين في العملية". وجد العثمانيون وحلفاؤهم الألمان في السلطة الدينية التي يتمتع بها سيد أحمد، باعتباره زعيماً للطريقة السنوسية (الصوفية)، مصدر قوة وعون متميز لمسعى الجهاد. بينما أثارت نجاحاته في نهاية عام 1916 مخاوف البريطانيين وألهبت حماسة الوطنيين المصريين[10].

عسكرت القوات السنوسية في يناير 1916 في بير تونس، على بعد نحو عشرين ميلاً إلى الجنوب الغربي من المركز المحصن للحامية البريطانية في مرسى مطروح. عرف جعفر العسكري أن الهجوم وشيك حين شاهد طائرة بريطانية تحلق فوق مواقعه. وضع حراساً حول المعسكر السنوسي وأبلغهم ضرورة اليقظة والانتباه. وبعد هطول أمطار غزيرة ليلة 22 يناير، أيقظ العسكري عند الفجر أحد ضباطه الأتراك ليحذره من "طابور طويل للعدو مؤلف من مشاة وفرسان ومدفعية وعربات مصفحة" يزحف باتجاه مواقع السنوسيين. تبين أن الأمطار التي لعنها الترك في الليل كانت نعمة: غاصت العربات المصفحة في الطين، ومنحت رجال القبائل العرب بعض الوقت للاستعداد.

استعر القتال في بير تونس طوال يوم 23 يناير. فاجأ المقاتلون غير النظاميين بقيادة الضباط الأتراك البريطانيين بانضباطهم الشديد عند التعرض للنيران. قاد نوري فريقاً من رماة المدافع الرشاشة على ظهور الجمال للهجوم على الجناح البريطاني الأيمن، بينما قاد جعفر هجوماً على الفرسان البريطانيين. سحب سيد أحمد معظم حرسه إلى موقع آمن على بعد عشرين ميلاً إلى الجنوب. امتد خط الجبهة السنوسي أكثر من خمسة أميال في مسار المعركة، فنقصت صفوفه وتقلص عمقه، ما سمح للقوات البريطانية باختراق مركز الجيش العربي والاستيلاء على المعسكر المهجور. أحرقت الخيام بمحتوياتها كلها، لكن جيش سيد أحمد أفلت مرة أخرى ومعظم قواته سليمة[11].

امتلك الجنرال مكسويل وفرة من القوات تحت تصرفه للتصدي للتهديد السنوسي. من ناحية أخرى، كان الجيش التركي-العربي يخسر مزيداً من أفراده كلما طالت الحملة واستمرت. "نقصت قوتنا البشرية جراء ما عانينا من شدائد. كان المقاتلون ينضمون إلينا أو يهربون منا وفقاً لكمية الطعام والذخيرة المتوفرة. لم يوجد جوهر صلب دائم، ولا شيء يمكن أن يمنع هؤلاء المحاربين الأتقياء من الرحيل إذا أرادوا"، كما تذكر جعفر العسكري. ومثلما هي الحال دائماً، ظل رجال القبائل العرب جنوداً متقلبين متلونين يميلون مع الريح حيث تميل.

انفصل سيد أحمد وأتباعه السنوسيون بعد تراجعهم من بير تونس عن نوري وجعفر. اتجه المقاتلون السنوسيون جنوباً لاحتلال واحات - بلدات الصحراء الغربية، التي تمتد من سيوة بالقرب من الحدود الليبية، إلى الفرافرة والواحات البحرية، على مرمى حجر من وادي النيل لكن بعيداً عن متناول القوات البريطانية. واصل نوري وجعفر مساعيهما الدؤوبة لإزعاج البريطانيين ومناوشتهم على طول السهل الساحلي المتوسطي. لكن مع أقل من 1.200 رجل تحت إمرتهما، ومدفع واحد (سريع الإطلاق) وثلاثة مدافع رشاشة، لم تشكل القوة التي يقودها الضابطان العثمانيان سوى تهديد بسيط للجيش البريطاني المتنامي عددياً.

طارد البريطانيون الجيش العربي المتقهقر إلى عقاقير، على بعد خمسة عشر ميلاً إلى الجنوب الشرقي من القرية الساحلية سيدي براني. هنا، وقف جعفر العسكري يوم 26 فبراير لآخر

مرة ضد البريطانيين (دون أن يعلم آنذاك). فبعد أن طوقت قوات العدو مواقعهما، سحب نوري كتيبة الجيش النظامي لتجنب الأسر -دون التشاور مع جعفر قبل التخلي عنه ليواجه البريطانيين وحده مع نفر من رجاله. تمكن رسول من نقل رسالة تبلغ جعفر العسكري المرتاب بانسحاب نوري قبيل أن يجد نفسه محاصراً من القوات البريطانية.

شابه العراك اللاحق مشهداً من حرب القرم: ضباط يهاجمون العدو على صهوات خيولهم شاهرين سيوفهم. شلت ذراعه اليمنى بجرح سيف نافذ، فوجد نفسه يقاتل راجلاً بعد أن قتلت مهرته المحبوبة. ثم سقط القائد البريطاني الكولونيل هوغ سوتر بدوره عند قدمي جعفر عندما أصيبت مطيته. كتب العسكري: "قبل أن أتمكن من الإتيان بحركة أخرى، حاصرني فرسان العدو وانهرت بسبب النزف الشديد". أخذ أسيراً وتلقى معاملة مشرفة تليق بضابط رفيع الرتبة.

علّمت معركة العقاقير نهاية التهديد التركي - السنوسي للحكم البريطاني في الصحراء الغربية. تقدمت قوة الحدود الغربية دون مقاومة لاستعادة ميناء السلوم وإعادة تثبيت الحدود مع ليبيا. لاحظ كتاب التاريخ الرسمي البريطاني أن "التأثير في مصر كان ممتازاً، وانحسر الشغب في ضاحية الإسكندرية [حيث اندلعت المظاهرات المؤيدة للسنوسيين] إلى أدنى حد". ومع استعادة هيبة البريطانيين ومكانتهم في منطقة الساحل الشمالي، استطاعوا تركيز جهدهم على تأمين الواحات الغربية. ونجحوا بين مارس 1916 وفبراير 1917، في دفع سيد أحمد وقواته بعيداً عن الواحات، واحدة إثر الأخرى[12].

تعافى جعفر في القاهرة من جراحه في مرفق عسكري ملحق بمعسكر أسرى الحرب في المعادي. استقبله سلطان مصر، حسين كامل، والقائد العام البريطاني السير جون مكسويل. فوجئ بلقاء كثير من الأصدقاء والرفاق، من الضباط العرب في الجيش العثماني الذين أسروا في حملتي الرافدين وسيناء. تقاسم مع عدد ممن التقى بهم التوجهات والميول السياسية العروبية، مثل صديقه وزميله القديم نوري السعيد، الذي أسره البريطانيون في البصرة. اهتمت الاستخبارات البريطانية اهتماماً كبيراً باستغلال تطلعاتهم القومية لدعم أهدافها من الحرب.

بعد احتواء تهديد الجهاد بزعامة السنوسيين لمصر، تفرغ المخططون الحربيون البريطانيون مرة أخرى لتركيز جهدهم على نجدة قوات الجنرال تاونزند في كوت العمارة.

مع استمرار الحصار الطويل، خفت بين الفينة والأخرى حدة العداء بين المتحاربين. فبعد وابل شديد من المطر، خرج البريطانيون المتجمدون برداً من خنادقهم الغارقة بالمياه لتدفئة أجسادهم بمباراة لكرة القدم، غافلين عن التهديد كلي الحضور للنيران التركية. زعم القس سبونر أن "القناصة الأتراك اهتموا باللعبة إلى حد أنهم أوقفوا رصاص القنص وتفرجوا" إلى أن انتهى البريطانيون من اللعب. روى سبونر حكاية أخرى صوّر فيها تبادلاً نادراً للدعابة بين الخنادق. فقد اعتاد جندي تركي، حين يتعب من العمل في الخندق، أن يلوح برفشه بين الحين والآخر باتجاه خطوط البريطانيين وكأنه يقول لهم "وداعاً". وبعد أن شاهد جندي بريطاني التركي يلوح عدة مرات، أخذ بندقيته وسدد طلقة خرقت الرفش. "لم يظهر شيء لبعض الوقت، إلى أن ارتفع الرفش ببطء كأنه منهك وقد ربط ضمادة على رأسه"، كما روى سبونر[13].

كانت حالات توقف الأعمال العدائية كهذه استثناء نادراً لجهد العثمانيين المتواصل دون كلل لتضييق الحصار على الكوت. في صباح أحد أيام منتصف فبراير 1916، حومت طائرة "فوكر" ذات سطح واحد على ارتفاع منخفض فوق الكوت فسحرت الجنود والسكان الذين أضناهم الضجر. "أظهر الكل اهتماماً بالطائرة السريعة جداً على ما بدا واضحاً. حلقت فوق جنوب المدينة، وحين استدارت إلى الشمال الغربي مجدداً شوهدت تلقي شيئاً توهج تحت أشعة الشمس لحظة -في الحقيقة، رأى الناس أربعة أشياء كهذه تسقط فتعاظم اهتمامهم". اقتصر استعمال الطائرات، حتى هذا التاريخ، على الرصد الجوي فحسب. كانت تلك أول مرة يشاهد فيها الناس في الكوت قصفاً جوياً.

عندما ارتطمت القنابل شديدة الانفجار بالأرض، منعت المفاجأة المذهلة الجنود من أي ردة فعل. في الهجوم الأول، دمرت قطعة مدفعية، ودفنت مجموعة من الحراس في الخنادق. كما أصيب مسكن في القرية إصابة مباشرة، مع أن من المدهش أن أحداً لم يقتل داخله. وبدءاً من هذا اليوم، شنت الطائرات وحيدة السطح (أطلق عليها البريطانيون اسم "فريتز" لأن

الطيارين من الألمان كما افترضوا) غارات منتظمة على الكوت، وأسقطت قنابل شديدة الانفجار وصل وزنها إلى 45 كغ. أصابت إحدى القنابل المستشفى البريطاني في السوق المسقوف، فقتلت ثمانية عشر وجرحت ثلاثين. ولا ريب أن القصف الجوي ضيق الخناق على الكوت[14].

بعد أسابيع من التراشق المدفعي المتواصل دون كلل، خيم صمت غير عادي على الكوت في 18 فبراير. خشي البريطانيون، الذين أربكتهم الحيرة في البداية، من أن يكون وقف إطلاق النار نذيراً بهجوم جديد. ولم يدركوا إلا في اليوم اللاحق أن توقف الأعمال العدائية عبر عن صدمة العثمانيين عندما علموا بسقوط أرضروم.

* * *

توقع رئيس هيئة الأركان الروسي في القوقاز، الجنرال نيكولاي يودينيتش، حتمية إعادة نشر الجنود عقب انسحاب الحلفاء من غاليبولي. وتنبأ بأن أنور باشا سوف ينتهز الفرصة لإعادة بناء الجيش العثماني الثالث. كانت كل واحدة من الفرق الإحدى عشرة المخصصة لحراسة حدود القوقاز العثمانية والدفاع عن مئات الأميال من الأراضي الجبلية تعاني نقصاً في العدد والعدة. قرر يودينيتش أن يسدد ضربة إلى العثمانيين وهم ضعفاء ويدمر الجيش الثالث قبل أن يحظى أنور بفرصة تعزيزه وتدعيمه.

شرع بالتخطيط لحملته في سرية صارمة. تقاسم تفاصيل محدودة مع ضباطه على أساس كشف الحقائق الضرورية فحسب، وأخفى الأمر عن جنوده كلياً. وفي سبيل تشتيت انتباه جنوده وجنود العدو معاً وعد باحتفالات باذخة في عطلة عيدي الميلاد ورأس السنة، التي تمتد بين 7 و14 يناير حسب التقويم الأرثوذكسي الشرقي. كما نشر شائعات عن خطط روسية لغزو فارس من أجل زيادة تشويش الاستخبارات العثمانية. حققت حملة المعلومات التضليلية غايتها المقصودة؛ إذ قرر العثمانيون أن يستريحوا طوال فصل الشتاء واثقين بأن الروس لن يحاولوا الهجوم قبل الربيع، حيث توقعوا بحلول ذلك الوقت وصول تعزيزات تجعلهم بكامل قوتهم. اعتقد القادة الأتراك دون شك أن الروس يشاركونهم نفورهم من القتال في زمهرير شتاء القوقاز بعد تجربة ساريكاميش في ديسمبر 1914 [15].

تعلم الروس بالتأكيد دروساً من حملة أنور سيئة التخطيط على ساريكاميش. أمر يودينيتش، كجزء من استعداداته للحرب، بتزويد مشاته بملابس شتوية تقيهم الصقيع. منح جميع الجنود معاطف من الفرو، وسراويل مبطنة، وأحذية من اللباد، وقمصاناً سميكة، وقفازات وقبعات تدفئهم. بل أمر بتزويد كل فرد بقطعتين قصيرتين من الحطب لحمايته من البرد الذي قتل ذلك العدد الكبير من الجنود العثمانيين في جبال القوقاز الجرداء. والأهم أن يودينيتش قد لاحظ مدى سهولة مفاجئة العدو الغافل في عز الشتاء. إذ أخذ أنور الروس على حين غرة في ساريكاميش وكاد في حالة الهلع اللاحقة أن يجبرهم على الاستسلام. لكنه أمل، عبر الاستعداد الدقيق والسرية التامة، بتحقيق نجاح عجز عنه العثمانيون.

أتت الحرب إلى كوبروكوي للمرة الثالثة حين شن الروس هجومهم في 10 يناير 1916. كان العثمانيون هنا قد دفعوا القوات القيصرية إلى الوراء في الأيام الافتتاحية من الحرب في نوفمبر 1914، وتجمع الجيش الثالث المهزوم هنا أيضاً بعد أن تقهقر من محاولة فاشلة لاحتلال ساريكاميش في يناير 1915. ربضت البلدة الاستراتيجية على ضفة نهر أراس لتحرس المدخل الشرقي إلى أرضروم. ونظراً إلى تركز حشود الجنود العثمانيين حول كوبروكوي، افتتح يودينيتش حملته بهجوم تضليلي على شمال البلدة يوم 10 يناير، أعقبه هجوم تضليلي آخر على طول نهر أراس في 12 يناير. صمد العثمانيون وقاتلوا بعناد، حيث خصصوا خمساً من الفرق التسع حول كوبروكوي لصد الروس. ما قلص قوتهم في كوبروكوي نفسها إلى أربع فرق فقط حين شن الجنرال الروسي هجومه الرئيس على البلدة يوم 14 يناير. دافع العثمانيون دفاعاً مستميتاً، لكن حين واجهت الحامية خطر التطويق، انسحبت من كوبروكوي ليلة 16 يناير، ليحتل الروس البلدة في اليوم اللاحق.

أصابت الهزيمة في كوبروكوي الجيش الثالث العثماني بأضرار فادحة. فمن أصل قوة بلغت 65.000 رجل على حدود القوقاز، لم يستكمل الانسحاب إلى أرضروم سوى 40.000. لكن تراجعوا إلى مواقع اعتقد العثمانيون أنها منيعة لا تخترق، إذ أحاطت ببلدة أرضروم حلقتان من التحصينات -نحو خمسة عشر من الحصون والبطاريات الحديثة إجمالاً- وفرت حماية لها من الشرق. إضافة إلى ذلك كله، قرر أنور في منتصف يناير إرسال

سبع فرق من الدردنيل لتعزيز الجيش الثالث. كان من المتوقع وصول الوحدات الأولى إلى أرضروم في أوائل مارس. وأيقن العثمانيون أنهم قادرون على صد جيش القوقاز الروسي في الربيع. بينما صمم الروس على احتلال أرضروم قبل تعزيز الجيش الثالث وتدعيمه[16].

استعد يودينيتش بكل عناية للهجوم على أرضروم، بدلاً من الاندفاع مباشرة إلى المواقع العثمانية الحصينة. أمر بتوسيع الطريق من كوبروكوي لتمكين العربات المؤللة من نقل قطع المدفعية إلى الجبهة. مدت الخطوط الحديدية الروسية من ساريكاميش إلى الحدود التركية قبل الحرب عند كاراورغان. وأرسل سرب الطيران السيبيري لتوفير الاستطلاع الجوي لأول مرة على جبهة القوقاز. وبينما كانت هذه الاستعدادات تجري على قدم وساق، استكمل يودينيتش وضباطه خطط الهجوم بصيغتها النهائية.

شيدت الدفاعات العثمانية لحماية أرضروم من هجوم من جهة كوبروكوي. قرر يودينيتش وضباطه تركيز جهدهم على المناطق الجبلية إلى الشمال من أرضروم، حيث تقل التحصينات جراء اعتماد العثمانيين على التضاريس الوعرة، بدلاً من التعرض لخسائر ثقيلة في محاولة شن هجوم جبهي مباشر. وسوف يؤدي الاستيلاء على أربعة حصون في الجهة الشمالية الشرقية إلى فتح الطريق إلى أرضروم من الشمال.

استهل الروس هجومهم في 11 فبراير بقصف مدفعي عنيف، أعقبته هجمات ليلية على حصنين في أقصى الشمال يحرسان المنطقة المحيطة بأرضروم. قاد ضابط أرمني، الكولونيل بيروميان، الهجوم على القلعتين في دالانغوز واستولى عليهما بعد ساعات من القتال العنيف بالسلاح الأبيض. واصل الروس هجومهم في اليوم اللاحق، فاستولوا على الحصون العثمانية المحيطة واحداً إثر الآخر. بدأ المدافعون إخلاء مواقعهم والتراجع إلى البلدة. وبحلول يوم 15 فبراير، رصد الاستطلاع الجوي الروسي حركة كثيفة للقوات داخل أرضروم ومغادرة قطارات محملة بالأمتعة باتجاه الغرب. بدا واضحاً أن الدفاعات حول أرضروم قد انهارت والعثمانيين في حالة تقهقر كامل، بعد صدمة الهجوم الروسي.

في صبيحة يوم 16 فبراير، دخل فوج الخيالة القوزاق أرضروم. أسرت اللحظة مخيلة الروس وحلفائهم بعد ثمانية عشر شهراً من حرب الخنادق الجامدة والخسائر الكارثية على الجبهتين الغربية والشرقية. ها هي أخيراً لحظة مجيدة تأتي، لرجال على صهوات خيولهم يجبرون العدو على التقهقر على استعجال. وحين اكتسحت القوات الروسية البلدة المحصنة التي اعتز بها العثمانيون ذات يوم، أخذوا 5.000 أسير. وفي اليومين اللاحقين، طاردوا الجنود العثمانيين المتراجعين فأسروا 5.000 آخرين. وإضافة إلى خسائر بلغت 10.000 بين قتيل وجريح، وربما 10.000 هارب، تقلصت قوة الجيش الثالث إلى 25.000 رجل فقط. حقق يودينيتش نصراً ساحقاً. دمر الجيش الثالث، ووسع الغزو الروسي في عمق الأراضي العثمانية قبل وقت طويل من وصول التعزيزات العثمانية إلى جبهة القوقاز.

استغل جيش القوقاز الروسي ما أصاب العثمانيين من تشوش وارتباك لتوسيع احتلاله أراضيهم، فاستولى على موش وبيتليس بالقرب من بحيرة وان بين 16 فبراير و3 مارس. كما سقط ميناء ريزه على البحر الأسود في 8 مارس، وطرابزون في 18 أبريل. وحين وصلت التعزيزات العثمانية في نهاية المطاف إلى شرق الأناضول، وجدت الموقف العثماني في حالة شاملة من البلبلة والفوضى.

لا عجب إذاً أن يصدم الجنود العثمانيون في الرافدين ويخيم الصمت يوماً كاملاً على خطوطهم حين وصل خبر سقوط أرضروم. ضاعفوا جهدهم لتحقيق النصر في الكوت، وهم يدركون حجم ما لحق بهم من خسائر ضخمة وما فقدوه من أراض ومناطق مهمة في الحرب. كلما أصابت نكسة قوة النجدة البريطانية على أيدي الترك، رفع هؤلاء لافتات كتب عليها بالفرنسية بخط عريض: "هزمت الكوت. آن أوان العودة إلى الوطن". فيرد البريطانيون الذين لا يريدون أن يبزهم أحد بلافتات مضادة: "والثمن.. أرضروم؟ انتبهوا لظهوركم أنتم في خطر محدق"[17].

* * *

نقلت موجات من التعزيزات طوال شهر فبراير من فرنسا إلى البصرة للانضمام إلى قوة حملة الرافدين. لكن وصلت على دفعات سبقت المدافع أو الخيول جراء الاستعجال في النقل. حولت الفوضى العارمة على الأرصفة البصرة إلى ما يشبه عنق زجاجة، حيث احتجزت الوحدات أسابيع لفرز مدفعيتها وخيولها قبل الانطلاق إلى الجبهة. كان العجز عن الاستخدام الكامل للنقل النهري جراء عدم كفايته وكفاءته يعني في دلالته أن على معظم الجنود الزحف براً مئتي ميل من البصرة إلى خط الجبهة قرب الكوت. بهذه الطريقة، تلقى الجنرال أيلمر، قائد قوة النجدة البريطانية في الرافدين، فرقتين كان قد وعد بهما لتعزيز صفوفه المستنزفة -لكن منعهما البطء الشديد في الوصول وعدم التكافؤ من تحقيق تفوق عددي على القوات التركية.

واجه أيلمر قراراً صعباً. في الوضع المثالي، عليه أن ينتظر وصول جميع التعزيزات قبل الاشتباك مع العثمانيين. لكن، مع كل أسبوع يمر، تأتي وحدات جديدة من الجنود العثمانيين أيضاً لتعزيز الجيش السادس، بينما يزداد تاونزند وجنوده في الكوت ضعفاً ومرضاً جراء النقص في الطعام والدواء. تمثّلت معضلة أيلمر في اختيار اللحظة الملائمة لتوجيه ضربته اعتماداً على معلومات ناقصة عن التوازن النسبي للقوى. ارتأى استئناف الهجوم في أوائل مارس 1916، مع دخول الحصار شهره الثالث. واقترح، بدلاً من متابعة ما انتهى إليه سابقاً على دجلة، شن هجوم بري جريء ومباغت باتجاه شط الحي جنوب الكوت. كان هدفه الأراضي المرتفعة حول معقل الدجيلة، آخر نقطة دفاعية عثمانية رئيسة قبل الكوت.

وفي سبيل الحفاظ على عنصر المفاجأة حاسم الأهمية، اقترح أيلمر أن يزحف جنوده ليلًا لمهاجمة الدجيلة فجراً. ومع تأمين الموقع المتفوق في الدجيلة، أمل بفتح ممر آمن لقوات تاونزند من الضواحي الجنوبية للكوت على الضفة الأخرى من دجلة، للالتقاء بطابور النجدة. لو اتبع جنود أيلمر الخطة المرسومة لنجحوا؛ لأن الترك تخلوا عن خطوطهم في الدجيلة ليلة 7 مارس، حين انطلق فيلق دجلة إلى المعركة.

لكن الطوابير البريطانية التي فقدت وجهتها، وهي تعبر أراضي وعرة وغير مألوفة في العتمة، تأخرت في زحفها الليلي. ومع شروق الشمس صباح 8 مارس، بقي المهاجمون على

بعد 4.000 ياردة من معقل الدجيلة. افترض القادة البريطانيون أن العثمانيين قد شاهدوا طوابيرهم تصل عبر الأرض المسطحة في ضوء الفجر الباكر. وخشي أيلمر من أن يتعرض رجاله لقصف عنيف من الخطوط العثمانية، اعتقاداً منه أن قواته فقدت عنصر المفاجأة. ولم يدرك أن الخنادق التركية في الدجيلة كانت خاوية، ولم يكن العثمانيون مستعدين إطلاقاً لصد أي هجوم.

عرف أيلمر من التجربة المريرة كم يسقط من الضحايا الذين يخاطر بأرواحهم إذا اجتاح الخطوط العثمانيون الحصينة عبر الأرض المسطحة. أمر ضباطه بإيقاف جنودهم، وقصف المواقع العثمانية قصفاً عنيفاً لإسكات المدافع التركية قبل أن يأمروهم بالهجوم. فتح الرماة البريطانيون نيران مدافعهم في الساعة 7:00 صباحاً، وواصلوا القصف ثلاث ساعات. لكن بدلاً من أن يحمي القصف العنيف القوات المهاجمة من نيران العدو، نبه القادة العثمانيين لهجوم وشيك، فتدفق جنودهم على الدجيلة. وبحلول الوقت الذي تلقى فيها الجنود البريطانيون الأمر بدخول المعركة، امتلأت خنادق الدجيلة الخاوية بالمدافعين.

كان علي إحسان بك يقود القوات العثمانية جنوب الكوت. وصل من القوقاز في فبراير 1915، وأمضى شهره الأول في الرافدين يدرب جنوده على القتال في هذه البيئة الجديدة الغريبة. ذهب لينام ليلة 7 مارس دون تلقي أي تقارير عن نشاط غير عادي للعدو. علم بالهجوم البريطاني في وقت مبكر من صباح اليوم اللاحق، عندما أبلغه أحد قادة كتائبه القصف المدفعي.

حالما أدرك خطورة الوضع، تشاور مع قادة المدفعية الجبلية ووحدات المدافع الرشاشة. بين لهم موقع القوات البريطانية على الخريطة. "أبلغتهم ضرورة الرد على مدفعية العدو وإطلاق النار على جنوده أثناء زحفهم" نحو الخطوط التركية. ثم أعطى أوامره إلى قائد الفرقة العثمانية الخامسة والثلاثين، وهي وحدة مؤلفة من مجندين من العراق كان يشكك "في انضباطهم، ونظامهم، وتدريبهم"، في القتال حتى آخر رجل دفاعاً عن التلال شمال الدجيلة. "أبلغتهم أني سأعدم كل من يحاول الفرار، وصدقني الكل، فقد سبقتني إليهم

سمعتي في جبهة القوقاز". وضع ثقته بجنود الأناضول في كل ركن من المعقل، موقناً بأنهم سيثبتون في مواقعهم[18].

ألقى علي إحسان بك بكل وحدة تحت إمرته في الدجيلة بينما واصل البريطانيون قصفهم المدفعي. "لم يدفع العدو مشاته إلى الأمام بينما كانت المدفعية تطلق نيرانها علينا. استفدنا من هذا الخطأ وتمكن جنودنا كلهم من الوصول إلى المعقل قبل أن يشن المشاة البريطانيون الهجوم"، كما لاحظ القائد العثماني. عبر عن امتنانه للجنرالات البريطانيين لأنهم منحوه ثلاث ساعات لنشر جنوده في مواقعهم.

كان عابدين إجي، المحارب المتمرس الذي شارك في معارك غاليبولي وأرسلت وحدته إلى الرافدين، في الجبهة العثمانية الأمامية حين بدأ المشاة البريطانيون الهجوم. شاهد آلاف الجنود الإنكليز والهنود يعبرون السهل، وتساءل كيف يمكن وقف هذا العدد الكبير من المهاجمين بكتيبة واحدة فقط. "لم تكن المسافة بيننا وبين العدو تزيد على 800 متر. بدأ الطرفان إطلاق النار واندلعت المعركة. بذل العدو كل جهد ممكن للوصل إلينا، لكن قواته ذابت بحرارة نيراننا". زادت خسائر العثمانيين أيضاً -تحدث إجي عن "شهداء" سقطوا في كل مكان حوله. لكنهم نجحوا في الصمود في خطوطهم إلى أن وصلت التعزيزات بعد الظهر. وبحلول المساء، لم يعد باستطاعة البريطانيين مواصلة الهجوم فانسحبوا. تفاخر إجي: "حققنا نصراً مؤزراً على العدو، لكننا فقدنا نصف أفراد كتيبتنا"[19].

كان النصر في معركة الدجيلة، التي عرفت عند الترك بمعركة تل سابيس، حاسم الأهمية للعثمانيين. بلغت خسائر البريطانيين ثلاثة أضعاف خسائر العثمانيين تقريباً. وثبت أن حجم الانتصار العثماني شكل دعماً قوياً للروح المعنوية للجنود الأتراك وترك البريطانيين في حالة يأس من نجدة تاونزند وجيشه الذي يزداد ضعفاً وإنهاكاً في الكوت. تبدّى هذا اليأس داخل الكوت نفسها بصورة أكثر وضوحاً وحدة من أي مكان آخر. "بعد سماعنا دوي مدافعنا الثقيلة تقصف ثلاثة أيام بلياليها دون توقف تقريباً، واقترابه شيئاً فشيئاً -واستعداد القوات هنا لفك الحصار والهجوم على العدو- كان التأثير قاسياً وعنيفاً حين علمنا أن قوة النجدة قد فشلت مجدداً"، كما كتب القس سبونر في مفكرته[20].

حاول القائد العثماني خليل بك استغلال انهيار الروح المعنوية للمدافعين. أرسل في 10 مارس رسولًا إلى الجنرال تاونزند يدعوه إلى الاستسلام. "لقد أديت بكل بطولة واجبك العسكري. من الآن فصاعداً، لم يعد احتمال نجدتك قائماً. ووفقاً للهاربين من صفوف قواتك، أعتقد أنك دون طعام وأن الأمراض تنتشر بين جنودك. أنت حر في مواصلة المقاومة في الكوت، أو الاستسلام لقواتي التي تتعاظم وتزداد باطراد عدداً وعدة"، كما كتب بالفرنسية. رفض تاونزند عرض خليل بك، لكن دفعه إلى التفكير. طلب القائد البريطاني في الكوت، في تقريره إلى لندن، الإذن بدخول مفاوضات مع الترك إذا وجد شك في نجدة قواته بحلول 17 أبريل، حين تستنفد موارده الغذائية كلها تقريباً[21].

* * *

انتقلت حالة الكآبة والغم من الرافدين إلى "وايتهول". فبعد ثلاثة أشهر فقط من الانسحاب الذليل من غاليبولي، يواجه البريطانيون هزيمة كارثية في العراق. تجاوزت مخاوف لجنة الحرب مأزق تاونزند وجنوده إلى موقع بريطانيا في العالم الإسلامي بصورة أعم. خشيت الحكومة البريطانية من أن تؤدي الانتصارات العثمانية إلى خطر تحريض ثورات إسلامية في الهند والعالم العربي. وفي محاولة منها لمنع الكارثة، كانت على استعداد للتفكير حتى في أكثر الخطط استحالة وبعداً عن الواقع.

اقترح اللورد كتشنر اتباع إجراءين اثنين لنجدة تاونزند وجنوده، بز كل واحد الآخر في لا معقوليته. استلهم الأول ربما من موجة الثورات الشعبية ضد الحكم العثماني في الفرات الأوسط -في المدينتين الشيعيتين المقدستين النجف وكربلاء وأريافهما- حيث أشار بإرسال عملاء ومهيجين لتحريض انتفاضات جماهيرية ضد العثمانيين لخلق حالة من البلبلة والارتباك وراء الخطوط التركية. فإذا تعاظمت الحركة واشتدت إلى حد كاف، قد يجبر خليل بك على نشر جنوده بعيداً عن الكوت لقمع الثورة الداخلية، ما يضعف خطوطه ويتيح لقوة النجدة اختراقها.

بدت خطة كتشنر الثانية أكثر فجاجة وبدائية. فقد كان مقتنعاً بالفساد المتأصل والمستشري بين طبقة الموظفين الرسميين الأتراك، ولذلك اقترح عرض رشوة ضخمة على قائد عثماني رفيع المستوى لغض الطرف عن انسحاب تاونزند من الكوت مع جميع قواته. طلب كتشنر من المسؤولين البريطانيين في مكتب الاستخبارات العسكرية في القاهرة ترشيح أفضل رجل للمهمة بشقيها -تحريض انتفاضة شعبية ورشوة القائد العثماني. ونظراً إلى عدم وجود ضباط برتب عالية على استعداد للمخاطرة بسمعتهم في مهمة تفتقر إلى الحكمة والفطنة إلى هذه الدرجة، فقد وقعت على كاهل ضابط مخابرات صغير هو الكابتن تي. إي. لورنس. كان لورنس يتحدث العربية، ولديه صلات واسعة مع الضباط العرب في الجيش العثماني المعتقلين في معسكرات أسرى الحرب في مصر -مثل جعفر العسكري ونوري السعيد- فضلاً عن ثقة كبيرة بالنفس إلى حد الاعتقاد بقدرته على النجاح في مثل هذه المهمة المستحيلة[22].

أبحر لورنس من مصر يوم 22 مارس ووصل إلى البصرة في 5 أبريل. كان طابور النجدة، تحت إمرة قائد جديد، الجنرال السير جي. إف. غورينج، على وشك شن هجوم آخر في مسعى لاختراق الخطوط العثمانية (لن يلقى نجاحاً أكبر من المحاولات السابقة). عرف لورنس أنه لا يملك سوى القليل من الوقت للتحريض على ثورة عربية إذا أراد أن تؤثر في نجدة الكوت. وبعد لقاءات مع مسؤولي الاستخبارات البريطانية في العراق للحصول على آخر المعلومات (منهم السير بيرسي كوكس وغيرترود بل)، رتب لورنس لعقد اجتماعات مع الشخصيات العربية الوطنية الناشطة والمؤثرة في البصرة. كان أول موعد مع سليمان فيضي.

عرف سليمان فيضي (من أهالي البصرة) بتوجهاته العروبية، وكان عضواً في البرلمان العثماني. عمل بشكل وثيق مع السيد طالب النقيب، أبرز شخصية سياسية في البصرة، ورافقه في مهمته المشؤومة لتأمين دعم ابن سعود للمجهود الحربي العثماني في أكتوبر ونوفمبر عام 1914. وبعد أن ذهب مع النقيب إلى الكويت، حيث استسلم للبريطانيين ونفي إلى

الهند، عاد إلى البصرة ليعيش تحت الاحتلال البريطاني. أدار ظهره للسياسة وافتتح مشروعاً تجارياً صغيراً بعد انقطاع صلاته مع عالم العثمانيين وأصدقائه وزملائه الوطنيين السابقين[23].

اجتمع لورنس، قبل التوجه إلى العراق، مع نوري السعيد وغيره من الأسرى العثمانيين في القاهرة المعروفين بميولهم السياسية العروبية. وحين طلب من أعضاء الجمعية السرية العربية "العهد" ترشيح أشخاص يستشيرهم في العراق، تحدث الكل باحترام وتقدير عن فيضي. دون لورنس ملاحظاته. وعندما التقى الرجلان بدا حسن الاطلاع ملماً بالتفاصيل.

رتب لورنس للقاء فيضي في مقر الاستخبارات البريطانية في البصرة. أذهلت العراقي وسامة البريطاني وطلاقته بالعربية، حيث تحدث بنبرة قاهرية ثقيلة. لكن كل شيء قاله لورنس أقلق فيضي وشغل باله. فقد عرف الضابط البريطاني معلومات كثيرة عن العراقيين من أصحاب التوجهات القومية والعروبية[24].

تجرأ فيضي: "اعذرني على السؤال. هل التقينا من قبل؟ وفي هذه الحالة، أنا لا أتذكر المناسبة".

رد لورنس: "لا، ما التقينا قط، لكني أعرف كل شيء عنك وعن نشاطاتك".

دافع فيضي عن نفسه مرتبكاً: "كيف تعرفني، وما هي النشاطات التي تشير إليها؟". لم يفهم كيف عرف الإنكليزي هذه المعلومات كلها عن ماضيه إلا بعد أن ذكر لورنس معارفه من العروبيين بين أسرى الحرب العثمانيين في القاهرة.

أخيراً وصل لورنس إلى لب الموضوع. أكد أن العرب يريدون نيل استقلالهم من الحكم التركي. ويرغب البريطانيون، الذين يخوضون حرباً مع الامبراطورية العثمانية، في مساعدة العرب على الفوز باستقلالهم من أجل تحقيق أهدافهم الخاصة في الحرب ضد العثمانيين. والحكومة البريطانية على استعداد لتقديم الأسلحة والذهب لتسهيل اندلاع انتفاضة شعبية ضد العثمانيين في العراق. اختتم بالقول: "أريد منك أنت، نظراً إلى ثقتي بقدراتك، أن تنظم هذه الثورة".

أصاب الذعر فيضي. "أخطأت خطأ ذريعاً يا سيدي في الطلب مني تولي هذه المهمة العظيمة. ليس لدي أي نفوذ في البصرة، ولا أحظى بدعم عشائري. ولن يتبع أحد شخصاً مثلي". اقترح فيضي سيد النقيب المنفي بوصفه أفضل قدرة على أداء هذه المهمة. لكن لورنس

استبعد المرشح، فقد عرف أن الحكومة البريطانية لن توافق على إطلاق سراح النقيب، الذي اعتبرته قومياً خطراً. فضلاً عن ذلك، ضمت قائمة لورنس عدداً قليلاً جداً من الزعماء العرب المرشحين لتأجيج ثورة عربية في العراق ضد العثمانيين. وصمم على كسب تأييد فيضي لقضيته.

لم يغير الحديث المتبادل الطويل والصريح موقف فيضي وظل غير مقتنع باقتراح لورنس. التنازل الوحيد الذي حصل عليه لورنس هو موافقة فيضي على الاجتماع مع ثلاثة من معارفه العروبيين، من الضباط العثمانيين السابقين الذين يحتجزهم البريطانيون أسرى في البصرة، لسماع آرائهم قبل اتخاذ قراره النهائي حول عرض البريطاني. أحدهم هو علي جودت، الذي أسره البريطانيون على الفرات في يوليو 1915.

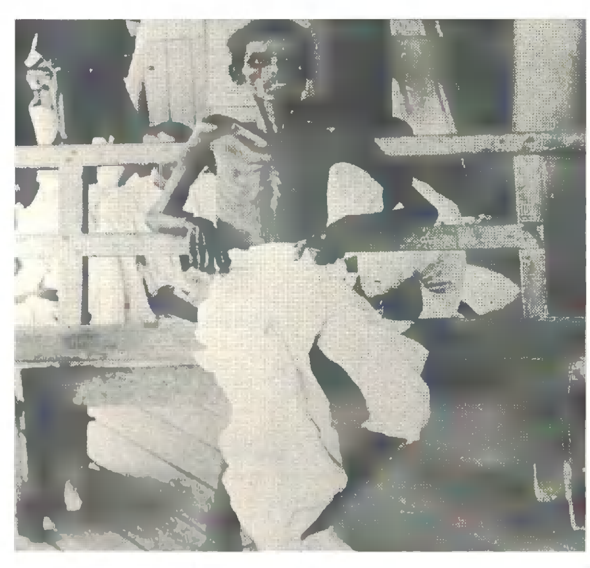
أمضى العراقيون العروبيون أربع ساعات معاً يتداولون اقتراح لورنس الغريب -تأجيج ثورة عشائرية ضد الحكم العثماني بدعم بريطاني. لم يجدوا سبباً يدعوهم إلى الثقة بالبريطانيين، الذين لا يقدم وجودهم الاستعماري في مصر والهند أساساً متيناً لتصديق مزاعم لورنس حول سياسة بريطانية نزيهة في العراق. بل توجد أسباب تدعوهم إلى الشك حتى بأبناء جلدتهم العرب -ولاسيما البدو من رجال العشائر. ولا ريب أن تجارب جودت مع خيانة البدو وغدرهم في حملة الفرات سوف تجعله الشريك الأشد نفوراً من أي مشروع يشمل رجال العشائر العرب. مع نهاية الاجتماع، استحث الضباط الثلاثة فيضي على رفض عرض لورنس بشكل واضح ومباشر وحاسم.

عاد فيضي إلى مكتب الاستخبارات البريطانية لإبلاغ لورنس رفضه النهائي. افترق الاثنان بود. في التقرير اللاحق، وصف لورنس "سليمان فيظي" كما أسماه، بأنه "متوتر إلى حد يمنع أي احتمال" لقيادته الثورة المقترحة. ومع أنه لم يكتب ذلك صراحة، فقد ألغى رفضه الشق الأول من مهمة كتشنر المستحيلة -تأجيج ثورة عربية خلف خطوط العثمانيين لإبعاد الضغط عن الكوت المحاصرة. انطلق لورنس إلى الجبهة بزورق بخاري في اليوم اللاحق، وهو يفكر في أفضل الطرق لرشوة قائد عثماني[25].

استأنفت قوة النجدة البريطانية، التي تسلم قيادتها الجنرال جورج غورينج منذ فشل أيلمر في الدجيلة، الهجوم على المواقع العثمانية في 5 أبريل 1916. دفعت الترك إلى الوراء من الممر الضيق في الحنة، حيث أوقف زحف جنود أيلمر في يناير، ليصدها العثمانيون

عند الصناعيات على مسافة ثمانية أميال شمالاً، بعد تكبيدها خسائر فادحة. ووجب على البريطانيين انتظار ثمانية أيام أخرى قبل مواصل الأعمال القتالية، مع تضاؤل الثقة بالنجاح.

اقترب الوضع في الكوت من حافة اليأس. بدأت علامات سوء التغذية المزمنة تظهر على الجنود المحاصرين. فقد خفضت الجراية اليومية من الخبز على مر الأسابيع إلى 170 غراماً، يكملها 450 غراماً من لحم الخيل، الذي لم يقبله سوى الجنود البريطانيين. لاحظ القس سبونر في مفكرته يوم 9 أبريل: "ظهر الضعف والهزال واضحين على الجنود البريطانيين، بينما بدا الجنود الهنود أسوأ حالاً بكثير". وفي أعقاب نكسة قوة النجدة في الصناعيات، خفض تاونزند الجراية إلى 140 غراماً من الخبز واللحم. وبحلول 12 أبريل، بدأ الجنود الهنود الذين أنهكهم الجوع يأكلون لحم الخيل بعد إصدار فتوى رسمية من المرجعيات الدينية الإسلامية والهندوسية. أبلغ الجنرال تاونزند قادة قوة النجدة أن مخازن الطعام سوف تنفد بحلول 23 أبريل، لكن لديه ما يكفي من الخيول لذبحها حتى 29 أبريل. وبعد ذلك التاريخ، لن يتوفر مزيد من الطعام أبداً.



أحد الناجين من حصار الكوت وقد بدا عليه الهزال نتيجة سوء التغذية. كاد الجنود الهنود الهندوس والمسلمون، الذين رفضوا تناول لحم الخيل لأسباب دينية وذوقية حتى الأسابيع الأخيرة من الحصار، يموتون جوعاً. التقطت صورة جندي السيبوي المهزول هذا بعد تحريره في عملية تبادل للأسرى البريطانيين والعثمانيين.

اكتشف البريطانيون، لكسب وقت لمزيد من العمليات العسكرية، طرقاً مبتكرة لتوصيل الطعام إلى الكوت. فبعد أن شاهد المدافعون بداية استخدام القصف الجوي، أصبحوا أول من يتلقى المعونات الغذائية بإسقاطها من الجو. حكم على المسعى بالفشل بسبب الطقس العاصف، والوزن المحدود الذي يمكن لأوائل الطائرات حمله، والتسديد السيئ للطيارين. "كانت الطائرات تصل طوال اليوم لإسقاط المؤن. شاركت الطائرات البحرية أيضاً، لكن هذه أخطأت الهدف غالباً، فكثيراً ما أسقطت الرزم في دجلة أو على الخنادق التركية!"، كما سجل سبونر يوم 16 أبريل. أشار عابدين إجي، الذي راقب المشهد من الخطوط التركية، إلى أن كل طائرة حملت ثلاثة أكياس من المؤن، وأنها استمرت في عمليات الإسقاط من الصباح إلى المساء يوم 16 أبريل. "سقط كيسان من الطحين على خنادقنا"، كما علق مؤكداً ملاحظة سبونر عن الطائرات التي "أخطأت الهدف". تمكنت الطائرات من تنفيذ 14 عملية ذلك اليوم، لكن إجمالي الرزم التي أسقطت لم يوفر سوى أقل من 140 غراماً من الطعام لكل فرد من المحاصرين (13.000 جندي، و6.000 مدني). وتبين أن إسقاط المؤن من الطائرات لن يكفي وحده لإنقاذ المحاصرين في الكوت[26].

احتشدت قوة النجدة لشن آخر هجوم على الكوت. في 17 أبريل، فشل البريطانيون في اختراق المواقع العثمانية في بيت عيسى، وأجبروا على التقهقر بعد هجوم عثماني معاكس وساحق. وصف عابدين إجي كيف "انهارت" القوات البريطانية حين انقض عليها الجنود الأتراك. "انسحب العدو وطاردنا فلوله. تقدمنا إلى أن وصلنا إلى خنادقه الرئيسة". وبعد أن أوقف تقدم قوة النجدة عند بيت عيسى، قامت بآخر محاولة لها يوم 22 أبريل، حين شنت هجوماً دموياً على الخطوط العثمانية في الصناعيات، على بعد نحو خمسة عشر ميلاً من الكوت، لكنها ردت على أعقابها. وفي وقت متأخر من عصر ذلك النهار، دعا الطرفان إلى هدنة لإسعاف الجرحى. استمرت العملية حتى مغيب الشمس، حيث ظل حملة النقالات الأتراك والبريطانيون ينقلون رفاقهم إلى خطوطهم، وكأنما أدرك الجانبان كلاهما أن زمن العداء بينهما قد انتهى الآن.

في أربعة أشهر من القتال لفك الحصار عن 13.000 جندي في الكوت، تجاوزت خسائر قوة النجدة 23.000 إصابة. في 22 أبريل، أوقف الجنرال غورينج وضباطه العمليات. إذ لم يعد باستطاعة جنودهم المنهكين جسدياً والمنهارين معنوياً فعل المزيد.

وفي محاولة يائسة أخيرة لكسب الوقت، دعّم البريطانيون سفينة بخارية بصفائح الفولاذ في محاولة لاختراق الحصار العثماني وإدخال الطعام والدواء إلى الكوت. أثقلت السفينة (*Julnar*) إضافة إلى درعها الفولاذي حمولة 240 طناً من المؤن -تكفي لإطعام الحامية في الكوت ثلاثة أسابيع- ما يجعل سرعتها عكس التيار لا تتجاوز خمس عقد. انطلقت سفينة النجدة بطاقم من المتطوعين ليلة 24 أبريل. أبلغ المدافعون في الكوت مهمتها وطلب منهم توفير غطاء مدفعي ضد الخنادق التركية على طول ضفاف النهر حيث كان من المأمول أن تعبر. لم تصل قط إلى مرمى مدافع الكوت؛ إذ مد العثمانيون كبلاً عبر دجلة فعلقت به السفينة البطيئة كالسمكة في الشبكة قبل وصولها إلى وجهتها بخمسة أميال.

كان الميجور جي. إل. هيوود مع المدفعجية في الكوت ينتظرون وصول السفينة البخارية. "سمعنا نيران البنادق والمدافع المرافقة للسفينة وأمكننا متابعتها بالعين المجردة، حين توقفت فجأة على بعد نحو أربعة أميال إلى الشرق، واستطعنا أن نحزر بسرعة أن الأسوأ قد وقع". استولى العثمانيون على السفينة بمخازنها الثمينة كلها. أعدم القبطان، وأخذ أفراد الطاقم أسرى، وتقرر مصير الكوت المحتوم.

في يوم 26 أبريل، أذن للجنرال تاونزند بإجراء مفاوضات مع خليل بك للاتفاق على شروط الاستسلام.

* * *

خلفت أشهر مقاومة الحصار أضرارها على الجنرال تاونزند، الذي لم يكن في حالة تسمح له بالتفاوض مع الترك على الاستسلام. كتب إلى قائده الجنرال بيرسي ليك: "أنا مريض جسدياً وذهنياً. تحملت نصيبي من المسؤولية وأعتبر أن عليك أنت أن تجري هذه المفاوضات". في الحقيقة، لم يكن أحد من كبار الضباط البريطانيين يريدون توريط أنفسهم في مناقشات

ستنتهي حتماً بإذلال غير مسبوق للجيش البريطاني. لكن ليك، بدلاً من أن يلطخ يديه بالاستسلام، أمر تاونزند ببدء المحادثات مع خليل بك وعرض خدمات الكابتن لورنس من مكتب الاستخبارات العسكرية في القاهرة، والكابتن أوبري هيربرت، ضابط المخابرات اللامع والمختص باللسانيات والمشهور بجرأته وجسارته[27].

حاول تاونزند في لقائه الأول مع خليل بك في 27 أبريل شراء الحرية لجنوده بالمال والسلاح. إذا سمح خليل للجنود الإنكليز والهنود بالانسحاب بشروط (مثلاً: تعهد بعدم حمل السلاح ضد العثمانيين) فسوف يسلم مدافعه الأربعين ويدفع مليون جنيه. رد القائد العثماني بأن عليه إبلاغ أنور باشا بالعرض المالي، مع أنه أوضح دون لبس تفضيله للاستسلام دون قيد أو شرط. عاد تاونزند إلى الكوت محبطاً، وهو يعلم أن أنور ومستشاريه الألمان يتوقون إلى نصر ساحق كامل أكثر من النقد السائل. كتب إلى ليك محاولاً إقناع رئيسه بتولي زمام المناقشات: "هذا ما يأتي من المفاوضات تحت تهديد الموت جوعاً". لكن القائد العام لقوة حملة الرافدين رفض التورط شخصياً، وعرض مرة أخرى خدمات الضابطين لورنس وهيربرت.

انطلق ضابطا المخابرات الشابان للاجتماع بخليل بك فجر يوم 29 أبريل. تقدما نحو الخنادق التركية رافعين الراية البيضاء، حيث انتظرا ساعات وتبادلا الأحاديث الودية مع جنود العدو. قال هيربرت متذمراً: "أظهر لنا الترك أوسمتهم، وشعرنا بنوع من الضيق لأننا لم نقدر على مضاهاتهم". في نهاية المطاف، عصبت عيون لورنس وهيربرت ورئيسهما الكولونيل إدوارد بيتش، ونقلوا عبر الخطوط التركية إلى مقر قيادة خليل بك. ركب بيتش وهيربرت حصانين، لكن لورنس افترق عنهما لأنه لم يتمكن من امتطاء حصان بسبب إصابة لحقت بركبته. وصل بعد أن بدأ هيربرت المناقشات مع القائد العثماني[28].

تحدث هيربرت المتضلع من الفرنسية نيابة عن الوفد البريطاني. كان قد التقى من قبل بخليل في حفلة راقصة أقامتها السفارة البريطانية في الأستانة قبل الحرب. "كان شاباً في منصب مهم يحتاج إلى خبرة أطول، أحسب أنه في الخامسة والثلاثين تقريباً. بدا وسيماً -بعينيه الثاقبتين، وذقنه المربعة، وفمه الشبيه بالمصيدة"، كما لاحظ هيربرت. بدأ البريطاني

المناقشات بالتماس العفو عن السكان العرب في الكوت. أوضح خليل أن البريطانيين لا شأن لهم بأهالي الكوت، فهم من الرعايا العثمانيين. "قلت إن العرب فعلوا مع تاونزند ما يفعله الضعفاء دوماً.. قدموا له خدماتهم لأنهم خافوا منه". ورفض بأسلوب ينذر بالسوء تقديم أي ضمان "بأنه لن تحدث انتهاكات أو عمليات إعدام".

انتظر هيربرت وصول لورنس للتداول في شروط استسلام تاونزند. قضى القائد العثماني على أي آمال راودت البريطانيين بشراء الخروج الآمن للجنود المحاصرين. ومن أجل فتح موضوع الرشوة الحساس، أبلغ بيتش هيربرت ضرورة "الحديث عن استعدادنا لدفع المال لإعالة المدنيين والعرب من سكان الكوت". ونظراً إلى استخفاف خليل الواضح بسكان الكوت، المتواطئين بشكل سافر مع الجيش البريطاني حسب رأيه، فقد "وضع جانباً [هذا الموضوع غير المجدي]".

قدم خليل طلباً واحداً للبريطانيين: تزويده بالسفن لنقل تاونزند ورجاله إلى بغداد. "وإلا فإن عليهم السير، وهذا صعب عليهم"، كما قال مبرراً. ووعد بإعادة الزوارق النهرية إلى البريطانيين حالما يصل الأسرى إلى بغداد. شرح الكولونيل بيتش بالإنكليزية لهيربرت ولورنس أن البريطانيين ليست لديهم سفن كافية حتى لجنودهم، ولا يمكنهم الموافقة، وعلى هيربرت القول إنه سيبلغ الجنرال ليك بالطلب. ولا شك أن خليل بك أو أحد أفراد حاشيته عرف ما يكفي من الإنكليزية ليفهم النقطة التي أشار إليها بيتش. فإذا لم يظهر البريطانيون حرصاً كافياً على نقل جنودهم المرضى والجرحى بطريقة آمنة، فهل ينتظر من العثمانيين أن يكونوا أكثر حرصاً واهتماماً؟

غضب القائد العثماني مرة واحدة في أثناء المفاوضات. فقد تلقى معلومات تفيد بأن تاونزند أمر بتدمير جميع مدافعه في وقت مبكر من اليوم. سجل هيربرت: "بدا خليل غاضباً وبان حنقه. قال إنه معجب كثيراً بتاونزند، لكن خاب أمله لأنه لن يحصل على المدافع". كان من المتوقع أن يمنع تاونزند مدافعه من الوقوع في أيدي العدو لتستخدم ضد البريطانيين. لكن بتدمير المدافع حرم خليل بك من غنيمة السلاح، ما زاد موقف القائد العثماني تصلباً وتشدداً.

لم يكن الضابطان البريطانيان الصغيران، هيربرت ولورنس، في موقع يؤهلهما لمساومة القائد العثماني المنتصر. ولم يعد لديهما المزيد لعرضه بعد أن رفض إغراء كتشنر المالي. ولم يدركا أن تاونزند، الذي فشل في محاولته رشوة خليل بك قبل يومين، قبل مذعناً الاستسلام دون قيد أو شرط صباح اليوم ذاته. سقطت الكوت في أيدي العثمانيين؛ وأصبح تاونزند ورجاله أسرى حرب. لم يكشف خليل هذه الحوادث الحاسمة في أهميتها أمام ضيوفه البريطانيين. وحين أدرك أن الضابطين لا يملكان السلطة وليس لديهما شيء جديد لعرضه على الطاولة، أنهى المقابلة بتثاؤب. "اعتذر، وقال إن لديه مشاغل كثيرة"، كما سجل هيربرت في يومياته. كان يوماً حافلاً بالنسبة إلى خليل.

* * *

تجمع الجنود المهزولون الذين أنهكهم الجوع والضعف في الكوت ظهر يوم 29 أبريل لمواجهة آسريهم. كتب الميجور أليكس أندرسون: "وهكذا انتهت الحقبة الطويلة من القتال، والانتظار والأمل، والتشويق والقلق، والجوع. لقد وقع المستحيل الذي لا يمكن تصوره، وأصابنا بالذهول". لكن إحساساً بالارتياح امتزج مع الصدمة. فبعد 145 يوماً تحت الحصار، والقصف المتواصل، والجوع المتفاقم، شعر الجنود البريطانيون والهنود بالفرح لنهاية محنتهم. وتصوروا أن ظروف أسرى الحرب لن تكون أسوأ مما عانوه واختبروا تباريحه.

لم يعادل الاكتئاب الذي أصاب الجانب البريطاني سوى النشوة التي اجتاحت الخطوط التركية. "ابتسمت الوجوه وشعر الكل بالفرح والسعادة. وأعلن اليوم عيد الكوت وسيكون من الآن فصاعداً عيداً وطنياً وعطلة رسمية"، كما سجل عابدين إجي، المحارب القديم في غاليبولي، في يومياته بتاريخ 29 أبريل. تعجب من حجم الانتصار العثماني: خمسة جنرالات، وأربعمئة ضابط، ونحو 13.000 جندي وقعوا أسرى. "لم تحل بالإنكليز قط هزيمة كهذه في أي مكان آخر". كانت مزاعم إجي صادقة ودقيقة. فمع خسارة إجمالية بلغت 13.309 من الرجال، مثّلت الكوت أسوأ استسلام للجيش البريطاني في تاريخه: 277 ضابطاً بريطانياً، 204 من الضباط الهنود، 2.592 جندياً بريطانياً، 6.988 جندياً هندياً، 3.284 من فرق الدعم الهندية[29].

بحلول منتصف نهار 29 أبريل، عيل صبر الجنود البريطانيين والهنود في انتظار وصول الجنود العثمانيين. وفي الساعة 1:00 تقريباً، علت صيحة مدوية -"ها هم يأتون!" -وتدافع الكل لمشاهدة ما يحدث. كان الرامي لي يراقب من أحد استحكامات المدفعية، فشاهد "طوابير منهم" تقترب عبر قلعة الكوت المهدمة. "كتل داكنة من الجنود تبدو أنها تركض. ثمة مسافة تفصل بيننا.. أذهلني تشوقهم للوصول إلينا. لم يمنعهم من الجري إلى الكوت في فوضى عارمة سوى أوامر ضباطهم الصارمة"، كما كتب.

سارع الجنود الأتراك إلى التآخي مع الرجال الذين حاربوهم طوال هذه المدة. قدموا السجائر إلى جنود بريطانيين يمنعهم الهزال والضعف من تدخينها. استخدم الرامي لي كل ما في جعبته من اللغات "الخردة" -"فرنسية، تركية، عربية، مع قليل من اللهجة اللندنية المبتذلة"- في محاولة للتواصل مع آسريه. وجد أن كثيراً من العثمانيين الذين قابلهم حاربوا سابقاً في غاليبولي، ويبحثون الآن عن الأستراليين. ربما بدا الجنود الأتراك، في مسعاهم للرد على الرسائل التي تركها الجنود الأستراليون والنيوزيلنديون في خنادقهم قبل الإخلاء، "متلهفين لتجديد صلاتهم بجنود الامبراطورية وفكرة البدء بـ'حرب صغيرة'" أخرى. تبادل الضباط أيضاً أحاديث طويلة مع نظرائهم الأتراك. انخرط تي. آر. ويلز، الضابط في فيلق الطيران الملكي، في حديث مع ضابطين تركيين من الساعة 7:30 مساء إلى منتصف الليل. "تناولنا كثيراً من التفاصيل المثيرة عن الحوادث الأخيرة"[30].

لم تجلب نهاية الحصار سوى الرعب إلى سكان الكوت. فمثلما خشي الكابتن هيربرت، أخضعهم العثمانيون للقضاء المستعجل. ذكر القس سبونر أن كثيراً ممن اشتبه بتعاونهم مع البريطانيين علقوا على مشانق ثلاثية الحوامل و"تركوا ليموتوا ببطء. كانوا من اليهود أو العرب الذين عملوا مترجمين معنا، أو تخيل الترك أنهم قدموا لنا المساعدة بطريقة ما. منهم شيخ كوت العمارة وأبنائه". أفزع رامي المدفعية لي "النحيب المروع والعويل المرعب للنساء العربيات وأطفالهن" في الأيام اللاحقة على دخول العثمانيين إلى الكوت. وبحلول الوقت الذي بدأ فيه الجنود البريطانيون مغادرة البلدة بعد أربعة أيام، قتل نصف السكان رمياً بالرصاص أو شنقاً، وكانت "الجثث تتدلى من فروع الأشجار"، كما زعم أحد الضباط[31].

وافق القادة البريطانيون والعثمانيون على تبادل أسراهم العاجزين: نحو 1.100 مريض وجريح بريطاني مقابل عدد مماثل من الأتراك. بينما أمر باقي أسرى الحرب بجمع أمتعتهم والاستعداد للمغادرة إلى بغداد. سمح للجندي العادي بحمل بطانيتين وملابس، بينما سمح للضباط بنقل تسعين كيلوغراماً من الملابس والخيام. وضع الضباط وباقي المرضى والجرحى الذين لم تتم مبادلتهم على سفن بخارية -وكثير منهم على السفينة المنكودة (*Julnar*). وبسبب قلة المراكب -وعدم استعداد البريطانيين لتوفير وسائل النقل- أجبر كثير من الجنود العاديين على المسير مسافة المئة ميل من الكوت إلى الأسر في بغداد.

قدم القائد التركي أوامر إلى الضباط البريطانيين لإعلانها على جنودهم. عليهم أن يستعدوا للمسير عدة مئات من الأميال عبر الصحراء، وأن يحملوا أقل قدر ممكن من الأمتعة. لن تتوفر وسائل نقل ولا حماية للمعزولين. ومن يتخلف عن الركب يواجه موتاً مروعاً على أيدي العرب البدو. ومثلما تذكر رامي المدفعية لي: "كل من كان يستمع هناك أدرك أنه سيواجه المصاعب في هذه الرحلة الطويلة". بعد ذلك، فصل الضباط عن رجالهم. كانت لحظة مروعة للجنود العاديين. "بكى بعض الرجال الأكبر عمراً عندما غادروا أمامنا. ولا سيما جنود راجبوتانا، الذين قالوا إنهم يفقدون أي أمل بالحماية إذا فصلوا عن الضباط البريطانيين"، كما سجل الكولونيل بيل ساير في مفكرته[32].

وجد أوائل أسرى الحرب البريطانيين الذين وصلوا إلى بغداد جواً احتفالياً يسود المدينة. كان الشاب العراقي طالب مشتاق آنذاك تلميذاً في المرحلة الثانوية، تملؤه الحماسة العارمة والمشاعر الوطنية الجارفة، بل حاول الالتحاق بالجيش العثماني للدفاع عن بلاده ضد الغزو. انضم إلى الحشود لمشاهدة وصول أسرى الحرب البريطانيين. "العراق كله احتفل. وزينت بغداد بالأعلام والفوانيس وجريد النخل"، كما تذكر. رأى مراكب بخارية تحمل أسرى راسية على ضفة النهر. "تسلقت بسهولة واحدة من هذه السفن ورأيت هؤلاء الأسرى التعساء الذين قاتلوا ضد شعب ليس بينهم وبينه عداوة". ذهب إلى رقيب إنكليزي وجده على السطح "ضعيف ومنهك، أصاب جسمه الهزال بتأثير الجوع بعد أشهر من الحصار في بلدة الكوت". ومع أن مشتاق لا يتكلم الإنكليزية، فقد وجد الرقيب يتحدث بضع كلمات بالعربية.

سأل مشتاق: "كيف حالك؟".

رد الإنكليزي بالعربية: "بخير".

تابع مشتاق: "كيف وجدت الجيش التركي؟".

رد الرقيب بعربية رديئة: "الإنكليز دمدم أقوى.. لكن خبز ماكو".

أضاف مشتاق: "فهمت ما كان يحاول قوله. لدى الإنكليز أسلحة ومدفعية أقوى، لكن أجبروا على الاستسلام لأن مؤونة الخبز نفدت لديهم"[33].

فرز الأسرى في بغداد وفقاً للرتبة والإثنية. أتى أنور باشا لاستعراضهم وأعطاهم وعداً سرعان ما اشتهر. طمأن الأسرى المهزولين والجائعين: "انتهت مصاعبكم الآن، يا أعزائي. سوف تعاملون كضيوف شرف على السلطان". وتبدى بوضوح أن السلطان يميز بين ضيوفه تمييزاً صارخاً[34].

تلقى الضباط المسلمون الهنود أفضل معاملة. فصلوا عن زملائهم البريطانيين والهندوس، ووفرت لهم إقامات مريحة، وقدم لهم طعام طيب وسجائر، ونقلوا إلى مساجد المدينة للصلاة. "يبدو أن الترك يستهدفونهم"، مثلما لاحظ الكولونيل بيل ساير بارتياب مبرر. جسّد كل ضابط هندي بريطاني جند ليخدم في الجيش العثماني نصراً دعائياً لدعوة السلطان إلى الجهاد[35].

ثمة مبادرة جهادية وثيقة الصلة تمثلت في كتيبة المجندين الجزائريين التي تمركزت في بغداد لمؤازرة دعوة السلطان المغرية لمسلمي المستعمرات. جند رجال شمال إفريقيا هؤلاء أصلاً للخدمة في الجيش الفرنسي على الجبهة الغربية. وبعد أن أسرهم الألمان في بلجيكا وفرنسا، تمتع الجزائريون منهم بمعاملة تفضيلية في معسكر أسرى الحرب المخصص للمسلمين فقط في زوسن-ونسدورف بالقرب من برلين (عرف باسم معسكر الهلال). جند ضباط أتراك في برلين نحو 3.000 من جنود شمال إفريقيا، فوجدوا أنفسهم في بغداد، في مخيم قريب من معسكر أسرى الحرب البريطانيين. لم يمر سوى قلة من المشاركين في الحرب العظمى بتجربة

جنود شمال إفريقيا هؤلاء، الذين قاتلوا في صفوف دول الوفاق والقوى المركزية على حد سواء في إفريقيا وأوربا وآسيا[36].

لكن ما إن وصل جنود شمال إفريقيا إلى بغداد حتى تساءلوا عن الحكمة في قراراهم تبديل ولائهم. زار عدد من الجزائريين القنصل الأميركي في بغداد طلباً لمساعدته. "قال بعضهم إنهم أتوا بناء على وعد السلطان بأنهم سيتلقون معاملة رائعة، وأنهم سيقاتلون -الكفار-"، كما ذكر القنصل تشارلز بريسل. وأضاف: "بينما أكد آخرون أن الألمان أرسلوهم إلى هنا. لكنهم اتفقوا جميعاً على القول إنهم خدعوا". لم يكن باستطاعة القنصل الأمريكي فعل شيء للمتطوعين بالزي العسكري التركي سوى منحهم مبالغ صغيرة من المال. أرسل كثيرون منهم فيما بعد لمحاربة الروس على الحدود الفارسية[37].

تلقى الضباط المسلمون الهنود معاملة أفضل بكثير من الجنود العاديين من مشاة شمال إفريقيا -أفادت المجهود الحربي العثماني. ذكرت الصحافة المحلية في العراق (أغسطس 1916) أن السلطان استقبل مجموعة مؤلفة من سبعين ضابطاً هندياً مسلماً أسروا في الكوت. زعم السلطان أن الضباط حاربوا رغماً عنهم ضد "دولة الخليفة"، وأعاد إليهم سيوفهم في إشارة دالة على احترامه الشخصي. أضافت الصحف: "تأثروا بهذا الفضل السلطاني، وعبروا جميعاً عن رغبتهم في خدمة الدولة". إذا صحت الرواية، فهذا يعني نجاح العثمانيين في تجنيد الضباط الهنود المسلمين الذين أسروا في الكوت كلهم تقريباً (بلغ مجموع عدد الضباط الهندوس والمسلمين الذي أسروا هناك 204)[38].

تلقى الضباط البريطانيون كلهم (277 ضابطاً) معاملة حسنة، مع مزايا وفقاً للرتبة. منحت السلطات العثمانية كل ضابط معاشاً وسمحت له بخادم للتسوق والطهي. كان السكن المتوفر لا يتجاوز حدود الأساسيات دوماً، لكن الضباط وجدوا سقفاً يظلهم وبعض وسائل الراحة. وعندما نقلوا من بغداد إلى مكان احتجازهم النهائي في الأناضول، سافروا بواسطة السكك الحديدية أو السفن البخارية أو الخيول. ومقابل وعد شرف منهم بعدم محاولة الفرار (حسب اللغة العسكرية)، تمتع الضباط بحرية واسعة في التنقل بين البلدات في منطقة احتجازهم. بل سمح لهم بتلقي الرسائل والطرود من أوطانهم[39].

وصف إي. إتش. جونز، الضابط الشاب (لفتنانت) الذي احتجز في بلدة يوزغات وسط الأناضول، وصف بالتفصيل كيف أمضى الضباط البريطانيون أيامهم في الأسر. "مشكلتنا الرئيسة هي كيف نجعل الوقت يمر. نظمنا مسابقة في الهوكي بين فرق مؤلفة من أربعة أفراد، كما كنا نتجول (حين يسمح الترك)، ونتنزه، ونتزلج. وفيما يتعلق بالتسلية وراء الأبواب المغلقة كنا نكتب المسرحيات، الهزلية والجدية، والتمثيليات العاطفية الميلودرامية، والمهازل، والإيمائيات. لدينا أوركسترا مؤلفة من آلات صنعت في السجن، وجوقة من الأصوات الذكورية المتدربة داخل جدرانه، وموسيقيون يؤلفون الموسيقى لها"[40].

تغايرت معاملة الضباط البريطانيين الحسنة تغايراً صارخاً مع المعاملة الوحشية التي تلقاها الجنود العاديون. وقصة هؤلاء غير موثقة بما يكفي بسبب قلة الناجين "من الرتب الأخرى" من مسيرات الموت ليسجلوا معاناتهم. والذين عاشوا التزموا الصمت أو امتنعوا عن وصف الأهوال التي شهدوها. كتب رامي المدفعية لي في خاتمة مذكراته عن الحصار: "لن أتناول هنا ما تحمله الجنود من معاناة ووحشية مروعة في هذه المسيرة أو المناظر الفظيعة التي شهدناها عندما سرنا في المناطق الأرمنية المدمرة". بينما كان جيه. سلوس من فيلق الطيران الأسترالي أكثر صراحة: "كان من المرعب مشاهد شبابنا يساقون بأعقاب البنادق والسياط. تعرض بعضهم للضرب المبرح إلى أن سقط. أحد رجال لواء البحرية لم يتمكن من النهوض قط. إذا نطقت بكلمة جلدت ظهرك بالسياط". حين كان الرقيب جيري لونغ يسير على "درب الهلاك" أسر إلى ضباط عثماني متعاطف بمخاوفه: "قلت له إن عدد جماعتنا تراجع إلى النصف مقارنة بالعدد الأصلي.. وبدأنا نعتقد أن سياسة الحكومة التركية هي إجبارنا على المسير حتى نفنى جميعاً"[41].

كثيراً ما عقدت المقارنة بين معاملة أسرى الكوت مع مسيرات الموت التي أجبر عليها الأرمن -من الناجين أنفسهم على الأقل. فقد عبروا الأراضي الوعرة ذاتها، تحت رقابة حراس عثمانيين لا يأبهون لراحتهم وحياتهم، من دون الأساسيات الضرورية للبقاء: كالماء والطعام والملابس الواقية من الشمس أو الأحذية الملائمة للمشي على هذه التضاريس

القاسية. وتعرضوا لهجمات القرويين والبدو، الذين انقضوا على المتخلفين عن الركب والمنعزلين الذين تركوا وحدهم ليموتوا على الطريق المفتوح.

لكن تباينت مسيرات الموت التي أجبر عليها أسرى الكوت والأرمن. فقد طرد العثمانيون الأرمن إلى الصحراء السورية في سياسة منسقة بغرض الإبادة. بينما لم يخططوا لقتل أسرى الكوت، لكن لم يبذلوا جهداً للحفاظ على حياتهم. وبدا الحراس العثمانيون في أغلب الأحوال غير مبالين كثيراً بنجاة أسراهم أو هلاكهم. من السهل تفسير هذه اللامبالاة. فقد مثل آلاف المرضى والجياع من البريطانيين والهنود الذين خرجوا من حصار الكوت استنزافاً للموارد. وافتقر العثمانيون إلى الوسائل الكافية لإعالة هذا العدد الكبير من الأسرى المحتاجين. فقد عجزوا عن توفير الدواء والطعام حتى لجنودهم، ولم يشعروا بأن من مسؤوليتهم رفاه محاربي العدو، الذين غزوا بلدهم قبل وقوعهم في الأسر. دفع أولئك الذين جعلهم ضعفهم غير مؤهلين لخدمة العثمانيين إلى حتفهم -وشكلوا الأغلبية الساحقة. فمن بين 2.592 جندياً بريطانياً عادياً نقلوا إلى الأسر من الكوت، مات في مسيرات الهلاك أو المعسكرات أكثر من 1.700 -أي نحو 70 في المئة. ومع أن أرقام "الرتب الأخرى" من الهنود أقل دقة، لكن يبدو أن 2.500 (من أصل 9.300) من الجنود الهنود وقوات الدعم هلكوا في الأسر العثماني على أقل تقدير[42].

أجبر الناجون من الكوت على العمل في مشروع الخط الحديدي بين الأناضول وبغداد. تركز الهنود في رأس العين أبعد محطة على السكة، بينما أرسل الجنود البريطانيون إلى العمل في الأنفاق التي اخترقت جبال طوروس وأمانوس. كان العمل في أنفاق السكة الحديدية قد توقف منذ اعتقال الأرمن وترحيلهم إلى ميادين القتل في الصحراء السورية. التقى الكاهن الأرمني غريغوريس بالاكيان بطابور من أسرى الكوت البريطانيين والهنود في محطة بهشه في جبال أمانوس منتصف صيف عام 1916.

وصلت أول مجموعة مؤلفة من مئتي جندي بريطاني وهندي إلى بهشه بعد حلول الظلام، حيث تحركوا في العتمة مثل "أشباح حية.. وقد رثّت ثيابهم، واحدودبت ظهورهم، وغطى الغبار أجسادهم التي تحولت إلى هياكل عظمية"، كما تذكر بالاكيان. نادوا عليه وعلى غيره

من الذين قابلوهم عند الوصول إلى موقع العمل. سألوا: "هل يوجد بينكم أرمن؟ اعطونا قطعة خبز. لم نأكل لقمة منذ أيام". لم يفت التنافر في الوضع على بالاكيان ورفاقه. "صعقنا لحقيقة أنهم يتحدثون الإنكليزية.. وأنهم بريطانيون.. أصدقاء أباعد يشاركوننا المصير نفسه، ويطلبون منا الخبز.. يا لها من مفارقة ساخرة فعلاً!"[43].

منح الرجال، الذين لم يكونوا في حالة تسمح لهم عند الوصول بتولي العمل الشاق في الأنفاق، راحة مدة أسبوع لتجديد قوتهم. وفي أثناء ذلك الوقت، التقى بالاكيان ومجموعته الصغيرة من الناجين الأرمن بالأسرى البريطانيين وتبادلوا الحديث معهم -رفاق الدرب بكل ما في الكلمة من معنى. "حين انتهى الضباط البريطانيون من سرد حكاياتهم المفجعة عن معاناتهم في الصحراء، وصفوا لنا بإشفاق وتعاطف المناظر المروعة [لمذابح الأرمن] التي شاهدوها في دير الزور". اختتم بالاكيان بالقول إن العثمانيين "عاملوا الأسرى البريطانيين كما عاملوا آلاف المهجرين الأرمن -دون خشية من أي محاسبة لاحقة".

* * *

وقع عبء المحاسبة والمساءلة الثقيل على عاتق الحكومة البريطانية حالما وصلت أخبار الاستسلام في الكوت إلى الصحافة البريطانية. فقد ضاعف سقوط الكوت، الذي أتى سريعاً بعد الإخفاق في غاليبولي، الضغط على حكومة رئيس الوزراء هيربرت أسكويث (من حزب الأحرار) لتشكيل لجنتي استقصاء وتحقيق -لا واحدة: الأولى للدردنيل والثانية للرافدين. افتتحت لجنة تقصي الحقائق المعنية بالرافدين الإجراءات يوم 21 أغسطس 1916. وعلى مدى الأشهر العشرة اللاحقة، عقدت ستين اجتماعاً قبل إصدار تقريرها. أدانت الوثيقة الناتجة الحكومة البريطانية وحكومة الهند معاً إلى حد أن السياسيين عملوا على تأخير نشرها طوال شهرين. "أنا مضطر للقول آسفاً إننا لم نشهد افتضاحاً أشد صدماً لحالة التخبط والعجز الرسمية برأيي منذ حرب القرم"، كما استنتج اللورد كورزون، الحاكم العام السابق للهند والشخصية السياسية المؤثرة وعضو حكومة الحرب[44].

نشر تقرير لجنة الرافدين بتاريخ 27 يونيو 1917 وخضع لنقاش حاد في البرلمان في الأسبوع اللاحق. ونتيجة لذلك، قدم وزير الدولة لشؤون الهند، أوستن تشامبرلين، استقالته. والمفارقة أن بغداد كانت بأيدي البريطانيين في صيف عام 1917. لكن النصر المتأخر لن يعيد 40.000 جندي راحوا ضحية حملة الرافدين سيئة الإدارة حتى سقوط الكوت. وأدت تضحيتهم، مثلهم مثل القتلى والجرحى في غاليبولي، إلى إطالة أمد الحرب العظمى بدلاً من تقليصها.

وبغض النظر عن عواقب المناقشات في البرلمان البريطاني وتبعاتها، خشي المخططون الحربيون من الارتدادات الزلزالية في مختلف أرجاء العالم الإسلامي لانتصارين عثمانيين عظيمين على البريطانيين. في القاهرة، انخرط المكتب العربي بشكل محموم في مواجهة المرجعية الدينية للسلطان العثماني (الخليفة)، عبر الترويج لحلف استراتيجي مع السلطة الدينية التي تحتل المرتبة الثانية في الدولة العثمانية والعالم الإسلامي برمته: شريف مكة، حسين بن علي، وأسرته الهاشمية المتحدرة من نسل النبي.

11

الثورة العربية

سوف ينجز التحالف البريطاني مع شريف مكة بعد مفاوضات دامت أشهراً وأثارت باطراد قلقاً وتشوقاً وحذراً، حيث دفعت الجانبين كليهما مخاوف زمن الحرب. كان لدى الشريف حسين سبب وجيه يدعوه إلى الاعتقاد بأن الاتحاديين من أعضاء تركيا الفتاة سعوا إلى إطاحته وربما اغتياله. فضلاً عن ذلك، احتاج إلى دعم قوة عظمى لتحقيق هدفه الطموح بإقامة مملكة عربية مستقلة عن الدولة العثمانية. خشي البريطانيون من أن تشجع سلسلة الهزائم التي أصيبوا بها أمام العثمانيين مسلمي المستعمرات على الثورة ضد قوى الوفاق. وأمل المخططون الحربيون في القاهرة و"وايتهول" بأن تحالفاً مع حامي الحرمين الشريفين، أقدس عتبات المسلمين، سوف يحيد جاذبية دعوة السلطان-الخليفة العثماني إلى الجهاد في لحظة انحدرت فيها مصداقية بريطانيا العسكرية إلى أدنى مستوى منذ بدء الحرب.

* * *

مثلت إمارة مكة مؤسسة فريدة من نوعها في العالمين العربي والإسلامي. إذ حكمها حصراً عرب متحدرون من نسل النبي (الأشراف)، ومارست سلطتها على أقدس مدينة لدى المسلمين حيث يحجون إليها من كل فج عميق كل سنة، وحظيت بمنصب سياسي نافذ وممتد عبر القرون. تمتع أمراء مكة، الذين يعينهم الوالي العثماني، بالسلطة الدينية الثانية

بعد السلطان-الخليفة. وعلى الرغم من الطبيعة الدينية الواضحة لمنصب أمير مكة، فهو شخصية سياسية بامتياز. استغل العثمانيون مطامح الفروع المتنافسة من الأسرة الهاشمية الحاكمة لمنع شاغل المنصب من المبالغة في الاستقلالية عن الأستانة. كان باستطاعة أي حاكم عربي يتمتع بشخصية آسرة مقترنة بالشرعية الدينية أن يشكل تهديداً داهماً وخطراً للحكم العثماني في البلاد العربية[1].

لم يكن الشريف حسين غريباً عن المكائد العثمانية. ولد في إسطنبول عام 1854 (تقريباً)، حيث احتجز والده برغبة من السلطان. ثم انتقل بعد وفاته عام 1861 إلى ولاية الحجاز العربية، التي تضم أقدس مدينتين لدى المسلمين، مكة والمدينة، لينشأ بين البدو، على عادة أشراف مكة. عاد إلى إسطنبول منفياً باختياره عام 1893، وربى أبناءه الأربعة (علي وعبد الله وفيصل وزيد)، في العاصمة الامبراطورية في منزل مطل على البوسفور. وفي أعقاب ثورة الاتحاديين من أعضاء تركيا الفتاة عام 1908، عين السلطان عبد الحميد الثاني الشريف حسين أميراً على مكة ليمنع المرشح الذي اختارته جمعية الاتحاد والترقي الثورية للمنصب. ومع أنه كان مرشح تسوية، فقد استطاع النجاة من إطاحة عبد الحميد الثاني عام 1909 ليعزز موقعه في مكة.

بدأت العلاقات بين الشريف حسين والاتحاديين تتدهور مع صعود الثلاثي الحاكم، إسماعيل أنور، وأحمد جمال، ومحمد طلعت عام 1913. عارض بشدة، من مقره في مكة، إجراءات الاتحاديين لمركزة الحكم العثماني في الحجاز، حيث عرقل جميع المساعي لتطبيق قانون جديد للإصلاح الإداري في الولاية، واعترض على خطط لمد الخط الحديدي الحجازي من المدينة إلى مركز الإمارة في مكة. لأن مثل هذه الإجراءات ستضعف الاستقلال الذاتي لأمير مكة، وتلحق الضرر -في حالة السكة الحديدية- بالاقتصاد المحلي عبر حرمان الجمالين من أجور نقل الحجيج بين المدينة ومكة. عرف، عند معارضة مبادرات الاتحاديين هذه، أنه يدعوهم إلى طرده من منصبه. لكن بدلاً من الإذعان إلى ضغوط الأستانة، بدأ الشريف حسين يفكر في الثورة. أرسل ابنه عبد الله إلى القاهرة لبدء مفاوضات سرية مع المسؤولين البريطانيين هناك، وهو يعلم أن

بريطانيا العظمى منحت دعمها لأمير الكويت عام 1899 حين سعى إلى الاستقلال عن العثمانيين.

التقى الأمير عبد الله في فبراير وأبريل 1914 باللورد كتشنر، الذي كان قنصلاً عاماً في مصر آنذاك، ورونالد ستورز سكرتير الشؤون الشرقية. انتهز عبد الله المناسبة لسبر الموقف البريطاني تجاه التوترات التي تتعمق بين إسطنبول ومكة. تذكر عبد الله: "حين طلبت منه أن يخبرني هل يمكن للشريف حسين، في حالة انقطاع العلاقات، أن يعتمد على أي دعم من بريطانيا العظمى، رد بالنفي، بذريعة أن العلاقات البريطانية مع تركيا ودية وأن الخلاف، على أي حال، شأن داخلي ليس من اللائق لقوة أجنبية التدخل فيه". سارع عبد الله إلى تذكير كتشنر بأن العلاقات الودية لم تمنع بريطانيا من التدخل في شأن داخلي بين الكويت والباب العالي عام 1899. دفع استعراض الفطنة كتشنر إلى الضحك، لكن ليس إلى تغيير السياسة، ونهض لينصرف. لكن تأثر كتشنر وستورز كلاهما بعبد الله وتذكرا زيارته بعد أشهر، عندما لم تعد العلاقات ودية مع تركيا عقب اندلاع الحرب العظمى[2].

في سبتمبر 1914، توقع البريطانيون أن يدخل العثمانيون الحرب إلى جانب ألمانيا في أي لحظة. وبدا أن حليفاً مسلماً يحظى بالاحترام والإجلال يشكل مصدر نفع عظيم في أي حرب مع العثمانيين. "عبر التشاور في الوقت المناسب مع مكة، يمكن أن نضمن لا مجرد حياد الجزيرة العربية بل تحالفها في حالة أي عدوان عثماني"، كما اقترح ستورز على رؤسائه. وكتب إلى كتشنر، الذي استدعي إلى لندن وعين وزيراً للحرب، ليقترح تجديد الاتصالات مع أشراف مكة. رد كتشنر بسرعة وحماسة، طالباً من ستورز إرسال مبعوث موثوق إلى عبد الله، والتأكد هل يناصر هو وأبوه وعرب الحجاز "قضية تركيا أم بريطانيا العظمى" في حالة إعلان العثمانيين الحرب[3].

عقب دخول العثمانيين الحرب، خطب الأتراك والبريطانيون معاً ود أمير مكة والتمسوا ولاءه. سعى العثمانيون إلى مصادقة الشريف حسين على دعوة السلطان إلى الجهاد باعتباره المسؤول المسلم الأعلى مرتبة ومكانة في العالم العربي. ماطل وتعهد بالدعم الشخصي، لكن

رفض إعلان موقفه على الملأ خوفاً من استفزاز العدو وانتقامه. وأكد أن حصار البحرية الملكية لموانئ البحر الأحمر سوف يقطع مورد الغذاء الحيوي إلى الحجاز ويؤدي إلى مجاعة وثورة قبلية. لكن مهما بدا ذكياً في ذريعته، فقد خلق رفضه أزمة للاتحاديين من أعضاء تركيا الفتاة. ونشروا مزاعم لا أساس لها في الصحافة العثمانية تؤكد أن الشريف حسين أعلن الجهاد في أنحاء الحجاز، وأن رجال القبائل "يستجيبون من كل ناحية لهذه الدعوة بأسلحتهم الكاملة". أما في السر، فقد وضعوا الخطط لإطاحته[4].

وبينما ضغط الاتحاديون على الشريف حسين لتأييد الجهاد العثماني، صمم البريطانيون، حسب تعبير أحد أوائل القوميين العرب، على تجريد "الدعوة إلى الجهاد من قوتها الأساسية" بعقد اتفاق مع الشريف حسين بأنفسهم. في نوفمبر 1914، كتب ستورز إلى الأمير عبد الله ابن الشريف حسين باسم كتشنر لتأمين تحالف ضمني: إذا منح الشريف حسين والشعوب العربية الدعم للمجهود الحربي البريطاني، فإن كتشنر يتعهد بضمان بريطانيا استقلال العرب وحمايتهم من أي اعتداء خارجي. أمر الشريف حسين ابنه بالرد وتأكيد أن الهاشميين لن يتبنوا سياسات معادية لبريطانيا العظمى، إلا أن موقفه بعدم القطيعة مع العثمانيين يعيقه عن ذلك حالياً[5].

لكن موقف الهاشميين تجاه البريطانيين ظل ملتبساً ومراوغاً كحاله مع العثمانيين. فلو ثار الشريف حسين على العثمانيين وفشل فسوف يكون مصيره الموت حتماً. كان الأمير بحاجة إلى تجميع ما يكفي من القوات لضمان نجاح ثورته. وعليه أيضاً أن يحدد طموحات حركته: هل يرغب في ضمان الاستقلال الذاتي للحجاز وحده، أم يتطلع إلى قيادة جزء أكبر من العالم العربي؟ وجب عليه الإجابة عن هذه الأسئلة قبل الدخول في مفاوضات مفصلة مع البريطانيين.

* * *

كان آل البكري من وجهاء دمشق الذين يحظون بالاحترام والتقدير، وأصدقاء قدامى للأسرة الهاشمية. وحين جند ابنهم فوزي للخدمة في الجيش العثماني، استخدموا نفوذهم

لتأمين تعيينه حارساً شخصياً لأمير مكة. ومع أنه سيكون بعيداً عن الوطن، فإنه سيكون أبعد عن جبهات القتل والهلاك التي يرسل إليها المجندون العرب على نحو متزايد تلك الأيام -القوقاز، والرافدين، والدردنيل.

عشية مغادرة فوزي إلى الحجاز في يناير 1915، أدخله شقيقه الأصغر نسيب إلى عضوية الجمعية العربية السرية "الفتاة". أسست الجمعية في باريس عام 1909، وأدّت دوراً مفتاحياً في تنظيم المؤتمر العربي الأول هناك عام 1913. ومنذ ذلك الحين، عادت "الفتاة" إلى سوريا، وإن عملت في الخفاء جراء القمع العثماني. بلغت الجمعية حداً من السرية جعلت الشقيق الأكبر على جهل تام بالنشاط السياسي لشقيقه الأصغر. ائتمن السوريون الشبان من أصحاب التوجهات القومية فوزي البكري على رسالة شفهية إلى الشريف حسين عرفوا مدى خطورة كتابتها على الورق[6].

وصل فوزي إلى مكة في الأسبوع الأخير من يناير. انتظر إلى أن وجد نفسه وحيداً في صحبة الشريف حسين ليهمس رسالته في أذن الأمير: القادة العرب القوميون في سوريا والعراق خططوا لثورة على العثمانيين لنيل الاستقلال. كان كثير منهم من الضابط الكبار في الجيش العثماني. فهل يوافق الشريف حسين على قيادة حركتهم، وفي هذه الحالة، يستقبل وفداً في مكة لتنسيق المساعي؟ حدق الأمير إلى النافذة ولم يجب عن السؤال، كأنما لم يسمعه. انسحب الرسول الأريب ليسمح لرجل الدولة الرشيد بالتفكير في المسألة على انفراد.

اكتشف الشريف حسين، بعد وقت قصير من تسلم رسالة فوزي، دليلاً لا يقبل الجدل على تآمر الاتحاديين من أعضاء تركيا الفتاة عليه. فقد فتش أتباعه صندوقاً يحمل مراسلات والي الحجاز العثماني، وهيب باشا، ووجدوا فيه وثائق حكومية توجز خططاً لإطاحة الشريف حسين واغتياله. أجبر الكشف حاكم مكة البالغ من العمر واحداً وستين عاماً على إعادة التفكير في الموقف الحيادي الذي اتخذه زمن الحرب. ووجب عليها الاختيار بين الولاء الكامل للعثمانيين والثورة عليهم بالتحالف مع بريطانيا العظمى، لكنه أراد مزيداً من المعلومات قبل اتخاذ القرار.



الشريف حسين أمير مكة (1931-؟1954). أعلن الثورة العربية في 5 يونيو 1916، عقب مراسلات مستفيضة مع المسؤولين البريطانيين في مصر.

أرسل الشريف حسين ابنه فيصلًا إلى دمشق والأستانة في مهمة لجمع المعلومات. كان فيصل الدبلوماسي مرشحاً مثالياً لأدائها. فهو يوالي العثمانيين لكن ينتقدهم، وخدم في مجلس المبعوثان مندوباً عن الحجاز، كما عرف بتأييده السلطنة. في الظاهر، كان على فيصل الاجتماع مع السلطان والصدر الأعظم لتقديم شكوى والده ضد وهيب باشا وخطط الاتحاديين لإطاحته. وسوف يعلم بفطنته من ردة فعلهما هل لوالده مستقبل في النظام العثماني. لكن زيارات فيصل إلى دمشق، في الطريق من عاصمة السلطنة وإليها، كانت على القدر ذاته من الأهمية للأمير. لسوف يتصل بأعضاء الجمعيات العروبية السرية للتأكد من رسالة فوزي البكري وتقييم استعدادهم للثورة[7].

وصل فيصل إلى دمشق في أواخر مارس 1915 في الطريق إلى الأستانة. دعا جمال باشا، الحاكم العام لسوريا وقائد الجيش الرابع، ابن الأمير إلى الإقامة في منزله. اعتذر فيصل، لأنه قبل مسبقاً ضيافة آل البكري. أمضى نهار أيامه مع المسؤولين العثمانيين يناقش مجريات

الحرب. وكان جمال باشا قد عاد مؤخراً من أول محاولة فاشلة لاجتياح ترعة السويس وسعى لتأمين دعم الهاشميين لهجوم ثان. أما في الليل، فقد التقى مع الأعضاء البارزين في الجمعيات العربية في رحاب الأمان النسبي لبيت البكري.

كان الناشطون الوطنيون في دمشق مقتنعين بتعاطف الأمير الحجازي مع قضيتهم، فشاركوه تطلعاتهم وطموحاتهم. أرادوا القطيعة مع السلطنة العثمانية لكن خافوا من المخططات الأوربية التآمرية للاستيلاء على أراضيهم. إذ لم تخف فرنسا على وجه الخصوص مطامحها في سوريا. ورغبوا في ضمانات باستقلال العرب قبل الثورة على العثمانيين. بادل فيصل العروبيين ثقتهم عبر كشف الخطوط الرئيسة لمفاوضات الهاشميين السرية مع البريطانيين والعرض الذي قدمه كتشنر: ضمانات بريطانية باستقلال العرب مقابل تحالف ضد العثمانيين. وقبل أن يستأنف الرحلة إلى الأستانة، أصبح عضواً في جمعية "العهد" السرية العسكرية، وحركة "العربية الفتاة" المدنية كلتيهما. ترك فيصل الناشطين العرب يفكرون ملياً في مضامين الدعم البريطاني لثورة عربية على السلطنة العثمانية.

التقى فيصل في الأستانة بالسلطان والصدر الأعظم، إضافة إلى قيادة الاتحاديين من أعضاء تركيا الفتاة. بدا الجو متوتراً في عاصمة السلطنة في أوائل مايو 1915. فقد تمكن الحلفاء من تأمين رأس جسر لهم في "كيب هيليس" و"أنزاك كوف" في شبه جزيرة غاليبولي*، واستهلت الدولة أول إجراءاتها ضد الأرمن. لم تكن ثقة الاتحاديين بولاء العرب تزيد كثيراً على ثقتهم بالأرمن. على هذه الخلفية، قدم فيصل شكوى والده ضد والي الحجاز العثماني وهيب باشا.

عبرّ كبار القادة العثمانيين عن أسفهم لـ"سوء الفهم" المتعلق برسائل وهيب باشا، دون الاستبعاد الكلي لتهديد حكم الشريف حسين. حث طلعت وأنور الهاشميين على تقديم دعمهم الكامل للمجهود الحربي العثماني. فإذا صادق أمير مكة على دعوة السلطان إلى الجهاد وأرسل أنصاره من رجال القبائل للمشاركة في حملة سيناء الجديدة، فسوف يضمن سلامته وأمنه ومنصبه. وكتبا رسائل تؤكد هذه النقاط ليحملها فيصل معه إلى والده. غادر

* انظر الفصل 6.

الأمير الشاب إسطنبول في منتصف مايو 1915، وقد فهم تماماً موقف الحكومة العثمانية: الشريف حسين أمام خيارين لا ثالث لهما، إما أن يظهر ولاءه الكامل أو يواجه الإقصاء.

وجد فيصل عند عودته إلى دمشق أن العروبيين نشطوا في غيابه. إذ اعتقد أعضاء الجمعيات السرية أن تعهد اللورد كتشنر ربما يوفر الضمانات الضرورية لاستقلال العرب، ما يبرر الثورة على العثمانيين، لكنهم أرادوا التزاماً بيناً لا لبس فيه بتعيين البلاد المستقلة ضمن حدود مرسومة بوضوح. وضعوا شروطهم في وثيقة عرفت باسم "بروتوكول دمشق".

عين "بروتوكول دمشق" حدود البلاد العربية ضمن تخومها الطبيعية، حيث تمتد شمالاً على طول السهول المتاخمة لسفوح هضبة الأناضول من مرسين على ساحل كيليكيا (عبر بلدات جنوب تركيا حالياً: أضنة، وبيريجيك، وأورفا، وماردين) حتى الحدود الفارسية. أما في الشرق فتتبع خط الحدود العثمانية-الإيرانية حتى مياه الخليج العربي. ويشكل البحر الأحمر والمحيط الهندي الحد الجنوبي، والبحرين الأحمر والمتوسط الحدود الغربية. كان العروبيون الذين ضموا إلى دولتهم المستقلة بلاد الشام كلها والرافدين والجزيرة العربية، على استعداد للتنازل عن ميناء عدن ليبقى تحت الحكم الاستعماري البريطاني. دعا البروتوكول أيضاً إلى إقامة علاقات خاصة مع بريطانيا، وفق تحالف دفاعي ومنحها "الأفضلية في الشؤون الاقتصادية"[8].

فوضت القيادة العربية الشريف حسين بالتفاوض مع بريطانيا العظمى على استقلال العرب وفق الخطوط المحددة في بروتوكول دمشق. فإذا تمكن من الفوز بقبولها بمطالبهم الإقليمية، يتعهد العروبيون للشريف حسين بالدعوة إلى الثورة والاعتراف بأمير مكة إن نجحت "ملكاً على العرب". أضاف فيصل بروتوكول دمشق إلى الرسائل التي حملها من أنور وطلعت في إسطنبول إلى والده في مكة. أنجزت مهمته، وعاد بجميع المعلومات التي احتاج إليها والده لتقرير القضية التي يدعمها: المجهود الحربي العثماني أو مسعى العرب لنيل الاستقلال.

عند عودة فيصل إلى مكة يوم 20 يونيو 1915، جمع الشريف حسين أبناءه في مجلس حرب. وظلوا على مدى أسبوع يدرسون مخاطر الانضمام إلى كل واحد من المعسكرين

المتحاربين، ثم قرروا عرض شروط بروتوكول دمشق على السلطات البريطانية في القاهرة، قبل اتخاذ القرار المصيري بين الجهاد العثماني والثورة العربية.

كتب عبد الله ابن الشريف حسين رسالة إلى رونالد ستورز سكرتير الشؤون الشرقية الذي عرفه في القاهرة. أمكنه الآن الزعم بأنه يتكلم نيابة عن "الشعب العربي" بأسره للحصول على الدعم البريطاني لاستقلال العرب من الحكم العثماني. لكنه سعى إلى تطمينات بقبول بريطانيا بعض "الاقتراحات الأساسية" ركيزة للتفاوض على تحالف في زمن الحرب. أعاد عبد الله في رسالته بتاريخ 14 يوليو 1915 ذكر شروط بروتوكول دمشق حرفياً وطلب راجياً من "الحكومة البريطانية أن تجيبه سلباً أو إيجاباً في خلال ثلاثين يوماً من وصول الاقتراح". وهكذا بدأت المقترحات والعروض المعروفة إجمالًا بمراسلات حسين-مكماهون، التي ستكون كما ثبت أكثر الاتفاقات التي عقدتها بريطانيا زمن الحرب شمولاً -وإثارة للجدل- فيما يتعلق بالشرق الأوسط ما بعد العثمانيين[9].

* * *

صاغت ضرورات الحرب شروط مراسلات حسين-مكماهون وبنودها وتوقيتها. حين وصلت رسالة عبد الله إلى رونالد ستورز في يوليو 1915، كان البريطانيون ما يزالون واثقين من هزيمة العثمانيين في غاليبولي والاستيلاء على عاصمة السلطنة. ووجدوا أن الشريف مبالغ في مطالبه المتعلقة بالحقوق الإقليمية. "كانت مطالبه مغالية في تطرفها من كل ناحية"، كما كتب السير هنري مكماهون، المندوب السامي البريطاني في مصر، إلى لندن. لكن فشل هجوم أغسطس في غاليبولي، حين صمد العثمانيون أمام إنزال الحلفاء في "خليج سوفلا"، أجبر البريطانيين على إعادة النظر في استراتيجيات الحرب في الشرق. فحرصوا على إبقاء الباب مفتوحاً أمام الشريف حسين وأبنائه وإمكانية اندلاع ثورة داخلية كبرى بكل ما تثيره من إغراء ورغبة[10].

وجه مكماهون رده على رسالة عبد الله إلى أمير مكة مباشرة. "نعرض أن لنا الشرف بتقديم واجب الشكر لإظهاركم عاطفة الإخلاص وشرف الشعور والإحساسات نحو

الإنكليز"، كما بدأ رسالته بتاريخ 30 أغسطس. وأعاد توكيد تعهد كتشنر السابق الذي "وضح رغبتنا في استقلال بلاد العرب وسكانها مع استصوابنا للخلافة العربية عند إعلانها". لكنه رفض الخوض في مسألة الحدود والتخوم لأنها "سابقة لأوانها، وتصرف الأوقات سدى.. والحرب دائرة رحاها.."*.

لم تترك النبرة في جواب الشريف حسين إلى مكماهون، التي تبدت في الرد السريع بتاريخ 9 سبتمبر، أي شك في موقف الأمير. اعترض على "غموض" خطاب مكماهون و"برودته وتردده" فيما يتعلق بالنقطة الأساسية، حيث رفض المندوب السامي الالتزام بالحدود العربية. تنصل من الطموح الشخصي وزعم أنه يتحدث باسم الشعب العربي كله: "وأنا على ثقة يا صاحب الفخامة أنكم لا تشكون قط في أنني لست أنا شخصياً الذي يطلب تلك الحدود التي يقطنها عرب مثلنا، بل هي مقترحات شعب بأسره"، كما أصر الشريف حسين بأسلوبه النثري الجزل.

أتى توكيد مزاعم الشريف حسين بالتحدث نيابة عن العرب وتطلعاتهم عموماً من مصدر بعيد الاحتمال: ملازم عربي في الجيش العثماني هرب إلى الخطوط البريطانية في غاليبولي (أغسطس 1915). كان الضابط الشاب محمد شريف الفاروقي من أهالي الموصل، وعضواً في جمعية "العهد"، ويعرف تفاصيل بروتوكول دمشق، وأن أمير مكة يراسل المندوب السامي في القاهرة. كما أكد أن الضباط العرب الأعضاء في الجمعيات السرية تخلوا عن ولائهم للسلطان العثماني وأقسموا يمين الولاء للشريف حسين، الذي سيقودهم في ثورة تحقق للعرب استقلالهم. في أكتوبر، نقل الفاروقي من سجنه في معسكر في الدردنيل إلى القاهرة لكي يستجوبه ضباط الاستخبارات البريطانيون. أقنع كل ما قاله البريطانيين

---

* استهل الرسالة بديباجة "بديعية" منمقة قال فيها: "إلى السيد الحسين نسيب سلالة الأشراف وتاج الفخار وفرع الشجرة المحمدية والدوحة القرشية الأحمدية، صاحب المقام الرفيع والمكانة السامية السيد ابن السيد والشريف ابن الشريف السيد الجليل المبجل دولتلو الشريف حسين سيد الجميع أمير مكة المكرمة، قبلة العالمين ومحط رجال المؤمنين الطائعين، عمت بركته الناس أجمعين".

بأن الشريف حسين هو في الحقيقة زعيم حركة عربية عريضة القاعدة ومستعدة للثورة على الدولة العثمانية"[11].

ومع تدهور موقف الحلفاء في الدردنيل باطراد إلى مستوى يتعذر الدفاع عنه، استأنف المسؤولون البريطانيون في القاهرة المفاوضات مع الهاشميين بإحساس جديد بالاستعجال نظراً إلى خطورة الوضع. سوف يمنح الجلاء عن غاليبولي الترك نصراً مؤزراً ويحرر فرقاً عثمانية بكاملها لإعادة نشرها على جبهات أخرى. وفي ظل هذه الظروف، لا بد أن يحظى اتفاق مع الهاشميين بأهمية إضافية. أدرك السير هنري مكماهون أن عليه الرد على مطالب الشريف حسين بالحقوق الإقليمية من أجل عقد صفقة معه. ولذلك، سعى المندوب السامي في رسالته بتاريخ 24 أكتوبر إلى مواءمة المصالح البريطانية-الفرنسية في الشرق الأوسط مع المطامح الإقليمية للبروتوكول.

تمثلت أولوية الحكومة في البريطانية في الحفاظ على علاقاتها الخاصة مع الشيوخ العرب في الخليج. فقد كان حكام عمان، وإمارات الساحل المهادن، وقطر، والبحرين، والكويت، إضافة إلى ابن سعود في وسط الجزيرة العربية وشرقها، في رعاية بريطانيا وتربطهم بها معاهدات تعود إلى أوائل القرن التاسع عشر. وهكذا، تعهد مكماهون بدعم حكومته للحدود التي طالب بها الشريف حسين "دون التعرض للمعاهدات المعقودة بيننا وبعض رؤساء العرب".

مع حملة الرافدين، جذب البريطانيون ولايتي البصرة وبغداد العثمانيتين إلى مجال نفوذهم ومصالحهم في الخليج العربي. ومن دون إعلان عن مطالبة استعمارية سافرة بالعراق، أكد السير هنري أن "مركز بريطانيا العظمى ومصالحها الموطدة هناك تستلزم اتخاذ تدابير إدارية مخصوصة، لوقاية هذه الأقاليم من الاعتداء الأجنبي وزيادة خير سكانها وحماية مصالحنا الاقتصادية المتبادلة" -أي في الجوهر، دمج بلاد الرافدين في نظام بريطانيا المهادن في الخليج العربي.

أخيراً، كان على السير هنري التأكد من أنه لم يقدم أي التزامات للعرب تتعارض مع الاتفاقات الإنكليزية-الفرنسية السابقة، أو "تمس مصالح الحليفة فرنسا"، على حد تعبيره. في مارس 1915، أكدت الحكومة الفرنسية حقها في ضم سورية، مع منطقة خليج الاسكندرونة وكيليكيا حتى سلسلة جبال طوروس، كجزء من تسوية ما بعد الحرب، وهو مطلب نال الاعتراف الرسمي من الحلفاء البريطانيين والروس. عرف أن المطالب الفرنسية الكاملة سوف تحبط أي اتفاق مع الشريف حسين وأن أي تعديل عليها سوف يشعل غضب باريس[12].

حين كان الوضوح يؤدي إلى نتائج عكسية، يختار السير هنري الغموض. فقد استثنى المندوب السامي "ولايتي مرسين والاسكندرونة وأجزاء من بلاد الشام الواقعة في الجهة الغربية لولايات دمشق وحمص وحماة وحلب" من الأراضي التي يطالب بها العرب، وامتنع عن الاعتراف بها متذرعاً بادعاء زائف أنها ليست "عربية محضة". كانت محاولة واضحة لفصل المنطقة العربية عن التعهدات البريطانية للشريف حسين التي قد تربك العلاقات المستقبلية بين بريطانيا وفرنسا والعالم العربي -على الأقل فيما يتعلق بمسألة هل تشمل هذه الصيغة فلسطين ضمن الأراضي المقررة للدولة العربية المستقلة. ومع ذلك، فهذا هو التعهد الذي قطعه المندوب السامي للشريف حسين. كتب مؤكداً: "مع مراعاة التعديلات المذكورة.. فإن بريطانيا العظمى مستعدة للاعتراف باستقلال العرب.. في جميع الأقاليم الداخلة في الحدود التي يطلبها دولة شريف مكة".

في المراسلات اللاحقة التي جرت بين 5 نوفمبر 1915 و10 مارس 1916، عقد السير هنري مكماهون تحالفاً مع الشريف حسين أمير مكة. وقعت في الأسابيع التي مرت بين الرسائل المتبادلة هزائم بريطانية مذلة في الدردنيل والرافدين. وتبعت رسالة مكماهون بتاريخ 14 ديسمبر قرار الحكومة البريطانية بالجلاء عن المواقع في "سوفلا وأنزاك" في غاليبولي (7 ديسمبر) وبداية حصار كوت العمارة (8 ديسمبر). أما رسالة المندوب السامي بتاريخ 25 يناير 1916 فقد كتبها بعد الانسحاب النهائي من غاليبولي (9 يناير). ولم يكن من المفاجئ أن تلاحظ رسالته الأخيرة، بتاريخ 10 مارس، الانتصارات البريطانية على

رجال القبائل السنوسيين في مصر والنجاحات الروسية في أرضروم دون ذكر الاستسلام الوشيك في الكوت. ولا بد أن سلسلة الهزائم البريطانية جعلت حتى الكتابة صعبة على يده.

صمم الشريف حسين على تحقيق مطالبه وهو يعلم أنه يفاوض بريطانيا المطوقة. وبدلاً من السعي إلى الاعتراف باستقلال العرب، كتب باطراد عن "مملكة عربية" هو زعيمها المختار. لكن أمير مكة قدم تنازلات إقليمية مهمة. فقد زعم أن "الولايات العراقية" جزء لا يتجزأ من المملكة العربية المستقبلية "المحضة"، لكنه وافق على أن يترك "الجهات التي هي الآن تحت الإشغال البريطاني إلى مدة يسيرة"، مقابل أن "يدفع للمملكة العربية في مدة الإشغال المقدار المناسب من المال".

بدت مطالب فرنسا في سوريا (الكبرى) أصعب قبولاً على الأمير. فقد ألح على أن الولايات السورية عربية محضة ولا يمكن استثناؤها من المملكة العربية. لكن في مسار المراسلات، اعترف برغبته في "اجتناب ما يمس حلف بريطانيا العظمى لفرنسا واتفاقهما إبان هذه الحروب والنوازل"، وإن حذر مكماهون بأنه "عند أول فرصة تضع فيها هذه الحروب أوزارها سنطالبكم بما نغض الطرف عنه اليوم لفرنسا في بيروت وسواحلها". ركزت بقية الرسالة على الاحتياجات المادية للثورة: الذهب والطحين والبنادق لاستدامة مجهود العرب الحربي ضد الترك مستقبلاً.

ما كان باستطاعة السير هنري مكماهون أن ينجز تحالفاً أفضل. فقد نجح في عقد اتفاق مع شريف مكة يستثني الأراضي السورية التي يطالب بها الفرنسيون، والولايات العراقية التي يرغب في الاحتفاظ بها البريطانيون. أما حقيقة بقاء حدود الأراضي التي أقر بها في مراسلات حسين-مكماهون غامضة فكانت ميزة في العلاقات الإنكليزية-العربية زمن الحرب. لكن من مصلحة العلاقات الإنكليزية-الفرنسية التوصل إلى اتفاق أكثر دقة وتحديداً حول تقسيم الأراضي العربية في حقبة ما بعد الحرب.

* * *

وجب على الحكومة البريطانية الحصول على موافقة الفرنسيين على الوعود التي قطعتها للشريف حسين. كان وزير الخارجية، السير إدوارد غراي، قد اعترف سابقاً بمصالح فرنسا الخاصة في سوريا. وبعد إجازة التنازلات الإقليمية التي قدمها مكماهون إلى الشريف حسين، طلبت وزارة الخارجية في أكتوبر 1915 من الحكومة الفرنسية إرسال مفاوضين إلى لندن لتعيين بعض الحدود الواضحة للمطالب الفرنسية في سوريا. عين وزير الخارجية الفرنسي القنصل العام السابق في بيروت، شارل فرانسوا جورج-بيكو، للتفاوض مع السير مارك سايكس، مستشار اللورد كتشنر لشؤون الشرق الأوسط، حول خطة لتقسيم الأراضي العربية في حقبة ما بعد الحرب تكون مقبولة للطرفين[13].

دفعت حقيقة أن البريطانيين والفرنسيين تقاسموا فيما بينهم الأراضي التي كان الشريف حسين يطالب بها للمملكة العربية المستقبلية، كثيراً من المؤرخين إلى إدانة اتفاقية سايكس-بيكو بوصفها نموذجاً شائناً للغدر الاستعماري -عبر عنه المؤرخ الفلسطيني جورج أنطونيوس بأسلوب بليغ: "إن اتفاقية سايكس-بيكو وثيقة مروعة، فليست هي فحسب وليدة الجشع في أسوأ صوره، حين يكون الجشع مقترناً بالريب فيؤدي إلى الحماقة، بل هي أيضاً صورة مرعبة للمخادعة والمكر". لكن بالنسبة إلى فرنسا وبريطانيا، اللتين قادهما التنافس الاستعماري في الماضي إلى حافة الحرب، مثلت اتفاقية سايكس-بيكو للأولى تمريناً جوهرياً لتحديد تخوم المناطق التي تطالب بها في كيليكيا وسوريا، وللثانية مجالاً لتوكيد حقها في الرافدين -الأراضي التي حاول السير هنري مكماهون استثناءها من تعهده للشريف حسين[14].

هنالك عدد من المفاهيم المغلوطة حول اتفاقية سايكس-بيكو. فما زال كثيرون يعتقدون، بعد عقدها بقرن من الزمان، أنها رسمت حدود الشرق الأوسط الحديث. في الحقيقة، لا تحمل الخريطة التي رسمها سايكس وبيكو أي شبه بحدود الشرق الأوسط اليوم. فقد حددت مناطق الهيمنة الاستعمارية في سوريا والرافدين، حيث تملك فرنسا وبريطانيا الحرية في "إنشاء ما ترغبان فيه من شكل الحكم المباشر أو غير المباشر [بالواسطة] أو المراقبة"[15].

في "المنطقة الزرقاء"، طالبت فرنسا بخط يمتد على الساحل الشرقي للمتوسط من مرسين وأضنة، ويلتف حول خليج الاسكندرونة باتجاه الجنوب عبر شواطئ سورية ولبنان الحالية حتى ميناء صور القديم. كما طالبت بجزء واسع من شرق الأناضول حتى نقطة شمال

سيواس وشرق ديار بكر وماردين (جميع البلدات داخل الجمهورية التركية حالياً). بينما ضمن البريطانيون في "المنطقة الحمراء" اعترافاً بمطالبهم بولايتي البصرة وبغداد العراقيتين.

قسمت الأراضي الشاسعة الممتدة بين المنطقتين الزرقاء والحمراء إلى مجالين منفصلين تمارس فيهما بريطانيا وفرنسا نفوذاً غير رسمي. وضعت المنطقة آ معظم مدن سوريا -حلب وحماة وحمص ودمشق، إضافة إلى مدينة الموصل شمال العراق، تحت السيطرة الفرنسية غير المباشرة. بينما طالب البريطانيون بامبراطورية غير رسمية في المنطقة ب، الممتدة عبر صحارى شمال الجزيرة العربية من العراق إلى حدود سيناء المصرية. ستكون المنطقتان جزءاً من "دولة عربية مستقلة أو كونفدرالية من الدول العربية برئاسة زعيم عربي" -وهي صيغة لا ترتقي أبداً إلى تعهدات السير هنري مكماهون للشريف حسين.

المنطقة التي لم يتمكن البريطانيون والفرنسيون من الاتفاق عليها هي فلسطين. إذ عجز الطرفان عن التوصل إلى حل لمطالبهما المتعارضة، وتوقعا أن تزيد المطامح الروسية تعقيد المفاوضات. قرر سايكس وبيكو رسم خريطة فلسطين باللون البني (المنطقة السمراء)، لتميزها عن المنطقتين الحمراء والزرقاء، واقترحا "إدارة دولية" لن يتقرر شكلها النهائي إلا بالتفاوض مع روسيا، "والحلفاء الآخرين، وممثلي شريف مكة" -المرة الوحيدة التي ذكر فيها الشريف حسين صراحة في اتفاقية سايكس-بيكو.

سافر سايكس وبيكو في مارس 1916 إلى روسيا لضمان موافقة حليف قوى الوفاق على خطة التقسيم. سعى وزراء القيصر، إضافة إلى مطالبتهم القديمة بالمضائق وإسطنبول، التي تأكدت في معاهدة القسطنطينية عام 1915، إلى الحصول على اعتراف البريطانيين والفرنسيين بضم الأراضي التركية التي اجتاحها الجيش الروسي مؤخراً -أرضروم، وميناء طرابزون على البحر الأسود، ومدينة وان المدمرة، وبيتليس- ثمناً لقبولهم شروط سايكس-بيكو. وبعد تأمين تأييد روسيا في مايو 1916، أنجز الحلفاء اتفاقاً شاملاً على تقسيم الامبراطورية العثمانية بعد الحرب. وتمكنوا، حتى اللحظة، من الحفاظ على الأمر كله سراً مكنوناً وإخفائه عن حلفائهم العرب، الشريف حسين وأنجاله.

* * *

بينما كانت قوى الوفاق في الأشهر المبكرة من عام 1916 تستكمل خططها السرية للشرق الأوسط ما بعد الحرب، تزايدت الضغوط على الشريف حسين وأبنائه. خطط جمال باشا القائد العام للقوات العثمانية في سوريا لهجوم جديد على المواقع البريطانية في مصر، وطالب الهاشميين بدعمه بالمجندين من رجال القبائل لإظهار ولائهم للمجهود الحربي التركي. بدأ قائد الجيش العثماني الرابع يرتاب بنوايا الهاشميين وولاء العرب عموماً. وتحت ضغط الحرب الشاملة، تحول استبداد جمال باشا في الأراضي السورية إلى حكم إرهاب سوف يفاقم حالة الضعف التي أصابت الحكم العثماني في الولايات العربية.

في الأيام المبكرة من تولي جمال باشا منصب الحاكم العام للولايات السورية أثناء الحرب، اكتشف دليلاً لا يدحض على خيانة العرب الدولة العثمانية. فبعد اندلاعها، أمرت السلطات العثمانية بالاستيلاء على محفوظات (أرشيف) القنصليات البريطانية والفرنسية للحصول على المعلومات الاستخبارية التي ربما تحتويها. جنى العثمانيون في بيروت ودمشق محصولاً وفيراً. إذ ضمت الأوراق القنصلية الفرنسية مراسلات ضخمة من أعضاء الجمعيات السرية -شارك كثير منهم في المؤتمر العربي الأول الذي عقد في باريس عام 1913- تسعى للحصول على الدعم الفرنسي للتطلعات العربية التي راوحت بين مزيد من الحكم الذاتي والاستقلال التام السافر تحت الحماية الفرنسية. ورطت الوثائق كبار الشخصيات والوجهاء والأعيان المسلمين والمسيحيين. بدت القائمة مثل كتيب إرشادي يقدم معلومات عن أبرز أفراد النخبة المثقفة في سوريا، ومنهم أعضاء برلمانيون، وصحفيون، وشخصيات دينية، وضباط في الجيش.

في البداية، قرر جمال باشا عدم اتخاذ أي إجراء بناء على الوثائق التي تدين المتهمين. فقد أتى إلى سوريا طامحاً بقيادة الجيش العثماني لشن هجوم ملهم على قناة السويس قد يحفز انتفاضة مصرية على الحكم البريطاني. واعتقد أن الوطنيين العرب لا يمثلون سوى حركة سياسية هامشية سوف تحيدها النجاحات العثمانية في ساحات المعارك. بينما لن تؤدي المحاكمات السياسية إلا إلى إضعاف الروح المعنوية العامة، في وقت أمل فيه بتشجيع وحدة الهدف بنقل المعركة إلى مصر الرازحة تحت نير الاحتلال البريطاني[16].

دفع فشل الهجوم العثماني على الترعة (فبراير 1915) جمال باشا إلى اتخاذ موقف متصلب وصارم تجاه العروبيين. بقي كثير من المقاتلين العرب غير النظاميين، الذين وعدوا بدعم المجهود الحربي، في صفوف المتفرجين لمشاهدة تقهقر جمال باشا المذل من سيناء. وغاب الهاشميون بشكل لافت عن الحملة، بعد أن أخفقوا في حشد قبائل الحجاز تحت راية السلطان.

فضلاً عن ذلك كله، غذى فشل العثمانيين شكوك عامة الناس بمستقبل السلطنة. سجل إحسان الترجمان، وهو جندي عربي ينتمي إلى عائلة مقدسية من الطبقة الوسطى، في يومياته حديثاً مع ثلاثة أصدقاء، من بينهم ضابطان عاملان في الجيش العثماني. ناقش الرجال الأربعة في أواخر مارس، عقب الهجوم الفاشل على قناة السويس، مجريات "هذه الحرب البائسة" و"مصير هذه الدولة [العثمانية]. واتفقنا إلى حد ما على أن أيام الدولة معدودة وأن تفككها وشيك ومحتوم". وعندما بدأ المواطنون العرب توقع زوال الدولة العثمانية، زادت أهمية التهديد الذي تمثله الجمعيات القومية السرية. ولذلك كله، قرر جمال باشا استئصال التهديد العروبي[17].

شهد فالح رفقي، الصحفي الشاب اللامع من إسطنبول، القمع الذي مارسه جمال باشا على أرض الواقع. فقد ترقى عبر المراتب في مقر الصدر الأعظم، وأثار اهتمام قيادة الاتحاديين بسبب الأعمدة الأسبوعية التي كتبها في صحيفة إسطنبول اليومية الرائدة طنين. عمل مراسلًا حربياً في البلقان، حيث قابل أنور باشا. ثم عينه طلعت باشا، بصفته وزيراً للداخلية، سكرتيراً شخصياً. وحين غادر جمال إسطنبول ليصبح حاكم سوريا العام وقائد الجيش الرابع، طلب بشكل محدد أن يلحق رفقي بهيئة أركانه رئيساً للاستخبارات. وصل إلى القدس في وقت ما من عام 1915.

كان مقر قيادة جمال باشا بيت ضيافة ألمانياً على جبل الزيتون، يشرف على مدينة القدس وأسوارها. أدار القائد ظهره لرفقي، الذي انضم إلى حشد متوتر من الناس تجمع أمام باب جمال باشا. كان في حالة مزاجية ضارية، يقرأ البريد، ويوقع الأوراق، ويلقي الأوامر على ضباطه. "أبلغوا مساعدي الشخصي إدخال وجهاء نابلس"، كما أمر.

ترددت المجموعة المذعورة المؤلفة من عشرين شخصاً على عتبة مكتب جمال باشا لترتيل دعاء سريع تستعيذ به منه قبل الدخول. وقفوا أمام النافذة الواسعة المطلة على القدس وأريافها. بدا جمال غير مكترث بوجودهم حيث تابع العمل على مكتبه. لم يعرف رفقي تهمة هؤلاء، لكنه استبان من تعابيرهم القلقة أنهم يخشون على حياتهم المهددة. بعد إبقائهم في الانتظار مدة طالت إلى الأبد بالنسبة إليهم حتماً، أغلق القائد العام ملف الأوراق على مكتبه والتفت إليهم.

سأل بصوت متغطرس: "هل تدركون خطورة الجرائم التي ارتكبتموها بحق دولتكم العلية؟".

همهم الرجال يائسين: "اصفح عنا كرامة لله". قاطعهم جمال بنظرة حادة.

أضاف: "هل تعرفون عقوبة هذه الجرائم؟". "تستحقون الشنق". رأى رفقي الدماء تجف في وجوه الرجال الملهوفين. "أجل، الشنق -لكن اشكروا سماحة الباب العالي ورحمته. سوف أكتفي الآن بنفيكم مع عائلاتكم إلى الأناضول".

سجد الوجهاء شكراً لله على نجاتهم من حبل المشنقة. قال منهياً اللقاء: "يمكنكم الانصراف". خرج الوجهاء من الغرفة في فوضى عارمة لا يلوون على شيء.

بعد مغادرتهم مكتبه، التفت جمال للترحيب برفقي في منصبه الجديد بابتسامة عريضة. لا بد أنه لاحظ انزعاج الصحفي بعد أن شهد اللقاء مع وجهاء نابلس والحكم التعسفي الذي صدر على جرائمهم المجهولة. قال باستخفاف: "ماذا تتوقع! يجب التصرف هنا بهذه الطريقة!"[18].

بدأت السلطات العثمانية منذ عام 1915 تنفي أعداداً كبيرة من المواطنين العرب المشكوك في ولائهم. ونسب لجمال باشا معظم "الفضل" في هذه السياسة. تفاخر ذات مرة مبتسماً أمام فالح رفقي: "هنالك أشخاص نفيتهم شخصياً في كل مكان". أما المستهدفون أساساً فكانوا ممن يشتبه بتوجهاتهم العروبية ومن المسيحيين العرب الذين تمتعت كنائسهم بحماية إحدى القوى الكبرى، مثل روسيا أو فرنسا.

وخلافاً لعمليات ترحيل الأرمن، لم يكن النفي من الولايات العربية تمهيداً لمذبحة أو مسيرة موت. بل كان أسلوباً لتحييد تهديد فرد للدولة عبر قطع صلاته بأصدقاء ورفاق

"خطرين". أجبر المنفيون على العيش اعتماداً على مواردهم الشخصية، وحين كانت تنفد، يتكلون كلية على الحكومة العثمانية. بذل أصدقاؤهم وأقرباؤهم قصارى جهدهم لإظهار الولاء للحكومة لمساعدتهم على تأمين إعادة الأحباء المنفيين إلى الوطن. بلغ عدد الأشخاص الذين نفتهم السلطات العثمانية نحو 50.000 بحلول نهاية الحرب[19].

خلت القرى من سكانها باطراد جراء سياسة النفي الجديدة بعد أن نقصوا أصلاً بسبب التجنيد. أما التأثير في التجارة والزراعة فكان مدمراً، حيث أغلقت المتاجر، وتركت الحقول في المزارع ليعمل فيها شيوخ ونساء وأطفال أنهكهم التعب. بينما ضاعفت الطبيعة حجم كارثة الحرب حين اجتاحت أسراب الجراد بلاد الشام. لاحظ إحسان الترجمان في يومياته (مارس 1915) أن "الجراد يهاجم أرجاء البلاد كلها، حيث بدأ قبل سبعة أيام وغطى السماء. اليوم، احتاجت سحب الجراد إلى ساعتين للمرور فوق المدينة" (القدس). ودعا قائلاً: "اللهم نجنا من ثلاث بلايا: الحرب والجراد والوباء؛ لأنها تنتشر في البلاد".

عانت أراضي سوريا من بلاء الجراد سابقاً، لكن الغزو الذي اجتاحها عام 1915 كان غير مسبوق في كثافته وامتداده الجغرافي. وفي محاولة يائسة من السلطات العثمانية لوقف الغزو، أمرت جميع المواطنين الذين راوحت أعمارهم بين خمسة عشر وستين عاماً بجمع عشرين كيلوغراماً من بيض الجراد كل أسبوع وتسليمها إلى مستودعات حكومية لإبادتها - أو دفع غرامة باهظة. أخذ المقدسيون الأمر على محمل الجد. وبعد ستة أسابيع من ظهور الجراد أول مرة، لاحظ الترجمان أن المتاجر في القدس مغلقة؛ "لأن معظم الناس خرجوا لجمع بيض الجراد".

عجزت الإجراءات الحكومية عجزاً كاملًا عن احتواء تهديد الجراد. واستمرت سحب الحشرات بإتلاف المزارع والبساتين طوال أشهر الصيف وحتى وقت متأخر من الخريف. دمرت المحاصيل، حيث راوحت الخسائر في بعض مناطق سوريا حسب التقارير بين 75 و90 في المئة منها. وما نجا عن الجراد ذهب لإطعام الجيش -أو خزنته القلة المحظوظة. أما

النتيجة المحتومة فكانت نقصاً خطراً في الغذاء. وبدأ الجوع ينتشر في بلدات وقرى فلسطين وسورية ولبنان.

بحلول ديسمبر 1915، اختفى الطحين من أسواق القدس. سجل إحسان الترجمان في مفكرته: "لم أشهد في حياتي أياماً أكثر سواداً. اختفى الطحين والخبز منذ السبت الماضي. ولم يأكل كثير من الناس خبزاً منذ أيام". رأى حشوداً من الرجال والنساء والأطفال تتدافع على الطحين بالقرب من بوابة دمشق. واندلع العراك بينهم مع ازدياد أعدادهم. "تحملنا إلى الآن العيش دون رز وسكر وكاز [كيروسين]. لكن كيف نعيش دون خبز؟".

تحول الجوع في عام 1916 إلى مجاعة. إذ فاقم بلاء الجراد، والمصادرات، واكتناز المواد الغذائية وتخزينها، إخفاق ذريع في نقلها وتوزيعها، واجتمعت هذه العوامل كلها معاً لتؤدي إلى مجاعة أهلكت عدداً راوح بين 300.000 و500.000 من المدنيين في سورية ولبنان من عام 1916 حتى نهاية الحرب. في الأراضي السورية، أصبحت المجاعة والمشقات التي عاناها السكان مرادفة للحرب (أطلقوا عليها اسم "سفربرلك"، التي تعني بالتركية "التعبئة العامة"). كانت الحرب العظمى "سفربرلك": سلسلة من البلايا والمصائب بدأت بالتعبئة العامة وأدت بلا هوادة إلى دمار المحاصيل، والتضخم، والأوبئة، والمجاعة، ووفيات بلغت معدلات لا سابقة لها بين غير المحاربين[20].

سافر مهاجر سوري في مهمة سرية لمصلحة الفرنسيين في أرجاء سورية ولبنان في أبريل 1916، حيث شهد المعاناة على أرض الواقع مباشرة. التقى بالناجين الذين هربوا من الموت في القرى بحثاً عن الطعام. وجد أعداداً لا تحصى من الهياكل العظمية لضحايا المجاعة، تركت دون دفن على قارعة الطريق. تحدث مع ضابط عربي محبط في دمشق، اتهم العثمانيين بالتسبب في المجاعة عمداً كوسيلة لتطهير الدولة من المسيحيين "الخونة". "أعملوا السيف في رقاب الأرمن، مثلما ينوون إبادة اللبنانيين [المسيحيين] بالتجويع، وبذلك لن يزعجوا أسيادهم الترك مرة أخرى"[21].

أصر أنور باشا على أن "الحصار البحري الذي فرضه الحلفاء" في الأشهر الافتتاحية من الحرب، هو "المسؤول عن هذه المجاعة". رفضت السفن البريطانية الفرنسية السماح لأي باخرة بدخول الموانئ السورية -حتى تلك التي تحمل المعونات الإنسانية. وذكر أن أنور باشا فاتح الفاتيكان عام 1916 في اقتراح لتوزيع المعونات الغذائية في سورية ولبنان. اعترف في حديثه مع الموفد البابوي في إسطنبول بأن العثمانيين لا يملكون ما يكفي من المؤن لإطعام الجيش والمدنيين في سوريا. واستحث الفاتيكان على إقناع البريطانيين والفرنسيين بالسماح لباخرة واحدة كل شهر على الأقل بتوصيل الأغذية لتوزيعها بواسطة أي وكالة يعينها البابا للمهمة، وذلك ليضمن الحلفاء أن الطعام لن يذهب إلى الجنود الأتراك. لكن مبادرة أنور البابوية لم تأت بنتيجة. وعلى غرار كثير من العثمانيين، اعتقد أن الحلفاء تعمدوا تجويع السوريين لإضعاف مقاومة الغزو، أو تشجيع التمرد على الدولة[22].

كانت لأنور أسباب وجيهة تدعوه إلى الخشية من ثورة في الولايات السورية. فقد ألبت الخسائر العثمانية إضافة إلى مشقات الحرب كثيراً من المواطنين العرب على حكومة السلطان. ووقعت مهمة كبت التهديد العربي وقمعه على عاتق جمال باشا بصفته حاكماً لسوريا. أمل بإظهار العدالة التأديبية أن يقضي على أي حركة عربية قد تتواطأ مع أعداء السلطنة. أراد أيضاً ترهيب النخب السورية ومنعها من الانخراط في أي سياسة انفصالية؛ لأن "[جمعية] الاتحاد والترقي عدو لدود لجميع القوميين والحركات الاستقلالية بين الطوائف والأقليات، بغض النظر هل هي البانية، أم أرمنية، أم يونانية، أم عربية"، مثلما تكهن الصحافي التركي فالح رفقي[23].

* * *

أمر جمال باشا في يونيو 1915 بأول موجة من الاعتقالات في صفوف الناشطين السياسيين العرب. أنشأ محكمة عسكرية وقدمهم للمحاكمة. وبحلول أغسطس، استكملت التحقيقات. أصدر تعليماته إلى القضاة بالحكم بالإعدام على أي مشتبه يدان بتهمة الانتماء

إلى عضوية جمعية عربية سرية أو التآمر مع الفرنسيين ضد الدولة العثمانية. أدين ثلاثة عشر رجلاً وحكم عليهم بالإعدام (خفف فيما بعد على اثنين منهم إلى الأشغال الشاقة المؤبدة).

شنقت المجموعة الأولى في بيروت في 21 أغسطس 1915. أغلق الجنود العثمانيون ساحة البرج المركزية ومنعوا مرور المدنيين. بينما ملأ الجنود والشرطة الساحة حين اقتيد المتهمون في ظلمة الليل إلى المشانق. انتشرت أخبار الإعدام بسرعة في شتى أرجاء الولايات العربية. ووصلت إلى القدس بنهاية الشهر. "لا أعرف أياً من هؤلاء الرجال الوطنيين، لكني الخبر هزني في أعماقي"، كما كتب إحسان الترجمان في يومياته بتاريخ 1 سبتمبر. شعر برابطة وطنية تجمعه بالعرب الذين أعدمهم الترك. حياهم قائلاً: "وداعاً أيها الإخوة الأبطال. ندعو الله أن تلتقي أرواحنا عندما تتحقق أهدافكم النبيلة"[24].

تبين أن الإعدامات مجرد بداية لحكم الإرهاب. في سبتمبر 1915، أمر جمال باشا باعتقال عشرات آخرين ورطتهم الوثائق التي استولت عليها السلطات من القنصلية الفرنسية. نقلوا إلى قرية عاليه الجبلية في لبنان، على الطريق بين دمشق وبيروت. تعرض المتهمون، بين جلسات المحكمة العسكرية، للتعذيب لكشف أسماء الأعضاء الآخرين وأهداف جمعياتهم. اختبأ أولئك الذين لم يعتقلوا بعد أو حاولوا الفرار. نجحت سياسة القمع. فخلال أسابيع، تفككت الحركة الوطنية العروبية التي وضعت بكل ثقة حدود الدولة العربية المستقلة في بروتوكول دمشق عام 1915 (أساس المطالب الإقليمية للشريف حسين في مراسلاته مع مكماهون) وهرب أعضاؤها المطاردون.

* * *

كانت دمشق مدينة خطرة حين عاد إليها الأمير فيصل في يناير 1916، على أمل تنسيق انتفاضة مع كتاب البروتوكول. احترس وأخذ احتياطاته، حيث سافر مع حاشية مؤلفة من خمسين مرافقاً مسلحاً قدمهم الآن إلى السلطات العثمانية المرتابة باعتبارهم طليعة متطوعي الحجاز الذين تعهد والده، الشريف حسين، بإرسالهم إلى المشاركة في الهجوم العثماني الآتي على ترعة السويس. رحب جمال باشا بفيصل وأتباعه، وأكرم وفادة ضيوفه الهاشميين في مقر الحكومة.



أنور باشا (في الوسط) وجمال باشا (إلى يساره) في القدس، فبراير 1916. سافر القائدان التركيان عبر سورية وفلسطين والحجاز في أوائل عام 1916 لتقييم الاستعداد للحرب في الولايات العربية.

علم فيصل، من زياراته منزل آل البكري، الذين أفلت ابنهم نسيب من شبكة جمال باشا، بمصير الحركة الوطنية العربية في دمشق -وإعادة نشر أفواج الجنود العرب في مناطق بعيدة عن ولاياتهم، مثل غاليبولي والرافدين حيث يحتدم القتال، ونفي المدنيين مع عائلاتهم إلى الأناضول، ومحاكمة عشرات المواطنين البارزين أمام المحاكم العسكرية في عاليه بتهمة الخيانة. وضع جانباً جميع خطط الثورة في مواجهة الوضع السياسي المتغير. وعمل بدلاً من ذلك على بناء ثقة جمال باشا وتأمين إطلاق سراح الوطنيين العرب المحتجزين. لكن قوض مساعيه عداء والده المستفحل لقيادة الاتحاديين من أعضاء تركيا الفتاة.

ضغط الاتحاديون على الشريف حسين للإسهام بمتطوعين من رجال القبائل في الهجوم اللاحق على قناة السويس. ركب أنور وجمال القطار إلى المدينة في فبراير 1916 لاستعراض القوات الهاشمية واستعجال إرسال "المجاهدين" من الأراضي الإسلامية المقدسة. ورداً على ذلك، كتب الأمير في الشهر اللاحق إلى أنور باشا يعرض شروطه قبل المصادقة على

دعوة السلطان إلى الجهاد. بدت رسالته أشبه بكتاب قومي عربي لا خادم للسلطان؛ إذ طالب بالعفو عن جميع السجناء السياسيين العرب الذين يحاكمون حالياً، ودعا إلى إدارة لا مركزية لبلاد الشام، مع استقلالية إدارية عن الأستانة. كما سعى إلى حقوق وراثية لأسرته في إمارة مكة، مع المزايا التقليدية التي يسبغها المنصب.

كان أنور مباشراً إلى حد الوحشية في رده. "ليست لك علاقة بهذه الأمور، ولن تكسب شيئاً من الإصرار على المطالبة بها" مثلما حذره. كما ذكر الأمير بواجبه تجاه الدولة بتقديم الجنود للمجهود الحربي ليقودهم ابنه فيصل، "الذي سيبقى في ضيافة الجيش الرابع حتى نهاية الحرب". لم يبدل الشريف حسين شروطه، وعهد بحماية ابنه إلى الاتحاديين، ولم يذعن لتهديد أنور بأخذه رهينة. لكنه لم يعرف بعد مدى قسوة الاتحاديين على أولئك الذين اتهموا بتبني طموحات عربية انفصالية[25].

في أبريل من عام 1916، اختتمت المحكمة العسكرية العثمانية في عاليه مداولاتها. أدين عشرات من المشتبه بهم بـ"الخيانة والمشاركة في أنشطة تستهدف فصل سورية وفلسطين والعراق عن السلطنة العثمانية وتحويلها إلى دولة مستقلة". وبينما عرف الجميع أن الخيانة عقوبتها الإعدام، فإن كثيراً من المتهمين أتوا من عائلات مرموقة وتولوا مناصب رفيعة، كأعضاء في مجلس المبعوثان، أو في مجلس الأعيان العثمانيين. وبدا من المحال أن تشنق الحكومة هؤلاء المواطنين البارزين مثل المجرمين العاديين[26].

دافع الهاشميون علناً عن المدانين في عاليه. بعث الشريف حسين برقيات إلى السلطان، وجمال باشا، وطلعت باشا، يناشدهم العفو ويحذر من عقوبة الإعدام لأن "الدماء سوف تستثير الدماء". بينما ألح فيصل في لقاءاته المنتظمة مع جمال باشا في دمشق على العفو عن المتهمين في عاليه. لكن القائد التركي صم أذنيه عن الحجج، وقرر أن يجعلهم عبرة لردع الانفصاليين العرب إلى الأبد.

شُنق واحد وعشرون رجلاً دون سابق إنذار في ساعات الفجر الأولى من يوم 6 مايو (أيار) 1916 في ساحة المرجة في دمشق وساحة البرج في بيروت. حتى الصحفي التركي فالح رفقي، الذي شهد الإعدام في بيروت، عبّر عن تعاطفه مع المدانين وإعجابه بهم.

"معظم الذين شنقوا في بيروت هم من الوطنيين الشباب. خرجوا من زنزاناتهم إلى المشنقة بهامات مرفوعة يرددون الأناشيد الوطنية العربية"، كما تذكر. في وقت لاحق من اليوم، سافر رفقي إلى دمشق، حيث شنق سبعة قبل شروق الشمس. دهش حين شاهد أعيان دمشق ووجهاءها يتابعون الوليمة التي أقاموها على شرف جمال باشا بعد خمس عشرة ساعة من شنق الوطنيين العرب. أضاف متأملًا: "لا يوجد حداد في دمشق. الشعراء، والمداحون المحترفون، والخطباء -عبروا كلهم عن امتنان البلد للرجل العظيم الذي أنقذ بلاد العرب من أبنائها الضالين"[27].

لكن القوميين العرب كان لهم رأي آخر في جمال باشا؛ إذا أطلقوا عليه لقب "السفاح" بعد شنق إخوانهم. بينما لم يكن سوى قاتل بالنسبة إلى الهاشميين. كان فيصل مع آل البكري حين أتى رسول لاهث ليبلغهم بخبر الإعدام. فقد طبعت الحكومة عدداً خاصاً من الجريدة الرسمية، أدرجت فيه أسماء كل متهم والجرائم التي عوقب عليها بالشنق. قفز فيصل واقفاً ليقطع "الصمت الواجم" وينتزع الكوفية من على رأسه ويقذف بها على الأرض ويدوسها بقدمه، وهو يصيح يمين الثأر: "طاب الموت يا عرب!"[28].

* * *

لم يعد ثمة سبب يدعو فيصلًا إلى البقاء في دمشق. فقد أبطل قمع جمال باشا إمكانية أي نشاط سياسي في الولايات العربية. لم يكن بالمستطاع تصور اندلاع الثورة إلا في الحجاز، حيث يتفوق رجال القبائل عددياً على الجنود العثمانيين المعزولين. لكن قبل أن يعود إلى الحجاز، كان بحاجة إلى تأمين إذن من جمال باشا لمغادرة دمشق. إذ خشي فيصل ورجاله من أن يجدوا أنفسهم على المشانق لينضموا إلى قافلة أصدقائهم الشهداء، إذا اشتبهت السلطات بولائهم[29].

لجأ الأمير الهاشمي إلى الحيلة لتأمين إذن من جمال باشا للعودة إلى الحجاز. فقد زعم أنه تلقى رسالة من أبيه تؤكد أن وحدة من متطوعي الحجاز بكامل قوتها مستعدة للانضمام إلى قوات جمال باشا في سوريا. ولا ريب أن قيادة الاتحاديين اعتقدت أن شنق الوطنيين علناً في

دمشق وبيروت قد أرهب الشريف حسين وأجبره على الإذعان. سمح لفيصل بالعودة إلى المدينة لقيادة المجاهدين الحجازيين إلى دمشق شخصياً.

لم ينخدع جمال باشا كلية بحكاية فيصل. فقد ناشده العفو عن الوطنيين العرب المدانين بحماسة وحمية. كما اتهم قائد الحامية العثمانية في المدينة الشريف حسين والفوج الحجازي بالتدخل في الشؤون العسكرية. وبلغت مراسلات أنور وجمال مع الشريف حسين حد تخوينه أو كادت. لكن مكاسب مصادقة شريف مكة على دعوة الجهاد العثمانية طغت على مخاطر السماح للأمير الرهينة بالعودة إلى الحجاز.

غادر الأمير فيصل دمشق يوم 16 مايو. قدم جمال باشا هدية إليه قبل الرحيل. كان الجنود العثمانيون المنتصرون قد استولوا في غاليبولي على بندقية بريطانية من طراز "لي إنفيلد"، حملها أصلاً جندي من فوج إسكس الأول. نقش على السبطانة بأحرف عثمانية ذهبية: "غنيمة من حملة الدردنيل". كان القصد من التذكار الحربي دون شك تعزيز اعتقاد الهاشميين بأن العثمانيين سيكسبون الحرب. لكن فيصلاً سرعان ما وجه السلاح ضد الدولة العثمانية[30].

قرر جمال باشا إرسال واحد من أخلص جنرالاته وأكثرهم أهلًا للثقة، فخري باشا، لتولي قيادة الحامية في المدينة، كإجراء احترازي ضد خداع الهاشميين. "عرف [فخري] بموثوقيته ووطنيته" كما زعم جمال. بينما اتهمه آخرون بارتكاب فظائع ضد الأرمن. كان عليه، عند ظهور أول إشارة دالة على وجود مشكلة، أن يلقي القبض على الشريف وأبنائه ويضع الشؤون المدنية لمكة تحت سلطة والي المدينة العثماني[31].

لم يوفر التحالف الإنكليزي-الهاشمي عشية اندلاع الثورة العربية ما اعتقد الطرفان ضمانه أصلاً عندما دخلا المفاوضات أول مرة. إذ لم يعد البريطانيون قوة لا تقهر كما لاح في أوائل عام 1915، حين انطلقوا لفتح القسطنطينية. فقد ألحق بهم الألمان خسائر رهيبة على الجبهة الغربية، بل تعرضوا لهزائم مذلة أمام العثمانيين أنفسهم. كانت الأسباب كلها تدعو الشريف حسين وأبنائه إلى مساءلة صوابية اختيارهم الحليف.

لكن الهاشميين لم يكونوا في موقع يؤهلهم للمساومة. فقد قدم الشريف حسين وأنجاله أنفسهم، في مراسلاتهم مع المندوب السامي في مصر، باعتبارهم زعماء الحركة العربية كلها. بحلول مايو 1916، بدا واضحاً استحالة قيام ثورة واسعة في سوريا والعراق. وكل ما كان باستطاعة الأشراف فعله هو تحدي الحكم العثماني في الحجاز. أما النجاح فاعتمد على قدرتهم على حشد البدو المشهورين بعدم الانضباط وراء قضيتهم.

من الممكن تقديم الحجة على أن التحالف بين الهاشميين والبريطانيين صمد؛ لأن حاجة كل طرف إلى الآخر زادت في صيف عام 1916 مقارنة بأي وقت مضى. فقد توترت علاقات الشريف حسين مع الاتحاديين من أعضاء تركيا الفتاة وبلغت حد القطيعة، عرف أنهم سينتهزون أول فرصة للتخلص منه -بل اغتياله- هو وأبنائه. بينما احتاج البريطانيون إلى سلطته الدينية لإضعاف دعوة الجهاد العثمانية، التي خشي المسؤولون في القاهرة و"وايتهول" أن تتعزز وتقوى بالانتصارات التي حققها الترك مؤخراً. ومهما تكن النتائج التي تتمخض عن ثورة يقودها الهاشميون، فإن الحركة سوف تضعف على أقل تقدير المجهود الحربي العثماني، وتجبر الترك على تخصيص جنود وموارد لاستعادة النظام في الحجاز وربما في ولايات عربية أخرى. ولذلك استعجل البريطانيون والهاشميون لأسبابهم الخاصة بهم إطلاق الثورة. ولم ينتظروا كثيراً بعد أن عاد فيصل إلى الحجاز.

* * *

انضم فيصل يوم 5 يونيو إلى شقيقه علي خارج المدينة لبدء العمليات ضد أكبر حامية عثمانية في الحجاز. كان فخري باشا قد وصل لتسلم قيادة القوات العثمانية التي تجاوز عددها 11.000 رجل. لم يكن باستطاعة علي، مع نحو 1.500 من المتطوعين البدو الذين حشدهم تحت إمرته للمشاركة في حملة سيناء، الاستيلاء على المدينة التي ينتهي عندها الخط الحديدي. بدلًا من ذلك، حاصرا قوات فخري باشا داخلها، وتركا أباهما مع باقي الأشقاء ليعملوا من معقلهم الحصين نسبياً في مكة، على بعد نحو 210 أميال إلى الجنوب.

بعد أربعة أيام من المناوشات حول المدينة، أوضح الهاشميون مقاصدهم ونواياهم. أرسل الأمير علي، أكبر أنجال الشريف حسين، إنذاراً إلى جمال باشا يوم 9 يونيو تضمن سلسلة من المطالب مقابل استمرار عائلته في ولائها، لكن أضعفت جديتها وصدقها المهلة القصيرة التي أعطاها الاتحاديين. "بعد أربع وعشرين ساعة من تلقي الرسالة سوف تعلن حالة الحرب بين الأمتين"، تركيا والعرب، كما حذر[32].

تولى الشريف حسين مهمة إطلاق الرصاصة الأولى للثورة العربية من شرفة منزله في مكة المكرمة. ففي فجر 10 يونيو 1916، حمل أمير مكة بندقية -ربما تكون غنيمة غاليبولي التي قدمها جمال باشا هدية إلى فيصل- وأطلق رصاصة على الثكنات العثمانية لاستهلال الثورة. دخل الهاشميون الحرب ضد الترك باسم الشعوب العربية. ولا بد من انتظار قادم الأيام لمعرفة ردة فعل العالم العربي[33].

* * *

تمكنت القوات الهاشمية من تأمين معظم مكة في مدة ثلاثة أيام. كان الوالي، غالب باشا، قد انسحب إلى مقره الصيفي في جبال الطائف على بعد نحو ستين ميلاً إلى الشرق، وأخذ معه أغلبية الحامية، بعد أن ترك نحو 1.400 جندي فقط لحراسة المدينة المقدسة. استطاعت قلعة على قمة التل أن تصمد أربعة أسابيع أمام هجمات قوات الشريف، وأطلقت قذائف على مكة لتشتيت العرب. أصاب عدد منها المسجد الحرام، فاضطرمت النار بأستار الكعبة، أقدس عتبات المسلمين. كما أصابت شظايا قذيفة أخرى اسم الخليفة الراشدي الثالث، عثمان بن عفان، على واجهة مبنى المسجد. ولأن مؤسس السلالة العثمانية الحاكمة يحمل اسم عثمان أيضاً، فقد زعم الأمير عبد الله ابن الشريف حسين أن أهل مكة اعتبروا الأمر "نذيراً بالسقوط الوشيك والمحتوم للسلطة العصمنلية [العثمانية]". في نهاية المطاف، نفد الطعام والذخيرة من رماة المدافع المحاصرين في أعلى التل وأجبروا على الاستسلام يوم 9 يوليو، تاركين مكة في أيدي الهاشميين[34].

بعد وقت قصير من إطلاق الشريف حسين الطلقة الافتتاحية في 10 يونيو، اقتحم 4.000 من الخيالة البدو من قبيلة حرب ميناء جدة على البحر الأحمر بقيادة زعيمهم الشريف محسن. في البداية صد الجنود الأتراك (1.500 رجل) المهاجمين بالأسلحة الرشاشة ونيران المدافع، وسددوا ضربة قوية لروحهم المعنوية. لكن سفينتين حربيتين من البحرية الملكية آزرتا الهجوم العربي بقصف المواقع العثمانية في جدة بالمدافع. بينما أغارت الطائرات البريطانية على مواقع الجنود الأتراك. وحين تعرض المدافعون للهجوم من البر والبحر والجو استسلموا يوم 16 يونيو.

كان عبد الله، نجل الشريف حسين الثاني، قد انتقل مع زمرة صغيرة من أتباعه ضمت سبعين هجاناً إلى ضواحي الطائف قبل وقت قصير من اندلاع الثورة. دعا الوالي غالب باشا عبد الله إلى قصره وناقش معه الشائعات عن انتفاضة وشيكة. "أنت ترى كيف يترك أهل الطائف بيوتهم مع أطفالهم وأقصى ما يستطيعون حمله من سلع"، كما لاحظ. أخذ مصحفاً من الرف واستحلف عبد الله بإلحاح أن يخبره "بحقيقة هذه الإشاعات عن الثورة". لجأ عبد الله إلى الخديعة للخروج من الموقف الصعب. "إما أن تكون كاذبة، أو عن ثورة ضدك وضد الشريف، أو من الشريف والناس ضدك. ولو كان التفسير الأخير صحيحاً هل كنت آتي إليك وأضع نفسي بين يديك؟"[35].

حين غادر عبد الله منزل الوالي أعطى أوامره إلى رجاله بقطع خطوط البرق ومنع الرسل من الخروج من الطائف. وفي منتصف ليل 10 يونيو، أمر جنوده، المعززين برجال القبائل من الأرياف المجاورة بالهجوم على المواقع العثمانية. "هجمنا بعنف شديد" كما تذكر. سرعان ما اخترق البدو الخطوط الأمامية التركية، وعادوا "مع بعض الأسرى والغنائم". لكن تفرق شملهم مع شروق الشمس حين بدأت المدفعية التركية تقصف المواقع العربية. "هرب كثيرون [من البدو] إلى بيوتهم في فوضى عارمة". أعاد عبد الله تنظيم قواته خوفاً من انهيارها إذا شن مزيداً من الهجمات، وحاصر الطائف.

لم يكن المقاتلون البدو غير النظاميين المسلحون بالبنادق أنداداً للجنود العثمانيين النظاميين المجهزين بمدفعية الميدان والأسلحة الرشاشة. وبعد خمسة أسابيع من جمود الوضع على

الجبهة، شحن البريطانيون بطاريات من المدفعية المصرية إلى الطائف لتعزيز موقف عبد الله (في انتهاك آخر لوعد الجنرال السير جون مكسويل عام 1914 بعدم إشراك المصريين في المجهود الحربي البريطاني). في منتصف يوليو، بدأ الرماة المصريون هجوماً مدفعياً مستداماً اكتسح المدافعين العثمانيين. صمد الترك حتى 21 سبتمبر، حيث أجبر غالب باشا على الاستسلام دون قيد أو شرط. "في اليوم التالي، أنزلت الراية العثمانية رسمياً عن القلعة ورفع العلم العربي. كان مشهداً مؤثراً جداً"، كما سجل عبد الله. لكن الوالي العثماني، الذي حطمته معاناة الحصار والهزيمة لم يشارك الهاشميين إحساسهم بالتاريخ. "هذه كارثة كبرى. كنا إخوة وأصبحنا أعداء الآن"، كما كتب متفجعاً[36].

بحلول نهاية سبتمبر استولى الشريف حسين وأبناؤه على مكة والطائف، إضافة إلى موانئ جدة ورابغ وينبع على البحر الأحمر. كما أسروا أكثر من 6.000 جندي عثماني بخسائر قليلة نسبية تكبدها الطرفان. في الشهر اللاحق، أعلن الشريف حسين من جانب واحد نفسه "ملكاً على الأراضي العربية"، وحمل أبناؤه لقب "أمراء" (انزعج البريطانيون من الإعلان، وكانوا على استعداد للاعتراف بحسين ملكاً على الحجاز فحسب).

انتشرت أنباء الثورة في شتى أرجاء العالم العربي وولدت إثارة متنامية بين أولئك الذين أحبطهم سلوك العثمانيين في الحرب. في القدس، حيث أخفت السلطات العثمانية أخبار الثورة طوال أسابيع، لاحظ إحسان الترجمان الحادث الميمون في يومياته بتاريخ 10 يوليو. كتب غير مصدق: "أعلن الشريف حسين باشا الثورة على الدولة. هل هذه هي البداية؟". لم يتمكن من إخفاء حماسته. وأضاف بأن على كل عربي أن يبتهج لسماع هذا الخبر. إذ كيف يؤيد هذه الدولة بعد أن قتلت خيرة شباب الأمة، حيث شنقوا في الساحات العامة مثل المجرمين العاديين ورجال العصابات. ودعا الله أن يبارك بالشريف حسين أمير الحجاز ويشد عضده. وأمل أن تنتشر الحملة لتشمل كل ركن من أراضي العرب، إلى أن يتخلصوا من هذه الدولة الملعونة[37].

كان محمد علي العجلوني ضابطاً شاباً في فرقة سورية تمركزت في الأناضول. وجد من التجربة أن الحرب خلقت عداوة بين العثمانيين. إذ رفض الجنود الترك مخالطة رفاقهم العرب

في المسجد واستراحة الضباط وأطلقوا تعليقات عنصرية حول لون بشرتهم، وسخروا من العرب لأنهم "سود". أفزعته المعاناة التي سببتها الحكومة للمدنيين الأبرياء. شاهد من موقعه في طرسوس على ساحل كيليكيا قطارات محملة بالسوريين المبعدين الذين أرسلتهم إدارة جمال باشا إلى المنفى. "رأينا الألم والحزن محفورين على تعابير كل واحد منهم"، كما تذكر. والأسوأ قوافل الأرمن المهجرين وهم يسيرون في الاتجاه المعاكس نحو الصحراء السورية -نسوة وأطفال وعجزة يقودهم حراس "قساة لم تعرف الرحمة إلى قلوبهم سبيلاً". وباعتبار الإحباط الذي أصابه من الدولة العثمانية زمن الحرب، ابتهج وارتفعت معنوياته لسماع أخبار ثورة الشريف حسين، التي أعادت إلى العرب الثقة المزعزعة ورسمت خطوطاً عريضة من الأمل والقوة. إنه فجر جديد للعرب، كما أكد. وأقسم أن يتوجه إلى الحجاز للانضمام إلى الثورة، مهما تكن الصعوبات التي تواجهه[38].

أججت أخبار الثورة الهاشمية جدلاً عنيفاً احتدم بين الضباط العرب في الجيش العثماني. حاول أحد أقرب أصدقاء العجلوني ثنيه عن الفرار. وأكد أن حركة الشريف حسين، عبر التحالف مع البريطانيين المستعمرين والدعوة إلى الاستقلال التام عن الدولة العثمانية، عرضت العالم العربي للهيمنة الأوربية. فضّل كثير من الضباط العروبيين البقاء ضمن دولة عثمانية إصلاحية تمنح الولايات العربية قدراً أكبر من الحكم الذاتي، وتحدثوا عن مملكة ثنائية تركية-عربية على غرار نموذج الامبراطورية النمساوية-الهنغارية. وبينما فكر العجلوني في حجج صديقه بعناية، بقي ملتزماً بقضية الهاشميين. لكن، كما أظهر الجدل بين الصديقين، لم تتمتع الثورة العربية بجاذبية شاملة بين العرب العثمانيين قاطبة.

قسمت الثورة الهاشمية الرأي العام في العالم الإسلامي الأوسع. إذ أدانت الصحف الهندية المسلمة الشريف حسين لقيادته العرب في تمرد على الخليفة. ورددت المساجد في ولاية الحدود الشمالية الغربية الملتهبة صدى لعنات الأئمة على الشريف وأبنائه. في 27 يونيو، أصدرت رابطة مسلمي عموم الهند (الرابطة الإسلامية) قراراً يدين الثورة الهاشمية بأقوى العبارات، ويشير إلى أن أفعال الشريف حسين أعطت سبباً حقيقياً للجهاد. أكد المسؤولون البريطانيون في الهند، الذين عارضوا بعناد مفاوضات المندوب السامي في مصر السير هنري

مكماهون مع الشريف حسين، أن الثورة أعطت نتائج عكسية، وأن المسلمين الهنود أصبحوا أكثر ميلاً على ما يبدو إلى نصرة العثمانيين بسببها[39].

* * *

واجه الهاشميون مشكلات أكبر بالقرب من موطنهم. إذ نجح الملك حسين وأبناؤه في الاستيلاء على البلدات والمدن المحيطة بمكة وعلى ساحل البحر الأحمر، لكن افتقروا إلى القوات الكافية التي تمكنهم من الاحتفاظ بها. وسرعان ما ذهبت الحماسة الأولية للمتطوعين البدو أدراج الرياح. فقد جذبتهم إلى الثورة سلطة شريف مكة والفرصة لغزو الأملاك الحكومية العثمانية، ولم يكن لديهم التزام أيديولوجي بالحركة في سبيل استقلال العرب. وما إن تحقق الانتصار في المعارك الأولى، وتم الاستيلاء على البلدات، حتى أخذ البدو غنائمهم وعادوا إلى ديارهم. ما أجبر أبناء الملك حسين على الاعتماد على كل صداقة وحظوة لتجنيد محاربين جدد من القبائل مع وعود ببنادق ورواتب ثابتة لا يمكن إلا للبريطانيين توفيرها.

في المدينة، استعد فخري باشا لشن هجوم معاكس. كان جيشه بكامل قوته، والاتصالات مع دمشق تسير بسلاسة. إذ لم يملك الثوار، في غياب الديناميت، الوسائل اللازمة لقطع الخط الحديدي، واستمر في نقل المؤن والإمدادات لحامية فخري. في الأول من أغسطس، نزل أمير مكة الجديد من القطار ليتلقى استقبالاً رسمياً حافلاً. فقد عين الاتحاديون الشريف علي حيدر، رئيس فرع منافس للأسرة الهاشمية، أميراً على مكة ليحل محل المرتد حسين في 2 يوليو. أراد فخري باشا تنصيبه في مكة في الوقت المناسب قبل موسم الحج في أوائل أكتوبر.

هنالك طريقان من المدينة إلى مكة. الأول داخلي مباشر لكن يعبر تضاريس وعرة وقاحلة ويتعذر على الجيوش اجتيازه في الواقع العملي. والثاني ساحلي غير مباشر، يمر بمينائي ينبع ورابغ، وبعدد من آبار المياه التي تروي عطش الجنود وتساعدهم على المسير، لكنه أطول بكثير. ومن أجل حماية مكة، كان على الهاشميين السيطرة على ينبع ورابغ. وحين انطلق العثمانيون من المدينة في أوائل أغسطس، اتخذ فيصل وقواته مواقع تغلق الطريق إلى ينبع، واحتل شقيقه علي رابغ. كان الاثنان في المواقع الصحيحة، لكنهما بحاجة إلى جنود

نظاميين، إضافة إلى متطوعي القبائل، للصمود أمام العثمانيين. وإذا لم تصل التعزيزات إلى الهاشميين بسرعة فسوف يواجهون هزيمة وشيكة ومحتومة -بتبعاتها الكارثية على المصالح العربية والبريطانية معاً.

درس المخططون الحربيون في لندن، والقاهرة، وشيملا (العاصمة الصيفية للهند البريطانية) مخاطر إرسال جنود بريطانيين لتعزيز قوات الهاشميين. أكدت حكومة الهند أن إدخال جنود بريطانيين إلى الحجاز سوف يحرض ردة فعل عنيفة من المسلمين الهنود، الذين سيعدونهم "كفاراً" "يدنسون" تراب الحجاز الطاهر لمحاربة جحافل المؤمنين من رعايا الخليفة. بينما اعتقد المكتب العربي في القاهرة أن قوات الشريف حسين على شفا الانهيار، وأن انتصاراً عثمانياً في مكة سوف يشوه سمعة البريطانيين ويضعف الثقة بهم إلى حد خطر في مناطق مستعمراتهم الإسلامية. وفي الحالتين كلتيهما، سوف يؤدي ضعف بريطانيا في الحجاز إلى اختطار تحفيز الجهاد. أما التسوية المناسبة للمعضلة فهي تعزيز جيش الشريف بمتطوعين مسلمين.

كانت المعسكرات البريطانية لأسرى الحرب في الهند ومصر خزانات التجنيد الطبيعية للجنود المسلمين. ففي أثناء عمليات استجواب الأسرى العثمانيين العرب، اكتشف البريطانيون كثيراً من الملتزمين بالقضية العربية. وردت الإشارة آنفاً إلى محمد شريف الفاروقي، الذي كانت شهادته حاسمة الأهمية في توكيد مزاعم الشريف حسين بالتحدث نيابة عن الحركة العربية العريضة. هنالك أيضاً كثيرون غيره، مثل الضباط العراقيين الثلاثة نوري السعيد وعلي جودت، اللذين أسرا في حملة الرافدين، وجعفر العسكري الذي أسر بالقرب من الحدود الليبية في الحملة السنوسية. كان إعلان الشريف حسين استقلال العرب كافياً لإقناع عدد من هؤلاء الضباط بالتخلي عن ولائهم للسلطان والانضمام إلى الثورة الهاشمية. قاد نوري السعيد أول فوج من مصر إلى الحجاز في الأول من أغسطس 1916. بينما جند الضباط البريطانيون علي جودت، الذي نال عفواً مشروطاً في مدينة البصرة، وأرسلوه إلى الهند لحث أسرى الحرب الآخرين في حملة الرافدين على الانضمام إلى جيش

الشريف حسين. نجح جودت في إقناع 35 ضابطاً ونحو 350 جندياً بالتطوع في الثورة العربية. غادروا بومباي في أوائل سبتمبر واستقبلهم نوري السعيد عند وصولهم إلى رابغ[40].

لم يكن جميع أسرى الحرب العرب ملتزمين بالقضية العربية. وبعد انطلاق هذه الأفواج الأولى من العقائديين، فرغت المعسكرات البريطانية في مصر والهند، ولم يعد من الممكن شحن المجندين العرب المحتملين إلى حملة الحجاز -وكانت النتائج متباينة جداً. أبحرت سفينتان من بومباي عند نهاية نوفمبر تحملان 90 ضابطاً و2.100 جندي. وعندما وصلتا قبالة ميناء رابغ، ذعر مسؤولو التجنيد التابعون للشريف حين اكتشفوا أن 6 ضباط و27 جندياً فقط وافقوا على الانضمام إلى الجيش العربي. أما الباقون فلم يرغبوا في محاربة إخوانهم المسلمين، أو خافوا من عقاب الترك على خيانتهم إذا وقعوا في الأسر. وبعد عشرة أيام من الجهد الحثيث الذي بذله المتطوعون العرب العاملون في خدمة الشريف، تابعت سفينتا النقل الطريق عبر البحر الأحمر لإيداع المجندين غير الراغبين في معسكرات أسرى الحرب في مصر.

كان إسهام الضباط والجنود العرب في الثورة العربية، بعد أن تخلوا عن خدمة السلطان لمصلحة قضية الشريف، يفوق أعدادهم المحدودة. أهلتهم كفاءتهم العسكرية ولغتهم العربية لتدريب المجندين البدو وقيادتهم أيضاً. لكن أعدادهم القليلة عنت عدم كفايتهم لكبح التهديد الداهم من فخري باشا، الذي استمر جيشه في الزحف نحو ينبع ورابغ. ومع اقتراب موسم الحج، بدأ المسؤولون في "وايتهول" إعادة التفكير في إرسال جنود بريطانيين لتعزيز مواقع الهاشميين. أوشك البريطانيون على التحرك حين عرضت فرنسا إرسال جنود مسلمين لمساعدة الحملة في الحجاز.

استغل الفرنسيون موسم الحج لتجهيز مرافقة مسلحة لحجاج شمال إفريقيا إلى مكة. ارتقت المرافقة إلى بعثة عسكرية كاملة إلى الحجاز وعرض فرنسي بمساعدة قوات الشريف. لكنها دقت نواقيس الخطر بين الضباط الاستعماريين البريطانيين. أبرق المندوب السامي البريطاني في مصر، السير هنري مكماهون، إلى لندن طالباً "شجب العرض الفرنسي بإرسال الجنود بشدة"؛ لأنه "سيحرمنا من مزايا سياسية عظيمة سنحصل عليها بعد نجاح الشريف". في الحقيقة، كان الفرنسيون أقل اهتماماً بتأمين المزايا في الجزيرة العربية من ضمان عدم تهديد

قضية الأشراف للمصالح الفرنسية في سوريا وتعريضها للخطر. أرسلوا ضباطاً إلى الجزيرة العربية لمراقبة البريطانيين وحماية كل ما وعدت به فرنسا في اتفاقية سايكس-بيكو[41].

كلف الكولونيل إدوار بريمون، الذي يتحدث العربية بطلاقة، وخدم بامتياز في المغرب، بقيادة البعثة العسكرية الفرنسية. وصل إلى جدة يوم 21 سبتمبر على رأس وفد عسكري ومدني مختلط إضافة إلى مئتين من حجاج شمال إفريقيا. لم يرغب المندوب السامي في القاهرة أن يبزه أحد، فأرسل رونالد ستورز لمرافقة بعثة الحج المصرية الرسمية. استغل ستورز الفرصة للتباحث في شؤون الاستراتيجية الحربية مع الكولونيل بريمون والقادة الهاشميين الميدانيين. بدا الجميع على قناعة بأن قوات الشريف تبقى أضعف من أن تصمد أمام فخري باشا وجنوده النظاميين.

إذا تعذر تجنيد المقاتلين العرب بأعداد كافية من معسكرات أسرى الحرب البريطانية، فإن ثاني أفضل خيار يبقى إرسال جنود مسلمين من المستعمرات إلى الثورة العربية. جند البريطانيون رماة المدافع المصريين في حملة الحجاز -تخلوا في واقع الأمر عن تعهدهم للشعب المصري تحت ضغط الحرب الشاملة. أرسلت الوحدة الأولى المؤلفة من 250 رجلاً عبر السودان. وسوف يتجاوز العدد الإجمالي للفوج المصري 960 بحلول ديسمبر[42].

لم تتجاوز البعثة العسكرية الفرنسية قط الأعداد البريطانية، على الرغم من العدد الكبير من جنود شمال إفريقيا (المسلمين) الذين يخدمون في الجيش الفرنسي. وحين طلبت وزارة الحرب البريطانية الإسهام ببطارية مدفعية بطاقم من المسلمين وأكبر عدد ممكن من الاختصاصيين العسكريين -رماة مدافع رشاشة، مهندسين، ضباط إشارة (ولا سيما المتمكنين من العربية)، أطباء- شعر الفرنسيون بالحرج واعترفوا بالافتقار إلى مثل هؤلاء الخبراء بين جنودهم المسلمين. بحلول نهاية عام 1916، لم يتجاوز عدد أفراد البعثة الفرنسية في الجزيرة العربية اثني عشر ضابطاً (كلهم من الفرنسيين تقريباً) ومئة من المشاة (كلهم من المسلمين تقريباً). بلغ عدد القوة الفرنسية في ذروتها 42 ضابطاً و983 جندياً، بقي كثير منهم في بورسعيد دون أن تطأ أقدامهم الجزيرة العربية قط[43].

مع أن جنود المستعمرات هؤلاء قدموا إسهاماً مهماً في القضية العربية، وتمكنوا من تحييد التفوق العثماني في المدفعية والأسلحة الرشاشة، فإن أعدادهم بقيت محدودة جداً وغير كافية للتصدي لتهديد القوات العثمانية الآتية من المدينة، والمستمرة في زحفها العنيد باتجاه المواقع الساحلية الهاشمية طوال أشهر خريف عام 1916.

أصبح التهديد العثماني خطراً داهماً في أوائل نوفمبر حين طرد الطابور التركي قوات الأمير فيصل من معسكرها في الحمراء، على التلال الواقعة خلف ميناء رابغ (على البحر الأحمر). ومن دون توافر ما يكفي من الجنود المسلمين، أعاد المسؤولون في القاهرة ولندن التفكير في مزايا ومثالب إرسال جنود بريطانيين نظاميين لتعزيز موقف الشريف. عارض القادة العسكريون البريطانيون الفكرة، بذريعة أن الاحتفاظ بساحل البحر الأحمر في مواجهة جيش فخري باشا يتطلب عدداً أكبر مما يمكن الاستغناء عنه من الجنود. في لندن، اقترح السير وليام روبرتسون، رئيس هيئة الأركان الامبراطورية، أن العدد المطلوب من الجنود البريطانيين للاحتفاظ بقرية رابغ فحسب لا يقل عن 15.000. بينما لم يعتقد القائد العسكري في مصر، الجنرال السير أرتشيبالد موراي، بأنه قادر على الاستغناء عن هذا العدد دون إضعاف الدفاع عن قناة السويس وتعريضها للخطر. وقرر استنصاح أحد صغار الضباط البريطانيين الذي التقى بفيصل وعرف مباشرة على أرض الواقع الوضع في رابغ وينبع.

عاد الكابتن تي. إي. لورنس إلى القاهرة بعد المحاولة المشؤومة للمساعدة في نجدة قوات الجنرال تشارلز تاونزند المحاصرة في الكوت. وقام بأول زيارة إلى الحجاز في أكتوبر عام 1916. وباعتباره ضابط استخبارات في المكتب العربي، دعا نفسه للمشاركة في واحدة من مهمات سكرتير الشؤون الشرقية رونالد ستورز إلى جدة، وانتهز الفرصة ليسافر من رابغ إلى المناطق الداخلية لمقابلة أبناء الشريف حسين وتفقد مواقعهم. لم يضع القادة البريطانيون ما يعرفه لورنس في إطار الاستراتيجية العسكرية، لكنهم قدروا قيمة معلوماته المحلية. واعتقدوا، بعد رحلاته من رابغ إلى معسكر فيصل في الحمراء، أن بوسعه تقديم معلومات استخبارية حاسمة الأهمية للمساعدة في اتخاذ القرار الصعب حول إرسال جنود بريطانيين إلى الحجاز أو عدم إرسالهم[44].

يعرض لورنس في تأريخه الكلاسيكي للثورة العربية رواية فريدة لشاهد عيان عن المواقع الهاشمية في أشهر خريف اليأس (عام 1916). التقى في رابغ بالأمير علي وعدد من الضباط العرب ممن خدموا سابقاً في الجيش العثماني ودربوا لاحقاً الوحدات النظامية في جيش الشريف -نوري السعيد، عزيز علي المصري (من مصر)، فايز الغصين (من سوريا). وبعد رحلة على الجمل لعدة أيام، وصل لورنس إلى معسكر فيصل في الحمراء. وجد الأمير محبطاً والروح المعنوية لرجاله منهارة. فقد كانوا في حاجة ماسة إلى السلاح والذخيرة والمال. والمساعدة الوحيدة التي تلقتها قوات فيصل حتى تاريخه بطارية المدفعية المصرية التي عبرت أطقمها عن "الاستياء من إرسالها هذه المسافة البعيدة إلى الصحراء للخدمة في حرب شاقة وغير ضرورية". استنتج أن الجنود الأجانب -مسلمين وأوربيين على السواء- لا يلائمون حملة الحجاز.

وحين سأل المسؤولون في القاهرة لورنس عن رأيه، حذرهم من مغبة إرسال جنود بريطانيين إلى الحجاز. فأي حملة سوف تثير الشكوك والظنون بأن للبريطانيين طموحات استعمارية في الجزيرة العربية. "إذا أنزل البريطانيون، سواء بموافقة الشريف أم لا، قوة مسلحة في رابغ قادرة على الاستيلاء على البساتين، وتثبيت موقع لها هناك، سوف يقول العرب: تعرضنا للخيانة! ويتفرق شملهم ويعودون إلى خيامهم، أنا مقتنع بذلك"، كما اختتم. بدلاً من ذلك، أوصى بتزويد فيصل وعلي بما يكفي من الذهب الضروري للاحتفاظ بخدمات جنودهما من البدو ("لا شيء آخر يمكن أن يصنع معجزة الاحتفاظ بجيش بدوي في الميدان خمسة أشهر بلا انقطاع"، كما زعم)، وقصر المشاركة البريطانية على الدعم الجوي والمستشارين التقنيين. وجد القادة البريطانيون رأي لورنس -ضرورة ترك العرب يحاربون في ثورة العرب- مناسباً ومريحاً لهم إلى أقصى درجة، ووافقوا على الحد من تورط بريطانيا وفقاً لذلك[45].

حين عاد لورنس إلى الجزيرة العربية بداية ديسمبر، وجد الوضع متدهوراً إلى حد دفعه إلى مساءلة صوابية نصيحته. فقد أخذ هجوم تركي مفاجئ الجيش العربي على حين غرة، و"ذاب المحاربون البدو إلى حشد مفكك من الهاربين الذين اندفعوا بجنون جامح في عتمة الليل نحو ينبع"، حسب تعبيره. ومع انفتاح الطريق إلى ينبع أمام الطابور التركي الآن، تحرك

فيصل مع 5.000 من جنوده لملء الفجوة. تمكن من تأخير الزحف التركي، إلا أن موقفه كان يائساً ويتعذر الدفاع عنه. إذ استطاع الترك عزل قوات فيصل عن جنود أخيه علي في رابغ إلى الجنوب. وهكذا، استحال على أي من القوتين العربيتين بعد فصلهما الصمود أمام الجيش العثماني. وعندما يستعيد الترك ساحل البحر الأحمر، لن يواجهوا عقبة تعيقهم عن استعادة مكة من قوات الشريف حسين[46].

رافق لورنس الأمير الهاشمي حين أمر قواته بالانسحاب إلى مزارع النخيل في قرية المبارك، على بعد نحو ست ساعات بالجمال من ينبع. في أثناء هذه المناورات، اقترح فيصل على لورنس ارتداء اللباس العربي لكي يتعامل معه المقاتلون العرب كأنه "واحد من القادة حقاً"، ومن ثم يستطيع التجول في المعسكر من دون زي الضابط البريطاني الرث "الذي يثير حساسية" رجال القبائل. رفل لورنس بلباس زفاف مبهرج أرسلته إلى فيصل عمته -وتلك دلالة على الحظوة دون ريب، لكن من المستبعد أن تجعل الإنكليزي أقل إثارة للحساسية وهو يتجول بين البدو. أعطاه فيصل أيضاً بندقية -غنيمة غاليبولي التي أهداها له جمال باشا قبل أشهر في دمشق. حفر لورنس على الفور الأحرف الأولى من اسمه على مقبض بارودة "لي إنفيلد": T.E.L., 4-12-1916. ثم ترك الأمير وعاد على جمله إلى ينبع لقرع ناقوس الخطر.



معسكر الأمير فيصل، قرية المبارك بالقرب من ينبع. التقط لورنس صورة المعسكر في الفجر قبل وقت قصير من انسحاب فيصل إلى ينبع، حين تعثرت الثورة العربية في ديسمبر 1916.

أبرق لورنس من الميناء إلى قادة البحرية الملكية في البحر الأحمر لتحذيرهم من "التهديد الخطر" المحدق بينبع. وعد الكابتن وليام بويل بحشد السفن البريطانية قبالة الميناء في مدة أربع وعشرين ساعة. أوفى بوعده، وجمع أسطولاً مؤثراً مؤلفاً من خمس سفن حربية للدفاع عن ينبع. لم تكن أحدث السفن وأقواها –وصف بويل سفينته ذاتها (*Fox*) بأنها "أبطأ وأقدم سفينة تقريباً يقودها كابتن في البحرية"– لكن مدافعها متفوقة على مدفعية الميدان المتوافرة لدى الترك.

مع تجمع السفن البحرية البريطانية قبالة ينبع، شن الترك هجوماً ناجحاً آخر على قوات فيصل. اقتحمت ثلاث كتائب من المشاة العثمانيين قرية المبارك، مدعومة بمدفعية الميدان، فانهار الجيش البدوي وتشتت شمله. حافظ الرماة المصريون على قصف نشط بالمدفعية العاجزة التي أسهم بها البريطانيون في دعم القضية الهاشمية –"نفاية عتيقة اعتُقد أنها كافية لخدمة العرب الهمج"، حسب تقييم لورنس ذاته. ومن دون أجهزة تسديد، وتحديد المدى، أو قذائف شديدة الانفجار، تمثل الرادع الرئيس للمدفعية العربية في الضجيج الداوي الذي تصدره المدافع. ما دفع العثمانيين إلى التوقف ومنح العرب المتقهقرين الشجاعة، فتمكن فيصل من سحب قواته دون خسائر كبيرة. ارتد إلى ينبع، مستكملاً تسليم المرتفعات إلى القوات العثمانية. "بدا أن حربنا تدخل فصلها الأخير"، كما تذكر لورنس.

غصت شوارع ينبع بآلاف المقاتلين العرب الذين أقاموا التحصينات استعداداً للوقفة الأخيرة. شيد المدافعون حواجز ترابية لإبطاء تقدم العثمانيين، لكن لم يأمل سوى قلة بقدرتها على ردع هجوم عنيد. وفرت البحرية الملكية الرادع الحقيقي الوحيد لاحتلال العثمانيين ينبع. شكل منظر السفن، بحجمها المهيب، ومدافعها الموجهة كلها إلى الشط، وخطوط الأشعة الغريبة للأضواء الكاشفة وهي تتقاطع على السهول في العتمة، تحذيراً من مغبة أي هجوم في الليل أو النهار.

استنفدت قوة العثمانيين بحلول الوقت الذي وصلوا فيه إلى ضواحي ينبع في 11 ديسمبر. ومع أنهم حققوا سلسلة من الانتصارات على جيش فيصل، فإن أسابيع الحملة في المرتفعات العربية القاحلة تركت آثارها الضارة عليهم. استنزف المرض صفوفهم، وأنهك الإفراط

في العمل وقلة الطعام مطايا النقل. بينما هاجم البدو من رجال القبائل مؤخرة الجيش العثماني باستمرار وقطعوا خطوط إمداداته. في الواقع، حارب الجنود على أرض معادية. كان باستطاعتهم متابعة مطاردة العرب، لكن لن يتحملوا مواجهة البحرية الملكية. كانت الكتائب العثمانية المعزولة على بعد مئات الأميال من قاعدتها في المدينة، ولن تتلقى نجدة إذا أصيبت بخسائر خطرة في ينبع؛ وربما تجبر على الاستسلام. سجل لورنس: "ولذلك، عاد الترك من حيث أتوا. وفي تلك الليلة خسروا حربهم باعتقادي"[47].

* * *

سرعان ما أجبر الجيش العثماني على الارتداد عن ينبع. شنت الطائرات البريطانية غارات متواصلة على معسكر الترك في قرية المبارك. وبدلاً من مواجهة مزيد من الاستنزاف، بدؤوا سحب قواتهم إلى مواقع محيطة بالمدينة. ثبت عبد الله ابن الشريف حسين العثمانيين بقوات قليلة لا تكفي لحصار المدينة لكنها كافية لمنع نشر جنودهم خارج تخومها. سيبقى فخري باشا مطوقاً هنا طوال سنوات الحرب.

اختار الهاشميون الحرب المتحركة، بدلاً من المخاطرة بقواتهم في هجوم مباشر على الدفاعات العثمانية في المدينة. خطط قادة الأشراف، بالتنسيق مع المستشارين البريطانيين والفرنسيين، للتحرك شمالًا على ساحل البحر الأحمر للاستيلاء على ميناء الوجه. ومع وجود البحرية الملكية لإمداد القوات العربية من البحر، سوف تسهل هذه الخطوة أيضاً الهجمات على الخط الحديدي الحجازي لقطع خط الإمداد الهش عن المدينة. ما لا يمكن أخذه بالوسائل الحربية التقليدية، من الأفضل الاستيلاء عليه بأساليب حرب العصابات.

شعر المخططون الحربيون البريطانيون بالارتياح لرؤية العثمانيين ينسحبون ويتركون مكاسب الهاشميين التي حققوها في الحجاز بحوزتهم. حرم الترك من انتصار مهم كان سيعزز دعوتهم إلى الجهاد باستعادة سيطرتهم على مكة والمدن المفتاحية في الحجاز. بينما مثلت حقيقة استقرار الوضع في الحجاز دون نشر جنود بريطانيين مكسباً إضافياً. لم يقتصر الأمر على تهدئة مخاوف المسلمين الهنود فحسب، بل لم يكن في متناول البريطانيين قوات

يستطيعون الاستغناء عنها بحلول نهاية عام 1916. فقد شنوا حملة رئيسة على المواقع الألمانية في السوم في الأول من يوليو، وأصيبوا بأفدح الخسائر في يوم واحد: 58.000 قتيل وجريح. ومثلما كانت الحال في فردان، تحولت معركة السوم إلى حرب استنزاف طالت على مدى الأشهر دون تحقيق أي نتيجة حاسمة. ومع نهايتها في منتصف نوفمبر 1916، بلغت خسائر البريطانيين 420.000 قتيل وجريح، والفرنسيين نحو 194.000. بينما راوحت خسائر الألمان بين 465.000 و650.000. في مواجهة هذه الخسائر الهائلة على الجبهة الغربية، لم يكن البريطانيون على استعداد لتخفيض عدد قواتهم في أوربا بنقلها إلى ميدان المعارك في الشرق الأوسط.

رضي البريطانيون قانعين بتزويد الحلفاء العرب بالمساعدة المادية، بعد أن أعفوا من نشر الجنود لدعم الشريف حسين في الحجاز. بحلول نهاية عام 1916، قدمت الحكومة البريطانية نحو مليون جنيه ذهباً لدعم قضية أشراف مكة. كما وفرت لهم سرباً من الطائرات لأغراض الاستطلاع والرصد وإبقاء الطائرات العثمانية (الألمانية الصنع) بعيداً عن البدو، الذين أضمروا فزعاً غريزياً عميقاً من الغارات الجوية. وزودتهم إلى جانب الفرنسيين بأكبر عدد تستطيع جمعه من القوات النظامية الإسلامية، فضلاً عن حفنة من الضباط الأوربيين ليعملوا مستشارين تقنيين في مجالات ومهارات مثل تدمير الخطوط الحديدية.

ما إن اختفى شبح هزيمة الهاشميين، حتى بدأ المخططون الحربيون البريطانيون والفرنسيون ينظرون إلى الثورة العربية باعتبارها مصدر قوة ونفع متميز في الحرب العظمى. ومنذ يوليو 1916، وضعت لجنة الحرب أهدافاً استراتيجية جديدة لقواتها في مصر على أساس ثقل المكاسب الهاشمية المبكرة في الحجاز. وأصدرت تعليماتها إلى القائد العام في مصر، الجنرال موراي، بترسيخ السيطرة البريطانية على طول خط يمتد عبر شمال سيناء من العريش على البحر المتوسط إلى ميناء العقبة الصغير على الرأس الشرقي من البحر الأحمر. وأكد المخططون الحربيون البريطانيون أن هذه الإجراءات سوف "تهدد الاتصالات بين سوريا والحجاز، وتشجع العرب السوريين" على دعم الثورة العربية. هكذا بدأت الرابطة المصيرية بين الثورة الهاشمية في الجزيرة العربية والحملة البريطانية في فلسطين، التي أدت في نهاية المطاف إلى سقوط الامبراطورية العثمانية[48].

12

التراجع
سقوط بغداد وسيناء والقدس

مع اندلاع الثورة العربية في الحجاز، ركّز مخططو الحرب على جانبي النزاع اهتمامهم على الأراضي السورية. كان الحلفاء مصممين على جر سوريا (التي كانت تشير آنذاك إلى أراضي الدول الحديثة سورية ولبنان وإسرائيل وفلسطين والأردن مجتمعةً) إلى ثورة عربية أعرض، لإعطاء زخم أكبر للحركة الهاشمية ولإجبار العثمانيين على القتال فوق أرض معادية. على الطرف المقابل، كانت القوى المركزية واثقة بوضعها في سورية. فباستثناء الهجوم الأول على قناة السويس في فبراير 1915، لم يكن الجيش التركي الرابع قد شارك في عمليات قتالية بعد، وكان ما يزال بكامل قوته. اعتقد العثمانيون أن قواتهم في سوريا كافية لاحتواء الثورة الهاشمية في الحجاز، وتهديد الاتصالات البريطانية على طول قناة السويس التي بقيت عرضة للهجمات التركية عبر شبه جزيرة سيناء.

انتهى هجوم جمال باشا الأول على قناة السويس بالفشل أخيراً، لكن الجيش التركي احتفظ بالسيطرة على كامل شبه جزيرة سيناء تقريباً. ومع أنها جزء لا يتجزأ من مصر التي تحتلها بريطانيا، لم تكن وزارة الحرب البريطانية راغبة في تحويل القوات الضرورية لاستعادة سيناء غير المأهولة بمعظمها، أو حمايتها من هجمات تركية مستقبلية. كان على رأس الأولويات البريطانية الحفاظ على الاستقرار في وادي النيل، والإبقاء على تدفق

الرجال والعتاد عبر قناة السويس. أصبحت ضفة القناة الغربية من ثم خط الجبهة الأول في دفاع البريطانيين عن مصر، وتُرِك العثمانيون على راحتهم في باقي سيناء.

في فترة مبكرة من عام 1916، حول العثمانيون سيناء إلى منصة انطلاق لأعمال عدائية مستدامة على طول القناة ضد القوات البريطانية. عمل جمال باشا قائد الجيش الرابع عن قرب مع مستشاريه الألمان لتعزيز المواقع العثمانية، فمدَّ خط السكة الحديد جنوباً من بئر السبع، البلدة الصغيرة والسوق الداخلي جنوب شرق غزة، إلى الحدود المصرية في العوجا وما وراءها في عمق سيناء. أتاح الخط الحديدي النقل السريع للرجال والعتاد إلى قلب سيناء، حيث أقام جمال شبكة قواعد مجهزة بآبار توفر المياه للجنود والحيوانات. واتصلت القواعد العثمانية مع بعضها بشبكة طرقات، وقامت قوات نخبة صحراوية بأعمال الدورية في سيناء تحت قيادة ضابط ألماني.

لم يعد جمال يحلم بطرد البريطانيين من كامل مصر، بل خطط بدلاً من ذلك للتقدم حتى تصل مدفعيته إلى المدى المجدي لقصف قناة السويس. كان باستطاعة العثمانيين مهاجمة حركة الشحن في ذلك الممر المائي الحيوي وإغلاقه من مواقع تبعد خمسة أميال عن ضفتيه، الأمر الذي يعيق الاتصالات الامبراطورية البريطانية دون تعريض جنودهم لمخاطر الهجوم على الدفاعات والخنادق البريطانية جيدة التحصين. عندما تفقد أنور باشا جبهة فلسطين في فبراير 1916، أقر استراتيجية جمال ووعد بإرسال تعزيزات.

ووفى ناظر الحربية بوعده. فلدى عودته إلى العاصمة العثمانية، أرسل أنور من غاليبولي إلى فلسطين فرقة المشاة الثالثة المجربة في ميادين القتال. كما أمّن الدعم المادي من القوى المركزية. في أبريل 1916، وضع الألمان سرب طائرات حديثة تحت تصرف قيادة القوات العثمانية في بئر السبع. وأعطت هذه الطائرات أحادية السطح من طراز "رمبلرز" (Rumplers) و"فوكر" (Fokker)، وهي طائرات جبارة كانت بلاءً حقيقيّاً على قوات الحلفاء في الجبهة الغربية، تفوقاً جويّاً للعثمانيين فوق سيناء. كما أرسل النمساويون أواخر الشهر نفسه بطاريتي مدفعية ميدان إلى جبهة سيناء، فمنحت المدافع (الهاوتزر) عيار 15 سم القوات العثمانية القوة النارية الكافية لتحدي البريطانيين في المعارك. وهكذا، بدأ جمال باشا

التخطيط لهجوم جدي ثانٍ على منطقة قناة السويس، مدعوماً بآخر مقتنيات التكنولوجيا العسكرية الحديثة[1].

تزايد قلق البريطانيين أثناء ذلك من تهديد الأتراك المتزايد لمنطقة القناة. في فبراير 1916، اقترح الجنرال السير أرتشيبالد موراي قائد قوة الحملة المصرية تبني خطة "دفاع إيجابي"، تقوم على تحصين الواحات وتقاطع الطرق الاستراتيجية شمال سيناء. اقتضت خطة موراي احتلال واحة القطية الواقعة على بعد ثلاثين ميلًا تقريباً شرق القناة. وكانت القطية جزءاً من شبكة حفر مائية مالحة، وذات أهمية استراتيجية حيوية في قفار سيناء المجدبة وعديمة المياه بمعظمها. اقترح موراي حال تأمين القطية، التقدم على طول شاطئ المتوسط حتى ميناء العريش، واحتلال خط دفاع داخلي يمتد من العريش حتى القسيمة جنوب بئر السبع. جادل موراي عن حق بأن احتواء الأتراك ضمن منطقة تمتد مسافة 45 ميلًا بين العريش والقسيمة، يتطلب عدداً أقل من الرجال والموارد مقارنةً بمواجهتهم على كامل طول القناة نفسها الممتد 90 ميلاً[2].

أدرك رئيس هيئة الأركان الامبراطورية العامة، الجنرال السير وليم روبرتسون، الحكمة في حرمان الأتراك من واحات سيناء. لكنه، مع النكسات الكبرى التي واجهها البريطانيون على الجبهة الغربية، وصراعهم لفك الحصار عن الحامية المنكوبة في الكوت، لم يكن على استعداد لإرسال قوات في حملة أوسع على سيناء أو فلسطين غير تلك التي تستطيع القوات البريطانية الموجودة للتو في مصر تأمينها. في 27 فبراير 1916، أجاز روبرتسون احتلال القطية والواحات المجاورة، وأجّل القرار حول التقدم باتجاه العريش إلى تاريخ لاحق.

في مارس 1916، بدأ البريطانيون مد خط سكة حديد من القياس العادي شرقاً، من مدينة القنطرة على القنال إلى واحة القطية. كما مدوا خط أنابيب لتوفير إمدادات ثابتة من المياه العذبة. تولى 13 ألف رجل من فيلق العمل المصري، يعملون بعقود قصيرة الأجل، المهمة الشاقة لبناء سكة الحديد وخط الأنابيب في حر الصحراء اللاهب. اقتفى الخط أثر طريق القوافل، وامتد بمعدل أربعة أميال أسبوعياً، ووصل إلى محيط واحة القطية في أواخر أبريل.

تحرك العثمانيون بسرعة لإعاقة تقدم البريطانيين. رأس القائد الألماني لقوة الصحراء التركية، الكولونيل فريدريش فرايهر كريس فون كريسنشتاين، 3.500 جندي في غارة جريئة على القوات البريطانية التي تحمي رأس السكة الحديدية. اكتسح العثمانيون المواقع البريطانية في الواحات المحيطة بالقطية فجر يوم 23 أبريل، متمتعين بعنصر المفاجأة المطلقة، كونهم بدؤوا هجومهم في ضباب الصباح الباكر. بعد عدة ساعات من القتال الشديد، أمّن الأتراك استسلام كتيبة خيالة بريطانية كاملة تقريباً. حسب الرواية البريطانية الرسمية، استطاع ضابط واحد وثمانون جندياً فقط النجاة من الأسر (يبلغ عدد كتيبة الخيالة عادة 25 ضابطاً و525 جندياً). انسحبت قوة فون كريسنشتاين من القطية دون رد أو عقاب. ورغم أن الهجوم لم يعق تقدم خط سكة الحديد البريطانية طويلاً، فقد نجح الأتراك في هز ثقة البريطانيين بأنفسهم. وكما سجل جمال باشا في مذكراته، نجحت الغارة في "رفع معنويات جنودنا إلى درجة رائعة"[3].



هجوم الخيالة العثمانيين. أدّت القوات التركية (المحمولة) دوراً مفتاحياً في معارك سيناء، ومنها الانتصار العثماني على القوات البريطانية في القطية (أبريل 1916).

بعد هجوم العثمانيين على القطية، قادت الفرقة الأسترالية-النيوزيلندية المحمولة (الفرسان) تقدم البريطانيين عبر شمال سيناء. تألفت الفرقة من لواء الفرسان النيوزيلندي، ووحدات من لواء الفرسان الأسترالي الخفيف، التي ضمت خليطاً من مجندين جدد ووحدات متمرسة من مخضرمي حملة غاليبولي. كان جنود الفرسان محوريين في الأراضي الصحراوية التي لا تصلها العربات الآلية. في الحقيقة، أجبر البريطانيون على تنويع قوات فرسانهم وتطعيمها بوحدات الجمال (الهجانة)، لمطاردة القوات العثمانية العاملة في متاهات المنطقة الرملية الشاسعة. وهكذا، مثّلت حملة سيناء تناقضاً فريداً بين قوى جوية من القرن العشرين، وتكتيكات خيالة من القرن التاسع عشر، وحرب جمال على الطريقة البدوية[4].

تابع البريطانيون العمل على سكة الحديد وخط الأنابيب طوال صيف عام 1916 شديد الحرارة. عانى العمال والجنود والخيول جميعاً درجات حرارة عالية كثيراً ما تجاوزت 50 مئوية. كما عانوا نقص المياه الصالحة للشرب، وأسراب الذباب التي ابتلي بها البشر والحيوانات على حد سواء. واساهم الاعتقاد بأن من غير المرجح أن يخاطر العثمانيون بهجوم آخر في منتصف الصيف اللاهب. مع ذلك، بقيت قوات الخيالة على أهبة الاستعداد، ترسل دوريات حراسة منتظمة إلى عمق الصحراء للتأكد من عدم تكرار الخسارة المهينة في القطية.

بعد تأخيرات متكررة، كان العثمانيون وحلفاؤهم الألمان تواقين للبدء بالهجوم الثاني الذي طال انتظاره على قناة السويس. وكان جمال باشا أجّل حملة سيناء الثانية على أمل أن يسهم الشريف حسين بكتيبة متطوعين من الحجاز، لكن اندلاع الثورة العربية في يونيو 1916 خيب تلك الآمال وخلق جبهة معادية جديدة في الولايات العربية. اعتقد جمال أن الانتصار على البريطانيين في سيناء سيقوض جاذبية الانتفاضة الهاشمية في الولايات العربية، وأعطى الكولونيل فون كريسنشتاين الضوء الأخضر لإطلاق الهجوم الثاني المتأخر على القناة في ذروة فصل الصيف، الوقت الأبعد عن توقعات البريطانيين.

هاجم الأتراك المواقع البريطانية في الرمانة قرب القطية في الساعات الأولى من صبيحة يوم 3 أغسطس. قاد العقيد فون كريسنشتاين قوة أضعف بكثير مما توقعه البريطانيون، إذ لم يزد عددها على 16.000 جندي. وفي عمل بطولي يعكس قدرة تحمل تثير الإعجاب،

استطاع الجنود الأتراك نقل قطع المدفعية عبر رمال الصحراء للتعويض عن قلة عددهم بقوة نارية كثيفة. ولأخذ القوات البريطانية على حين غرة، وقّت فون كريسنشتاين تقدمه بالتزامن مع عودة إحدى دوريات وحدات الفرسان الخفيفة، متعقباً عملياً الخيالة الأستراليين-النيوزيلنديين إلى قاعدتهم. ومع أنها لم تفاجئ الأستراليين تماماً، فقد تغلبت القوات العثمانية على الموقع الأسترالي-النيوزيلندي وأجبرت جنوده على التراجع، واستولت على الأراضي الاستراتيجية المرتفعة قبل شروق الشمس.

عندما تنبه البريطانيون أغرقوا الرمانة بالتعزيزات لصد هجوم الأتراك. ومع مرور الوقت، ونقص الماء والذخيرة، أجبر مئات الأتراك على الاستسلام. نجح فون كريسنشتاين إلى حد لافت في سحب معظم قواته ومدافعه الثقيلة من معركة خاسرة، ثم قاد جنوده المنهكين في تراجع سريع يلاحقهم الفرسان الأستراليون-النيوزيلنديون في مطاردة حثيثة. صمم البريطانيون على تدمير قوات حملة فون كريسنشتاين وأسرها، وأرسلوا طائراتهم على ارتفاع عال لإرشاد المطاردين. لكن العثمانيين صدوا هجوماً أخيراً في بئر العبد قبل إكمال انسحابهم إلى مدينة العريش الآمنة التي كانت ما تزال في أيدي الأتراك.

أصيب العثمانيون بهزيمة كاملة في معركة الرمانة، فقد خسروا حوالي 1.500 جندي بين قتيل وجريح، ووقع لهم 4000 جندي آخر أسرى، في حين كانت خسائر البريطانيين 200 قتيل و900 جريح. مع ذلك عدّ البريطانيون الرمانة نصراً ناقصاً، بينما اعتبر قادتهم أن السماح لفون كريسنشتاين بسحب معظم قواته ومدفعيته فشلاً ذريعاً، لا سيما وأنه تعرض لنوع من الهزائم أتاح فرصة كبيرة لتدمير قوته بالكامل. مثلت الرمانة الهجوم العثماني الأخير على المواقع البريطانية في مصر، لكن الأتراك احتفظوا بما يكفي من القوات والمدفعية للدفاع عن حدودهم الفلسطينية[5].

* * *

تزامن التقدم البريطاني في سيناء صيف عام 1916 مع انطلاقة الثورة العربية في الحجاز. ومن الجدير بالذكر هنا أن الشهرين الأولين من الثورة العربية كانا ناجحين بشكل ملحوظ،

إذ استطاعت القوات الهاشمية هزيمة العثمانيين في مكة والطائف وجدة ورابغ وينبع. بدأت لجنة الحرب في لندن ترى إمكانية التنسيق بين الثورة العربية وحملة سيناء، بهدف إضعاف موقف العثمانيين في جنوب سورية وفلسطين إلى حد لا يمكن الدفاع عنه. أجاز رئيس هيئة الأركان الامبراطورية العامة في فبراير 1916 القيام بعمليات عسكرية محدودة، حصراً في منطقة القطية، للدفاع عن قناة السويس. لكن اللجنة أمرت قوات موراي في يوليو 1916 باحتلال سيناء من العريش إلى ميناء العقبة على البحر الأحمر، "على اعتبار أن تشكيل قوة مهمة في هذه الأماكن يهدد خطوط الاتصالات التركية بين سوريا والحجاز مباشرة، ويشجع العرب السوريين" على الثورة ضد العثمانيين[6].

تقدمت قوات الجنرال المنهجي موراي بالتزامن مع تقدم العمل في السكة الحديد وخط الأنابيب المائي في سيناء. بحلول ديسمبر 1916، وصل رأس السكة إلى آبار المزار، على بعد أربعين ميلًا من العريش. ومع ركم كل المؤن الضرورية في رأس السكة، وحشد ما يكفي من الجمال لنقل الأغذية والماء والذخيرة إلى جيش يقاتل في صحراء قاحلة، استعد البريطانيون لمهاجمة الحامية العثمانية.

قيَّم القادة الأتراك الوضع في العريش بقلق متزايد، إذ تتبع استطلاعهم الجوي تركيز القوات والعتاد، وتقدم السكة الحديدية البريطانية المطرد. كانوا يدركون أيضًا أن حاميتهم تقع بسهولة ضمن المدى المجدي للسفن الحربية البريطانية المبحرة قبالة شاطئ سيناء. لم يكن لدى المدافعين العثمانيين الذين لم يزد عددهم على 1.600 رجل أمل في الحفاظ على مواقعهم بوجه قوة نارية بحرية، وأكثر من أربع فرق من المشاة البريطانيين. تراجع العثمانيون من العريش إلى مواقع دفاعية أفضل على امتداد الحدود الفلسطينية عشية الهجوم البريطاني. كشفت القوات الجوية الملكية الخطوط التركية المتروكة، واحتلت طليعة القوات البريطانية البلدة الاستراتيجية دون مقاومة يوم 21 ديسمبر.

كذلك لم يكن وضع البريطانيين آمناً على الإطلاق، إذ أظهر استطلاعهم الجوي مواقع عثمانية شديدة التحصين في قرية مغضبة أسفل وادي العريش، وطالما بقي الأتراك في مغضبة فسيشكلون تهديداً لمؤخرة الجيش البريطاني. أُرسل الخيالة الأستراليون-النيوزيلنديون

وفيلق الهجانة الامبراطوري لطرد الأتراك من القرية يوم 23 ديسمبر. كان ذلك الهجوم سباقاً مع الزمن، فانعدام المياه بين العريش ومغضبة حتم على القوات المحمولة (الخيالة) احتلال البلدة قبل غروب الشمس؛ وإلا أجبر الجنود العطشى ومطاياهم على الانسحاب من العريش للحصول على الماء. بحلول الأصيل، وعندما كان قائدهم القلق الجنرال الأسترالي السير هاري شوفيل على وشك وقف الهجوم، حققت غارة مشتركة من قوات الخيالة والهجانة خرقاً في الخطوط العثمانية[7].

"دهشنا"، تذكر أحد جنود فيلق الهجانة، "عندما قفز عدد من الجنود الأتراك خارج خنادقهم لمصافحتنا". كانت لحظة أخوة غريبة بين رجال التقوا آخر مرة في الدردنيل. "ضعه هنا يا صديقي العزيز"، قال عسكري أسترالي لأسير تركي يرتدي وسام حملة غاليبولي. "كنت هناك بنفسي، وكان المكان جحيماً حقيقياً دفعني إلى التعاطف معكم". علق الأسترالي الوسام على صدره، ثم دخن من تبغ الجندي التركي قبل أن يتقدم إلى موقع عثماني آخر. استسلم حوالي 1.300 جندي تركي مع استكمال البريطانيين احتلالهم وادي العريش[8].

بسقوط مدينة رفح على الحدود العثمانية-المصرية، أكمل البريطانيون إعادة احتلال شبه جزيرة سيناء في 9 يناير 1917. نجحت قوات الفرقة الأسترالية-النيوزيلندية المحمولة (الخيالة) بتطويق الخنادق العثمانية وإجبار جنودها على الاستسلام في يوم من القتال المرير. وبعد انسحابهم من رفح، تخلى العثمانيون نهائياً عن طموحاتهم في مصر لحماية مواقعهم في فلسطين[9].

بقيت إشارة استفهام معلقة حول الهدف النهائي لقوة الحملة المصرية. في ديسمبر 1916، وبعد أزمة وزارية حول إدارة شؤون الحرب، جاء رئيس وزراء جديد، ديفيد لويد جورج، إلى سدة الحكم في بريطانيا. وكسلفه هـ. هـ. أسكويث، رأس لويد جورج (من حزب الأحرار) حكومة ائتلافيه مع المحافظين، فرأى أن من مصلحته السعي لتحقيق نصر سريع وحاسم يحشد الحكومة وعامة البريطانيين خلف قيادته. جادل لويد جورج بضرورة شن حملة قوية ضد العثمانيين في فلسطين، لاعتقاده أن احتلال القدس سوف يعطي الرأي العام البريطاني دفعة معنوية كان بأمس الحاجة إليها بعد الخسائر المروعة في فردان والسوم. على

النقيض من ذلك، كان جنرالات لويد جورج يكرهون نشر المزيد من القوات خارج الجبهة الغربية، حيث أيقنوا أن الحرب سوف تحسم فيها، نصراً أو هزيمة. وأكدوا أن الدفاع عن مصر هو المهمة الأساس لقوة الحملة المصرية. ربح العسكر النقاش بحجتهم. بعد يومين من انتصار قوة الحملة في رفح، أمرت وزارة الحرب الجنرال موراي بإرسال فرقة من قواته إلى فرنسا، وتأجيل أي عمليات عسكرية واسعة النطاق في فلسطين إلى خريف عام 1917.

بعد طردهم من سيناء، أقام العثمانيون خط دفاع داخلي لحماية جنوب فلسطين، يمتد من غزة على الساحل إلى البلدة-الواحة بئر السبع. انتشرت التعزيزات العثمانية على طول خط الجبهة البالغ عشرين ميلاً بين شهري ديسمبر ومارس1917. انضمت وحدة خيالة من القوقاز، وفرقة مشاة من تراقيا إلى قوات جمال باشا في محاولة حازمة للاحتفاظ بفلسطين والدفاع عنها ضد أي هجوم بريطاني مستقبلي[10].

* * *

استأنفت قوة حملة الرافدين هجومها على نهر دجلة مع توقف قوة الحملة المصرية على حدود فلسطين بداية عام 1917. وما بدأ كمجرد تقدم حذر يهدف إلى إنهاك الجيش العثماني السادس، انتهى عملياً بأول انتصار بريطاني كبير في الشرق الأوسط -احتلال بغداد.

تركت الهجمات المتكررة لنجدة الكوت القوات البريطانية والعثمانية على حد سواء منهكة ومستنزفة عند استسلام الجنرال تشارلز تاونزند في أبريل 1916. وبعد فشلهم في تحقيق أهدافهم، لم يكن لدى البريطانيين القوات أو الدافع لاستئناف هجومهم على خطوط العثمانيين على نهر دجلة. والعثمانيون أنفسهم كانوا أيضاً منهكين بحيث لم يبادروا بالهجوم على المواقع الضعيفة للقوات البريطانية. عزز كل طرف مواقعه، والتفت إلى معالجة مرضاه وجرحاه، وانكفأ إلى خمول نسبي، بينما كانت قيادته العليا مشغولة بتهديدات أكثر خطورة على جبهات أخرى.

واجه العثمانيون خطر هجوم روسي على بغداد بعد انتصارهم في الكوت مباشرة تقريباً. ففي وقت مبكر من شهر مايو 1916، احتل الجنرال نيقولاي باراتوف القائد العام للجيوش

الروسية في فارس البلدة الحدودية قصر شيرين، وهدد المواقع التركية عبر الحدود في خانقين التي لا تبعد أكثر من مئة ميل عن بغداد. أعاد خليل باشا، الذي كوفئ على نصره في الكوت بقيادة الجيش العثماني السادس، نشر قواته على جبهة دجلة للدفاع عن خانقين، ما قلص عدد قواته حول الكوت إلى 12.000 جندي.

سهّل البريطانيون مهمة خليل إلى حد بعيد. إذ أكد السير وليام روبرتسون، رئيس هيئة الأركان الامبراطورية العامة، أن أهداف البريطانيين في بلاد الرافدين بعد سقوط الكوت "دفاعية" بحتة، وكتب لرئيس قوة حملة الرافدين قائلاً: "نحن لا نعلق أي أهمية على الاستيلاء على الكوت أو احتلال بغداد". أوصى روبرتسون بأن يحافظ البريطانيون على "أكثر موقع متقدم يمكن تأمينه تكتيكياً" لتقليص أثر سقوط الكوت على سمعة بريطانيا، ولإجبار العثمانيين على إبقاء قواتهم على نهر دجلة بدل إعادة نشرها في مواجهة الطابور الروسي الذي يهدد بغداد. لكن لم تكن لدى روبرتسون أي نية لإجازة القيام بأعمال عدائية ضد مواقع العثمانيين على نهر دجلة[11].

مع اتخاذ البريطانيين موقفاً سلبياً، ألقى خليل باشا بكل ما لديه ضد الروس، فأوقف باراتوف في خانقين يوم 1 يونيو 1916، وأجبر القوات الروسية على التراجع في محاولة للوصول إلى البلدتين الفارسيتين كرمنشاه وهمدان، اللتين احتلهما في 1 يوليو و10 أغسطس تباعاً. أقلق الاندفاع العثماني في بلاد فارس كلا الروس والبريطانيين، لكنه ترك دفاعات خليل باشا في بغداد ضعيفة إلى حد خطر. لم تسترد تلك الدفاعات قوتها أبداً، بل تركت خليل باشا يكافح لاحتواء التهديد البريطاني مع وصول التعزيزات من الهند ومصر إلى بلاد الرافدين.

عين البريطانيون قائداً جديداً لقوة حملة الرافدين في شهر أغسطس، الجنرال السير ستانلي مود الذي جرح في فرنسا وكان آخر رجل تم إخلاؤه من شاطئ خليج سوفلا في نهاية حملة غاليبولي. كان مود قائداً جسوراً صمم على المبادرة بالهجوم على جبهة دجلة. خلال صيف عام 1916 وخريفه، استطاع مود بناء قوة هائلة في بلاد الرافدين، إذ أمّن فرقتي مشاة جديدتين، رافعاً عدد حملة الرافدين إلى قوة قتالية قوامها أكثر من 160.000 رجل، نشر ما يزيد على 50.000 منهم على جبهة دجلة (وتوزع الباقون على المواقع البريطانية

في البصرة وعلى نهر الفرات). بالمقابل، تقلص جيش خليل مع تضخم جيش مود. عانى الجيش العثماني السادس الإنهاك والمرض وفرار الجنود، إضافة إلى الخسائر التي تعرض لها في تبادل إطلاق النار الدوري بين الخطوط التركية والبريطانية. لكنه عانى قبل كل شيء آخر قلة التعزيزات. قدرت استخبارات مود القوات العثمانية المنتشرة حول الكوت بما لا يزيد عن 20 ألف جندي، مع أن الأعداد في الحقيقة كانت أقل من ذلك بكثير -ربما لا تتجاوز 10.500 جندي[12].

تحولت القاعدة البريطانية المتقدمة في الشيخ سعد على نهر دجلة إلى خلية نشاط دائم في خريف عام 1916. زادت قوارب نهرية جديدة طاقة الشحن باتجاه منبع النهر (شمالاً) إلى أكثر من سبعمئة طن يومياً. ولتسريع إيصال الإمدادات إلى الجبهة قرب الكوت، بنى البريطانيون سكة حديد خفيفة من الشيخ سعد إلى شط الحي (القناة الواصلة بين نهر دجلة عند الكوت ونهر الفرات عند الناصرية). أصبحت السكة الحديدية البعيدة عن مرمى المدفعية العثمانية جاهزة للعمل في سبتمبر 1916، ووصلت إلى ضفاف شط الحي بداية عام 1917. ولتحسين عملية نقل الإمدادات والذخائر من رأس سكة الحديد إلى الجبهة، أمر مود بإحضار المئات من شاحنات "فورد" التي أثبتت فعالية مدهشة حتى بعد أن حولت الأمطار الأرض إلى برك طينية.

بقيت لجنة الحرب في لندن حذرة رغم هذه المزايا كلها. فقد اعتقد الجنرال روبرتسون رئيس هيئة الأركان الامبراطورية العامة أن من الصعب احتلال بغداد، ومن الأصعب الاحتفاظ بها؛ نظراً إلى طول خطوط التموين والاتصال إلى الخليج العربي. كما رفض احتلال بغداد باعتبار أن "ليس له تأثير ملموس في مجرى الحرب". كانت أوامر روبرتسون لمود حتى وقت متأخر من سبتمبر 1916 تقضي بمنع التقدم، لكن قائد قوة حملة الرافدين أبقى خططه الحربية لنفسه. في نوفمبر، أمَّن مود إذن السماح بعمليات هجومية ضد المواقع العثمانية على شطالحي، غير أنه رفض الالتزام بتاريخ محدد لبدء تلك العمليات، بل أخفى خططه حتى عن ضباط أركانه وقادته. وكما اتضح لاحقاً، لم يكن عليهم الانتظار طويلاً.

أبرق مود إلى رؤسائه في الهند ولندن يوم 10 ديسمبر بأن استعداداته اكتملت، وأن بدء العمليات ضد العثمانيين في شط الحي وشيك. إذا كانت لجنة الحرب قد تفاجأت بالإخطار العاجل، فهي بلا شك دهشت بالسبب الذي قدمه الجنرال مود لبدء عملياته. كان قائد قوة حملة الرافدين شخصاً متطيراً اعتقد جازماً أن 13 رقمه المحظوظ، فقرر شن هجومه يوم 13 ديسمبر وبالفرقة 13 في الطليعة[13].

افتتحت المعركة الثالثة والأخيرة للاستيلاء على بلدة الكوت المنكوبة بقصف مدفعي بريطاني يوم 13 ديسمبر. طالت الحملة بعد ذلك أكثر من شهرين على امتداد جبهة بطول عشرين ميلاً. تكبد جنود مود خسائر فادحة في الهجمات المباشرة على المواقع العثمانية جيدة التحصين، في حين مزقت المدفعية البريطانية المتفوقة الصفوف العثمانية. مع ذلك، حافظ الأتراك على خطوطهم وشنوا هجمات معاكسة بتصميم لافت. في منتصف فبراير 1917، صد العثمانيون هجوماً مباشراً على خنادق الصناعيات، ما أجبر البريطانيين على التراجع بخسائر مروعة.

بلغت معركة الكوت أوجها يوم 23 فبراير، عندما استطاع البريطانيون تأمين رأس جسر على نهر دجلة. أمر مود بشن هجومين على خنادق الصناعيات وقرب الكوت نفسها لتشتيت انتباه المدافعين. ومع احتشاد الجنود العثمانيين لصد الهجوم البريطاني في هاتين النقطتين، استطاع مود أخذ الأتراك على حين غرة ومفاجأتهم على بعد خمسة أميال من الكوت باتجاه عكس التيار، حيث استطاعت قوة متقدمة تأمين رأس جسر عند دورة شمران. قاوم القلة من المدافعين الأتراك في تلك النقطة بعناد، لكن سرعان ما هزمتهم المدفعية البريطانية المتفوقة التي كانت تقصفهم من مدى قصير جداً. عندما أدرك القادة العثمانيون الخطر المحدق بهم، كانوا غير قادرين على إرسال ما يكفي من الجنود لوقف السيل المتدفق من القوات المعادية عبر الجسر العائم.

سارع الفرسان والمشاة والمدفعية البريطانية إلى عبور النهر، وعرف القادة العثمانيون أن وضعهم ميؤوس منه. أمر خليل باشا بانسحاب فوري -من جميع المواقع التي احتلتها قواته على طول 20 ميلاً من ضفة دجلة اليسرى - خوفاً من خطر التطويق والأسر. ويرجع

نجاح الانسحاب العثماني إلى حد بعيد للطريقة النظامية التي نفذ بها. انسحب الجسم الأساس للقوات العثمانية بمدافعه وبأكبر قدر ممكن من العتاد والمؤن التي استطاع حملها. وحافظت قوات حماية المؤخرة على الطريق حتى عبوره، ثم تبعته لحماية القوة المتراجعة من هجوم العدو. قدّر الضابط السياسي في الهند البريطانية، آرنولد ولسن، عدد الطابور العثماني المنسحب بأكثر من 6.200 رجل، تلاحقهم قوة بريطانية يزيد عددها على 64.000 جندي من المشاة والفرسان[14].

مع احتلال الجيش الإنكليزي-الهندي الضفة اليسرى من نهر دجلة، قاد كابتن البحرية الملكية دبليو. نَان سفنه الحربية إلى كوت العمارة، حيث ألقت مراسيها ليلة 24 فبراير. في صبيحة اليوم التالي، أرسل نان فريقاً إلى الشاطئ فوجد المكان مهجوراً ورفع العلم البريطاني عليه. ومع أن المدينة المدمرة لم تعد لها أهمية استراتيجية لحملة الرافدين أكثر من أي منحنى آخر للنهر، فقد كانت لها قيمة رمزية كبيرة لمود ورجاله؛ إذ إن رفع العلم البريطاني مجدداً عوّض بعض الشيء عن الفشل البريطاني الذريع الذي أدى إلى استسلام تاونزند قبل عشرة أشهر. أما بالنسبة إلى سكان الكوت، الذين تحملوا مشقة الحصار وقسوة الأعمال الانتقامية العثمانية بعد استسلام تاونزند، فكان تغيير العلم لا يعني إلا المزيد من الخراب، ولا بد أنهم لم ينظروا إلى عودة البريطانيين بكثير من الثقة بمستقبلهم.

تعرض الجيش العثماني المتقهقر لهجوم البحرية الملكية بعد نجاحه في مراوغة المشاة والفرسان البريطانيين. فعلى بعد مئات الأميال من البحر، أسرع أسطول الكابتن نان، المؤلف من خمس سفن حربية، في الإبحار عكس اتجاه التيار للحاق بفيلق خليل باشا الثالث عشر. واجه الأسطول قوات حماية المؤخرة المتخندقة في منعطف خطر على نهر دجلة، وعلى امتداد عدة أميال تعرضت السفن الحربية البريطانية لنيران كثيفة من المدافع والرشاشات من مدى مباشر تقريباً. تكبدت السفن الحربية الخمس خسائر فادحة وإصابات مباشرة، لكنها استطاعت تجاوز حامية المؤخرة ومتابعة مطاردة الجيش العثماني المنسحب.

لحقت سفن نان بالجسم الرئيس لقوات خليل على امتداد من النهر يوازي خط الانسحاب. أطلقت السفن مدافعها كلها، وألحقت أذى بالغاً بصفوف الجنود الأتراك المنهكين جسدياً والمحبطين معنوياً. حلق أحد طياري الحلفاء فوق المنطقة ووصف المشهد

بأنه "منظر مروع ومذهل. جثث البشر والبغال، والمدافع المتروكة، والعربات والذخائر والمؤن، متناثرة كلها على طول الطريق. رفع العديد من العربات الرايات البيضاء، بينما تمدد الرجال على الأرض منهكين وجائعين. قلة من هؤلاء، إن وجدت"، أضاف الطيار، "نجت من 'انتباه' رجال القبائل العربية الذين كانوا يحومون في المكان مثل ذئاب مفترسة تقتفي أثرهم. عدت إلى القاعدة مشمئزاً سقيماً"[15].

بحلول الغروب، أدرك الأسطول البحري البريطاني السفن النهرية التركية المنسحبة واستطاع أسرها أو تدميرها جميعاً، بما فيها عدة بواخر بريطانية استسلمت للعثمانيين في وقت سابق من الحملة. رفعت سفينة المشفى التركية "البصرة" العلم الأبيض، ونقلت إلى رعاية البريطانيين مئات الأسرى الأتراك المصابين بجراح خطرة، ومعهم كثير من البريطانيين. في نهاية اليوم، وعلى بعد أميال من أقرب نقطة للجنود البريطانيين، ألقى نان مراسيه للسماح لرجاله برعاية قتلاهم وجرحاهم وإصلاح سفنهم المعطوبة[16].

حطم الجنرال مود دفاعات خليل باشا خلال شهرين ونصف الشهر من القتال. اخترق خطوطاً تركية كانت حتى ذلك الوقت منيعة، فأسر حوالي 7.500 جندي، وقلص الفرق العثمانية الأربع على جبهة نهر دجلة إلى أقل من 5000 رجل، بينما حافظ على جيشه بكامل قوته تقريباً. كما سيطرت سفنه على النهر وطائراته على الأجواء. أدرك مود أنه لم تكن لدى العثمانيين قوات كافية للدفاع عن بغداد ضد الاحتلال البريطاني، لكنه بقي يعمل وفق أوامر لندن التي منعت التقدم إلى المدينة. لذلك لم يكن باستطاعة قائد قوة حملة الرافدين إلا إرسال تقرير إلى لندن وطلب أوامر جديدة.

❊ ❊ ❊

رحب القادة في لندن بالأخبار السارة القادمة من العراق، لكنهم انقسموا حول الطريقة الأفضل لاستغلال نجاحات مود. كان الاستسلام في الكوت ما يزال يلقي بظلاله على الطموحات البريطانية في الرافدين، وكان رئيس هيئة الأركان الامبراطورية العامة يكره المجازفة. تقبل روبرتسون احتمال أن يستطيع جيش مود احتلال بغداد، لكنه شكك في قدرته على الاحتفاظ بالمدينة، مبدياً خشيته من عودة العثمانيين بتعزيزات أقوى وتهديد

الجيش البريطاني المعزول بحصار آخر. ومع عدم وجود قوات يمكن توفيرها من أي جبهة أخرى، وخوفه من التأثيرات في الرأي العام الإسلامي لهزيمة مذلة أخرى تصيب البريطانيين على أيدي "مجاهدي" السلطان-الخليفة، لم يكن الجنرال روبرتسون على استعداد لمنح مود صلاحية أوسع من "توطيد النفوذ البريطاني في ولاية بغداد". ومع أنه أمر مود بـ"ملاحقة العدو باتجاه بغداد"، بل حتى "الإغارة" على المدينة بخيالته إذا ثبت أن ذلك مؤات ومفيد، حذرت أوامر روبرتسون في 28 فبراير من "الاضطرار إلى التراجع لاحقاً لأي سبب كان"، لما لذلك من "أثر سياسي غير مقبول"[17].

في تبادل البرقيات التالي، دافع القائد البريطاني العام في الهند الجنرال تشارلز مونرو بحماسة عن احتلال سريع لبغداد، بينما الأتراك في حالة فوضى وارتباك. فذلك يحرم العثمانيين من إقامة نقطة تجمع استراتيجية تهدد المصالح البريطانية في البصرة وبلاد فارس، ويزيد إلى حد كبير من حظوة بريطانيا في الشرق الإسلامي. مود أيضاً ناقش الأمر منطقياً مع روبرتسون، موضحاً الميزات التي يغتنمها الموقف العسكري البريطاني من احتلال بغداد. شأن مهم آخر شغل بال لجنة الحرب آنذاك كان اقترح الروس شن هجوم على بلاد الرافدين في الربيع، والقيام بعمليات ضد الموصل وسامراء وبغداد. لكن لو وصل الروس إلى بغداد أولاً، كما فكر أحد المسؤولين البريطانيين، "فذلك سيبطل اتفاقية سايكس- بيكو تماماً"[18].

دفعت أهمية هذه الحجج ومنطقيتها الجنرال روبرتسون إلى تعديل أوامره إلى الجنرال مود. في برقية مرسلة إلى قائد قوة حملة الرافدين في 3 مارس، أقر روبرتسون بأن "جدوى احتلال بغداد فوراً" كانت "ربما أكبر" مما ظن في البداية. ودون أن يأمره فعلياً بدخول بغداد، وافق روبرتسون على ترك القرار النهائي لحكمة مود. لكنه كرر مخاوفه القديمة كلها: "باختصار، ينبغي أن يكون هدفنا تحقيق أفضل نتيجة ممكنة من نصرنا الأخير، وفي الآن ذاته تجنب المبالغة في عمل أشياء قد تؤدي إلى تكرار مشكلة الاتصالات القديمة، أو الاضطرار للانسحاب من بغداد بعد احتلالها لفترة محددة".

قاد مود جيشه شمالًا باتجاه بغداد بعد هذه الوقفة لترتيب أوامر تقدمه. في 6 مارس وصل دون مقاومة إلى بلدة سلمان باك، حيث أُجبر تاونزند على التراجع نهاية عام 1915. ذهل

البريطانيون لمرأى قوس طيسفون التاريخي (إيوان كسرى)، المَعْلم الأكثر بروزاً في المنطقة من مسافة أميال. وتفحصوا شبكة الخنادق العثمانية المعقدة التي أعدت للدفاع عن بغداد وتركت فيما بعد. قرر القادة العثمانيون تركيز دفاعاتهم على نهر ديالى، أحد روافد دجلة في مجراه نزولا من بغداد. فوجئ البريطانيون بكثافة المقاومة التركية على نهر ديالى، التي أوقفت طابور مود ثلاثة أيام كاملة تكبد خلالها الطرفان خسائر جسيمة. لكن موقع ديالي لم يكن أكثر من عملية إعاقة، فقد أدرك خليل أن بغداد لا يمكن الدفاع عنها أمام جيش مود المتفوق في العدد والعدة والقوة النارية.

في داخل بغداد، بذل المسؤولون المدنيون والعسكريون العثمانيون كل ما في وسعهم للحفاظ على الأمن أثناء التحضير لإخلاء المدينة. لكن طالب مشتاق، تلميذ المدرسة البغدادي الذي دردش مع أسرى الحرب البريطانيين القادمين من الكوت، لم يصدق أن الأتراك سيتخلون عن بغداد ويتركونها للاحتلال الأجنبي. عشية الإخلاء، استدعي مشتاق وأخوه إلى مكتب نائب الوالي، وهو صديق قديم للعائلة أراد إرسال الولدين تحت حراسة الشرطة للانضمام إلى أسرتهما في بلدة بعقوبة المجاورة حيث يعمل أبوهما في خدمة الإدارة المدنية. شرح نائب الوالي للولدين "وعلامات الألم والانفعال بادية على وجهه": " قد يدخل الجيش الإنكليزي بغداد غداً أو بعد غد. الجيش التركي يتراجع على جميع الجبهات، ونحن الآن نخلي المدينة". لم يصدق مشتاق، الفتى الوطني المتحمس، ما سمعه. سأل: "لكن كيف نخلي بغداد؟.. كيف نترك حوافر الإنكليز تدنس تراب هذا الوطن المقدس؟". في النهاية، أصر النائب على موقفة وأخذ الصبيين من مدرستهما وأرسلهما إلى أبويهما المذعورين في بعقوبة[19].

تحطم وهم الحياة الطبيعية في بغداد بعد منتصف ليل 11 مارس بفترة وجيزة، عندما بدأ العثمانيون وحلفاؤهم الألمان تدمير المنشآت العسكرية في المدينة. قطع المهندسون الألمان الأسلاك الفولاذية التي كانت تثبت عواميد الاتصالات اللاسلكية فهوت محطمة على الأرض. وهزت المدينة انفجارات عنيفة مع تفجير أبراج شركة سكك حديد بغداد ورافعاتها وخزانات مياهها بالديناميت. كما فجرت مكاتب الحكومة الرئيسة واحداً بعد الآخر، وأحرق الجسر العائم على نهر دجلة. راقب أوسكار هيزر، القنصل الأميركي في

بغداد، التدمير العثماني الممنهج للمدينة من سطح منزله، وكتب في سجله القنصلي أنه مع انسحاب الدولة العثمانية حلت الفوضى محلها، "وبدأت الطبقات الدنيا من الأكراد والعرب لفورها نهب الأسواق والبازارات"[20]



سقوط بغداد. جنود من جيش النقل الهندي يسيرون في الشارع الجديد أثناء دخول القوات البريطانية إلى بغداد يوم 11 مارس 1917.

بحلول الصباح، وصل السلب والنهب حداً دفع القنصل هيزر إلى الانطلاق على فرسه، برفقة تابع مسلح، بحثاً عن طلائع القوات البريطانية المتقدمة. في الساعة 9:30 قابل هيزر فصيلًا من حملة الرماح الهنود بقيادة رائد بريطاني، ورافقهم إلى مركز المدينة. كانت الشوارع مكتظة بالناس، كتب هيزر، "والعديد منهم كان قبل قليل فقط يسلب وينهب، بينما يتظاهر الآن بالطهر والبراءة ويهتف للقوات المتقدمة". تابع حملة الرماح سيرهم إلى الأسواق الرئيسة، حيث وجدوا الرجال والنساء والأطفال ينهبون آخر السلع المتبقية على رفوف المحال التجارية، بل سرق اللصوص حتى نوافذ العديد من البيوت وأبوابها وزخارفها

الخشبية. أخرج الرائد مسدسه وأطلق عدة رصاصات في الهواء، فتفرق اللصوص وبقي حملة الرماح وراءهم يضربونهم وهم يهربون بعيداً عن سادة بغداد الجدد.

انتظر الجنرال مود إلى حين تأمين المدينة قبل دخولها بموكب متواضع في وقت لاحق ذلك الأصيل. أُنزل العلم البريطاني الذي كان الجنود قد رفعوه بحماسة فوق العاصمة سابقاً، ليصار إلى رفعه مجدداً على برج الساعة فوق الثكنات التركية بعد دخول مود. بيد أن فاتح بغداد الجديد مُنع من الإدلاء بأي تصريح رسمي دون موافقة الحكومة. في لندن، أوكلت الحكومة البريطانية إلى السير مارك سايكس، مستشار اللورد كتشنر لشؤون الشرق الأوسط والصانع المشارك لاتفاقية سايكس-بيكو، مهمة صياغة بيان رسمي باسم الجنرال مود. وكما قال أرنولد ولسون في تعليق لاذع، "حملت الوثيقة في كل سطر منها بصمة استشراق [سايكس] الجياش بالحماسة والغلو"[21].

افتتح البيان بأسلوب بلاغي منمق، يطمئن سكان بغداد بأن "جيوشنا لم تدخل مدنكم وأراضيكم بمنزلة قاهرين أو أعداء بل بمنزلة محررين".

> فقد أخضع مواطنكم من أيام هولاكو لمظالم الغرباء فتخرّبت قصوركم وتجردت حدائقكم وأنّت أشخاصكم وأسلافكم من جور الاسترقاق. لقد سيق أبناؤكم إلى حروب لم تنشدوها وجردكم القوم الظلمة من ثروتكم وبددوها في أصقاع شاسعة[22].

* * *

طبع بيان مود بالإنكليزية والعربية ووزع مجاناً في بغداد، لكنه فشل في إقناع العراقيين بأن البريطانيين لم يكونوا سوى آخر حلقة في سلسلة طويلة من الغزاة الغرباء الذين أخضعوا بلادهم للطغيان. فكما ذكر طالب مشتاق، "أعلن الجنرال مود بعد دخوله بغداد أنه لم يأت غازياً بل منقذاً ومحرراً. يا لها من أكاذيب باطلة وخداع مشين. لقد رأى أهل بغداد والعراق بأم أعينهم كيف يعامل الإنكليز العراقيين كعبيد أو أسرى، فأين الحرية؟ وأين الإنقاذ؟"[23].

كانت تلك اعتبارات ثانوية بالنسبة إلى لجنة الحرب البريطانية. فبعد سلسلة إخفاقات كارثية على الجبهة العثمانية، حقق البريطانيون أخيراً نصرا مؤزراً. قد لا يكون لبغداد قيمة

استراتيجية كبيرة في المجهود الحربي البريطاني العام، لكن أي نصر كان موضع ترحيب، وبغداد بالذات، مدينة **ألف ليلة وليلة**، كانت جائزة عجيبة ومذهلة. أما بالنسبة إلى العثمانيين، فشكل سقوط بغداد انقلاباً خطراً؛ إذ لم تكن المدينة التاريخية عاصمة الخلافة العباسية (750-1258 م) فحسب، بل أيضاً المحطة النهائية المأمولة لخط سكة حديد برلين-بغداد، ومنصة انطلاق الطموحات العثمانية في الخليج العربي في فترة ما بعد الحرب. مع خسارة بغداد، إضافة إلى الخسائر أمام الروس في شرق الأناضول، بما فيها المدينة الحصينة أرضروم وميناء البحر الأسود طرابزون، فضلًا عن سقوط مكة وجدة بيد الهاشميين في الحجاز، والنكسات الأخيرة في سيناء، كان العثمانيون يتعرضون مجدداً لضغوطات تدفعهم إلى التراجع على جميع حدودهم وجبهاتهم.

* * *

شجع الانتصار في بغداد وزارة الحرب البريطانية على إعادة تقييم استراتيجيتها في مصر. فمنذ احتلال رفح، المدينة الحدودية في صحراء سيناء، في يناير 1917، بقيت قوة الحملة المصرية خاضعة لأوامر حازمة تقضي بتأجيل أي عمليات جديدة حتى الخريف. لكن مخططي الحرب الحلفاء كانوا يعيدون تقييم مقاربتهم للحرب برمتها. في 26 فبراير 1917، اجتمع الجنرالات البريطانيون والفرنسيون في ميناء كاليه على القنال الإنكليزي لمراجعة الاستراتيجية العالمية للحرب. وفي محاولة لاستعادة زمام المبادرة، قرر الحلفاء العمل ضد القوى المركزية على جبهات عدة -في الجبهة الغربية ومقدونيا وبلاد الرافدين - في الآن ذاته، ضمن هجوم منسق في الربيع. ومع احتلال الجنرال مود بغداد في 11 مارس، كان الوقت قد حان لتؤدي قوة الحملة المصرية دورها.

تشجع الحلفاء إلى حد أبعد بانضمام الولايات المتحدة إلى صفوفهم وإعلانها الحرب على ألمانيا يوم 2 ابريل 1917. اقتضى التغلب على الانعزالية الأميركية جهداً كبيراً، فودرو ولسون خاض بنجاح حملة إعادة انتخابه تحت شعار "أبقانا خارج الحرب". لكن مزيجاً من الهجمات المفتوحة التي شنتها الغواصات الألمانية (قوارب يو) على حركة الملاحة والشحن عبر الأطلسي (خصوصا إغراق سفينة الركاب *(SS Lusitania)* غرب شواطئ إيرلندا في

7 مايو 1915، ما أدى إلى موت 128 أميركياً من بين 1.201 مسافراً قضوا)، والكشف عن مقدمات ألمانية لعقد تحالف مع المكسيك في حال دخول الولايات المتحدة الحرب، كان كافياً لضمان تبني أميركا قضية الحلفاء. ومع أن أميركا في عام 1917 لم تكن قوة عسكرية بأي معيار -كان عديد الجيش الأميركي زمن السلم أقل من 100 ألف جندي- فإن قاعدتها الصناعية الضخمة وعدد سكانها الكبير وعدا بإنعاش حظوظ الحلفاء على الجبهة الغربية، وشجعا مخططي الحرب البريطانيين على القيام بأعمال عسكرية جديدة في الشرق الأوسط[24].

كانت قوة الحملة المصرية على أهبة الاستعداد. فقد استمر العمل ببناء خط السكة الحديد على قدم وساق في الأشهر الأولى من عام 1917، ووصل إلى خان يونس على بعد 15 ميلًا جنوب غزة في الأسبوع الثالث من شهر مارس. ولم يتخلف أنبوب المياه كثيراً عنه. تم تجميع مخزون كبير من الذخائر والمؤن قرب الجبهة، ما أتاح للضباط البريطانيين التحضير للهجوم قبل نهاية مارس. وبوجود 11.000 من الفرسان، 12.000 من المشاة، مع فرقة احتياط كاملة قوامها 8.000 جندي، تمتع البريطانيون بتفوق عددي على المدافعين. إذ لم يتجاوز عدد جنود الحامية العثمانية في غزة 4.000 آلاف رجل، مع أن حوالي 15.000 جندي تركي آخرين من جنود الخطوط الأولى وضعوا في المؤخرة على بعد بضعة أميال من غزة.

وضع الجنرال موراي وضباطه خطة حرب تقليدية على غرار معاركهم السابقة في سيناء. أمرت الفرقة الأسترالية-النيوزيلندية المحمولة (الفرسان) بتطويق غزة من الشمال والشرق والجنوب الشرقي، لقطع خط التراجع التركي ومنع وصول التعزيزات. اتخذ المشاة مواقعهم لشن هجوم مباشر من الجنوب، ومثل معارك سيناء الأخرى، سوف يكون الهجوم على غزة سباقاً مع الزمن. فإذا لم يتم الاستيلاء على المدينة قبل غروب الشمس، سوف تضطر القوات البريطانية العطشى للتراجع أميالاً إلى رأس الخط الحديدي لتجديد إمداداتها من المياه.

انطلق الفرسان لتطويق غزة في الساعات المبكرة من صبيحة يوم 26 مارس، وبحلول الساعة 10:30 أحاط جنود العدو بالبلدة. لكن المشاة تأخروا بسبب الضباب الكثيف،

ولم يصدر أمر الهجوم حتى الظهر. تأخر تقدم المشاة أيضاً بسبب إطلاق نار كثيف من القناصة والمدافع الرشاشة في الخطوط التركية، وبسبب تضاريس الأرض الصعبة والمليئة بسياجات كثيفة من الصبار. فتحت المدفعية البريطانية نيرانها فدمرت المدينة الشاطئية التي يبلغ عدد سكانها 40 ألف نسمة. وركز العثمانيون على هجوم المشاة من الجنوب، لكن وحدات الفرسان الأستراليين-النيوزيلنديين أطبقت على غزة من الشمال والشرق. بحلول الساعة 6:30 مساء، انهارت الدفاعات العثمانية وكانت قواتها على وشك الاستسلام. لحسن حظ الأتراك، لم يعرف القادة البريطانيون مدى قربهم من النصر، بسبب انقطاع الاتصالات بينهم.

أمر البريطانيون بانسحاب عام في وقت متأخر من الأصيل، بعد تعرضهم لخسائر كبيرة في عدد من المعارك الضارية حول غزة. خافوا أن تحاصرهم التعزيزات العثمانية المتقدمة إلى غزة. وقدّروا أنه لن يتاح لرجالهم الوقت الكافي لتحقيق أهدافهم قبل حلول الظلام، نتيجة التأخير غير المتوقع في بدء المعركة. ومن دون الوصول إلى إمدادات جديدة من المياه والذخائر، لن يكون الجنود ولا المطايا في وضع يسمح بمتابعة القتال يوماً آخر. فضّل الجنرالات البريطانيون في ذلك اليوم الحفاظ على جنودهم والتضحية بمكاسب غنموها بشق الأنفس، بدل المغامرة بالهزيمة.

كان الجنود على طرفي المعركة مذهولين بالقدر نفسه من انسحاب القوات البريطانية فجأة وتخليها عن هجومها على غزة. وترك الانسحاب البريطانيين عرضة الهجمات العثمانية المعاكسة، وضاعفت الخسائر الكبيرة التي تكبدها البريطانيون أثناء الانسحاب من غضب الجنود على ترك أراض غنموها بعد قتال مرير. لم يكن الانسحاب البريطاني بالنسبة إلى العثمانيين بأقل من معجزة، وسارع قادتهم إلى اغتنام الفرصة واستعادة الميزة الاستراتيجية بالاستيلاء على المرتفعات. وبنهاية معركة 27 مارس، فاقت خسائر البريطانيين من القتلى والجرحى خسائر العثمانيين[25].

لاح شبح غاليبولي فوق غزة. "ماذا تقول إذن"، سأل صحافي تركي أحد الجنود الجرحى الأتراك بعد انتهاء المعركة، "أتظنهم يعودون؟" "لا يا أفندي"، أجاب الجندي التركي بجدية، "لا يستطيعون العودة، فقد عرفوا من أي كتيبة نحن". عنى الجندي التركي أن البريطانيين عرفوا كتيبته التي سبق أن هزمتهم في غاليبولي، وأنهم لن يعودوا للمزيد من الهزائم[26].



راية الفرقة القتالية التي قدمت إلى القوات العثمانية الظافرة بعد معركة غزة الأولى، مارس 1917.

في تقاريره إلى لندن، قلل الجنرال موراي من الأخبار السيئة، وضخم مكاسبه في تلك المحاولة الأولى لاحتلال غزة. ادعى أنه تقدم 15 ميلاً، وأن قواته "أنزلت خسائر فادحة جداً" راوحت "بين 6.000 و 7.000 جندي"، بينما كانت خسائر العثمانيين في الواقع أقل من 2.500 إصابة. نشرت الصحف البريطانية المتشوقة إلى سماع أخبار سارة أرقام موراي دون مساءلة وتمحيص. لكن الجنود في الميدان عرفوا الحقيقة على نحو أفضل. التقط بريسكو مور، اللفتنانت (الملازم) في كتيبة فرسان أوكلاند، رسالة ألقتها طائرة معادية بعد المعركة بوقت قصير ووضعت الأمور في نصابها: "تهزموننا في البلاغات الرسمية ونهزمكم في غزة [على أرض الواقع]"[27].

في نهاية المطاف اكتشفت وزارة الحرب البريطانية خداع موراي. فقد أعلمه رئيس هيئة الأركان الامبراطورية العامة، الجنرال روبرتسون، أنه سيعدل أوامره لقوة الحملة المصرية في ضوء احتلال الجنرال مود بغداد مؤخراً، و"نجاح" موري نفسه في غزة. كان الهدف المباشر لقوات موراي هزيمة القوات العثمانية جنوب القدس بحيث تقود إلى احتلال المدينة المقدسة. وأكد روبرتسون في برقيته إلى موراي يوم 2 أبريل 1917، الأهمية الرمزية لاحتلال القدس بالنسبة إلى الرأي العام البريطاني الذي ضاق ذرعاً بالحرب. لذلك "تشعر وزارة الحرب بالقلق، وتدعوك إلى الدفع بعملياتك بكل طاقة وحيوية". بالمقابل، وعد روبرتسون بتزويد موراي بكل العتاد الحربي الذي يحتاج إليه للنجاح.

بالنظر إلى لهجته الحذرة، والتحفظات العديدة التي أبداها في مراسلاته مع لندن، لم يكن لدى موراي ثقة كبيرة بقدرته على هزيمة العثمانيين في فلسطين واحتلال القدس. اعتمدت استراتيجيته كلها على التقدم التدريجي في الفيافي القاحلة جنوب فلسطين بالتزامن مع تقدم العمل في خط السكة الحديد والأنبوب المائي. وحتى لو تجاوز غزة -وهي مهمة أصبحت أكثر صعوبة بوصول التعزيزات العثمانية بعد معركة غزة الأولى- فقد انتابته مخاوف جدية حول التوسع السريع في خطوط إمداداته، وحول إمكانية الوصول إلى المياه وتوفيرها لعشرات آلاف الجنود والحيوانات. لكن أوامره كانت واضحة تماماً، وبدأ موراي التحضير لمحاولة ثانية على الخطوط العثمانية في غزة.

عرف العثمانيون الآن أين تتجمع القوات البريطانية استعداداً للهجوم، وبذلوا كل ما في وسعهم لقطع طريقها من غزة إلى بئر السبع. وكما ذكر جمال باشا، "قررتُ التشبث بتلك الجبهة ومنع الإنكليز من الاختراق بأي ثمن، عبر تركيز القوات التركية كلها هناك". في الأسابيع الثلاثة التي أعقبت المحاولة الأولى للاستيلاء على غزة، وزع جمال باشا تعزيزاته على طول الخط بين غزة وبئر السبع، حيث بنى الجنود سلسلة من

الدفاعات الأرضية والخنادق التي وضعت جميع الطرق إلى غزة في مرمى نيران الرشاشات والمدفعية التركية[28].

علّمت التجربة القادة البريطانيين أن الحظ في حرب الخنادق يحالف المدافعين. ولتحسين فرص جنوده في اختراق خطوط الدفاعات التركية، استخدم موراي بعضاً من أكثر الأسلحة فظاعة في الترسانة البريطانية. فقد ركم 4.000 قذيفة مدفعية مزودة برؤوس غازات سامة، وخصصها للقصف التمهيدي على المواقع العثمانية. ومع أن كلا الطرفين استخدما الغازات السامة بكثافة على الجبهة الغربية منذ معركة إيبر الثانية في أبريل 1915، فإنها لم تستخدم أبداً ضد العثمانيين. زود الجنود البريطانيون بأقنعة ضد الغازات قبل الهجوم؛ في حين لم يكن لدى الجنود العثمانيين بالطبع أي أقنعة واقية. كذلك نقل البريطانيون سراً ثماني دبابات إلى سيناء لمساعدة المشاة في تقدمهم على الخطوط التركية الحصينة. "سمعنا الكثير عن ماكينات الحرب الوحشية هذه"، كما دوّن جندي أسترالي تابع لفيلق الهجانة في مذكراته. "وكنا جد سعداء لوصولها، معتقدين أنها ما إن تدخل نطاق العمليات حتى تشيع الرعب في صفوف العدو"[29].

بدأت معركة غزة الثانية بقصف مدفعي عنيف يوم 17 أبريل 1917. تركزت قذائف الغاز السام على قطاع واحد من الخنادق، لكن ثبت عدم فعاليتها. وأمطرت السفن الحربية البريطانية، من مواقعها على مقربة من الشاطئ، مدينة غزة بوابل من النار والفولاذ، دون أن تستطيع زحزحة المدافعين. وعندما تقدم الجنود البريطانيون أخيراً باتجاه المواقع التركية، واجهوا نيران رشاشات ومدفعية لا ترحم.

نزل فرانك ريد، الجندي الأسترالي في فيلق الهجانة الامبراطوري من فوق السنام ليدخل المعركة "تحت وابل كثيف من نيران البنادق والمدافع الرشاشة". شاهد رفاقه يسقطون حوله بينما تنفجر قذائف المدفعية فوقه. ثم سمع فجأة بعض الرجال إلى شماله يهللون ويهتفون ورأى واحدة من ثماني دبابات بريطانية تتقدم نحو الخنادق التركية. توقع بكل ثقة أن "يستسلم الترك حالما تصل إلى الخنادق الأمامية". لكن

الجنود العثمانيين سددوا على الدبابة جميع ما لديهم من أسلحة. "صدمت قذاف ضخمة الصفائح الحديدية للدبابة وتناثرت شظاياها المرتدة في كل مكان. لكن الدبابة تابعت التقدم".

وصل الهجانة، المندفعون خلف الدبابة، إلى الخط الأول من الخنادق العثمانية، حيث واجهوا حفنة من الجنود العثمانيين الذين منعتهم جراحهم الخطرة من التراجع. تذكر ريد اللقاءات وجهاً لوجه بين الأستراليين والعثمانيين باعتبارها لحظة صراع بين غرائز متناقضة. أتى اثنان من الهجانة إلى جريح تركي، رقد عاقداً ذراعيه حول صدره.

صاح الأول: "اطعن هذا الكريه بالحربة".

رد الثاني: "لا، امنح المسكين فرصة".

شاهد ريد جندياً آخر من الهجانة يختطف البندقية من تركي جريح ويفكر. لكن بدلاً من أن يقتل الرجل النازف، انحنى وقدم له جرعة ماء. "يا للمسكين التعس! يريد أن يعيش مثلنا".



فيلق الهجانة الامبراطوري في سيناء. تعبر صورة هؤلاء الجنود الذين أتوا من أستراليا وإنكلترا ونيوزيلندا والهند عن طبيعته «الامبراطورية».

ثم أخرج علبة الإسعافات الأولية ليعالج الجرح في رأس الجندي. لكن تأثير السلوك الرحيم تراجع قليلاً حين أتى ضابط تركي جريح متعثراً ليشكر الأسترالي.

قال التركي بإنكليزية رديئة: "طيب"، وربت على كتفه.

صاح الأسترالي: "اللعنة عليك. اذهب وادفن نفسك. أنا مشغول".

تابع ريد الدبابة وهي تتقدم. بدا أن طاقمها قد أصيب بالتشوش وأخذ يقودها بشكل مضطرب. وبعد أن أصيبت بعدد من قذائف العدو، انفجرت وسط كتلة من اللهب. وجد الهجانة الأستراليون والمشاة الإنكليز الذين تبعوا الدبابة، أنفسهم مكشوفين ومعرضين لقصف عنيف ومركز من الخنادق التركية، فسقط منهم قتلى وجرحى في كل مكان. إلا أنهم تمكنوا من اجتياح المعاقل التركية قبل أن يحاصرهم فيها الترك الذين شنوا هجوماً معاكساً. واضطر الهجانة، إلى جانب المشاة الإنكليز، وفوج الفرسان الأستراليين الخفيف، إلى التراجع كلهم[30].



من الدبابات البريطانية المدمرة في معركة غزة الثانية. لم يستخدم البريطانيون الدبابات في حملات الشرق الأوسط إلا مرة واحدة، وثبت أنها قليلة القيمة والأهمية في معركة غزة الثانية الكارثية. تمكن رماة المدافع العثمانيون من تدمير ثلاث من الدبابات الثماني التي هاجمتهم.



* * *

تمكن العثمانيون، طوال أيام المعركة الثلاثة، من الصمود في مواقعهم وإجبار البريطانيين على التقهقر بعد تكبيدهم خسائر جسيمة. "فشلت الأسلحة البريطانية السرية" كلها في ترهيب الترك، الذين لم يلاحظوا استخدام الغازات ضدهم ونجحوا في تدمير ثلاث من الدبابات البريطانية الثماني. كتب الصحافي التركي فالح رفقي بأسلوب الشعر الغنائي عن جثث "الدبابات القتالية الميتة" التي انتشرت في ميدان المعركة الغزاوية بـ"بكتلتها الهائلة المعوجة والخاوية". وحين أجرى الجنرالات البريطانيون جردًا لخسائرهم، أجبروا على فض الاشتباك وقبلوا صاغرين الهزيمة الثانية لكن الأشد هولاً من الأولى. إذ بلغت خسائرهم بحلول ليل 19 أبريل 6.444 إصابة -متجاوزة الخسائر العثمانية البالغة 2.013 قتيلاً وجريحاً ومفقوداً بثلاثة أضعاف[31].

تعرقلت حملة فلسطين وتوقفت مؤقتاً. كلف الفشل الذريع في غزة الجنرال موراي وظيفته. وحل محله في يوليو 1917 الجنرال إدموند اللنبي، الذي كلفه رئيس الوزراء ديفيد لويد جورج بالمهمة المستحيلة على ما بدا آنذاك: احتلال القدس بحلول عيد الميلاد. كان جمال باشا في موقع أقوى بكثير. فقد سيطرت قواته على الأراضي الفلسطينية التي تتوافر فيها المياه وحصرت البريطانيين في صحراء سيناء القاحلة. فضلاً عن ذلك، منع العثمانيون البريطانيين من الاتصال بقوات الثورة العربية. وطالما بقيت قوات الحملة المصرية والجيش العربي منفصلة، امتلك العثمانيون فرصة أفضل للحفاظ على مواقعهم في سورية وفلسطين.

بينما أوقف العثمانيون تقدم الحملة المصرية، واجهوا تهديدات متجددة من الجيش العربي في الحجاز. فمع محاصرة الحامية في المدينة (المنورة)، انطلق الهاشميون دون قيود لتوسيع سيطرتهم على باقي مناطق الحجاز والتقدم شمالًا نحو سوريا. تركزت أنظار فيصل ابن الشريف حسين، باعتباره قائداً للجيش العربي، على ميناء الوجه على البحر الأحمر. وافقه الرأي تماماً مستشاروه البريطانيون. يقل طول خط الإمداد من السويس إلى الوجه 200 ميل عن طوله إلى ينبع، ويستطيع الجيش العربي في الوجه احتلال موقع ملائم لمهاجمة امتداد الخط الحديدي الحجازي (250 ميلاً تقريباً). وسوف يقطع تدمير الخط الإمدادات والاتصالات عن القوات العثمانية المحاصرة في المدينة ويسرع استسلامها.

مثل الزحف إلى الوجه برأي فيصل فرصة لتجنيد المحاربين. فقد احتاج إلى إسهام قبلي أوسع في الثورة للحيلولة دون انهيارها. وعبر الانطلاق شمالاً على رأس جيش قوامه 11.000 رجل، عرف أنه سيترك انطباعاً عظيماً في بدو المنطقة ويجتذب ولاء قبائل جديدة. كما أمل بالتغلب على الجنود الأتراك الثمانمئة المدافعين عن الوجه بمجرد الكتلة الكبيرة من جيشه وتأمين استسلامهم دون قتال.

نسقت البحرية الملكية بشكل دقيق مع الجيش العربي. ومن أجل ضمان توفير ما يكفي من الماء للقوة البدوية، نقلت السفينة (HMS *Hardinge*) عشرين طناً من المياه في خزانات إلى مواقع متفق عليها جنوب الوجه. حملت السفن أيضاً طليعة متقدمة من الجنود قوامها

400 من رجال القبائل نزلوا شمال البلدة. ومع وصول قوات فيصل من الجنوب، أمكن لهذه الطليعة منع أي جهد عثماني لتعزيز الدفاع عن الوجه أو التراجع منها. اتفق فيصل مع البريطانيين على الالتقاء في الوجه فجر 23 يناير 1917.

رافقت القوة البدوية الصغيرة وحدة مؤلفة من مئتين من مشاة البحرية والبحارة البريطانيين من السفينة (*Hardinge*) ونزل الكل على البر في الموعد المحدد تماماً. لم يجدوا أثراً لجيش فيصل. لكن نحو مئة من البدو لم تردعهم قلة العدد واقتربوا من البلدة للاشتباك مع المدافعين الترك. ونظراً إلى أن أغلبية الحامية قد انسحبت إلى حصن قديم على بعد نحو ستة أميال إلى الداخل، سرعان ما اخترق المهاجمون الخطوط التركية ونهبوا البلدة قبل وصول بقية الجيش العربي. التجأ آخر المدافعين إلى مسجد الوجه، حيث صمدوا إلى أن أصيب المبنى بقذائف المدافع البحرية. ثم قصفت السفن البريطانية الحصن، ما دفع الجنود العثمانيين إلى التقهقر. وبحلول الوقت الذي وصل فيه فيصل في 25 يناير، بعد يومين من بدء الأعمال القتالية، ضمن العرب السيطرة التامة على الوجه. غل استعراض القوة ثماره، حيث عرض زعماء القبائل من شتى أرجاء الحجاز على فيصل ولاءهم وتأييدهم للقضية الهاشمية[32].

ما إن استقر الوضع في الوجه حتى ذهب فيصل ومستشاروه البريطانيون إلى العمل على عرقلة الإمدادات العثمانية بواسطة الخط الحديدي الحجازي. في 20 فبراير، نجحت أولى الوحدات المهاجمة في تفجير شحنة ناسفة تحت قطار عثماني، ما دمر القاطرة. أثر الهجوم تأثيراً فورياً في الروح المعنوية للعثمانيين في دمشق والمدينة كلتيهما. أرسل جمال باشا أوامر إلى القائد العثماني في المدينة فخري باشا بإخلائها. بينما أصدر البريطانيون الذين اعترضوا أوامر جمال تعليماتهم إلى ضباطهم في الحجاز بمضاعفة هجماتهم على السكة لمنع العثمانيين من الانسحاب. لم تشكل حامية فخري باشا في المدينة أي تهديد للقوات العربية أو البريطانية طالما بقيت محاصرة في المدينة. ونظراً إلى أن الحملة المصرية بقيادة الجنرال موراي كانت تستعد لشن هجومها الأول على غزة، سعى

البريطانيون إلى منع جمال باشا من استخدام حامية المدينة لتعزيز مواقعه في فلسطين مهما بلغت التكاليف.

ظل المهندسون العسكريون البريطانيون وأدلائهم العرب، على امتداد شهر مارس، يزرعون الألغام في النقاط الاستراتيجية على طول الخط الحديدي الحجازي. وفي نهاية الشهر، جرب حتى تي. إي. لورنس، ضابط الارتباط بين القادة البريطانيين في القاهرة وفيصل، حظه في تفجير محطة معزولة. فقد تمكن مع أفراد فريقه، بعد أن تسلحوا بمدفع جبلي وبنادق رشاشة ومتفجرات، من عرقلة حركة المرور على الخط الحديدي مدة ثلاثة أيام جراء الأضرار التي أحدثوها به. أدت الهجمات على السكة، إضافة إلى عزم فخري باشا العنيد على الدفاع عن البلدة المقدسة، إلى منع إجلاء الحامية منها. لكنها فشلت في اعتراض المواصلات والمؤن والإمدادات على الخط الحديدي الواصل بين دمشق والمدينة. فقد ثبت أن العثمانيين على قدر مشهود من سعة الحيلة، واكتشاف الألغام قبل انفجارها، وإصلاح الأضرار الناجمة عن التفجيرات الناجحة بكفاءة عالية. بدا واضحاً أن الحرب في الحجاز لن تكسب على السكة الحديدية وحدها[33].

بينما حسن الضباط البريطانيون مهاراتهم التقنية المستخدمة في تفجير السكة الحديدية، شرع فيصل في تشكيل جيش نظامي لفرض الانضباط على القوات العربية. جند جعفر العسكري، الضابط العثماني الذي أسره البريطانيون في مصر أثناء الحملة السنوسية "لإنشاء جيش نظامي قادر على تنفيذ واجباته العسكرية بطريقة صحيحة"، حسب تعبير فيصل. التقى العسكري مجدداً مع عدد من زملائه العراقيين، وكثير منهم أعضاء في جمعية العهد السرية العروبية التي فضلها العسكريون. وأصبحوا لاحقاً من أخلص أتباع فيصل، وأكثرهم التزاماً إيديولوجياً بقضية استقلال العرب[34].

بدأت الأسلحة والمؤن والإمدادات تتدفق على مقر القيادة الهاشمية المتنامية في الوجه. وصلت شحنة تضم 30.000 بندقية و 15 مليون طلقة ذخيرة إلى الميناء على البحر الأحمر. بينما نزلت من السفن عربات مدرعة من صنع "رولز-رويس" وبدأت دورياتها في الأراضي

الصحراوية المنبسطة، ما وفر قوة نارية متحركة. كما شيد فيلق الطيران الملكي سلسلة من المدارج التي تتيح لطائراته قصف الخط الحديدي الحجازي. أرسل البريطانيون كميات ضخمة من الذهب والحبوب لدفع رواتب الأعداد المتزايدة من أفراد الجيش العربي وإطعامهم. ومع هذه التعزيزات، بدأ فيصل التفكير في مد خطوطه فيما وراء الحجاز، إلى المناطق الجنوبية من سوريا.

أرسل فيصل، من أجل تجهيز الأرضية الملائمة لتحرك جريء باتجاه الشمال، ثلاثة من أقرب مساعديه الموثوقين في رحلة استطلاعية: الشريف ناصر بن علي، أحد أعيان المدينة والرجل المقرب من فيصل؛ وعودة أبو تايه، شيخ قبيلة الحويطات القوية؛ ونسيب البكري، الذي عرفت عائلته الأمير على الحركة الوطنية في دمشق. غادر الثلاثة يوم 19 مايو إلى وادي السرحان، الذي ظل على مدى القرون الطريق الرئيس للقوافل بين وسط الجزيرة العربية والصحراء السورية. كلف كل واحد بمهمة متميزة. أرسل الشريف ناصر باعتباره ممثلاً شخصياً لفيصل لكسب ولاء القبائل السورية. وكان على عودة الاتصال مع زملائه من شيوخ الحويطات لتأمين الجمال والخراف لنقل/ وإطعام الجيش العربي في عملياته اللاحقة جنوب سوريا. وعلى بكري الاتصال بالوطنيين والعروبيين في دمشق وحولها للحصول على تأييدهم ودعمهم لانتفاضة عامة[35].

طلب لورنس مرافقة البعثة الصغيرة. فقد التقى قبل ثلاثة أيام من انطلاقها بالسير مارك سايكس، الذي سافر إلى الحجاز لعرض موجز لبنود اتفاقية سايكس-بيكو على الهاشميين. ولو انتهز سايكس الفرصة، وهذا هو الاحتمال المرجح، لعرضها على لورنس أيضاً، لأصيب الضابط الإنكليزي المثالي بصدمة مذهلة جراء خداع البريطانيين وغشهم وغدرهم. أوضح لورنس في أفعاله وكتاباته دون لبس أنه مصمم على مساعدة العرب في تأمين السيطرة على سوريا قبل الفرنسيين. ومنحته بعثة الشريف ناصر الفرصة للتصرف وفق قناعاته[36].

وصلت البعثة، بعد رحلة مضنية عبر الصحراء، إلى وادي السرحان. ثم انطلق أعضاء المجموعة عقب قضاء ثلاثة أيام مع الحويطات، في مهماتهم المختلفة. ذهب نسيب

البكري إلى دمشق للعمل مع الوطنيين العروبيين هناك. واستطلع لورنس تضاريس المنطقة المحيطة بدمشق لحشد الدعم للثورة، وتمكن من تفجير جسر للسكة الحديدية بين بيروت ودمشق إضافة إلى ذلك. بينما جند الشريف ناصر وعودة أبو تايه رجال القبائل لصالح قضيتهما. في 18 يونيو، عاود ناصر وعودة وأبو تايه الاجتماع في مدخل وادي السرحان (اختار نسيب البقاء في دمشق). وعبر الجهد المشترك لعودة وناصر، انضم نحو 560 من رجال الحويطات إلى القوات العربية. لم تكن أعدادهم كافية لشن هجوم على حامية عثمانية رئيسة، مثل محطة السكة الحديدية في معان (في الأردن حالياً). بدلاً من ذلك، تقدم الطابور الصغير مع نهاية يونيو باتجاه ميناء العقبة على البحر الأحمر.

يربض ميناء العقبة على رأس خليج العقبة، الشعبة الشرقية من البحر الأحمر التي تفصل سيناء عن الحجاز. حظي الميناء المعزول بقيمة استراتيجية هائلة. وسوف تمنح السيطرة عليه القوات البريطانية في مصر وسيناء خطوط اتصالات مباشرة مع الجيش العربي. وتضع الحجاز كله، باستثناء المدينة، في أيدي الهاشميين. كما يمكن جيشهم من التحكم بالمدخل الجنوبي إلى الأراضي السورية. ومنذ الأيام الافتتاحية من الحرب، حين قصف البريطانيون العقبة دون رد، شيد العثمانيون دفاعات بحرية قوية لحماية الميناء الصغير. لكن لم يتوقعوا قط هجوماً من جهة البر. سعى طابور الهجانة بقيادة الشريف ناصر إلى استغلال نقطة الضعف هذه.

عبر المقاتلون البدو الستمئة، بعد تجاوز حامية معان، الخط الحديدي الحجازي من منطقة أبعد باتجاه الجنوب عند محطة غدير الحج، التي نهبوها. ألحق لورنس أقصى ما يستطيع من أضرار بالسكة الحديدية لإبطاء حركة التعزيزات العثمانية الآتية من معان. زعم أنه "دمر عشرة جسور وكثيراً من السكك" قبل نفاد المتفجرات[37].

في الثاني من يوليو، طوق طابور الشريف ناصر كتيبة عثمانية أرسلت لحراسة الطرق المؤدية إلى العقبة عند نقطة تسمى أبو اللسان. وبعد تعرض الجنود العثمانيين للقنص طوال

ساعات، قاد عودة رجاله البدو في هجوم مباشر متهور. جمد الذعر الجنود العثمانيين حين شاهدوا الخيالة تهرول باتجاههم، وهربوا لا يلوون على شيء. وفقاً لرواية لورنس، خلف المهاجمون 300 جندي تركي بين قتيل ومحتضر، إضافة إلى أسر 160 من الناجين. ولم يقتل سوى اثنين من البدو. شجع نجاح الجيش العربي ضد العثمانيين مزيداً من رجال القبائل على الانضمام إلى الحركة الهاشمية، وكبر الطابور الصغير.

جند الجيش العربي أسيراً تركياً لكتابة رسائل إلى قادة ثلاثة مواقع عسكرية معزولة بين أبو اللسان والعقبة. وعدت الرسائل من يستسلم بمعاملة حسنة وعدم الرأفة بمن يقاوم. استسلم الأول دون قتال. وقاوم الثاني لكن سقط بأيدي العرب دون أن يخسروا جندياً واحداً. وفاوضت الوحدة التركية الثالثة، ثم قاومت قبل أن تستسلم في نهاية المطاف حين وجدت نفسها محاصرة وتتعرض للنيران من الجهات كلها. تحطم الحاجز الأخير، واندفع جيش الشريف ناصر الصغير "وسط عاصفة رملية عاتية إلى العقبة، على بعد أربعة أميال، وخاض في مياه البحر في السادس من يوليو، بعد شهرين فقط من انطلاقنا من الوجه" كما كتب لورنس مبتهجاً[38].



دخول القوات العربية إلى العقبة، 6 يوليو 1917. التقط تي. إي. لورنس هذه الصورة المعبرة يوم استولت قوات الأشراف على العقبة، لتحول الانتفاضة الهاشمية إلى ثورة عربية.

تمثّل الانتصار في العقبة أعظم إنجاز للثورة العربية حتى تاريخه. كتب الشريف ناصر تقريراً إلى فيصل في اليوم ذاته ينسب فيه الفضل إلى العمل الشجاع لرجال القبائل. بينما انطلق لورنس، الذي أدرك أهمية النصر للمخططين الحربيين البريطانيين، إلى القاهرة عبر سيناء، برفقة ثمانية من المتطوعين. وجد متعة هائلة في الصدمة التي سببها داخل مقر القيادة البريطانية في القاهرة يوم 10 يوليو، حيث دخل باللباس البدوي مع الكوفية والعقال فظن الجميع أنه عربي رث، لكنه تكلم بلكنة أكسفوردية مثالية. في تلك اللحظة، تحول الكابتن لورنس إلى لورنس العرب الشهير. وبغض النظر عن العبوس الذي ارتسم على وجوه كبار القادة حين شاهدوا منظره، فإن أخبار النصر العربي في العقبة جعلته بطلاً بين عشية وضحاها. أرسل السير ريجينالد وينغيت، المندوب السامي في القاهرة، برقية إلى رئيس هيئة الأركان العامة الامبراطورية، السير وليام روبرتسون، في الليلة ذاتها. وأوحت مزاعمه بأن لورنس أو وينغيت نفسه ضخم المكاسب العربية: "وصل الكابتن لورنس إلى القاهرة اليوم من العقبة عن طريق البر. لقد سقطت المواقع التركية بين الطفيلة ومعان والعقبة بأيدي العرب"[39].

فيما يتعلق بالقائد الجديد للحملة المصرية، الجنرال إدموند اللنبي، حظي الانتصار العربي في العقبة بإمكانية تغيير الموقف البريطاني في سيناء. دعا لورنس يوم 12 يوليو ليوجز له آخر التطورات. وبعد رواية حوادث احتلال العقبة، شرح لورنس، الذي بقي بلباسه البدوي، أفكاره عن انتفاضة عربية عامة ضد القوات العثمانية من معان في الجنوب إلى حماة في الشمال، وقطع الاتصالات بالسكك الحديدية بين المدينة ودمشق وفلسطين. وفي سبيل دعم الجهد العربي، طلب لورنس من اللنبي غزو فلسطين وتثبيت قوات جمال باشا ومنعها من التحرك. لم يقدم اللنبي أي التزام. قال منهياً المقابلة: "حسناً، سوف أبذل من أجلك ما بوسعي"[40].

في الحقيقة فتن اللنبي بما يمكن للورنس والعرب فعله لقوة الحملة المصرية. كتب إلى لجنة الحرب في الأسبوع اللاحق طالباً المصادقة على دعوة لورنس للتعاون بين الجيش العربي وحملة فلسطين. وقدم الحجة على أن هجوماً على جبهتين يمكن أن يسبب "انهيار الحملة التركية في الحجاز وسوريا ويؤدي إلى نتائج بعيدة المدى، على الصعيدين السياسي

والعسكري معاً". وبالطبع سوف يحتاج إلى تعزيزات من أجل أداء دوره في الخطة. طلب أيضاً -وحصل على- فرقتين جديدتين للحملة المصرية. أخيراً، اقترح اللنبي لضمان سلاسة الاتصالات بين القوتين وضع فيصل وجيشه تحت إمرته. أرسل لورنس إلى الوجه وجدة لتأمين قبول فيصل والشريف حسين بوضع الثورة العربية تحت القيادة البريطانية[41].

بحلول أغسطس 1917 أصبح الجنرال اللنبي قائداً لحملة على جبهتين لهزيمة العثمانيين في سورية وفلسطين. حول انتباهه إلى جبهة فلسطين وأعد جيشه لمحاولة ثالثة لاقتحام غزة.

* * *

في أعقاب استسلام العقبة، حاول العثمانيون هزيمة الجيش العربي باستخدام طرائقه وأساليبه التكتيكية. خطبوا ود القبائل البارزة في شرق الأردن (كما سمى البريطانيون أقصى المناطق الجنوبية من سوريا العثمانية إلى الشرق من نهر الأردن)، وجندوا ميليشيات مسلحة من السكان المحليين لتعزيز وحداتهم النظامية المنتشرة على مساحات شاسعة. وعبر حشد عرب شرق الأردن ضد جيش فيصل، أمل العثمانيون بإجبار الهاشميين على القتال في أرض معادية[42].

حققت مساعي العثمانيين لتجنيد ميليشيات محلية نتائج مختلطة. في المناطق الشمالية من شرق الأردن، حيث جند الشباب كلهم في الجيش العثماني، لم يبق سوى الكهول للخدمة في قوة المتطوعين. صدم الضابط العثماني الذي أرسل إلى إربد لتفقد "المجاهدين" حين وجد فيلقاً من كبار السن "أوهن معظمهم العمر والدرجة". أمرت السلطات العسكرية بحل قوة المتطوعين في إربد على أن يدفع أعضاؤها بدل إعفاء من خدمة العلم[43].

في بلدة عمان (العاصمة الأردنية حالياً) استجابت الجالية الشركسية بحماسة للدعوة العثمانية إلى حمل السلاح. أتى الشركس إلى شرق الأردن في أواخر القرن التاسع عشر لاجئين هاربين من الاجتياح الروسي للقوقاز. وبوصفهم جالية من المهاجرين، أعفوا فعلياً من الخدمة العسكرية. لكنهم ظلوا موالين ولاء مطلقاً للعثمانيين. وفي نوفمبر 1916، قدم رئيس الجالية، ميرزا وصفي، التماساً إلى إسطنبول يناشدها السماح بتشكيل وحدة من

الفرسان المتطوعين "للتضحية بحياتهم دفاعاً عن الوطن". تجاوز عدد الخيالة الشركس المتطوعين 150 مقاتلاً وأدّوا دوراً فاعلاً في الدفاع عن الخط الحديدي الحجازي ومحاربة قوات الثورة العربية[44].

شكلت وحدة ثالثة من المتطوعين في بلدة الكرك الجنوبية، مقر نائب الوالي العثماني. كانت البلدة الرابضة على قمة تل، بقلعتها المشيدة في الحقبة الصليبية لتشرف على البحر الميت، مركزاً لثورة قبلية كبيرة عام 1910، قمعها العثمانيون بعنف شديد. كره أهالي الكرك العثمانيين، لكنهم خافوا منهم بالتأكيد وأظهروا ولاء غير محدود طوال الحرب العالمية الأولى. وبعد اندلاع الثورة العربية، ذهب جمال باشا شخصياً إلى الكرك لتذكير أهالي لبلدة "بأن من واجب كل مواطن عثماني حماية الدولة"، وطلب منهم تشكيل ميليشيا للدفاع عن أراضيهم. تطوع مختلف أفراد القبائل والعشائر، مسلمين ومسيحيين، في الميليشيا بقيادة عقيد عثماني[45].

عمل العثمانيون أيضاً على رعاية ولاء القبائل البدوية على طول حدود شرق الأردن. دعا جمال باشا كبار شيوخها لزيارة دمشق بالقطار على نفقة الحكومة، حيث استضافهم في الفنادق وأسرف في تكريمهم وحسن وفادتهم. امتدحهم على ما "أظهروه من صداقة وخدمة للحكومة"، وغمرهم بالأوسمة والألقاب التشريفية. وبهذه الطريقة، خطب ود قبائل الرولة، وبلي، وبني عطية، والحويطات، وحقق بعض النجاح. وبينما قرر بعض من أهم الزعماء القبليين، من أمثال عودة أبو تايه (الذين منح وساماً عثمانياً من الدرجة الرابعة)، الانضمام إلى الهاشميين وربط مصيرهم بهم، بقي غيرهم موالين لقضية العثمانيين. في الحقيقة، يجب عدم التقليل من قدرات العثمانيين في المنافسة على ولاء البدو. فقد تردد حتى عودة في منح ولائه لخصومهم. وواجه لورنس محارب الحويطات بدليل يثبت مراسلاته مع جمال باشا عارضاً عليه الانتقال من طرف إلى آخر[46].

اختبر العثمانيون ولاء العرب بعد سقوط العقبة مباشرة في يوليو 1917. إذ أمر جمال باشا، الذي خشي من أن يؤدي الانتصار الصادم الذي حققه الهاشميون إلى انقلاب العرب في شرق الأردن على الدولة العثمانية، الميليشيات القبلية بشن هجوم على جيش فيصل في العقبة. ووعد المتطوعين البدو بتقديم أكبر دعم ممكن من الجيش العثماني -وحدات المشاة

والفرسان النظامية، والمدفعية، والطائرات. منح العثمانيون القادة جراية تكفي جنودهم خمسة أيام وعلفاً لخيولهم. وتلقى كل فارس ثلاث ليرات تركية ذهبية، وكل قائد خمس ليرات. استجاب رجال القبائل بحماسة وانطلقوا من الكرك للتجمع في معان، القاعدة العسكرية الحصينة، في منتصف يوليو استعداداً لشن الهجوم.

كان عودة القسوس من أعيان الكرك ويتمتع بسجل متميز في الخدمة المدنية العثمانية. تضلع من التركية، وكثيراً ما عمل مترجماً بين المسؤولين الحكوميين والسكان المحليين. لم يكن معجباً بشريف مكة أو متأثراً به على نحو خاص، فهو مسيحي، ولم ينظر باهتمام إلى عروضه إلى أهالي شرق الأردن. أدى دوراً رائداً في تنظيم ميليشيا الكرك. إذ تمكن من ضم ثمانين مسيحياً إلى جانب أكثر من أربعمئة من المتطوعين المسلمين للخدمة في الكتيبة الكركية التي قادها حين انطلقت إلى المعركة يوم 17 يوليو 1917.

راقب القسوس انحسار حماسة البدو في الحملة. عرف رجال الحويطات وبني صخر وفهم ترددهم في القتال. فقد انضمت فروع منافسة في القبيلتين، مثل عودة أبو تايه (من الحويطات)، إلى جانب فيصل. فهل يقتلون أفراد قبيلتهم في المعركة، ويثيرون دوافع الانتقام لينتقل الثأر من جيل إلى جيل؟ لاحظ أيضاً أن الميليشيات القبلية تتجه إلى المعركة في غياب الدعم الذي وعد به جمال باشا: لم تظهر قوات نظامية، ولا مدفعية، فضلاً عن الطائرات، لمؤازرتها. كان جمال باشا يحاول إثارة العداوة بين قبائل شرق الأردن والقبائل المساندة لثورة الهاشميين دون المخاطرة بزج قواته وموارده المحدودة في معان.

هاجمت ميليشيا الكرك وحدة من الجيش العربي في القويرة، محطة التلغراف الصغيرة التي تبعد خمسة وعشرين ميلًا إلى الشمال الشرقي من العقبة. راقب بدو الحويطات وبني صخر الاشتباك من قمم التلال المجاورة دون الانخراط في المعركة بأنفسهم. استمر القتال ثلاث ساعات، وزعم الكركيون الانتصار بعد أن قتلوا تسعة من العرب وأجبروا البقية على التراجع. كما استولوا على ألف رأس من الغنم وثلاثين حماراً وبضعة جمال وعشر خيام، وعادوا إلى معان رافعين رايات النصر. ووفقاً للممارسة المتبعة في الغارات القبلية، اعتبروا المواشي التي استولوا عليها من الغنائم. تركوا خمسمئة رأس هدية للجيش العثماني، وساقوا

باقي القطيع إلى الكرك كجائزة لهم على الهجوم الناجح. كانت العملية صغيرة وعديمة الأهمية (سوف تعيد قوات فيصل احتلال القويرة بعد وقت قصير)، لكن العثمانيين نجحوا في دق إسفين بين السكان المحليين والجيش الهاشمي سوف يبقى حتى نهاية الحرب.

عقد أنور باشا ناظر الحربية العثمانية اجتماعاً لقادة جيشه في مدينة حلب شمال سوريا يوم 24 يونيو 1917. حضر الاجتماع الاستثنائي خليل باشا قائد الجيش السادس في الرافدين، ومصطفى كمال باشا بطل غاليبولي، وعزت باشا قائد جيش القوقاز، وجمال باشا الحاكم العام لسوريا وقائد الجيش الرابع. ومثلما لاحظ جمال في مذكراته: "لم يكن من الأمور اليومية العادية أن يلتقي قادة أربعة جيوش مع رئيس هيئة الأركان العامة"[48].

* * *

عرض أنور مبادرة جديدة جسورة على كبار القادة الأتراك. "أفكر في هجوم لاستعادة بغداد"، كما شرح. واقترح لتحقيق هذه الغاية إنشاء تشكيل عثماني جديد تحت قيادة ألمانية، يدعى "مجموعة يلدريم" ("الصاعقة" بالتركية)، تنظم وفق الخطوط المتبعة في الوحدات العسكرية الألمانية. على أن تضم الجيش السادس بقيادة خليل باشا، وجيشاً سابعاً جديداً بقيادة مصطفى كمال، مع فرقة مشاة ألمانية كاملة. وسيكون القائد العام الجنرال إريش فون فالكنهاين، الذي عوضت نجاحاته الأخيرة في رومانيا إلى حد ما عن فشله في اختراق الخطوط الفرنسية في فردان عام 1916. دفعت الحكومة الألمانية خمسة ملايين جنيه ذهباً -على الرغم من ندرة الموارد في منتصف عام 1917- لضمان توفير التمويلات الكافية لنجاح "يلدريم".

أذهلت خطة أنور قادة الجيش العثماني. إذ بدت أي عمليات هجومية لاستعادة بغداد مغامرة طائشة، بينما يتهدد السلطنة خطر الهجوم من عدد من الجبهات الأخرى حاسمة الأهمية. كما صدمتهم فكرة الخضوع للقيادة الألمانية. كانت هيئة أركان "مجموعة يلدريم" بأغلبيتها الساحقة من الألمان، حيث ضمت خمسة وستين ضابطاً أجنبياً وتسعة أتراك فقط. في الحقيقة، توترت العلاقات بين الألمان والترك في مجرى الحرب. وعبرت يوميات الجنود

عن حالة من الاستياء بين الضباط والجنود معاً على ما اعتبروه غطرسة ألمانية. حذر مصطفى كمال أنور باشا من أن تركيا تتحول إلى "مستعمرة ألمانية". وحتى أوتو ليمان فون ساندرز، رئيس البعثة العسكرية الألمانية إلى السلطنة، اعتقد أن من الخطأ إرسال ضباط من ألمانيا ليست لديهم معرفة بالدولة العثمانية أو الثقافة التركية. بينما سبب الاعتماد على المترجمين لجعل أوامرهم مفهومة ضياع معظم حسن النية بين الألمان والترك أثناء الترجمة.

لم يرتدع أنور على الرغم من معارضة جميع قادة الجيش. إذ بدأت "مجموعة يلدريم" طوال أشهر صيف عام 1917 بالتجمع في حلب استعداد للانتشار في نهاية المطاف في الرافدين. واصل جمال باشا تقديم التقارير الاستخبارية التي تشير إلى تنامي القوة البريطانية على جبهة غزة-بئر السبع، والمطالبة بتغيير السياسة. وكوفئ على جهده المبذول بإعفائه من قيادة جبهة فلسطين، حيث نقلت إلى فون فالكنهاين. لكن الجنرال الألماني أدرك مخاوف جمال باشا. واقتنع بحلول نهاية سبتمبر بالتهديد البريطاني لفلسطين وحث أنور على تحويل وجهة "مجموعة يلدريم" للتصدي للخطر. بدأت المجموعة في 30 سبتمبر بالتحرك جنوباً إلى جبهة فلسطين.

حين التقت فرق "مجموعة يلدريم" الألمانية والتركية في حلب، بدأت أولى التعزيزات البريطانية إلى الجنرال اللنبي بالوصول إلى مصر. رغب السياسيون بأن يقدم اللنبي القدس هدية عيد الميلاد إلى عامة البريطانيين الذين أضجرتهم الحرب وأرهقتهم. وأراد الجنرالات أن يحقق أقصى ما يستطيع بالقوات المتوفرة لديه، موضحين دون لبس أن من المستبعد تأمين مزيد من الدعم. كانت الأوامر الموجهة إليه مماثلة لتلك التي أعطيت إلى الجنرال مود قبل التقدم إلى بغداد: اختراق الخطوط التركية، ومطاردة الترك بقدر ما تسمح موارده المتاحة، لكن مع تجنب المبالغة في التوسع والتوغل مهما حصل. ولن تقبل هزيمة، أو تراجع، أو استسلام على غرار الكوت.

تمتعت الحملة المصرية الآن بهامش مريح من التفوق على المدافعين العثمانيين حول غزة. فقد حشد البريطانيون ضعف عدد المشاة العثمانيين الذين قدر عددهم بأربعين ألفاً، وثمانية أضعاف الفرسان الذين لم يتجاوزوا ألفاً وخمسمئة، وضعفي قطع المدفعية أو

ثلاثة. لكن مجرد التفوق العددي على المدافعين ليس كافياً. فقد خسروا أول معركتين أمام غزة بعد أن شنوا هجمات جبهية مباشرة على خنادق منيعة يدافع عنها رجالها باستماتة. وفي أثناء الأشهر الفاصلة عمل الترك دون كلل على تحسين دفاعاتهم. لذلك كله، وجب على اللنبي، من أجل مغالبة الخطوط الدفاعية جيدة التحصين، الاعتماد على مبدأ "الحرب خدعة".

كانت الخطة التي وضعت لمعركة غزة الثالثة بالغة التعقيد شملت هجمات تضليلية ومناورات مراوغة. أكدت الاستخبارات البريطانية أن أقوى الدفاعات العثمانية منتشرة حول غزة وأضعفها أمام بئر السبع، حيث اعتمد المدافعون على التضاريس الصعبة والأراضي القاحلة لردع أي هجوم. قرر اللنبي أن يضرب هناك، فلو تمكن من الاستيلاء على بئر السبع، يضمن لجنوده مورداً موثوقاً من المياه، ويطوق المواقع العثمانية المحيطة بغزة. كما تطلبت الخطة هجمات تمهيدية لإجبار العثمانيين على تركيز قواتهم في غزة وترك بئر السبع مكشوفة وضعيفة أمام أي هجوم مفاجئ.

فعل البريطانيون ما بوسعهم كله من أجل خداع القادة العثمانيين. اقترب رئيس الاستخبارات العسكرية، الكولونيل ريتشارد ماينرتزاغن، من الخطوط العثمانية إلى أن اعترضه الفرسان. واستفزهم على خوض معركة وأغراهم بمطاردة أسقط خلالها جعبة ملطخة بالدم تحوي وثائق مزورة تفصل خططاً بريطانية لهجوم على غزة. كما نشرت الاستخبارات البريطانية أيضاً شائعات مزيفة عن إنزال بحري إلى الشمال من غزة. بينما منح وجود السفن الحربية البريطانية قبالة الساحل مصداقية لهذه الشائعات[49].

أصدر اللنبي أوامره بتاريخ 22 أكتوبر قبل عشرة أيام من بدء العمليات. تطلبت خطته تحريك وحدات المشاة والفرسان تدريجياً إلى مواقع مقابل بئر السبع لتجنب تنبيه المدافعين وتحذيرهم من حشد للجنود لا يمكن أن يعني إلا الاستعداد لشن هجوم كبير. وبحلول 30 أكتوبر، انتشر المهاجمون في مواقعهم المحددة. شنوا هجوماً فجر اليوم اللاحق، بعد تمهيد بقصف مدفعي عنيف على الخطوط العثمانية في بئر السبع.

تمترس الجندي أمين تشول، الذي شارك في معارك غاليبولي سابقاً، في الخنادق التركية حول بئر السبع. "استيقظنا على أصوات المدفعية.. لم نكن نائمين على أي حال"، كما تذكر. كانت الخطوط التركية في بئر السبع في حالة يرثى لها. ولم يكن عمق الخنادق الضيقة كافياً لتوفير الحماية. بينما امتدت الخطوط التي بلغ طول كل منها خمسين متراً في عزلة كاملة عن المواقع التركية الأخرى. ولم توجد خنادق اتصالات تتيح النقل الآمن للرجال والإمدادات من الجبهة وإليها. ومن دون ملجأ حصين يقي من مدفعية العدو، ارتفعت خسائر العثمانيين في الأرواح على الفور، وسدت أجساد القتلى والجرحى الخنادق دون أن تتوفر للأحياء وسيلة آمنة لإخلائها. وبدا من الطبيعي ألا يتشجع تشول للمشاركة في المعركة الآتية. قال متأملاً: "أي نوع من الحرب نخوض. لا تتوافر للجيش [العثماني] مدفعية فعالة، ولا مدافع رشاشة مؤثرة، ولا طائرات، ولا ضباط قادة، ولا خطوط دفاعية، ولا قوات احتياطية، ولا هواتف. الجنود يقاتلون في عزلة كاملة عن بعضهم، وروحهم المعنوية منهارة. في الحقيقة، لا يملك هذا الجيش أياً من العناصر التي يحتاج إليها [للفوز]"[50].

وبغض النظر عن الإحباط الذي شعر به الجنود العثمانيون فقد دافعوا بصلابة واستماتة. لكن المشاة البريطانيين الذين تعرضوا في زحفهم إلى نيران تركية كثيفة، نجحوا في الوصول إلى المواقع المحددة في وقت مبكر من الأصيل، ولم يتمكنوا من المضي قدماً في مواجهة مقاومة عنيدة ومستمرة. وتمترسوا في أماكنهم على التلال المشرفة على بئر السبع من الجنوب انتظاراً لمزيد من الأوامر.

نجح الهجوم بفضل الفرسان. فقد انطلق فيلق الصحراء المحمول مسافة خمسة وعشرين ميلًا في الليل، وكلف بمهمة الالتفاف حول بئر السبع لدخول البلدة من الجهة الشمالية الشرقية. واجه الفرسان -مرة أخرى- عقبة الماء: إذا لم يستولوا على بئر السبع وآبارها قبل المغرب، لن يملك الرجال والخيول ما يكفي من المياه للقتال يوماً ثانياً. وفي ساعات الصباح، تعرضت وحدات الفرسان الأستراليين والنيوزيلنديين لنيران كثيفة من المدافع الرشاشة العثمانية، ما أبطأ تقدمها ووضع العملية برمتها في خطر داهم. في منتصف المدة الفاصلة بين الظهر والمغرب، بدت فرص الفرسان في تأمين البلدة ضئيلة. قرر الجنرال السير

هاري شوفيل، قائد فيلق الصحراء المحمول الخروج على الخطة المتفق عليها والمخاطرة بشن هجوم مباشر (بالفرسان) على الخنادق التركية التي تحمي مدخل البلدة.

وقبل نصف ساعة فحسب من غروب شمس الخريف، وصل لواء الفرسان الأسترالي الرابع الخفيف إلى مواقعه المحددة. انتشر نحو ثمانمائة من الفرسان ضمن طابورين عريضين تفصلهما مسافة أربعمئة ياردة، وانطلقوا مهرولين نحو الخطوط التركية. كان واحداً من أكبر هجمات الفرسان في الحرب العظمى -وربما أكبر هجوم منذ قرن (ضم الهجوم الشهير للواء الخفيف في حرب القرم عام 1854 -بالمقارنة- أقل من سبعمئة جندي). وحين وصل المهاجمون إلى مرمى النيران التركية، زادوا سرعة خيولهم إلى الخبب، ثم إلى العدو.

واجه المدافعون صعوبة كبيرة في التسديد على مثل هذه الأهداف المتحركة بسرعة. راقب أمين تشول الخيالة وهم يقتربون كهزيم الرعد من خطوطه. اكتسح مئات المهاجمين الخط الأول من الخنادق، وأجبروا تشول ورفاقه على الاحتماء لتفادي السحق تحت سنابك الخيل. ترجلت جماعات من الفرسان للاشتباك مع المدافعين في قتال مباشر بالسلاح الأبيض. واصل تشول الرمي على البريطانيين طالما أمكنه رؤيتهم. لكنه فقد الرؤية فجأة، مع أنه بقي واعياً. جرح وأمكنه الشعور بالدماء تسيل على وجهه. في جحيم المعركة، ضمد رفاقه جراحه ونقلوه إلى بقعة آمنة قبل الاستسلام. "أبلغوني أن جنديين بريطانيين يقتربان منا. أمسكوا بيدي وأخرجوني من الخندق". أصبح الآن أسيراً، وتمكن من بعد سنة من استعادة حريته، لكن خسر بصره إلى الأبد[51].

واصل الفرسان عدوهم إلى بئر السبع، خوفاً من أن يخرب العثمانيون المتراجعون الآن آبار المياه قبل انسحابهم. هزت البلدة سلسلة من الانفجارات القوية جراء تدمير مستودع للذخيرة ومجموعة من العربات في محطة السكة الحديدية بالديناميت كي لا تقع في أيدي الإنكليز. شاهد الفرسان بئرين تنفجران قبل أن يتدخلوا لحماية البقية. مع حلول الظلام، هاجمت القوات البريطانية البلدة من الجهات كافة بينما حاول العثمانيون الانسحاب. وفي منتصف الليل ضمن البريطانيون السيطرة الكاملة على بئر السبع بعد أن استكملت القوات العثمانية الناجية انسحابها تحت جنح الظلام[52].

أذهلت قادة "مجموعة يلدريم" خسارة بئر السبع المفاجأة في يوم واحد من القتال. لجأ الجنود الذين تمكنوا من تفادي الأسر إلى غزة، التي صمدت دفاعاتها مرتين أمام الغزو. لكن غزة لم تعد ملاذاً آمنا؛ إذ تعرضت لأعنف قصف بريطاني شهدته أي منطقة خارج مسارح الحرب الأوروبية. فبين 27 و31 أكتوبر، اجتمعت المدافع الأرضية والبحرية معاً لتوجيه أكثر من 15.000 قذيفة على المواقع العثمانية في غزة ومحيطها. ومن المؤكد أن التعزيزات التي اتخذت مواقع في غزة دخلت إلى جحيم لا يحتمل.



أطلال مسجد غزة، 1917. أجبر العثمانيون السكان المدنيين كلهم على الخروج من غزة قبل الهجمات البريطانية الثلاثة، حيث تعرضت البلدة إلى أعنف قصف مدفعي شهدته أي منطقة خارج مسارح الحرب الأوروبية.

هاجم المشاة البريطانيون المواقع العثمانية أمام غزة يومي 1 و2 نوفمبر. كانت هذه مجرد هجمات تضليلية لإقناع المدافعين بأن البريطانيين على وشك شن هجوم مباشر. ومن أجل زيادة التشويش والإرباك، قام الفرسان البريطانيون بمناورات بين بئر السبع وبلدة الخليل على التلال الواقعة على مسافة أبعد باتجاه الشمال، ما زاد مخاوف العثمانيين من هجوم مباشر على القدس. رد قادة "مجموعة يلدريم" بإرسال جنود للدفاع عن غزة والخليل، تاركين

المواقع المركزية في الجبهة الممتدة مسافة عشرين ميلًا بين غزة وبئر السبع دون دفاعات كافية. كان هذا هو الهدف النهائي للجنرال اللنبي -إجبار الترك على استنزاف مواقعهم المركزية وإضعافها لكي يدفع بالكتلة الرئيسة من قواته عبر الفجوة.

دخلت معركة غزة الثالثة مرحلتها الختامية في 6 نوفمبر، حين أطلق اللنبي الجسم الأساس من قواته على المواقع التركية في منتصف المسافة بين غزة وبئر السبع. وبعد يوم من القتال العنيف، نجحت القوات البريطانية في خرق الخطوط التركية في عدة نقاط مفتاحية على طول جبهة ممتدة سبعة أميال والتوغل مسافة تسعة أميال داخل الأراضي العثمانية. لكن أذهلت البريطانيين صلابة الدفاع التركي وعناد المدافعين.

طوقت القوات العثمانية الجنود الأستراليين من فيلق الهجانة الامبراطوري مدة يومين في تل خويلفة شمال بئر السبع. حيث أصيب الهجانة، الذين قاتلوا إلى جانب المشاة الويلزيين، بأفدح خسائرهم في حملة فلسطين. أدرج فرانك ريد أسماء رفاقه الذين سقطوا قربه في أثناء القتال الدموي: الرقيب دونالد بولارد، أصيب بطلقة في الرأس؛ الرقيب آرثر أكسفورد، أصيب في وجهه؛ فرانك متزوناس، الذي هاجر للتو من ريغا إلى أستراليا عام 1914، أصيب في الدماغ؛ ريغ ريد، تاه وطعن بحربة بندقية في خندق تركي -وتستمر اللائحة الطويلة. "جندي آخر من الهجانة يدعى نيلسن رقد جريحاً في العراء عدة ساعات قرب الخنادق التركية. وفي كل مرة يطلب النجدة، يطلق الترك عليه رصاصة إلى أن ملأت جسده الثقوب. هؤلاء الترك الذين احتلوا الأراضي المرتفعة في تل خويلفة قتلة ملاعين". ولو بقيت مذكرات أي جندي من المدافعين العثمانيين عن تل خويلفة لانطبقت الأوصاف نفسها بالطبع على المهاجمين البريطانيين[53].

بحلول يوم 7 نوفمبر، بدأت القوات العثمانية انسحاباً شاملًا. وحققت خطة اللنبي المعقدة نجاحاً كاملًا. دخل جنوده غزة دون مقاومة. وفي الحقيقة، لم يبق أحد في غزة؛ لأن الجنود العثمانيين أجلوا سكانها بالقوة قبل بدء الأعمال العدائية. سار الجنود البريطانيون في الأزقة الضيقة بين خرائب البيوت التي دمرت عن بكرة أبيها، حيث تحولت غزة إلى شبح مدينة.

بعد أن خسر العثمانيون مواقعهم في غزة، بذلوا جهدهم لإعادة تنظيم خط دفاعي لوقف الحملة المصرية قبل أن تصل إلى القدس. لكن "مجموعة يلدريم" كانت في طور التشكل، بينما استطاع جيش اللنبي، الذي حافظ على قوته الكاملة تقريباً، الاندفاع في زخم يتعذر وقفه. طاردت فرقة الفرسان الأستراليين والنيوزيلنديين العثمانيين المنسحبين على طول ساحل المتوسط، بينما نجحت القوات البريطانية في الاستيلاء على عقدة حيوية للسكك الحديدية إلى الجنوب من القدس يوم 14 نوفمبر. في اليوم اللاحق، احتلت فرقة الفرسان الأستراليين والنيوزيلنديين الرملة واللد، واجتاحت فرقة الفرسان الأستراليين اللطرون؛ وفي 16 نوفمبر احتل اللواء النيوزيلندي ميناء يافا. ولم يعد بالإمكان الدفاع عن القدس بعد عزلها من الجنوب والغرب.

* * *

في 9 نوفمبر، بعد يومين من دخول قوات اللنبي غزة، نشرت صحيفة (*Jewish Chronicle*) السياسة البريطانية الجديدة في فلسطين. ففي رسالة وجيزة إلى والتر روتشيلد بتاريخ 2 فبراير، أصدر وزير الخارجية آرثر بلفور إعلاناً سوف يحمل اسمه:

> إن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وستبذل قصارى جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية، على أن يفهم جلياً أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن ينتقص من الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن في فلسطين، ولا الحقوق أو الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى.

* * *

كان وعد بلفور التزاماً غريباً من جانب الحكومة البريطانية. إذ إن جيشها دخل فلسطين للتو وما زال بعيداً عن القدس، ومع ذلك شعرت بما يكفي من الثقة بالنجاح لتقديم الوعود بالتنازل عن أراض ما زالت خاضعة للسيادة العثمانية.

في الواقع، بدأ البريطانيون التفاوض على الأراضي العثمانية منذ اندلاع الحرب. وبهذا المعنى، كان وعد بلفور آخر حلقة في سلسلة من الخطط التقسيمية زمن الحرب، بدءاً باتفاقية القسطنطينية (مارس 1915)، مروراً بمراسلات حسين-مكماهون (1915-1916)، وانتهاء باتفاقية سايكس-بيكو (1916). لكنهم حافظوا على سرية كل واحدة من هذه المخططات التقسيمية السابقة. نشر وعد بلفور علناً في الصحافة اللندنية. فضلاً عن ذلك كله، انتهك بلفور، في وعده بأن تبذل بريطانيا "قصارى جهدها" لتأسيس وطن قومي لليهود، شروط الاتفاقيات السابقة مع الشريف حسين والحكومة الفرنسية. ولزيادة تعقيد الأمور، طالب السير مارك سايكس، مهندس اتفاقية سايكس-بيكو، الحكومة البريطانية بدعم الحركة اليهودية القومية. وهو الذي غادر اجتماع وزارة الحرب البريطانية يوم 31 أكتوبر 1917 ليبلغ الزعيم الصهيوني حاييم وايزمن بأن الوعد قد نال الموافقة. "د. وايزمن، مبروك.. إنه صبي!"، كما قال في جملته المشهورة إلى وايزمن الذي وقف منتظراً بقلق خارج غرفة الاجتماع[54].

وعلى غرار خطط تقسيم السلطنة الأخرى، كان وعد بلفور نتاجاً للاعتبارات السائدة زمن الحرب. لنلاحظ أن وزارة الحرب هي التي صادقت على الإعلان، لا لدعم الحركة الصهيونية بقدر استغلال النفوذ اليهودي وتوجيهه لمصلحة المجهود الحربي البريطاني. نجح وايزمن ومؤيدوه في إقناع أعضاء نافذين في الحكومة البريطانية بأن الحركة الصهيونية لا تمثل مجرد حاشية هامشية من اليهود الأوربيين، بل القوة السياسية والاقتصادية الجبارة ليهود الشتات كلهم -الجانب المقابل لأسطورة معاداة السامية القديمة الذي يؤكد أن منظمة دولية يهودية سرية تهيمن على حركة المال العالمية.

رأى أعضاء في الحكومة البريطانية أن دعمهم للصهيونية سوف يكسبهم تأييد اليهود النافذين في الولايات المتحدة وروسيا. دخلت أميركا الحرب متأخرة، وجعلتها نزعتها الانعزالية التقليدية حليفاً متردداً، بينما أصبح التزام روسيا بالحرب موضع شك منذ ثورة فبراير وتنازل القيصر عن العرش في مارس 1917. وساد اعتقد بأن اليهود يمارسون تأثيراً قوياً في الرئيس الأميركي وودرو ولسون ورئيس وزراء الحكومة المؤقتة في روسيا

الكنسدر كيرينسكي. فإذا أمكن للتأثر اليهودي النافذ أن يحافظ على انخراط هاتين القوتين في الحرب بفاعلية، فإن من مصلحة بريطانيا أن تخطب ود اليهود وحظوتهم عبر دعم الصهيونية.

أخيراً، أراد كثيرون في حكومة الحرب تعديل شروط المعاهدات السابقة التي عقدت زمن الحرب، ولاسيما اتفاقية سايكس-بيكو. إذ اعتقد عدد متزايد من الأصوات النافذة أن سايكس بالغ في الكرم تجاه الفرنسيين. فقد قاتل البريطانيون بضراوة في فلسطين وقدموا تضحيات تمنعهم من تسليم الأراضي في نهاية الحرب إلى إدارة دولية غير محددة المعالم بوضوح. إضافة إلى أنهم تعلموا من تجربة الحرب كيف يمكن لقوة معادية في فلسطين أن تهدد أمن قناة السويس. أرادوا، مع نهاية الحرب، أن يضمنوا بقاء فلسطين تحت الإدارة البريطانية. كان الصهيونيون حلفاء طبيعيين في ذلك المشروع، ولا يمكن تصور مطامحهم السياسية أو تحقيقها من دون دعم بريطانيا العظمى.

عرض بلفور، في الظاهر، فلسطين على الحركة الصهيونية. لكن في الحقيقة كانت حكومة لويد جورج تستخدم الحركة الصهيونية لضمان خضوع فلسطين للحكم البريطاني.

* * *

استسلمت القدس للبريطانيين يوم 9 ديسمبر 1917. بذل العثمانيون قصارى جهدهم للدفاع عن المدينة. لكن اللنبي تقدم بعناد لا يلين. ومع أن قواته انهكت واستنزفت بعد أسابيع من القتال العنيف، ولم يُمنح الأصحاء القادرون من رجاله سوى إجازة ليوم واحد (في 17 نوفمبر)، فإنه لم يترك للعثمانيين وقتاً قط لالتقاط أنفاسهم وإعداد دفاعاتهم. وأكد منطقه الصائب أن فرصه في النجاح ترتفع ومخاطر التعرض لخسائر تنخفض، إذا ضغط على العثمانيين وهم في حالة التقهقر والإحباط وانهيار الروح المعنوية بفعل الهزيمة[55].

نفر الطرفان كلاهما من القتال في القدس. إذ لم يرغب البريطانيون ولا العثمانيون والألمان بالتعرض للإدانة الدولية التي تنتج حتمًا من القتال في المدينة المقدسة، أو تدمير الأماكن

المقدسة للديانات السماوية الثلاث اليهودية والمسيحية والإسلام. وحين أمنت القوات البريطانية باطراد المداخل الجنوبية والغربية والشمالية إلى المدينة، قرر العثمانيون وحلفاؤهم الألمان الانسحاب شرقاً والحفاظ على بقية الجيش السابع سليمة. بدأ التقهقر من القدس بعد غروب يوم 8 ديسمبر، واستكمل أثناء الليل. ومع شروق شمس 9 ديسمبر، وصل الحكم العثماني للقدس الذي استمر 401 عام إلى نهايته.

كان آخر عمل قام به متصرف القدس المغادر كتابة رسالة استسلام يعهد فيها بالمدينة المقدسة إلى حكومة بريطانيا العظمى. ترك الرسالة مع رئيس بلدية القدس، حسين سليم الحسيني، سليل واحدة من أبرز العائلات المرموقة في المدينة. التقى حسين، الذي كان يتحدث الإنكليزية، بعدد من الجنود والضباط البريطانيين من ذوي الرتب الصغيرة التي لا تسمح لهم بقبول استسلام المدينة. ووجب الانتظار حتى وقت متأخر من بعد الظهر كي يأتي الجنرال شي مكلفاً من اللنبي، الذي بقي في مقر قيادته في يافا، لقبول استسلام المدينة نيابة عنه[56].

دخل اللنبي القدس رسمياً يوم 11 ديسمبر 1917. سجلت لجنة التصوير السينمائي التابعة لوزارة الحرب الحدث المعد بدقة وعناية، لضمان أوسع شريحة من جمهور المشاهدين لأعظم انتصار في الحرب حتى تاريخه. فقد كان على الرغم من كل شيء هدية "عيد الميلاد إلى الأمة البريطانية" من لويد جورج. وعلى غرار إعلان مود في بغداد، كتبت سطور إعلان اللنبي في لندن وأرسلت بالبرق إلى فلسطين. بل أمر القائد العام للحملة المصرية بالترجل عن صهوة جواده قبل دخول المدينة المقدسة، في إشارة دالة على التواضع لإثارة إعجاب المسيحيين على وجه الخصوص. ولم يكتب "سيناريو" الحدث من أجل النظارة في القدس فحسب، بل لإعلان رئيس الوزراء في مجلس العموم. إذ لم يرغب لويد جورج في إهدار الانقلاب المفاجئ في العلاقات العامة، وأصر على الحصول على تفاصيل اللحظة التاريخية بحذافيرها كلها.

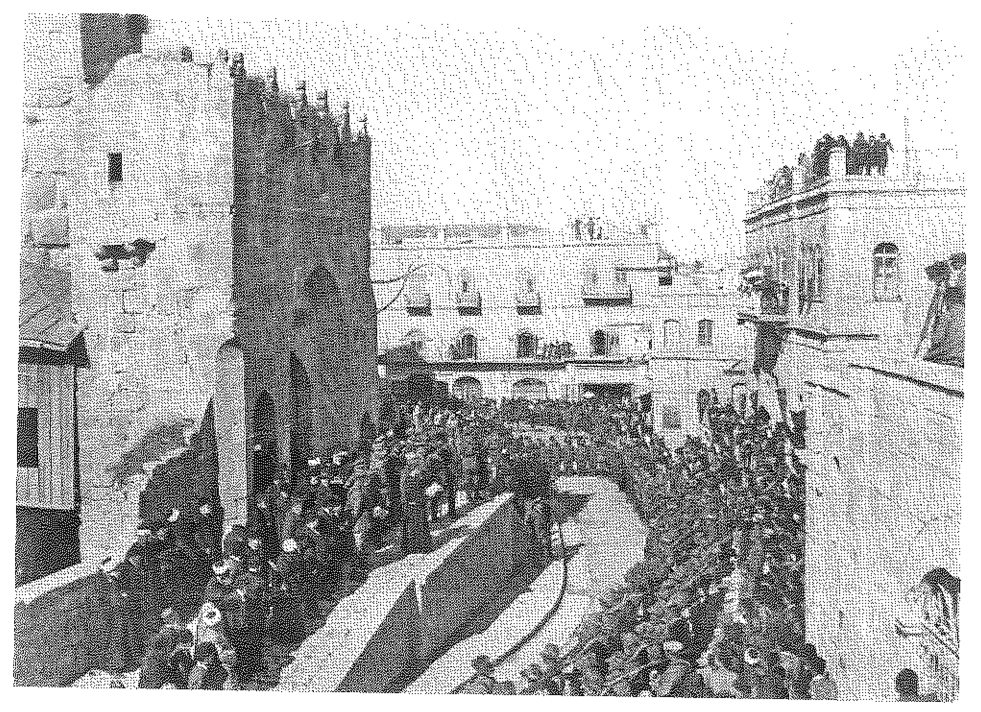


رئيس بلدية القدس يقابل الجنود البريطانيين لأول مرة، 9 ديسمبر 1917. انطلق رئيس البلدية حسين سليم الحسيني (في الوسط، بالعكاز والسيجارة) من القدس تحت راية بيضاء لضمان الاستسلام وتسليم المدينة سلمياً إلى القوات البريطانية المتقدمة. لكن الرتب الصغيرة لأوائل الجنود الذين قابلهم (مثل الرقيبين سيدجويك وهوركوم)، لم تسمح لهم بقبول استسلام المدينة.

استعرض اللنبي عند دخول القدس فرقة من حرس الشرف تمثل الأمم التي قاتل جنودها في فلسطين: إنكلترا، ويلز، اسكتلندا، الهند، أستراليا، نيوزيلندا. بينما مثل عشرون جندياً إيطالياً وفرنسياً حلفاء بريطانيا من قوى الوفاق. ومن بين الشخصيات البارزة في حاشية اللنبي تي. إي. لورنس، الذي أتى لمناقشة الاستراتيجية المشتركة بين الثورة العربية والحملة المصرية، وشارل فرانسوا بيكو، شريك سايكس في الاتفاقية الشهيرة.

قرأ اللنبي الإعلان بالإنكليزية، وراقب الحضور بينما يترجم إلى العربية والعبرية والفرنسية والإيطالية واليونانية والروسية من على درج القلعة عند باب الخليل. كان الخطاب مقتضباً: أصبحت القدس الآن خاضعة للأحكام العرفية، ويرغب اللنبي بأن يرى كل واحد من سكانها "قائماً بعمله وفق القانون دون أن يخشى أي تدخل"، وأن كل مكان مقدس لـ"الطوائف الثلاث" سوف "يصان ويحتفظ به عملاً بالعادات المرعية

وبالنسبة إلى معتقدات الطائفة التي تملكه". وفي سبيل توكيد هذه النقطة، استقبل اللنبي بعد ذلك كبار الشخصيات المدنية والدينية في المدينة -موكب من الأساقفة، والأحبار، والعلماء (المسلمين)، والمطارنة بأثوابهم الغريبة ولحاهم الطويلة. واختتم الفيلم السينمائي بلقطات لحشود من المقدسيين تتزاحم مع طوابير من الجند، وعربات تجرها البغال، ودراجات نارية، وسيارات تابعة لجيش الاحتلال[57].



بيان الجنرال اللنبي الذي أعلنه في القدس المحتلة. سجل فيلم سينمائي مشاهد دخول القدس المعدة بعناية لرفع الروح المعنوية لبريطانيا التي أنهكتها الحرب؛ يبدو المصور على سطح المبنى في الزاوية اليمنى العليا من الصورة.

* * *

جسد سقوط القدس نقطة تحول كبرى في الحرب العظمى في الشرق الأوسط. ومع نهاية عام 1917، سلم العثمانيون ثلاث مدن تحظى بقدر عظيم من القيمة الرمزية: مكة وبغداد والقدس. سددت خسارة هذه المدن -ولا سيما مكة المكرمة والقدس الشريف- ضربة قوية

إلى الجهاد العثماني. ولم يعد المسؤولون البريطانيون في مصر والهند يخشون من تغير الحظوظ في ميدان المعارك أو انقلابات تستفز العصبية الدينية. والأهم أن الخطوط العثمانية في الرافدين وفلسطين، بعد الانتصارين على البريطانيين في الكوت وغزة، قد خرقت وأجبرت جيوشهم على التقهقر أمام قوات حملة بريطانية أضخم حجماً، وأفضل إعداداً وإمداداً. أصبح البريطانيون الآن في فلسطين على اتصال مع الجيش العربي الهاشمي، الذي هدد بعد احتلال العقبة المواقع العثمانية في الداخل السوري.

لم يهزم العثمانيون في نهاية عام 1917، لكن طموحاتهم في الحرب العظمى تراجعت من النصر إلى البقاء.

13

من هدنة إلى هدنة

استولى البلاشفة على السلطة في روسيا في نوفمبر 1917، والتمسوا وقفاً فورياً لإطلاق النار مع القوى المركزية- وهو انقلاب لا يمكن تصوره في حظوظ العثمانيين، إذ حمل في طياته أفق نجاتهم في الوقت الذي تدنى مجهودهم الحربي إلى الحضيض إثر خسارتهم القدس.

وكانت معاناة الحرب ومشقاتها قد أسقطت الملكية الروسية في "ثورة فبراير" (التسمية حسب التقويم الروسي القديم؛ فأحداث "ثورة فبراير" وقعت فعلياً في شهر مارس 1917). تنازل القيصر نيقولا الثاني عن العرش في 15 مارس، واستلمت السلطة حكومة مؤقتة برئاسة ألكسندر كيرنسكي. ظن الحلفاء أول الأمر أن الثورة قد تعمل على إحياء المجهود الحربي الروسي، مع أن الاضطرابات السياسية قوضت الانضباط العسكري منذ البداية.

أول إجراء اتخذته الحكومة الجديدة (الأمر رقم 1، تاريخ 14 مارس 1917) كان تجريد الضباط من سلطتهم على الجنود الروس الذين سيأتمرون منذ ذلك التاريخ بأوامر "مجالس [سوفيتات] جنود" منتخبة. سارعت القوات الروسية في الأراضي العثمانية المحتلة إلى الالتزام بالقرار، فدبت الفوضى. كتب القنصل الأميركي في مدينة طرابزون على البحر الأسود في سجله السياسي يوم 23 مارس 1917: "جرت اليوم اجتماعات مطولة ومتكررة للجنود [الروس] نتيجة الثورة في بتروغراد. كان يخشى من حدوث تجاوزات في المدينة

بسبب تلك المظاهر. أغلقت معظم المحال أبوابها، لكن الأمور صارت أهدأ بكثير بعد انتخاب لجنة تنفيذية تألفت بمعظمها من الجنود"[7].

ساد هدوء حذر الأراضي التركية الشرقية التي يحتلها الروس طوال أشهر الربيع والصيف من عام 1917. حافظ جيش القوقاز العثماني المحطم، والممتن لفترة الراحة، على مواقعه دون إطلاق رصاصة على العدو. أما الجنود الروس فاشتبكوا مع بعضهم في سجالات سياسية عنيفة، تركزت كليةً على الوطن، وتساءل كثير منهم عما يفعلونه في أراضٍ عثمانية محتلة.

أزال الحزب البلشفي أي شكوك متبقية لدى الجنود باستيلائه على السلطة في 7 نوفمبر 1917 ("ثورة أكتوبر" وفق التقويم الروسي القديم). أدان البلاشفة الحرب باعتبارها مشروعاً إمبريالياً، وسعوا إلى سلام عبر المفاوضات "دون ضم أراض ودون تعويضات". لم يصدق الاتحاديون من أعضاء تركيا الفتاة حظهم، فالخوف من أطماع روسيا الإقليمية في المضائق وإسطنبول هو ما دفع الامبراطورية العثمانية إلى التحالف مع ألمانيا زمن الحرب. وفي سياق تلك الحرب، دمر الجيش الروسي الدفاعات العثمانية في القوقاز، واحتل مناطق واسعة شرق الأناضول. لكن ها هي الحكومة الجديدة في روسيا تتعهد بالانسحاب من الحرب بأسرع ما يمكن، وبالتخلي عن جميع الأراضي التي كسبتها خلالها.

اجتمع الاتحاديون من أعضاء تركيا الفتاة بممثلي جيش القوقاز الروسي في مدينة إرزنجان المحتلة، وتوصلوا إلى اتفاق هدنة رسمية في 18 ديسمبر. ألقى الجنود الروس والعثمانيون سلاحهم على طول الجبهة الممتدة من البحر الأسود حتى بحيرة وان، بينما دخل قادتهم السياسيون في مفاوضات للتوصل إلى اتفاقية سلام. تركت الهدنة فراغاً في السلطة في ولايات شرق الأناضول التي تحتلها روسيا. في طرابزون، تصرف الجنود الروس بشكل مستقل عن حكومتهم في بتروغراد، فادعى "مجلس الجنود والعمال والفلاحين" المنتخب ديمقراطياً تمتعه بكامل السلطة والصلاحية، لكن دون امتلاك وسائل ممارسة أي منهما. وازداد جموح الجنود وفوضويتهم طرداً مع طول فترة غياب الانضباط والتراتبية بينهم.

في نهاية ديسمبر 1917، بدأ الجنود الروس في طرابزون مصادرة السفن والعودة بها إلى الوطن عبر البحر الأسود. ونهب عدد من الجنود المغادرين، الذين لم يتلقوا رواتبهم لأشهر، المحال التجارية في المدينة لتوفير مستلزمات رحلة العودة. أعلنت الأحكام العرفية في 31 ديسمبر، دون أن تستطيع استعادة الأمن في الميناء. كما تفاقمت فوضى المدينة في الأرياف المحيطة، حيث اقتربت عصابات تركية مسلحة مع انسحاب الجنود الروس. كتب القنصل الأميركي في تقريره نهاية شهر يناير عام 1918: "أصبح السلب والنهب، وإطلاق النار، والترويع أموراً يومية اعتيادية"، و"كلما ازدادت جسارة العصابات التركية، ازداد معها أذى الجنود الروس وقبحهم". لكن بصرف النظر عن مدى الارتياح الذي جاءت به الهدنة للجيش العثماني، فإن المدن والبلدات العثمانية القابعة تحت الاحتلال الروسي كانت تواقة لعودة حكومة نظامية، الأمر الذي لا يتحقق إلا باتفاقية سلام.

اجتمعت القوى المركزية بممثلين عن الحكومة البلشفية في مقر قيادة الجيش الألماني في مدينة بريست-ليتوفسك. وبينما أمِل الروس باستعادة الأراضي التي خسروها لألمانيا والنمسا، وحدهم العثمانيون كانوا المستفيدين من تعهد البلاشفة بالسلام دون عمليات ضم واحتلال. ذهب الاتحاديون إلى طاولة المفاوضات ليس فقط لاستعادة حدود عام 1914، بل أيضا لاسترجاع "الولايات الثلاث" التي ضمتها روسيا عام 1878: قارص وأرداهان وباطوم.

بعد جولتين غير حاسمتين من المفاوضات، استأنف الجيش الألماني الأعمال العدائية ضد الروس وزحف باتجاه بتروغراد في 18 فبراير عام 1918. وجد فلاديمير لينين دفاعاته ضعيفة ومكشوفة تماماً أمام الجيش الألماني، فأمر المفاوضين الروس بالتوصل إلى اتفاقية سلام مع القوى المركزية بأي شروط يستطيعون الحصول عليها. وهكذا، مع ضعف الموقف الروسي، ضمن العثمانيون استعادة حدود عام 1914، مع إخلاء روسي كامل للولايات الثلاث، على أن تتحدد طبيعة إدارتها باستفتاء عام ينظّمه العثمانيون لاحقاً. وبذلك كان الاتحاديون من أعضاء تركيا الفتاة المستفيدين الرئيسين من اتفاقية بريست-ليتوفسك الموقعة في 3 مارس.

زفت الحكومة العثمانية خبر الاتفاقية إلى "مجلس المبعوثان" في اليوم التالي لتوقيعها. واحتفل السياسيون الأتراك بالسلام مع روسيا على اعتباره مقدمة للسلم العام وانتهاء الحرب. الشروط المؤاتية للمعاهدة، التي استعادت أراضي خسرتها الدولة العثمانية منذ أمد بعيد، عوضت الأمة التركية عن تضحياتها المروعة في الحرب. كما أنهت مطالب روسيا "التاريخية" بالقسطنطينية والمضائق. وقد شجعت هذه المكاسب مجتمعةً الآمال باحتمال خروج العثمانيين من الحرب الكبرى منتصرين.

* * *

ذهب البلاشفة إلى أبعد مدى في فضح سياسات حكومة القيصر المخلوع. نشر ليون تروتسكي، قوميسار الشعب للشؤون الخارجية آنذاك، بعضاً من أوسخ غسيل النظام البائد في صحيفته اليومية **إزفستيا** أواخر نوفمبر 1917. كان الموضوع الأكثر إثارة اتفاقية سايكس-بيكو، المعاهدة السرية الثلاثية لتقسيم الامبراطورية العثمانية. التقط المراسلون الأجانب في موسكو الأسرار التي كشفتها الثورة ونقلوها إلى محرريهم المتشوقين لسماعها في بلدانهم، وكانت صحيفة **مانشستر غارديان** أول من أذاع خبر اتفاقية سايكس-بيكو للعالم الناطق بالإنكليزية في 26 و28 نوفمبر.

استغلت الحكومة العثمانية الأسرار المفضوحة حديثاً لتشويه سمعة أمير مكة الثائر الشريف حسين وابنه فيصل قائد الجيش العربي. ففي خطاب ألقاه في بيروت يوم 14 ديسمبر 1917، قبل أيام قليلة من سقوط القدس، كشف جمال باشا عن بنود اتفاقية سايكس-بيكو أمام جمهور مذهول، وقدم الشريف حسين وابنه بوصفهما مغفلين ساذجين استغباهما الإنكليز، ملقياً كامل المسؤولية عن "وصول الأعداء إلى قلعة القدس" على قادة الثورة العربية. "لو لم يكن الاستقلال الذي وعد به الإنكليز الشريف حسين باشا سراباً خادعاً، أو لو كان أمل الاستقلال والسلطنة الذي يحلم به الشريف حسين يمكن الحصول عليه ولو إمكاناً بعيداً، لأمكنني أن أرى في عصيان الحجاز ذرة من التعقل. ولكن سرعان ما صرح الإنكليز بمرادهم.. وعليه فالشريف حسين باشا بنفسه، فضلاً عن تسببه بوصول الأعداء إلى أمام قلعة القدس، سيشعر بالتعاسة التي جلبها لنفسه بإبدال شرف الإمارة

الممنوح له من الخلافة الإسلامية بالعبودية للإنكليز". وزعت الحكومة العثمانية نسخاً من الخطاب بالترجمة العربية على الصحافة السورية، وحظيت الأخبار المثيرة بتغطية إعلامية واسعة. أرسلت أعداد من صحف بيروت ودمشق بالقطار إلى المدينة [المنورة] ثم هربت إلى مكة لإكمال مذلة الهاشميين[2].

لم يكن الشريف حسين وابنه فيصل جاهلين تماماً بخطة التقسيم الإنكليزية-الفرنسية. فقد سافر السير مارك سايكس وميشيل بيكو إلى جدة في وقت مبكر ذلك العام لاطلاع الشريف وابنه على بنود اتفاقهما. لكن الدبلوماسيّين كانا غامضين عن عمد، لمعرفتهما أن الكشف الكامل عن خططهما سوف يعرض التحالف العربي-البريطاني للخطر. دفع سايكس الشريف حسين للاعتقاد بأن البريطانيين خططوا لاحتلال قصير الأمد للعراق، وأنهم سيدفعون له إيجار المدة التي سيبقونها هناك. كما شجع الشريف على رؤية الوجود الفرنسي في سورية باعتباره إيجاراً مماثلاً قصير الأمد في قطعة صغيرة من المنطقة الساحلية. بيد أن الشريف عرف عن الأطماع الإقليمية البريطانية-الفرنسية من خطاب جمال باشا أكثر بكثير مما عرفه من حلفائه الفرنسيين والبريطانيين[3].

أمل جمال باشا باستخدام اتفاقية سايكس-بيكو في إقناع الهاشميين بالتخلي عن ثورتهم والعودة إلى الحظيرة العثمانية لقاء العفو عن كل ما اقترفوه. وكان لمثل ذلك الصلح أن يترك آثاراً دراماتيكية على الوضع العثماني في سوريا والعراق، إذ يمكن آنئذ إعادة توجيه القوات العربية جيدة التسليح التي جندها الشريف حسين لمحاربة العثمانيين لقتال البريطانيين أنفسهم بدلًا من ذلك. ويمكن سحب قوات فخري باشا من المدينة وإعادة نشرها بالاشتراك مع جيش القوقاز، المتحرر الآن من الجبهة الروسية بفضل الهدنة، لاستعادة بغداد والقدس من البريطانيين. كان الاتحاديون من أعضاء تركيا الفتاة على قناعة تامة بأن استعادة ولاء العرب يمنح الامبراطورية العثمانية فرصة قتالية وقدرة على النجاة من السقوط بسبب الحرب.

في ديسمبر 1917، أرسل جمال باشا رسالة إلى فيصل في العقبة حملها رسول سري. عرض القائد الاتحادي منح الولايات العربية ضمن الامبراطورية العثمانية حكماً ذاتياً كاملاً تتحقق فيه جميع أمانيهم القومية -حكم ذاتي حقيقي بدل الهيمنة الأجنبية التي أجملتها اتفاقية

سايكس-بيكو- مقابل الولاء الهاشمي. حوّل فيصل رسالة جمال باشا إلى أبيه دون الرد عليها، وبدوره أرسل الشريف حسين الرسالة إلى السير ريجينالد وينغيت، المندوب السامي البريطاني في مصر. اعتقد الشريف حسين أن حلفاءه مدينون له بتفسير بعد وعد بلفور واتفاقية سايكس-بيكو، وكلاهما نشرا في نوفمبر 1917.

وجد المسؤولون البريطانيون في مصر أنفسهم في موقف حرج، فهم لم يؤدوا أي دور في خطط التقسيم السرية التي يجب عليهم الآن تبريرها نيابة عن حكومة صاحب الجلالة. كانت الرهانات عالية، فهذه الفضائح المقلقة عرّضت الحملتين البريطانيتين في فلسطين وبلاد الرافدين للخطر، وهددت بتدمير التحالف البريطاني-الهاشمي في وقت كانت الثورة العربية قد بدأت تكتسب زخماً متزايداً.

تصدى مدير المكتب العربي في القاهرة، ضابط البحرية دي. جي. هوغارث، لمخاوف الشريف حول وعد بلفور في رسالة مؤرخة في يناير 1918. أعاد هوغارث تأكيد عزم الحلفاء "إعطاء العرق العربي مجدداً الفرصة الكاملة لتشكيل أمة في العالم"، وعلى أن "لا يخضع شعب لآخر" في فلسطين. لكن "الرأي اليهودي العالمي"، أضاف هوغارث، يؤيد "عودة اليهود إلى فلسطين"، والحكومة البريطانية تدعم هذ المطمح. كما أكد هوغارث لحليفه العربي أن "يهود العالم" يتمتعون "بنفوذ سياسي" في دول عدة، وأن الصداقة التي أبداها اليهود للعرب "لا ينبغي الاستخفاف بها وتنحيتها جانباً"[4].

التمس وينغيت نصيحة وزارة الخارجية البريطانية قبل الرد على أسئلة الشريف حسين حول اتفاقية سايكس-بيكو. أجابت لندن في 8 فبراير 1918 بكلام كلاسيكي دبلوماسي مراوغ. شكرت الخارجية البريطانية الشريف على إرسال رسالة جمال باشا، ورفضتها باعتبارها مثالاً جديداً على الدسائس التركية ومحاولة واضحة لزرع بذور الشك والشقاق بين الهاشميين وقوات الحلفاء، وأعادت التأكيد القاطع على تعهد بريطانيا العظمى بالوقوف "إلى جانب العرب في كفاحهم من أجل التحرر ومساعدتهم في الحصول على حريتهم"[5]. لعل الشريف كان قلقاً من أن البريطانيين لم يؤكدوا أو ينفوا محتويات خطط التقسيم. لكنه وأبناءه كانوا قد ذهبوا بعيداً جداً في ثورتهم ضد العثمانيين بحيث لم يعد بوسعهم التراجع

الآن. بقيت رسالة جمال باشا إلى الشريف حسين بلا رد. وبقي الشريف حسين وأبناؤه يتعلقون بأهداب كل تصريح بريطاني يعيد تأكيد دعم استقلال العرب. كما استمروا في نضالهم ضد الامبراطورية العثمانية، على أمل أن يحققوا بالانتصار العسكري ما بدا أن البريطانيين والفرنسيين عازمون على إنكاره عليهم بالدبلوماسية السرية.

* * *

منذ الاستسلام العثماني في العقبة في يوليو 1917، انتقل مسرح الثورة العربية الأساس من الحجاز إلى الحدود السورية الجنوبية. تابع فيصل هنا بناء جيشه النظامي بقيادة جعفر العسكري، وجند فيه قوات قبلية غير نظامية جديدة. قدّم البريطانيون والفرنسيون، بمساعدة قوات استعمارية جاؤوا بها من مصر والجزائر، الخبرة التقنية والقوة النارية الحديثة للجيش العربي. ووفر له فصيل عربات مدرعة، وسرب طائرات، وبطارية مدفعية (عيار 10 رطل)، آخر مقتنيات التكنولوجيا العسكرية لدك الخطوط التركية.

واجه جيش فيصل بعد خروجه من العقبة الحامية العثمانية القوية في معان. وكانت معان تقليدياً الحد الفاصل بين سوريا والحجاز، وإحدى المحطات على طريق الحج بين دمشق ومكة. في شهر أغسطس عام 1917، قدّر تي. إي. لورنس أن لدى العثمانيين "ستة آلاف جندي مشاة، وفوج من الفرسان والمشاة المزودين بالخيول"، تخندقوا جميعاً في معان بحيث أصبحت منيعة، بمعايير المناورات الحربية الكلاسيكية، وليست من نوع المواقع التي يتاح لجيش يخوض حرب عصابات كجيش فيصل أي فرصة للاستيلاء عليها[6].

في مواجهة الضغط للتقدم باتجاه الشمال، على اعتباره "الجناح الأيمن" للجنرال السير إدموند اللنبي، تجاوز الجيش العربي معان في البداية للاستيلاء على المرتفعات المهيمنة على وادي الأردن. كذلك استولى فصيل من الأشراف بقيادة الأمير زيد، أصغر إخوة الأمير فيصل، على بلدة الشوبك التي تضم قلعة محصنة. ثم احتل الطفيلة، المركز الإداري العثماني بلا مقاومة في 15 يناير 1918، حيث انشق قائد الحامية المحلي زكي الحلبي عن الجيش العثماني وانضم مع جنوده الـ240 إلى قوات الجيش العربي. لم يقبل الجيش العثماني بخسارة

الطفيلة، وقام بمحاولة جدية لاستعادة البلدة الواقعة على قمة تلة في 26 يناير، لكن الفصيل الشريفي وحلفاءه الجدد صدوا الهجوم وأوقعوا بالقوات العثمانية خسائر فادحة. في الأسابيع الستة التالية، تبادلت القوات العربية والعثمانية احتلال المدينة مرتين، إذ استعادها العثمانيون يوم 6 مارس قبل تسليمها للعرب ثانية في 8 مارس[7].

في فلسطين، استأنفت قوة الحملة المصرية هجومها. وكان رئيس الوزراء البريطاني، لويد جورج، قد أمر الجنرال اللنبي بتجديد الأعمال العدائية في فلسطين في فبراير 1918، وبتوجيه ضربة قاصمة للامبراطورية العثمانية لإجبارها على الخروج من الحرب. قرر اللنبي شن هجومه في الشرق بدل التوغل في العمق الفلسطيني. كان هدفه عمان، عبر نهر الأردن، حيث أمل بالالتقاء مع الجيش العربي، وقطع الخط الحديدي الحيوي الذي يربط العثمانيين بكل من معان والمدينة. أراد اللنبي في الحقيقة تحييد التهديد لجناحه الأيمن الذي يشكله وجود حوالي 20 ألف جندي تركي جنوب عمان، قبل القيام بهجومه النهائي على دمشق.

اختار اللنبي احتلال مدينة أريحا في وادي الأردن كخطوة أولى، وتحويلها إلى قاعدة انطلاق متقدمة لعملياته في شرق الأردن. في 19 فبراير، بدأت قوات اللنبي زحفاً بطيئاً ومتأنياً أسفل السفوح المنحدرة لوادي الأردن باتجاه أريحا. كان مرور العربات مستحيلاً في المسالك الجبلية الضيقة، وامتد خط المشاة والفرسان البريطاني لأكثر من خمسة أميال. أبطأت المدفعية التركية التقدم البريطاني لكنها لم توقفه، ودخلت قوات اللنبي أريحا صباح 21 فبراير. ألهبت القصص التوراتية/ الإنجيلية عن يشوع وأسوار أريحا مخيلة الخيالة الأستراليين والنيوزيلنديين، لكنهم سرعان ما عادوا إلى أرض الواقع: "من بين جميع مدن الشرق التي عبرها رجالنا"، كما قال أحد الضباط النيوزيلنديين في سلاح الفرسان، "كانت أريحا تتصدر قائمة أقذرها وأسوأها رائحة وأكثرها إيحاءً بالشر"[8].

قبل عبوره نهر الأردن، أحاط اللنبي جبهته في شمال فلسطين بطوق أمان. تقدمت قوة الحملة المصرية سبعة أميال باتجاه الشمال الشرقي للاستيلاء على المرتفعات المحيطة بوادي العوجة، أحد روافد نهر الأردن. وبذلك، وضع البريطانيون مسرح عملياتهم في أريحا خارج المدى المجدي للمدفعية العثمانية، وفرضوا على الأتراك القيام بالتفاف طويل إن هم سعوا

إلى تعزيز مواقعهم في شرق الأردن عبر إرسال جنود من فلسطين. استغرقت العمليات أربعة أيام، بدءاً من 8 مارس؛ انسحب العثمانيون على مضض لتجنب مواجهة حاسمة. ومع احتفاظ القوات البريطانية بخط آمن من البحر المتوسط إلى نهر الأردن، استعد اللنبي لغزو شرق الأردن.

نسّق القادة البريطانيون خطط غزوهم مع حلفائهم العرب، وعمل اللفتنانت كولونيل آلان داوني، رئيس هيئة أركان عمليات الحجاز المنشأة حديثاً، ضابط اتصال مع قوات الأشراف. اقتضت خطة اللنبي أن يهاجم الجيش العربي معان للاشتباك مع الحامية العثمانية هناك وتثبيتها في مواقعها بينما تستولي قوة الحملة المصرية على عمان. اجتمع فيصل مع ضباطه لمناقشة خطة عملهم. تم الاتفاق على أن تهاجم قوة من الجيش العربي الخط الحديدي الحجازي جنوب معان، وتدمر قضبان السكة الحديدية هناك، وتفعل قوة أخرى الشيء نفسه بتدمير الخط الحديدي شمالها أيضاً. ويقود جعفر العسكري الجسم الأساس للجيش العربي في هجوم مباشر على المواقع العثمانية في معان، التي ستكون معزولة تماماً ويستحيل إمدادها بالتعزيزات لانقطاع الخط الحديدي في موقعين. وبهذا لا تشكل حامية معان أي تهديد للعمليات البريطانية الجارية في نقطة أبعد إلى الشمال في عمان. كان على تي. إي. لورنس الاتصال بقوات اللنبي في شرق الأردن، وإحضار قوات قبيلة بني صخر القوية لدعم المواقع البريطانية ضد الأتراك.

اعتمدت هذه الخطط الطموحة على أداء كل طرف دوره وفق توقيت زمني محدد، إذ لم تكن ثمة اتصالات بين مختلف القوى. استقدم البريطانيون إلى مسرح العمليات حمامهم الزاجل، لكن لم تكن هناك طريقة لتنسيق الأعمال بين مختلف وحدات الجيش العربي العاملة على امتداد خمسين ميلاً من الخط الحديدي الحجازي، فضلاً عن التنسيق بين العرب والبريطانيين الذين تفصلهم مئات الأميال من الأرض المفتوحة. عندما سارت الأمور على نحو سيئ، لم يعرف الحلفاء بانتكاسات بعضهم بعضاً إلا بسرعة الخيّال. وزادت الشائعات وعمليات التضليل المتعمدة من ضبابية الحرب[9].

أخفق الهجوم العربي على معان إخفاقاً ذريعاً. أغرقت أمطار باردة هطلت في غير موسمها جنوب شرق الأردن في مارس 1918. بعد سنوات، تذكر جعفر العسكري الذي رافق الفرقة المغيرة المكلفة بتدمير الخط الحديدي جنوب معان، أن "أمطاراً غزيرة بللتنا حتى العظم، وأصبح التقدم مستحيلاً. كانت الجمال وحيوانات الجر تتخبط في الطين، وكان رجالنا مربكين ومتعبين لدرجة أن بعضهم مات جراء تعرضه للمطر والبرد القارس في الليل". في النهاية، تأجل الهجوم على معان بانتظار ظروف أفضل[10].

عبرت القوات البريطانية الأردن في 21 مارس، غير مدركة المشكلات التي واجهها الجيش العربي حول معان. تقدمت متسلقة المسارات شديدة الانحدار لوادي الأردن نحو مرتفعات شرق الأردن وبلدة السلط. وكانت السلط مركز حاكم السنجق العثماني وأكبر بلدات شرق الأردن، إذ بلغ عدد سكانها حوالي 15 ألف نسمة بين مسلم ومسيحي. مع اقترابهم من المدينة يوم 25 مارس، توقف البريطانيون بعد سماعهم صوت إطلاق نار كثيف. وبدل المعركة التي تخيلوها، وجدت فرق الاستطلاع المتقدمة سكان المدينة يطلقون النار في الهواء احتفالاً بانسحاب الأتراك، بينما كانوا ينهبون مبنى البلدية العثماني. "جردوا المبنى من كل شيء فأصبح عارياً تماماً"، كما سجل أحد الجنود المذهولين في يومياته. وأضاف: "حتى السقف والهيكل الخشبي. لم يتركوا إلا الجدران واقفة". ظن سكان السلط أن الاحتلال البريطاني يعني نهاية حربهم، واحتفلوا بصخب في ما ثبت أنه حرية لم تدم طويلاً[11].

كان العثمانيون قد انسحبوا من السلط دون قتال لإعادة تجميع قواتهم والدفاع عن عمان. ولم يكن قائد "مجموعة يلدريم" الجديد في فلسطين وشرق الأردن سوى أوتو ليمان فون ساندرز، الذي رأس البعثة العسكرية الألمانية إلى الامبراطورية العثمانية منذ عام 1913. كانت خبرته ثمينة إلى أبعد الحدود، وقد بادله الجنود والضباط العثمانيون الاحترام الذي أبداه تجاههم بدرجة عالية من الثقة. كان ليمان بحاجة إلى التعاون الكامل من قواته العثمانية، فلو استولى البريطانيون على عمان بمرافق سككها الحديدية الاستراتيجية، لاستحال الدفاع عن المواقع العثمانية في الجنوب على امتداد الخط الحديدي الحجازي، الأمر الذي يترك 20

ألف جندي تركي في معان والمدينة معزولين تماماً. كانت معركة عمان معركة حتى الموت بالنسبة إلى القوات العثمانية في كلا الحجاز وشرق الأردن.

رد ليمان على أخبار احتلال البريطانيين بلدة السلط باستدعاء جميع القوات العثمانية المتاحة إلى عمان. أبطأت أعطال الخط الحديدي حركتها، لكن تعزيزات بمئات الجنود بدأت تتدفق من دمشق إلى عمان. استقل حوالي تسعمئة جندي القطار من معان دون أن تعيق حركتهم أي عمليات عدائية عربية. وعبر الخيالة الأتراك في فلسطين نهر الأردن بعكس التيار قرب مواقع البريطانيين فهددوا خط اتصالاتهم.

خطط البريطانيون لتأمين موقعهم في السلط بقوات المشاة، ولمهاجمة عمان بالفرسان. كان هدفهم قنطرة ونفقاً قرب عمان، ما إن يتم تدميرهما حتى يعطلا لأشهر طويلة حركة السفر بالقطار. بعد ذلك، يقوم فصيل مشاة قوي متمركز في السلط بمنع فرق الصيانة العثمانية من إصلاح الأضرار، ويهدد خطوط الاتصال بين دمشق والحاميات العثمانية جنوب عمان. إذا نجح البريطانيون فسيجبر العثمانيون على التراجع إلى شمال عمان، متخلين عملياً عن المدينة والنصف الجنوبي من شرق الأردن للهاشميين.

مع تقدمهم من السلط باتجاه عمان، واجه البريطانيون يوم 27 مارس الطقس السيئ نفسه الذي أعاق العمليات العربية في نقطة أبعد إلى الجنوب. تباطأت حركة الحيوانات والرجال على أرض زلقة تحولت إلى بقع طينية يستحيل مرور العربات عليها. نقلت المدافع والذخائر من العربات إلى الجمال لإيصالها إلى الجبهة، وكما سجل ليمان في مذكراته: "حتى الجمال بالكاد استطاعت عبور تلك الأرض التي كانت تنزلق فوقها باستمرار". وأضاف: "لقد اعترضنا برقية بريطانية تشكو من هذا الوضع السيئ". وبمراقبة الاتصالات اللاسلكية البريطانية، توفرت لدى الألمان معرفة جيدة بالخطط البريطانية فنظموا دفاعاتهم وفقاً لها[12].

اتخذ ألفا مدافع عثماني مواقع جيدة التحصين تسيطر على كل نقطة دخول إلى عمان، مسلحين بسبعين مدفعاً رشاشاً وعشر قطع مدفعية، ومستفيدين من جميع الميزات التي يتمتع بها المدافعون عادة في حرب الخنادق. اقترب الجنود البريطانيون الثلاثة آلاف من

عمان متعبين ومبللين بعد زحف مات فيه العديد منهم نتيجة التعرض للظروف الجوية السيئة. منع المطر وصول المدفعية البريطانية إلى الجبهة، وتقلصت إمداداتهم من الذخيرة والمدافع الرشاشة إلى حدود ما يمكن نقله بالجمال -التي نفق كثير منها على مسارات الوادي شديدة الانحدار وبالغة الخطورة بسبب مياه الأمطار[13].

صد الأتراك طوال ثلاثة أيام هجمات عنيدة من فرسان ومشاة قوة الحملة المصرية. ومثل مهاجميهم البريطانيين، حارب الأتراك في الطقس السيئ نفسه، وتكبدوا خسائر فادحة وبدؤوا يضعفون ويتخاذلون. ولمنع أي نوع من الانهزامية بين جنوده على خط المواجهة الأول، أعطى ليمان فون ساندرز أوامره بـ"المقاومة حتى النهاية وبصرف النظر عن أي اعتبار"، مذكراً ضباطه بأن تعزيزات جديدة تصل يومياً من دمشق ومعان لمساعدتهم على الصمود في وجه العاصفة[14].

مع أن الأتراك أيقنوا بأن وضعهم حرج، فقد كان الغزاة في وضع أسوأ. عانى الفرسان الأستراليون والنيوزيلنديون البرد القارس بعدما بللتهم الأمطار الغزيرة وناموا في العراء. كان عبور الخيول والجمال المسارات الزلقة بمياه الأمطار مستحيلاً تقريباً، ما زاد من صعوبة تزويد الجنود البريطانيين في المواقع المتقدمة بالذخائر والمؤن. ازدادت أيضا صعوبة نقل الأعداد المتنامية من الجرحى. لكن، بعد أيام من القتال العنيف، لم يبد الأتراك أي علامة على الاستسلام. كما كان خط انسحاب البريطانيين عرضة لتهديد الخيالة الأتراك، الذين هاجموا مواقعهم في بلدة السلط وعلى طول نهر الأردن. عشية يوم 30 مارس، أدرك القادة البريطانيون أنهم عاجزون عن الاستيلاء على عمان فأمروا بانسحاب شامل.

لاحق العثمانيون القوات البريطانية المنسحبة من عمان إلى السلط. وعندما بدأ البريطانيون يخلون جرحاهم ويحزمون أمتعتهم استعداداً للرحيل، اجتاح الذعر سكان السلط؛ فالهيكل المنهوب للبناء الحكومي بقي رمزاً لخيانتهم السلطنة العثمانية، وكانوا على ثقة بأنهم سيواجهون عقاباً أكيداً حين يعود الأتراك. غادر نحو 5.500 مسيحي و300 مسلم بيوتهم لمرافقة القوات البريطانية العائدة إلى القدس. وصف أحد الجنود البريطانيين في مذكراته حالة هؤلاء السكان المدنيين البائسة وسط فوضى الانسحاب البريطاني: "حمل أحد

الشبان جده على ظهره مسافة 13 ميلاً! وبدت ظهور الرجال والنساء والأطفال كلهم محنية تحت وطأة الحزم الهائلة التي يحملونها، ويتوجونها بمقلاة أو 'طشت غسيل' على رؤوسهم. العجول تسد طريق العربات المدرعة، والجمال تتعثر بالحمير المثقلة بأحمالها الزائدة"[15].

أعلنت الصحافة البريطانية أن "غزوة" عمان كانت ناجحة. لكن الجنود الذين شاركوا في الاشتباك الدامي، وخسروا 200 قتيل و1.000 جريح، عرفوا الحقيقة على نحو أفضل. وكما أوجزها أحد الفرسان النيوزيلنديين: "إن الأضرار التي لحقت بالعدو لا تبرر أبداً الخسائر الفادحة التي تكبدها البريطانيون". أما العناوين المهللة للنصر "فجعلت التقارير الصحافية تبدو في ضوء معرفة الحقيقة صفيقة وطريفة إلى حد ما"[16].

* * *

استأنف جيش فيصل عملياته ضد معان مع انسحاب القوات البريطانية من شرق الأردن. وكان لإعادة نشر العثمانيين قواتهم للدفاع عن عمان مؤخراً أثره في إضعاف حامية معان؛ الأمر الذي زاد من فرص الجيش العربي لتحقيق اختراق ضد البلدة الحصينة التي كانت لا تقهر تقريباً.

مجدداً، كانت الخطة عزل معان من الشمال والجنوب قبل القيام بهجوم مباشر على مركز البلدة. قاد جعفر العسكري رئيس أركان الجيش العربي الهجوم على جردونة، محطة القطار الشمالية، في 12 أبريل. وكان تحت إمرته كتيبة مشاة، وقطعة مدفعية واحدة، وأربعمئة فارس من البدو. اقترب المهاجمون من المحطة فجراً، وفتحوا النار من مدفعهم الميداني (عيار 18 رطلاً)، لكن المشاة المتقدمين تعرضوا لإطلاق نار كثيف من المدافعين الأتراك. انتظر العسكري هجوم خيالته البدو لنجدة المشاة، غير أنه وجدهم "يتسكعون بلا هدف بعيداً عن أرض المعركة"، فاستثارهم "بخطبة حماسية، مشيراً إلى أن رفاقهم سيذبحون ما لم ينقذوهم بهجوم يشتت الانتباه عنهم". إثر ذلك، اقتحم البدو المحطة، وأجبروا مئتي مدافع تركي على الاستسلام. ثم نهبوها، واستولوا على الأسلحة والذخائر والإمدادات العسكرية. ظهر

تي. إي. لورنس وهيوبرت يونغ لاحقاً في ذلك المساء، لينسفا سكة الحديد جنوب الجردونة، ويعزلا معان من جهة الشمال[17].

في الليلة نفسها، قاد نوري السعيد هجوماً على محطة سكة حديد غدير الحج جنوب معان، وقاد محمد علي العجلوني إحدى سرايا المشاة في الهجوم على المحطة. انقسمت القوتان تبعاً لاعتبارات الضابطين الشخصية، ووجد العجلوني نفسه، مثل جعفر العسكري قبله، مكرهاً على إلقاء "خطبة حماسية" لاستعادة النظام بين صفوف القوة المغيرة. وفرت بطارية مدفعية فرنسية وفريق مدفع رشاش الدعم الضروري، إضافة إلى بضع مئات من الفرسان البدو بقيادة الزعيم القبلي الشهير عودة أبو تايه من قبيلة الحويطات. هاجم المغيرون فجراً، كما في الجردونة، وقصفت مدفعيتهم المحطة ساعتين كاملتين. استسلم معظم المدافعين في وقت مبكر من اليوم، لكن خندقاً حاشداً بالجنود العثمانيين بقي يقاتل لساعات قبل أن يستسلم جنوده في النهاية.

تبدت البغضاء العميقة التي أثارتها الثورة العربية في غدير الحج. كرر أحد الضباط العرب مع الأسرى العثمانيين الثلاثمئة العمل الوحشي الذي ارتكبوه ضد نقيب في وحدته، مدعياً أن سجانيه الأتراك عذبوه ثم أحرقوه حياً. أمر الضابط الأسرى باختيار أربعة جنود من صفوفهم ليجري إعدامهم انتقاماً للموت الفظيع الذي لاقاه النقيب. لكن بقية الضباط العرب تدخلوا قبل أن يتمكن من متابعة فعلته، وضمنوا تلقي أسرى الحرب الترك معاملة إنسانية. استأنفت الجماعة المغيرة عملها بتدمير خمسة جسور وحوالي تسعمئة ياردة من قضبان السكك الحديدية، فعزلت بذلك معان عن الجنوب[18].

بدأ الجيش العربي هجوماً على حامية معان نفسها بعد قطع صلات البلدة بالعالم الخارجي. في 13 أبريل، احتل المرتفعات الواقعة غرب معان في منطقة السمنة. وبعد يومين اقتحم محطة السكة الحديد فيما ثبت أنها أكثر المواجهات دموية في الثورة العربية. طالت المعركة للسيطرة على المحطة مدة أربعة أيام كاملة، وتكبد الطرفان خلالها خسائر فادحة. أدان جعفر العسكري بمرارة بطارية المدفعية الفرنسية، بقيادة الكابتن روزاريو بيساني التابع

للبعثة الفرنسية إلى الحجاز، التي نفدت ذخيرتها في اليوم الأول من القتال (بل في الساعة الأولى، حسب رواية العسكري).

لم تكن للقائد العربي ثقة كبيرة بحلفائه الفرنسيين، الذين اتهمهم بدعم حصة فرنسا من اتفاقية سايكس-بيكو بهمة أكبر من دعمهم المجهود الحربي العربي. ذكر العسكري أن "النقيب بيساني ما فتئ يذكرنا بإلحاح أنه لن يتمكن من مرافقتنا إلى نقطة أبعد من الحدود السورية، وأن الفرنسيين لن يساعدوا العرب بعد تلك النقطة". "كانت تصريحات بيساني بلا شك انعكاساً لنوايا فرنسا السيئة"، كما أضاف العسكري. لكن تي. إي. لورنس، الذي كان شاهد عيان على معركة معان، منح بيساني قرينة الشك. كتب لورنس: "مع كل رشقة رصاص تطلق، كنا نجد بيساني يفرك يديه بيأس. قال إنه توسل إلى نوري [السعيد] ألا يبدأ الهجوم مع شح ذخائره في تلك اللحظة". أبرق الأمير فيصل بعد ذلك إلى وزارة الحرب الفرنسية معبراً عن شكره على "العمل الجيد" الذي قام به الجنود الفرنسيون في معان، ومعرباً عن أمله بأن "يتلقى جميع رجال المدفعية مكافآتهم". كان قائد الثورة العربية أكثر دبلوماسية من ضباطه العرب[19].

استطاعت القوات العربية الاستيلاء على ثلاثة خطوط من الخنادق التركية المحيطة بمعان بعد ثلاثة أيام من القتال الشديد. أدرك الضباط العثمانيون أنهم لن يتلقوا تعزيزات أو ذخائر جديدة مع انقطاع الخط الحديدي. طالب بعضهم بالقتال حتى آخر رجل، في حين أراد بعضهم الآخر فتح مفاوضات مع الجيش العربي لمناقشة شروط الاستسلام. قوّى سكان معان عزيمة العثمانيين على الحرب، لعلمهم أن البدو المقاتلين مع فيصل سوف ينهبون بيوتهم ومتاجرهم. انضم خمسمئة من أهالي معان إلى القوات العثمانية في اليوم الرابع من القتال، وجددوا المعركة بعزم ضد الجيش العربي المنهك.

تحطم الجيش العربي بحلول اليوم الرابع للمعركة. بقي جنوده أيامًا دون غطاء مدفعي، بينما حصدتهم الرشاشات العثمانية وقصفتهم مدفعيتها. انسحب خيالتهم البدو قبل يومين فيما عدّه المشاة النظاميون تصويتًا بعدم الثقة. ومع أكثر من نصف ضباط الجيش قتلى أو جرحى، بدأ الانضباط بين الجنود يتداعى؛ فأمر العسكري بالانسحاب على مضض. بلغت

الخسائر في معان أكثر من تسعين قتيلاً ومئتي جريح، وهي الهزيمة الأسوأ التي واجهها الجيش العربي حتى ذلك التاريخ، مع أنها لا قيمة لها بمعايير الجبهة الغربية.

في مواجهة هزيمة غير مسبوقة الأبعاد، كافح فيصل ورئيس أركانه لإعادة بناء المعنويات في جيشهم المكسور. ألقى فيصل خطاباً حماسياً، وذكّر العسكري رجاله بأن التراجع ليس هزيمة، وبأنهم حالما تتوافر لهم المدفعية سيواصلون مسيرتهم الظافرة ويأخذون معان. ساعد هذان الخطابان في رفع معنويات السوريين والعراقيين في الجيش النظامي، حسب أحد الضباط الموجودين، لكن هيبة الهاشميين المتضررة في شرق الأردن اقتضت بعض الوقت لاستعادتها[20].

* * *

حققت ألمانيا خرقاً كبيراً على الجبهة الغربية في 21 مارس 1918. إذ مكّن السلام مع روسيا القوى المركزية من إعادة نشر قواتها ونقلها من الجبهة الشرقية إلى الغربية، ما أعطاها محلياً ميزة عددية حاسمة على دول الوفاق. قرر الضباط الألمان العمل قبل أن ترسل الولايات المتحدة، التي دخلت الحرب في العام الأسبق، قوات كافية لتعديل ميزان القوة. استهدفت "العملية مايكل" نقطة ضعيفة نسبياً في خط الدفاع البريطاني عند مدينة سينت-كوينتن. وبعد قصف مدفعي ساحق، هاجمت القوات الألمانية البريطانيين واكتسحتهم أمامها. وبنهاية اليوم الأول من القتال، تقدم الألمان ثمانية أميال واحتلوا مئة ميل مربع تقريباً من الأرض الفرنسية. كان ثمن الانتصار باهظاً وتكبد الألمان خسائر فادحة، لكن خسائر البريطانيين كانت مروعة - سقط أكثر من 38.000 جندي بنهاية اليوم، بما في ذلك 21 ألف أسير[21].

شعرت قوة الحملة المصرية بتبعات هجوم الربيع الألماني وعواقبه على الفور تقريباً. ففي 27 مارس 1918، أمرت وزارة الحرب البريطانية الجنرال اللنبي باعتماد استراتيجية "دفاع إيجابي" في فلسطين، وتهيئة فرق المشاة لديه لإرسالها فوراً إلى فرنسا. بحلول منتصف عام 1918، أرسل اللنبي نحو 60.000 من الجنود المشاة ذوي الخبرة القتالية العالية من مصر

وفلسطين إلى فرنسا، وحل محلهم مجندون جدد من الهند -جنود أغرار لا خبرة لهم وبحاجة إلى تدريب مكثف قبل استكمال جهوزيتهم للمعارك[22].

أقدم اللنبي على محاولة أخيرة للاستيلاء على شرق الأردن قبل الانتقال إلى استراتيجية "الدفاع الإيجابي" وشحن خيرة جنوده إلى فرنسا. لكن، نظراً إلى القيود الصارمة، كانت الحملة سيئة التوقيت والتخطيط، وبدا لمعظم المراقبين أن اللنبي أرسل جنوده إلى مصيدة.

اقتضت خطة اللنبي استخدام الفرسان لتأمين المعابر المفتاحية على نهر الأردن، وحماية المسارات الرئيسة الثلاثة المفضية من وادي الأردن إلى هضبة عمان. بعد ذلك، تهبط القوات المحمولة الوديان لإعادة احتلال السلط، وبعد تأمين مواقعها في السلط ضد أي هجوم معاكس، يعدو الخيالة الأستراليون والنيوزيلنديون بأقصى سرعة عائدين إلى وادي الأردن لمهاجمة الحامية التركية في شونة نمرين من الخلف، وإجبارها على الاستسلام. كان رجال اللنبي قد تفاوضوا مع قبائل بني صخر القوية لقطع المسار الحيوي الرابع بين وادي الأردن وهضبة عمان، وإحكام الطوق على القوات العثمانية بين السلط ووادي الأردن. ومن هذا الموقع القوي سوف تكون القوات البريطانية في وضع جيد لاحتلال عمان والهضبة المرتفعة[23].

اعتقد ضباط اللنبي أن خطته غير عملية. وكان الجنرال السير هاري شوفيل، قائد فيلق الصحراء المحمول، على قناعة بأن العثمانيين توقعوا الهجوم. ولربما كان على حق، نظراً إلى اعتراض الألمان المتكرر اتصالات البريطانيين البرقية. قد يكون البدو أيضاً أفشوا خطط البريطانيين للعثمانيين. كان شوفيل منزعجاً جداً من الدور البارز الذي أعطاه اللنبي للبدو، ولم يؤمن الجنرال الأسترالي بأن رجال القبائل كانوا موثوقين لدرجة الاعتماد عليهم حين يحمى الوطيس. في الحقيقة، كان بنو صخر من قبائل شرق الأردن التي انقسم ولاؤها بين الهاشميين والعثمانيين. ولو كان رجال اللنبي تفاوضوا مع الفرع الأكثر ميلاً إلى العثمانيين من قبائل بني صخر، فلا بد أن خططهم تسربت مباشرة إلى ليمان فون ساندرز.

أمران اثنان يجعلان خيانة بني صخر تبدو محتملة. أولاً، أدى رجال القبيلة دوراً مفتاحياً في تحديد تاريخ هجوم اللنبي، فقد قالوا إنهم لن يكونوا جاهزين لقطع طريق شونة نمرين

حتى الرابع من أبريل، ولا تبدو أسبابهم مقنعة في تحديد هذا التاريخ الذي يبدو اعتباطياً، إذ زعموا أنهم بحاجة إلى تغيير مضاربهم بعد ذلك التاريخ لإعادة التزود بالمؤن. يبدو أن بني صخر كانوا يعملون لمصلحة العثمانيين في إجبار اللنبي على شن هجومه في تاريخ محدد ووقت أبكر مما خطط له. الأمر الذي يدينهم إلى درجة أكبر أنهم لم يحضروا في التاريخ المتفق عليه لقطع المسار الاستراتيجي إلى شونة نمرين، فحكموا على الخطة البريطانية بالفشل حتى قبل أن تبدأ[24].

* * *

عبرت أولى وحدات الخيالة الأسترالية نهر الأردن قبل شروق الشمس يوم 30 أبريل، واتخذت المواقع المحددة لها في خطة المعركة. وصلت أخبار الهجوم إلى ليمان فون ساندرز في الساعة 8:30، فشن هجوماً معاكساً أخذ الغزاة تماماً على حين غرة. استطاع ليمان أن ينشر بسرية مطلقة تعزيزات جديدة مهمة في فلسطين، بما في ذلك كتيبة خيالة من جيش القوقاز وعدة وحدات مشاة ألمانية. كذلك جمّع الألمان والعثمانيون جسراً عائماً وأخفوه لاستخدام هذه القوات على وجه السرعة بين ضفتي نهر الأردن الغربية والشرقية. وبأمر من ليمان، بدأت هذه القوات عبور نهر الأردن لتحدي الغزاة.

سلمت قوات اللنبي المحمولة اثنين من المسارات المفضية من وادي الأردن إلى السلط بعد أن وجدت فجأة أن القوات المعادية تفوقها عدداً. بقي طريق شونة نمرين مفتوحاً لمرور القوات التركية دون أي أثر لقبيلة بني صخر. ترك ذلك طريقاً واحداً فقط بيد البريطانيين كي تصل قواتهم إلى السلط أو تنسحب منها. وكان ذلك الطريق عرضة لخطر وشيك بقطعه من قبل قوات عثمانية وألمانية أقوى بكثير مما توقعه اللنبي.

أرسلت قوات جديدة عبر الأردن لمساعدة قوة الحملة المصرية في تأمين مواقعها المحاصرة، واشتبكت في قتال عنيف مع قوات عثمانية هددت بعزل القوة البريطانية وهزيمتها. بعد أربعة أيام، ومع انخفاض كميات الذخائر والمؤن، طلب شوفيل إذن اللنبي بالانسحاب. تُركت السلط للمرة الثانية، وبحلول منتصف ليل 4 مايو عبرت جميع القوات المتبقية بأمان عائدة

إلى فلسطين. خسرت قوات الحملة المصرية 214 قتيلاً وحوالي 1.300 جريح، وكما استنتج أحد الجنود البريطانيين: "كان الهجوم الثاني على السلط خطأ ذريعاً أفسد كل شيء"[25].

* * *

نَعِمَ العثمانيون بفترة انتعاش مدهشة في الأشهر الخمسة بعد سقوط القدس. فالسلام مع روسيا استعاد الأراضي التي خسرتها تركيا شرق الأناضول، وأزال التهديدات العسكرية في القوقاز وبلاد الرافدين. كذلك أدى الكشف عن اتفاقات تقسيم سرية زمن الحرب إلى تشويه سمعة البريطانيين والفرنسيين والهاشميين. كما استطاعت "مجموعة يلدريم" عملياً احتواء هجمات الجيش العربي في معان، ومحاولة جيش اللنبي احتلال عمان. ومع اختراق الألمان الخطوط البريطانية والفرنسية على الجبهة الغربية، بدا أن العثمانيين على الطرف الرابح من الحرب العظمى.

كان التأثير في الرأي العام شرق الأردن دراماتيكياً. في السلط، تطوع سكان البلدة للانضمام إلى الجيش العثماني، و"كان الوجهاء في القرى"، كما كتب أحد عملاء الاستخبارات الفرنسية في تقريره، "يسجلون أسماء متطوعين كثر يقدمون أنفسهم للخدمة العسكرية. يقول السكان: 'إذا اضطر الإنكليز إلى الانسحاب عندما واجهتهم قوات تركية قليلة كهذه، فلن يستطيعوا تحقيق أي تقدم أبعد؛ لأن القوات التركية تنمو باطراد. لهذا يجب أن نحافظ على علاقات جيدة مع الأتراك ونكسب ودهم وتعاطفهم'". كذلك اهتزت الثقة بجيش فيصل، ولم تستجب القبائل العربية في وسط شرق الأردن لمناشداته الانضمام إلى الثورة العربية. وكما فسر أحد عملاء الاستخبارات الفرنسية المحليين: "كان العرب سيردون على فيصل بالعبارات التالية: لقد استوليت على الطفيلة ثم انسحبت منها، واحتل الإنكليز السلط مرتين ثم تراجعوا عنها. إذا أعلنا الحرب على العثمانيين نخشى أنك ستتخلى عنا أيضاً بعد أن يذبح الأتراك جنودنا"[26].

وجد اللنبي نفسه مضطراً لتأجيل أي أعمال عسكرية أخرى في فلسطين حتى الخريف التالي على أقرب تقدير، بعد أن ودع خيرة جنوده المدربين واستقبل مجنديه الأغرار الجدد.

وبعد ربيع الحملات الكارثية لقوة الحملة المصرية، كانت النتيجة الإيجابية الوحيدة هي أن الحملتين على عمان شجعتا العثمانيين على سحب قواتهم من فلسطين لتعزيز مواقعهم في شرق الأردن. كان ذلك في مصلحة اللنبي؛ لأن هجوم قوة الحملة المصرية النهائي جاء في فلسطين، وليس في الأردن.

* * *

شن أنور باشا محاولة يائسة لتعزيز مواقع الامبراطورية في القوقاز بعد أن استطاع العثمانيون احتواء قوات اللنبي في فلسطين. رأى أنور وزملاؤه في اتفاقية السلام الموقعة مع روسيا في بريست-ليتوفسك (مارس 1918)، فرصة سانحة لاستعادة الأراضي التي خسرتها السلطنة بينما لا تزال روسيا ضعيفة بفعل الثورة والحرب الأهلية. وعلى الرغم من أنه لم يكن في حالة حرب مع روسيا، فقد كان أنور بحاجة إلى جنوده على الجبهة الشرقية أكثر من أي وقت مضى.

في شباط 1918، تقدم الجيش العثماني لاستعادة أراض احتلها الروس في سياق الحرب. حسمت أخيراً مشكلة فراغ السلطة في طرابزون يوم 24 فبراير، عندما دخلت القوات العثمانية المدينة، ليس فقط دون قتال بل اصطفت فرقة آلات نحاسية روسية للترحيب بها. تقدمت القوات التركية النشطة بعد ذلك باتجاه أرضروم واقتحمتها يوم 11 مارس. تعجب الجنود الترك بجراياتهم الهزيلة من وفرة المؤن التي تركها الروس وراءهم -كانت أكثر من كافية لإطعام الجيش العثماني أثناء تقدمه باتجاه حدود عام 1914، التي وصلها يوم 24 مارس[27].

واجه الأتراك معضلة في انتقالهم إلى ما وراء حدود عام 1914 لتثبيت مطالبهم بالولايات الثلاث التي تنازلوا عنها لروسيا عام 1878، ولكن استعادوها في بريست-ليتوفسك. من جهة، كان استرجاع أراض عثمانية محتلة مسألة أولوية وطنية، لكن التشجيع على إقامة دول عازلة تفصل امبراطوريتهم عن روسيا كان يصب، من الجهة المقابلة، في مصلحة العثمانيين. فجورجيا وأرمينيا وأذربيجان، الدول الثلاث الجديدة والضعيفة نسبياً

التي ظهرت بعد انهيار الامبراطورية الروسية، ستكون مستقبلاً جاراً أسلم للامبراطورية العثمانية من العملاق الروسي. كان التحدي استعادة الولايات العثمانية السابقة -باطوم في جورجيا، وقارص وأرداهان في أرمينيا - دون زعزعة استقرار جارات تركيا الجديدة على حدود القوقاز.

دخلت القوات التركية باطوم في 19 أبريل، واحتلت قارص في 25 منه. بدأ الأتراك التحضير لاستفتاء شعبي يشرعن ضم هذه الولايات إلى الامبراطورية العثمانية وفق اتفاقية بريست-ليتوفسك. نظم الجيش العثماني عملية التصويت في استفتاء للذكور فقط بإشراف لجنة من الموظفين المدنيين الأتراك، وحقق نتائج متوقعة: أيد 97.5 ٪ من مجموع الأصوات ضم الولايات الثلاث إلى الامبراطورية العثمانية. وأضفى الفرمان السلطاني الصادر في 11 أغسطس 1918 الصبغة الرسمية على العملية، وقبل فيه السلطان وحيد الدين محمد السادس رغبات سكان المنطقة بالعودة إلى حضن السلطنة العثمانية "حماها الله".

عندما تجاوز العثمانيون الولايات الثلاث لمحاولة احتلال العاصمة الأذرية باكو، واجهوا موقفاً عدائياً مشتركاً من حلفائهم الألمان وأعدائهم البريطانيين والبلاشفة على حد سواء. كانت باكو الغنية بالنفط أكبر غنيمة في منطقة القوقاز. وضع الألمان أعينهم على المدينة المشرفة على بحر قزوين منذ بداية الحرب، وفي صيف عام 1918 كانوا بحاجة إلى مصادرها النفطية أكثر من أي وقت مضى. وصمم البريطانيون المتقدمون عبر فارس من جهتهم على منع الألمان وحلفائهم العثمانيين من الاستيلاء على باكو.

كانت قبضة البلاشفة على المدينة ضعيفة، حيث مارسوا سلطتهم من خلال نظام ثوري عنيف اشترك مع الحزب القومي الأرمني، "الداشناك"، فيما عرف باسم "كومونة باكو". في مارس 1918، ارتكبت قوات الكومونة مجزرة بحق الأغلبية الأذرية المسلمة، قتل فيها ما يزيد على 12.000 مسلم. هرب نصف السكان المسلمين الناجين من المدينة إلى الأمان النسبي في الأرياف. وعندما طلب المسلمون الأذريون العون من الأتراك، سارع أنور باشا إلى تبني قضيتهم وبسط النفوذ العثماني على نفط بحر قزوين.

توصل العثمانيون والأذريون إلى معاهدة صداقة وتحالف في 4 يونيو 1918، سعى الأذريون فيها إلى تحرير أراضيهم من سيطرة البلاشفة والحصول على مساعدة العثمانيين العسكرية. وقف الألمان ضد تقدم حلفائهم الأتراك نحو باكو. وبعد أحداث برلين، نصح إيريش لودندورف وبول فون هندنبرغ، حاكما ألمانيا العسكريان، أنور باشا بسحب قواته إلى الحدود المعترف بها في اتفاقية بريست-ليتوفسك، وإعادة نشر فرق القوقاز على الجبهات العربية حيث الحاجة إليها أكثر إلحاحاً. تجاهل أنور "النصيحة" وتابع تقدمه بلا مبالاة. ففي وقت كان كل شيء هادئاً في فلسطين، أراد أنور استغلال الفرصة السانحة لضمان المصالح العثمانية في لعبة جيوسياسية سريعة التبدل، معتقداً أنه يستطيع نشر قواته من باكو جنوباً باتجاه بلاد الرافدين لاستعادة بغداد.

شكل أنور فيلق متطوعي القوقاز كرأس حربة "لتحرير" باكو، وأسماه جيش القوقاز الإسلامي. عين أخاه غير الشقيق، نوري باشا، الذي خدم مع جعفر العسكري في الحملة السنوسية في الصحراء الغربية (1915-1916)، قائداً لقوة المتطوعين. ونظراً إلى الاستجابة الفاترة لمحاولات نوري باشا تجنيد شباب القوقاز، اضطر أنور لتحويل فرقة مشاة عثمانية لتعزيز قوات جيش القوقاز الإسلامي. صدت مدفعية البلاشفة والظهور المفاجئ لكتيبة بريطانية محاولة أولى لاحتلال باكو في 5 أغسطس. طلب نوري إرسال تعزيزات على عجل، فأرسل أنور فوجين عثمانيين آخرين للمساعدة في فتح باكو. استطاعت القوات العثمانية أخيراً الاستيلاء على المدينة في 15 سبتمبر-ليس لإضافة باكو إلى الامبراطورية العثمانية بل لضمان أن تبقى دولة أذربيجان الجديدة تابعاً مطيعاً للسلطنة في قوقاز ما بعد-القيصر.

نجح أنور في استعادة الأراضي العثمانية في القوقاز، وفي تشكيل الدول الجديدة على حدود شرق الأناضول على نحو مؤاتٍ للمصالح العثمانية. لو ربح العثمانيون الحرب العظمى، لاعتبر أنور رجل دولة ملهمًا أمّن الحدود الشرقية لوطنه. لكن قوات اللنبي اخترقت الخطوط التركية في فلسطين بعد أيام من دخول العثمانيين باكو. اليوم، ينظر إلى حملة أنور في القوقاز على أنها مبادرة متهورة شتتت القوات العثمانية وحولتها بعيداً عن الجبهات

الأكثر حيوية في فلسطين وبلاد الرافدين، فأسهمت في سقوط الامبراطورية العثمانية بدل الحفاظ عليها[28].

* * *

أوقفت قوات الحلفاء الاختراق الألماني على الجبهة الغربية بحلول صيف عام 1918، وشجعت الحكومة البريطانية الجنرال اللنبي ثانية على تجديد هجومه على الجبهة العثمانية- طالما استطاع تدبير أموره بموارده الموجودة. في منتصف يوليو، أخبر اللنبي وزارة الحربية أنه ينوي استئناف العمليات في الخريف، وبدأ قائد قوة الحملة المصرية التخطيط جدياً.

كان اللنبي بارعاً في الخداع. في معركة بئر السبع (31 أكتوبر 1917)، بذل كل ما في وسعه لإقناع العثمانيين بأنه يخطط للقيام بمحاولة ثالثة لاحتلال غزة، وبفعله ذلك شجع عدوه على إضعاف دفاعاته تماماً حيث خطط للهجوم. أما الآن، ولإخفاء خططه بهجوم رئيس على المواقع العثمانية على شاطئ المتوسط في فلسطين، تظاهر اللنبي بالتخطيط لهجوم ثالث على عمان.

أمر اللنبي جنوده، حين لم يكونوا منخرطين في تدريبات أساسية تحضرهم للحملة القادمة، ببناء نماذج بحجم حقيقي من خشب وقماش لخيول بلغ مجموعها 15.000. وتحت جنح الظلام بدأ ينقل وحدات الفرسان والمشاة تدريجياً من وادي الأردن وجبال الخليل إلى الساحل، حيث جرى إيواؤها في خيام مموهة لمنع الطائرات الألمانية من ملاحظتها. تركت النماذج الخشبية والقماشية مكان الخيول الحقيقية، بينما قاد الجنود بغالاً تجر زلاجات فوق تربة وادي الأردن الجافة لمحاكاة الغبار المتصاعد من مناورات الخيالة. كذلك شيد المهندسون نماذج لجسور جديدة عبر نهر الأردن، وبثت إشارات اللاسلكي من مقرات قيادات مهجورة.

أدّى الجيش العربي دوراً مفتاحياً في تركيز الاهتمام العثماني على شرق الأردن. بلغت القوة النظامية لجيش جعفر العسكري 8.000 رجل، تعززهم عربات مدرعة بريطانية، ومدفعية فرنسية، وفيلق هجانة مصري، وطائرات أسترالية وبريطانية. كما حشد الشريف ناصر

آلاف المقاتلين البدو غير النظاميين الذين أقسموا الولاء للثورة العربية. في بداية سبتمبر، بقي جعفر العسكري والجزء الأكبر من جيشه في مواقعهم المحيطة بمعان، لكنه أرسل فصيلًا من الجيش العربي قوامه ألف رجل إلى الأزرق، وهي واحة تبعد 50 ميلًا شرق عمان. ساعد ظهورهم المفاجئ في إثارة شائعات عن هجوم عربي وشيك على عمان، في حين كُلّفت قوات فيصل في الحقيقة بمهمة قطع الخطوط الحديدية في درعا، عقدة المواصلات المفتاحية، حيث يلتقي الخط الحديدي الحجازي مع خط حيفا الفرعي.

شن سلاح الجو الملكي غارات عديدة على درعا يوم 16 سبتمبر في محاولة لعرقلة الاتصالات العثمانية، ولتشجيع ليمان فون ساندرز على تركيز اهتمامه على الدفاع عن الخط الحديدي الحجازي. قاد تي. إي. لورنس القوات العربية في هجوم بالعربات المدرعة على الخط الحديدي جنوب درعا، حيث نجح في تدمير جسر. في اليوم التالي، هاجمت القوة العربية الرئيسة الخط شمال درعا، دون رد من الترك. هرع العثمانيون لإصلاح الخط الحديدي، واستدعى ليمان قوات الاحتياط من مدينة حيفا الساحلية لدعم درعا، فأوقع نفسه تماماً في شرك خداع اللنبي.

في عزمه على إبقاء تفاصيل الهجوم سرية، انتظر اللنبي حتى قبل ساعة الصفر بثلاثة أيام فقط لاطلاع ضباطه من قادة الألوية والأفواج على الأهداف الحقيقية للهجوم. بحلول ذلك الوقت، استطاع اللنبي تركيز 35.000 جندي من المشاة و9.000 من الفرسان، مدعومين بحوالي أربعمئة قطعة مدفعية ثقيلة، على جبهة بطول خمسة عشر ميلاً شمال يافا على البحر الأبيض المتوسط. لم يكن لدى الأتراك أكثر من 10.000 آلاف رجل و130 مدفعاً للدفاع عن الشريط الساحلي، بينما كانت مواقعهم في شرق الأردن معززة ومحصنة تحسباً لهجوم وشيك[29].

قبل يومين من انطلاق الهجوم، فر جندي هندي من الخطوط البريطانية والتجأ إلى الخنادق العثمانية، وكشف لدى التحقيق معه من قبل ضباط عثمانيين وألمان كل ما يعرفه عن الحملة الوشيكة -تحديداً بأن البريطانيين ينوون خرق الخطوط العثمانية على المتوسط

في هجوم يبدأ يوم 19 سبتمبر. سجل ليمان في مذكراته أن "الجندي الفار أراد الهروب" من هذا الهجوم. لكن خداع اللنبي كان محكماً لدرجة أن ليمان وضباطه رفضوا رواية الجندي الهارب باعتبارها تضليلاً متعمداً؛ فحشد القوات العربية في الأزرق، والهجمات على درعا أقنعت ليمان بأن الحلفاء عازمون على قطع الخط الحديدي الحجازي، خط اتصالاته الرئيس، ما دفعه إلى تعزيز مواقعه في شرق الأردن إلى درجة أكبر[30].

قبل بزوغ فجر 19 سبتمبر بقليل، كشف البريطانيون عن نواياهم الحقيقية بقصف مدفعي مكثف على الخنادق العثمانية شمال حيفا. كانت تجربة المعركة الأولى للعديد من الجنود الهنود مروعة، إذ أطلقت المدافع مجتمعةً قنابلها بمعدل ألف قذيفة في الدقيقة الواحدة. "كانت نيران المدفعية والرشاشات كثيفة جداً"، كما كتب جندي من السيخ لأبيه. "لم تعد آذاننا تسمع شيئاً، ولم يعد بمقدور الأخ التعرف على أخيه في ذلك المكان. إذ زلزلت الأرض نفسها"[31].

حالما انتهى القصف المدفعي، اقتحم المشاة البريطانيون والهنود الخنادق العثمانية المدمرة. وبعد قتال بالسلاح الأبيض في خطي الدفاع الثالث والرابع، انسحب الجنود الأتراك الذين استطاعوا الانسحاب، واستسلم الباقون. في أول ساعتين ونصف الساعة من بدء العمليات، اخترق المشاة البريطانيون الخطوط التركية وتقدموا مسافة 7.000 ياردة، فاتحين الطريق أمام الفرسان لغزو فلسطين الشمالية.

عبرت وحدات الفرسان الأستراليين والنيوزيلنديين الثغرة التي فتحها المشاة، وبدأت سلسلة مناورات تهدف إلى تطويق الجيشين العثمانيين السابع والثامن، والاستيلاء على البلدات الرئيسة. كان أحد أوائل أهداف البريطانيين تقاطع طرق طولكرم. وعندما اندلعت المعركة هناك كان توفيق السويدي، الذي ساعد في تنظيم المؤتمر العربي عام 1913 حين كان طالباً في باريس، يعمل في وظيفة مكتبية في طولكرم. استيقظ هو ورفاقه في حالة "ذعر" على دوي المدافع، فتسلق إلى السطح واستطاع رؤية تبادل القصف المدفعي على

بعد عشرة أميال. "امتد خط نار مرعب على طول الجبهة"، كتب السويدي، "بينما تابع كل طرف قصف الآخر بضراوة لا هوادة فيها". بعد شروق الشمس بقليل بدأ الجنود العثمانيون المنسحبون يتدفقون إلى طولكرم، "ثم ظهرت القوات البريطانية من كل مكان لتأسر فلول الجيش التركي"[23].

قصفت طائرة بريطانية مدينة طولكرم، فهرب السكان المدنيون من البلدة مذعورين. تراجع السويدي معهم إلى قرية مجاورة حيث خلع زي الضابط العثماني الرسمي ولبس ثياب فلاح فلسطيني، وبهذه الحركة الرمزية البسيطة، انضم السويدي إلى الأعداد المتضخمة من الفارين من صفوف الجيش العثماني. بقي السويدي في الأراضي التي تحتلها بريطانيا، تاركاً الحرب العثمانية العظمى ليحلم بالعودة إلى وطنه بغداد، بينما كانت القوات التركية تنسحب في حالة فوضى.

سارع الخيالة البريطانيون إلى عبور فلسطين الشمالية لتأمين البلدات وتقاطع الطرق الرئيسة، واستكمال تطويق الجيشين العثمانيين السابع والثامن، العمود الفقري لـ"مجموعة يلدريم" التي كانت يوماً مرهوبة الجانب. سقطت بيسان والعفولة في أيدي البريطانيين فجر يوم 20 سبتمبر، وكانت غارات القوة الجوية الملكية وفيلق الطيران الأسترالي قد دمرت خطوط الهاتف العثمانية. وبتدمير اتصالاتهم، لم يتلق الضباط الأتراك والألمان أي إنذار بتقدم القوات البريطانية أو بخسائر العثمانيين.

بعد أربع وعشرين ساعة من بدء العمليات، ذهل ليمان في مقر قيادته في الناصرة بظهور البريطانيين المفاجئ في ضواحي البلدة. بالكاد تجنب القائد الألماني الوقوع في الأسر، نتيجة تباطؤ التقدم البريطاني بسبب القتال العنيف من شارع لشارع. "أغرب ما في الأمر"، كما كتب جندي هندي لأهله، "أن بعض الطائرات المعادية سقطت بأيدينا هنا [في الناصرة] مع طياريها. أي أثبت الخيالة أنهم ماهرون بما يكفي لإمساك الطيور بأيديهم". بعد مواجهة مقاومة عنيدة، ضمن البريطانيون السيطرة على الناصرة يوم 21 سبتمبر[33].



أسرى عثمانيون بالقرب من طولكرم، فلسطين، 22 سبتمبر 1918. أدى الهجوم المفاجئ على المواقع العثمانية شمال فلسطين في 19 سبتمبر إلى انهيار الجيشين العثمانيين السابع والثامن، وإجبار عشرات الآلاف من الجنود الترك على الاستسلام. هنا، يرافق الخيالة البريطانيون طابوراً يضم 1.200 أسير عثماني.

احتلت القوات البريطانية المدن الرئيسة في المرتفعات الفلسطينية، وسيطرت على جسر المجاميع، وهو جسر السكة الحديدية الرئيس فوق نهر الأردن، مع اليوم الثالث من بدء العمليات. وبعد أن قطعت جميع طرق الهروب من الضفة الغربية إلى شرق الأردن، بدأت قبول استسلام عشرات آلاف الجنود الترك من الجيشين السابع والثامن، اللذين لم يعد لهما وجود بحلول يوم 21 سبتمبر. كل ما تبقي لإكمال غزو فلسطين كان تأمين الميناءين الشماليين عكا وحيفا، وسقط كلاهما بيد الخيالة البريطانيين والهنود يوم 23 سبتمبر.

تحول اللنبي الآن إلى شرق الأردن بعد أن صارت فلسطين آمنة بأيدي البريطانيين. سارع لواء الفرسان النيوزيلندي (المحمول) إلى احتلال مدينة السلط (23 سبتمبر) ثم عمان (24 سبتمبر). واعترض لواء الفرسان الأسترالي الخفيف الثاني حامية معان العثمانية المؤلفة من 4 آلاف رجل، التي أمرت بالانسحاب إلى عمان كجزء من محاولة أخيرة لحشد قوات

الجيش الرابع للدفاع عن دمشق. وافق الجنود الأتراك على الاستسلام، لكنهم رفضوا إلقاء أسلحتهم لوجودهم وسط رجال قبائل عرب يظهرون لهم العداء. تقدم الجنود الأسرى مع آسريهم تحت الحراسة إلى عمان قبل أن يشعر الأتراك بما يكفي من الأمان من هجمات البدو ليسلموا أسلحتهم.

مع انكفاء الجيش العثماني إلى دمشق، وحدت قوات الجيش العربي وقوة الحملة المصرية بقيادة اللنبي جهدها معاً في محاولة مشتركة لاحتلال العاصمة السورية. اقتحم الجيش العربي درعا ليلة 26-27 سبتمبر، وانضمت إليه هناك القوات البريطانية في اليوم التالي. زحف الجيشان على الفور إلى دمشق، وقام الخيالة الهنود والأستراليون والنيوزيلنديون بالتفافة دائرية من شمال فلسطين لقطع خط الانسحاب العثماني باتجاه بيروت غرباً وحمص شمالاً. أما القوات البريطانية والعربية فتقدمت باتساق من درعا، وزحفت مسافة السبعين ميلًا إلى دمشق في مطاردة حثيثة لفلول الجيش العثماني الرابع. في 30 سبتمبر وصل الحلفاء إلى ضواحي دمشق.

بلغت سياسات حملة فلسطين أوج تعقيدها بدخول دمشق. فنظراً إلى خطط التقسيم العديدة التي جرى التفاوض عليها أثناء الحرب، لم تغب الاعتبارات السياسية قط عن حملة اللنبي. في يونيو، تلقى اللنبي كتيبتين يهوديتين من فرقة حملة البنادق (المشاة) الملكية، تشكلتا بهدف معلن هو تشجيع المطالب الصهيونية في فلسطين "عبر البسالة والتضحية في ساحات المعارك". بينما أسهمت فرنسا بـ"كتيبة فلسطين وسورية" لضمان حماية المطالب الفرنسية القديمة في سورية، وتألف أحد أفواج الكتيبة بالكامل من لاجئين أرمن أنقذهم الفرنسيون من حصار جبل موسى الشهير. أما الأمير فيصل فكان في مقدمة الركب، ونصيره تي. إي. لورنس بجانبه، لتأكيد مطالب الهاشميين في حكم سوريا كجزء من المملكة العربية الكبرى. وهكذا، تزاحم جميع أصحاب المصالح المشاركين في مراسلات حسين-مكماهون، واتفاقية سايكس-بيكو، ووعد بلفور على الصدارة والتفوق مع بلوغ الحملة ذروتها على أبواب دمشق[34].

منح البريطانيون شرف قبول استسلام المدينة للحلفاء إلى جيش فيصل العربي، مكافأة لحلفائهم الهاشميين. لكن لواء الفرسان الأسترالي الخفيف الثالث نال ميزة السبق بكونه أول من دخل دمشق فعلياً. مُنحت وحدة الخيالة الإذن بعبور دمشق فجر الأول من أكتوبر لقطع خط الانسحاب العثماني على الطريق الرئيس شمالاً إلى حمص. وما كان ينبغي لها تجشم هذا العناء، فقد ركب آخر الجنود العثمانيون للتو القطار إلى محطة رياق وتركوا المدينة بأيدي لجنة من وجهاء دمشق في الليلة السابقة. استبدلت الأعلام التركية برايات الأشراف الهاشميين استباقاً لدخول فيصل، وسرعان ما غادر الأستراليون دمشق ليتخذوا مواقعهم المحددة ويُخلوا المدينة أمام جيش الشريف لاحتلالها رسمياً.



لواء الفرسان الأسترالي الخفيف (الثاني) يدخل دمشق. كان الأستراليون أول الواصلين إلى دمشق يوم 1 أكتوبر، لكن سمح لجيش الأمير فيصل العربي، لأسباب سياسية، قبول استسلام المدينة.

دخل الشريف ناصر، الذي خدم القضية الهاشمية منذ بدء الثورة، دمشق نيابة عن الشريف حسين أمير مكة، الذي نصب نفسه ملكاً للعرب. رافقه عودة أبو تايه ونوري الشعلان، أقوى زعيمين قبليين يؤيدان حملة فيصل، على رأس نحو 1.500 جندي بدوي. اصطف سكان المدينة في الشوارع للترحيب بالقوات الهاشمية كقوات تحرير، مع أن التجار كانوا متوجسين وقلقين. وكما توقعوا، بدأ البدو نهب المدينة بعد دخولها بمدة وجيزة. بينما أخذت القوات البريطانية وقوات الحلفاء تشق طريقها إلى قلب المدينة المحررة، تحف بها الحشود، وتحيط بها مشاعر البهجة لدى الناس الذين اعتبروا عن حق تقهقر العثمانيين الفصل الختامي في حرب طويلة ومروعة[35].

استمر الاحتفال طوال اليومين التاليين مع دخول الجنرال اللنبي دمشق أولاً، ووصول الأمير فيصل نفسه أخيراً يوم 3 أكتوبر 1918. قاد هيوبرت يونغ، الضابط البريطاني الملحق بالثورة العربية كرديف لتي. إي لورنس، سيارة مرسيدس كبيرة حمراء اللون كان ليمان فون ساندرز تركها وراءه في دمشق، للقاء فيصل. وجد يونغ الأمير العربي "على رأس كوكبة كبيرة من الفرسان"، يقودون خيولهم "عبر شوارع ضيقة تغص بالدمشقيين المتهللين فرحاً". عرض أن يقله في طريق العودة إلى مركز المدينة، لكن الأمير اعتذر عن قبول "التوصيلة"، وفضل دخول دمشق على صهوة جواد عربي لا في سيارة "ليموزين" ألمانية.

ذهب فيصل على الفور إلى فندق "فيكتوريا" (فندق "النصر")، وهو اسم ملائم للمناسبة، للاجتماع التاريخي الأول مع الجنرال اللنبي. طغت سياسات التقسيم على ما كان ينبغي أن تكون لحظة احتفال، حيث انتهز اللنبي الفرصة ليشرح للأمير فيصل، عبر مترجمه لورنس، الترتيبات الإدارية الجديدة: تمشياً مع مقتضيات وعد بلفور، كما قال اللنبي، لا تتمتع الإدارة العربية بمكانة قانونية في فلسطين. واحتراماً للمصالح الفرنسية المرعية في اتفاقية سايكس-بيكو، لن يكون للحكومة العربية دور في لبنان الذي ستديره فرنسا. وتلبيةً لرغبات الفرنسيين، يجب على فيصل ضمان إزالة العلم الهاشمي عن الأبنية العامة في بيروت. أخيراً، وطالما بقيت أوضاع الحرب سائدة، سيتولى الجنرال اللنبي القيادة العليا في سائر الأراضي العربية التي تحتلها قوات الوفاق[36].



خيالة من الجيش العربي يدخلون دمشق، 1 أكتوبر 1918. الرمزية التي تعبر عنها الصورة لافتة فعلاً. حيث يركب ضباط بريطانيون سيارة حديثة في اتجاه معاكس لموكب الفرسان العرب. تماماً مثلما تعاكست السياسة الإنكليزية والعربية عقب سقوط دمشق.

ذهب فيصل من هذا الاجتماع مع اللنبي في فندق فيكتوريا إلى مبنى البلدية لتلقي مبايعة عامة الدمشقيين. لكن، بعد هكذا لقاء، لا بد للمرء أن يتساءل عما شعر به فيصل والسوريون يحتفون به كـ"محرر دمشق"!

طارد البريطانيون العثمانيين بقية الشهر، محتلين جميع المدن الرئيسة في سورية ولبنان. لم يستطع العثمانيون قط إقامة خط دفاعي لوقف حركة البريطانيين الحربية التي بدأت يوم 19 سبتمبر. اختتم سقوط حلب بتاريخ 26 أكتوبر حملة حققت عملياً أهدافها كلها. وسوف يجبر تدمير الجيش العثماني في سوريا الأتراك على الخروج من الحرب نهائياً. وقد تحقق هذا الهدف بعدد قليل إلى حد مذهل من خسائر الحلفاء -التي بلغت 5.666 جندياً بين قتيل أو جريح أو مفقود. لا تتوافر أرقام رسمية عن خسائر الأتراك في الحملة، مع أن البريطانيين يدّعون أسر 75.000 جندي[37].

* * *

كانت القوى المركزية في حالة انهيار نهائي وقت هزيمة العثمانيين في سوريا، بينما تزايدت أعداد دول العالم التي تنضم إلى قوى الوفاق. في يوليو 1917، أعلنت اليونان الحرب على القوى المركزية، وتبعتها الصين في أغسطس. كما أعلنت عدة بلدان في أميركا الجنوبية الحرب على ألمانيا، أو قطعت علاقاتها مع الدولة الألمانية. لكن قوة الحملة الأميركية غيرت ميزان القوى بشكل حاسم لمصلحة دول الوفاق. ففي خلال ثمانية عشر شهراً من إعلان الحرب على ألمانيا، ازداد عدد الجيش الأميركي من 100.000 إلى 4 ملايين جندي، واستطاع الأميركيون نشر مليونين منهم في الخارج. بعد أربع سنوات من مذبحة دامية لا هوادة فيها، لم تستطع ألمانيا وحلفاؤها المنهكون توفير ما يكفي من الرجال والمعدات لمواجهة التهديد الأميركي.

سقطت بلغاريا أولاً، ووقعت هدنة مع القائد الفرنسي في سالونيك يوم 30 سبتمبر 1918. أدى استسلام بلغاريا إلى قطع الاتصالات بين تركيا وألمانيا، فتوقفت إمدادات الأسلحة والمؤن التي أدامت المجهود الحربي العثماني هذه الفترة الطويلة. لاحت نهاية الألمان أيضاً في الأفق، إذ أُجبرت القوات الألمانية على التراجع بعد سلسلة انتصارات حققها الحلفاء على الجبهة الغربية. وعندما علم الاتحاديون من أعضاء تركيا الفتاة بأن حليفتهم ألمانيا اتصلت بالرئيس الأميركي وودرو ولسون للتوسط مع بريطانيا وفرنسا لوقف إطلاق النار، أدركوا أن لا خيار لهم إلا التماس الصلح.

في إسطنبول، كانت الحكومة العثمانية في حالة فوضى واضطراب. استقالت وزارة الاتحاديين برئاسة طلعت باشا يوم 8 أكتوبر. ولم يكن بمقدور الثلاثي الحاكم -الصدر الأعظم طلعت، وناظر الحربية أنور، والقائد الأعلى السابق للقوات التركية في سوريا ووزير البحرية جمال، الذين يتحملون مسؤولية مشتركة عن صنع القرار العثماني زمن الحرب- إلا تعقيد مسعى التفاوض مع الحلفاء المنتصرين للتوصل إلى هدنة. بقيت الامبراطورية بلا حكومة أسبوعاً كاملاً، دون إيجاد رجل دولة ذي مصداقية يستطيع قيادة العثمانيين إلى الاستسلام. أخيراً وافق أحمد عزت باشا الذي قاد الجيش العثماني في القوقاز على تشكيل حكومة جديدة للتوصل إلى اتفاقية سلام.

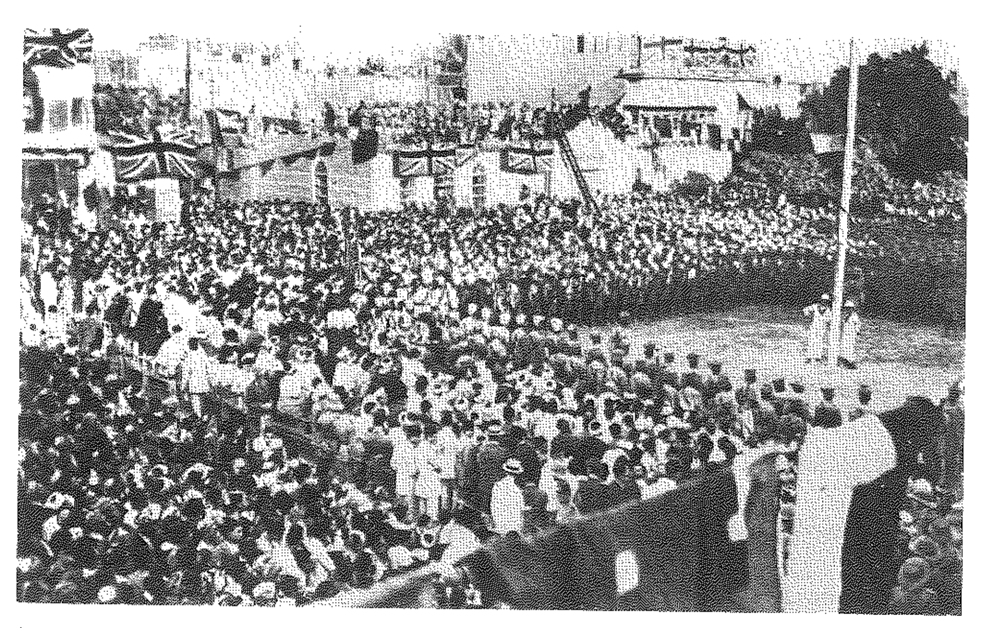
أرسلت الحكومة الجديدة أسير الحرب الأعلى رتبة لديها لبدء المناقشات مع البريطانيين حول التوصل إلى هدنة. وكان الجنرال تشارلز تاونزند، القائد الأسبق للحامية البريطانية المحاصرة في كوت العمارة، قد قضى بقية الحرب في ترف فيلا فخمة على جزر الأميرات في بحر مرمرة. فقد تاونزند مصداقيته لقبوله ضيافة العدو، خصوصاً في الوقت الذي عانى الناجون الآخرون من حصار الكوت مثل تلك المصائر المروعة. مع ذلك، أرسل تاونزند إلى جزيرة ليسبوس، حيث نقل إلى البريطانيين نية العثمانيين الانسحاب من الحرب[38].

دعا قائد الأسطول البريطاني في البحر الأبيض المتوسط، الأدميرال السير سومرست إيه. غو-كالثروب، الوفد العثماني المفاوض إلى جزيرة ليمنوس لتلقي شروط الهدنة. عزز اختيار المكان شعور العثمانيين بالمرارة، فقد استولت اليونان على الجزيرة في حرب البلقان الأولى، وكان ميناؤها مودروس قاعدة انطلاق العمليات البريطانية في حملة غاليبولي. توصل الجانبان إلى شروط الهدنة خلال أربعة أيام من المفاوضات، ووقع الوفدان البريطاني والعثماني اتفاقية الهدنة يوم 30 أكتوبر، على متن سفينة صاحبة الجلالة **آغاممنون** (*HMS Agamemnon*)، وهي سفينة حربية مخضرمة شاركت في حملة غاليبولي.

لم تكن شروط الهدنة بحد ذاتها قاسية جداً. ضمن الأدميرال كالثروب استسلام الامبراطورية العثمانية الكامل، لكنه ترك الأمر للسياسيين لفرض شروط أكثر صرامة وإجحافاً عبر اتفاقية الصلح. وجب على العثمانيين فتح المضائق أمام أسطول الحلفاء، وتطهير ممر آمن له عبر حقول الألغام، ووضع جميع حصون الدردنيل تحت سيطرة الحلفاء. إضافة إلى تسريح جميع الجنود العثمانيين فوراً، وتسليم جميع السفن البحرية العثمانية للبريطانيين والفرنسيين. كذلك يجب وضع شبكة الاتصالات العثمانية -السكك الحديدية والمرافق السلكية واللاسلكية - تحت إشراف الحلفاء. أعطيت القوات الألمانية والنمساوية مهلة شهر لإخلاء الأراضي العثمانية. ووجب نقل أسرى الحرب الحلفاء وأي سجناء أرمن إلى

إسطنبول و"تسليمهم إلى الحلفاء دون قيد أو شرط"، في حين يبقى أسرى الحرب العثمانيون بأيدي الحلفاء[39].

لا بد أن الأسس التي قامت عليها هدنة مودروس أثارت مخاوف العثمانيين حول المستقبل. فالأرمن ذكروا مرتين، في إشارة إلى أن السلطات العثمانية سوف تُعدّ مسؤولة عن جرائم حرب ضد الإنسانية. وكانت هناك إيحاءات بتقسيم قادم -في طلب انسحاب الجنود العثمانيين من كيليكيا التي ادعت فرنسا حصة فيها؛ وفي الاعتراف بحق الحلفاء في احتلال "أي نقاط استراتيجية" لضمان أمنهم؛ وفي التأكيدات على حقهم في احتلال أي جزء من "الولايات الأرمنية" الست في حال انتشار "الفوضى والاضطراب". عملياً، أجبر المفاوضون الأتراك بتوقيعهم الوثيقة على الإقرار بأن حق الأرمن في الولايات الست شرق الأناضول أقوى من حق العثمانيين أنفسهم.



إعلان الهدنة وسط بغداد، 31 أكتوبر 1918. احتل البريطانيون بغداد قبل نهاية الحرب بعشرين شهراً تقريباً. تبدى تمييز (عنصري) استعماري في المنصات التي تفصل المشاهدين الغربيين (بالبذات والقبعات) عن جمهور الأهالي. لاحظ الأعلام البريطانية العديدة المنسدلة من أسطح المباني المحيطة بالساحة.

حسب بنود الهدنة، توقفت الأعمال العدائية ظهيرة يوم 31 أكتوبر 1918. انتهت الحرب العثمانية بعد حوالي سنة من خروج روسيا، وقبل أحد عشر يوماً فقط من استسلام ألمانيا في 11 نوفمبر. فاجأ العثمانيون الجميع بالبقاء حتى الأيام الأخيرة للحرب -لكنهم لم يكسبوا شيئاً من إصرارهم وعنادهم. فطول أمد الحرب لم يضف سوى مشقة أعظم ويأس أكبر إلى تجربة الهزيمة.

بانتهاء الأعمال العدائية، احتفل الجنود ببقائهم أحياء وحلموا بالعودة إلى أوطانهم. "الآن، بعد أن دفق الماء الذي كان يجب أن يدفق، وهبت الريح التي كان يجب أن تهب... لنا أن نأمل بالهدوء والسكينة، وبالعودة إلى الهند بسلام"، كما كتب جندي هندي إلى أخيه باللغة الأوردية، معبراً عن آمال جميع الجنود من أركان الأرض كافة، الذين كافحوا وبقوا على قيد الحياة في الحرب العظمى على الجبهة العثمانية[40].

خاتمة

سقوط العثمانيين

خسر العثمانيون الحرب العظمى. كانت كارثة وطنية دون شك إلا أنها لم تكن فريدة لا سابقة لها. فمنذ عام 1699، هُزم العثمانيون في معظم الحروب التي خاضوها، ومع ذلك نجت الامبراطورية وبقيت. لكن لم يواجه العثمانيون قط مثل هذه التشكيلة المتنوعة والمتنافرة من المصالح كتلك التي ظهرت في مفاوضات الصلح بعد الحرب العظمى. فقد حوصروا بين المطالب المتعارضة للقوى المنتصرة والقوميين الترك، وسقطوا في نهاية المطاف نتيجة شروط السلام لا حجم الهزيمة.

* * *

في 13 نوفمبر 1918، عبر أسطول الحلفاء الدردنيل بعد إزالة حقول الألغام حديثاً باتجاه إسطنبول. ركعت العاصمة العثمانية، التي راوغت الاحتلال منذ بدء الحرب، عاجزة لا حول لها ولا قوة أمام المنتصرين. رست اثنتان وأربعون سفينة، بقيادة البارجة **آغاممنون** أمام قصر دولماهبشه، المهيمن على الواجهة البحرية للبوسفور. بينما حلق سرب من الطائرات ثنائية السطح فوق السفن الحربية البريطانية والفرنسية والهندية واليونانية لاستكمال المشهد. نزل الأدميرال سومرست غو-كالثروب وغيره من الضباط لتسلم المدينة رسمياً. بينما سار

جنود قوى الوفاق في الشوارع على إيقاع موسيقى الفرق العسكرية. استقبلهم سكان إسطنبول المسيحيون استقبال الأبطال.

كان غريغوريس بالاكيان وسط الحشود يشاهد وصول الأسطول من فوق تلال إسطنبول. فقد استطاع الكاهن الأرمني على الرغم من المصاعب والأخطار المحدقة كلها النجاة من الإبادة، ليشق طريقه عائداً إلى مدينته في سبتمبر 1918. ظل مختبئاً على مدى الشهرين اللاحقين، خوفاً من الاعتقال كعهده دوماً، متنقلاً بين منزلي والدته وشقيقته، اللتين اعتقدتا أنه مات من زمن طويل. أمضى أيامه يكتب روايته عن "الجلجثة الأرمنية"، ويصور المعاناة التي اختبر تبريحها على أرض الواقع مباشرة، وسمعها من الآخرين، حين كانت الذكريات المؤلمة ما تزال حية وطازجة. لكنه أراد أن يرى بنفسه وصول أسطول الحلفاء، الذي علّم لحظة انتهاء معاناة الأرمن زمن الحرب.

شق بالاكيان طريقه من القسم الآسيوي إلى الأوربي من إسطنبول، مرتدياً سترة رسمية وقبعة لإخفاء هويته. لم يشتبه المراكبي الذي نقله عبر البوسفور بأن زبونه كاهن أرمني. قال نادباً: "أفندي! يا له من زمن رديء نعيش فيه! يا لها من أيام سوداء تحل بنا! دمر طلعت وأنور وطننا، نهبا وهربا، وتركانا نواجه مصيرنا. من كان يصدق أن يدخل أسطول أجنبي الأستانة بهذا الشكل العلني السافر، ونبقى -نحن المسلمين- مجرد متفرجين؟". فاجأ بالاكيان نفسه حين حاول مواساة الرجل، مؤكداً له: "سوف تمر هذه الأيام السوداء أيضاً"[7].

ضمت الحشود المتجمهرة ذلك اليوم أيضاً الجنرال الألماني ليمان فون ساندرز. لقد خدم الامبراطورية العثمانية خمسة أعوام رئيساً للبعثة الألمانية، ثم قائداً في نهاية المطاف لـ"مجموعة يلدريم" في فلسطين. وأفلت بصعوبة من الأسر في الناصرة في سبتمبر، وتقهقر عبر سوريا مطارداً من البريطانيين. في أضنة، سلم قيادة ما تبقى من القوات العثمانية إلى الجنرال التركي مصطفى كمال باشا، بطل غاليبولي. ثم رجع إلى إسطنبول ليشرف على إعادة القوات الألمانية من الامبراطورية العثمانية وفقاً لشروط الهدنة.

على الرغم من اختلاف المنظورين اللذين شاهد منهما ليمان وبالاكيان حوادث اليوم اختلافاً جذرياً، فقد قدما توصيفات متشابهة إلى حد لافت لإسطنبول حين كان أسطول الحلفاء يحتل المدينة. زينت الأعلام اليونانية والفرنسية والبريطانية والإيطالية البيوت. ونثرت الفتيات المسيحيات الورود على الجنود المنتصرين وهم يمرون عبر الشوارع، بينما رمى الرجال قبعاتهم في الهواء وتبادلوا العناق احتفاء وفرحاً. ومع مرور النهار، تآخى الأهالي والمحتلون وشربوا الخمر حتى الثمالة معاً. وجد ليمان وبالاكيان كلاهما احتفالات السكر والعربدة مقيتة ومقززة. "لن يسبغ أحد على هذه الاستعراضات أي قدر من الاحترام والكرامة"، كما كتب ليمان مستنكراً، بينما أسف بالاكيان على العاصمة التركية و"كيف أصبحت مثل بابل"[2].

بينما احتفلت الأقلية المسيحية في إسطنبول، شاهدت الأغلبية المسلمة جنود الحلفاء يستولون على المدينة بصمت من خلف النوافذ المقفلة، وقد اكتسحتها موجة عارمة من الإذلال واليأس. تركز غضب أهالي إسطنبول، كحال ذلك المراكبي الذي نقل بالاكيان عبر البوسفور، على قادة جمعية الاتحاد والترقي، الذين دخلوا الحرب رغماً عنهم وجلبوا لهم بأساءها وضراءها ومآسيها كلها، ثم هربوا فور دخول الهدنة حيز التنفيذ.

في منتصف ليل الأول من نوفمبر، ركب القادة الاتحاديون من أعضاء تركيا الفتاة سفينة ألمانية في السر وهربوا من الأراضي العثمانية. أبحر محمد طلعت، وإسماعيل أنور، وأحمد جمال، برفقة أربعة من أقرب مستشاريهم، إلى أوديسا ثم شقوا طريقهم براً من ساحل البحر الأسود إلى برلين. عرف حلفاؤهم الألمان أن الاتحاديين سيواجهون عدالة المنتصرين، فساعدوهم في الفرار ومنحوهم حق اللجوء. عبّرت الصحف العثمانية، من ناحية أخرى، عن الغضب الشعبي العام على هرب الثلاثي الحاكم من أعضاء الاتحاد والترقي، تاركين الأمة التركية تواجه تبعات سياسات الاتحاديين وعواقبها وفظائع الحرب -لاسيما مذابح الأرمن[3].

في نوفمبر 1918، احتدم جدل مفتوح في البرلمان العثماني وفي الصحافة التركية حول مذابح الأرمن. لم يظهر إجماع آنذاك، كما الآن، على عدد الضحايا الأرمن الذين هلكوا

جراء الإجراءات التي اتخذتها الحكومة زمن الحرب. ذكر أعضاء البرلمان في مداولاتهم أرقاماً راوحت بين 800.000 و 1.500.000 من المدنيين الأرمن الذين راحوا ضحية المذابح. وبغض النظر هل يؤخذ بالحد الأعلى أو الأدنى أو برقم بينهما، فقد كان من الواضح أن الإبادة الجماعية سوف تلقي بظلها الكئيب والطويل على مفاوضات السلام مع قوى الوفاق المنتصرة.

أدانت قوى الوفاق جهاراً الحكومة العثمانية على مذابح الأرمن. دعت أميركا وبريطانيا على وجه الخصوص وبشكل صريح إلى تطبيق العدالة التأديبية على جرائم الترك ضد الإنسانية التي ارتكبت زمن الحرب. ومن أجل تجنب تسوية سلمية قاسية وصارمة، قررت الحكومة العثمانية الجديدة إنشاء محاكم عسكرية لمحاكمة المتهمين بالمسؤولية عن إبادة الطائفة الأرمنية. وأملت بتركيز الإدانة الدولية على قيادة الاتحاديين بوصفهم مخططي الإبادة بدلاً من معاقبة الشعب التركي برمته.

أمرت السلطات العثمانية، بين يناير ومارس 1919، باعتقال ثلاثمئة من المسؤولين الأتراك. من بين أولئك الذين احتجزوا ولاة وأعضاء اتحاديون في البرلمان إضافة إلى مسؤولين محليين أدنى مرتبة. ومع أن الشرطة أغارت عليهم في منتصف الليل دون تحذير، فإن كثيرين حوكموا غيابياً –مثل الثلاثي أنور وطلعت وجمال ومستشاريهم الذين كانوا في المنفى. انعقدت المحكمة العسكرية الرئيسة في إسطنبول. وكانت الجلسات علنية، حيث نشرت أدلة الادعاء والقرارات في الجريدة الرسمية، (*Takvim-I Vekayi*).

حملت الإدانات المنشورة قادة الاتحاديين من أعضاء تركيا الفتاة المسؤولية الكاملة عن عمليات القتل الجماعي للمدنيين الأرمن. وأكد المدعون العامون أن "هذه المذابح نفذت بأوامر طلعت وأنور وجمال وعلمهم". واستشهدوا بمسؤول في حلب زعم أنه "تلقى أمراً بإبادتهم" من "طلعت نفسه"، وأنه كان مقتنعاً بأن "خير البلاد" يعتمد على استئصال السكان الأرمن وإبادتهم. في إحدى البرقيات التي قدمت دليل إثبات للمحكمة، طلب الدكتور بهاء الدين شاكر، المهندس المزعوم لعمليات الإبادة، من والي معمورة العزيز "تقريراً صادقاً

ونزيهاً" عن "تصفية" الأرمن من ولايته: "هل تم القضاء على مثيري الشغب، الذين ذكرت أنهم طردوا ونفوا، أم اكتفيتم بطردهم ونفيهم فحسب"[4].

كشفت إفادات الشهود كيف نظمت أعمال القتل الجماعي: تبعت الأوامر الرسمية المطبوعة التي تدعو إلى الترحيل تعليمات شفهية بذبح المهجرين. قدمت الأدلة على إطلاق سراح مجرمين وقتلة مدانين من السجون وحشدهم في عصابات ليصبحوا "جزارين يذبحون البشر". جمع المدعون وثائق دامغة تربط جهاز الاستخبارات السري التابع لأنور، "تشكيلات مخصوصة"، بتشكيل عصابات القتلة. إضافة إلى أدلة شاملة على عمليات القتل الجماعي، وأفراد يتحملون مسؤولية موت الآلاف، وولايات نفذت عمليات ترحيل لمئات الآلاف[5].

بعد أشهر من المداولات، أصدرت المحاكم أحكامها بالإعدام على ثمانية عشر متهماً لدورهم في مذابح الأرمن. كما واجه طلعت وأنور وجمال العقوبة ذاتها، إلى جانب كبار قادة الاتحاد والترقي مثل بهاء الدين شاكر والدكتور محمد ناظم، اللذين ذهبا وراءهم إلى المنفى. ومع محاكمة خمسة عشر من المتهمين غيابياً، لم يرسل إلى المشنقة في نهاية المطاف سوى ثلاثة من المسؤولين الأدنى رتبة. شنق محمد كمال، حاكم يوزغات، الذي زعم غريغوريس بالاكيان أنه مسؤول عن مذبحة راح ضحيتها 42.000 أرمني، في 10 أبريل 1919. بينما أعدم حافظ عبد الله أفني، قائد جندرمة إرزنجان في 22 يوليو 1920. أما عملية الإعدام الثالثة والأخيرة فقد نفذت في 5 أغسطس 1920، في رئيس ناحية بايبورت، بهرامزاده نصرت[6].

بدا من الواضح بحلول أغسطس 1920 أن المحكمة العسكرية لن تجلب إلى العدالة المتورطين الرئيسيين في مذابح الأرمن. كما تبين دون لبس أن المحاكمات لن تنقذ الامبراطورية العثمانية من قسوة معاهدة الصلح. وما إن انتفت الحاجة إلى المحاكم العسكرية حتى جمد نشاطها وغابت من المشهد. لكن سجلات هذه المحاكمات توفر أشمل الأدلة التي جمعتها السلطات التركية على مدى الزمن فيما يتعلق بتنظيم مذابح الأرمن وتنفيذها. ظلت هذه السجلات، المنشورة بالتركية العثمانية، متاحة لعامة الناس منذ عام 1919، وهي تدحض،

بل تهزأ من أي محاولة لإنكار دور حكومة الاتحاد والترقي في التخطيط لإبادة الطائفة الأرمنية وتنظيمها وتنفيذها.

* * *

لم ترغب جماعة من المتشددين الأرمن التابعين لمنظمة الداشناك في مشاهدة قادة الاتحاديين يهربون من العدالة في المنفى، فقررت تنفيذ القانون بأيديهم. وأمرت المنظمة بين مارس 1921 و يوليو 1922 بسلسلة من عمليات الاغتيال لكبار القادة الاتحاديين ضمن برنامج عرف باسم "عملية الانتقام"[7].

وجه القتلة ضربتهم الأولى في برلين، حيث لجأ كثير من قادة تركيا الفتاة. في 15 مارس 1921، أطلق أحد الناجين من الإبادة في إرزنجان، سوغومون تيهليريان (25 سنة)، النار على طلعت وأرداه قتيلاً. اعتقل الشاب القاتل، وحوكم، وأفرجت عنه محكمة ألمانية على أساس تناقص المسؤولية جراء الصدمة الذهنية والنفسية والخسارة الشخصية التي عاناها في المذابح الأرمنية. بينما شارك أرشافير شيراغيان (21 سنة من أهالي إسطنبول)، الذي اغتال منذ مدة الصدر الأعظم السابق سعيد حليم باشا في روما يوم 5 ديسمبر 1921، في هجوم ثان في برلين يوم 17 أبريل 1922 قتل فيه الدكتور بهاء الدين شاكر، وجمال عزمي والي طرابزون.

لقي الناجيان من الثلاثي، جمال وأنور، حتفهما في القوقاز وآسيا الوسطى. فقد طارد القتلة الأرمن جمال باشا، حاكم سوريا العام زمن الحرب، إلى مدينة تبليسي الجورجية، واغتالوه يوم 25 يوليو 1922. كان سيفاجأ دون شك لو علم أن قاتليه من الأرمن لا العرب. فبينما ازدراه السوريون بسبب إعدام القوميين العرب، نسب الفضل إليه على توطين المبعدين الأرمن -نحو 60.000 حتى شهر يناير 1916 فقط- في مختلف الولايات السورية. لكن الإجراءات التي اتخذت لإجبار الناجين الأرمن من مسيرات الموت على اعتناق الإسلام، التي بلغت مستوى الإبادة لكن بوسائل أخرى، أضعفت مساعيه الإنسانية. تمكن أنور وحده، من بين الثلاثي الحاكم سابقاً، من تجنب الاغتيال. لكنه قتل بالقرب من دوشانبي،

في منطقة الحدود الطاجيكية-الأوزبكية وهو يقود، في وقفته الأخيرة، ميليشيا إسلامية في معركة ضد البلاشفة في أغسطس 1922 [8].

بحلول عام 1926، قتل عشرة من المتهمين الثمانية عشر الذين حكم عليهم بالإعدام في محاكم إسطنبول العسكرية بسبب دورهم في الإبادة الجماعية الأرمنية. أما الثمانية الآخرون، الذين احتلوا مراتب أدنى على سلسلة القيادة، فقد نجوا من الإعدام، لكن إدانتهم تركتهم يشعرون بأنهم مطاردون وهدف للانتقام طوال بقية أيامهم.

❋ ❋ ❋

لم يكن بوسع العثمانيين فعل شيء للتخفيف من قسوة الشروط التي سيفرضها الحلفاء في مؤتمر الصلح في باريس. لقد تفاوضت بريطانيا وفرنسا وروسيا منذ بداية الحرب على اقتسام الأراضي العثمانية مستقبلاً. ومع أن روسيا سحبت مطالبها بعد الثورة البلشفية، فقد حل محلها حلفاء جدد. وثبت أن إيطاليا واليونان، المتأخرتين نسبياً عن الدخول إلى الجبهة العثمانية (أعلنت إيطاليا الحرب على تركيا في أغسطس 1915، واليونان في يونيو 1917)، ليستا أقل طمعاً في الاستيلاء على الأراضي العثمانية من حكومة القيصر القديمة. في أبريل 1919، أنزل الطليان جنودهم في ميناء أنطاليا على البحر المتوسط، وفي 15 مايو احتلت القوات اليونانية ميناء إزمير.

حين ظهر الوفد العثماني أمام المجلس الأعلى لمؤتمر الصلح في باريس (يونيو 1919)، لم يكن يأمل بتعاطف المستمعين. التمس "مبادئ الرئيس ولسون" -النقطة الثانية عشرة من نقاط ولسون الأربع عشرة المشهورة التي دعت إلى "ضمان سيادة" "الجزء التركي من الامبراطورية العثمانية الحالية"- وعرض رؤيته للامبراطورية العثمانية في حقبة ما بعد الحرب. سعى في الجوهر إلى الاحتفاظ بجميع الأراضي التي كانت ضمن الحدود التركية في أكتوبر 1914، وانقسمت بين الحكم التركي المباشر (الأناضول وتراقيا) ومناطق الاستقلال الذاتي التي حظيت بدرجة عالية من الحكم المحلي تحت الراية العثمانية (الولايات العربية وجزر بحر إيجة المتنازع عليها). "لا يوجد أحد في تركيا لا يدرك خطورة اللحظة.

لكن أفكار الشعب العثماني محددة تماماً: لن يقبل بتفكيك أوصال السلطنة أو تقسيمها تحت انتدابات مختلفة"، كما اختتم الوفد العثماني مذكرته[9].

بعد خمسة أيام من تقديم الوفد العثماني مذكرته، وقع الحلفاء وألمانيا معاهدة فرساي (28 يونيو 1919). وضعت المعاهدة معياراً مرتفعاً للشروط القاسية التي ستفرضها قوى الوفاق المنتصرة على القوى المركزية المهزومة. أجبرت ألمانيا على القبول بالمسؤولية عن الخسائر والأضرار الناجمة عن الحرب. كما واجهت خسائر إقليمية كبيرة تجاوزت 25.000 ميل مربع. وفرض عليها نزع سلاح مؤسستها العسكرية، فضلاً عن دفع تعويضات غير مسبوقة قدرت بنحو 31.4 مليار دولار أمريكي (6.6 مليار جنيه إسترليني)[10].

لم تكن الشروط التي فرضت على القوى المهزومة الأخرى أقل قسوة وصرامة. إذ أجبرت النمسا بعد الصلح الذي وقع في سان جرمان-ان-لاي يوم 10 سبتمبر 1919، على تفكيك الامبراطورية النمساوية-الهنغارية، وعلى قبول المسؤولية عن التسبب في الحرب، إضافة إلى دفع تعويضات باهظة، وتوزيع الأراضي النمساوية على عدد من الدول التي ورثتها، مثل هنغاريا، وتشيكوسلوفاكيا، وبولندا، ومملكة الصرب والكروات والسلوفينيين (التي تحولت فيما بعد إلى يوغوسلافيا).

في نوفمبر 1919، وقع الحلفاء معاهدة نويي-سور-سين مع بلغاريا، التي وصفت في تاريخها الوطني بأنها "الكارثة الوطنية الثانية" (الأولى هي هزيمة بلغاريا في حرب البلقان الثانية عام 1913). فقد أجبرت المعاهدة بلغاريا على التنازل عن أراض في تراقيا الغربية (منحت في نهاية المطاف إلى اليونان) وعلى حدودها الغربية، وتركت البلاد ترزح تحت عبء تعويضات قدرها 100 مليون جنيه.

قلصت معاهدة الصلح مع هنغاريا، التي وقعت في تريانون يوم 4 يونيو 1920، الأراضي الهنغارية في الامبراطورية النمساوية-الهنغارية السابقة إلى 28 في المئة من مساحتها قبل الحرب، وتركت الدولة المطوقة بالبر تعاني فاتورة تعويضات باهظة.

لم يكن ثمة سبب يدعو لتوقع أن تواجه الامبراطورية العثمانية شروطاً أكثر كرماً من حلفائها في الحرب. في الحقيقة، دمجت معاهدة فرساي التي وقعت مع ألمانيا ميثاق عصبة الأمم، الذي منح موافقة القانون الدولي على نظام انتداب مصمم بجلاء للسماح بتقسيم الامبراطورية العثمانية. تؤكد المادة 22 من الميثاق أن "بعض الشعوب التي كانت خاضعة للامبراطورية العثمانية، قد وصلت إلى درجة من التقدم يمكن معها الاعتراف مؤقتاً بكيانها كأمم مستقلة، إن خضعت لقبول الإرشاد الإداري والمساعدة من الدول المنتدبة حتى الوقت الذي تصبح فيه قادرة على النهوض وحدها"[11].

بعد عودة الوفد التركي إلى إسطنبول، انخرطت القوى المنتصرة في جولة ختامية من المفاوضات للاتفاق على التوزيع النهائي للأراضي العثمانية. اجتمع رؤساء حكومات بريطانيا العظمى وفرنسا وإيطاليا في المنتجع الإيطالي سان ريمو (أبريل 1920)، لحل التناقضات بين مراسلات حسين-مكماهون، واتفاقية سايكس-بيكو، ووعد بلفور. وبعد ستة أيام من المناقشات، اتفقت القوى الثلاث، إضافة إلى اليابان كعضو حيادي مراقب، على منح بريطانيا حق الانتداب على فلسطين (إضافة إلى شرق الأردن) وبلاد الرافدين، بينما ضمنت فرنسا الانتداب على سورية (ولبنان). امتنعت الحكومة الإيطالية عن إعطاء موافقتها الرسمية على الاتفاق إلى حين تلبية مطالبها المعلنة في الأناضول.

ما إن اتفق الحلفاء على تقسيم الأراضي العربية حتى التفتوا إلى صياغة معاهدة الصلح مع الامبراطورية العثمانية في شكلها النهائي. بدا من المتعذر أن تكون الشروط، التي قدمت للباب العالي أول مرة في مايو 1920، أكثر سوءاً للترك وإجحافاً بحقهم. فإضافة إلى وضع جميع الولايات العربية تحت سيطرة الانتداب الأوربي، دعت مسودة معاهدة الصلح إلى تقسيم الأناضول وتوزيع الأراضي التي تسكنها أغلبية تركية على الشعوب التي خضعت للعثمانيين سابقاً والبلدان المجاورة المعادية.

ونصت على تقسيم شرق الأناضول بين الأرمن والكرد. فقد وضعت الولايات الشمالية الشرقية الأربع، طرابزون وأرضروم وبيتليس ووان ضمن مجال النفوذ الأرمني. وتمتعت بحرية كاملة، وفق التحكيم الأميركي، للانفصال عن الامبراطورية العثمانية والانضمام إلى

جمهورية أرمنية جديدة في القوقاز، عاصمتها يريفان. منح الكرد مساحة أصغر من الأراضي على الحدود الجنوبية للمنطقة الأرمنية، تتمركز حول بلدة ديار بكر. ووفقاً لشروط المعاهدة، منح الكرد أيضاً حرية كاملة للانفصال عن الامبراطورية العثمانية وإقامة دولة مستقلة.

في غرب الأناضول، وضع ميناء سميرنا (إزمير حالياً) ومناطقه الداخلية تحت الإدارة اليونانية. وطلب من الحكومة اليونانية مساعدة الجالية اليونانية المحلية على انتخاب برلمان يتمتع بسلطة تشريعية لتوحيد سميرنا مستقبلًا مع مملكة اليونان. كما منحت أغلبية تراقيا التركية، ومنها مدينة أدرنة (التي خسرها العثمانيون في حرب البلقان الأولى واستعادوها في الثانية)، إلى اليونانيين. بل فقد العثمانيون سيطرتهم حتى على الممرات البحرية الاستراتيجية التي تربط البحر الأسود بالمتوسط. إذ ستوضع مضائق الدردنيل والبوسفور وبحر مرمرة تحت وصاية لجنة دولية لن يسمح لتركيا بالانضمام إليها إلا بعد قبولها في عضوية عصبة الأمم[12].

لم يتوقف تقسيم الأناضول عند هذا الحد. إذ أنجز اتفاق منفصل بين بريطانيا وفرنسا وإيطاليا يتقاسم بموجبه الفرنسيون والإيطاليون مناطق الأناضول المطلة على البحر المتوسط. واعتبر ساحل كيليكيا، حتى نقطة عميقة داخل البر تصل إلى سيواس، مجال نفوذ فرنسي. كما تم الاعتراف بمطالب إيطاليا في منطقة جنوب غرب الأناضول، شملت ميناء أنطاليا ومدينة قونية الداخلية. ومع أن الساحل التركي على البحر المتوسط ظل اسمياً جزءاً من الامبراطورية العثمانية، فإنه سيخضع فعلياً للحكم الاستعماري الفرنسي أو الإيطالي غير الرسمي[13].

لم تترك مسودة معاهدة الصلح للترك سوى مساحة صغيرة من الأرض. في الواقع الفعلي، تقلصت الامبراطورية العثمانية إلى تلك الأجزاء من وسط الأناضول التي لم يرغب فيها الآخرون: بورصة، وأنقرة، وسامسون على ساحل البحر الأسود، مع إسطنبول العاصمة. وحتى إسطنبول منحت للترك بشق الأنفس. فإذا فشل العثمانيون في التقيد بالتزامات المعاهدة، فمن حق الحلفاء، كما هددوا، سحب جائزة إسطنبول من الدولة التركية ما بعد الحرب.

استثارت شروط التسوية معارضة واسعة النطاق في الامبراطورية العثمانية. وكان وجود الجيوش الأجنبية على التراب التركي قد ولد بالأصل حالة من الاستياء العميق. في مايو 1919، أرسل مصطفى كمال باشا، بطل غاليبولي وأكثر القادة العسكريين مهابة واحتراماً، إلى سامسون للإشراف على تسريح الجنود العثمانيين وفقاً لشروط الهدنة. وعقب الاحتلال الإيطالي واليوناني لكيليكيا وإزمير في أبريل ومايو 1919، قرر مصطفى كمال عصيان الأوامر التي تقضي بتسريح الجيش وتنظيم حركة مقاومة ضد غزو الأناضول بدلاً من ذلك. جعل من بلدة أنقرة وسط الأناضول قاعدة له، حيث نافست الحركة الوطنية التركية التي أطلقها باطراد الحكومة العثمانية في إسطنبول على تمثيل التطلعات السياسية للشعب التركي.

بين يوليو وسبتمبر 1919، عقدت الحركة الوطنية التركية مؤتمرين اثنين، في أرضروم وسيواس، وضعت فيهما مبادئها في وثيقة عرفت باسم الميثاق الوطني (Misak i-Milli)، الذي سعى إلى المواءمة بين "سلام عادل ودائم" و"سلطنة عثمانية مستقرة" عبر بيان واضح بالمبادئ. قبل واضعو الميثاق خسارة الولايات العربية وأبدوا انفتاحاً تجاه ترتيبات لضمان حرية الملاحة في المضائق. لكنهم استبعدوا تماماً أي تقسيم للأراضي التي "تسكنها أغلبية عثمانية [تركية] مسلمة، يوحدها الدين والعرق والهدف" على أساس أن هذه الأراضي "تشكل كلاً واحداً لا يقبل القسمة لأي سبب كان". وفي واحدة الجلسات الختامية في إسطنبول، قرر البرلمان العثماني دعم الحركة الوطنية التركية في أنقرة وتبني الميثاق الوطني بأغلبية ساحقة (يناير 1920)[14].

وبغض النظر عن شعبية سياسات القوميين بين البرلمانيين، فقد اعتبر الباب العالي الحركة الوطنية التركية في وسط الأناضول تهديداً خطراً لسلطته. وفي الأزمة الوطنية التي أعقبت إعلان شروط الصلح التي فرضها الحلفاء في مايو 1920، اعتقدت الحكومة العثمانية أنها لا تملك من خيار سوى التعاون مع القوى المنتصرة. وعبر قبول الشروط القاسية المفروضة على المدى القريب، أمل الباب العالي بتأمين شروط أفضل على المدى البعيد. من ناحية أخرى، رأت الحركة الوطنية التركية أن العثمانيين لن يستعيدوا أبداً الأراضي أو السيادة

التي تنازلوا عنها في معاهدة الصلح. دعا مصطفى كمال وأنصاره إلى رفض الشروط القاسية ومقاومة أي تقسيم للأناضول.

اعتقد الباب العالي أن مسار المواجهة الذي يطالب به مصطفى كمال والحركة الوطنية التركية، باعتبار الدولة العثمانية المحطمة عسكرياً واقتصادياً، سوف يؤدي إلى كارثة حتماً. بل قد تكلف المقاومة العثمانيين عاصمتهم إسطنبول، وفقاً لشروط معاهدة الصلح. اتهمت الحكومة مصطفى كمال وعدداً من القادة القوميين الآخرين بالخيانة العظمى، وأصدرت المحكمة العسكرية نفسها التي عقدت المحاكمات الأرمنية، حكماً غيابياً بالإعدام على "بطل غاليبولي" (مايو 1920).

سيثبت التاريخ خطأ الصدر الأعظم والحكومة: لم يكن مصطفى كمال خائناً، ولن تحافظ على السيادة التركية إلا مقاومة معاهدة الصلح. كان مصطفى كمال في البداية عثمانياً، وعمل على تأطير كل فعل ضمن نطاق الحفاظ على دولة السلطان. بل استخدم الميثاق الوطني كلمة "عثمانية" بدلاً من "تركية" لوصف الأمة. لكن لحظة القطيعة بالنسبة إلى الكماليين أتت حين ألزمت الحكومة العثمانية الأمة التركية بشروط الصلح القاسية وبتقسيم الأناضول تحت الاحتلال الأجنبي. وعند توقيع معاهدة سيفرس في 10 أغسطس 1920، استفز الباب العالي شرخاً يتعذر رتقه مع الحركة الوطنية التركية. ومنذ ذلك التاريخ، عمل الكماليون على إسقاط المعاهدة والحكومة العثمانية التي وقعتها.

بحلول عام 1922، وبعد حرب ضروس على ثلاث جبهات -ضد الأرمن في القوقاز، والفرنسيين في كيليكيا، واليونانيين في غرب الأناضول- حقق الكماليون نصراً مؤزراً على جميع الجيوش الأجنبية في تركيا. صوتت الجمعية الوطنية التركية الكبرى عقب توقيع هدنة مع اليونان يوم 11 أكتوبر 1922، على إلغاء السلطنة العثمانية في 1 نوفمبر 1922. أرسل السلطان محمد السادس (الذي خلف أخاه غير الشقيق محمد الخامس في يوليو 1918، قبل أربعة أشهر من انتهاء الحرب) إلى المنفى على متن سفينة حربية بريطانية متجهة إلى مالطة يوم 17 نوفمبر، بعد أن أمضى على العرش أربع سنوات فقط.

في يوليو 1923، وقعت الحركة القومية في تركيا معاهدة جديدة مع القوى المنتصرة في لوزان بسويسرا اعترفت باستقلال تركيا ضمن حدودها الراهنة تقريباً. واعتماداً على قوة الاعتراف الدولي، أعلنت الجمهورية التركية يوم 29 أكتوبر 1923، برئاسة مصطفى كمال الذي حمل لقب "أتاتورك" ("أبو الترك") إقراراً بقيادته وفضله في إنشاء تركيا الحديثة.

لو تمكنت حكومة السلطان من السيطرة على حركة أتاتورك واستغلالها ومقاومة الشروط المفروضة من القوى المنتصرة في سيفرس، لبقيت السلطنة العثمانية ضمن حدود الجمهورية التركية الحالية. لكن على الرغم من الهزيمة الكارثية في الحرب العظمى، فإن القبول بشروط معاهدة الصلح القاسية هو الذي أدى إلى سقوط العثمانيين.

* * *

مع انتهاء الأعمال العدائية في أكتوبر 1918، تشوق الجنود في خنادق المعسكرين إلى العودة إلى أوطانهم. كان أول من غادر الشرق الأوسط جنود القوى المركزية المهزومة. ووفقاً لشروط الهدنة، أشرف ليمان فون ساندرز على إعادة الجنود الألمان من الأراضي العثمانية. في البداية، شحن الجنود الألمان والنمساويون من إسطنبول إلى أوديسا للذهاب إلى الوطن براً عبر أوكرانيا. لكن تطلبت رحلة الجنود الذين خدموا في الجيش العثماني السادس في الرافدين (نحو 1.200 رجل) أسابيع للوصول إلى إسطنبول، كحال رفاقهم الذين خدموا في سورية وفلسطين. قدر ليمان أن 10.000 رجل شحنوا حتى أواخر ديسمبر 1918. تمكن من تأمين خمس سفن بخارية لنقلهم مباشرة من إسطنبول إلى ألمانيا، وفي نهاية يناير 1919، ركب سفينة مع 120 ضابطاً و 1.800 جندياً للقيام برحلة العودة الطويلة إلى مدنهم وقراهم التي دمرتها الحرب. وهكذا انتهى التحالف الألماني-العثماني[15].

لكن بقي عدد كبير من الجنود العثمانيين في الأراضي التي احتلها الحلفاء. حظي فخري باشا، قائد الحامية العثمانية في المدينة، بتميز كونه آخر ضابط تركي يستسلم. وعلى الرغم من الحصار المطبق منذ الأشهر الختامية للحرب، تمكنت الحامية العثمانية من ترشيد استهلاك مؤونتها ورفضت كل عرض بالاستسلام. بعد الهدنة، كتب المندوب السامي البريطاني في

مصر السير ريجينالد وينغيت، إلى فخري يحثه على الاستسلام. لكن القائد التركي العنيد رفض صراحة، وأجاب: "أنا عصمنلي [عثماني]. ومسلم. وابن بالي بك. وجندي". لم يكن ينوي الإذعان وتسليم سيفه إلى إنكليزي، بدافع إخلاصه للسلطان من جهة، وإجلاله لمسجد النبي في المدينة المنورة من جهة أخرى[16].

صمدت الحامية العثمانية طوال عشرة أسابيع بعد الهدنة. وحين هددت القوات العربية باجتياح المدينة، أغلق فخري باشا أبواب المسجد عليه مع صناديق من الذخيرة وهدد بتفجيره إذ أجبر على الاستسلام. لكن رجاله الذين انهارت معنوياتهم بعد أسابيع من الحرمان والعوز، وفاقم معاناتها علمهم بانتهاء الحرب، بدؤوا التخلي عن قائدهم والاستسلام للجيش العربي. أخيراً، في 10 يناير 1919، اقتنع القائد العنيد الغيور بتسليم المدينة المنورة إلى القوات الهاشمية. خرج منها "مكتئباً وجائعاً، ينظر حواليه مثل أسد في قفص، لا يجد مهرباً"، كما تذكر الأمير عبد الله. ودع بما يستحق من تكريم من ميناء ينبع، وركب مدمرة بريطانية أبحرت به إلى الأسر في مصر. جرت عمليات إجلاء الجنود العثمانيين على مدى الأسابيع اللاحقة تحت إشراف الأمير عبد الله، وانضم الجنود العرب من الحامية العثمانية إلى الجيش الهاشمي بينما أرسل الجنود الترك إلى مصر، حيث احتجزوا في معسكرات أسرى الحرب في انتظار ترحيلهم إلى تركيا.

أجبرت السلطات الاستعمارية الفرنسية جنود شمال إفريقيا الذين جندوا لخدمة العثمانيين من معسكرات أسرى الحرب الألمانية، على دفع ثمن غدرهم بها زمن الحرب. ومنذ احتلال الجنرال ستانلي مود بغداد عام 1917، نقل الآلاف من جنود شمال إفريقيا من الجيش العثماني إلى معسكرات الأسر البريطانية. ثم أرسلوا في الوقت المناسب إلى فرنسا لترحيلهم إلى وطنهم. افتتح عدد من المعسكرات في جنوب فرنسا لاستقبال "الجنود المحليين" من تونس والجزائر والمغرب. ومن كان يشك في ولائه منهم منع من العودة إلى شمال إفريقيا أو التآخي مع المسلمين في فرنسا. ومن بين جميع المحاربين الذين خاضوا معارك الحرب العظمى، لم يقاتل مثل أسرى شمال إفريقيا على هذا العدد من الجبهات، ومن دون دوافع محفزة، سوى قلة قليلة من الرجال[17].

بقيت قوات الحلفاء في الخدمة بعد وقت طويل من الهدنة باعتبارها جيش احتلال. وضعت الولايات العربية التي كانت تابعة للامبراطورية العثمانية تحت "إدارة الحلفاء لأراضي العدو المحتلة". وكان من المحتم ظهور التوتر بين المجتمعات المحلية المستاءة من المحتلين الأجانب وجنود بريطانيا والكومنويلث الذين جعلتهم الحرب أكثر صلابة وقسوة وعيل صبرهم في انتظار العودة إلى الوطن.

في فلسطين، أدى مقتل رقيب نيوزيلندي على يد قروي من الأهالي إلى مذبحة انتقامية في منتصف ديسمبر 1918. تنوعت الروايات، لكن الثابت أن عدداً راوح بين ستين ومئتين من النيوزيلنديين طوقوا قرية الصرفند، حيث التجأ قاتل النيوزيلندي كما اعتقدوا. أخرجوا النساء والأطفال والشيوخ من القرية قبل مهاجمة رجالها. ووفقاً للمصادر النيوزيلندية، ثأر الجنود لزميلهم بقتل أو جرح أكثر من ثلاثين شخصاً قبل إشعال النار في القرية والمخيم المجاور[18].

شكّل الجنرال إدموند اللنبي لجنة تحقيق رسمية في المذبحة. وفي مؤامرة متعمدة لالتزام الصمت، رفض جنود الوحدات النيوزيلندية والأسترالية المتمركزة حول الصرفند كلهم تقديم أي دليل أو شهادة. ووفقاً للروايات كلها، غضب اللنبي على تمرد جنوده. لكن بدلاً من فرض عقوبات جماعية ربما تستفز مزيداً من العصيان، قرر الجنرال البريطاني إصدار أمر إلى الجنود النيوزيلنديين والأستراليين بالعودة إلى رفح على الحدود المصرية. كانت تلك مرحلة أولى من خطة تسريحهم وعودتهم إلى نيوزيلندا وأستراليا.

في رفح، بدأ الجيش قتل خيول الفرسان الأستراليين والنيوزيلنديين. بل على وجه الدقة، قتل معظمها والاحتفاظ ببعض منها لاستخدام جيش الاحتلال، بينما فرز عدد محدود من الخيول القوية بغرض بيعها في السوق. قدمت للجنود ذرائع وتفسيرات كثيرة: لا توجد سفن كافية لنقل الرجال والمطايا معاً، أو أن حالة الخيول لا تسمح لها بالرحلة الطويلة إلى الوطن، أو أنها تحمل خطر الأمراض المعدية التي قد تنتقل إلى الثروة الحيوانية الوطنية في أستراليا ونيوزيلندا. لكن هذه الأخبار المفاجئة أثرت في الفرسان تأثيراً سيئاً. "افتراق الرجال عن خيولهم كان محزناً"، كما تذكر الرقيب سي. جي. نيكول من فوج فرسان

أوكلاند. فبعد سنوات من الحملات، أصحبت الروابط بين الجنود وخيولهم أقوى من تلك التي تجمعهم برفاقهم[19].

فضل كثير من الجنود قتل خيولهم بأنفسهم على تركها في سوق المواشي أو لدى الجزارين، على الرغم من الحظر الصارم المفروض على هذه الممارسة. عبّر الجندي-الصحفي الأسترالي أوليفر هوغ، الذي شارك في حملتي غاليبولي وفلسطين، وكتب باسم مستعار ("تروبر بلوغوم")، عن المشاعر النمطية للفارس تجاه حصانه (من سلالة "نيو ساوث ويلز" الأسترالية الشائعة) في قصيدة بعنوان "الخيول لا تغادر معنا":

لا أحسب أني قادر على احتمال
فكرة أن يزحف حصاني الحبيب
في القاهرة العتيقة وعلى ظهره غجري.
ربما يجد سائح إنكليزي في فلسطين
حصاني كسير القلب يجر محراثاً خشبياً
لا؛ أفضل أن أرديه وأروي كذبة صغيرة
"تعثر في حفرة ومبات* ومات".
ربما أقف أمام محكمة عسكرية؛ لكن علي اللعنة إن صممت
على العودة إلى أستراليا من دون حصاني[20].

تقرر أن يغادر الجنود الأستراليون والنيوزيلنديون مصر إلى أرض الوطن في منتصف مارس 1919. لكن قبل أن يركبوا السفينة، تفجرت انتفاضة وطنية عارمة في مصر احتجزتهم مدة أطول[21].

* * *

---

* حيوان جرابي أسترالي.

خرجت مصر والبلدان العربية من الحرب العظمى بآمال وطموحات عالية بحقبة جديدة من الاستقلال. ضمن المبدأ الثاني عشر من مبادئ ولسون الأربعة عشر للعرب، ولغيرهم من الشعوب الخاضعة للامبراطورية العثمانية، حياة آمنة لا يهددها خطر، وفرصة للتطور الذاتي لا ينتهكها معتد على الإطلاق. انخرط الناشطون السياسيون في سوريا والرافدين في مجادلات حول رؤى سياسية مختلفة، ومتحررة من القيود التي فرضتها عقود من القمع السياسي العثماني. في مصر، عرفت النخب السياسية ما كانت تريد بالضبط. فبعد ستة وثلاثين عاماً من الاحتلال البريطاني، أرادت استقلال مصر الناجز[22].

طلبت مجموعة من السياسيين المصريين البارزين من السلطات البريطانية في القاهرة إذناً بعرض قضيتها أمام مؤتمر الصلح في باريس. استقبل السير ريجينالد وينغيت، المندوب السامي البريطاني، الوفد برئاسة السياسي المتمرس سعد زغلول بعد يومين من إعلان الهدنة مع ألمانيا، في 13 نوفمبر 1918. استمع إلى الأعضاء وسرعان ما رفض الموافقة على حضور المؤتمر رفضاً قاطعاً. سوف يقرر مؤتمر باريس مصير القوى المهزومة وهذا لا يعني مصر بشيء. وحين أصر سعد زغلول وزملاؤه على مسعاهم، اعتقلتهم السلطات يوم 8 مارس 1919 ورحلتهم إلى مالطة. في اليوم اللاحق، اندلعت المظاهرات وانتشرت بسرعة في أرجاء القطر المصري مخترقة مختلف الطبقات والشرائح الاجتماعية التي تشاركت كلها في المطالبة بالاستقلال.

هاجم المصريون في المدن والأرياف كل تمظهر مرئي للسلطة الاستعمارية البريطانية. خربت السكك الحديدية وخطوط البرق، وأحرقت المكاتب الحكومية، وواجهت مراكز الحكومة حشوداً ضخمة من المحتجين. أرسل البريطانيون جنودهم لاستعادة النظام، لكن الجنود أدوات فاشلة للسيطرة على الجماهير، وبدأت أعداد الضحايا ترتفع. اتهم المصريون الجنود البريطانيين بارتكاب فظائع وحشية –استخدام الذخيرة الحية ضد المتظاهرين،

وحرق القرى، وحتى ارتكاب أعمال اغتصاب. وبحلول نهاية مارس، قتل جراء العنف 800 من المدنيين المصريين، وجرح 1.600 [23].

وفي سبيل استعادة الهدوء، سمح البريطانيون لسعد زغلول بالعودة إلى مصر ورئاسة وفد إلى باريس في أبريل 1919. لكن قبل أن يصل الوفد إلى وجهته، أقنع رئيس الوزراء البريطاني ديفيد لويد جورج حلفاءه الفرنسيين والأميركيين بأن مصر "قضية تخص الامبراطورية وليست دولية". في اليوم الذي وصل فيه الوفد إلى باريس، اعترف الرئيس ولسون بالحماية البريطانية على مصر. ولم يمنح الوفد قط الفرصة لعرض رأيه رسمياً أمام مؤتمر الصلح. ربما انتهت الحرب، لكن الحكم البريطاني لمصر بقي مستمراً.

واجهت إدارة الأمير فيصل العربية في دمشق أيضاً مستمعين متشككين في باريس. وبينما اعتقد الأمير الهاشمي أنه مؤهل لدعم قوى الوفاق بعد خدمة قضية الحلفاء بقيادة الثورة العربية على الامبراطورية العثمانية، اصطدمت مطالبه بمطامح فرنسا في سوريا.

عرض فيصل حجته لمصلحة استقلال العرب أمام المجلس الأعلى لمؤتمر الصلح في باريس في يناير 1919. وباعتبار الأراضي الشاسعة التي وعد بها السير هنري مكماهون الشريف حسين في مراسلاتهما الشهيرة، بدا موقف فيصل معتدلاً جداً. فقد سعى إلى الاستقلال الفوري والكامل للمملكتين العربيتين في بلاد الشام (التي تضم حالياً دول سورية ولبنان والأردن وإسرائيل والسلطة الفلسطينية) والحجاز، التي كانت آنذاك تحت حكم والده الملك حسين. قبل بالوساطة الأجنبية في فلسطين لحل التعارض بين التطلعات العربية والصهيونية. واعترف بالمطالب البريطانية في الرافدين، بينما عبر عن اعتقاده بأن هذه المناطق سوف تنضم في نهاية المطاف إلى الدولة العربية المستقلة التي أمل بإقناع صناع السلام بإنشائها.



الأمير فيصل في مؤتمر الصلح في باريس، 1919. ذهب قائد الثورة العربية إلى مؤتمر الصلح لعرض مطالب العرب، ورافقه ت. إي. لورنس مترجماً. لكنه فشل في الحفاظ على المملكة السورية التي لم تعمر طويلاً أمام المطامح الاستعمارية الفرنسية.

بينما قبل فيصل بأقل مما وُعد به الهاشميون من حلفائهم البريطانيين، فقد طالب بأكثر مما يستطيع البريطانيون تقديمه. احتاج رئيس الوزراء ديفيد لويد جورج إلى موافقة الفرنسيين لتأمين المطالب البريطانية في الرافدين وفلسطين. ومنذ بداية الحرب، حددت فرنسا الثمن الذي ستقبضه بالاسم: سورية. وحين عجزت بريطانيا عن مصالحة هذه المطالب المتنافسة، أيدت حليفتها الأساسية، فرنسا، وتركت فيصلاً يواجه مصيره ويتدبر شؤونه بنفسه دون عون منها.

في الأول من نوفمبر 1919، سحب البريطانيون جيشهم من سوريا وسلموا إدارة البلاد إلى الحكم العسكري الفرنسي. رد المؤتمر السوري العام، وهو هيئة منتخبة ضمت أنصار فيصل وممثلين عن مختلف مناطق بلاد الشام، بإعلان استقلال سوريا في 8 مارس 1920 وتنصيب فيصل ملكاً. لكن مملكة فيصل السورية لن تتمكن من البقاء. إذ أرسل الفرنسيون

جيشاً استعمارياً من لبنان للسيطرة على دمشق، حيث واجه فلول جيش فيصل العربي في ميسلون، المعبر الجبلي على الطريق بين بيروت ودمشق، وهزم بسهولة القوة الرمزية المؤلفة من 2000 مدافع يوم 24 يوليو 1920، وتقدم نحو دمشق دون مقاومة لإسقاط المملكة السورية التي لم تعمر طويلًا. رحل فيصل إلى المنفى حاملًا معه آمال الثورة العربية المحطمة.

ترك سقوط حكومة فيصل في دمشق الفلسطينيين وحدهم في مواجهة الاحتلال البريطاني–ووعد بلفور. أدّت شخصيات بارزة من البلدات والمدن الفلسطينية دوراً مفتاحياً في المؤتمر السوري العام، وعبّر أبناؤها الذين مثلتهم عن آرائهم أمام لجنة التحقيق الأميركية التي أرسلها مؤتمر الصلح في باريس صيف عام 1919. إذ تجولت لجنة كينغ–كرين بين 10 يونيو و21 يوليو في أرجاء بلاد الشام لجمع الأدلة وتقييم الرأي العام حول مستقبل المنطقة السياسي. بدا واضحاً أن أغلبية ساحقة من العرب الفلسطينيين ترغب في الانضمام إلى مملكة فيصل العربية. فضلاً عن ذلك، ذكرت اللجنة أن السكان العرب الفلسطينيين "يرفضون البرنامج الصهيوني رفضاً قاطعاً"، وأنهم "لم يجمعوا على شيء مثل إجماعهم على هذا الرفض"[24].

ازداد التوتر عام 1920 مع تسارع الهجرة اليهودية التي شجعها وعد بلفور. إذ تدفق أكثر من 18.500 مهاجر صهيوني على الشواطئ الفلسطينية بين عامي 1919 و 1921، اندلعت اضطرابات في القدس في الأسبوع الأول من أبريل 1920، وخلفت خمسة قتلى من اليهود وأربعة من العرب وأكثر من مئتي جريح. لكن وقعت أسوأ أعمال العنف عام 1921 حين تدخل الأهالي العرب في عراك بين اليهود الشيوعيين والصهيونيين في ميناء يافا أثناء مسيرات عيد العمال في الأول من مايو. قتل في الشغب الناتج سبعة وأربعون يهودياً وثمانية وأربعون عربياً، وجرح أكثر من مئتين. تبدت بوضوح لا لبس فيه التناقضات التي أثارها وعد بلفور –"النظر بعين العطف إلى إنشاء وطن قومي لليهود.. دون انتقاص الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن في فلسطين".

راقبت النخب السياسية في العراق الحوادث الجارية في مصر وسوريا بقلق متعاظم على مستقبلها. فقد شعرت بالاطمئنان في نوفمبر 1918 عندما أصدر البريطانيون والفرنسيون

إعلاناً يتعهدون فيه بدعم "إنشاء حكومات وإدارات وطنية" في الأراضي العربية، وفقاً لمبدأ حق تقرير المصير. لكن زادت شكوك العراقيين مع مرور الأشهر دون تحقيق أي تقدم ملموس نحو الحكم الذاتي الموعود. أما الأنباء التي أشارت إلى أن القوى الكبرى اتفقت في سان ريمو (أبريل 1920) على منح بلادهم جائزة لبريطانيا كدولة منتدبة، فقد أكدت أسوأ مخاوف العراقيين[25].

انتفض العراق في ثورة وطنية عارمة ضد الحكم البريطاني مع نهاية يونيو 1920. هددت الثورة، التي تميزت بالانضباط وحسن التنظيم، البريطانيين في البصرة وبغداد والموصل، لكن تركزت العمليات في البلدات الشيعية المقدسة في الفرات الأوسط التي تمردت على العثمانيين أثناء الحرب العظمى. ومع انتشار الانتفاضة، أجبر البريطانيون على نقل وحدات إضافية من الجنود إلى الرافدين لقمع المقاومة العراقية العنيدة على الجبهات كلها. سارعت التعزيزات الآتية من الهند إلى دعم 60.000 من جنود حملة الرافدين الذين لم يسرحوا بعد، ما رفع عدد القوات البريطانية إلى أكثر من 100.000 بحلول أكتوبر. تمكن البريطانيون من استعادة السيطرة على منطقة الفرات الأوسط، باستخدام القصف الجوي والمدفعية الثقيلة، وباتباع سياسة الأرض المحروقة وأساليبها التكتيكية التي سحقت المقاومة. أشار صحفي في النجف في أكتوبر 1920 إلى ما "حدث مؤخراً من سفك الدماء وتدمير البلدات المأهولة وانتهاك حرمة أماكن العبادة"، ما جعل "الإنسانية تبكي" على حد تعبيره. بحلول الوقت الذي سحقت فيه الانتفاضة مع نهاية أكتوبر، زعم البريطانيون أن 2.200 من جنودهم قتلوا وجرحوا إضافة إلى عدد قدر بنحو 8.450 من القتلى والجرحى العراقيين[26].

تابع الشريف الحسين، الذي أصبح الآن ملكاً على الحجاز، الحوادث في سورية وفلسطين والعراق بإحساس متعمق بالتعرض للغدر والخيانة. لديه نسخ من جميع الرسائل التي تبادلها مع السير هنري مكماهون، وشعر بأن البريطانيين نكثوا بالوعود التي تضمنتها كلها. وبعد أن طمح ليكون ملكاً على العرب، حوصر الآن في الحجاز —ولم يكن آمناً حتى هناك. ثمة مملكة منافسة في وسط الجزيرة العربية، بقيادة عبد العزيز آل سعود (المعروف في الغرب

باسم ابن سعود)، تهدد باجتياح الحجاز. ومما زاد الطين بلة أن الملك عبد العزيز يتمتع بمعاهدة مع بريطانيا العظمى ويتلقى منحة شهرية سخية من الخزانة البريطانية.

اهتم البريطانيون أيضاً بمستقبل الحجاز. وبينما ضمنوا معاهدة رسمية مع الملك عبد العزيز منذ عام 1915، فإن علاقاتهم مع الهاشميين اتخذت شكل تحالف زمن الحرب. وما إن انتهت حتى انتهى معها. وإلى أن يعقد ملك الحجاز العجوز معاهدة مع بريطانيا، فإن حكومتها لا تملك أساساً قانونياً لحماية أراضيه. لكن دفع الملك حسين إلى توقيع معاهدة يستوجب أولاً إقناعه بقبول تسوية ما بعد الحرب التي صيغت في سان ريمو. في صيف عام 1921، كلف تي. إي. لورنس بالمهمة المستحيلة: التفاوض على شروط معاهدة بين بريطانيا والحجاز مع الملك حسين الساخط والطافح بالمرارة.

بحلول الوقت الذي التقى فيه لورنس بالملك حسين، تحركت بريطانيا خطوة باتجاه التعويض عن وعود السير هنري مكماهون التي نقضتها. إذ عقد ونستون تشرشل، الذي أصبح الآن وزير دولة لشؤون المستعمرات، اجتماعاً سرياً في القاهرة (مارس 1921) لتقرير المستقبل السياسي لانتدابات بريطانيا الجديدة في الشرق الأوسط. في ذلك الاجتماع، اتفق كبار المسؤولين البريطانيين على تنصيب فيصل بن الحسين ملكاً على العراق وعبد الله حاكماً على منطقة لم تحدد بعد في شرق الأردن (فصلت رسمياً عن فلسطين عام 1923). ومع تعيين الأميرين الهاشميين حاكمين على مناطق الانتداب البريطاني، باستثناء فلسطين، أمكن لتشرشل الزعم بأنه التزم روح، إن لم يكن نص، تعهدات مكماهون زمن الحرب.

بين يوليو وسبتمبر 1921، سعى لورنس عبثاً إلى الصيغة الملائمة لمصالحة الملك حسين مع موقف بريطانيا ما بعد الحرب في الشرق الأوسط. رفض حسين حصر طموحاته في الحجاز. واعترض على فصل سورية ولبنان عن بقية الأراضي العربية ووضعهما تحت الانتداب الفرنسي. كما استنكر الانتداب البريطاني على العراق وشرق الأردن، حتى وإن حكمهما نجلاه اسمياً. ورفض المصادقة على التعهد بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين. ونظراً إلى تعذر قبوله بأي شيء من التسوية البريطانية ما بعد الحرب، انتفت إمكانية عقد معاهدة تحالف إنكليزية-حجازية. وعاد لورنس إلى لندن خالي الوفاض.

قام البريطانيون بمحاولة أخيرة لعقد معاهدة مع الحجاز عام 1923، لكن الملك الغاضب الساخط رفض -فخسر الحماية البريطانية في اللحظة المصيرية ذاتها التي استعد فيها الملك عبد العزيز لاجتياح ولاية البحر الأحمر. في 6 أكتوبر 1924، تنازل الملك حسين عن العرش لصالح أكبر أبنائه علي، وذهب إلى المنفى. وانتهى حكم الملك علي في أواخر عام 1925، حين استكمل السعوديون فتح الحجاز. وعلى غرار العثمانيين قبلهم، وقف الهاشميون وقفتهم الأخيرة في المدينة المنورة، وسلموها في ديسمبر 1925 -بعد نحو سبع سنين من استسلام فخري باشا.

* * *

في النهاية، ثبت أن الجبهة العثمانية أكثر أهمية للحرب العالمية الأولى مما تصوره المعاصرون. وجد المخططون الحربيون للحلفاء، الذين اعتقدوا أن نصراً سريعاً على الامبراطورية العثمانية الضعيفة قد يسرع استسلام القوى المركزية، أنفسهم يتورطون في سلسلة من الحملات التي استمرت طوال سنوات الحرب تقريباً. لقد أدت المعارك في القوقاز وفارس، والمحاولة الفاشلة لاقتحام الدردنيل، والنكسات في الرافدين، والحملة الطويلة عبر سيناء وفلسطين وسورية، إلى نقل مئات آلاف الجنود والمواد الحربية الاستراتيجية بعيداً عن المسرح الرئيس للعمليات على الجبهتين الغربية والشرقية. وبدلاً من تسريع نهاية النزاع، سببت الجبهة العثمانية إطالة أمد الحرب.

حفز معظم المجهود الحربي للحلفاء في الشرق الأوسط خوف لا مبرر له كما ثبت من الجهاد. وبينما لم يستجب المسلمون في المستعمرات غالباً لدعوة السلطان-الخليفة العثماني، فقد استمرت القوى الاستعمارية الأوربية في افتراض أن أي نجاح كبير يحققه الترك أو نكسة قوية تصيب الحلفاء، ربما تستفز الانتفاضة الإسلامية التي خشيت منها في مستعمراتها في الهند وشمال إفريقيا. والمفارقة أن هذه المخاوف تركت الحلفاء أكثر استجابة لدعوة الخليفة من الجمهور الإسلامي الذي استهدفته. وحتى بعد قرن من الزمان، لم يتخلص العالم الغربي من الاعتقاد بأن المسلمين ربما يوحدهم التعصب الديني ويعملون معاً بأسلوب جمعي. ومثلما أظهرت "الحرب على الإرهاب" بعد الحادي عشر من سبتمبر 2001، يواصل

صناع السياسة الغربيون الحديث عن الجهاد بتعابير تذكر بالمخططين الحربيين بين عامي 1914 و 1918.

كانت الحرب العالمية الأولى نفسها بالغة الأهمية في تشكيل الشرق الأوسط الحديث. فبعد سقوط السلطنة العثمانية، حل الاستعمار الأوربي محل الحكم التركي. وعقب أربعة قرون ظل العرب فيها موحدين في امبراطورية متعددة القوميات تحت حكم إسلامي عثماني، وجدوا أنفسهم مقسمين إلى عدد من الدول الجديدة الخاضعة للهيمنة البريطانية الفرنسية. لم تحقق الاستقلال إلا قلة من البلدان ضمن حدود رسمتها بجهدها -تبرز في هذا السياق تركيا وإيران والمملكة العربية السعودية. بينما فرضت القوى الاستعمارية الحدود وأنظمة الحكم فرضاً على معظم دول المنطقة كجزء من تسوية ما بعد الحرب.

جسد تقسيم الامبراطورية العثمانية بعد الحرب موضوعاً لمفاوضات مكثفة بين الحلفاء استمرت طوال مدة الحرب. وعند معاينة حوادث الماضي من منظور الحاضر، يتبين أن أي اتفاق على التقسيم لا يحمل معنى منطقياً إلا في سياق زمن الحرب؛ اتفاقية القسطنطينية (1915)، حين توقع الحلفاء احتلالاً سريعاً لإسطنبول؛ مراسلات حسين-مكماهون (1915-1916)، حين احتاج البريطانيون إلى حليف مسلم ضد الجهاد العثماني؛ وعد بلفور (1917)، حين أراد البريطانيون تعديل شروط اتفاقية سايكس-بيكو لضمان وضع فلسطين تحت الحكم البريطاني. عقدت هذه الاتفاقيات الغريبة، التي لا يمكن تصورها وإدراكها إلا ضمن زمن الحرب، من أجل غرض واحد هو تعزيز التوسع الاستعماري البريطاني والفرنسي. ولو اهتمت القوى الأوربية بإقامة شرق أوسط مستقر، لرسمت الحدود -كما لا بد أن نعتقد- بطريقة مختلفة تماماً.

ثبت أن الحدود التي أقرتها تسوية ما بعد الحرب مرنة ونفوذة إلى حد لافت -كحال النزاعات التي ولدتها حدود ما بعد الحرب. تورط الشعب الكردي، الذي توزع على تركيا وإيران والعراق وسورية، في نزاع مع الحكومات المضيفة طوال القرن الماضي في مسعاه للحصول على حقوقه الثقافية والسياسية. وشهد لبنان، الذي أنشأته فرنسا عام 1920

كدولة مسيحية، سلسلة من الحروب الأهلية مع فشل مؤسساته السياسية في مواكبة التغيرات السكانية (الديمغرافية) وزيادة عدد المسلمين على المسيحيين. وأرسلت سورية، التي لم تتمكن من التصالح مع فكرة إنشاء دولة لبنانية مستقلة على أرض يعتبرها كثير من القوميين السوريين جزءاً لا يتجزأ من بلدهم، جيشها لاحتلال لبنان أثناء الحرب الأهلية عام 1976 –وبقي هناك قوة احتلال قرابة ثلاثين عاماً. ولم يعرف العراق، على الرغم من الموارد الطبيعية والبشرية، سلاماً ثابتاً واستقراراً مطرداً ضمن حدود ما بعد الحرب، حيث شهد انقلاباً ونزاعاً مع بريطانيا في الحرب العالمية الثانية، وثورة عام 1958، وحرباً مع إيران بين عامي 1980 و 1988، ودورة لا تنتهي من العنف على ما يبدو منذ اجتياح صدام حسين الكويت عام 1991، والغزو الأميركي لإطاحته عام 2003.

لكن النزاع العربي–الإسرائيلي هو الذي عرّف الشرق الأوسط، أكثر من أي تركة موروثة من تقسيم ما بعد الحرب، باعتباره منطقة صراع. إذ اندلعت أربع حروب كبرى بين إسرائيل وجيرانها العرب –في أعوام 1948، 1956، 1967، 1973– تركت الشرق الأوسط في مواجهة عدد من المشكلات المستعصية بقيت دون حل، على الرغم من معاهدتي السلام بين إسرائيل ومصر (1979) وإسرائيل والأردن (1994). وظل اللاجئون الفلسطينيون مشتتين بين مخيمات لبنان وسورية والأردن، وواصلت إسرائيل احتلال هضبة الجولان السورية ومزارع شبعا في جنوب لبنان، ولم تتنازل حتى الآن عن سيطرتها على المناطق الفلسطينية في غزة والضفة الغربية. وبينما تتقاسم إسرائيل وجيرانها العرب المسؤولية الرئيسة عما يجري من حوادث ويرتكب من أفعال، فإن من الممكن اقتفاء جذور الصراع بالعودة مباشرة إلى التناقضات الجوهرية الكامنة في وعد بلفور.

وضعت شرعية حدود الشرق الأوسط موضع المساءلة منذ أن رسمت أول مرة. إذ دعا القوميون العرب صراحة في أربعينيات القرن الماضي وخمسينياته إلى برامج وحدوية بين الدول العربية تلغي الحدود التي أدينت على نطاق واسع باعتبارها تركة استعمارية. بينما طالبت الحركة الإسلامية باتحاد إسلامي أوسع لتحقيق الهدف نفسه. في عام 2014، بعثت ميليشيا إسلامية تسمي نفسها "الدولة الإسلامية" رسالة إلى أنصارها عبر موقع

تويتر تؤكد أنها "تحطم اتفاقية سايكس-بيكو بإعلان الخلافة في الأراضي الممتدة بين شمال سورية والعراق". وهكذا، تبقى الحدود في الشرق الأوسط بعد قرن من الزمان، خلافية - ومتقلبة ومتفجرة[27].

* * *

لم تجتذب مئوية الحرب العظمى سوى اهتمام قليل بإحياء الذكرى في الشرق الأوسط. وبغض النظر عن غاليبولي، حيث التقت جمعيات المحاربين القدماء الأتراك والأستراليين والنيوزيلنديين منذ وقت طويل لتذكر قتلى الحرب، تراجع إلى الظل كفاح الجيوش العالمية التي حاربت على الجبهة العثمانية وغاب عن الذاكرة ما قدمته من تضحيات، لإفساح المجال لمشاغل وهموم معاصرة أشد إلحاحاً. إذ استحوذت اضطرابات الثورة في مصر، والحرب الأهلية في سورية والعراق، والعنف المستمر بين الإسرائيليين والفلسطينيين، على اهتمام الشرق الأوسط وطغت على الذكرى المئوية لاندلاع الحرب العظمى. لكن مع تذكر باقي العالم للحرب، يجب أن يؤخذ بالحسبان الدور الذي أدّاه العثمانيون في النزاع؛ لأن الجبهة العثمانية، بميادينها الآسيوية، والجنود الذين أتوا من شتى أرجاء العالم للقتال فيها، حولت حرب أوربا العظمى إلى الحرب العالمية الأولى. وما تزال مواريث الحرب العظمى في الشرق الأوسط، أكثر من أي جزء آخر من العالم، ملموسة ومحسوسة حتى يومنا الحالي.

كلمة شكر

أمكن إنجاز أبحاث هذا المؤلف وكتابته عبر الدعم السخي الذي قدمته الأكاديمية البريطانية ومجلس أبحاث الفنون والعلوم الإنسانية. أدين بفضل هائل للأكاديمية البريطانية وجمعية اللاجئين اليهود على جائزة (Thank-Offering to Britain Fellowship) لعام 2011–2012. كما أدين بفضل مماثل لمجلس أبحاث الفنون والعلوم الإنسانية على جائزة (Senior Research Fellowship) للسنة الأكاديمية 2012–2013.

ومثلما كانت الحال مع كتابي السابق **العرب**، استفدت من معارف مجتمع الباحثين اللامعين في دراسات الشرق الأوسط في أكسفورد وتشجيعهم. تعرض معظم الكتاب أولاً لتفحص نقدي دقيق من طلابي في مدرج المحاضرات في أكسفورد، وأنا ممتن للتغذية الراجعة التي قدموها. أود أيضاً أن أشكر زملائي في مركز الشرق الأوسط، والتر آرمبرست، وسيليا كيرسليك، ولوران مينيون، وطارق رمضان، وفيليب روبنز، وآفي شلايم، ومايكل ويليس.

شاركني عدد من الأصدقاء والأقرباء والزملاء، بعد أن عرفوا اهتماماتي البحثية، بكتبهم ووثائقهم التي أسهمت إسهاماً ضخماً في هذه الدراسة. أود أن أتقدم بجزيل الشكر إلى طفول أبو هديب وآدم مستيان على عدد من المراجع العربية حول الحرب في سورية؛ وعلي علاوي على إرشاداته حول المصادر والمراجع المتعلقة بالحرب في بلاد الرافدين؛ ويوف ألون وفايز الطراونة على الذكريات عن الثورة العربية؛ وتوي كلارك على الأعمال المتعلقة بتجربة النيوزيلنديين على الجبهة العثمانية. أما جيل، دوقة هاملتون، فقد عرضت مكتبتها

ودراساتها الممتازة عن القوات الأسترالية والنيوزيلندية والبريطانية في الشرق الأوسط. كما زودني هنري لورنس الكريم بنسخه من تقارير المخابرات الفرنسية التي جمعها الراهب الدومنيكاني، أنطونين جوسن. ومع أن مارغريت مكميلان كانت منهمكة في كتابة دراستها اللافتة عن جذور الحرب العالمية الأولى (*The War that Ended Peace*)، فقد شاركتني كل مقال وجدته عن المجهود الحربي العثماني. قدم مارتن بونتون وحسين عمر وثائق ثمينة عن الإسهام المصري في المجهود الحربي البريطاني. وأود أن أعبر عن شكر خاص لوالدتي، مارغريت روغان، وأبحاثها عن حياة شقيق جدي جون مكدونالد وموته في غاليبولي.

عند مقاربة يوميات قدامى المحاربين الأتراك في الحرب العظمى، سررت بالعمل مع باحثين لامعين في جامعة أكسفورد يدرسان التاريخ العثماني المتأخر. نقب كريم تيناز وجيني باجالان في مكتبات إسطنبول لتأمين العدد المتزايد من المذكرات المنشورة للجنود والضباط العثمانيين الذين شاركوا في الحرب العالمية الأولى. ساعد جيني في الأبحاث التي اعتمد عليها أول فصلين في الكتاب، بينما ساعد كريم في الأبحاث التي اعتمدت عليها الفصول 3-13. ما كان بوسعي إنجاز الكتاب لولا العون الذي قدماه.

يظل المؤرخون تحت رحمة موظفي المحفوظات (الأرشيف) والمكتبات للعثور على المقالات الضرورية لمهنتهم. أدين بفضل خاص لماستان ابتهاج، من مكتبة مركز الشرق الأوسط، وديبي أشر، من محفوظات المركز على مساعدتهما السخية. كما أود أن أعبر عن شكري للعاملين في أرشيفات الولايات المتحدة الوطنية في كوليدج بارك (بولاية مريلاند)؛ والمتحف الحربي الامبراطوري في لندن، الذي واصل خدمة القراء بالرغم من عملية التجديد الشاملة في المبنى؛ والمختصين الأكفاء في الأرشفة في مكتبة الكسندر تورنبول في ولنغتون (بنيوزيلندا).

قرأ عدد من الزملاء اقتراحاتي ومسودات الفصول وعرضوا رؤى ثاقبة وتصحيحات لا تقدر بثمن. أود أن أشكر على وجه الخصوص فردريك أنسكومبي، وبن فورتنا، وروجر أوين، وجوزيف ساسون، ونغيري وودز.

أنا ممتن دائماً لوكيلي، فيليسيتي بريان وجورج لوكاس على ما تمتعا به من حكمة وخبرة في إرشادي وتوجيه مشروع كتابي من البداية إلى النهاية. أما متعة النشر مع ألين لين ودار "بيسك بووكس" فتكمن أولاً وأخيراً في العمل مع لارا هيمرت وسايمون ويندر، أعظم محررين في المهنة للأعمال غير الروائية.

لكني أتوجه بأعمق الشكر والامتنان إلى عائلتي، على ما أظهرته من حب وتشجيع حتى حين كان تركيز اهتمامي على الكتاب يتم على حسابها. كانت نغيري توأم روحي، فصلاً بعد فصل؛ وريتشارد بهجتي بسبب متعته بكل ما هو عربي؛ وإيزابيل نوري الهادي، لأن هذا الكتاب كتابها أيضاً.

الهوامش

المقدمة

1 انظر:

Colonel J. M. Findlay, *With the 8th Scottish Rifles, 1914-1919* (London: Blockie,1926), 21.

2 انظر:

Findlay, *With the 8th Scottish Rifles*, 34.

3 فوض المجلس البريطاني وكالة استطلاع الرأي (YouGov) لإجراء مسح على الشبكة الإلكترونية لآراء السكان البالغين في مصر وألمانيا وفرنسا والهند وروسيا وتركيا وبريطانيا في سبتمبر 2013. أوجزت النتائج في تقرير المجلس بعنوان:

"Remember the World as Well as the War: Why the Global Reach and Enduring legacy of the First World War Still Matter Today," British Council, February 2014,

http://www.britishcouncil.org/organisation/publications/remember-the-world.

4 ترجمت مؤخراً بعض المذكرات واليوميات البارزة عن التركية والعربية، منها:

Lieutenant Mehmed Fasih's *Gallipoli 1915: Bloody Ridge (Lone Pine) Diary of Lt. Mehmed Fasih* (Istanbul: denizler Kitabevi, 2001); Falih Rıfkı Atay's 1981 memoir, *Zeytindağı*, has appeared in an excellent French translation, *Le mont des Oliviers: L'empire Ottoman et le Moyen-Orient, 1914-1918* (Paris: Turquoise, 2009);

كما ترجم سليم تماري يوميات الجندي المقدسي إحسان الترجمان **عام الجراد** بعنوان:

Year of the Locust: A Soldier's Diary and the Erasure of Palestine's Ottoman Past (Berkeley: University of California Press, 2011).

ومن الدراسات التي صدرت حديثاً اعتماداً على الأرشيف العسكري في أنقرة:

Mustafa Aksakal, *The Ottoman Road to War in 1914: The Ottoman Empire and the First World War* (Cambridge: Cambridge University Press, 2008); M. Talha Çiçek, *War and State Formation in Syria: Cemal Pasha's Governorate During World War I, 1914-17* (London: Routledge, 2014); Edward J. Erickson, *Ordered to Die: A History of the Ottoman Army in the First World War* (Westport, CT: Greenwood Press, 2001); Hikmet Özdemir, *The Ottoman Army, 1914-1918: Disease and Death on the Battlefield* (Salt lake City: University of Utah Press, 2008).

الفصل الأول

1 ورد شاهد رئيس نقابة الخبازين في:

Stanford J. Shaw and Ezel Kural Shaw, *History of the Ottoman Empire and Modern Turkey* (Cambridge: Cambridge University Press, 1985), 2:187.

2 فيما يتعلق بتركيا الفتاة، انظر:

Feroz Ahmad, *The Young Turks: The Committee of Union and Progress in Turkish Politics, 1908-1914* (Oxford: Oxford University Press, 1969); M. Sükrü Hanioğlu, *Preparation for a Revolution: The Young Turks, 1902-1908* (new York: Oxford University Press, 2001); Erik J. Zürcher, *Turkey: A Modern History* (London: I. B. Tauris, 1993).

3 ورد شاهد عبد الحميد الثاني في:

François Georgeon, *Abdülhamid II: Le sultan calife* (Paris: Fayard, 2003), 401.

4 وردت التغطية الإخبارية في:

Georgeon, *Abdülhamid II*, 404; Cemal and Talat quoted by Andrew Mango, *Atatürk* (London: John Murray, 1999), 80.

5 **ثورة العرب** (مجهول المؤلف) (القاهرة، مكتبة المقطم، 1916)، ص49.

6 انظر: محمد عزة دروزة، **نشأة الحركة العربية الحديثة**، ط2 (صيدا وبيروت: منشورات المكتبة العصرية)، 277 (ترجمة عن الإنكليزية).

7 دروزة، **نشأة الحركة**، 286. (ت. عن الإنكليزية).

8 انظر:

Zürcher, *Turkey*, 98.

9 انظر:

Article 61 of "The Treaty of Berlin," in *The Middle East and North Africa in World Politics*, ed. J. C. Hurewitz (new Haven, CT: Yale University Press, 1975), 1:413-414.

انظر أيضاً:

H. F. B. lynch, *Armenia: Travels and Studies*, Vol. 2: *The Turkish Provinces* (London: Longmans, Green and Co., 1901), 408-411.

10 انظر:

Dikran Mesob Kaligian, *Armenian Organization and Ideology Under Ottoman Rule, 1908-1914* (new Brunswick nJ:Transaction Publishers, 2011), 1-2.

11 lynch, *Armenia*, 2:157-158.

12 انظر:

Georgeon, *Abdülhamid II*, 291-295.

13 زعم جمال باشا أن 17000 أرمني قتلوا، انظر:

Djemal Pasha, *Memories of a Turkish Statesman, 1913-1919* (London: Hutchinson, n.d.), 261.

أما زهراب أفندي، المندوب الأرمني الذي خدم في اللجنة الرسمية التي شكلت للتحقيق في المذابح، فقد قدر عدد القتلى بنحو 20.000.

انظر:

"Young Turk-Armenian Relations during the Second Constitutional Period, 1908-1914," in *From Empire to Republic: Essays on the Late Ottoman Empire and Modern Turkey*, by Feroz Ahmad (Istanbul: Bilgi University Press, 2008), 2:186.

للاطلاع على زعم قدر عدد القتلى الأرمن في مذابح أضنة بين 10.000 و 20.000، انظر:

Kaligian, *Armenian Organization*, 36.

14 انظر:

Zabel Essayan, *Dans les ruines: Les massacres d'Adana, avril 1909* [In the Ruins: The Adana Massacres, April 1909] (Paris: libella, 2011), translated from the original Armenian edition published in 1911. Quotes from 40.

15 انظر:

Kaligian, *Armenian Organization*, 45-47; Djemal Pasha, *Memories of a Turkish Statesman*, 262.

16 فيما يتعلق بالغزو الإيطالي لليبيا، انظر:

Jamil Abun-nasr, *A History of the Maghrib* (Cambridge: Cambridge University Press, 1971), 308-312; Mango, *Atatürk*, 101-111.

17 ذكر أحد قدامى المحاربين الترك شارك في الحملة أن إجمالي القوة العثمانية لم يتجاوز ألف رجل. أما المصادر الإيطالية فزعمت وجود 4200 جندي تركي في طرابلس وبرقة. انظر:

Philip H. Stoddard, "The Ottoman Government and the Arabs, 1911 to 1918: A Preliminary Study of the Teşkilât-i Mahsusa" (PhD diss., Princeton University, 1963), 205-206n174.

انظر أيضاً:

E. E. Evans-Pritchard, *The Sanusi of Cyrenaica* (Oxford: Oxford University Press, 1954), 104-124.

18 انظر:

M. Sükrü Hanioğlu, ed., *Kendi Mektuplarinda Enver Paşa* [Enver Pasha in His Own letters] (Istanbul: der Yayinlari, 1989), 75-78.

19 Mango, *Atatürk*, 102.

20 انظر:

Hanioğlu, *Kendi Mektuplarinda Enver Paşa*, 92-94.

انظر أيضاً:

Georges Rémond, *Aux campes turco-arabes: Notes de route et de guerre en Tripolitaine et en Cyréanaique* [In the Turco-Arab Camps: notes on Travel and War in Tripolitania and Cyrenaica] (Paris: Hachette, 1913).

21 انظر:

Hanioğlu, *Kendi Mektuplarinda Enver Paşa*, 148-153, 185-188, 196-198.

انظر أيضاً:

G. F. Abbott, *The Holy War in Tripoli* (London: Edward Arnold, 1912).

22 انظر:

Abun-nasr, *History of the Maghrib*, 310.

23 I. S. Stavrianos, *The Balkans Since 1453* (London: Hurst, 2000), 535-537.

24 انظر:

Hanioğlu, *Kendi Mektuplarinda Enver Paşa*, letters of 28 December 1912 and 12 January 1913, 216-217, 224.

25 روى أنور باشا أحداث 23 يناير في عدد من الرسائل بين 23 و 28 يناير عام 1914.

انظر:

Hanioğlu, *Kendi Mektuplarinda Enver Paşa*, 224-231.

انظر أيضاً:

Ahmad, *The Young Turks*, 117-123.

26 ورد في:

Niyazi Berkes, *The Development of Secularism in Turkey* (New York: Routledge, 1998), 358.

27 انظر:

Hanioğlu, *Kendi Mektuplarinda Enver Paşa*, 247-248.

28 انظر:

Hanioğlu, *Kendi Mektuplarinda Enver Paşa*, letter of 2 August 1913, 249-250.

29 انظر:

Hanioğlu, *Kendi Mektuplarinda Enver Paşa*, letter of 2 August 1913, 249-250.

30 فيما يتعلق بالأصول، والأهداف والعضوية في هذه وغيرها من الجمعيات العربية الوطنية قبل الحرب، انظر:

George Antonius, *The Arab Awakening* (London: Hamish Hamilton, 1938), 101-125; Eliezer Tauber, *The Emergence of the Arab Movements* (London: Frank Cass, 1993).

31 ورد في:

Zeine N. Zeine, *The Emergence of Arab Nationalism*, 3rd ed. (New York: Caravan Books, 1973), 84.

32 انظر:

توفيق السويدي، **مذكراتي: نصف قرن من تاريخ العراق والقضية العربية**)، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2010)، ص31. ولشهادته عن المؤتمر انظر ص35-40.

33 فيما يتعلق باتفاق باريس، انظر:

Tauber, *Emergence of the Arab Movements*, 198-212.

34 انظر:

توفيق السويدي، مذكراتي...، ص40 و 41.

نفذت السلطات العثمانية حكم الإعدام بعبد الحميد الزهراوي، من حزب اللامركزية، ومحمد المحمصاني وعبد الغني العريسي، عضوي العربية الفتاة في 6 مايو 1916.

35 انظر:

Hanioğlu, *Kendi Mektuplarinda Enver Paşa*, letter of 2 August 1913, 249-250.

الفصل الثاني

1 انظر:

3 NARA, Istanbul vol. 284, US Deputy Consul General George W. Young, "Automobiles," 3 July 1914.

2 انظر:

B. A. Elliot, *Blériot: Herald of an Age* (Stroud, UK: Tempus, 2000), 165.

NARA, Istanbul vol. 285, US Vice Consul in Mersin to Consul General, Istanbul, 16 February 1914.

4 NARA, Istanbul vol. 285, Consul General Ravndal, "Successful demonstration of 'Curtiss Flying Boat' at Constantinople," 15 June 1914.

5 NARA, Istanbul vol. 282.

تقرير من القدس بتاريخ 1914/4/29، تضمن ترجمة للمذكرة التي أرسلتها سلطات التجنيد العسكرية في يافا إلى مخاتير القرى في فلسطين.

6 انظر:

Mustafa Aksakal, *The Ottoman Road to War in 1914: The Ottoman Empire and the First World War* (Cambridge: Cambridge University Press, 2008), 42-56.

7 انظر:

Michael A. Reynolds, *Shattering Empires: The Clash and Collapse of the Ottoman and Russian Empires, 1908-1918* (Cambridge: Cambridge University Press, 2011), 36-41.

8 انظر:

Justin McCarthy, *Muslims and Minorities: The Population of Ottoman Anatolia and the End of the Empire* (New York: New York University Press, 1983), 47-88.

تشير الأرقام الإحصائية العثمانية إلى أن إجمالي عدد السكان الأرمن في الولايات الست بلغ 865.000 نسمة بين عامي 1911 و 1912. بينما زعمت البطركية الأرمنية أن العدد وصل إلى 1.018 (مليون وثمانية عشر ألفاً) عام 1912. لاحظ أن هاربوت (خربوط) عرفت أيضاً باسم معمورة العزيز (الازيغ في تركيا الحديثة).

9 انظر:

Roderic H. Davison, "The Armenian Crisis, 1912-1914," *American Historical Review* 53 (April 1948): 481-505.

10 Taner Akçam, *The Young Turks' Crime Against Humanity: The Armenian Genocide and Ethnic Cleansing in the Ottoman Empire* (Princeton, nJ: Princeton University Press, 2012), 129-135.

11 ورد في:

Sean McMeekin, *The Berlin-Baghdad Express: The Ottoman Empire and Germany's Bid for World Power, 1898-1918* (London: Allen lane, 2010), 14.

12 NARA, Istanbul vol. 295, reports from Mersina, 3 July 1915, and Constantinople, "Baghtche Tunnel," 3 September 1915; McMeekin, *The Berlin-Baghdad Express*, 233-258.

13 NARA, Baghdad box 19, Consul Brissel's reports of 2 June 1914 and 10 October 1914.

14 وردت تعليقات السلطان في كتاب:

Otto Liman von Sanders, *Five Years in Turkey* (Annapolis, MD: US Naval Institute, 1927), 1-12.

15 انظر:

Aksakal, *The Ottoman Road to War*, 80-83; Liman von Sanders, *Five Years in Turkey*, 6-7.

16 Djemal Pasha, *Memories of a Turkish Statesman, 1913-1919* (London: Hutchinson, n.d.), 99-106.

17 مع أن إيطاليا عضو في التحالف الثلاثي، فقد ارتبطت بحلف دفاعي فحسب مع ألمانيا والنمسا. ولم تدخل الحرب عام 1914 لأن ألمانيا والنمسا اتخذتا موقف الهجوم. وحين أعلنت الحرب في نهاية المطاف عام 1915 وقفت إلى جانب قوى الوفاق.

18 انظر:

Djemal Pasha, *Memories of a Turkish Statesman*, 116-117.

19 Aksakal, *The Ottoman Road to War*, 96.

20 Aksakal, *The Ottoman Road to War*, 99.

21 انظر:

"Secret Treaty of Defensive Alliance: Germany and the Ottoman Empire, 2 August 1914," in *The Middle East and North Africa in World Politics*, ed. J. C. Hurewitz (new Haven, CT: Yale University Press, 1979), 2:1-2.

22 انظر:

Irfan Orga, *Portrait of a Turkish Family* (1950; rpt. London: Eland, 1988), 47-48.

لم يعتمد أورغا على ذاكرته فحسب لاسترجاع هذا الحديث، واعترف بأن والدته "جمعت معظم أجزائه بعد سنوات" (ص46).

23 NARA, Istanbul vol. 285, Heizer to Morgenthau, 4 August 1914; telegrams from Consul Grech, Dardanelles, 4 and 27 August 1914.

24 ورد في:

Aksakal, *The Ottoman Road to War*, 117.

25 انظر:

Ulrich Trumpener, *Germany and the Ottoman Empire, 1914-1918* (Princeton, nJ: Princeton University Press, 1968), 28; Aksakal, *The Ottoman Road to War*, 115.

26 انظر:

Djemal Pasha, *Memories of a Turkish Statesman*, 118-119; Halil Menteşe, *Osmanli Mebusan Meclisi Reisi Halil Menteşe'nin Anilari* [Memoirs of the Speaker of the Ottoman Parliament Halil Menteşe] (Istanbul: Amaç Basimevi, 1996), 189-191.

27 John Buchan, *Greenmantle* (London: Hodder and Stoughton, 1916), 7.

فيما يتعلق بـ"الإسلام السياسي"، انظر:

Tilman Lüdke, *Jihad Made in Germany: Ottoman and German Propaganda and Intelligence Operations in the First World War* (Münster: Lit Verlag, 2005), 33-34.

28 نقلًا عن أوبنهايم في:

McMeekin, *The Berlin-Baghdad Express*, 27, 91.

29 وردت تعليقات أنور باشا في:

Chapter 1 (n. 25); Djemal Pasha, *Memories of a Turkish Statesman*, 144.

فيما يتعلق بآراء الاتحاديين عن الجهاد، انظر:

Philip H. Stoddard, "The Ottoman Government and the Arabs, 1911 to 1918: A Preliminary Study of the Teşkilât-I Mahsusa" (PhD diss., Princeton University, 1963), 23-26.

30 يوثق أكساكال بشكل كامل، اعتماداً على الرسائل الدبلوماسية الروسية، عروض العثمانيين للروس في:

The Ottoman Road to War, 126-135.

بينما يرفض مكميكن مقترحات أنور باشا باعتبارها "بالون اختبار يحبس الأنفاس بأسلوبه الساخر"، انظر:

The Russian Origins of the First World War (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2011), 106-107.

31 انظر:

Hew Strachan, *The First World War*, vol. 1: *To Arms* (Oxford: Oxford University Press, 2001), 230-278.

فيما يتعلق بالخسائر النمساوية أمام روسيا وصربيا، انظر:

David Stevenson, *1914-1918: The History of the First World War* (London: Penguin, 2005), 70-73. See also D. E. Showalter, "Manoeuvre Warfare: The Eastern and Western Fronts, 1914-1915," in *The Oxford Illustrated History of the First World War*, ed. Hew Strachan (Oxford: Oxford University Press, 2000), 39-53.

32 نقلًا عن فون فالكنهاين، انظر:

Aksakal, *The Ottoman Road to War*, 149.

33 انظر:

Mustafa Aksakal, "Holy War Made in Germany? Ottoman Origins of the 1914 Jihad," *War in History* 18 (2011): 184-199.

الفصل الثالث

1 انظر:

Hew Strachan, *The First World War* (London: Pocket Books, 2006), 97.

2 انظر:

NARA, Istanbul vol. 280, "Annual Report on the Commerce and Industries of Turkey for the Calendar Year 1913," 29 May 1914; see also reports in vol. 280 from Tripoli in Syria, Smyrna, Jerusalem, and Trebizond, all of which report on emigration of men of military age. Istanbul vol. 292, "Report on Commerce and Industries for Calendar Year 1914," Jerusalem, 15 March 1915.

3 انظر:

NARA, Istanbul vol. 282, report from Jerusalem dated 29 April 1914, encloses a translation of the instructions dated 25 April 1914, sent by "The Chief of the Jaffa Branch of Soldier Collection" to the *mukhtars*, or village headmen, in Palestine; Yigit Akin, "The Ottoman Home Front during World War I: Everyday Politics, Society, and Culture" (PhD diss., Ohio State University, 2011), 22; copies of mobilization posters are reproduced in Mehmet Besikçi, "Between Voluntarism and Resistance: The Ottoman Mobilization of Manpower in the First World War" (PhD diss., Bogaziçi University, 2009), 407-409.

4 أحمد رضا، **حوادث جبل عامل، 1914-1922** (بيروت: دار النهار، 2009)، 35.

5 انظر:

NARA, Istanbul vol. 282, report from US consul in Aleppo dated 3 August 1914; vol. 292, US vice consul Trebizond (Trabzon) report of 31 March 1915.

6 Irfan Orga, *Portrait of a Turkish Family* (1950; rpt. London: Eland, 1988), 65-66.

7 "Ey gaziler yol göründü, Yine garib serime, dağlar, taşlar dayanamaz, Benim ahu zarima." Orga, *Portrait of a Turkish Family*, 67, 71.

8 Edward J. Erickson, *Ordered to Die: A History of the Ottoman Army in the First World War* (Westport, CT: Greenwood Press, 2001), 7; Şevket Pamuk, "The Ottoman Economy in World War I," in *The Economics of World War I*, ed. Stephen Broadberry and Mark Harrison (Cambridge: Cambridge University Press, 2005), 117; Beşikçi, "Between Voluntarism and Resistance," 141.

9 انظر:

David Stevenson, *1914-1918: The History of the First World War* (London: Penguin, 2005), 198-205.

10 NARA, Istanbul vol. 292, "Special Report on Turkish Economics," 8 May 1915.

11 انظر:

NARA, Istanbul vol. 282, report from Aleppo, 3 August 1914; Istanbul vol. 292, "Trade and Commerce at Beirut for the Year 1914, and January 1915," 15 April 1915; "Annual Report on Commerce and Industries for 1914," Harput, 1 January 1915; Istanbul vol. 295,

12 انظر:

Pamuk, "The Ottoman Economy in World War I," 117.

13 Beşikçi, "Between Voluntarism and Resistance," 73-76; NARA, Istanbul vol. 292, "Special Report on Turkish Economics," Istanbul, 8 May 1915.

14 انظر:

NARA, Istanbul vol. 279, letter from Hakki Pasha, governor of Adana to the US consul in Mersin, dated 6 Aghustos 1330; for a description of the plundering of a shop and extortion see vol. 279, letter from US consul in Jerusalem, 19 September 1914; correspondence with the Singer Manufacturing Company, September and October 1914; letter from Ottoman governor of Adana to US consul in Mersin, August 1914; report from US consul in Baghdad of 5 October 1914. See also Istanbul vol. 292, "Special Report on Turkish Economics," 8 May 1915.

15 Erik Jan Zürcher, "Between Death and Desertion: The Experience of the Ottoman Soldier in World War I," *Turcica* 28 (1996): 235-258; Pamuk, "The Ottoman Economy in World War I," 126; NARA, Istanbul vol. 292, "Special Report on Turkish Economics," Istanbul, 8 May 1915; Istanbul vol. 294, "Increased Cost of living in Constantinople," 2 December 1915.

16 انظر:

Ahmed Emin, *Turkey in the World War* (New Haven, CT: Yale University Press, 1930), 107.

17 درس نقيب جزائري من عائلة مرموقة، خالد الهاشمي، في الأكاديمية العسكرية الفرنسية النخبوية سان سير، ويبدو أنه يمثل استثناء نادراً لهذه القاعدة. انظر:

Gilbert Meynier, *L'Algérie révélée: La guerre de 1914-1918 et le premier quart du XXe siècle* (Geneva: Droz, 1981), 85-87.

18 اسمه الكامل: مصطفى ولد قدور تابتي. انظر:

Mohammed Soualah, "Nos troupes d'Afrique et l'Allemagne," *Revue africaine* 60 (1919): 495-496.

19 Meynier, *L'Algérie révélée*, 98-103.

20 انظر:

Jean Mélia, *L'Algérie et la guerre (1914-1918)* (Paris: Plon, 1918), 28-32.

الأغنية بالفرنسية هي:

"la République nous appelle, Sachons vaincre ou sachons périr, Un Français doit vivre pour elle, Pour elle un Français doit mourir."

يتذكر مصالي الحاج أن البيت الأخير أصبح:

"Pour elle un Arabe doit mourir". Messali Hadj, *Les mémoires de Messali Hadj, 1898-1938* (Paris: J. C. lattès, 1982), 76.

21 انظر:

Hadj, *Mémoires*, 70.

أعيد إنتاج قصيدة تابتي في خمسة وستين مقطعاً بالعربية مع ترجمة فرنسية في:

Soualah, "nos troupes d'Afrique et l'Allemagne," 494-520.

22 انظر:

Meynier, *L'Algérie révélée*, 271-274.

23 انظر:

Meynier, *L'Algérie révélée*, 280-282; Mélia, *L'Algérie et la guerre*, 257-260, 270-276; Augustin Bernard, *L'Afrique du nord pendant la guerre* (Paris: Les presses universitaires de France, 1926), 94, table II.

24 Peter Dennis et al., eds., *The Oxford Companion to Australian Military History* (Melbourne: Oxford University Press, 1995), 104-109; Cedric Mentiplay, *A Fighting Quality: New Zealanders at War* (Wellington: A. H. & A. W. Reed, 1979), 13.

25 انظر:

James McMillan, "40,000 Horsemen: A Memoir," Archives new Zealand, Alexander Turnbull library, MS X-5251; Terry Kinloch, *Devils on Horses: In the Words of the Anzacs in the Middle East, 1916-19* (Auckland: Exisle Publishing, 2007), 32-34; Roland Perry, *The Australian Light Horse* (Sydney: Hachette Australia, 2009), 38-43.

26 تطرق إلى دوافع التجنيد اثنا عشر من قدامى المحاربين في قوة الحملة النيوزيلندية ضمن مقابلة أجراها معهم موريس شادبولت. انظر:

Voices of Gallipoli (Auckland: Hodder and Stoughton, 1988). Trevor Holmden's papers are held in the Alexander Turnbull library, Wellington, New Zealand, MS-Papers 2223.

27 انظر:

Jeffrey Grey, *A Military History of Australia*, 3rd ed. (Cambridge: Cambridge University Press, 2008), 88; Christopher Pugsley, *The ANZAC Experience: New Zealand, Australia and Empire in the First World War* (Auckland: Reed, 2004), 52-55, 63; Fred Waite, *The New Zealanders at Gallipoli* (Auckland: Whitcombe and Tombs, 1919), 10-19.

28 فيما يتعلق بالمواقف الهندية تجاه البريطانيين والعثمانيين، انظر:

Algernon Rumbold, *Watershed in India, 1914-1922* (London: Athlone Press, 1979), 9-10.

29 P. G. Elgood, *Egypt and the Army* (Oxford: Oxford University Press, 1924), 1, 42-43.

30 ورد في:

Robin Kilson, "Calling Up the Empire: The British Military Use of Nonwhite Labor in France, 1916-1920" (PhD diss., Harvard University, 1990), 262-263.

31 أحمد شفيق، حوليات مصر السياسية (القاهرة: مطبعة شفيق باشا، 1926)، 1: 47-48.

32 انظر:

Peter Hopkirk, *On Secret Service East of Constantinople: The Plot to Bring Down the British Empire* (London: John Murray, 2006), 66-84; Sean McMeekin, *The Berlin-Baghdad Express: The Ottoman Empire and Germany's Bid for World Power, 1898-1918* (London: Allen Lane, 2010), 90-92.

33 ورد في:

Budheswar Pati, *India and the First World War* (New Delhi: Atlantic Publishers, 1996), 12.

34 Pati, *India and the First World War*, 15-16.

35 Pati, *India and the First World War*, 18-21.

36 انظر:

Judith Brown, *Modern India: The Origins of an Asian Democracy*, 2nd ed. (Oxford: Oxford University Press, 1994), 195; Robert Holland, "The British Empire and the Great War, 1914-1918," in *The Oxford History of the British Empire*, vol. 4: *The Twentieth Century*, ed. Judith Brown and William Roger louis (Oxford: Oxford University Press, 1999), 117; Pati, *India and the First World War*, 32-38.

37 نشرت عشرات من الأدلة والبراهين، إضافة إلى تلك التي أصدرها المفتيان، في:

Revue du monde musulman 29 (December 1914).

وكرست طبعة خاصة للمسلمين الفرنسيين والحرب، عرضت بيانات ولاء من شخصيات دينية في شمال إفريقيا بالعربية مع ترجمة فرنسية.

38 انظر:

James McDougall, *History and the Culture of Nationalism in Algeria* (Cambridge: Cambridge University Press, 2006), 36-43; Peter Heine, "Salih Ash-Sharif at-Tunisi, a north African nationalist in Berlin during the First World War," *Revue de l'Occident musulman et de la Mediterranée* 33 (1982): 89-95.

39 Tilman Ludke, *Jihad Made in Germany: Ottoman and German Propaganda and Intelligence Operations in the First World War* (Münster: Lit Verlag, 2005), 117-125; Heine, "Salih Ash-Sharif at-Tunisi," 90.

40 من استجوابات مدونة أجرتها السلطات العثمانية وحفظت في الأرشيفات العسكرية التركية في أنقرة، أعاد نشرها:

Ahmet Tetik, Y. Serdar Demirtaş, and Sema Demirtaş, eds., *Çanakkale Muharebeleri'nin Esirleri—Ifadeler ve Mektuplar*[أسرى حملة غاليبولي: شهادات ورسائل] (Ankara: Genelkurmay Basımevi, 2009), 1:93-94.

41 من الشخصيات المعروفة التي زارت المعسكر الجزائري المنفي والمحارب القديم في ليبيا عام 1911 الأمير علي باشا، ابن زعيم المقاومة الجزائرية الشهير الأمير عبد القادر. انظر:

Mélia, *L'Algérie et la guerre*, 230-237; Heine, "Salih Ash-Sharif at-Tunisi," 91.

42 يزعم بيتر هاين في مقالته عن صالح الشريف أن الوثائق الألمانية لا تقدم دليلاً يثبت إجبار أسرى الحرب، مع أنه وجد "تقارير عن أولئك الراغبين في القتال إلى جانب الترك" تشير إلى أنهم عبروا عن غضبهم على "تأخير مغادرتهم إلى تركيا".

Heine, "Salih Ash-Sharif at-Tunisi," 94n12.

الفصل الرابع

C. F. Aspinall-Oglander, *Military Operations: Gallipoli* (London: William Heinemann, 1929), 1:34-35.

2 انظر:

W. E. d. Allen and Paul Muratoff, *Caucasian Battlefields: A History of the Wars on the Turco-Caucasian Border, 1828-1921* (Cambridge: Cambridge University Press, 1953), 245-247.

3 Ali Rıza Eti, *Bir onbaşının doğu cephesi günlüğü* , 1914-1915 [يوميات عريف على الجبهة الشرقية، 1914-1915] (Istanbul: Türkiye Iş Bankası Kültür Yayınları, 2009);

للاطلاع على روايته عن معركة كوبروكوي، انظر الصفحات 37-42.

4 مصدر أرقام الخسائر العثمانية:

Edward J. Erickson, *Ordered to Die: A History of the Ottoman Army in the First World War* (Westport, CT: Greenwood Press, 2001), 72n4.

مصدر أرقام الخسائر الروسية:

M. larcher, *La guerre turque dans la guerre mondiale* [الحرب التركية في الحرب العالمية] (Paris: Etienne Chiron et Berger-levrault, 1926), 381. Enver quoted by Otto Liman von Sanders, *Five Years in Turkey* (Annapolis: US naval Institute, 1927), 37.

5 انظر:

Philip Graves, *The Life of Sir Percy Cox* (London: Hutchinson, 1941), 120-126; Daniel Yergin, *The Prize* (New York: Free Press, 1992), 134-149.

6 أعيد نشر أوامر ديلامين في كتاب:

E. G. Keogh, *The River in the Desert* (Melbourne: Wilke & Co., 1955), 39-40.

7 ورد تقييم بولارد في كتاب:

Arnold T. Wilson, *Loyalties Mesopotamia, 1914-1917* (London: Oxford University Press, 1930), 1:4.

8 فيما يتعلق بالجمعية الإصلاحية في البصرة وسيد طالب النقيب، انظر:

Eliezer Tauber, *The Emergence of the Arab Movements* (London: Frank Cass, 1993). For a contemporary English profile of Sayyid Talib, see Wilson, *Loyalties Mesopotamia*, 1:18.

9 باسل سليمان فيضي (إعداد)، **مذكرات سليمان فيضي** (لندن: دار الساقي، 1998)، 194-196.

10 أعيد نشر إعلان كوكس (31 أكتوبر 1914) في:

Wilson, *Loyalties Mesopotamia*, 1:309; "The United Kingdom's Recognition of Kuwayt as an Independent State Under British Protection, 3 November 1914," reproduced in Hurewitz, *Middle East and North Africa in World Politics*, 2:6-7.

11 أعيد نشر إعلان كوكس (5 نوفمبر) في:

Wilson, *Loyalties Mesopotamia*, 1:310-311.

12 فيضي، **مذكرات**، ص199.

13 فيضي، مذكرات، 203.

14 انظر:

F. J. Moberly, *The Campaign in Mesopotamia, 1914-1918* (London: HMSO, 1923), 1:106-153; Charles Townshend, *When God Made Hell: The British Invasion of Mesopotamia and the Creation of Iraq, 1914-1921* (London: Faber and Faber, 2010), 3-10.

15 انظر:

Edmund Candler, *The Long Road to Baghdad* (London: Cassell and Co., 1919), 1:111.

16 انظر:

Moberly, *The Campaign in Mesopotamia*, 117-27; Ron Wilcox, *Battles on the Tigris: The Mesopotamian Campaign of the First World War* (Barnsley, UK: Pen & Sword Books, 2006), 2-26; Townshend, *When God Made Hell*, 30-40.

17 NARA, Basra box 005, letter from John Van Ess dated Busrah, 21 November 1914.

18 أعيد نشر إعلان السير بيرسي كوكس في 22 نوفمبر 1914 إلى سكان البصرة في كتاب:

Wilson, *Loyalties Mesopotamia*, 1:311.

19 انظر:

Moberly, *The Campaign in Mesopotamia*, 1:151-152.

20 مصدر أرقام الخسائر كتاب:

Moberly, *The Campaign in Mesopotamia*, 1:106-153.

21 انظر:

IWM Documents 828, diary of Private W. R. Bird, entry of 14 January 1915.

22 انظر:

Townshend, *When God Made Hell*, 66.

23 انظر:

IWM, P 158, Documents 10048, private papers of Lieutenant Colonel H. V. Gell, diary entry of 10-11 November 1914.

24 انظر:

G. Wyman Bury, *Arabia Infelix, or the Turks in Yamen* (London: Macmillan, 1915), 16-19.

25 انظر:

Harold F. Jacob, *Kings of Arabia: The Rise and Set of the Turkish Sovranty in the Arabian Peninsula* (London: Mills & Boon, 1923), 158-161.

26 انظر:

W. T. Massey, *The Desert Campaigns* (London: Constable, 1918), 1-3.

27 Letter dated Zeitoun Camp, 4 January 1915, in Glyn Harper, ed., *Letters from Gallipoli: New Zealand Soldiers Write Home* (Auckland: Auckland University Press, 2011), 47-48. See also the memoirs of Trevor Holmden, chap. 3, Alexander Turnbull library, Wellington, New Zealand, MS-Papers 2223.

28 انظر:

Ian Jones, *The Australian Light Horse* (Sydney: Time-life Books [Australia], 1987), 25; Fred Waite, *The New Zealanders at Gallipoli* (Auckland: Whitcombe and Tombs, 1919), 38.

29 وصف سي. إي. بين، المؤرخ الرسمي للقوة الامبراطورية الأسترالية، منطقة الحي الأحمر واضطرابات 2 أبريل 1915 في يومياته الشخصية عن شهري مارس وأبريل 1915، 22-31. يمكن قراءة اليوميات، المحفوظة في المتحف الحربي الأسترالي، على الشبكة الإلكترونية على العنوان الآتي:

www.awm.gov.au/collection/records/awm38

30 للاطلاع على الروايتين الأسترالية والنيوزيلندية عن أحداث الشغب وأسبابها، انظر:

Harper, *Letters from Gallipoli*, 50 51; C. E. W. Bean diary, March-April 1915, 30; Trevor Holmden memoirs, chap. 3, 3-5.

31 ورد في:

C. E. W. Bean diary, March-April 1915, 25-28.

32 أحمد شفيق، **حوليات مصر السياسية**، ج1 (القاهرة: مطبعة شفيق باشا، 1926)، 128-129. انظر أيضاً: لطيفة محمد سالم، **مصر في الحرب العالمية الأولى** (القاهرة: دار الشروق، 2009)، 239-243.

33 انظر:

Larches, *La guerre turque*, 172.

34 NARA, Istanbul vol. 282, Alfred Grech report from Dardanelles, 31 August 1914; C. F. Aspinall-Oglander, *Military Operations: Gallipoli* (London: William Heinemann, 1929), 1:32-36; Mustafa Aksakal, *The Ottoman Road to War in 1914: The Ottoman Empire and the First World War* (Cambridge: Cambridge University Press, 2008), 136-137.

35 انظر:

Liman von Sanders, *Five Years in Turkey*, 47-48; Erickson, *Ordered to Die*, 75-82.

36 NARA, Istanbul vol. 292, report of US vice consul, Trebizond, 31 March 1915.

37 NARA, Istanbul vol. 281, report of US consul, Mersin, 2 November 1914; vol. 282, report of US consul, Mersin, 30 November 1914; vol. 293, report of US consul, Mersin, 5 March 1915.

38 NARA, Istanbul vol. 293 contains a number of reports, telegrams, and documents relating to the Alexandretta Incident, including reports from US Consul Jackson in Aleppo of 21 December 1914 and 8 January 1915, and from US Consular Agent H. E. Bishop in Alexandretta of 24 December 1914, 26 December 1914, and 12 January 1915.

39 NARA, Istanbul vol. 281, eyewitness report by C. Van H. Engert on the sinking of the *Messoudieh* in the Dardanelles, 14 December 1914.

40 استشهد سي. فان إنغرت بنائب الأدميرال ميرتن في تقريره بتاريخ 14 ديسمبر 1914. للاطلاع على وجهة نظر القيادة العامة العثمانية حول إغراق "المسعودية" وخطط الحلفاء للدردنيل، انظر مذكرات:

General Ali Ihsan Sâbis, *Birinci Dünya Harbi* [الحرب العالمية الأولى] (Istanbul: Nehir Yayinlari, 1992), 2:261-262.

الفصل الخامس

1 انظر:

Hew Strachan, *The First World War*, vol. 1: *To Arms* (Oxford: Oxford University Press, 2003), 335-357.

2 انظر:

Ulrich Trumpener, *Germany and the Ottoman Empire, 1914-1918* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1968), 36-37; Mustafa Aksakal, *The Ottoman Road to War in 1914: The Ottoman Empire and the First World War* (Cambridge: Cambridge University Press, 2008), 136-137, 145-155.

3 فيما يتعلق باستعادة الولايات الثلاث التي خسرها العثمانيون عام 1878، انظر:

Michael A. Reynolds, *Shattering Empires: The Clash and Collapse of the Ottoman and Russian Empires, 1908-1918* (Cambridge: Cambridge University Press, 2011), 171; M. Larcher, *La guerre turque dans la guerre mondiale* [الحرب التركية في الحرب العالمية] (Paris: Etienne Chiron et Berger-Levrault, 1926), 383; Edward J. Erickson, *Ordered to Die: A History of the Ottoman Army in the First World War* (Westport, CT: Greenwood Press, 2001), 53.

4 انظر:

Djemal Pasha, *Memories of a Turkish Statesman, 1913-1919* (London: Hutchinson, n.d.), 137-138.

5 انظر:

Henry Morgenthau, *Ambassador Morgenthau's Story* (1918; rpt. Reading, UK: Taderon Press, 2000), 114.

6 انظر:

Otto Liman von Sanders, *Five Years in Turkey* (Annapolis: US Naval Institute, 1927), 37-39.

7 انظر:

Strachan, *The First World War*, 1:323-331; Sean McMeekin, *The Russian Origins of the First World War* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2011), 85-86.

8 انظر على سبيل المثال علي إحسان سابيس، الذي خدم آنذاك في القيادة العامة في إسطنبول، وعبر عن مخاوفه واعتقاده بأن أنور محظوظ:

Ali Ihsan Sâbis, *Harp Hatıralarım: Birinci Cihan Harbi* [ذكرياتي الحربية: الحرب العالمية الأولى] (Istanbul: Nehir Yayınları, 1992), 2:247.

9 انظر:

Larcher, *La guerre turque*, 378-379; Erickson, *Ordered to Die*, 57.

10 انظر:

Sâbis, *Harp Hatıralarım*, 2:238.

11 انظر:

Reynolds, *Shattering Empires*, 115-117; McMeekin, *Russian Origins*, 154-156.

12 McMeekin, *Russian Origins*, 154.

13 انظر:

M. Philips Price, *War and Revolution in Asiatic Russia* (London: George Allen & Unwin ltd., 1918), 55 and chap. 8;

أورد رينولدز تقرير أنور باشا نقلاً عن وثائق في المحفوظات العسكرية التركية في:

Shattering Empires, 116.

14 انظر:

Ali Rıza Eti, *Bir onbaşının doğu cephesi günlüğü , 1914-1915*، [يوميات عريف على الجبهة الشرقية 1915-1914] (Istanbul: Türkiye Iş Bankası Kültür Yayınları, 2009), 60; Erickson, *Ordered to Die*, 46, 54.

انظر أيضاً:

Köprülü Şerif Ilden, *Sarıkamış* (Istanbul: Türkiye Iş Bankası Kültür Yayınları, 1999), 124.

زعم شريف الدين أن ثلاثين أرمنياً هربوا من وان وعبروا الحدود ليلة 16-17 نوفمبر وزودوا الروس بتفاصيل عن النقاط الضعيفة على الجبهة العثمانية على طول نهر أراس.

15 انظر:

Eti, *Bir onbaşının . . . günlüğü*, 51, 60-66.

16 Eti, *Bir onbaşının . . . günlüğü*, 60.

17 Ilden, *Sarıkamış*, 146-147.

18 تفاوتت تقديرات أعداد الجنود تفاوتاً واسعاً من مصدر إلى آخر. الأرقام الواردة في النص منقولة عن:

W. E. d. Allen and Paul Muratoff, *Caucasian Battlefields: A History of the Wars on the Turco-Caucasian Border, 1828-1921* (Cambridge: Cambridge University Press, 1953), 252.

يقدم لارتشر مدى من الأرقام للجيشين العثماني والروسي في القوقاز، زاعماً أن الجيش العثماني الثالث بلغ حجمه الإجمالي 150.000 جندي، من هؤلاء 90.000 مسلحون ومدربون على القتال، كما أعطى رقماً إجمالياً للقوات الروسية هو 60.000.

Larcher, *La guerre turque*, 283.

19 انظر:

Allen and Muratoff, *Caucasian Battlefields*, 253.

20 وردت أوامر أنور باشا في:

Ilden, *Sarıkamış*, 151-152, and Larcher, *La guerre turque*, 383-384.

21 انظر:

Eti, *Bir onbaşının . . . günlüğü*, 102-103.

22 Eti, *Bir onbaşının . . . günlüğü*, 104.

23 Eti, *Bir onbaşının . . . günlüğü*, 104.

24 شن الهجوم على أولتو في 23 ديسمبر. للاطلاع على روايات عن القتال بين الفرقتين العثمانيتين الواحدة والثلاثين والثانية والثلاثين انظر:

Fevzi Çakmak, *Büyük Harp'te Şark Cephesi Harekâtı* [العمليات على الجبهة الشرقية في الحرب العظمى] (Istanbul: Türkiye Iş Bankası Kültür Yayınları, 2010), 76.

للاطلاع على مزاعم تشير إلى مقتل 2000 عثماني بنيران صديقة، انظر:

Ilden, *Sarıkamiş*, 167-168.

انظر أيضاً:

Allen and Muratoff, *Caucasian Battlefields*, 257; Larcher, *La guerre turque*, 386.

25 Allen and Muratoff, *Caucasian Battlefields*, 258; Çakmak, *Büyük Harp*, 77.

26 Allen and Muratoff, *Caucasian Battlefields*, 260-268; see also Larcher, *La guerre turque*, 387-388.

27 Ilden, *Sarıkamış*, 212-213.

28 Ilden, *Sarıkamış*, 177-179.

29 للاطلاع على رواية تفصيلية مباشرة عن القتال في 26 ديسمبر، انظر:

Ilden, *Sarıkamış*, 191-201.

30 Ilden, *Sarıkamış*, 231; Allen and Muratoff, *Caucasian Battlefields*, 278.

31 انظر:

Eti, *Bir onbaşının . . . günlüğü*, 121-122.

من بين الخسائر العثمانية التي قدرت بنحو 77.000 في ساريكاميش، مات قرابة 60.000 وأخذ الباقون أسرى.

Çakmak ,*Büyük Harp*, 113-114; Allen and Muratoff, *Caucasian Battlefields*, 283-284.

32 للاطلاع على انتقادات قوية لمسلك أنور وحقي حافظ في الحملة، انظر على وجه الخصوص مذكرات رئيس أركان الفيلق التاسع شريف الدين:

Ilden, *Sarıkamış*, 149, 158-159, 174-175, 208, 216-218, 232; Sâbis, *Harp Hatıralarım*, 302-317; Liman von Sanders, *Five Years in Turkey*, 40.

33 Allen and Muratoff, *Caucasian Battlefields*, 286-287.

34 انظر:

Georges Douin, *L'attaque du canal de Suez (3 Février 1915)* (Paris: Librairie Delagrave, 1922), 45-46.

35 Djemal Pasha, *Memories*, 154.

36 انظر:

Douin, *L'attaque*, 60.

37 سجلت رواية أرسلان عن مشاركته في الحملة في كتابه: سيرة ذاتية (بيروت: دار الطليعة، 1969)، 141-147.

38 انظر:

Djemal Pasha, *Memories*, 152.

39 من المؤكد تقريباً أن الكاهن هو الأب الدومنيكاني أنطونين جوسن، الذي خدم ضابطاً في المخابرات الفرنسية في بورسعيد طوال أمد الحرب. نقب جوسن عن الآثار في الحجاز وكتب دراسة إثنوغرافية عن بدو جنوب الأردن. انظر:

Douin, *L'attaque*, 77-79.

فيما يتعلق بجوسن انظر:

Henry Laurens, "Jaussen et les services de renseignement français (1915-1919)," in *Antonin Jaussen: Sciences sociales occidentales et patrimoine arabe*, ed. Géraldine Chatelard and Mohammed Tarawneh (Amman: CERMOC, 1999), 23-35.

40 انظر:

Douin, *L'attaque*, 79-80; George McMunn and Cyril Falls, *Military Operations: Egypt and Palestine from the Outbreak of War with Germany to June 1917* (London: HMSO: 1928), 29.

41 انظر:

McMunn and Falls, *Military Operations*, 25.

42 IWM, P. 158, private papers of lieutenant Colonel H. V. Gell, documents 10048, diary entries of 24 to 28 January 1915.

43 انظر:

NARA, Istanbul vol. 293, "The Egyptian Campaign of the Turkish Army," report by US Vice Consul S. Edelman, Jerusalem, 20 March 1915.

44 انظر:

IWM, Rn, P 389, papers of Commander H. V. Coates, documents 10871, translations of Ottoman army orders for the attack on the Suez Canal, 1 February 1915.

45 Douin, *L'attaque*, 92.

46 روى فهمي الترجمان تجاربه في الحرب إلى ابنته سهام، أوردتها (باللهجة الدمشقية المحكية) في كتابها **يا مال الشام**، ص: 232-233. ورأينا إضافة ترجمة بالفصحى للنص الإنكليزي الذي نقله المؤلف عن ترجمة للكتاب بعنوان:

Daughter of Damascus (Austin: Center for Middle Eastern Studies, 1994).

47 انظر:

Douin, *L'attaque*, 96, and McMunn and Falls, *Military Operations*, 39.

روى المؤلفان كلاهما كيف حطم "المجاهدون المتطوعون" جدار الصمت وجعلوا الكلاب تنبح: أشارت النسخة المترجمة من الأوامر العثمانية إلى أبطال الإسلام (المجاهدين) من طرابلس الليبية، الذين نشروا في موقع بالقرب من سرابيوم، حيث جرى العبور.

IWM, Rn P 389, papers of Commander H. V. Coates.

48 ترجمان، **يا مال الشام**، ص233.

49 أحمد شفيق، **حوليات مصر السياسية** (القاهرة: مطبعة شفيق باشا، 1926)، 1: 81.

50 انظر:

Douin, *L'attaque*, 100-102; McMunn and Falls, *Military Operations*, 43-45.

51 انظر:

Ali Ihsan Sâbis, *Birinci Dünya Harbi*, 346-347; Djemal Pasha, *Memories*, 157.

52 انظر:

McMunn and Falls, *Military Operations*, 50; Djemal Pasha, *Memories*, 159.

53 فيما يتعلق بسليمان عسكري، انظر:

Philip H. Stoddard, "The Ottoman Government and the Arabs, 1911 to 1918: A Preliminary Study of the Teşkilât-i Mahsusa" (PhD diss., Princeton University, 1963), 119-130, and the summary translation of the Turkish army pamphlet by Muhammad Amin, "The Turco-British Campaign in Mesopotamia and Our Mistakes," in *The Campaign in Mesopotamia, 1914-1918*, comp. F. J. Moberly (London: HMSO, 1923),

1:352-355.

54 تؤكد الروايات عن مشاركة العرب في معركة الشعيبة الروح المعنوية المتدنية ومعدلات الفرار المرتفعة: انظر:

جميل أبو طبيخ، **مذكرات السيد محسن أبو طبيخ 1910-1960** (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2001)، 40-45.

55 انظر:

Arnold T. Wilson, *Loyalties Mesopotamia, 1914-1917* (London: Oxford University Press, 1930), 34; Charles Townshend, *When God Made Hell: The British Invasion of Mesopotamia and the Creation of Iraq, 1914-1921* (London: Faber and Faber, 2010), 88.

56 يستشهد إدوارد إركسون بالأرقام الرسمية العثمانية في كتاب:

Ordered to Die, 110-111.

بينما زعم موبرلي في التاريخ الرسمي البريطاني أن البريطانيين خسروا 161 قتيلاً و 901 من الجرحى، وبلغت خسائر العثمانيين 6000 قتيل وجريح، منهم 2000 من المقاتلين العرب غير النظاميين -ما يشير إلى أن العرب أدوا دوراً أكثر فاعلية ونشاطاً في القتال مقارنة بما ذكره البريطانيون أو الترك. انظر:

F. J. Moberly, comp., *The Campaign in Mesopotamia, 1914-1918*, (London: HMSO, 1923), 1:217.

وحدد ولسون عدد الخسائر البريطانية بـ 1257، والخسائر العثمانية "بنحو ضعف هذا الرقم".

Wilson, in *Loyalties Mesopotamia*, 34.

الشاهد من يوميات و. سي. سباكمان، ورد في:

Townshend, *When God Made Hell*, 89.

57 السير جورج مكمون، ورد في:

When God Made Hell, 80.

أعلن ولسون أن الشعيبة "أول المعارك وأشدها حسماً على هذه الجبهة".

Wilson, in *Loyalties Mesopotamia*, 34

الفصل السادس

1 انظر:

Sean McMeekin, *The Russian Origins of the First World War* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2011), 129-130.

2 انظر:

C. F. Aspinall-Oglander, *Military Operations: Gallipoli* (London: William Heinemann, 1929), 1:51-53.

3 انظر:

Aspinall-Oglander, *Military Operations: Gallipoli*, 1:57.

4 Henry W. Nevinson, *The Dardanelles Campaign* (London: Nesbit & Co., 1918), 33; Aspinall-Oglander, *Military Operations: Gallipoli*, 1:59.

5 كانت لليونان، مثل روسيا، مطالب تاريخية ودينية في القسطنطينية. وعرضت إرسال قوة مشاة كبيرة لمساعدة حملة الحلفاء في المضائق، لكن بريطانيا رفضت العرض احتراماً للحساسيات الروسية. انظر:

McMeekin, *Russian Origins*; Aspinall-Oglander, *Military Operations: Gallipoli*, vol. 1.

6 انظر:

"The Constantinople Agreement," in *The Middle East and North Africa in World Politics*, vol. 2: *1914-1945*, ed. J. C. Hurewitz (new Haven, CT: Yale University Press, 1979), 16-21.

7 انظر:

Henry Morgenthau, *Ambassador Morgenthau's Story* (1918; rpt. Reading, UK: Taderon Press, 2000), 123-134.

8 بقيت آثار الأضرار واضحة على المدمرة *(Agamemnon)* في 15 أبريل، حين لاحظ جندي نيوزيلندي أن "أحد صواريها قد دمر وسحقت إحدى المداخن".

Glyn Harper, ed., *Letters from Gallipoli: New Zealand Soldiers Write Home* (Auckland: Auckland University Press, 2011), 59.

9 وجد السفير الأميركي مورغنثو، الذي زار المضائق مع المسؤولين العثمانيين في منتصف مارس، أن قصف الحلفاء المكثف لم يحدث ضرراً يذكر بالبطاريات التركية.

Morgenthau, *Ambassador Morgenthau's Story*, 135-149.

10 انظر:

Capitaine de Corvette X and Claude Farrère, "Journal de bord de l'expédition des Dardanelles (1915)," *Les oeuvres libres* 17 (1922): 218-229.

11 انظر:

Capitaine de Corvette X and Claude Farrère, "Journal de bord," 214-215.

يبدو أن المؤلف الأول المجهول قد خدم على المدمرة الفرنسية *(Suffren)*؛ بينما نجا الكابتن كلود من غرق السفينة *(Bouvet)* في 18 مارس 1915.

12 انظر:

Nevinson, *The Dardanelles Campaign*, 57-58.

13 انظر:

Hans Kannengiesser, *The Campaign in Gallipoli* (London: Hutchinson & Co., n.d.), 76.

وصف مراسل وكالة أسوشيتد برس تأثير قصف الحلفاء، ورد في:

Tim Travers, *Gallipoli 1915* (Stroud, UK: Tempus, 2004), 33.

14 أنقذ 62 رجلاً فقط من أصل 724 كانوا على متن السفينة الغارقة *(Bouvet)*، كما زعم كلود الذي نجا من الغرق. انظر:

Capitaine de Corvette X and Claude Farrère, "Journal de bord," 235-238.

15 ورد في:

The editor's introduction to Mehmed Fasih, *Gallipoli 1915: Bloody Ridge (Lone Pine) Diary of Lt. Mehmed Fasih* (Istanbul: denizler Kitabevi, 2001), 6.

16 انظر:

I. Hakkı Sunata, *Gelibolu'dan kafkaslara: Birinci Dünya Savaşı anılarım* [From Gallipoli to the Caucasus: My First World War Memoirs] (من غاليبولي إلى القوقاز: مذكراتي عن الحرب العالمية الأولى) (Istanbul: Türkiye Iş Bankası Kültür Yayınları, 2003), 84-85.

للاطلاع على نماذج للتقارير الحكومية التي نقلتها الصحف، انظر المقالات التي نشرت في صحيفة إقدام اليومية شبه الرسمية في إسطنبول، كما وردت في:

Murat Çulcu, *Ikdâm Gazetesi'nde Çanakkale Cephesi* [The Dardanelles Front in the *Ikdâm* Newspaper] (Istanbul: Denizler Kitabevi, 2004), 1:160-165.

17 Kannengiesser, *The Campaign in Gallipoli*, 77-78.

18 Aspinall-Oglander, *Military Operations: Gallipoli*, 1:98-99.

19 Aspinall-Oglander, *Military Operations: Gallipoli*, 1:124-125.

20 بعض الجنود الذين وقعوا في أسر الترك واعتقد أنهم من السنغال كانوا في الحقيقة من السودان. أبلغ محمد كامارا المحققين الأتراك: "أنا سوداني. لكن الفرنسيين يعتبرون هذه الأيام جميع السود سنغاليين.. هنالك كثير من السودانيين [في الجيش الفرنسي]". انظر:

Ahmet Tetik, Y. Serdar Demirtaş, and Sema Demirtaş, eds., *Çanakkale Muharebeleri'nin Esirleri—Ifadeler ve Mektuplar* [Prisoners of the Gallipoli Campaign: Testimonies and letters] (أسرى حملة غاليبولي: شهادات ورسائل) (Ankara: Genelkurmay Basımevi, 2009), 1:22.

21 أتى قرار أنور باشا بعد ضغوط كبيرة من حلفاء تركيا الألمان، وفقاً لأوتو فون ساندرز.

Otto Liman von Sanders, *Five Years in Turkey* (Annapolis: US naval Institute, 1927), 54-58.

22 Harper, *Letters from Gallipoli*, 58-64.

23 IWM, "Ataturk's Memoirs of the Anafartalar Battles" (K 03/1686).

24 انظر:

IWM, private papers of lieutenant G. l. Drewry, documents 10946, letter of 12 May 1915.

25 Mahmut Sabri Bey, "Seddülbahir Muharebesi Hatıraları" [Memoirs of the Seddülbahir Battle] (مذكرات عن معركة سد البحر) in *Çanakkale Hatıraları* (Istanbul: Arma Yayınları, 2003), 3:67-68.

26 Aspinall-Oglander, *Military Operations: Gallipoli*, 1:132. See also IWM, private papers of Captain E. Unwin, documents 13473.

27 Aspinall-Oglander, *Military Operations: Gallipoli*, 1:232.

28 Sabri, "Seddülbahir Muharebesi," 68-69.

29 وصل د. موريارتي ضابط الصف في كتيبة المشاة الإيرلنديين إلى الشط حياً، لكن حاصرته نيران العدو من السابعة صباحاً إلى الخامسة مساء. وزعم أن سبعة عشر جندياً من كتيبته قتلوا وجرح نحو مئتين في عملية الإنزال.

IWM, private papers of D. Moriarty, documents 11752, diary entry of 25-26 April. See also IWM, private papers of lieutenant G. l. Drewry, documents 10946, letter of 12 May 1915.

منح الكابتن دروري وعدد من أفراد طاقم ناقلة الفحم صليب فكتوريا تقديراً لبطولاتهم في أثناء عملية الإنزال.

30 Aspinall-Oglander, *Military Operations: Gallipoli*, 1:227.

31 IWM, private papers of Major R. Haworth, documents 16475, letter of 3 May 1915.

32 من وثيقة تركية استولى عليها الجنود البريطانيون في حصن سد البحر، وردت في:

Aspinall-Oglander, *Military Operations: Gallipoli*, 1:254.

33 اعتمد هذا الوصف حول "تشتيت الانتباه" في كوم كالي على:

X. Torau-Bayle, *La campagne des Dardanelles* (Paris: E. Chiron, 1920), 61-64; François Charles-Roux, *L'expédition des Dardanelles au jour le jour* (Paris: Armand Colin, 1920); Association nationale pour le souvenir des Dardanelles et fronts d'orient, *Dardanelles Orient Levant, 1915-1921* (Paris: l'Harmattan, 2005); Aspinall-Oglander, *Military Operations: Gallipoli*, 1:257-264.

34 انظر:

Travers, *Gallipoli 1915*, 76-77.

35 قتل من العثمانيين في كوم كالي، وفقاً للمصادر التركية، سبعة عشر ضابطاً وخمسة وأربعون جندياً، وجرح اثنان وعشرون ضابطاً ونحو 740 جندياً، بينما وقع في الأسر أو فقد خمسة ضباط و500 جندي. وقدر الفرنسيون خسائرهم من القتلى والجرحى والأسرى والمفقودين بـ786 : 20 ضابطاً و766 جندياً. انظر:

Edward J. Erickson, *Gallipoli: The Ottoman Campaign* (Barnsley, UK: Pen & Sword Military, 2010), 85.

36 حولت اليوميات الحربية التي كتبها سي. إي. بين بخط اليد إلى بيانات رقمية يمكن الوصول إليها عن طريق موقع (AWM) على الويب:

(http://www.awm.gov.au/collection/records/awm38/3drl606); C. E. W. Bean diary, AWM item 3dRl606/5/1, April-May 1915, 18-19. letter written by an anonymous Australian soldier, "Malcolm", to his cousin from the Government Hospital in Alexandria, 2 May 1915. IWM, two letters from Alexandria (Australian soldier), documents 10360.

37 IWM, letter from Australian soldier "Malcolm" of 2 May 1915, documents 10360.

38 اقتبست هذه وجميع تعليقات مصطفى كمال اللاحقة عن:

IWM, "Ataturk's Memoirs of the Anafartalar Battles" (K 03/1686).

39 IWM, letter from Australian soldier "Malcolm" of 2 May 1915, documents 10360.

40 Mostyn Pryce Jones, letter to his mother, n.d., in Harper, *Letters from Gallipoli*, 89-90.

لم تكن تجاربه فريدة، حيث وصفت رسائل نيوزيلنديين آخرين "من غاليبولي" التجارب بأنها "مروعة" و"تشبه الإقامة في أعماق جهنم".

41 أجرى سي. إي. بين استقصاء للقصة واستشهد على نطاق واسع بتقرير قدمه الكولونيل بوب.

C. E. W. Bean diary, AWM item 3dRl606/5/1, April-May 1915, 30-31, 39.

42 Aspinall-Oglander, *Military Operations: Gallipoli*, 1:196-198.

سمع سي. إي. بين مصادفة نقاشاً جرى بين القادة الأستراليين حول هذه النقاط.

C. E. W. Bean diary, AWM item 3dRl606/5/1, April-May 1915, 40.

43 Aspinall-Oglander, *Military Operations: Gallipoli*, 1:269-270.

الفصل السابع

1 انظر:

NARA, Istanbul vol. 294, "Consul Heizer Report on Typhus Fever, Trebizond [Trabzon]," 22 May 1915.

2 Hikmet Özdemir, *The Ottoman Army, 1914-1918: Disease and Death on the Battlefield* (Salt Lake City: University of Utah Press, 2008), 51.

3 NARA, Istanbul vol. 294, "Consul Heizer Report on Typhus Fever, Trebizond [Trabzon]," 22 May 1915.

4NARA, Istanbul vol. 294, report by Dr Edward P. Case, medical missionary at Erzurum, Turkey, 16 May 1915.

5 على وجه الدقة، هدد رضا بإجبار ضحاياه على شرب كلوريد الزئبق، وهو مركب شديد السمية استخدم سابقاً لمعالجة السفلس. انظر:

Ali Rıza Eti, *Bir onbaşının doğu cephesi günlüğü, 1914-1915*،[يوميات عريف على الجبهة الشرقية 1914-1915] (Istanbul: Türkiye Iş Bankası Kültür Yayınları, 2009), 135.

6 Eti, *Bir onbaşının . . . günlüğü*, 140, diary entry of 31 January 1915.

7 Taner Akçam, *The Young Turks' Crime Against Humanity: The Armenian Genocide and Ethnic Cleansing in the Ottoman Empire* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2012), 63-96.

ثمة استقصاء لعمليات الترحيل والتبادل السكاني على طول السواحل الجنوبية من بحر مرمرة في كتاب:

Ryan Gingeras, *Sorrowful Shores: Violence, Ethnicity, and the End of the Ottoman Empire* (Oxford: Oxford University Press, 2009), 12-54.

8 ناقش الفصل الثاني خلفية اتفاقية الإصلاح الأرمنية (فبراير 1914) وشروطها.

9 انظر:

Akçam, *Young Turks' Crime Against Humanity*, 175, 183-184.

انظر أيضاً مذكرات الكاهن الأرمني غريغوريس بالاكيان:

Armenian Golgotha: A Memoir of the Armenian Genocide, 1915-1918 (New York: Vintage, 2010), 46.

10 Balakian, *Armenian Golgotha*, 22-23.

11 Balakian, *Armenian Golgotha*, 28, 32-34.

12 تناول الفصل الرابع حادثة الاسكندرونة (ديسمبر 1914).

Aram Arkun, "Zeytun and the Commencement of the Armenian Genocide," in *A Question of Genocide: Armenians and Turks at the End of the Ottoman Empire*, ed. Ronald Grigor Suny, Fatma Muge Gocek, and Morman M. Naimark (Oxford: Oxford University Press, 2011), 223.

13 انظر:

Donald Bloxham, *The Great Game of Genocide: Imperialism, Nationalism, and the Destruction of the Ottoman Armenians* (Oxford: Oxford University Press, 2005), 78-83.

14 Sean McMeekin, *The Russian Origins of the First World War* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2011), 165-166.

15 انظر:

Akçam, in *Young Turks' Crime Against Humanity*, 56-57.

يزعم الكاتب أن إعادة توطين المهجرين المسلمين في زيتون بدأت في 20 أبريل، بعد 12 يوماً فقط على بدء ترحيل الأرمن.

Arkun, "Zeytun," 229-237.

كتب السفير الأميركي عن "5000 أرمني من زيتون وسلطانية تركوا دون أي طعام" في يوليو 1915.

Ambassador Morgenthau's Story (1918; rpt. Reading, UK: Taderon Press, 2000), 230.

16 انظر:

Balakian, *Armenian Golgotha*, 45, 56-57.

17 تواصل الحكومة التركية والمؤسسة التاريخية الرسمية ممثلة بالجمعية التاريخية التركية، رفض استخدام تعبير "إبادة" لوصف مذابح الأرمن عامي 1915 و 1916. لكن عدداً متنامياً من الباحثين والمثقفين الأتراك كافحوا لفتح النقاش حول هذا الموضوع الذي كان محرماً ذات مرة، ومنهم الفائز بجائزة نوبل أورهان باموق وعدد من المؤرخين والصحفيين الذين استرشدت بأعمالهم عند كتابة هذا المؤلف (Taner Akçam, Fatma Müge Göçek, Baskın Oran, Uğur Ümit Üngör). ودعماً لجهدهم الشجاع لإجراء جردة حساب نزيهة لماضي تركيا، إضافة إلى القناعة الذاتية، أصف هنا

مجازر الأرمن زمن الحرب بأنها "إبادة جماعية". وفي توافق مع معاهدة الأمم المتحدة لعام 1948 المعنية بالإبادة الجماعية، أعتقد أن الأدلة المتوافرة تؤيد تماماً الزعم بأن الحكومة العثمانية مسؤولة عن "أعمال ارتكبت بقصد تدمير الطائفة الأرمنية في الأناضول، كلياً أو جزئياً، باعتبارها مجموعة قومية ودينية متميزة".

18 الأرقام السكانية من:

Justin McCarthy et al., *The Armenian Rebellion at Van* (Salt lake City: University of Utah Press, 2006), 3-7.

أعلن مكارثي، وهو باحث سكاني، أن أرقام فيتال كوينيت لتسعينيات القرن التاسع عشر "تقديرات منخفضة". واستشهد بأرقام عثمانية لمنطقة وان، التي ضمت البلدة والقرى المجاورة، تشير إلى نحو 45.000 مسلم، و 34.000 أرمني، و1000 غيرهم عام 1912، وزعم أنها تقلل من أعداد النساء والأطفال والجنود والإداريين وسواهم. ولد جورجن مهري في وان عام 1903. نزحت عائلته إلى روسيا بعد انتفاضة وان، وأمضى بقية سنوات حياته في الاتحاد السوفييتي، حيث نشر روايته التي أثارت جدلاً آنذاك **الجنائن المحترقة** عام 1966. نشرت الترجمة الإنكليزية بواسطة بلاك أبولو برس (دون ذكر مكان النشر) عام 2007؛ الشاهد من ص 49.

19 انظر:

Michael A. Reynolds, *Shattering Empires: The Clash and Collapse of the Ottoman and Russian Empires, 1908-1918* (Cambridge: Cambridge University Press, 2011), 145-147. Anahide Ter Minassian, "Van 1915," in *Armenian Van/Vaspurakan*, ed. Richard G. Hovannisian (Costa Mesa, CA: Mazda, 2000), 217-218; McCarthy et al., *The Armenian Rebellion*, 200.

20 Rafael de Nogales, *Four Years Beneath the Crescent* (New York: Charles Scribner's Sons, 1926), 58.

للاطلاع على دراسة نقدية لدي نوغاليس وكتاباته، انظر:

Kim McQuaid, *The Real and Assumed Personalities of Famous Men: Rafael de Nogales, T. E. Lawrence, and the Birth of the Modern Era, 1914-1937* (London: Gomidas Institute, 2010).

21 De Nogales, *Four Years*, 60-61.

22 Reynolds, *Shattering Empires*, 145-146; McCarthy et al., *The Armenian Rebellion*, 221.

23 Ter Minassian, "Van 1915," 242.

24 Djemal Pasha, *Memories of a Turkish Statesman, 1913-1919* (London: Hutchinson & Co., n.d.), 299; Bloxham, *Great Game of Genocide*, 84-90.

25 Taner Akçam, *A Shameful Act: The Armenian Genocide and the Question of Turkish Responsibility* (London: Constable, 2007), 168-169.

26 Akçam, *Young Turks' Crime Against Humanity*, 193-196.

ذكر بالاكيان أسماء عدة مسؤولين عثمانيين استقالوا أو طردوا بسبب عدم رغبتهم في ذبح الأرمن، منهم ولاة أنقرة وحلب وقسطموني.

Balakian, *Armenian Golgotha*, 82-83, 104, 106-107.

27 Akçam, *Young Turks' Crime Against Humanity*, 410-413.

روى بالاكيان عدة أحاديث دارت مع الترك الذين اعتبروا دورهم في مذبحة الأرمن جهاداً يدخلهم الجنة. برر النقيب في حديثه مع الكاهن دوره في القتل الجماعي للأرمن بذريعة أداء واجبه الديني (144، 146)

Balakian, in *Armenian Golgotha*, 95, 100.

28Taner Akçam, in *Young Turks' Crime Against Humanity*, 193-202.

وثق تانر بإسهاب هذه "المقاربة ثنائية المسار" من المصادر الأرشيفية العثمانية والروايات الألمانية معاً. الفقرة المقتبسة من شهادة رشيد عاكف باشا أمام مجلس النواب العثماني (21 نوفمبر 1918). انظر:

Akçam, *A Shameful Act*, 175.

انظر أيضاً الترجمة المختلفة قليلاً في كتاب:

Young Turks' Crime Against Humanity, 193-194.

29 فيما يتعلق بـ"مبدأ العشرة في المئة"، انظر:

Fuat Dündar, "Pouring a People into the Desert: The 'Definitive Solution' of the Unionists to the Armenian Question," in Suny, Göçek, and naimark, eds., *Question of Genocide*, 282. Akçam, *Young Turks' Crime Against Humanity*, 242-263.

يعرض المؤلف أشمل تحليل لما أسماه "نظام الخمسة إلى عشرة في المئة".

30 NARA, Istanbul vol. 309, report by Leslie Davis, US consul in Harput, 11 July 1915.

31 Balakian, *Armenian Golgotha*, 109.

32 Balakian, *Armenian Golgotha*, 139-140.

33 Balakian, *Armenian Golgotha*, 167.

34 Baskın Oran, *MK: Récit d'un déporté arménien 1915* [م. ك.: سردية لمبعد أرمني، 1915] (Paris: Turquoise, 2008), 37-51.

35 Balakian, *Armenian Golgotha*, 247-249.

36 Oran, *MK*, 59.

سميت قرية آزاك منذ ذلك الحين إديل.

37 Bloxham, *Great Game of Genocide*, 97-98.

يؤكد بول غونت أن رقم 250.000 ربما يكون منخفضاً، ويشير إلى هلاك نحو 300.000 آشوري.

Paul Gaunt, "The Ottoman Treatment of the Assyrians," in Suny, Göçek, and Naimark, *Question of Genocide*, 244-259.

ينكر بعض الباحثين الأتراك المعاصرين المزاعم الآشورية عن الإبادة الجماعية. انظر:

Bülent Özdemir, *Assyrian Identity and the Great War: Nestorian, Chaldean and Syrian Christians in the 20th Century* (Dunbeath, UK: Whittles Publishing, 2012).

38 Fethiye Çetin, *My Grandmother: A Memoir* (London: Verso, 2008), 8-9, letter to her father.

تغير اسم هاباب، الواقعة بين هاربوت وبالو شرق تركيا، إلى إيكينوزو.

39 سافر والد هيرانوش من الولايات المتحدة إلى سوريا للم شمل عائلته المشتتة. وجد زوجته بين لاجئين أرمن في حلب عام 1920. ثم استأجر مهربين لتمشيط المسار الذي سلكه المبعدون من هاباب، فوجدوا ابنه هورين عام 1928. زار هورين بعد ذلك شقيقته وزوجها لحثهما على السفر إلى حلب معه لجمع العائلة معاً. في نهاية المطاف، منع الزوج سحر/هيرانوش من الذهاب، ولم تر عائلتها مرة أخرى. أما هورين، الذي انضم إلى والديه، فقد هاجر إلى الولايات المتحدة، حيث حاول الناجون من أسرة غاداريان عبثاً الاتصال بابنتهم الضائعة. في منتصف سبعينيات القرن، أسرت سحر بقصتها إلى حفيدتها المذهولة فتحية تشيتين، التي لم يكن لديها أي فكرة عن أصول جدتها الأرمنية. أخيراً، نجحت فتحية، المحامية الشابة في أنقرة، بالاتصال بآل غاداريان الأميركيين، لكن بعد أن أصبح من الصعب على الجدة العجوز القيام بالرحلة لرؤية شقيقها مرة أخرى. وعبر نقاشات فتحية مع جدتها ولقاءاتها اللاحقة مع أفراد عائلة غاداريان الأميركيين، تمكنت من إعادة بناء قصة

سحر/هيرانوش المثيرة، بكل فصولها المأساوية ثم نجاتها. نشر كتابها أول مرة في تركيا عام 2004 فحاز استحسان النقاد، وبحلول الوقت الذي صدرت فيه الترجمة الإنكليزية بعد أربع سنوات، أعيد طبع النسخة التركية الأصلية عدة مرات.

40 Çetin ,*My Grandmother*, 102.

41 Balakian, *Armenian Golgotha*, 250.

42 يزعم الباحث السكاني جستن مكارثي، الذي يؤكد أن المذابح زمن الحرب لا تشكل إبادة جماعية، أن 600.000 إلى 850.000 أرمني هلكوا في مجرى الحرب، وفقاً للأرقام الإحصائية العثمانية: قارن:

Justin McCarthy, *Muslims and Minorities: The Population of Ottoman Anatolia and the End of the Empire* (New York: New York University Press, 1983), 121-130; Justin McCarthy, "The Population of Ottoman Armenians," in *The Armenians in the Late Ottoman Period*, ed. Türkkaya Ataöv (Ankara: Turkish Historical Society, 2001), 76-82.

ويؤكد مؤرخو الإبادة الجماعية الأرمنية، مثل ريتشارد هوفانيسيان وفاهكان دادريان، أن أكثر من مليون أرمني قضوا نتيجة الإبادة المتعمدة. انظر مقالتي الباحثين في:

Richard Hovannisian, ed., *The Armenian Genocide: History, Politics, Ethics* (Houndmills, UK: Macmillan Palgrave, 1992); Donald Bolxham, *The Great Game of Genocide: Imperialism, Nationalism, and the Destruction of the Ottoman Armenians* (Oxford: Oxford University Press, 2005).

الفصل الثامن

1 أخذت أرقام الضحايا من:

C. F. Aspinall-Oglander, *Military Operations: Gallipoli* (London: Heinemann, 1929), 1:294, 347; ibid. (London: Heinemann, 1932), 2:53.

2 انظر:

Edward J. Erickson, *Gallipoli: The Ottoman Campaign* (Barnsley, UK: Pen & Sword Military, 2010), 92-114.

3 فيما يتعلق بحرب الغواصات، انظر:

Henry W. nevinson, *The Dardanelles Campaign* (London: Nesbet & Co., 1918), 145-146, 163-166; P. E. Guépratte, *L'expédition des Dardanelles, 1914-1915* (Paris: 1935), 116-125.

في وقت لاحق من الحملة، خسر الحلفاء مزيداً من الغواصات. علقت (Mariotte) في شبكة مضادة للغواصات (يوليو 1915)، ووقع اثنان وثلاثون فرداً من الطاقم أسرى؛ انظر:

Ahmet Tetik, Y. Serdar Demirtaş, and Sema Demirtaş, eds., *Çanakkale Muharebeleri'nin Esirleri* [Prisoners of War at the Çanakkale Battles](أسرى حرب معارك شناق قلعة)(Ankara: Genelkurmay Basımevi, 2009), 1:198-216.

4 في يونيو 1915، أغرقت الغواصة (U-21) سفينة نقل فرنسية، وفي 13 أغسطس، أغرقت غواصة ألمانية سفينة النقل البريطانية (*Royal Edward*): لم ينقذ من الغرق سوى ثلث الرجال على متنها (1400 رجل). وبحلول خريف عام 1915، لم يكن عدد الغواصات الألمانية (*U-boats*) في شرق البحر المتوسط يقل عن أربع عشرة.

Aspinall-Oglander, *Military Operations: Gallipoli*, 2:37-39.

5 Aspinall-Oglander, *Military Operations: Gallipoli*, 1:364.

6 يعرض نيفنسون خريطة مفصلة للخنادق بدءاً من يوليو 1915 ضمن مجموعة من الخرائط الملحقة بكتابه:

The Dardanelles Campaign.

7 Jean Leymonnerie, *Journal d'un poilu sur le front d'orient* (Paris: Pygmalion, 2003), 109.

صدرت رواية هيربرت المثيرة المعركة السرية عن دار ميثوين في لندن (1919) وحازت استحسان النقاد (كتب ونستون تشرشل مقدمة الطبعات اللاحقة من الكتاب). اعتمد هيربرت اعتماداً كبيراً على تجاربه الشخصية مع الفرقة البحرية الملكية في غاليبولي وفرنسا عند تأليف الرواية، التي استكملها عام 1917 وهو يتعافى من جراحه؛ الشواهد من طبعة عام 1919، ص48.

8 Mehmet Sinan Ozgen, *Bolvadınlı Mehmet Sinan Bey'in harp hatiraları* [Bolvadinli Mehmet Sinan Bey's War Memoirs] (Istanbul: Türkiye Iş Bankası Kültür Yayınları, 2011), 26-27.

9 Herbert, *The Secret Battle*, 49-51;

وقع الشاعر الحربي الإنكليزي جون ستل أسيراً فيما بعد وكتب هذه الأشعار في معسكر لأسرى الحرب عام 1916.

Jill Hamilton, *From Gallipoli to Gaza: The Desert Poets of World War One* (Sydney: Simon & Schuster Australia, 2003), 107.

10 Kevin Clunie and Ron Austin, eds., *From Gallipoli to Palestine: The War Writings of Sergeant GT Clunie of the Wellington Mounted Rifles, 1914-1919* (McCrae, Australia: Slouch Hat Publications, 2009), 29-30, diary entry of 16 May 1915. Ibrahim Arıkan, *Harp Hatıralarım* [My War Memoirs] (مذكراتي الحربية) (Istanbul: Timaş Yayınları, 2007), 53.

11 IWM, private papers of H. Corbridge, Documents 16453, description of snipers in Helles in diary entry of 27 April 1915.

وردت الإشارة إلى المرأة القناصة الجريحة في أحداث 14 مايو 1915 من يومياته.

Private Reginald Stevens's letter of 30 June 1915, is reproduced in Glyn Harper, ed., *Letters from Gallipoli: New Zealand Soldiers Write Home* (Auckland: Auckland University Press, 2011), 149.

فيما يتعلق بالإشارات الأخرى إلى القناصة من النساء، انظر:

Trooper Alfred Burton Mossman's letter to his parents of 20 May 1915 (136) and Private John Thomas Atkins's letter home of 11 June 1915 (148). Private Gray's account was published in The Register, *Adelaide* on 24 May 1916, consulted on the national library of Australia's Trove digitised newspapers website(http://trove.nla.gof.au/newspaper).

في 16 يوليو 1915، نشرت التايمز اللندنية تقريراً عن امرأة قناصة أسرها الحلفاء بالقرب من شاطئ (W) في الرابع من الشهر.

12 Leymonnerie, *Journal d'un poilu*, 110-111.

13 انظر:

Mehmed Fasih, *Gallipoli 1915: Bloody Ridge (Lone Pine) Diary of Lt. Mehmed Fasih* (Istanbul: Denizler Kitabevi, 2001), 86-87.

14 Letter of 20 June 1915, in Leymonnerie, *Journal d'un poilu*, 107.

15 IWM, private papers of D. Moriarty, Documents 11752, diary entries of 1 and 2 May 1915. The last entry in the diary was 13 July 1915.

16 Harley Matthews, "Two Brothers," reproduced in Hamilton, *From Gallipoli to Gaza*, 120-121.

17 Leymonnerie, *Journal d'un poilu*, 105.

18 IWM, private papers of R. Eardley, Documents 20218, typescript memoir, 25-26.

19 IWM, private papers of B. Bradshaw, Documents 14940. Bradshaw's letter was written in the form of a diary. This entry was written between 6 and 9 June.

قتل برادشو في المعركة يوم 10 يونيو 1915.

20 A. P. Herbert, reprinted in Hamilton, *From Gallipoli to Gaza*, 79.

21 diary of Raymond Weil, reproduced in Association nationale pour le souvenir des Dardanelles et fronts d'orient, *Dardanelles Orient Levant, 1915-1921* (Paris: l'Harmattan, 2005), 42. See also the diary of Ernest-Albert Stocanne in ibid., 56, 60. Tim Travers, *Gallipoli 1915* (Stroud, UK: Tempus, 2004), 269.

22 Leymonnerie, *Journal d'un poilu*, 122; Fasih, *Gallipoli 1915*, 66.

23 IWM, private papers of H. Corbridge, Documents 16453, diary entries of 14 June, 28 June, 12 July, and 7 August.

سجل في 14 أغسطس "17 جريحاً، و85 حالة نفسية/عقلية اليوم". للاطلاع على رواية لرجل نقل بسبب صدمة القصف، انظر:

IWM, private papers of M. O. F. England, Documents 13759.

24 Arıkan, *Harp Hatıralarım*, 54-55.

25 Emin Çöl, *Çanakkale Sina Savaşları: bir erin anıları* [The Dardanelles and Sinai Campaigns: One Man's Memoirs] (الحملتان على الدردنيل وسيناء: مذكرات رجل)(Istanbul: nöbetçi Yayınevi, 2009), 53.

26 IWM, private papers of H. Corbridge, Documents 16453, diary entry of 7 August 1915.

27 IWM, private papers of R. Eardley, documents 20218, memoir, 29-33.

ثمة سجل موجز لاستجواب إردلي من قبل السلطات العثمانية في الأرشيف العسكري التركي في أنقرة: يلاحظ فيه "هزيمة السرية الأولى والسرية الثانية من كتيبتنا أثناء الهجوم على الجي تيبي في 8 أغسطس". وأنه أسر "خلال الهجوم المعاكس الذي شنته القوات التركية". ظهرت الوثيقة الأصلية والترجمة والسجل المدون في كتاب:

Tetik, Demirtaş, and Demirtaş, *Çanakkale Muharebeleri'nin Esirleri*, 2:735-736.

مع أن الاسم كتب بوضوح بالإنكليزية والتركية العثمانية في الوثيقة الأصلية، فقد ذكر الكاتبان خطأ أنه "ساردلي" بدلاً من إردلي.

28 Fred Waite, *The New Zealanders at Gallipoli* (Auckland: Whitcombe and Tombs, 1919), 219. Oliver Hogue, "love letter XXXI," 7 August 1915, reproduced in Jim Haynes, ed., *Cobbers: Stories of Gallipoli 1915* (Sydney: ABC Books, 2005), 256.

29 Erickson, *Gallipoli: The Ottoman Campaign*, 140-144; Aspinall-Oglander, *Military Operations: Gallipoli*, 2:168-177.

30 Erickson, *Gallipoli: The Ottoman Campaign*, 147-148. William Baylebridge, "Lone Pine," reproduced in Haynes, *Cobbers*, 249-252.

31 Waite, *The New Zealanders at Gallipoli*, 200-201.

روى فيلم بيتر وير "غاليبولي" (1981) قصة مأساوية للجنود الأستراليين في "نيك". ومع أن بعض الضباط قدموا الحجة ضد الاتهامات، فإن رؤساءهم دحضوها.

32 Otto Liman von Sanders, *Five Years in Turkey* (Annapolis: US naval Institute, 1927), 88-89.

33 Aspinall-Oglander, *Military Operations: Gallipoli*, 2:282.

34 أدت الحادثة إلى ظهور أسطورة تشير إلى اختفاء سرية ساندرينغهام في سحابة. شكلت القصة موضوع فيلم خلافي أنتج عام 1999 بعنوان "رجال الملك كلهم". كما برزت في رواية تركية رائجة كتبها بوكيت أوزونر، وصدرت بالإنكليزية بعنوان **السحابة البيضاء الطويلة.**

Buket Uzuner, *Uzun Beyaz Bulut—Gelibolu*, published in English as *The Long White Cloud—Gallipoli* (Istanbul: Everest, 2002).

35 Ian Hamilton, *Gallipoli Diary* (New York: George H. Doran, 1920), 2:132-136.

36 Hamilton, *Gallipoli Diary*, 2:249-253.

37 Aspinall-Oglander, *Military Operations: Gallipoli*, 2:402.

38 Nevinson, *The Dardanelles Campaign*, 379-380; Aspinall-Oglander, *Military Operations: Gallipoli*, 2:417.

39 Fasih, *Gallipoli 1915*, 104, 130.

40 أشار البريطانيون إلى غرق أو تجمد مئتي رجل في العاصفة، إضافة إلى أكثر من 5000 أصيبوا بعضة الصقيع في أعقاب العاصفة الجليدية (من 26 إلى 28 نوفمبر).

Aspinall-Oglander, *Military Operations: Gallipoli*, 2:434. I. Hakkı Sunata, in *Gelibolu'dan kafkaslara: Birinci Dünya Savaşı anılarım* [From Gallipoli to the Caucasus: My First World War Memoirs](من غاليبولي إلى القوقاز: مذكراتي عن الحرب العالمية الأولى)(Istanbul: Türkiye Iş Bankası Kültür Yayınları, 2003), 184.

لاحظ الكاتب أن عدداً من الجنود العثمانيين غرقوا في الخنادق.

Fasih, *Gallipoli 1915*, entries of 9 November (p. 74), 14 November (p. 87), 19 November (p. 102), 24 November (p. 122), and 2 December (pp. 157-158).

41 Fasih, *Gallipoli 1915*, 199, diary entry of 15 December.

42 Fasih, *Gallipoli 1915*, 121, 124, 126, 148.

لاحظ حقي في مذكراته أن ضباطه توقعوا، وهم يشاهدون حشد السفن قبالة خليج سوفلا، هجوماً جديداً يشنه الحلفاء. "قبل خمس ساعات كنا نتوقع إنزالاً من الأعداء. الآن، ها هم يهربون فجأة".

Sunata, *Gelibolu'dan kafkaslara*, 198.

43 Letter from Douglas Rawei Mclean, NZ Machine Gun Corps, to his father, 4 January 1916, reproduced in Harper, *Letters from Gallipoli*, 290; Arıkan, *Harp Hatıralarım*, 61.

44 Arıkan, *Harp Hatıralarım*, 64; Sunata, *Gelibolu'dan kafkaslara*, 200.

45 Çöl ,*Çanakkale*, 62-63.

46 الأرقام البريطانية الرسمية مأخوذة من:

Aspinall-Oglander, *Military Operations: Gallipoli*, 2:484.

والأرقام التركية من:

Edward J. Erickson, *Ordered to Die: A History of the Ottoman Army in the First World War* (Westport, CT: Greenwood Press, 2001), 94-95.

47 كتب القصيدة شاعر مجهول، ونشرت في كتاب:

Haynes, *Cobbers*, 314-315.

الفصل التاسع

1 انظر:

Edward J. Erickson, *Ordered to Die: A History of the Ottoman Army in the First World War* (Westport, CT: Greenwood Press, 2001), 123.

2 تناول الفصل الخامس معركة الشعيبة (أبريل 1915).

3 للاطلاع على الثورات في الفرات الأوسط، انظر: علي الوردي، **لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث** (بغداد: المكتبة الوطنية، 1974)، 4: 187-219؛ انظر أيضاً:

Ghassan R. Atiyyah, *Iraq, 1908-1921: A Political Study* (Beirut: Arab Institute for Research and Publishing, 1973), 80-81.

4 الوردي، **لمحات**، 4: 193.

5 نشرت أوامر نيكسون التي أصدرها بتاريخ 24 مارس 1915، و30 مارس 1915، و31 مارس 1915، في كتاب:

F. J. Moberly, *The Campaign in Mesopotamia, 1914-1918* (London: HMSO, 1923), 1:194-195.

6 كانت خسائر البريطانيين طفيفة جداً في حملة العمارة 4- قتلى و 21 جريحاً- بينما فقد العثمانيون 120 قتيلاً وجريحاً ونحو 1.800 أسير.

Moberly, *The Campaign in Mesopotamia*, 1:260-262, 265.

7 علي جودت: **ذكرياتي، 1900-1958** (بيروت: الوفاء، 1968)، 31-36.

8 ذكر موبرلي أن خسائر البريطانيين بلغت 533 إصابة.

Moberly, *The Campaign in Mesopotamia*, 1:297.

أما الكابتن ليكي، الضابط في الجيش الهندي، فزعم أن الخسائر البريطانية بلغت 1.200 بين قتيل وجريح.

IWM, Captain R. l. Lecky, documents 21099, diary entry for 24 July 1915.

9 ورد الشاهد في:

Moberly, *The Campaign in Mesopotamia*, 1:303-304.

10 انظر:

Moberly, *The Campaign in Mesopotamia*, 1:303-304.

11 ثمة سرد للهجوم على الشيخ سعيد في الفصل الرابع.

12 للاطلاع على الأعمال العدائية بين البريطانيين والعثمانيين في اليمن الجنوبي، انظر:

Robin Bidwell, "The Turkish Attack on Aden 1915-1918," *Arabian Studies* 6 (1982): 171-194; Harold F. Jacob, *Kings of Arabia* (London: Mills and Boon, 1923), 168-172; G. Wyman Bury, *Pan-Islam* (London: Macmillan, 1919), 40-50; George Younghusband, *Forty Years a Soldier* (London: Herbert Jenkins, 1923), 274-277.

13 Younghusband, *Forty Years a Soldier*, 274.

14 Bidwell, "Turkish Attack on Aden 1915-1918," 180.

15 Jacob, *Kings of Arabia*, 180.

16 وردت شواهد تاونزند وداف في كتاب:

Charles Townshend, *When God Made Hell: The British Invasion of Mesopotamia and the Creation of Iraq, 1914-1921* (London: Faber and Faber, 2010), 120.

من الجدير بالذكر أن المؤرخ المعاصر تشارلز تاونزند، مؤلف الكتاب، زعم عدم وجود علاقة قرابة مع الجنرال تشارلز تاونزند، قائد الفرقة السادسة في الرافدين.

17 Edward J. Erickson, *Gallipoli and the Middle East, 1914-1918: From the Dardanelles to Mesopotamia* (London: Amber Books, 2008), 133.

18 الطيار هو اللفتنانت (الملازم) هارولد تربلور والراصد الكابتن أتكينز، وفقاً لتعريف الرقيب الطيار جيه. سلوس، من فيلق الطيران الأسترالي، الذي زعم أن الطائرة أصيبت بعطل في المحرك، مع أن مصادر أخرى أكدت أنها أسقطت.

IWM, private papers of J. McK. Sloss, MSM Australian Flying Corps, documents 13102.

19 الكابتن رينولدز إل. ليكي، ضابط احتياط في الجيش الهندي، ضم إلى كتيبة المشاة 120 (راجبوتانا) في أثناء الحملة على بلاد النهرين.

20 مع أن أقل من 100 جندي بريطاني قتلوا، وجرح 1.100 (جراح كثير منهم خطرة)، فقد بلغت خسائر العثمانيين 2.800 قتيل وجريح، ونحو 1.150 أسيراً. انظر:

Moberly, *The Campaign in Mesopotamia*, 1:337.

21 ورد شاهد كتشنر في:

Townshend, *When God Made Hell*, 140-141; F. J. Moberly, *The Campaign in Mesopotamia, 1914-1918* (London: HMSO, 1924), 2:15.

22 Moberly, *The Campaign in Mesopotamia*, 2:28.

23 الوردي، **لمحات**، 4: 224.

24 الوردي، **لمحات**، 4: 224.

25 IWM, Lecky diary, entry of 29 October 1915.

26 Erickson, *Ordered to Die*, 112-113; Moberly, *The Campaign in Mesopotamia*, 2:49-58.

27 من مقال كتبه عضو هيئة الأركان الرائد محمد أمين، ورد في:

Moberly, *The Campaign in Mesopotamia*, 2:59.

28 IWM, Lecky diary, entry of 22 November 1915.

في اليوم الأول من القتال وحده (22 نوفمبر) خسر البريطانيون 240 ضابطاً و 4.200 جندي بين قتيل وجريح؛ بينما خسر العثمانيون 4.500 قتيل و 4.500 جريح، و1.200 أسير.

Erickson, *Ordered to Die*, 113.

29 الوردي، **لمحات**، 4: 233.

30 وردت رواية **العلم الحيدري الشريف** في:

الوردي، **لمحات**، 4: 233-242. ارتبط اسم حيدر بالخليفة علي.

31 فيما يتعلق بالمسعى العثماني لتشجيع الجهاد في ليبيا، انظر:

Sean McMeekin, *The Berlin-Baghdad Express: The Ottoman Empire and Germany's Bid for World Power, 1898-1918* (London: Allen lane, 2010), 259-274; P. G. Elgood, *Egypt and the Army* (Oxford: Oxford University Press, 1924), 270-274;

لطيفة محمد سالم، **مصر في الحرب العالمية الأولى** (القاهرة: دار الشروق، 2009)، 290-296.

32 للاطلاع على رواية جعفر العسكري عن حملة ليبيا عام 1915، انظر مذكراته:

A Soldier's Story: From Ottoman Rule to Independent Iraq (London: Arabian Publishing, 2003), 54-85.

33 George McMunn and Cyril Falls, *Military Operations: Egypt and Palestine from the Outbreak of War with Germany to June 1917* (London: HMSO: 1928), 106.

34 للاطلاع على تقييم إيجابي لتفوق جعفر العسكري في التدريب، انظر:

McMunn and Falls, *Military Operations*, 112.

زعم التاريخ الرسمي البريطاني أن خسائر البريطانيين بلغت 33 قتيلاً و 47 جريحاً في القتال يومي 13 و 14 ديسمبر، بينما قدرت خسائر السنوسيين بنحو 250 إصابة، مع أن جعفر العسكري ذكر أن المحاربين العرب لم يخسروا سوى 14 قتيلاً و30 جريحاً فقط. ضابط الاستخبارات البريطاني الذي قتل في المعركة هو الكولونيل سي. سنو من حرس السواحل المصري.

الفصل العاشر

1 فيما يتعلق بالمسعى الألماني لترويج الجهاد، انظر:

Peter Hopkirk, *On Secret Service East of Constantinople: The Plot to Bring Down the British Empire* (London: John Murray, 1994); Sean McMeekin, *The Berlin-Baghdad Express: The Ottoman Empire and Germany's Bid for World Power, 1898-1918* (London: Allen lane, 2010).

2 IWM, private papers of Major G. l. Heawood, documents 7666. Heawood's account was drafted in 1917.

3 علي الوردي، **لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث** (بغداد: المكتبة الوطنية، 1974)، 4: 231. وفقاً للوردي، انبثق التوتر بين الضابطين من حقيقة أن نور الدين عارض تعيين غير مسلم قائداً للجيش السادس.

4 F. J. Moberly, *The Campaign in Mesopotamia, 1914-1918* (London: HMSO, 1924), 2:194.

5 George Younghusband, *Forty Years a Soldier* (London: Herbert Jenkins, 1923), 284-285.

6 IWM, private papers of the Reverend H. Spooner, documents 7308, entry for 9 January 1916.

7 وقع الهجوم الأول على أم الحنة بتاريخ 20-21 يناير 1916. بلغت خسائر البريطانيين 2.741 إصابة، وقدرت خسائر العثمانيين بنحو 2.000.

Moberly, *The Campaign in Mesopotamia*, 2:275-276; Younghusband, *Forty Years a Soldier*, 290-291.

8 جرت عمليات تفتيش بيوت أهالي الكوت يوم 24 يناير.

Charles Townshend, *When God Made Hell: The British Invasion of Mesopotamia and the Creation of Iraq, 1914- 1921* (London: Faber and Faber, 2010), 215.

9Moberly, *The Campaign in Mesopotamia*, 2:200.

لاحظ القس سبونر بتاريخ 30 مارس 1916 أن سرية البنجابيين الرابعة والعشرين "نزع سلاحها بسبب عدم الولاء" وأن "كثيراً من المسلمين انشقوا وهربوا إلى خطوط العدو".

IWM, papers of W. d. lee of the Royal Garrison Artillery, documents 1297.

10 للاطلاع على رواية جعفر عن الحملة السنوسية، انظر:

Jafar al-Askari, *A Soldier's Story: From Ottoman Rule to Independent Iraq* (London: Arabian Publishing, 2003), 85-93.

11 خسر البريطانيون 312 قتيلًا وجريحاً، بينما قدرت خسائر العرب بنحو 200 قتيل و500 جريح في بير تونس يوم 23 يناير؛ ويشير مكمون وسيريل إلى الاشتباك باعتباره "حادثة حالازين" في كتابهما:

Military Operations: Egypt and Palestine from the Outbreak of War with Germany to June 1917 (London: HMSO, 1928), 122.

12 McMunn and Falls, *Military Operations*, 134.

13 سجل القس سبونر قصة مباراة كرة القدم بتاريخ 26 يناير، وقصة الضمادة الطريفة بتاريخ 1 فبراير 1916.

14 انظر:

IWM, private papers of Major Alex Anderson, documents 9724, 57-59;

لاحظ أندرسون في معرض وصفه لأول قصف جوي، أن الطيار معروف بأنه من "الفريتز" (الألمان)؛ وفيما يتعلق بوصفه لقصف المستشفى، انظر ص 74-75؛ انظر أيضاً يوميات القس سبونر تاريخ 18 مارس، حيث اكتفى بعد الإشارة إلى الخسائر بكتابة:"مشاهد فظيعة".

15 فيما يتعلق باستيلاء الروس على أرضروم، انظر:

W. E. d. Allen and Paul Muratoff, *Caucasian Battlefields: A History of the Wars on the Turco-Caucasian Border, 1828-1921* (Cambridge: Cambridge University Press, 1953), 320-372; Michael Reynolds, *Shattering Empires: The Clash and Collapse of the Ottoman and Russian Empires, 1908-1918* (Cambridge: Cambridge University Press, 2011), 134-139; Sean McMeekin, *The Russian Origins of the First World War* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2011), 191-193; Edward J. Erickson, *Ordered to Die: A History of the Ottoman Army in the First World War* (Westport, CT: Greenwood Press, 2001), 120-137.

16 زعم ألين ومراتوف في كتابهما أن خسائر العثمانيين في كوبروكوي بلغت "قرابة 15.000" من القتلى والجرحى وأولئك الذين تجمدوا من البرد، إضافة إلى 5.000 أسير، و"عدد مماثل تقريباً من الهاربين"، أو نحو 25.000 إجمالاً. كانت خسائر الروس فادحة أيضاً: 10.000 قتيل وجريح، إضافة إلى 2000 أدخلوا المستشفى لمعالجتهم من عضة الصقيع.

Caucasian Battlefields, 342.

17 Younghusband, *Forty Years a Soldier*, 297.

18 سيطلق علي إحسان بك فيما بعد الاسم التركي على الدجيلة، تل سابيس، كاسمه العائلي.

Ali Ihsan Sâbis, *Birinci Dünya Harbi* [الحرب العالمية الأولى] (Istanbul: Nehir Yayınları, 2002), 3:121-127.

19 Abidin Ege, *Harp Günlükleri* [مذكرات حربية] (Istanbul: Türkiye Iş Bankası Kültür Yayınları, 2011), 275-278.

20 بلغت خسائر البريطانيين 3.474 مقابل 1,285 إصابة في صفوف العثمانيين.

Moberly, *The Campaign in Mesopotamia*, 2:525.

21 Russell Braddon, *The Siege* (New York: Viking, 1969), 207-208.

22 فيما يتعلق بمهمة لورنس في الرافدين، انظر:

Jeremy Wilson, *Lawrence of Arabia: The Authorized Biography of T. E. Lawrence* (London: Heinemann, 1989), 253-278; Townshend, *When God Made Hell*, 250-253.

23 تناول الفصل الرابع بالتفصيل مساعي سليمان فيضي وسيد النقيب في فترة ما قبل الحرب.

24 قدم سليمان فيضي رواية مفصلة للقائه مع لورنس، على شكل حوار بين رجلين، في مذكراته. انظر النص الأصلي في:

مذكرات سليمان فيضي (لندن: دار الساقي، 1998)، 221-242. (النص هنا مترجم عن الإنكليزية).

25 انظر:

Wilson, *Lawrence of Arabia*, 268.

26 Ege, *Harp Günlükleri*, 294.

27 انظر:

Townshend, *When God Made Hell*, 250-253.

28 Scott Anderson, *Lawrence in Arabia* (London: Atlantic Books, 2014), 176-178.

رواية هيربرت عن التفاوض مع خليل بك مأخوذة من كتاب:

Aubrey Herbert, *Mons, Anzac and Kut* (London: Hutchinson, n.d. [1930]), 248-256.

29 انظر:

Ege, *Harp Günlükleri*, 307; Moberly, *The Campaign in Mesopotamia*, 2:459.

قبل سقوط الكوت، كان استسلام الجنرال كورنواليس مع أكثر من 7.500 جندي في يوركتاون (1781) هو الأضخم في التاريخ البريطاني. أما هزيمة تاونزند في الكوت فقد تراجعت في المرتبة لاحقاً أمام استسلام سنغافورة (1942) حين أسر اليابانيون 80.000 من الجنود البريطانيين والهنود والأستراليين.

30 IWM, private papers of Major T. R. Wells, documents 7667, diary entry of 29 April 1916.

31 أرقام الخسائر في صفوف المدنيين مأخوذة من:

Moberly, *The Campaign in Mesopotamia*, 2:459.

أما رواية القس سبونر فهي من:

IWM, "Report Based on the diary of the Rev. Harold Spooner, April 29th, 1916 to Nov. 1918," documents 7308. See also IWM, diary of Captain Reynolds Lamont Lecky, documents 21099, diary entry of 2 May 1916.

32 IWM, private papers of lieutenant Colonel l. S. Bell Syer, documents 7469, diary entry of 6 May 1916.

33 طالب مشتاق، **أورق أيامي، 1900-1958** (بيروت: دار الطليعة، 1968). (النص هنا مترجم عن الإنكليزية)

34 كما ورد في كتاب:

Sergeant P. W. long, *Other Ranks of Kut* (London: Williams and Norgate, 1938), 34.

35 IWM, diary of lieutenant Colonel l. S. Bell Syer, entry of 14 May 1916.

انظر أيضاً أوراق الميجور ويلز الذي زعم أن الترك أظهروا "محاباة" للمسلمين الهنود (8 مايو، و4 يونيو)، ويوميات القس سبونر تاريخ 17 مايو.

36 تناول الفصل الثالث بالتفصيل "معسكر الهلال". ذكر لونغ في كتابه (*The Ranks of Kut, 33*) أن "كتيبة كاملة من الجزائريين عسكرت بالقرب من أسرى الحرب البريطانيين في بغداد". وبسبب خدمتهم السابقة في الجيش الفرنسي، "زعموا أنهم أصدقاء" حسبما روى لونغ، لكن البريطانيين "لم يقبلوا مبادراتهم". أرسل جنود شمال إفريقيا لاحقاً إلى فارس "لمحاربة الروس نيابة عن الترك".

37 NARA, Baghdad vol. 25, Brissel report dated Baghdad, 9 August 1916.

38 حفظ المقال، المأخوذ من صحيفة **صدى الإسلام** بتاريخ 11 أغسطس 1916، في أوراق القنصلية الأميركية في بغداد. اعترف التاريخ الرسمي البريطاني أن السلطان استقبل الضباط المسلمين البريطانيين وأعاد إليهم سيوفهم لكن زعم أن العثمانيين "اعتقلوا من رفض منهم" خدمة السلطان.

Moberly, *The Campaign in Mesopotamia*, 2:466.

39 ترك كثير من الضباط ذكريات تفصيلية عن تجاربهم في الأسر. انظر على سبيل المثال:

Major E. W. C. Sandes, *In Kut and Captivity with the Sixth Indian Division* (London: John Murray, 1919); Captain E. O. Mousley, *The Secrets of a Kuttite: An Authentic Story of Kut, Adventures in Captivity and Stamboul Intrigue* (London: John lane, 1921); W. C. Spackman, *Captured at Kut: Prisoner of the Turks* (Barnsley, UK: Pen & Sword, 2008).

40 E. H. Jones, *The Road to En-Dor* (London: John lane The Bodley Head, 1921), 123.

41 IWM, private papers of J. McK. Sloss, MSM Australian Flying Corps, documents 13102; Sergeant P. W. "Jerry" Long, in *Other Ranks of Kut*, 103.

نشر لونغ في كتابه أول رواية عن تجربة الجندي العادي بعد سقوط الكوت.

42 Arnold T. Wilson, *Loyalties Mesopotamia, 1914-1917* (Oxford: Oxford University Press, 1930), 140

43 Grigoris Balakian, in *Armenian Golgotha: A Memoir of the Armenian Genocide, 1915- 1918* (New York: Vintage Books, 2010), 294-298.

زعم بالاكيان أنه التقى الجنود البريطانيين بعد أسبوعين أو ثلاثة من ترحيل الأرمن من بهشه في أوائل يونيو 1916، ما يشير إلى أن الناجين من الكوت وصلوا إلى محطة القطارات مع نهاية يونيو أو أوائل يوليو 1916.

44 ورد شاهد كورزون في كتاب:

Townshend, *When God Made Hell*, 335.

الفصل الحادي عشر

1 "الإمارة" هي منصب أمير مكة (أو قائدها). كان أمير مكة يحمل أيضاً لقب "شريف" مكة.

2 رواية عبد الله مسجلة في كتابه:

Memoirs of King Abdullah of Transjordan (New York: Philosophical library, 1950), 112-113.

انظر أيضاً:

Ronald Storrs, *Orientations* (London: Readers Union, 1939), 129-130; George Antonius, *The Arab Awakening* (London: Hamish Hamilton, 1938), 126-128.

اعتمدت رواية أنطونيوس، القومي العربي المتحمس، عن الثورة العربية في معظمها على مقابلات شخصية مع أفراد بارزين في الأسرة الهاشمية ووثائق أصلية من أوراقهم الخاصة.

3 Storrs, *Orientations*, 155-156.

4 ترجمت (المزاعم) من صحيفة **الاتحاد العثماني** البيروتية (1914/12/29)، ووردت في كتاب أنطونيوس- النسخة العربية (ص224).

5 انظر كتاب القومي العربي جورج أنطونيوس:

Arab Awakening, 140.

أسس أنطونيوس روايته في كتابه **يقظة العرب** على مقابلات مستفيضة مع الشريف حسين ونجليه عبد الله وفيصل.

C. Ernest Dawn, *From Ottomanism to Arabism: Essays on the Origins of Arab Nationalism* (Urbana: University of Illinois Press, 1973), 26.

6 تناول الفصل 1 جمعية "العربية الفتاة" ودورها في تنظيم المؤتمر العربي الأول في باريس.

7 تعتمد هذه الرواية عن مهمة فيصل في إسطنبول ودمشق على:

Dawn, *From Ottomanism to Arabism*, 27-30; Antonius, *Arab Awakening*, 150-159; Ali A. Allawi, *Faisal I of Iraq* (New Haven, CT: Yale University Press, 2014).

8 Antonius, *Arab Awakening*, 157-158.

9 نشرت نسخة (بالإنكليزية) لمراسلات حسين-مكماهون في كتاب:

The Middle East and North Africa in World Politics: A Documentary Record, ed. J. C. Hurewitz (New Haven, CT: Yale University Press, 1979), 2:46-56.

10 وردت رسالة مكماهون إلى لندن في كتاب:

Jonathan Schneer, *The Balfour Declaration: The Origins of the Arab Israeli Conflict* (New York: Random House, 2010), 59.

11 فيما يتعلق بما كشف عنه الفاروقي، انظر:

Scott Anderson, *Lawrence in Arabia: War, Deceit, Imperial Folly and the Making of the Modern Middle East* (London: Atlantic Books, 2013), 139-143; Antonius, *Arab Awakening*, 169; David Fromkin, *A Peace to End All Peace* (London: Andre Deutsch, 1989), 176-178; Schneer, *Balfour Declaration*, 60-63.

ذكر الشريف حسين الفاروقي بالاسم في رسالته إلى مكماهون بتاريخ 1916/1/1، ما يدل بوضوح على علمه بهرب الضابط العربي، والأرجح عن طريق رسول مكماهون.

12 عرضت هذه المطالب الإقليمية الفرنسية في بلاد الشام في رسالة من السفير الفرنسي في بتروغراد إلى وزير الخارجية الروسي بتاريخ 14/1 مارس 1915، ونشرت في كتاب:

Hurewitz, *Middle East and North Africa in World Politics*, 2:19.

13 Fromkin, *Peace to End All Peace*, 188-193.

14 انظر النسخة العربية من كتاب أنطونيوس **يقظة العرب**، ت. ناصر الدين الأسد وإحسان عباس (بيروت: دار العلم للملايين، 1987)، ص354. (م)

15 نشر نص اتفاقية سايكس-بيكو (بالإنكليزية) في كتاب:

Hurewitz, *Middle East and North Africa in World Politics*, 2:60-64.

16 Djemal Pasha, *Memories of a Turkish Statesman, 1913-1919* (London: Hutchinson and Co., n.d.), 197-199.

17 أصدقاء الترجمان الثلاثة من أبرز العائلات المقدسية: حسن الخالدي وعمر صالح البرغوتي، الضابطان في الجيش العثماني، والمدرس وكاتب اليوميات خليل السكاكيني.

Salim Tamari, *Year of the Locust: A Soldier's Diary and the Erasure of Palestine's Ottoman Past* (Berkeley: University of California Press, 2011), 91.

18 Falih Rıfkı Atay, *Le mont des Oliviers* [جبل الزيتون] (Paris: Turquoise, 2009), 29-30.

نشر الكتاب أول مرة بالتركية عام 1932 بعنوان Zeytindağı.

19 Eliezer Tauber, *The Arab Movements in World War I* (London: Frank Cass, 1993), 38.

20 زعم جورج أنطونيوس في كتابه **يقظة العرب** أن رقم 300.000 ليس موضعا للشك وأن الرقم الفعلي قد يصل إلى 350.000.

انظر أيضاً:

Linda Schatkowski Schilcher, in "The Famine of 1915-1918 in Greater Syria," in *Problems of the Modern Middle East in Historical Perspective*, ed. John Spagnolo (Reading, UK: Ithaca Press, 1992), 229-258.

تعتمد المؤلفة على سجلات القنصل الألماني لتؤكد أن معدلات الوفيات جراء المجاعة والأمراض المتعلقة بها "ربما وصلت إلى 500.000 بحلول نهاية عام 1918". فيما يتعلق بـ"السفربرلك" في الذاكرة الشعبية في سورية ولبنان، انظر:

Najwa al-Qattan, "Safarbarlik: Ottoman Syria and the Great War," in *From the Syrian Land to the States of Syria and Lebanon*, ed. Thomas Philipp and Christoph Schumann (Beirut: Orient-Institute, 2004), 163-174.

21 ق. ب. خوري، **الرحلة السورية في الحرب العالمية 1916** (القاهرة: المكتبة اليوسفية، 1921)، 34-35. (النص مترجم عن الإنكليزية).

22 وردت مبادرة أنور ومساعي قوى الوفاق لمنع المعونات الإنسانية من المرور عبر حصار الحلفاء في كتاب شكيب أرسلان، **سيرة ذاتية** (بيروت: دار الطليعة، 1969)، 225-236.

23 Djemal Pasha, *Memories of a Turkish Statesman*, 213; Rıfkı Atay, *Le mont des Oliviers*, 75-76.

24 Tamari, *Year of the Locust*, 130-132.

25 نشرت برقية الشريف حسين إلى أنور ورده في كتاب سليمان موسى، **الثورة العربية الكبرى: وثائق وأسانيد** (عمان: مديرية الثقافة والفنون، 1966)، 52-53. قدم جمال باشا والأمير عبد الله روايتين متعارضتين عن هذه المراسلة بين الشريف وأنور؛ انظر:

Djemal Pasha, *Memories of a Turkish Statesman*, 215, and King Abdullah, *Memoirs of King Abdullah of Transjordan*, 136-137. See also Tauber, *Arab Movements in World War I*, 80.

26 Antonius, *Arab Awakening*, 190.

27 Rıfkı Atay, *Le mont des Oliviers*, 73-79.

من نافل القول إن المعاصرين العرب كانوا أشد إثارة للمشاعر في إجلالهم وثنائهم على "شهداء" بيروت ودمشق. كرر د. أحمد قدري، وهو عضو سوري في حركة العربية الفتاة، اعتقلته السلطات العثمانية مرتين للاشتباه بنشاطه العروبي، كرر الكلمات البطولية الأخيرة لكثير من أولئك الذين شنقوا في بيروت. انظر كتابه: **مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى** (دمشق: ابن زيدون، 1956)، 55-56.

28 في وقت لاحق من تلك السنة، نشر جمال باشا كتاباً بطبعات تركية وعربية وفرنسية لتبرير إجراءات محكمة عاليه العسكرية. عرض الكتاب توصيفات موجزة لثماني جمعيات سرية عربية، وأعاد نشر الوثائق التي صودرت من القنصليتين الفرنسيتين في بيروت ودمشق، وأدرج أسماء الذين أدانتهم المحكمة العسكرية وجرائمهم. ربما سمع أنطونيوس هذه الرواية عن ردة فعل فيصل على الإعدامات من فيصل نفسه. فقد وجد (ص191) أن من الصعب على الترجمة التعبير عن القوة الدلالية لعبارة "طاب الموت يا عرب" التي تعني "مناشدة العرب كلهم حمل السلاح، والمخاطرة بأرواحهم، وبذل دمهم للثأر".

29 ندم جمال باشا صراحة على عدم اعتقال فيصل، وأشقائه، وأبيه، بتهمة الخيانة العظمى؛ انظر:

Djemal Pasha, *Memories of a Turkish Statesman*, 220-222.

30 البندقية موجودة في المتحف الحربي الامبراطوري في لندن. فيما يتعلق بتاريخ البندقية، انظر:

Haluk Oral, *Gallipoli 1915 Through Turkish Eyes* (Istanbul: Bahcesehir University Press, 2012), 233-236.

31 Djemal Pasha, *Memories of a Turkish Statesman*, 223.

زعم لورنس أن فخري باشا متورط في مذابح الأرمن.

T. E. Lawrence, *Seven Pillars of Wisdom: A Triumph* (New York: Doubleday, Doran & Co., 1936), 93.

كما ربط كريستوفر فخري بمذابح الأرمن التي وقعت عام 1909 في أضنة وزيتون.

Christophe Leclerc, in *Avec T. E. Lawrence en Arabie: La mission militaire francaise au Hedjaz, 1916-1920* (Paris: l'Harmattan, 1998), 28,

32 King Abdullah, *Memoirs of King Abdullah of Transjordan*, 138.

33 Haluk Oral, *Gallipoli 1915*, 236.

يزعم المؤرخ التركي أن الشريف حسين استخدم غنيمة غاليبولي التي أهداها جمال باشا إلى فيصل في إطلاق الرصاصة الافتتاحية للثورة، مع أن سجلات المتحف الحربي الامبراطوري لا تذكر مثل هذا الزعم.

34 Abdullah, *Memoirs of King Abdullah of King Abdullah of Transjordan*, 143.

35 Abdullah, *Memoirs of King Abdullah of King Abdullah of Transjordan*, 144-146.

36 رواية عبد الله عن حصار الطائف مسجلة في:

Memoirs of King Abdullah, 143-153.

37 Turjman, *Year of the Locust*, 155-156.

38 محمد علي العجلوني، **ذكريات عن الثورة العربية الكبرى** (عمان: دار الكرمل، 2002)، 22-25؛ فيما يتعلق بإعلان الثورة العربية والمجادلات حول فضائلها وأخطارها، انظر ص 27-28. كانت عجلون (موطن المؤلف) جزءاً من سوريا في عهد العثمانيين وأصبحت اليوم مدينة في شمال الأردن.

39 فيما يتعلق بردة الفعل الهندية، انظر:

James Barr, *Setting the Desert on Fire: T. E. Lawrence and Britain's Secret War in Arabia,1916-1918* (New York: W. W. Norton, 2008), 41-42.

40 فيما يتعلق بتجنيد الضباط العثمانيين العرب في المجهود الحربي الهاشمي، انظر:

Tauber, *The Arab Movements in World War I*, 102-117.

تناول الفصل 10 أسر جعفر العسكري في الصحراء الغربية؛ أشار في مذكراته إلى تشبثه بالقضية الهاشمية:

A Soldier's Story: From Ottoman Rule to Independent Iraq (London: Arabian Publishing, 2003), 108-112.

وتناول الفصلان 9 و10 أسر علي جودت في الناصرية واعتقاله في البصرة؛ أما روايته عن تجنيد المقاتلين من معسكرات أسرى الحرب فهي مسجلة في كتابه: **ذكرياتي، 1900-1958** (بيروت: الوفاء، 1967)، 37-40.

41 أعيد نشر برقية مكماهون بتاريخ 13 سبتمبر في كتاب:

Barr, *Setting the Desert on Fire*, 56.

فيما يتعلق باهتمام الفرنسين بالحفاظ على معاهدة سايكس-بيكو، انظر:

Leclerc, *Avec T. E. Lawrence en Arabie*, 19.

فيما يتعلق ببعثة بريمون، انظر أيضاً:

Robin Bidwell, "The Brémond Mission in the Hijaz, 1916-17: A Study in Inter-allied Co-operation," in *Arabian and Islamic Studies*, ed. Robin Bidwell and Rex Smith (London: Longman, 1983): 182-195.

42 Bidwell, "Brémond Mission," 186.

43 Edouard Brémond, *Le Hedjaz dans la guerre mondiale* (Paris: Payot, 1931), 61-64, 106-107.

وصل إجمالي عدد البعثة الفرنسية، التي اتخذت مصر مركزاً لها، إلى 42 ضابطاً و 983 جندياً.

Brémond, *Le Hedjaz*, 64.

44 Lawrence, *Seven Pillars*, 92.

45 ورد تقرير لورنس بتاريخ 1916/11/18 في كتاب:

Barr, *Setting the Desert on Fire*, 77-78.

انظر أيضاً تحليل أندرسون لتقرير لورنس في كتاب:

Lawrence in Arabia, 223-226.

46 وردت رواية لورنس عن حوادث ديسمبر 1916 في كتابه:

Seven Pillars, 119-135.

47 Lawrence, *Seven Pillars*, 130.

48 أعيد نشر توصيات اجتماع لجنة الحرب بتاريخ 1916/7/6 في كتاب:

George McMunn and Cyril Falls, *Military Operations: Egypt and Palestine from the Outbreak of War with Germany to June 1917* (London: HMSO, 1928), 230-232.

الفصل الثاني عشر

1 حول نشر سرب الطائرات الألمانية، انظر:

Desmond Seward, *Wings over the Desert: In Action with an RFC Pilot in Palestine, 1916-1918* (Sparkford, UK: Haynes Publishing, 2009), 29-32.

وحول المدفعية النمساوية، قارن:

Djemal Pasha, *Memories of a Turkish Statesman, 1913-1919* (London: Hutchinson, n.d.), 169.

2 يرد النص الكامل لاقتراح موراي يوم 15 فبراير 1916 في كتاب:

George McMunn and Cyril Falls, *Military Operations: Egypt and Palestine from the Outbreak of War with Germany to June 1917* (London: HMSO, 1928), 170-174.

3 Djemal Pasha, *Memories of a Turkish Statesman*, 170;

حول "مسألة القطية"، انظر:

McMunn and Falls, *Military Operations*, 162-170; Anthony Bruce, *The Last Crusade: The Palestine Campaign in the First World War* (London: John Murray, 2002), 37-40.

4 حول فيلق الهجانة الامبراطوري، انظر:

Frank Reid, *The Fighting Cameliers* (1934; rpt. Milton Keynes, UK: Leonaur, 2005); Geoffrey Inchbald, *With the Imperial Camel Corps in the Great War* (Milton Keynes, UK: Leonaur, 2005).

5 McMunn and Falls, *Military Operations*, 199.

6 ترد توصية لجنة الحرب، تاريخ 6 يوليو 1916، في كتاب:

McMunn and Falls, *Military Operations*, 230-232.

7 McMunn and Falls, *Military Operations*, 230-232.

8Reid, *The Fighting Cameliers*, 50-52; McMunn and Falls, *Military Operations*, 257.

9 أعلن البريطانيون في تقريرهم أنهم أسروا 1.635 جندياً عثمانياً مع ضباطهم، وأن حوالي 200 جندي عثماني قتلوا في معركة رفح. أما الخسائر البريطانية فبلغت 71 قتيلاً و414 جريحاً. انظر:

McMunn and Falls, *Military Operations*, 270.

10Edward J. Erickson, *Ordered to Die: A History of the Ottoman Army in the First World War* (Westport, CT: Greenwood Press, 2001), 161.

11برقية من هيئة الأركان الامبراطورية العامة إلى القائد العام في الهند، تاريخ 30 أبريل 1916، واردة في كتاب:

F. J. Moberly, *The Campaign in Mesopotamia, 1914-1918* (London: HMSO, 1923-1927), 3:3-4.

12 Erickson, *Ordered to Die*, 164-166.

13 Charles Townshend, *When God Made Hell: The British Invasion of Mesopotamia and the Creation of Iraq, 1914-1921* (London: Faber and Faber, 2010), 344-345.

14 Arnold T. Wilson, *Loyalties Mesopotamia, 1914-1917* (Oxford: Oxford University Press, 1930), 222.

15 Lieutenant Colonel J. E. Tenant, cited in Wilson, *Loyalties Mesopotamia*, 223.

16 Moberly, *The Campaign in Mesopotamia*, 3:193-195; Wilson, *Loyalties Mesopotamia*, 222-223; Townshend, *When God Made Hell*, 355-357.

17 وردت المراسلات بين مود وروبرتسون ومونرو في كتاب:

Moberly, *The Campaign in Mesopotamia*, 3:204-211.

18 Wilson, *Loyalties Mesopotamia*, 216.

19 طالب مشتاق، أوراق أيامي، **1900-1958** (بيروت دار الطليعة، 1968)، 17-18 (النصوص مترجمة عن الإنكليزية).

20 NARA, Baghdad vol. 28, transcription from Consul Heizer's Miscellaneous Record Book, 10-13 March 1917.

21 لنقاش مفصل حول بيان موراي ومثالبه، انظر:

Wilson, *Loyalties Mesopotamia*, 237-241.

22 ورد النص الكامل لبيان موراي في كتاب

Moberly, *The Campaign in Mesopotamia*, 3:404-405, appendix 38.

23 Mushtaq, *Awraq ayyami*, 19.

24 Hew Strachan, *The First World War* (London: Pocket Books, 2003), 215-223.

لم تعلن الولايات المتحدة إطلاقاً الحرب على الامبراطورية العثمانية، مع أنها سحبت جميع موظفيها القنصليين من الأراضي العثمانية لدى دخولها الحرب ضد ألمانيا.

25 أعلن البريطانيون عن أقل من 4000 إصابة، بما فيها 523 قتيلًا و2.932 جريحاً، مع أن ليمان فون ساندرز ادعى أن الأتراك دفنوا 1.500 قتيل بريطاني بعد معركة غزة الأولى. أما خسائر العثمانيين فكانت أقل من 2.500 إصابة، بما فيها 301 من القتلى و1.085 من الجرحى. انظر:

McMunn and Falls, *Military Operations*, 315, 322; Otto Liman von Sanders, *Five Years in Turkey* (Annapolis: US naval Institute, 1927), 165.

26 Falih Rıfkı Atay, *Le mont des Oliviers* [The Mount of Olives] (Paris: Turquoise, 2009), 205-206.

27 A. Briscoe Moore, *The Mounted Riflemen in Sinai and Palestine* (Auckland: Whitcombe and Tombs, n.d. [1920]), 67.

28 Djemal Pasha, *Memories of a Turkish Statesman*, 179.

29 Reid, *The Fighting Cameliers*, 98;

ذكر ريد أيضا أنه زود بقناع غازات سامة قبل معركة غزة الثانية (ص 97). ويذكر التاريخ الرسمي البريطاني أن الغازات السامة استخدمت للمرة الأولى على جبهة فلسطين في معركة غزة الثانية. انظر أيضا:

McMunn and Falls, *Military Operations*, 328.

30 Reid, *The Fighting Cameliers*, 102-110.

31 Rıfkı Atay, *Le mont des Oliviers*, 213-214; McMunn and Falls, *Military Operations*, 348, 350.

32 James Barr, *Setting the Desert on Fire: T. E. Lawrence and Britain's Secret War in Arabia, 1916-1918* (New York: W. W. Norton, 2008), 90-106.

33 شن لورنس الهجوم الأول على الخط الحديدي الحجازي في 29-30 مارس (محطة أبو النعام). انظر:

T. E. Lawrence, *Seven Pillars of Wisdom: A Triumph* (New York: Doubleday Doran and Co., 1936), 197-203.

34 Jafar al-Askari, *A Soldier's Story: From Ottoman Rule to Independent Iraq* (London: Arabian Publishing, 2003), 112-114.

تناول الفصل 10 أسر جعفر العسكري في الصحراء الغربية.

35 Ali Allawi, *Faisal I of Iraq* (New Haven, CT: Yale University Press, 2014), 94-95.

36 Barr, *Setting the Desert on Fire*, 135.

قابل سايكس، برفقة بيكو، فيصلًا والشريف حسين في جدة يوم 18 مايو 1917، لتزويدهما بتفاصيل اتفاقية سايكس-بيكو، واقترح درجة أكبر من الاستقلال الذاتي للعرب تحت الإدارة الفرنسية مقارنة بما خطط سابقاً.

Ibid., 138-141.

37 Lawrence, *Seven Pillars*, 298.

38 Lawrence, *Seven Pillars*, 300-312.

39 ما أحنق المؤرخين العرب أن الفضل في احتلال العقبة قد نسب إلى لورنس، أو نسب هو الفضل إلى نفسه. وكما كتب في **أعمدة الحكمة السبعة**: "تم الاستيلاء على العقبة وفقاً للخطة التي وضعتها والجهد الذي بذلته. وتحمل التكاليف دماغي وأعصابي" (323). يلاحظ علي العلوي في كتابه أن الشريف ناصر لم يذكر في تقريره إلى فيصل بتاريخ 6 يوليو "أي دور للورنس في تخطيط الهجوم وتنظيمه" (Faisal I of Iraq, 95-96). وأكد أن لورنس بالغ في حجم دوره "نظراً إلى علمه الكامل بأن اللاعبين الآخرين، وأغلبيتهم من العرب، ليسوا في موقع يؤهلهم لنقض القصة أو تصحيحها". انظر أيضاً:

Suleiman Musa, *T. E. Lawrence: An Arab View* (Oxford: Oxford University Press, 1966).

ورد شاهد وينغيت في كتاب:

Barr, *Setting the Desert on Fire*, 160-161.

40 Lawrence, *Seven Pillars*, 322.

41 ورد في كتاب:

Barr, *Setting the Desert on Fire*, 166.

42 Eugene Rogan, *Frontiers of the State in the Late Ottoman Empire: Transjordan, 1851- 1920* (Cambridge: Cambridge University Press, 1999), 224-229.

43 من مذكرات غير منشورة لصالح التل، أحد أعيان إربد الذي كلف بتجنيد الميليشيا (236-237). أدين بالفضل هنا إلى الراحل ملحم التل على السماح بنسخة من هذه الوثيقة القيمة.

44 الأوراق الخاصة لقائد قوة المتطوعين الشركس، ميرزا وصفي، مودعة في المحفوظات الوطنية الأردنية في عمان (المكتبات والوثائق الوطنية). فيما يتعلق بالفرسان المتطوعين قارن:

MW 5/17, docs. 6 and 10, 3-10 November 1916.

45 عودة القسوس **مذكرات عودة سلمان القسوس الهلسا، 1877-1943** (عمان، 2006)، ص48.

46 وصفت هذه المساعي لخطب ود زعماء القبائل لمواجهة التأثير الهاشمي في كتاب:

عودة القسوس، **مذكرات عودة سلمان القسوس الهلسا، 1877-1943**، ص48.

يحتفظ الأرشيف العثماني بشواهد عن الأوسمة التي قدمت إلى شيوخ القبائل في جنوب سوريا؛ انظر:

Prime Ministry Archives, Istanbul, dH-KMS 41/43 and 41/46 (August and September, 1916).

فيما يتعلق بمواجهة لورنس مع عودة، انظر:

Lawrence, *Seven Pillars*, 355; Barr, *Setting the Desert on Fire*, 169-170.

47 وقع هذا الهجوم بعد وقت قصير من 17 يوليو 1917. لا توجد إشارة إلى هذا الاشتباك في كتاب لورنس، ولا شك أن السبب هو وجوده في القاهرة حينئذ.

القسوس، **مذكرات عودة سلمان القسوس الهلسا، 1877-1943**، 86-88. لكن لورنس أشار إلى ولاء القبائل إلى العثمانيين. انظر:

T. E. Lawrence, "Tribal Politics in Feisal's Area," *Arab Bulletin Supplementary Papers* 5 (24 June 1918): 1-5.

48 فيما يتعلق باجتماع 24 يونيو 1917 وتشكيل "مجموعة يلدريم" انظر:

Djemal Pasha, *Memories of a Turkish Statesman*, 182-193; Liman von Sanders, *Five Years in Turkey*, 173-184; Erickson, *Ordered to Die*, 166-172.

49 Bruce, *The Last Crusade*, 119-120.

50 Emin Çöl, *Çanakkale Sina Savaşları: bir erin anıları* [The Dardanelles and Sinai Campaigns: One Man's Memoirs] (حملتا الدردنيل وسيناء: مذكرات أحد الرجال)(Istanbul: Nöbetçi Yayınevi, 2009), 103-104.

51 Çöl ,*Çanakkale Sina Savaşları*, 106-108.

فيما يتعلق بلواء الفرسان الأسترالي الرابع، انظر:

Roland Perry, *The Australian Light Horse* (Sydney: Hachette Australia, 2010), 3-13.

52 Cyril Falls and A. F. Becke, *Military Operations: Egypt and Palestine from the Outbreak of War with Germany to June 1917*, Part 1 (London: HMSO, 1930), 65.

53Reid, *The Fighting Cameliers*, 139-147.

54 Chaim Weizmann, *Trial and Error* (new York: Harper and Brothers, 1949), 208; Tom Segev, *One Palestine, Complete: Jews and Arabs under the British Mandate* (London: Abacus Books, 2001), 43-50; Jonathan Schneer, *The Balfour Declaration: The Origins of the Arab-Israeli Conflict* (New York: Random House, 2010), 333-346.

55 أصيب الجانبان بخسائر جسيمة في حملة فلسطين. ذكر البريطانيون أنهم خسروا 18.928 رجلاً بين قتيل وجريح حتى احتلال القدس، بينما بلغت خسائر العثمانيين 28.443 إصابة. فضلًا عن أن اللنبي أشار إلى نحو 12.000 تركي وقعوا في الأسر.

Bruce, *The Last Crusade*, 165.

56 Segev, *One Palestine, Complete*, 50-54.

57 يحتفظ المتحف الحربي الامبراطوري بنسخة من الفيلم الصامت بعنوان "دخول الجنرال اللنبي إلى القدس" (مدته نصف ساعة)، ويمكن مشاهدته على الشبكة الإلكترونية.

الفصل الثالث عشر

1 NARA, Trebizond, Turkey, vol. 30, Miscellaneous Record Book, 1913-1918, entry of 23 March 1917.

أبقى الأميركيون قنصليتهم في طرابزون مفتوحة طوال فترة الاحتلال الروسي للمدينة، واحتفظ القنصل بسجل موجز للأحداث السياسية في كتابه سجل متنوع، ومنه استقينا الاقتباسات اللاحقة كلها. انظر أيضاً:

Michael A. Reynolds, *Shattering Empires: The Clash and Collapse of the Ottoman and Russian Empires, 1908-1918* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2011), 167-190; Sean McMeekin, *The Russian Origins of the First World War* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2011), 224-235.

2 حول نشر الروس اتفاقية سايكس-بيكو والاقتراحات التي قدمها جمال باشا للهاشميين، انظر النسخة العربية من كتاب أنطونيوس "يقظة العرب.."، ت. ناصر الدين الأسد وإحسان عباس (بيروت: دار العلم للملايين، 1987)، ص362. (م)

أو النسخة الإنكليزية:

George Antonius, *The Arab Awakening* (London: Hamish and Hamilton, 1938), 253-258;

انظر أيضاً:

Ali Allawi, *Faisal I of Iraq* (New Haven, CT: Yale University Press, 2014), 108-112.

تشير إحالات جمال إلى اتفاقيات موقعة بين بريطانيا وفرنسا وروسيا وإيطاليا إلى أن البلاشفة نشروا أيضا بنود اتفاقية سانت جان دي مورين، 1917، التي ادعت فيها إيطاليا حقوقا بالأراضي العثمانية في الأناضول.

3 يجادل سكوت آندرسون بأن تي. إي. لورنس أطلع فيصلًا على تفاصيل اتفاقية سايكس-بيكو في فترة مبكرة من شهر فبراير عام 1917، لكن ليس هناك سوى أدلة عرضية تدعم هذا الزعم. انظر:

Scott Anderson, *Lawrence in Arabia: War, Deceit, Imperial Folly and the Making of the Modern Middle East* (London: Atlantic Books, 2013), 270-272;

حول زيارة السير مارك سايكس وجورج بيكو إلى جدة لإطلاع الشريف حسين، انظر:

ibid., 314-319.

4 رسالة هوغارث في يناير 1918، وردت في كتاب:

J. C. Hurewitz, ed., *The Middle East and North Africa in World Politics* (New Haven, CT: Yale University Press, 1979), 2:110-111.

5 "اتصالات بين الحكومة البريطانية وملك الحجاز، فبراير 1918"، وردت في كتاب:

Antonius, *Arab Awakening*, 431-432.

6 T. E. Lawrence, *Seven Pillars of Wisdom: A Triumph* (New York: Doubleday Doran and Co., 1936), 341.

7 انشق محمد علي العجلوني عن الجيش العثماني للانضمام إلى الثورة العربية، وشارك في الدفاع عن الطفيلة، الذي وصفه في مذكراته: **ذكريات عن الثورة العربية الكبرى**، (عمان: دار الكرمل، 2002). (النصوص مترجمة عن الإنكليزية).

خسر العثمانيون 200 قتيل و250 أسيراً، بينما خسر العرب 25 قتيلاً و40 جريحاً.

James Barr, *Setting the Desert on Fire: T. E. Lawrence and Britain's Secret War in Arabia, 1916-1918* (New York: W. W. Norton, 2008), 225-227.

8 Lieutenant Colonel Guy Powles, cited in Terry Kinloch, *Devils on Horses: In the Words of the Anzacs in the Middle East, 1916-19* (Auckland: Exisle Publishing, 2007), 252.

9 ذكر أليك كيركبرايد، المستشار البريطاني للجيش العربي، أنه أُمر ببناء برج للحمام الزاجل في العقبة: "سوف أزوّد بالحمام، حسب الضرورة، لاستخدامه في إرسال تقاريري".

Alec Kirkbride, *An Awakening: The Arab Campaign, 1917-18* (Tavistock, UK: University Press of Arabia, 21).

10 Jafar al-Askari, *A Soldier's Story: From Ottoman Rule to Independent Iraq* (London: Arabian Publishing, 2003), 138.

11 Bernard Blaser, *Kilts Across the Jordan* (London: Witherby, 1926), 208.

12 Otto Liman von Sanders, *Five Years in Turkey* (Annapolis: US Naval Institute, 1927), 211.

13 Cyril Falls and A. F. Becke, *Military Operations: Egypt and Palestine from the Outbreak of War with Germany to June 1917* (London: HMSO, 1930), 2:1:348; A. Briscoe Moore, *The Mounted Riflemen in Sinai and Palestine* (Auckland: Whitcombe and Tombs, 1920), 115.

14 Liman von Sanders, *Five Years in Turkey*, 213.

15 IWM, papers of d. H. Calcutt, diary entry of 1 April 1918; see also the diary of J. Wilson, 35. d. G. Hogarth, "The Refugees from Es-Salt," *Arab Bulletin* (21 April 1918): 125; Blaser, Kilts *Across the Jordan*, 216.

16 Moore, *The Mounted Riflemen*, 115.

وردت أرقام الخسائر الرسمية عن 200 قتيل و1.000 جريح بريطاني، و400 قتيل و 1.000 جريح عثماني في كتابي:

W. T. Massey, *Allenby's Final Triumph* (London: Constable, 1920), and in Falls and Becke, *Military Operations*, Part 1, 347.

17 Askari, *A Soldier's Story*, 138-139.

18 العجلوني، ذكريات، 67-68.

Barr, *Setting the Desert on Fire*, 236.

19 Askari, *A Soldier's Story*, 136-137; 142-146; Lawrence, *Seven Pillars*, 520; Edmond Bremond, *Le Hedjaz dans la guerre mondiale* (Paris: Payot, 1931), 268-269.

20 وردت الحكايتان عن مقاومة سكان معان للجيش العربي، وخطب رفع المعنويات بعد الانسحاب من معان، في كتاب تحسين علي: **مذكرات تحسين علي، 1890-1970**، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2004)، 70-71.

21 David Stevenson, *1914-1918: The History of the First World War* (London: Penguin, 2005), 402-409.

22 Falls and Becke, *Military Operations*, 2:2:411-421.

23 Kinloch, *Devils on Horses*, 282-283.

24 Falls and Becke, *Military Operations*, 2:1:365-366.

25 IWM, papers of d. H. Calcutt, diary entry of 6 May 1918, 49-50.

للاطلاع على روايات مباشرة أخرى للهجوم على شرق الأردن، انظر:

The diary of A. l. Smith; W. N. Hendry, "Experiences with the London Scottish, 1914-18"; Captain A. C. Alan-Williams, scrapbook vol. 2, loose-leaf diary, "Second Attempt to Capture Amman April 29th 1918"; diary of J. Wilson, 36-38.

26 French Military Archives, Vincennes, SS Marine Q 86, 21 May 1918, no. 23, "Jaussen"; French Military Archives, Vincennes, SS Marine Q 86, 29 May 1918, no. 31, "Salem ebn Aisa, Tawfik el-Halibi".

27 يعتمد التحليل التالي على دراسة مايكل رينولدز الممتازة:

Shattering Empires, 191-251, and W. E. d. Allen and Paul Muratoff's classic *Caucasian Battlefields: A History of the Wars on the Turco-Caucasian Border, 1828-1921* (Cambridge: Cambridge University Press, 1953), 457-496.

28 لم ينتقد أحد حملة القوقاز كما انتقدها ليمان فون ساندرز، الذي جادل في كتاب **خمس سنوات في تركيا**، (ص: 286-269) بأن الموارد الإضافية التي أرسلت لتأمين قارص وأرداهان وباطوم وباكو كان من الأجدى استخدامها للحفاظ على بقاء الامبراطورية العثمانية في فلسطين وبلاد الرافدين.

29 Anthony Bruce, *The Last Crusade: The Palestine Campaign in the First World War* (London: John Murray, 2002), 215.

30 Liman von Sanders, *Five Years in Turkey*, 274.

31 رسالة من الهند مجهولة المصدر بتاريخ 28 أكتوبر 1918، ترجمتها الرقابة البريطانية وضمتها إلى مجموعة رسائل من الجنود الهنود في فلسطين.

Cambridge University Library, D. C. Phillott Papers, GB 012 MS.Add.6170, 80-82.

32 Tawfiq al-Suwaydi, *My Memoirs: Half a Century of the History of Iraq and the Arab Cause* (Boulder, CO: Lynne Rienner, 2013), 71.

33 Cambridge University Library, D. C. Phillott Papers, letter dated 20 October 1918, 106-110.

34 حول الكتيبتين 38 و39 من حملة البنادق الملكية، المعروفتين باسم الكتيبتين اليهوديتين، انظر:

J. H. Patterson, *With the Judaeans in the Palestine Campaign* (London: Hutchinson, 1922).

حول القوات الفرنسية في حملة فلسطين، انظر:

Falls and Becke, *Military Operations*, 2:2:419, 473.

35 من بين روايات شهود العيان العرب لدخول دمشق، انظر:

تحسين علي، **مذكرات**، 78-82؛ علي جودت، **ذكريات**، 66-72؛ محمد علي العجلوني، **ذكريات**، 81-83.

36 Hubert Young, *The Independent Arab* (London: John Murray, 1933), 256-257.

37 Falls and Becke, *Military Operations*, 2:2:618; Erickson, *Ordered to Die*, 201.

38 وردت معاناة أسرى الحرب البريطانيين والهنود خلال حصار الكوت في الفصل 10. انظر:

Charles Townshend, *My Campaign in Mesopotamia* (London: Thornton Butterworth, 1920), 374-385.

39 وردت شروط الهدنة في كتاب

Hurewitz, *The Middle East and North Africa in World Politics*, 2:128-130.

40 Cambridge University Library, D. C. Phillott Papers, GB 012 MS.Add.6170, letter dated 27 October 1918, 78.

خاتمة

1 Grigoris Balakian, *Armenian Golgotha* (New York: Vintage, 2010), 414.

2 Otto Liman von Sanders, *Five Years in Turkey* (Annapolis: US naval Institute, 1927), 321-325; Balakian, *Armenian Golgotha*, 414-416.

3 Vahakn N. Dadrian and Taner Akçam, *Judgment at Istanbul: The Armenian Genocide Trials* (New York: Berghahn Books, 2011), 25-26.

4 Dadrian and Akçam, *Judgment at Istanbul*, 250-280.

5 من نسخة من محاضر جلسات الإدانة (1919/4/12)، نشرت في الجريدة الرسمية (ع 3540، تاريخ 27 نيسان/أبريل 1919)، وترجمت كاملة في:

Dadrian and Akçam, *Judgment at Istanbul*, 271-282.

6 Dadrian and Akçam, *Judgment at Istanbul*, 195-197;

للاطلاع على تأملات بالاكيان في المحاكمات، قارن:

Armenian Golgotha, 426-427.

7 Jacques Derogy, *Opération némésis: Les vengeurs arméniens* [عملية الانتقام: المنتقمون الأرمن] (Paris: Fayard, 1986).

8 للاطلاع على دراسة حديثة لسياسات جمال باشا تجاه الأرمن، اعتماداً على المصادر الأرشيفية العثمانية، قارن:

M. Talha Çiçek, *War and State Formation in Syria: Cemal Pasha's Governorate During World War I, 1914-17* (London: Routledge, 2014), 106-141.

فيما يتعلق بمقتل أنور باشا، انظر:

David Fromkin, *A Peace to End All Peace: Creating the Modern Middle East, 1914-1922* (London: André Deutsch, 1989), 487-488.

9 "Ottoman Memorandum to the Supreme Council of the Paris Peace Conference, 23 June 1919," in Hurewitz, *The Middle East and North Africa in World Politics*, 2:174-176.

10 تناولت مارغريت مكميلان شروط معاهدات الصلح بعد الحرب بالتحليل في كتابها:

Peacemakers: The Paris Conference of 1919 and Its Attempt to End War (London: John Murray, 2001).

11 "Article 22 of the Covenant of the League of Nations, 28 June 1919," in Hurewitz, *Middle East and North Africa in World Politics*, 2:179-180.

12 "Political Clauses of the Treaty of Sèvres, 10 August 1920," in Hurewitz, *Middle East and North Africa in World Politics*, 2:219-225.

13 "Tripartite (Sèvres) Agreement on Anatolia: The British Empire, France and Italy, 10 August 1920," in Hurewitz, *Middle East and North Africa in World Politics*, 2:225-228.

14 "The Turkish National Pact, 28 January 1920," in Hurewitz, *Middle East and North Africa in World Politics*, 2:209-211.

15 Liman von Sanders, *Five Years in Turkey*, 321-325.

16 ورد في:

King Abdullah of Transjordan, *Memoirs of King Abdullah of Transjordan* (New York: Philosophical library, 1950), 174.

فيما يتعلق باستسلام فخري باشا، انظر:

King Abdullah's memoirs, 174-180; James Barr, *Setting the Desert on Fire: T. E. Lawrence and Britain's Secret War in Arabia, 1916-1918* (New York: W. W. Norton, 2008), 308-309.

17 فيما يتعلق بمراكز احتجاز جنود شمال إفريقيا الذين انقسم ولاؤهم بين المعسكرين، انظر:

Thomas DeGeorges, "A Bitter Homecoming: Tunisian Veterans of the First and Second World Wars" (PhD diss., Harvard University, 2006), 45.

18 A. H. Wilkie, *Official War History of the Wellington Mounted Rifles Regiment* (Auckland: Whitcombe and Tombs, 1924), 235-236; C. Guy Powles, *The New Zealanders in Sinai and Palestine* (Auckland: Whitcombe and Tombs, 1922), 266-267; Roland Perry, *The Australian Light Horse* (Sydney: Hachette Australia, 2010), 492-496.

19 C. G. Nicol, *Story of Two Campaigns: Official War History of the Auckland Mounted Rifles Regiment, 1914 1919* (Auckland: Wilson and Horton, 1921), 242-244.

20 أعيد نشرها في:

H. S. Gullett and Chas. Barrett, eds., *Australia in Palestine* (Sydney: Angus & Robertson 1919), 78. See the equally sentimental poem "Old Horse o' Mine," in ibid., 149.

21 شحن الجنود الأستراليون والنيوزيلنديون أخيراً في منتصف صيف عام 1919. غادرت أول مجموعة منهم في 30 يونيو، والبقية يوم 23 يوليو.

22 في الفصل السادس من كتابي: **العرب: تاريخ**، (New York: Basic Books, 2009; London: Allen lane, 2009) تحليل أكثر تفصيلاً لتسوية ما بعد الحرب. انظر أيضاً:

Kristian Coates Ulrichsen, *The First World War in the Middle East* (London: Hurst and Company, 2014), 173-201.

23 Egyptian delegation to the Peace Conference, *White Book: Collection of Official Correspondence from November 11, 1918 to July 14, 1919* (Paris: Privately printed, 1919).

24 لاحظ تقرير اللجنة أن 222 من أصل 260 طلباً تلقته في فلسطين، أي أكثر من نسبة 85 في المئة، عارضت البرنامج الصهيوني. "تلك أكبر نسبة مئوية في المنطقة تجمع على نقطة واحدة"، كما أكد.

"Recommendations of the King-Crane Commission on Syria and Palestine, 28 August 1919," in Hurewitz, *Middle East and North Africa in World Politics*, 2:191-199.

25 "Anglo-French declaration, 7 November 1918," in Hurewitz, *Middle East and North Africa in World Politics*, 2:112.

26 صحيفة **الاستقلال**، النجف 1920/10/6، ورد الشاهد في كتاب:

عبد الرزاق الحسني: **العراق في دوري الاحتلال والانتداب**، (صيدا: العرفان، 1935)، 117-118 (النص مترجم عن الإنكليزية).

27 أوردت رولا خلف تغريدة "الدولة الإسلامية" في مقالها:

"Colonial Powers did not Set the Middle East Ablaze," *Financial Times*, 29 June 2014.

المراجع

مصادر أرشيفية

Archives new Zealand, Alexander Turnbull library, Wellington, NZ.

Trevor Holmden Papers, MS-Papers 2223

Cecil Manson Papers related to service in Royal Flying Corps 90410-

Francis McFarlane Papers, MS-Papers 2409

James McMillan, "40,000 Horsemen: A Memoir," MS X-5251

Australian War Memorial [AWM], Canberra, Australia

Diaries of C.E.W. Bean, accessed online www.awm.gov.au/collection/records/awm38.

Cambridge university library, Cambridge, UK

D.C. Phillott papers, MS.Add.6170

The U.S. National Archives and records Administration [NARA], College Park, Maryland

Record Group 84, U.S. Consular Archives

Baghdad:

Boxes 016 - 019 (19131914-)

Volumes 0016 - 0030 (19151918-)

Basra:

Boxes 002 - 005 (19131918-)

Volume 0003 (19101918-)

Beirut:

Volumes 00080184 ,(1914) 0181-0180 ,(1917-1916) 0018 ,(1924-1910) 0010-,

0185 (1915), 0191 (1916), 0458 (19171919-)

Dardanelles:

Volume 0005 (1914)

Istanbul:

Volumes 02771914) 0285-)

Volumes 02921915) 0295-)

Volumes 03071916) 0309-)

Volumes 03151917) 0317-)

Ourfa (Urfa):

Volume 0004 (1915)

Trebizond (Trabzon):

Volume 0030 (19131918-)

Imperial War Museum [iWM], london, uK

Private Papers Collection

Anonymous Account of the Anzac landing at Gallipoli, April 1915 (doc.8684)

Anonymous Account of the Evacuation of Gallipoli, Jan 1915 (doc.17036)

Major Sir Alexander Anderton (doc.9724)

Ataturk's Memoirs of the Anafartalar Battles (K 031686/)

Lt Col L.S. Bell Syer (doc.7469)

W.R. Bird (doc.828)

B. Bradshaw (doc.14940)

Captured Turkish documents, First World War (doc.12809)

Commander H.V. Coates, Rn (doc.10871)

Staff Sergeant Henry Corbridge (doc.16453)

Lt G.L. Drewry VC (doc.10946)

Robert Eardley (doc.20218)

M.O.F. England (doc.13759)

Lt Col H.V. Gell (doc.10048)

Maj. R. Haworth (doc.16475)

Major G.L. Heawood (doc.7666)

Capt R.I. Lecky (doc.21099)

W.D. Lee (doc.1297)

Letter from a Turkish Officer, 1915 (doc.13066)

D. Moriarty (doc.11752)

Capt A.T.I. Richardson (doc.7381)

Col. R.B.S. Sewell (doc.14742)

Major D.A. Simmons (doc.21098)

J. McK. Sloss (doc.13102)

Rev. H. Spooner (doc.7308)

Major J.G. Stilwell (doc.15567)

J. Taberner (doc.16631)

Two letters from Alexandria (Australian Soldier) (doc.10360)

Major T.R. Wells (doc.7667)

Middle East Centre Archive [MECA], St Antony's College, oxford, uK

J. D. Crowdy Collection

Sir Wyndham Deedes Collection

Harold Dickson Collection

Sir Harold Frederick Downie Collection

Cecil Edmunds Collection

Sir Rupert Hay Collection

Sir Francis Shepherd Collection

A.L.F. Smith Collection

A.L. Tibawi Collection

Sir Ronald Wingate Collection

رسائل دكتوراه غير منشورة

Akin, Yigit, "The Ottoman Home Front during World War I: Everyday Politics, Society,and Culture," Phd diss. (Ohio State University, 2011).

Besikçi, Mehmet, "Between Voluntarism and Resistance: The Ottoman Mobilization of Manpower in the First World War," Phd diss. (Bogaziçi University, 2009).

DeGeorges, Thomas, "A Bitter Homecoming: Tunisian Veterans of the First and Second World Wars" Phd diss. (Harvard University, 2006).

Kilson, Robin, "Calling Up the Empire: The British Military Use of non-white labor in France, 19161920-," Phd diss. (Harvard University, 1990).

Stoddard, Philip H.,"The Ottoman Government and the Arabs, 1911 to 1918: A Preliminary Study of the *Teşkilat-i Mahsusa*," Ph.d. diss. (Princeton University, 1963).

مصادر منشورة

Abbott, G.F., *The Holy War in Tripoli* (London: Edward Arnold, 1912).

Abramson, Glenda, "Haim Nahmias and the labour battalions: a diary of two years in the First World War," *Jewish Culture and History* 14.1 (2013) 1832-.

عبد الوهاب، أكرم. تاريخ الحرب العالمية الأولى (القاهرة: ابن سينا، 2010).

Abun-nasr, Jamil, *A History of the Maghrib* (Cambridge: Cambridge University Press, 1971).

أبو طبيخ، جميل. مذكرات السيد محسن أبو طبيخ (عمان: المؤسسة العربية، 2001)

Ahmad, Feroz, *From Empire to Republic: Essays on the Late Ottoman Empire and Modern Turkey*, 2 vols (Istanbul: Istanbul Bilgi University Press, 1908).

Ahmad, Feroz, *The Young Turks: The Committee of Union and Progress in Turkish Politics, 19081914-* (Oxford: Oxford University Press, 1969).

Ahmad, Kamal Madhar, *Kurdistan during the First World War* (london: Saqi Books, 1994).

العجلوني، محمد علي. ذكريات عن الثورة العربية الكبرى (عمان: دار الكرمل، 2002)

Akçam, Taner *A Shameful Act: The Armenian Genocide and the Question of Turkish Responsibility* (London: Constable, 2007).

Akçam, Taner, *The Young Turks' Crime Against Humanity: The Armenian Genocide and Ethnic Cleansing in the Ottoman Empire* (Princeton, nJ: Princeton University Press, 2012).

Aksakal, Mustafa, "Holy War Made in Germany? Ottoman Origins of the 1914 Jihad," *War in History* 18 (2011): 184199-.

Aksakal, Mustafa, "not 'by those old books of international law, but only by war': Ottoman Intellectuals on the Eve of the Great War," *Diplomacy and Statecraft* 15.3 (2004) 50744-.

Aksakal, Mustafa, "The limits of diplomacy: The Ottoman Empire and the First World War," *Foreign Policy Analysis* 7 (2011) 197203-.

Aksakal, Mustafa, *The Ottoman Road to War in 1914: The Ottoman Empire and the First World War* (Cambridge: Cambridge University Press, 2008).

علي، تحسين. مذكرات تحسين علي، 1890-1970 (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2004).

Allawi, Ali. A, *Faisal I of Iraq* (new Haven, CT: Yale University Press, 2014).

Allen, W.E.D., and Paul Muratoff, *Caucasian Battlefields: A History of the Wars on the Turco-Caucasian Border, 18281921-* (Cambridge: Cambridge University Press, 1953).

Anderson, Scott, *Lawrence in Arabia: War, Deceit, Imperial Folly and the Making of the Modern Middle East* (london: Atlantic Books, 2014).

Anonymous, *Australia in Palestine* (Sydney: Angus & Robertson, 1919).

Anonymous, *Thawrat al-`Arab* [The Revolution of the Arabs] (Cairo: Matba`a al-Muqattam,

1916).

Anonymous, *The Kia Ora Coo-ee: The Magazine for the Anzacs in the Middle East, 1918* (Sydney:

Angus & Robertson, 1981).

Antonius, George, *The Arab Awakening* (London: Hamish Hamilton, 1938).

Arıkan, Ibrahim, *Harp Hatıralarım* [My War Memoirs] (Istanbul: Timaş Yayınları, 2007).

Arnoulet, François, "les Tunisiens et la Première Guerre Mondiale (19141918-),"[The Tunisians and the First World War] *Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée* 38 (1984) 4761-.

Arslan, Shakib, *Sira Dhatiyya* [Autobiography] (Beirut: dar al-Tali`a, 1969).

Askari, Jafar al-, *A Soldier's Story: From Ottoman Rule to Independent Iraq* (london: Arabian Publishing, 2003).

Aspinall-Oglander, C.F., *Military Operations: Gallipoli* (london: William Heinemann, 1929).

Association Nationale pour le souvenir des Dardanelles et fronts d'Orient, *Dardanelles, Orient, Levant, 19151921-* (Paris: l'Harmattan, 2005).

Atay, Falih Rıfkı, *Le mont des Oliviers: L'empire Ottoman et le Moyen-Orient* [The Mount of Olives: the Ottoman Empire and the Middle East], *19141918-* (Paris: Turquoise, 2009).

Atiyyah, Ghassan R., *Iraq, 19081921-: A Political Study* (Beirut: Arab Institute for Research and Publishing,1973).

Avcı, Halil Ersin, ed, *Çanakkale Şahitleri* [Martyrs of the dardanelles] (Istanbul: Paraf Yayınları, 2011).

عزاوي، عباس. تاريخ العراق بين الاحتلالين (بغداد: شركة التجارة والطباعة، 1956).

Balakian, Grigoris, *Armenian Golgotha: A Memoir of the Armenian Genocide, 1915-1918* (New York: Vintage, 2010).

Balakian, Peter, *Black Dog of Fate: A Memoir* (new York: Broadway, 1997). Balakian, Peter, *The Burning Tigris: The Armenian Genocide and America's Response* (New York: HarperCollins, 2003).

Barr, James, *Setting the Desert on Fire: T. E. Lawrence and Britain's Secret War in Arabia, 19161918-* (new York: W. W. Norton, 2008).

Behesnilian, Krikor, *Armenian Bondage and Carnage: Being the Story of Christian Martyrdom in Modern Times* (London: Gowans Bros, 1903).

Bekraoui, Mohamed, *Les Marocains dans la Grande Guerre 19141919-* [The Moroccans in the Great War] (Casablanca: Commission Marocaine d'Histoire Militaire, 2009).

Berkes, niyazi, *The Development of Secularism in Turkey* (new York: Routledge, 1998).

Bernard, Augustin, *L'Afrique du nord pendant la guerre* [north Africa during the war] (Paris:bles presses universitaires de France, 1926.

Bidwell, Robin, "The Brémond Mission in the Hijaz, 191617-: A Study in Inter-allied Co-operation," in Robin Bidwell and Rex Smith, eds, *Arabian and Islamic Studies* (London: Longman, 1983) 182195-.

Bidwell, Robin, "The Turkish Attack on Aden 19151918-," *Arabian Studies* 6 (1982) 171194-.

Blaser, Bernard, *Kilts Across the Jordan* (London: Witherby, 1926).

Bliss, Edwin M., *Turkey and the Armenian Atrocities* (London: T. Fisher Unwin, 1896).

Bloxham, Donald, *The Great Game of Genocide: Imperialism, Nationalism, and the Destruction of the Ottoman Armenians* (Oxford: Oxford University Press, 2005).

Braddon, Russell, *The Siege* (new York: Viking, 1969).

Brémond, Edourard, *Le Hedjaz dans la Guerre Mondiale* [The Hijaz in the World War] (Paris: Payot, 1931).

Brown, Judith, *Modern India: The Origins of an Asian Democracy*, 2nd ed. (Oxford: Oxford University Press, 1994).

Bruce, Anthony, *The Last Crusade: The Palestine Campaign in the First World War* (London: John Murray, 2002).

Buchan, John, *Greenmantle* (London: Hodder and Stoughton, 1916).

Bury, G. Wyman, *Arabia Infelix, or the Turks in Yamen* (London: Macmillan, 1915).

Bury, G. Wyman, *Pan-Islam* (London: Macmillan, 1919).

Busch, Briton Cooper, *Britain, India and the Arabs, 19141921-* (Berkeley: University of California Press, 1971).

Çakmak, Fevzi, *Büyük Harp'te Şark Cephesi Harekâtı* [Operations on the Eastern Front of the Great War] (Istanbul: Türkiye Iş Bankası Kültür Yayınları, 2011).

Campbell Begg, R., *Surgery on Trestles* (norwich: Jarrold & Sons, 1967).

Çanakkale Hatıraları [dardanelles Memoirs], 3 vols, (Istanbul: Arma Yayınları, 2001-2003).

Candler, Edmund, *The Long Road to Baghdad*, 2 vols, (London: Cassell, 1919).

Capitaine de Corvette X and Claude Farrère, "Journal de bord de l'expédition des Dardanelles (1915)," [Ship's log of the dardanelles expedition] *Les oeuvres libres* 17 (1922): 218229-.

Carver, Field Marshal lord, *The National Army Museum Book of the Turkish Frong, 191418-* (London: Pan, 2003).

Çetin, Fethiye, *My Grandmother: A Memoir* (London: Verso, 2008).

Chamberlin, Jan, *Shrapnel & Semaphore: A Signaller's Diary from Gallipoli* (Auckland: New Holland, 2008).

Charles-Roux, François, *L'expédition des Dardanelles au jour le jour* [day by day in the Dardanelles expedition] (Paris: Armand Colin, 1920).

Çiçek, M. Talha, *War and State Formation in Syria: Cemal Pasha's Governorate During World War I, 191417-* (London: Routledge, 2014).

Chehabi, H.E., "An Iranian in First World War Beirut: Qasem Ghani's Reminiscences," in H.E. Chehabi, ed, *Distant Relations: Iran and Lebanon in the last 500 years* (London: I.B. Tauris, 2006) 12032-.

Clunie, Kevin and Ron Austin, eds., *From Gallipoli to Palestine: The War Writings of Sergeant GT Clunie of the Wellington Mounted Rifles, 19141919-* (McCrae, Australia: Slouch Hat Publications, 2009).

Çöl, Emin, Çanakkale - Sina Savaşları: *Bir Erin Anıları* [The Wars in the dardanelles and Sinai: One man's memoirs] (Istanbul: nöbetçi Yayınevi, 2009).

Commandement de la IV Armée, *La verite sur la question syrienne* [The truth on the Syrian question] (Istanbul: Tanine, 1916).

Çulcu, Murat, *Ikdâm Gazetesi'nde Çanakkale Cephesi* [The dardanelles Front in the *Ikdâm* newspaper], 2 vols, (Istanbul: denizler Kitabevi, 2004).

Dadrian, Vahakn n., and Taner Akçam, *Judgment at Istanbul: The Armenian Genocide Trials* (New York: Berghahn Books, 2011).

دروزة، محمد عزت. نشأة الحركة العربية الحديثة (صيدا وبيروت: منشورات المكتبة العصرية، 1971).

Das, Santanu, ed, *Race, Empire and First World War Writing* (Cambridge: Cambridge University Press, 2011).

Davison, Roderic H., "The Armenian Crisis, 19121914-," *American Historical Review* 53 (April 1948): 481505-.

Dawn, C. Ernest, *From Ottomanism to Arabism: Essays on the Origins of Arab Nationalism* (Urbana: University of Illinois Press, 1973).

Dennis, Peter, et al., eds., *The Oxford Companion to Australian Military History* (Melbourne: Oxford University Press, 1995).

De Nogales, Rafael, *Four Years Beneath the Crescent* (new York: Charles Scribner's Sons, 1926).

Der-Garabedian, Hagop, *Jail to Jail: Autobiography of a Survivor of the 1915 Armenian Genocide* (New York: Universe, 2004).

Derogy, Jacques, *Opération némésis: Les vengeurs arméniens* [Operation nemesis: The Armenian Avengers] (Paris: Fayard, 1986).

Djemal Pasha, *Memories of a Turkish Statesman - 19131919-* (london: Hutchinson & Co, n.d.).

Douin, Georges, *L'attaque du canal de Suez (3 Février 1915)* [The attack on the Suez Canal] (Paris: Librairie Delagrave, 1922).

Ege, Abidin, *Harp Günlükleri* [War diaries], (Istanbul: Türkiye Iş Bankası Kültür Yayınları, 2010).

Egyptian delegation to the Peace Conference, *White Book: Collection of Official Correspondence from November 11, 1918 to July 14, 1919* (Paris: Privately printed, 1919).

Elgood, P.G., *Egypt and the Army* (Oxford: Oxford University Press, 1924).

Elliot, B.A., *Blériot: Herald of an Age* (Stroud, UK: Tempus, 2000).

Emin, Ahmed, *Turkey in the World War* (new Haven, CT: Yale University Press, 1930).

Enver Paşa, *Kendi Mektuplarinda Enver Paşa* [Enver Pasha in His Own letters], M. Sükrü Hanioğlu, ed. (Istanbul: der Yayinlari, 1989).

Erden, Ali Fuad, *Paris'ten Tih Sahrasına* [From Paris to the desert of Tih] (Ankara: Ulus Basımevi, 1949).

Erickson, Edward J., *Gallipoli and the Middle East, 19141918-: From the Dardanelles to Mesopotamia* (London: Amber Books, 2008).

Erickson, Edward J., *Gallipoli: The Ottoman Campaign* (Barnsley, UK: Pen & Sword Military, 2010.

Erickson, Edward J., *Ordered to Die: A History of the Ottoman Army in the First World War* (Westport, CT: Greenwood Press, 2001).

Essayan, Zabel, *Dans les ruines: Les massacres d'Adana, avril 1909* [In the Ruins: The Adana Massacres, April 1909] (Paris: Libella, 2011).

Eti, Ali Rıza, *Bir Onbaşının doğu cephesi günlüğü* [diary of a corporal on the Eastern Front], 19141915- (Istanbul: Türkiye Iş Bankası Kültür Yayınları, 2009).

Evans-Pritchard, E.E. *The Sanusi of Cyrenaica* (Oxford: Oxford University Press, 1954).

Falls, Cyril, *Armageddon, 1918: The Final Palestinian Campaign of World War I* (Philadelphia: University of Pennsylvania, 2003).

Falls, Cyril and A.F. Becke, *Military Operations, Egypt and Palestine from June 1917 to the End of the War* (london: H.M.S.O., 1930).

Fasih, Mehmed, *Gallipoli 1915: Bloody Ridge (Lone Pine) Diary of Lt. Mehmed Fasih* (Istanbul: Denizler Kitabevi, 2001).

فيضي، باسل سليمان (إعداد). مذكرات سليمان فيضي (لندن: دار الساقي، 1998).

Fenwick, Percival, *Gallipoli Diary* (Auckland: David ling, n.d.).

Findlay, J.M., *With the 8th Scottish Rifles, 19141919-* (London: Blockie, 1926).

Ford, Roger, *Eden to Armageddon: World War I in the Middle East* (New York: Pegasus Books, 2010).

Francis, Richard M., "The British Withdrawal from the Bagdad Railway Project in April 1903," *The Historical Journal* 16.1 (1973) 16878-.

Fromkin, David, *A Peace to End All Peace: Creating the modern Middle East, 1914-1922* (London: Andre Deutsch, 1989).

Georgeon, François, *Abdulhamid II: le sultan calife* (Paris : Fayard, 2003).

Ghusein, Fâ'iz El-, *Martyred Armenia* (London : C. Arthur Pearson, 1917).

Gingeras, Ryan, *Sorrowful Shores: Violence, Ethnicity, and the End of the Ottoman Empire* (Oxford: Oxford University Press, 2009).

القسوس، عودة. مذكرات عودة سلمان القسوس الهلسا، 1877-1943 (عمان: 2006).

Graves, Philip, *The Life of Sir Percy Cox* (London: Hutchinson, 1941).

Grey, Jeffrey, *A Military History of Australia*, 3rd ed. (Cambridge: Cambridge University Press, 2008).

Guépratte, P.E., *L'expédition des Dardanelles, 19141915-* [The Dardanelles expedition] (Paris: 1935).

Gullett, H. S., and Chas. Barrett, eds., *Australia in Palestine* (Sydney: Angus & Robertson, 1919).

Günay, Selahattin, *Bizi kimlere bırakıp gidiyoursun türk? Suriye ve Filistin anıları* [To whom are you going to leave us, Turk? Memoirs of Syria and Palestine] (Istanbul: Türkiye Iş Bankası Kültür Yayınları, 2006).

Hadj, Messali, *Les mémoires de Messali Hadj, 18981938-* [The memoirs of Messali Hadj] (Paris: J. C. Lattès, 1982).

Hamilton, Ian, *Gallipoli Diary*, 2 vols (new York: George H. Doran, 1920).

Hamilton, Jill, *From Gallipoli to Gaza: The Desert Poets of World War One* (Sydney: Simon & Schuster Australia, 2003).

Hammond, J.M., *Battle in Iraq: Letters and diaries of the First World War* (London: The Radcliffe Press, 2009).

Hanioğlu, M. Sükrü, ed., *Kendi Mektuplarinda Enver Paşa* [Enver Pasha in His Own letters] (Istanbul: der Yayinlari, 1989).

Hanioğlu, M. Sükrü, *Preparation for a Revolution: The Young Turks, 19021908-* (New York: Oxford University Press, 2001).

Harper, Glyn, ed., *Letters from Gallipoli: New Zealand Soldiers Write Home* (Auckland: Auckland University Press, 2011).

الحسني، عبد الرزاق. العراق في دوري الاحتلال والانتداب (صيدا: العرفان، 1935).

Haynes, Jim, ed., *Cobbers: Stories of Gallipoli 1915* (Sydney: ABC Books, 2005).

Heine, Peter, "Salih Ash-Sharif at-Tunisi, a north African nationalist in Berlin during the First World War," *Revue de l'Occident musulman et de la Mediterranée* 33 (1982): 8995-.

Herbert, A.P., *The Secret Battle* (London: Methuen, 1919).

Herbert, Aubrey, *Mons, Anzac and Kut* (london: Hutchinson, 1919, rpt 1930).

Hogarth, D.G., "The Refugees from Es-Salt," *Arab Bulletin* (21 April 1918).

Holland, Robert, "The British Empire and the Great War, 19141918-," in Judith Brown and Roger Louis, eds,, *The Oxford History of the British Empire*, vol. 4: *The Twentieth Century* (Oxford: Oxford University Press, 1999).

Hopkirk, Peter, *On Secret Service East of Constantinople: The Plot to Bring Down the British Empire* (London: John Murray, 2006).

Hovannisian, Richard G., ed, *Armenian Van/Vaspurakan*, (Costa Mesa, CA: Mazda, 2000).

Hovannisian, Richard G., ed, *The Armenian Genocide: History, politics, ethics* (Houndmills: Macmillan, 1992).

Hurewitz, J.C. , ed., *The Middle East and North Africa in World Politics*, 2 vols (New Haven and London: Yale University Press, 1975, 1978).

Hynes, James Patrick, *Lawrence of Arabia' Secret Air Force* (Barnsley UK: Pen & Sword, 2010).

Ihsanoglu, Ekmeleddin, *The Turks in Egypt and their Cultural Legacy* (Cairo: American University in Cairo Press, 2012).

Ilden, Köprülülü Şerif, *Sarıkamış* (Istanbul: Türkiye Iş Bankası Kültür Yayınları, 1999).

Inchbald, Geoffrey, *With the Imperial Camel Corps in the Great War* (Milton Keynes, UK: Leonaur, 2005).

Istekli, Bahtiyar, ed, *Bir teğmenin doğu cephesi günlüğü* [diary of a lieutenant on the Eastern Front] (Istanbul: Türkiye Iş Bankası Kültür Yayınları, 2009).

Jacob, Harold F., *Kings of Arabia: The Rise and Set of the Turkish Sovranty in the Arabian Peninsula* (London: Mills & Boon, 1923).

Jacobson, Abigail, *From Empire to Empire: Jerusalem Between Ottoman and British Rule* (Syracuse: Syracuse University Press, 2011).

جميل، حسين. العراق: شهادة سياسية، 1908-1930 (لندن: دار اللام، 1987).

جودت، علي. ذكريات، 1900-1958 (بيروت: الوفاء، 1967).

Jones, E.H., *The Road to En-Dor* (London: John lane The Bodley Head, 1921).

Jones, Ian, *The Australian Light Horse* (Sydney: Time-life Books [Australia], 1987).

Kaligian, Dikran Mesrob, *Armenian Organization and Ideology under Ottoman Rule, 19081914-* (New Brunswick and London: Transaction Publishers, 2011).

Kannengiesser, Hans, *The Campaign in Gallipoli* (London: Hutchinson & Co., n.d.).

Karakışla, Yavuz Selim, *Women, war and work in the Ottoman Empire: Society for the Employment of Ottoman Muslim Women, 19161923-* (Istanbul: Ottoman Bank Archive and Research Centre, 2005).

Keogh, E. G., *The River in the Desert* (Melbourne: Wilke & Co., 1955).

Khoury, Dina Rizk, "Ambiguities of the Modern: The Great War in the Memoirs and Poetry of the Iraqis," in Heike Liebau, Katrin Bromber, Katharina Lange, Dyala Hamzah and Ravi Ahuja, eds, *The World in World Wars: Experiences, Perceptions and Perspectives from Africa and Asia* (Leiden and Boston: Brill, 2010) 31340-.

الخوري، ق.ب. . الرحلة السورية في الحرب العمومية، 1916 (القاهرة: المكتبة اليوسفية، 1921).

King Abdullah of Transjordan, *Memoirs of King Abdullah of Transjordan* (New York: Philosophical Library, 1950).

King, Jonathan, *Gallipoli Diaries: The Anzac's own story day by day* (Sydney: Simon & Schuster, 2003).

Kinloch, Terry, *Devils on Horses: In the Words of the Anzacs in the Middle East, 1916-19* (Auckland: Exisle Publishing, 2007).

Kirkbride, Alec, *An Awakening: The Arab Campaign, 191718-* (Tavistock: University Press of Arabia, 1971).

Kitchen, James E., *The British Imperial Army in the Middle East: Morale and Military Identity in the Sinai and Palestine Campaigns, 191618-* (London: Bloomsbury, 2014).

Köroğlu, Erol, *Ottoman Propaganda and Turkish Identity: Literature in Turkey during World War I* (London: I.B. Tauris, 2007).

Kundar, Ravinder, "The Records of the Government of India on the Berlin-Baghdad Railway Question," *The Historical Journal* 5.1 (1962) 7079-.

Larcher, M., *La guerre turque dans la guerre mondiale* [The Turkish War in the World War] (Paris: Etienne Chiron et Berger-levrault, 1926).

Laurens, Henry, "Jaussen et les services de renseignement français (19151919-)," in Géraldine Chatelard and Mohammed Tarawneh, eds, *Antonin Jaussen: Sciences sociales occidentales et patrimoine arabe* [Western social science and Arab patrimony] (Amman: CERMOC, 1999), 2335-.

Lawrence, T.E., *Oriental Assembly* (London: Williams and Norgate, 1939).

Lawrence, T.E., *Seven Pillars of Wisdom: A Triumph* (new York: Doubleday, Doran & Co., 1936).

Lawrence, T.E., "Tribal Politics in Feisal's Area," *Arab Bulletin Supplementary Papers* 5 (24 June 1918): 15-.

Leclerc, Christophe, *Avec T. E. Lawrence en Arabie: La mission militaire francaise au Hedjaz, 19161920-* [With T.E. Lawrence in Arabia: the French military mission to the Hijaz] (Paris: l'Harmattan, 1998).

Lehuraux, léon, *Chants et chansons de l'Armée d'Afrique* [Songs of the Army of Africa] (Algiers: P. & G. Soubiron, 1933).

Leymonnerie, Jean, *Journal d'un poilu sur le front d'orient* [diary of a French soldier on the Eastern front] (Paris: Pygmalion, 2003).

Liman von Sanders, Otto, *Five Years in Turkey* (Annapolis, Md: US naval Institute, 1927).

Long, P.W., *Other Ranks of Kut* (London: Williams and Norgate, 1938).

Lüdke, Tilman, *Jihad Made in Germany: Ottoman and German Propaganda and Intelligence Operations in the First World War* (Münster: lit Verlag, 2005).

Lynch, H.F.B., *Armenia : Travels and Studies, vol. 2: The Turkish Provinces* (London: Longmans, Green and Co, 1901).

Lyster, Ian, ed., *Among the Ottomans: Diaries from Turkey in World War I* (London: I.B.Tauris, 2010).

MacMillan, Margaret, *Peacemakers: The Paris Conference of 1919 and Its Attempt to End War* (London: John Murray, 2001).

MacMillan, Margaret, *The War that Ended Peace: How Europe Abandoned Peace for the First World War* (London: Profile, 2013).

MacMunn, George and Cyril Falls, *Military Operations: Egypt and Palestine from the Outbreak of War with Germany to June 1917* (London: H.M.S.O., 1928).

Maghraoui, driss, "The 'Grande Guerre Sainte': Moroccan Colonial Troops and Workers in the First World War," *The Journal of North African Studies* 9.1 (Spring 2004) 121-.

Mahari, Gurgen, *Burning Orchards* (n.p.: Apollo Press, 2007).

Mango, Andrew, *Atatürk* (London: John Murray, 1999).

Massey, W.T., *Allenby's Final Triumph* (London: Constable, 1920).

Massey, W. T., *The Desert Campaigns* (London: Constable, 1918).

Mazza, Roberto, ed, *Jerusalem in World War I: The Palestine Diary of Consul Conde de Ballobar* (London: I.B. Tauris, 2011).

McCarthy, Justin, *Muslims and Minorities: The Population of Ottoman Anatolia and the End*

of the Empire (New York: New York University Press, 1983).

McCarthy, Justin, Esat Arslan, Cemalettin Taşkıran and Ömer Turan, *The Armenian Rebellion at Van* (Salt lake City: University of Utah Press, 2006).

Mcdougall, James, *History and the Culture of Nationalism in Algeria* (Cambridge: Cambridge University Press, 2006).

McMeekin, Sean, *The Berlin-Baghdad Express: The Ottoman Empire and Germany's Bid for World Power, 18981918-* (London: Allen lane, 2010).

McMeekin, Sean, *The Russian Origins of the First World War* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2011).

McQuaid, Kim, *The Real and Assumed Personalities of Famous Men: Rafael de Nogales, T. E. Lawrence, and the Birth of the Modern Era, 19141937-* (London: Gomidas Institute, 2010).

Mélia, Jean, *L'Algérie et la guerre (19141918-)* [Algeria and the war] (Paris: Plon, 1918).

Mennerat, *Tunisiens héroïques au service de la France* [Heroic Tunisians in the service of France] (Paris: Berger-Levrault, 1939).

Menteşe, Halil, *Osmanli Mebusan Meclisi Reisi Halil Menteşe'nin Anilari* [Memoirs of the Speaker of the Ottoman Parliament Halil Menteşe] (Istanbul: Amaç Basimevi, 1996).

Mentiplay, Cedric, *A Fighting Quality: New Zealanders at War* (Wellington: A. H. & A. W. Reed, 1979).

Meynier, Gilbert, *L'Algérie révélée: La guerre de 19141918- et le premier quart du XXe siècle* [Algeria revealed: the war of 19141918- and the first quarter of the 20th century] (Geneva: Droz, 1981).

Miquel, Pierre, *Les poilus d'Orient* [French Soldiers of the East] (Paris: Arthème Fayard, 1998).

Mission Scientifique du Maroc, *Les Musulmans Francais et la Guerre* [French Muslims and the War], special issue of *Revue du Monde Musulman* 29 (December 1914).

Moberly, F.J., *The Campaign in Mesopotamia, 1914*4 *,1918-* vols. (London: H.M.S.O., 19231927-).

Moore, A. Briscoe, *The Mounted Riflemen in Sinai and Palestine* (Auckland: Whitcombe and Tombs, n.d. [1920]).

Morgenthau, Henry, *Ambassador Morgenthau's Story* (Ann Arbor MI: Gomidas Institute, 2000) rpt 1918 edition.

Mortlock, Michael J., *The Egyptian Expeditionary Force in World War I* (Jefferson NC: Mc-Farland, 2011).

Mouseley, E.O., *The Secrets of a Kuttite* (London: John lane The Bodley Head, 1921).

موسى، سليمان. الثورة العربية الكبرى؛ وثائق وأسانيد (عمان: دائرة الثقافة والفنون، 1966).

مشتاق، طالب. أوراق أيامي، 1900-1958 (بيروت: دار الطليعة، 1968).

Nevinson, Henry W., *The Dardanelles Campaign* (London: Nisbet & Co., 1918).

Nicol, C.G., *Story of Two Campaigns: Official War History of the Auckland Mounted Rifles Regiment, 19141919-* (Auckland: Wilson and Horton, 1921).

Öklem, necdet, *1. Cihan Savaşı ve Sarıkamış* [The First World War and Sarikamiş] (Izmir: Bilgehan Basımevi, 1985).

Omissi, David, ed, *Indian Voices of the Great War: Soldiers' Letters, 191418-* (Houndmills: Palgrave Macmillan, 1999).

Oral, Haluk, *Gallipoli 1915 Through Turkish Eyes* (Istanbul: Bahcesehir University Press, 2012).

Oran, Baskın, *MK: Récit d'un déporté arménien 1915* [M. K.: narrative of an Armenian deportee, 1915] (Paris: Turquoise, 2008).

Orga, Irfan, *Portrait of a Turkish Family* (1950; rpt. London: Eland, 1988).

Özdemir, Bülent, *Assyrian Identity and the Great War: Nestorian, Chaldean and Syrian Christians in the 20th Century* (Dunbeath, UK: Whittles Publishing, 2012).

Özdemir, Hikmet, *The Ottoman Army, 19141918-: Disease and Death on the Battlefield* (Salt Lake City: University of Utah Press, 2008).

Özgen, Mehmet Sinan, *Bolvadinli Mehmet Sinan Bey'in harp hatiralari* [Bolvadinli Mehmet Sinan Bey's War Memoirs], (Istanbul: Türkiye İş Bankası Kültür Yayınları, 2011).

Pamuk, Şevket, "The Ottoman Economy in World War I," in Stephen Broadberry and Mark Harrison, eds, *The Economics of World War I* (Cambridge: Cambridge University Press, 2005).

Parker, Gilbert, *Soldiers and Gentlemen* (Privately printed, 1981).

Pati, Budheswar, *India and the First World War* (New Delhi: Atlantic Publishers, 1996).

Patterson, J.H., *With the Judaeans in the Palestine Campaign* (London: Hutchinson, 1922).

Perreau-Pradier, Pierre and Maurice Besson, *L'Afrique du Nord et la Guerre* [north Africa and the War] (Paris: Félix Alcan, 1918).

Perry, Roland, *The Australian Light Horse* (Sydney: Hachette Australia, 2009).

Philips, Jock, Nicholas Boyack and E.P. Malone, eds, *The Great Adventure: New Zealand Soldiers Describe the First World War* (Wellington NZ: Allen & Unwin, 1988).

Philips Price, M., *War and Revolution in Asiatic Russia* (London: George Allen & Unwin, 1918).

Powles, C. Guy, *The New Zealanders in Sinai and Palestine* (Auckland: Whitcombe and Tombs, 1922).

Price, M. Philips, *War and Revolution in Asiatic Russia* (London: George Allen & Unwin ltd., 1918).

Pugsley, Christopher, *Gallipoli: The New Zealand Story* (Auckland: Sceptre, 1990).

Pugsley, Christopher, *The ANZAC Experience: New Zealand, Australia and Empire in the First World War* (Auckland: Reed, 2004).

القادري، أحمد. **مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى** (دمشق: ابن زيدون، 1956).

Qattan, najwa al-, "Safarbarlik: Ottoman Syria and the Great War," in Thomas Philipp and Christoph Schumann, eds, *From the Syrian Land to the States of Syria and Lebanon* (Beirut: Orient-Institute, 2004), 163174-.

Reid, Frank, *The Fighting Cameliers* (1934; rpt. Milton Keynes, UK: Leonaur, 2005).

Rémond, Georges, *Aux campes turco-arabes: notes de route et de guerre en Tripolitaine et en Cyréanaique* [In the Turco-Arab camps : notes on the course of war in Tripolitania and in Cyrenaica] (Paris : Hachette, 1913).

Reynolds, Michael A., *Shattering Empires: The Clash and Collapse of the Ottoman and Russian Empires, 19081918-* (Cambridge: Cambridge University Press, 2011).

رضا، أحمد. **حوادث جبل عامل، 1914-1922** (بيروت: دار النهار، 2009).

Rogan, Eugene, *Frontiers of the State in the Late Ottoman Empire: Transjordan, 1851-1920* (Cambridge: Cambridge University Press, 1999).

Rogan, Eugene, *The Arabs: A History* (new York: Basic Books, 2009; London: Allen lane, 2009).

Ruiz, Mario M, "Manly Spectacles and Imperial Soldiers in Wartime Egypt, 1914-1919," *Middle Eastern Studies* 45.3 (2009) 35171-.

Rumbold, Algernon, *Watershed in India, 19141922-* (London: Athlone Press, 1979).

Rush, Alan, ed, *Records of Iraq, 19141966-, vol. 1 : 19141918-* (Cambridge: Archive Editions, 2001).

Sâbis, Ali Ihsan, *Birinci Dünya Harbi : Harp Hatırlaraım* [The First World War : My War Memoirs], 4 vols. (Istanbul : nehir Yayınları, 1991).

السكاكيني، خليل. يوميات خليل السكاكيني، 1914-1918 (القدس: معهد القدس للدراسات، 2004).

سالم، لطيفة محمد. مصر في الحرب العالمية الأولى (القاهرة: دار الشروق، 2009).

Sandes, E.W.C., *In Kut and Captivity with the Sixth Indian Division* (London: John Murray, 1919).

Satia, Priya, *Spies in Arabia : The Great War and the Cultural Foundations of Britain's Covert Empire in the Middle East* (Oxford : Oxford University Press, 2008).

Schilcher, Linda Schatkowski, "The Famine of 19151918- in Greater Syria," in John Spagnolo, ed, *Problems of the Modern Middle East in Historical Perspective* (Reading, UK: Ithaca Press, 1992), 229258-.

Schneer, Jonathan, *The Balfour Declaration: The Origins of the Arab Israeli Conflict* (New York: Random House, 2010).

Scott, Keith Douglas, *Before ANZAC, Beyond Armistice: The Central Otago Soldiers of World War One and the Home they Left Behind* (Auckland: Activity Press, 2009).

Segev, Tom, *One Palestine, Complete: Jews and Arabs under the British Mandate* (London: Abacus Books, 2001).

Seward, Desmond, *Wings over the Desert: In Action with an RFC Pilot in Palestine, 19161918-* (Sparkford, UK: Haynes Publishing, 2009).

Shadbolt, Maurice, *Voices of Gallipoli* (Auckland: Hodder and Stoughton, 1988).

شفيق، أحمد. حوليات مصر السياسية (القاهرة: مطبعة شفيق باشا، 1926).

Shaw, Stanford J., and Ezel Kural Shaw, *History of the Ottoman Empire and Modern Turkey, vol. 2: Reform, Revolution and Republic* (Cambridge: Cambridge University Press, 1977).

Sheffy, Yigal and Shaul Shai, eds, *The First World War: Middle Eastern Perspective* (Tel Aviv: Proceedings of the Israeli-Turkish International Colloquy, 2000).

Smith, Michael, *Fiery Ted, Anzac Commander* (Christchurch NZ: Privately printed, 2008).

Soualah, Mohammed, "Nos troupes d'Afrique et l'Allemagne," [Our African troops and Germany] *Revue Africaine* 60 (1919) 494520-.

Spackman, W.C., *Captured at Kut: Prisoner of the Turks* (Barnsley, UK: Pen & Sword, 2008).

Stavrianos, I. S., *The Balkans since 1453* (London: Hurst, 2000).

Stevenson, David, *19141918-: The History of the First World War* (London: Penguin, 2005).

Storrs, Ronald, *Orientations* (London: Readers Union, 1939).

Strachan, Hew, ed, *The Oxford Illustrated History of the First World War* (Oxford: Oxford University Press, 2000).

Strachan, Hew, *The First World War*, vol. 1: *To Arms* (Oxford: Oxford University Press, 2001).

Strachan, Hew, *The First World War* (London: Pocket Books, 2006).

Sunata, I. Hakkı, *Gelibollu'dan kafkaslara: Birinci Dünya Savaşı anılarım* [From Gallipoli to the Caucasus: My First World War memoirs] (Istanbul: Türkiye Iş Bankası Kültür Yayınları, n.d.).

Suny, Ronald Grigor, Fatma Muge Gocek and Morman M. naimark, eds, *A Question of Genocide: Armenians and Turks at the End of the Ottoman Empire* (Oxford: Oxford University Press, 2011).

Suwaydi, Tawfiq al-, *My Memoirs: Half a Century of the History of Iraq and the Arab Cause* (Boulder, CO: Lynne Reiner, 2013).

Tamari, Salim, "Shifting Ottoman Conceptions of Palestine, Part 1: *Filastin Risalesi* and the two Jamals," *Jerusalem Quarterly* no. 47 (2011) 2838-.

Tamari, Salim, "With God's Camel in Siberia: The Russian Exile of an Ottoman Officer from Jerusalem," *Jerusalem Quarterly* no. 35 (2008) 3150-.

Tamari, Salim, *Year of the Locust: A Soldier's Diary and the Erasure of Palestine's Ottoman Past* (Berkeley: University of California Press, 2011).

Tamari, Salim and Issam Nassar, eds, *The Storyteller of Jerusalem: The Life and Times of Wasif Jawhariyyeh, 19041948-* (Northampton MA: Olive Branch Press, 2014).

Tauber, Eliezer, *The Emergence of the Arab Movements* (London: Frank Cass, 1993).

Tergeman, Siham, *Daughter of Damascus* (Austin: Center for Middle Eastern Studies, 1994).

Tetik, Ahmet, Y. Serdar demirtaş and Sema demirtaş, eds, *Çanakkale Muharabeleri'nin Esirleri-Ifadeler ve Mektuplar* [Prisoners of War at the Çanakkale Battles-Testimonies and letters], 2 vols (Ankara: Genelkurmay Basimevi, 2009).

Torau-Bayle, X., *La campagne des Dardanelles* [The Dardanelles Campaign] (Paris: E. Chiron, 1920).

Townshend, Charles, *When God Made Hell: The British Invasion of Mesopotamia and the Creation of Iraq, 19141921-* (London: Faber and Faber, 2010).

Tozer, Henry Fanshawe, *Turkish Armenia and Eastern Asia Minor* (London: Longmans, Green and Co, 1881).

Travers, Tim, *Gallipoli 1915* (Stroud, UK: Tempus, 2004).

Trumpener, Ulrich, *Germany and the Ottoman Empire, 19141918-* (Princeton: Princeton University Press, 1968).

Ulrichsen, Kristian Coates, *The First World War in the Middle East* (London: Hurst and Company, 2014).

Uyar, Mesut, "Ottoman Arab Officers between nationalism and loyalty during the First World War," *War in History* 20.4 (2013) 52644-.

Üzen, Ismet, *1. Dünya Harbinde Sina Cephesi ve Çöl Hatıraları* [Memoirs of the desert and Sinai Front in the First World War] (Istanbul: Selis Kitaplar, 2007).

Uzuner, Buket, *The Long White Cloud—Gallipoli* (Istanbul: Everest, 2002).

Waite, Fred, *The New Zealanders at Gallipoli* (Auckland: Whitcombe and Tombs, 1919).

الوردي، علي. لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث (بغداد: المكتبة الوطنية، 1974).

Weizmann, Chaim, *Trial and Error* (new York: Harper and Brothers, 1949).

Westlake, Ray, *British Regiments at Gallipoli* (London: Leo Cooper, 1996).

Wilcox, Ron, *Battles on the Tigris: The Mesopotamian Campaign of the First World War* (Barnsley, UK: Pen & Sword Books, 2006).

Wilkie, A.H. *Official War History of the Wellington Mounted Rifles Regiment* (Auckland: Whitcombe and Tombs, 1924).

Wilson, Arnold T., *Loyalties Mesopotamia, 19141917-* (London: Oxford University Press, 1936).

Wilson, Jeremy, *Lawrence of Arabia: The Authorised Biography of T.E. Lawrence* (London: Heinemann, 1989).

Wilson, Robert, *Palestine 1917* (Tunbridge Wells: Costello, 1987).

Witts, Frederick, *The Mespot Letters of a Cotswold Soldier* (Chalford, UK: Amberley, 2009).

Woodward, David R., *Hell in the Holy Land: World War I in the Middle East* (Lexington: University of Kentucky, 2006).

Yergin, Daniel, *The Prize* (New York: Free Press, 1992).

Young, Hubert, *The Independent Arab* (London: John Murray, 1933).

Younghusband, George, *Forty Years a Soldier* (London: Herbert Jenkins, 1923).

Zeine, Zeine n., *The Emergence of Arab Nationalism*, 3rd ed. (New York: Caravan Books, 1973).

Zürcher, Erik Jan, "Between death and desertion: The Experience of the Ottoman Soldier in World War I," *Turcica* 28 (1996): 235258-.

Zürcher, Erik Jan, *Turkey: A Modern History* (London: I.B. Tauris, 1993).

الصور

1- منارة أطلق منها الترك النار على المسيحيين.

George Grantham Bain Collection, Prints & Photographs division, library of Congress (hereafter Bain Collection library of Congress), lC-dIG-ggbain-50066.

2- التجنيد للمشاركة في "الجهاد" بالقرب من طبريا.

WW1 in Palestine and Syria, Prints & Photographs division, library of Congress, lC-dIG-ppmsca-13709-00009.

3- أسرى في زوسن.

Bain Collection, library of Congress, LC-DIG-ggbain-13709-00009.

4- أسرى عثمانيون في أرداهان.

Photo by Roger Viollet/Getty Images, 159147188.

5- جنود عثمانيون في فلسطين قبل الهجوم الأول على قناة السويس.

Middle East Centre Archive, St Antony's College, Oxford, Saunders Collection, Alb 5-4-003.

6- بطارية تركية في غاليبولي.

Bain Collection, Library of Congress, lC-DIG-ggbain-20341.

7- إغراق المدمرة (*Irresistible*).

Bain Collection, Library of Congress, lC-USZ62-110854.

8- الجنود الأستراليون ينزلون على شاطئ "أنزاك كوف" صباح يوم 25 أبريل 1915.

Imperial War Museum, Q 112876.

9- مصطفى كمال في غاليبولي.

Imperial War Museum, Q 101744.

10- غريغوريس بالاكيان، 1913.

Permission of Peter Balakian, Balakian Family Archive.

11- محمد طلعت باشا، 1915.

General Photographic Agency/Hulton Archive/Getty Images, #52782735.

12- أرامل أرمنيات، تركيا، سبتمبر 1915.

Bain Collection, Library of Congress, LC-DIG-ggbain-03954.

13- إنزال قطعة مدفعية إلى البر في غاليبولي.

Bain Collection, Library of Congress, LC-DIG-ggbain-19425.

14- جنود أتراك في غاليبولي.

Bain Collection, Library of Congress, LC-DIG-ggbain-20342.

15- جنود الفيلق الأسترالي-النيوزيلندي يشنون هجوماً بالحراب في غاليبولي.

Imperial War Museum, Q 13659.

16- جندي من المشاة الإيرلنديين يرفع خوذته على بندقيته فوق الخندق لإغاظة القناصة الترك في غاليبولي.

Imperial War Museum, Q 13447.

17- إجلاء المدافع والجنود عن "سوفلا"، ديسمبر 1915.

Imperial War Museum, Q 13637.

18- جسر قوارب بريطاني على الفرات قرب الناصرية.

Imperial War Museum, Q 34379.

19- المشاة الأتراك في الرافدين يشنون هجوماً مضاداً.

Imperial War Museum, HU 94153.

20- أحد الناجين من حصار الكوت وقد بدا عليه الهزال نتيجة سوء التغذية.

Imperial War Museum, Q 79446.

21- الشريف حسين أمير مكة (1931-؟1954).

Imperial War Museum, Q 59888.

22- أنور باشا وجمال باشا في القدس، فبراير 1916.

World War I in Palestine and Syria, Prints & Photographs division, library of Congress, lC-dIG-ppmsca-13709-00069.

23- معسكر الأمير فيصل، قرية المبارك بالقرب من ينبع.

Imperial War Museum, Q 58838.

24- هجوم الخيالة العثمانيين.

World War I in Palestine and Syria, Prints & Photographs division, library of Congress, lC-DIG-ppmsca-13709-00187.

25- سقوط بغداد.

Imperial War Museum, Q 24196.

26- راية الفرقة القتالية التي قدمت إلى القوات العثمانية الظافرة بعد معركة غزة الأولى، مارس 1917.

Middle East Centre Archive, St Antony's College, Oxford, Estelle Blyth Collection, PA-1-995-006.

27- فيلق الهجانة الامبراطوري في سيناء.

Imperial War Museum, Q 105525.

28- من الدبابات البريطانية المدمرة في معركة غزة الثانية.

G. Eric and Edith Matson Photograph Collection, Prints & Photographs division, Library of Congress, lC-DIG-matpc-05792 and lC-dIG-matpc-05793.

29- دخول القوات العربية إلى العقبة، 6 يوليو 1917.

Imperial War Museum, Q 59193.

30- أطلال مسجد غزة، 1917.

Middle East Centre Archive, St Antony's College, Oxford, Estelle Blyth Collection, PA-1-995-016.

31- رئيس بلدية القدس يقابل الجنود البريطانيين لأول مرة، 9 ديسمبر 1917.

Middle East Centre Archive, St Antony's College, Oxford, Jerusalem and East Mission Slide B ox4-022.

32 - بيان الجنرال اللنبي الذي أعلنه في القدس المحتلة.

Middle East Centre Archive, St Antony's College, Oxford, PA-1-603-001.

33 - أسرى عثمانيون بالقرب من طولكرم، فلسطين، 22 سبتمبر 1918.

Imperial War Museum, Q 12326.

34 - لواء الفرسان الأسترالي الخفيف (الثاني) يدخل دمشق.

Imperial War Museum, Q 12379.

35 - خيالة من الجيش العربي يدخلون دمشق، 1 أكتوبر 1918.

Imperial War Museum, Q 105670.

36 - إعلان الهدنة وسط بغداد، 31 أكتوبر 1918.

Middle East Centre Archive, St Antony's College, Oxford, Bowman Collection, Album 2-05-2.

37 - الأمير فيصل في مؤتمر الصلح في باريس، 1919.

Imperial War Museum, Q 105615.

الفهرس

ا

ت

ث

ق

ك

ل

ن



"**سقوط العثمانيين** سرد قصصي باهر، ومثير، وملون، وحاشد بالشخصيات المتوهّجة. إنه دراسة معرفية متكاملة تُلقي الضوء على المسرح المهمل للحرب العالمية الأولى على جبهات الشرق الأدنى... وتحليل كاشف يفسر ملامح الشرق الأوسط الحديث".

سايمون مونتفيوري

مؤلّف كتاب القدس: السيرة الذاتية

"يفتح الكتاب نافذة تطلّ على فصول مهمّة في تشكيل الشرق الأوسط، إضافة إلى تاريخ الحرب العظمى، ليجمع معاً التفاصيل الشخصية النابضة بالحياة مع بانوراما تاريخية واسعة الطيف لمعاناة البشر وبطولتهم، وعجز قادة أركان الجيوش وحماقتهم، ومكائد القوى الكبرى".

رشيد خالدي

مؤلّف كتاب انبعاث الإمبراطورية: بصمات غربية ومسار أميركا الخطر في الشرق الأوسط

"إن كان التاريخ ذاكرة فهذه الذاكرة بحاجة إلى حسن إدارة، وإذا كان عملاً مستقبلياً فإنه يحتاج إلى الحذر في التعامل مع أسلحته، وإن كان دروساً فهو يحتاج إلى التصديق، والتكذيب أيضاً، وإن كان تقدّماً فيحتاج إلى التوجيه، وإن كان رجوعاً فإنه يحتاج إلى الخلاص من كثير من أثقاله... وللحقّ فإن المؤلّف هنا كان أكثر اعتدالاً في تناوله عدداً من القضايا التاريخية، ويبقى ابن أمته وسلالة محاربين لقضاياها، ولكنه أدرك حقاً بعض مخاطر التاريخ، فلم يتساهل ولم يَنقَد تماماً للغة سابقيه".

محمد الأحمري

مقدمة الناشر



هاتف: 44080451 974+ فاكس: 44080470 974+ صندوق بريد: 12231
الموقع الإلكتروني: fairforum.org البريد الإلكتروني: info@fairforum.org
العنوان: مبنى رقم 28، المؤسسة العامة للحي الثقافي (كتارا)، الدوحة، قطر

السعر:
60 ريالاً قطرياً - 16 دولاراً
ISBN: 978-9927-126-42-0

